الْعِلْمُ وَبِنَـاءُ الأُمَم

دِرَاسَةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ لِدَوْرِ الْعِلْمِ فِي بِنَاءِ الدَّوْلَة

د. راغب السرجاني

المشرف على موقع قصة الإسلام

www.islamstory.com

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أمّا بعد..

فأمة الإسلام أمة عظيمة!!

هذه حقيقة لا ينكرها إنسان.. وكيف تُنكَر وقد ذكرها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه في أكثر من موضع، بل لم يكتف بالإشادة بعظمتها، ولكنه ذكر تصريحًا أنها خير الأمم مطلقًا.. قال تعالى: (**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**[1])، فهذه شهادة من رب العالمين الذي خلق الخلق أجمعين، ويعلم ما سبق من أمم، وما هو لاحق.. فهذا يثلج صدور المسلمين، ويزرع الثقة اليقينية في قلوب الأمة أنها مهما تقاوم عليها الزمان ستظل خير أمة أخرجت للناس.

ومع كون هذه الحقيقة ثابتة، إلا أن هذا لا يمنع أن يحدث للأمة هنّات وأزمات، ولا يُستغرب أن يأتي عليها زمان يتقدم عليها غيرها، وتتراجع الأمة بالتالي من المكانة السامية التي أرادها الله لها، ويُصدِّق ذلك قول ربنا في كتابه الكريم: (**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**[2]) فليست هناك أمة - بما فيها أمة الإسلام - تبقى قوية أبد الدهر، وإنما تتناوب الأمم قيادة الأرض، ولكن وعد رب العالمين أن هذه الأمة الإسلامية العظيمة ستظل باقية إلى يوم القيامة.. قال تعالى: (**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**[3]) وقال: (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**[4]).

وبرغم اطمئنان قلوبنا إلى هذه البشريات إلا أن النفس تتألم لرؤية الأمة في حالة ضعف أو سقوط، ويخشى الصادقون أن يكون ذلك بسبب تقصير من المسلمين، أو تفريط في قاعدة من قواعد العزة والنهوض.. وليس من شك في أن حال الأمة في زماننا هذا - برغم وجود مبشرات كثيرة - إلا أنه ليس كما نتمنى لهذه الأمة العظيمة ونرغب.. فأزماتنا كثيرة وفي مجالات متعددة، ومصائبنا جمة، والكوارث ما تركت ركنًا من أركان أمتنا إلا وحلت عليه ووقعت.. واتسع - كما يقولون - الخرق على الراقع!

هل هذا وضع يَصْلُح معه سكوت؟!

---

1 (آل عمران: 110) .
2 (آل عمران: 140) .
3 (الأعراف: 128) .
4 (الأنبياء: 105) .

إن الواجب علينا في ظل هذه اللحظات الأليمة التي تمر بالأمة أن نقف وقفات جادة أمام هذه الأحداث، فنشخص بدقة أسباب الانهيار، ونصف بصدق وأمانة العلاج الناجع الذي يعيد الأمة إلى مكانتها التي لا ينبغي أن تتخلف عنها..

إن الأمم لا تُبنى بسهولة، كما أنها لا تُبنى بطريقة عشوائية!!

إن بناء الأمم أمر صعب يحتاج إلى جهود متضافرة، وصبر طويل، وعزم أكيد، وهو - في نفس الوقت - يسير وفق خطوات محددة، وسنن ثابتة، لا تبديل لها ولا تغيير، قال تعال: (**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**[1]).

وعلى الأمة في لحظات ضعفها أن تدرس بعمق الأسس التي ينبغي للأمة أن تُبنى عليها، حتى لا يصبح بناؤنا هشًا ينهار مع أي عاصفة..

إننا يجب أن نتدبر في سنن بناء الأمم التي جاءت في كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وفي سنه رسولنا ρ، كما يجب أن نتدبر في سنن بناء أمتنا في مراحلها السابقة، وكيف استطاع المغيِّرون والمجدِّدون من أبناء الأمة المخلصين أن يحوِّلوا الهزيمة إلى نصر، والضعف إلى قوة، والهوان إلى سيادة وتمكين..

وفوق ذلك فإن على المسلمين أن يدرسوا بعمق تجارب بناء الأمم المختلفة من عموم أهل الأرض، وليس بالضرورة أن تدرس تجارب المسلمين فقط، بل على العكس، إن على المسلمين أن يستفيدوا من ميراث الإنسانية، وذلك - بطبيعة الحال - دون التنازل عن شيء من ثوابتنا، أو التخلي عن أمر من شريعتنا..

وبدراسة متأنية لكتاب الله عز وجل، ولأحاديث الرسول الكريم ρ، والقصص والتاريخ، وكذلك لأحداث الواقع، يتبين لنا - بما لا يدع مجالاً للشك - عدة عوامل تُسهم بشكلٍ متفاعل في بناء أي أمة، ويأتي على رأس هذه العوامل - وبشكل لافت جدًا للنظر -: "**العلم**"!

وهذا الذي ذكرت ليس خاصًا بأمة الإسلام وحدها.. إنما هو أمر ضروري لازم لكل من أراد القيام.. مسلمًا كان أو غير مسلم.. وشواهد ذلك من القرآن والسنة - كما سيتبين لنا خلال صفحات هذا الكتاب - لا تحصى ولا تعد..

والعلم الذي أعنيه هنا ليس هو العلم الشرعي فقط، بل العلم الحياتي أيضًا، ويشمل ذلك علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والجغرافيا، وغير ذلك من علوم تصلح بها حياة البشر وتتحسن معيشتهم، فهذا علمٌ لابد منه، وهو يُكوِّن — مع العلم الشرعي- دعامة رئيسية من دعامات الأمة الإسلامية.

---

1 (فاطر: 43) .

ولا يخفى على الناظر إلى حال أمتنا أن قضية العلم لم تأخذ مكانها المناسب في اهتمام المسلمين، على الرغم من التركيز الواضح على هذه الوسيلة المهمة في بناء الأمم في كلمات القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكذلك في أقوال الصالحين والمخلصين من أبناء هذه الأمة.

ولعلَّ عدم دخول العلم في بؤرة اهتمام المسلمين هو أحد أهم الأسباب للحالة غير المُرْضية التي عليها أمتنا في زماننا الحالي.. ويصبح واضحًا لجميع أنه لن تقوم الأمة من جديد إلا عندما ينشأ جيل يضع قضية العلم هذه في مكانها الذي ينبغي أن تكون فيه، كأولوية من الأولويات المهمة جدًا في اهتمامات الأمة كلها..

وكمحاولة لوضع لبنة في صرح الأمة الإسلامية فكّرت في جمع ما يؤيد أهمية العلم في إعادة الأمة إلى مكانها الصحيح، فتجولت في صفحات القرآن الكريم وسنة الرسول ρ، وعدت إلى حياة الصحابة ψ، والتابعين رحمهم الله، وقرأت سِيَر العلماء والمجدِّدين، ودرست تجارب الأمم التي كان لها نصيب في الصدارة والتمكين.. فعلت ذلك وغيره، وجمعت من هنا وهناك، ورتبتُ وصنفتُ ما عندي من أوراق.. فكان هذا الكتاب!!

أسأل الله عز وجل أن ينفع الأمة الإسلامية بكل حرف في هذا الكتاب، وأن يقرَّ أعيننا برؤية أمتنا عظيمة رائدة، وأن يجعل ذلك كله في ميزان حسنات كل من ساهم في هذا العمل أو استفاد منه..

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل..

د. راغب السرجاني

الباب الأول: أمة الإسلام والعلم

ويضم الفصول التالية:

الفصل الأول: العلم في منظور الإسلام.

الفصل الثاني: أنواع العلوم.

الفصل الثالث: قراءة في واقعنا العلمي.

الفصل الرابع: الإسلام وعلوم الحياة.

الفصل الخامس: نماذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية

الفصل السادس: آراء المستشرقين في الحضارة العلمية الإسلامية

الفصل الأول: العِلْمُ فِي الْمِيزَانِ الإسْلامِيّ

لقد كانت الحقيقة الأولى التي ظهرت في الأرض عند نزول جبريل υ لأول مرة على رسول الله ρ أن هذا الدين الجديد "الإسلام" دين يقوم على العلم ويرفض الضلالات والأوهام جملة وتفصيلاً..

فقد نزل الوحي أول ما نزل بخمس آيات تتحدث حول قضية واحدة تقريبًا، وهي قضية العلم.. قال تعالى: (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**[1]).

وهذا النزول الأول بهذه الكيفية عجيب من عدّة وجوه..

فهو عجيب لأن الله Y قد اختار موضوعًا معينًا من آلاف المواضيع التي يتضمنها القرآن الكريم وبدأ به، مع أن الرسول ρ الذي يتنزل عليه القرآن أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فكان واضحًا أن هذا الموضوع الأول هو مفتاح فهم هذا الدين، ومفتاح فهم هذه الدنيا، بل وفهم الآخرة التي سيُقبل عليها الناس أجمعون.

ثم هو عجيب لأنه نزل يتحدث عن قضية ما اهتم بها العرب كثيرًا في هذه الآونة في عمق التاريخ، بل كانت الخرافات والأباطيل هي التي تحكم حياتهم من أولها إلى آخرها.. فكانوا يفتقرون إلى العلم في كل المجالات، اللهم إلا في مجال البلاغة والشعر، فكان هذا هو الميدان الذي تفوق فيها العرب وبرعوا، ولذلك نزل القرآن – وهو الأعجب – يتحداهم في هذا الذي برعوا فيه، معلنًا لهم أنه ينادى بالعلم والتفوق فيه في كل الجوانب، بما فيها تلك التي يجيدونها.

ثم هو عجيب أيضًا لأنه اختار وسيلة من وسائل التعلم تُعد الأشقّ والأصعب بين كل الوسائل، وهي القراءة.. لكنها ولا شك أرسخ من غيرها، فهي أرسخ من مجرد السماع، أو النظر، أو مجرد الاستنباط أو الاستنتاج..

فهو يُعْلِم للناس جميعًا من أول يوم ومن أول لحظة، أن الذي يريد أن يرتبط بهذا الدين لابد أن يبذل مجهودًا مُضنيًا في العلم والتعلم والقراءة.

لقد كان الإسلام بمثابة ثورة علمية حقيقية في بيئة ما ألفت روح العلم وما تعودت عليه، لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أول كلمات القرآن تعرف باسم "الجاهلية "!!.. فصفه "الجهل" ترتبط بما هو قبل

---

1 (العلق: 1 - 5).

الإسلام، ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم، ولِتُنَار الدنيا بنور الهداية الربانية.. قال تعالى: (**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**[1]).

فليس هناك مكانٌ في هذا الدين للجهل أو الظنِّ أو الشكِّ أو الرِّيبَة.

لقد أمر الله Y رسوله الكريم ρ منذ الأيام الأولى للرسالة أن يعرض عن الجاهلين الذين يتمسكون بجاهليتهم، ويرفضون العلم.. قال تعالى: (**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**[2]).

كما كان واضحًا منذ الأيام الأولى لهذا الدين أنه يرفض المناهج الظنية، وعليه فلا يمكن أن يبني شرائعه وأحكامه وقوانينه وتصوراته ونظرياته إلا على أساس من اليقين.

فهذا رب العالمين سبحانه يقول في إعجازٍ ظاهرٍ يصف حياة الكافرين والمعرضين عن دينه Y بقوله: (**وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**[3]).

فجعل الله Y الفارق الرئيسي بين المؤمنين وبين الكافرين هو قضية العلم.. فالمؤمن يعلم والكافر يظن.. والمؤمن يبنى على اليقين، والكافر يبنى على الشك.

وعليه فقد قال سبحانه يصف حال الكافرين يذمهم: (**وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ**[4]).

و لم تكن البداية فقط في هذا الكتاب المعجز "القرآن" هي التي تتحدث عن العلم وقيمته وأهميته، بل كان هذا منهجًا ثابتًا في هذا الدستور الخالد، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من الحديث عن العلم، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ولقد فوجئت مفاجأة كبيرة عندما قمت بإحصاء عدد المرات التي جاءت فيها كلمة "العلم" بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله Y؛ إذ وجدتها – بلا مبالغة – قد بلغت 779 مرة !! أي بمعدل سبع مراتٍ – تقريبًا – في كل سورة!!

وهذا عن كلمة "العلم" بمادتها الثلاثية (ع ل م)، إلا أن هناك كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم ولكن لم تُذكر بلفظه، وذلك مثل: اليقين والهدى والعقل والفكر والنظر والحكمة والفقه والبرهان والدليل والحجة والآية والبينة.. وغير ذلك من معانٍ تندرج تحت معنى العلم وتحثُّ عليه.

---

1 (المائدة:50).
2 (الأعراف: 199).
3 (النجم: 28).
4 (الجاثية: 32)

أمّا السنة النبوية فإحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون مستحيلاً..

فقد وردت كلمة "العلم" في صحيح البخاري أكثر من ثلاثمائة مرة، وهذا كتاب واحد من كتب السنة، وهو في ذات الوقت ليس بأكبرها حجمًا؛ إذ أن هناك من كتب السنة ما يحوي أضعاف ما في صحيح البخاري، مثل صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجة والدارمي والبيهقي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وموطأ الإمام مالك، وكذلك معجم الطبراني وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم، وغيرهم وغيرهم..

بل إن الملاحظ أن الاهتمام بقضية العلم لم يكن منذ أول لحظات الإسلام ونزول القرآن فقط، وإنما كان ذلك منذ بداية خلق الإنسان نفسه.. كما حكى ذلك القرآن الكريم في آياته!!

فالله Y خلق آدم وجعله خليفة في الأرض، وأمر الملائكة أن تسجد له، وكرَّمه وعظَّمه ورفعه، ثم ذكر لنا وللملائكة سبب هذا التكريم والتعظيم والرِّفعة.. فعيّن أنه "العلم"..!!

لم يتفوق آدم υ على الملائكة بطول قيام، ولا بكثرة ذكرٍ أو تسبيحٍ، ولا بقوةٍ خارقة، ولا بطاعةٍ مطلقة.. فهذه الأمور كلُّها مما تتفوق فيها الملائكة بلا منازع، وإنما تفوق عليهم فقط في قضية "العلم"..

ومن أجل ذلك رفعه الله Y فوق مصافِّ هؤلاء الملائكة العِظام وفضَّله عليهم، بل وأسجدهم له υ.

يقول تعالى في تقرير ذلك: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**[1]).

وهكذا كانت القضية منذ اللحظات الأولى لخلق آدم υ واضحة جلية.. فما إن يتمسك الإنسان بالعلم، ويحرص عليه، ويبذل الجهد في تحصيله، إلاّ استحقَّ أن يكون خليفة الله في الأرض، وما إن يألف الجهل ويتعوَّد عليه، أو يزهد في العلم، ويبتعد عنه، ويرضَ منه بالقليل.. فإنه – لا ريب – يكون قد فَقَدَ مؤهلاتِ هذه الخلافة، ومن ثَمَّ لا يصلح أن يكون عبدًا صالحًا مرفوع الذكر معظَّم الشأن..

---

1 البقرة: 30 - 34.

ولم يكن الاحتفال بقيمة العلم منذ أول خلق "الإنسان" فقط، بل ظهر هذا الاحتفال قبل خلق الإنسان!! فإن الله Y خلق أول ما خلق "القلم"، أداة العلم الأولى والخالدة، وذلك كما روى الترمذي أن رسول الله ρ قال: "**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إلى الْأَبَدِ**"[1].

وهكذا نجد أن العلم أمرٌ محوري ورئيسي في الحياة الإنسانية التي وجدت على ظهر الأرض، وسيظل كذلك إلى يوم القيامة.

ومن هنا لم يكن الأمر من باب المبالغة حين أشار الرسول ρ في حديثه إلى أن الدنيا بكاملها لا قيمة لها – بل هي ملعونة – إلا إذا ازدانت بالعلم وذِكْر الله Y..

روى الترمذي عن أبي هريرة > أن رسول الله ρ قال: "**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاّ: ذِكْرَ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا**"[2].

بل إنه إذا اختفى العلم من الدنيا، فإن الحياة فيها تصبح مستحيلة، أو لامعنى لها، لهذا فإن اختفاء العلم يكون إيذانًا بقرب قيام الساعة..

يروي في ذلك البخاري ومسلم عن أنس بن مالك > قال: قال رسول الله ρ: "**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا**"[3].

ورفعُ العِلم هذا لا يكون بمحوه من الصدور، ولكن يُرفع بموت العلماء..

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص { قال: سمعت رسول الله ρ يقول: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**"[4].

---

1 الترمذي: كتاب التفسير، باب تفسير سورة "ن" (3319)، والحاكم (3693)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطيالسي (577)، والطبراني في الكبير (12500)، والبيهقي في سننه (20664)، وأبو نعيم في الحلية 248/5، وقال الألباني: صحيح (2017) صحيح الجامع.

2 الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله (2322)، والدارمي (322)، والطبراني في الأوسط (4072)، والبزار (1736)، والبيهقي في شعب الإيمان (1708)، وقال الألباني: حسن (1609) صحيح الجامع.

3 البخاري: كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (80)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (2671)، والترمذي (2205)، وابن ماجة (4045)، وأحمد (12829)، وأبو يعلي (3062).

4 البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (100)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (2673)، والترمذي (2652)، والدارمي (239)، وابن حبان (4571)، والطبراني في الأوسط (55)،

ولذلك فإن موت العالِم هو الكارثة الحقيقية، والتي هي أشد من كوارث الزلازل والبراكين؛ لأنـــه بغياب العالِم تفسد الأرض، ويجهل الناس الغاية من خلقهم، ومن ثم تصبح الحياة بكاملها لا قيمة لها..

يقول عمر بن الخطاب >: "لموت ألف عابد قائم الليل صائم النهار، أهون من موت عالمٍ بصـــيرٍ بحلال الله وحرامه"[1]!!

ولما مات زيد بن ثابت > – كاتب الوحي ومن علماء الصحابة الأجلاء – قال عبد الله بن عباس {: "من سرَّه أن ينظر كيف ذهاب العلم فهكذا ذهابه"[2].

العِلْمُ صِفَةُ الأَنْبِيَاء..

إن أعلى منزلة وأسمى رتبة في الخلق وبين البشر عند الله تعالى هي منزلة الأنبياء ورتبة النبوة، ولمكانة العلم ولأهميته القصوى ومكانته في ميزانه سبحانه وتعالى، فإن الله Y قد ربط في كتابه الكريم بين الأنبيـــاء وصفة العلم، على أساس أنها صفة ثابتة ولازمة لهم، بل وضَّح سبحانه أن العلم هو أهم الصفات التي يتميز بها هؤلاء الأنبياء، وكيف لا والدور الرئيسي لهم في الدنيا أن يُعلِّمُوا غيرهم؟

فإذا كان فاقد الشيء لا يُعطيه – كما قيل – فكان لزامًا على النبي أن يكون عالمًا، بل وأن يحرص على زيادة علمه، وفي ذات الوقت يكون حريصًا على نقل علمه هذا إلى غيره، وألا يكتم علمًا علَّمـــه الله إياه.. قال تعالى: (**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**[3]).

فكيف يُبلِّغ شيئًا بلاغًا مبينًا وهو يجهله ولا يعلمه؟!

ومن هنا فقد جاء ذِكْرُ الأنبياء دائمًا مرتبطًا بالعلم، فقال I في حق آدم υ: (**وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْـــمَاءَ كُلَّهَا**[4]).

وقال في حق لوط υ: (**وَلُوطًا آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**[5]).

وقال في حق موسى υ: (**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**[6]).

---

[1] الحارث بن أبي أسامة، الحافظ نور الدين الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث 813/2.
[2] ابن حجر: تهذيب التهذيب 344/3.
3 (النور: 54).
4 (البقرة: 31).
5 (الأنبياء: 74).
6 (القصص: 14).

وقال في حق يعقوب υ: "(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[1]).

وقال في حق يوسف υ: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[2]).

وقال في حق داود وسليمان عليهما السلام: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا[3]).

وقال في حق عيسى υ: (وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ[4]).

وقال كذلك في حق رسولنا الكريم ρ: (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى[5]).

وقال أيضًا: (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ[6]).

وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر { قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ρ قَالَ: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ. قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْعِلْمَ"[7].

فكان العلم أثمن ما يمتلك الأنبياء، ولذلك كان هو الذي أورثوه لنا.

وعليه فمن أراد أن يحمل لواء الأنبياء، وأن يسير في طريقهم، ومن ثم يُحشر في زمرتهم يوم القيامة، فعليه بطريق العلم..

ولعظم قيمة العلم ومكانته، فقد امتن به الله I على أُناس معينين واختصهم بالزيادة منه، وقد اصطفاهم Y على غيرهم.. فجعل – على سبيل المثال – مؤهلات القيادة عند طالوت ~ هي العلم والقوة، فقال: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ[8]).

وقد قدَّم هنا العلم على القوة؛ لأن العلم بإمكانه أن يُسخِّر القوة لصالحه، وليس العكس بصحيح، إذ أنه بإمكان الرجل الضعيف أن يُسخر الأسد القوى لخدمته، كون هذا لا يرجع إلى معيار القوة والضعف عند الرجل، وإنما يرجع إلى سعة علمه وإحاطته بما يمكن من خلاله أن يتفادى مهاجمة الأسد له، وما يمكن من خلاله أن يزلِّله له.

---

1 (يوسف: 68).
2 (يوسف: 22).
3 (الأنبياء: 79).
4 (المائدة: 110).
5 (النجم: 3 – 5).
6 (النساء: 113).
7 البخاري: كتاب العلم، باب فضل العلم (82)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر < (2391)، وأحمد (5868).
8 (البقرة: 247).

بل إن الله Y جعل العلم سببًا في السيطرة والهيمنة والعلوّ، فقال في قصة سليمان υ مع بلقـــيس ملكة سبأ: (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ[1]).

وينسب الله Y إلى أهل العلم دائما كل صلاحٍ وفلاح، بل وشهادة حق وعمق نظـــرة ودرايـــة، فيقول في إشارة إلى من أدرك منهم حقيقة التوحيد: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْـــمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[2]).

ويقول عن أولئك الذين يحفظون القرآن في صدورهم: (بَلْ هُوَ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّـــذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ[3]).

وفيمن يدرك الحق من غيره يقول سبحانه: (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ[4]).

وفي إشادة بأولئك الذين فقهوا حقيقة الدنيا والآخرة في قصة قارون يقول Y: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ[5]).

وقد مدح أيضًا الخضر، ودلّ موسى υ عليه ليتعلّم منه، لأنه اتصف بالرحمة والعلم فقال: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا[6]).

وقد امتن I على المؤمنين بصفة خاصة فقال: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـــولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْـــلُ لَفِـــي ضَـــلَالٍ مُبِينٍ[7]).

وامتن على الإنسان بصفة عامة فقال: (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآَنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[8]).

مع ملاحظ تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان، مع أن الإنسان خُلق أولا ثم عُلِّم، ولكنه قـــدم العلم ليوحي بأن الإنسان إذا فقد العلم فَقَدَ معه إنسانيته، فكأنه لم يُخلق بعد.. ثم إنه أعقب الحديث عـــن

---

1 (النمل: 42).
2 (آل عمران: 18).
3 (العنكبوت: 49).
4 (سبأ: 6).
5 (القصص: 80).
6 (الكهف: 65).
7 (آل عمران: 164).
8 (الرحمن: 1 – 4).

خلق الإنسان بقوله: "عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"، وكأن العلم يحيط بحياة الإنسان من أولها إلى أخرها.. فقبل ذكْر الخلق يمدح العلم، وبعد ذكْر الخلق يمدح العلم.

و لم يَقْصُر I رفع العلم لأصحابه على عالم الإنس فقط، بل تعدى ذلك عنده ليشمل عالم الجن أيضًا، قال تعالى: (**قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إليكَ طَرْفُكَ**[1]).

وفي عالم الحيوان والطير، فإنه سبحانه يرفع من شأن الجوارح المعلَّمة والكلب المعلَّم عن الجوارح غير المعلمة، فيُحل الصيد الذي تصطاده الجوارح المعلمة، ويحرِّم الذي تصطاده غير المعلمة.. قال تعالى: (**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**[2]).

وقد جعله رسول الله ρ أمرًا عظيمًا يجب على الإنسان أن يتنافس فيه مع غيره، ويتمنى أن لو تفوَّق فيه عليهم..

يروي في ذلك البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود > قال: قَالَ النَّبِيُّ ρ: "**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**"[3].

كل هذه الملاحظات وغيرها تبين مدى أهمية العلم، وأنه أعظم النعم التي أنعم بها الله العليم الخبير على مخلوقاته..

فلا غرو إذن أن يكون العلم من الأشياء القليلة التي أمر الله Y رسوله الكريم ρ أن يطلب الاستزادة منها، فقال تعالى موجهًا نبيه والأمة الإسلامية من بعده: (**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**[4]).

ثم إن الإنسان لَيقف مذهولاً أمام علم Y الذي وصفه سبحانه في كتابه حيث قال: (**وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**[5]).

---

1 (النمل: 39، 40).
2 (المائدة: 4).
3 البخاري: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (73)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (816)، وابن ماجة (4208)، والطبراني في الأوسط (1712)، وأبو يعلي (5078)، والبزار (1890)، والبيهقي في شعب الإيمان (7528).
4 (طه: 114).
5 (الأنعام: 80).

وقد وصف سبحانه علم البشر بكل أنواعه وتصانيفه وتفريعاته، من علوم فضاء وسلاح وكيمياء وطب وهندسة وجغرافيا، وعلوم نووية وبيولوجية وغيرها.. وصف كل هذه العلوم بالقليل فقال تعالي: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً[1]).

وذلك في إشارة خفيّة منه سبحانه إلى البحث عن المزيد، والتنقيب عن ذلك المجهول.

وإننا في هذا الفصل لم نسع إلى حصر كل ما جاء عن العلم في كتاب الله عز وجل، أو في سنة رسوله ρ؛ فإن ذلك أمر يصعب جدًا، ولكننا فقط نضع أيدينا على الوزن الحقيقي له من منظور الشريعة الإسلامية؛ فلن يهتم إنسان قطّ إلا بما يشعر بأهميته وقيمته، ونسأل الله Y أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

1 (الإسراء: 85).

الفصل الثاني: أَنْوَاعُ الْعُلُومِ

جاءت كلمة "العلم" في كتاب الله Y وفي سنة رسوله الكريم ρ مطلقة، ودونما تقييد أو تحديد؛ فهي تشمل كل علمٍ نافعٍ يهدف إلى خير الدنيا وعمارة الأرض.. وكل علمٍ يهدف إلى صلاح الناس، والقيام السليم بواجبات الخلافة البشرية على هذا الكوكب.

وبالإمكان تقسيم العلوم إلى قسمين كبيرين يشملان كل علم نعرفه أو نحتاج إليه، وهذان القسمان هما: العلوم الشرعية والعلوم الحياتية.

أما العلوم الشرعية: فهي العلوم التي يُعرَف بها الله Y، ويُعرَف بها كيف تكون العبادة الصحيحة، ويشمل ذلك كل العلوم المتعلقة بدراسة الدين وفقه الشريعة، مثل علوم القرآن، وعلوم السنة والحديث الشريف، وعلوم العقيدة، وعلوم الفقه وأصوله، وعلوم الأخلاق، وغير ذلك مما يتعلق بالشريعة والدين. ويرتبط بهذا القسم بعض العلوم الأخرى التي يُحتاج إليها في فقه تلك العلوم الشرعية، مثل علوم اللغة والأدب والتاريخ، ونحو ذلك..

أما العلوم الحياتية: فهي العلوم النافعة التي يحتاج إليها الإنسان ليصلح بها حياته، ويعمِّر بها أرضه، ويستكشف بها كونه وبيئته.. وذلك مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والجغرافيا، وعلوم الأرض والنبات والحيوان، وغير ذلك من العلوم المشابهة.

فكلمة العلم التي كَثُرت الإشارة إليها في الكتاب والسنة إنما تعني – في أكثر الأحيان – العلم بشقيه الشرعي والحياتي.. وكل ما جاء من مدحٍ للعلماء، فهو لكل عالمٍ نفع الناس بعلمه، سواء كان شرعيًا أم حياتيًا. وتوضيح ذلك – وخاصة أهمية العلم الحياتي – سيرد في موضعه من هذا الكتاب.

ثم إن هذه العلوم – سواء علوم الشرع أو علوم الحياة – تنقسم بدورها إلى قسمين: علوم فرض عين، وعلوم فرض كفاية.

وفرض العين: هو ما طلب الشارع فعله طلبًا جازمًا من كل مكلف بعينه، فلا يكفي أن يقوم به البعض دون البعض الآخر، ومنه: الصلاة، والصيام، والوفاء بالعقود وغيرها.

وفرض الكفاية: هو ما طلب الشارع حصوله طلبًا جازمًا من جماعة المكلفين، فإن أقامه أحدهم أو بعضهم على الوجه المطلوب، سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقمه أحد أثم الجميع، ومنه: الجهاد في سبيل الله، وإقامة الخلافة، والصلاة على الميت ودفنه، وغيرها[1].

---

1 راجع النووي: المجموع شرح المهذب، مطبعة المنيرية، ج1 ص 49 .

وعليه فالعلوم التي تُعَد من فروض العين هي تلك التي يتعين على كل مسلم ومسلمة ممن اتصف بالعقل والبلوغ أن يُحصِّلَها ويتعلَّمها، وإذا لم يحصلها أثم بسبب ذلك، وركبته السيئات بحجم التفريط الذي فرّط.

فهذا النوع من العلوم حتميٌّ على كل المسلمين، وليس هناك استثناء فيه، وهو الذي عناه الرسول ρ في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك > وقال فيه: "**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**"[1].

وأما العلوم فرض الكفاية: فهي تلك العلوم التي إن قام بها بعض المسلمين على الوجه الأكمل، واستطاعوا أن يكْفوا بقية الأمة فيها، فإنهم يثابون عليها ويسقط الإثم عن باقي الأمة، حتى أولئك الذين لم يقوموا بها.. وأما إذا لم توفر الأمة من العلماء ما يكفي حاجتها في فرع معين، فإن الإثم يقع على الجميع إلى أن تكفي الأمة حاجتها في ذلك الفرع، فتوفر الكم والنوع اللازم لسد كل الثغرات..

وفروض الكفاية كثيرة جدًا، والأمة النجيبة الواعية هي التي توزِّع فروض الكفاية على أفرادها بحيث تسد كل الثغرات لديها، وتكفي كل حاجاتها، بحيث لا يصبح هناك - مثلاً - تكدسٌ في أحد المجالات، ونقصٌ وقصورٌ في مجالات أخرى.. وهذا يحتاج إلى اتساع أفقٍ وشمولِ نظرة.

ولنحاول أن نسقط هذه التعريفات على الواقع..

فالعلوم الشرعية منها ما هو فرض عين، "يتعين" على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يتعلموه، ويأثمون بتركه، وذلك مثل العلم بالله Y على سبيل الإجمال، كالعلم بأنه سبحانه عليمٌ وخبيرٌ وقادرٌ على كل شيء، وأنه خالقٌ ورازقٌ ورحيمٌ وكريمٌ وغير ذلك..

وأيضًا مثل العلم بأمور الفقه الضرورية لأداء العبادات.. فيتعلم المسلم كيف يتوضأ وكيف يصلِّي، وما هي نواقض الوضوء، وما هي نواقض الصلاة، وما الفرق بين الفرض والنافلة، وبين ما تصح الصلاة بدونه، وما لا تصح الصلاة إلا به، وأن يعرف الصيامَ وأحكامه، والزكاة وأحكامها، وأن يعرف أمور الحلال والحرام، وخاصة المشهور منها، والذي سمّاه العلماء "ما هو معلوم من الدين بالضرورة" كحرمة الزنا والخمر والخنزير والربا، وكذلك عليه أن يعرف رسوله الكريم ρ ونبذة عن سيرته، وأيضًا يعرف القرآن وكيف يُتلى، ويعرف عن الساعة ويوم القيامة إجمالاً، وكذلك عن الجنة والنار وهكذا..

ومن العلوم الشرعية ما هو فرض كفاية على بعض علماء الأمة وليس مفروضًا على بقية المسلمين، مثل دقائق علم العقيدة، ودقائق الفقه مثل فقه المواريث، ودقائق فقه التجارة لغير التجار، وكيفية حساب الزكاة في الاحتمالات المختلفة، ودقائق الاقتصاد لغير الاقتصاديين، ودقائق تفسير القرآن، وأسباب النزول،

1 ابن ماجة: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلم والحث عليه (224)، والطبراني في الكبير (10439)، والبزار (94)، وقال الألباني: صحيح (3913) صحيح الجامع.

وتفاصيل حياة الرسول وحياة أصحابه، وتخريج الأحاديث، والعلم برواتها، ودرجاتهم من حيث الجرح والتعديل، وتفاصيل التاريخ الإسلامي، وفنون اللغة ودقائقها[1]..

فهذه العلوم هي من فروض الكفاية، والتي وجب على الأمة أن توجد طائفة من أفرادها ليقوموا بالخوض فيها، وإتقانها والتبحر فيها والتمكن منها، والقدرة على معرفة كافة أطرافها ودقائقها.. وهو مصداق قول الله I:(**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**[2]).

وإذا لم توفر الأمة هؤلاء العلماء، وكانت تعاني – مثلاً – نقصًا في علماء التفسير أو علماء الفقه أو الحديث أو غيره، فإن الأمة جميعها تأثم إلى أن توفر هذه الطائفة.

هذا بالنسبة للعلوم الشرعية..

والأمر هو نفسه بالنسبة للعلوم الحياتية.. فمنها ما هو فرض عين، "يتعين" على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يتعلموه، ويأثمون بتركه، ومنها ما هو فرض كفاية، إن قام به البعض سقط عن الجميع..

فمثلاً علم الطب يُعد فرض عينٍ على الطبيب، وعلم الهندسة يُعد فرض عينٍ على المهندس، وعلم الكيمياء فرض عينٍ على الكيميائي وهكذا.. فإذا تعلم كل واحدٍ من هؤلاء مهنته وأتقنها وبرع فيها، ووصل إلى درجة من الابتكار وحل المشكلات في مجاله، وهكذا في كل تخصص، فإن الفرض يُكفى، وبذلك يسقط الإثم عن المسلمين..

أما إذا فشلت الأمة في إخراج عدد مناسب، وبكفاءة متميزة يكْفون حاجة المسلمين.. فإن الإثم يقع على الأمة جميعًا؛ وذلك لفشلها في تحقيق ذلك الأمر[3]!!

وليس غريبًا بعد ذلك أن يكون من نتيجة ذلك الفشل أن تتخلف الأمة عن ركب الحضارة، وأن تكثر أزماتها ومشكلاتها، فضلا عن سقوطها في أعين غيرها من الأمم الأخرى، فتصبح وقد اقتادها غيرها، وقد أضحت فريسة سهلة للطامعين، فلا يُستبعد أن تنتهك سيادتها، وأن تحتل أرضها، وأن تسلب ثرواتها.. حتى تضيع تحت أقدام الغزاة!!

والشاهد من ذلك أن المرء المسلم واقع بين نوعين من العلوم يتعين عليه أن يتقنهما: الأول خاص بمعرفة دينه المعرفة التي توصله إلى العبادة الصحيحة كما ذكرنا سابقا، وهو ما لابد للجميع منه. والثاني

---

1 راجع في ذلك ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، مطبعة الإمام – القاهرة، ج5 ص 113 وما بعدها – ويوسف القرضاوي: الرسول والعلم، مكتبة وهبة – القاهرة ص93، 94 .

2 (التوبة: 122).

3 انظر في ذلك: الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، 16/1.

خاص بمجال التخصص الذي هو فيه، أيًّا كان مجاله وطبيعة عمله. والذنب والإثم في كلٍ هو بحجم التقصير الذي يحصل.

ومن هذا المنطلق لا يستقيم لطالب رفعةٍ لهذه الأمة، وراجي التمكين لها في الأرض، أن يكون فاشلاً في مجاله، متخلفًا في صنعته أو في مهنته أو في علمه الذي وُكِّل به؛ إذ أن تقدم الأمة معتمدٌ على تقدمه، وتخلفها هو نتيجة لتخلفه.

وعلى ذلك فإننا إذا أخذنا أحد المسلمين كمثال توضيحي، فإننا نقول:

لو أن هناك اقتصاديًا متخصصًا (من المسلمين)، فإنه يتعين عليه أن يتعلم كيف يُصلِّي، وكيف يصوم، وكيف يزكِّي، وكيف يعتقد في ربه وفي رسوله وفي القرآن، وأن يعرف عن يوم القيامة والجنة والنار، كما سبق أن ذكرنا..

وفوق ذلك فيتعيَّن عليه أن يُتقن مجال الاقتصاد ويبرع فيه، ويبتكر الطرق الحديثة التي ترفع من اقتصاد الأمة وتُعْلي من شأنها ماديًّا، وعليه أيضًا أن يعرف الفقه الإسلامي الخاص بالاقتصاد، وحكم الإسلام في المعاملات الاقتصادية المختلفة، وحكمه في قضايا البنوك وشركات الاستثمار والتأمين والتوفير والقروض.. وغير ذلك من الأمور التي تمس هذا الجانب بصورة مباشرة.

ولكن هذا الاقتصادي لا يتعين عليه ولا يلزمه أن يتعلم دقائق التفسير، أو يتعلم بنود الفقه المختلفة الخاصة بالطب، أو الخاصة بالحرب أو الخاصة بالزواج أو الطلاق أو الميراث؛ فهذا له متخصصون ومهتمون، تماما كما هو في تخصصه في مجال الاقتصاد.

كما أنه لا يلزمه أن يتعلم شيئًا عن الطب أو الهندسة أو الفلك أو الزراعة أو غيرها، إلا فيما يرتبط بعمله كاقتصادي..

وهكذا تتوزع كفاءات الأمة على الفروع المختلفة، وتسد الثغرات تباعًا..

ولا يستقيم لأمة ناجحة أن تتكدس فيها – مثلاً – طاقات فقهية، بينما تفتقر إلى علماء الطب أو الكيمياء، ولا يستقيم لأمة متكاملة أن يتكدس فيها جمعٌ غفيرٌ من القضاة، وهي تفتقر إلى علماء التاريخ، وهكذا..

وهذا دور الدولة الناجحة.. أن ترقُب باستمرارٍ أوجه النقص، ومن ثم تسد الخلل وتحرص على تكميله.. كما أنه دور الأفراد في أن يتوجهوا إلى سد الثغرات المهمة والضعيفة، وألا يترك أصحاب التخصص منهم تخصصهم وينشغلوا بغيره من الأعمال التي لم يكلفوا أصلاً بأدائها، و لم توجب عليهم..

على أن الدور الأكبر والمسؤولية الضخمة في هذا الأمر تتحمله الدولة ممثلة في الحكومة، ولابد لها من أن تسعى لرفعة شعبها وإعزاز أمَّتها في كل المجالات، وهي غير معذورة في أي تقصير في هذا الأمر، كما أنه ليس هناك مبررٌ للبقاء في ذيل الأمم لسنوات وسنوات..

وهذا لا يعني – كما سبق أن أشرنا – إعفاء أنفسنا من المسئولية، فهذا مصير الأمــة، وإننــا – كأفراد – لدينا من المساحات الضخمة التي من الممكن أن نعمل فيها وننتج ونبرع الكثير والكثير..

فالطالب – مثلاً – في أي مراحله التعليمية بإمكانه ألا يكتفي بما هو مقررٌ عليه فقط، وخاصة إذا كان هذا المقرر على مستوى غير كافٍ، ومن ثم فيمكن أن يلجــأ إلى المكتبــات وإلى الشــبكة العالميــة (الإنترنت) وغيرها، مما يزيد من حصيلته العلمية في مقرراته الدراسية وفي مجال تخصصه.

فإذا كان طالبًا يكون طالبًا متفوقًا، وإذا كان أستاذًا أو معلمًا يكون معلمًا متقنا ومبدعًا، وإذا كان مهندسًا يكون على أعلى درجة وأمكن معرفة بمجال عمله وهندسته، وهكذا.. والمطلوب هو بذل الجهــد كلٌ في مجاله قدر المستطاع.

وحين يكون الالتزام بذلك، وحين لا يكون مبلغ علم الجميع وأقصى أمانيهم هو فقط الحصــول على شهادة في كذا أو كذا.. حينها يسود جوٌ عام من حب العلم، فيصبح البلد أو الإقليم وقد اتخذ وجهة العلم قبلة له، شاء في ذلك أم أبى أصحاب اتخاذ القرار وصُنَّاعه!!

بل إن السياسيين حينذاك سيجدون أنهم مضطرون إلى أن يسايروا تلك الموجة العلمية، ويكونــون من ركْبها، تماما كما يسايرون الموجة الدينية – رغم أن الكثيرين منهم ليست لهم ميول دينيــة أصــلاً – فتراهم – مثلاً – يُقيمون المسابقات الدينية، ويحضرون الاحتفالات الموسمية، ويهبون الجوائز علــى حفــظ القرآن الكريم.. وذلك طالما كان هناك جو عام من الاهتمام بالدين.

فكذلك إذا كانت هناك ثورة علمية، وأصبح العلم شغل الأفراد ومصب اهتماماتهم.. حينها ستجد السياسي – مثلاً – الذي يريد أن ينجح في الانتخابات، تراه يضع في برنامجه الانتخابي الاهتمام بالمؤسسات العلمية، والعمل على إنشاء الجديد منها والمزيد، وزيادة ميزانية الدولة في هذا الجانب.. وعليه فلــن تجــد اهتماماته متجهةً فقط إلى الطعام والشراب، وما إلى ذلك، وإنما يكون جل اهتماماته هو همّ الأمــة الأول وشغلها الشاغل، وهو يومئذ العلم وقضايا التعليم!!

ولو قامت الأمة الإسلامية بدورها في هذا المجال (الاهتمام بالتوازن بين العلوم والربط بين العلــم الشرعي والعلم الحياتي) حكومة وشعبًا، جماعات وأفرادًا، ما افتقرت أبدًا إلى غيرها، ولقامت معتمدة على سواعد أبنائها.. وهذا – ولاشك – يرفع من قيمتها ويعز شأنها..

الفصل الثالث: قِرَاءَةٌ فِي وَاقِعِنَا الْعِلْمِيّ

مع ازدهار الصحوة الإسلامية، وشيوع الالتزام بين صفوف المسلمين، وبالذات طائفة الشباب، ترسَّخ في أذهان الكثيرين حب العلم وطلبه، والبحث عنه وبذل الوقت له. وكل هذا – ولاشك – أمر محمود، ونتيجة طبيعية لعودة المسلمين إلى ربهم وإلى دينهم..

لكن بقيت نقطة ما أشعر أنها أخذت المساحة الكافية من تفكير شباب الصحوة، وما فُرِّغت لها الأوقات كما فرغت لغيرها، مع أن هذه النقطة من أهم النقاط التي تنفع في بناء الأمم، وتفيد في تشييد الحضارات..

وهذه النقطة هي الاهتمام بعلوم الحياة، والتفوق والإبداع فيها..

وعلوم الحياة – كما أشرنا قبل ذلك – هي العلوم التي تُصلح حياة البشر على الأرض، والتي يهتدي إليها الناس بعقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم، ويستطيعون من خلالها عمران الأرض وإصلاحها وتسخير إمكاناتها، وهي مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والنباتات والحيوان، وغير ذلك من العلوم التي تشمل الماديات المبثوثة في الكون، والتي يحتاج إليها البشر في إصلاح "حياتهم" على هذا الكوكب..

وتلك العلوم هي التي يقصدها الغرب، وهي التي يعنونها دائمًا حين يكون الحديث عن مطلق العلم..

وقد تعددت الشواهد والملاحظات المهمة التي تبين سوء الوضع العلمي الذي تعيشه الأمة الإسلامية، ومدى ما وصل إليه حالها فيه، وهي كلها ناتجة عن عامل واحد، هو إهمال المسلمين لعلوم الحياة..

ولعل في الملاحظات التالية دليلاً على القصور غير المقبول الذي وصل إليه المسلمون الآن..

الملاحظة الأولى:

بدراسة أحوال العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية في أكثر من بلد إسلامي، يُلاحَظ أن نسبة المتفوقين دراسيًا في أوساط الدعوة نسبة قليلة بصورة لافتة للنظر، وأن الطالب الملتزم بدعوته وبرسالته الإسلامية يرتب أموره بصورة تضع التحصيل الدراسي والتفوق العلمي في أخريات أولوياته.. وهذا لشعوره واعتقاده الدائم بأنه يجب عليه أن يُضحِّي بعلومه الدراسية ومناهجه البحثية من أجل الدين، فيُعطي – مثلاً – حلقةَ تحفيظ القرآن أولويةً عن محاضرة علمية، ويعطي موعظة تُقال في مدرّجٍ أولويةً عن موضوع علمي يلقيه في فصل دراسي أو في مجموعة علمية، ويعطي قراءةً في كتاب تفسيرٍ أو فقهٍ أو حديثٍ

أولويةً عن قراءةٍ في كتاب كيمياء أو فيزياء أو رياضيات، ويهتم بحضور دروس العلم للمشايخ والقراء، ولا يهتم بحضور الدوريات أو الندوات العلمية، أو المؤتمرات المتخصصة في مجاله مثلاً!!

وهذه ليست ملاحظة عابرة، أو حالات فردية، أو مشكلة محلية، إنما تكاد تكون هي الأصل بين أوساط الشباب العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية.. وهذا أمر يحتاج – ولاشك – إلى وقفات ووقفات..

ومثل هذا الحديث ليس من قبيل الإحباط أو اليأس، وإنما هو محاولة لتشخيص الأمراض برصد الظواهر والحقائق، ثم وصف العلاج بعد ذلك.. والأمر يحتاج إلى مصارحة، ووقوف على مواطن الداء..

ومما زاد من أهمية هذه الملاحظة وإبراز دورها بين أهم المشاهدات التي تبين إهمال المسلمين لهذا الجانب الحياتي من العلوم وأنهم لم يعطوه حقه بالصورة الكافية، أنه ترتب عليها خشية كثير من الطلاب المتفوقين الذين ليست لهم وجهة إسلامية من الالتزام أصلاً؛ وذلك لئلا يُصبِحوا مثل كثير من الأمثلة الدعوية، الذين هم مترددون دراسيًا ومتعثرون علميًا..

وقد تحدثت كثيرًا مع بعض الشباب المتفوق دراسيًا ولكنه بعيد عن آداب الإسلام وسلوكه، فكان يقبل كلامي عن الإسلام، وعلاقته بالعلم، وحضِّه عليه، وتزكيته لأهله.. ولكن كان هذا القبول منه مجرد قبول نظري غير واقعي. وقد رصدته وهو يقول لي بلسان الحال، أو بلسان المقال: إن هذه قواعد غير قابلة للتطبيق؛ لأن ما أراه حقيقة هو خلاف ما تتحدث عنه!! وإلا فكيف تفسر حصول الطلاب الإسلاميين على تقديرات متدنية، بينما يتصدر قائمة المتفوقين شبابٌ لا يضعون الإسلام منهجًا واضحًا لحياتهم، بل قد يكونون من غير المسلمين أصلاً؟!

إنها معضلة تحتاج حقًا إلى وقفات!!

الملاحظة الثانية:

التقيت في أمريكا مع أحد العرب الدارسين هناك، وكنت أتحدث في محاضرة عن أهمية علوم الحياة، وأهمية أن تكفل الأمة الإسلامية نفسها في هذا المجال، بل وأهمية أن تقود غيرها، وأن تصل إلى درجة التفوق والإبداع..

وبعد هذه المحاضرة دار بيني وبينه حديثٌ عنها، ففوجئت بوجهة نظره في هذه القضية، والتي اكتشفت فيما بعد أنها ليست وجهة نظر شخصية غير متكررة، بل هي وجهة نظر لها مؤيدون، ومن ورائها مشجعون، والتي يرى فيها أن الله Y – بفضله ورحمته – قد سخَّر الكفار لخدمتنا، وأنه منحنا الأموال الكافية لشراء الإنتاج العلمي المجهِد الذي يقومون به!!

ومن أعظم نعم الله علينا – والكلام ما زال له – أنه وهبهم العلم والتقنية المتطورة التي يصنعون بها كل ما نحتاجه نحن دون أن نبذل أدنى مجهود، والحمد لله الذي فرَّغ لنا الوقت للبحث في الأمور الشرعية، وإتمام العبادات والنوافل، أو حتى في اللهو.. ثم هم يعملون لنا!!

مع ملاحظة أن الرجل كان يتحدث عن هذا المنطق بحماسة شديدة وبحمية ظاهرة، بل ويصرِّح – بغرابة أشد – أن الله Y قد سخر لنا أمريكا واليابان والصين وألمانيا وروسيا وغيرهم ليكونوا طوع إرادة الأمة الإسلامية، فيخترعون ويبتكرون كل ما نريده!!

ولعلَّه قد فاته أن يذكر أن الله قد سخر إسرائيل أيضًا لخدمتنا، عن طريق الاحتلال باستخدام التقنية الحديثة والأسلحة المتطورة!!

الملاحظة الثالثة:

هناك خللٌ في فهم احتياجات الأمة الإسلامية، وطرق الإنفاق على وجوه الخير المختلفة، فتجد أن كثيرًا من أصحاب رؤوس الأموال قد يُنفقون على الفقراء والمساكين، ولكن لا ينفقون على طلبة العلم، وبالذات المغتربين منهم، والذين يعانون معاناة شديدة، ويحتاجون إلى تفرغ لجمع وتحصيل العلم..

ونجد أن بعض الأثرياء – مثلاً – يتبعون العمرة بعمرات عديدة، ومنهم من يوالون الحج عامًا بعد عام، ثم هم لا يفكرون في إنفاق المال في حضور مؤتمرٍ علمي متخصص في مجال كالطب أو الهندسة أو الفلك أو غيره، مما هو في مجال تخصصه وصميم عمله..

وقد تجد بعضهم يفكر في إنشاء معهدٍ ديني أو دار تحفيظ للقرآن، ولكنه لا يفكر في إنشاء مركزٍ لتعليم الكمبيوتر، أو مكتبةٍ علميةٍ حديثة، أو شبكة معلومات، أو جامعةٍ علميةٍ متخصصة..

بل إني رأيت كثيرًا من المسلمين في بلاد الغرب يحرصون على بناء مسجدٍ في بلدٍ قد يكون فيه عشرة مساجد أو يزيد، ولكنهم لا يحرصون علي بناء مدرسةٍ في نفس البلد، رغم افتقارها إلى مدرسةٍ واحدةٍ متخصصة!!

وهذا الخلل – لا شك – مردُّه عدم فقهٍ لمفهوم العمل الخيري في الإسلام؛ فالعمل الخيري عندهم مرتبط بالشعائر والعلوم الشرعية فقط، أما أمور إعمار الأرض وعلوم الحياة فهو مما يقع في مرتبة متأخرة جدًا في الأولويات، أو لعله لا يقع في الأولويات أصلاً!!

الملاحظة الرابعة:

تفشِّي الأمية بصورة كبيرة في بلدان العالم الإسلامي.. وهو ما يعني غياب قضية العلم أصلاً، أو أنها ليست مطروحة بالمرة..

ففي مصر – على سبيل المثال – وصلت نسبة الأمية في الفئة فوق سن الخامسة عشرة 29.6% وهذا يعني أن من بين كل عشرة مصريين ثلاثةً تقريبًا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة1!!

ويعني أيضًا أن ما يقرب من ثلث المجتمع المصري الذي يقع عليه واجب الإنتاج لا يقرأ ولا يكتب.. وخاصة ونحن نواكب عصر الفضاء والأقمار الصناعية والتكنولوجيا متناهية التعقيد..!!

كما يعني ذلك أيضًا – فيما يعنيه – أن هذه النسبة الخطيرة لا تقرأ الجرائد ولا تعرف المجلات.. بل لم تمسّ المصحف الشريف أصلاً..!!

أمّا الغريب، فحين نعلم أن هذه النسبة ليست بمعزل عنّا، وإنما تعيش بيننا وفي محيطنا، ومع ذلك فلا تجد أهل الخير حريصين على تعليمهم أو الإنفاق على تعليمهم، وكأ القضية مهمشة تمامًا في حياتنا!!

وحتى نعي خطورة وفداحة هذا الرقم، فيكفي أن نعلم أن نسبة الأمية في إسرائيل تبلغ 2.9% فيما فوق 15 سنة[2]!!

وفي الفئة العمرية من سن 15 إلى 24 سنة، وهي فئة الشباب، والتي هي أمل الأمة وعليها بناؤها، فتبلغ نسبة الأمية بينها في مصر 15.1% في مقابل 0.2% لإسرائيل في نفس هذه الفئة..[3]!!

ولإبراز الصورة بشكل أوضح، فإن دولة مثل كوبا، والتي أنهكها الفقر والحروب، تبلغ نسبة الأمية فيها في فئة الشباب من 15 إلى 24 سنة (صفرًا)!! أي ليس بها شاب ولا فتاة لا يقرءون ولا يكتبون، وتبلغ نسبة الأمية في الكبار فيها 0.2 % والتي هي في مصر – كما مر بنا – 29.6 % [1].

---

1 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت صفحة مصر، الرابط الالكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_EGY.html

2 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الالكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_ISR.html

3 نفس المصدر السابق.

بل إنك لتعجب أشد العجب إذا علمت أن نسبة الأمية في نفس هذه الفئة العمرية (فئة الشباب) في فلسطين المحتلة، في الضفة الغربية وغزة، هي 0.9% فقط، وذلك رغم الفقر والقهر والحصار إليهودي، ورغم قتل الأطفال والشباب والرجال والنساء، ورغم تهديم البنية التحتية من مبانٍ ومدارس ومستشفيات وغيرها[2]..!!

وليست كوبا الفقيرة ولا فلسطين المحتلة وحدها في هذا المجال، بل إن معظم دول أمريكا اللاتينية الفقيرة مثل شيلي والبرازيل، وحتى كولومبيا، تتخطى نسبة التعليم فيها حاجز 97 % و 98% [3].

ونعني بذلك أنه ليس هناك من أعذار ولا من مبررات للقعود عن حل هذه المعضلة وإحداث التغيير المنشود، ولا ينفع في ذلك التحجج بالفقر أو الأزمات الاقتصادية أو غيرها..

ومثل هذا لا ينطبق على مصر فقط، بل وعلى معظم البلدان الإسلامية الأخرى؛ إذ أن نسبة الأمية فيها قريبة جدًا من النسبة في مصر، بل وأحيانًا كثيرة تكون أعلى منها، وذلك كما في المغرب – مثلاً – حيث تبلغ نسبة الأمية فيها في فئة الشباب 30% أي ضعف التي في مصر، وفي فئة الكبار فتبلغ 48% وهذه كارثة بكل المقاييس..[4]!!

وإذا جئنا إلى موقف الإناث في مصر أيضًا – كمثال للبلدان الإسلامية – وجدنا أن نسبة الأمية بين بني جنسهن وصلت إلى 41% في مقابل 4% فقط لمثيلاتهن في إسرائيل[5]!!

ومثل هذه الإحصائيات (انظر جدول رقم 1) تُعطي انطباعًا عما يكون عليه المستقبل في مصر مثلاً، وكذلك البلدان الإسلامية الأخرى، مع العلم بأن هذه النسبة من الشباب الذين لا يقرءون ولا يكتبون قلما تجدهم يعرفون قيمة العلم، ومن ثم لا يحرصون على تعلمه، وفي الأغلب الأعم لن يدفعوا أولادهم مستقبلاً إليه، وسيزداد الوضع بالنسبة لهم سوءًا على سوء.

فعلى من – يا تُرى – تقع مسؤولية تعليم هؤلاء الشباب؟! هل هي مسؤولية الحكومة وحدها؟! أم هي مسؤوليتنا أيضًا كباغين الخير وساعين للصلاح، وكمتطلعين إلى رفعة أمة الإسلام وعلو شأنها..؟!

---

1 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت،كوبا ، الرابط الالكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_CUB.html

2 موقع الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.

3 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الالكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/indicators/20.html

4 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الالكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_MAR.html

5 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م، مرجع سبق ذكره.

إن تعليم مثل هؤلاء القراءة والكتابة لهو من أبلغ وأهم مجالات الدعوة إلى الله Y، وهو بابٌ يحتاج لمزيدٍ من الفكر والجهد، كما ينتظر من أهل الخير أن ينفقوا عليه بسخاء، وذلك عن طريق كفالة المعلمين الذين يقومون على تعليم هؤلاء الأميين، وإنها – والله – لنقلة نوعية للأمة، يوم يتقن جميع أبنائها القراءة والكتابة، بل علوم الدنيا والدين.

وقد يبدو لنا أن تعليم القراءة والكتابة أمر صعب قد يطول وقته، وتتعدد جلساته، ولكن هذا ليس صحيحًا بالمرة؛ وقد حكى لي أحد من أعرفهم أنه جلس مع اثنين من حرَّاس العمارات في المنطقة التي يقطنها، وفي خلال شهر واحد، بثمان لقاءات تقريبًا لمدة تتراوح بين الساعة والساعتين، أصبحوا يتقنون اللغة العربية قراءة وكتابة..!!

وأعتقد أن مثل هذا العمل متيسرٌ للجميع.. لمن أراد الثواب، ولمن أراد الخير والصلاح لهذه الأمة..

الملاحظة الخامسة:

من الملاحظات المزعجة حقًا والمحزنة جدًا، ظاهرة هجرة العقول الإسلامية إلى الغرب، فيما يُعرَف بظاهرة "استنزاف العقول" أو "Brain Drain"، فالأمم الغربية بصفة عامة – وأمريكا بصفة خاصة – تحرص على استقطاب العقول المفكرة والمبدعة علميًا من شتى بقاع الأرض، ومنها – بالطبع – بلاد المسلمين..

وليس أدل على ذلك من أن أمريكا قد أعطت في التسعينات 12 مليون مهاجر من شتى أنحاء العالم تأشيرة هجرة إليها، ولم تكن هذه التأشيرة مجرد تأشيرة سفر، فقد كانوا يعطوهم الجنسية الأمريكية، وفوقها ضمانات هائلة، وإغراءات مادية عالية، بحيث يذوب المهاجر تمامًا في المجتمع الأمريكي، وينقطع كليةً عن أصوله وجذوره التي انحدر منها[1]..

وموضوع استقطاب العقول هذا له أولوية خاصة في القرارات الأمريكية، حتى إن قانون الهجرة الأمريكية عُدِّل في سنة 1995م ليعطي أولوية الهجرة لأصحاب العقول المفكرة والمبدعة، ويكفي أن نشير إلى أن أمريكا خصصت في سنة 2003م مائتي ألف تأشيرة لاستقطاب مهارات في مجالات علمية معينة، منها مائة ألف تأشيرة لاستقطاب مبرمجي كمبيوتر من الهند، وذلك عندما ظهر التفوق الهندي في هذا المجال في السنوات الأخيرة، مع أن الظاهر للعيان أن التفوق الأمريكي في مجال الكمبيوتر يُعدُّ تفوقًا ملحوظًا[2]!!

---

1 موقع البلاغ: مقال بعنوان: العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار، الرابط: .htm0zh3t320http://www.balagh.com/thaqafa/

2 راجع في ذلك مقال بعنوان: "العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار"، منشور على شبكة"بلاغ".

وهذا إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أنهم لا يبحثون عن مجرد التواجد أو السيادة بفارق بسيط، وإنما يبحثون عن السيادة بفارق هائل وحاسم، كما أن هذا الاستقطاب لن يقوي أمريكا فقط، بل سيعمل على إضعاف الهند التي ستفقد مائة ألف متخصص جملة واحدة!!

وبنظرة متفحصة في ظاهرة هجرة العقول العربية الإسلامية إلى الغرب، تجد – على سبيل المثال – أن 50% من الأطباء العرب المسلمين يهاجرون إلى أمريكا وأوروبا هجرة نهائية، ليصبحوا بذلك ركنًا أساسيًا في نهضة المشروع الأمريكي الأوروبي الطبي، بينما ينزوي المشروع الإسلامي مع مرور الوقت.. وليس هذا في مجال الطب فقط؛ فالإحصائيات تقول: إن 23% من المهندسين و15% من العلماء من مجموع الكفاءات العربية المتخرجة يهاجرون متوجهين إلى أوروبا والولايات المتحدة، وكندا بوجه خاص، بل إن في بريطانيا وحدها تبلغ نسبة الأطباء من أصول عربية 34% من مجموع الأطباء هناك[1]!!

وقد أثبتت دراسة أجريت على الطلاب العرب الذين يسافرون لتحصيل العلم من أوروبا وأمريكا أن 54% منهم لا يعودون إلى بلادهم!! وبهذا وصل عدد العرب الذين يستقرون في أوروبا وأمريكا من حملة الشهادات المؤهلة العليا حتى سنة 2000 إلى 450 ألف عربي[2]!!

مع ملاحظة أن كل الإحصائيات السابقة على العرب وليست على عموم المسلمين، مع أن العرب لا يمثلون أكثر من خمس العالم الإسلامي. فإذا أضفت المسلمين غير العرب فإن الإحصائيات ستصل – بلا شك – إلى أرقام مفزعة، وبالأخص إذا كان هناك دول إسلامية غير عربية اشتهر أبناؤها بالهجرة إلى أوروبا وأمريكا بصورة لافتة، وذلك مثل باكستان والهند وإندونيسيا وتركيا ونيجيريا وغيرها..

ويكفي للدلالة على ذلك أن نيجيريا – على سبيل المثال – صدَّرت بمفردها إلى الآن إلى أمريكا فقط أكثر من 21 ألف طبيب نيجيري، وذلك على مدار السنوات السابقة[3]!!

والوضع في قارة أفريقيا بصفة عامة مشابه للوضع في بلاد العالم الإسلامي، وخاصة وأن كثيرًا من بلدانها هي بلاد إسلامية أو بها نسبة عالية من المسلمين، وذلك كما في الصومال والنيجر ومالي وتشاد وأوغندا وسيراليون وغيرها..

---

1 مجلة البرلماني العربي، السنة الثانية والعشرون، العدد الثاني والثمانون، ديسمبر 2001: مذكرة الأمانة العامة حول جوهر الدمغة العربية، الرابط: /memobrain.html82http://www.arab-ipu.org/publications/journal/v

2 مجلة البرلماني العربي، السنة الثانية والعشرون، العدد الثاني والثمانون، ديسمبر 2001: مذكرة الأمانة العامة حول جوهر الدمغة العربية، الرابط: /memobrain.html82http://www.arab-ipu.org/publications/journal/v

3 موقع القنطرة: مقال بعنوان: هجرة العقول سلبيات وإيجابيات ظاهرة الهجرة، الرابط: /_p-158/_nr-471http://www.quantara.de/webcom/show_article.php/_c-133099777/i.html?PHPSESSID=1

فأفريقيا تصدر سنويًا 20 ألف مهاجرٍ متعلمٍ إلى أوروبا وأمريكا، ثم بعد ذلك تدفع 4 مليار دولار سنويًا؛ كأجورٍ لأجانب وخبرات علمية مستقدَمة؛ لسد الثغرات التي خلَّفها غياب هؤلاء العلماء الأفارقة المهاجرين[1]!!

وهذه الإحصائيات كلها في الظروف الطبيعية العادية، أمّا في حال الكوارث أو الحروب أو الفتنة أو غيرها، فإن الأرقام تكون أبشع من ذلك..

فالعراق مثلاً تنزف من عقولها وعلمائها ما لا يُتخيل، وهناك في بريطانيا أكثر من 2000 طبيب عراقي!! وتتضح حجم الخسارة إذا علمنا أن الطبيب العراقي كان يكلف دولته في السبعينات أكثر من 45 ألف دولار.. فخسارة أكثر من 2000 طبيب عراقي إذن - وبحساب السبعينات - تعني خسارة 100 مليون دولار!! وهذا بالإضافة إلى الخسارة العلمية الناتجة عن فقد هؤلاء العلماء، وبالإضافة إلى الخسارة الصحية الناجمة عن فقْد من يعالج مرضى الدولة[2]..

والوضع ليس أفضل حالاً بالنسبة إلى فلسطين ولبنان والسودان.. وكل بلدٍ مر بحروب شديدة أو فتنة متكررة، وإن كان الأمر عامًا على كل بلاد المسلمين كما ذكرنا.

الملاحظة السادسة:

مع كل المعوقات التي تواجهها أمتنا للخروج من مأزق التخلف العلمي، إلا أن الأعذار لاستمرار هذا التخلف غير مقبولة؛ وذلك لأننا نرى دولاً أخرى غير إسلامية مرت بنفس ظروف أمتنا أو أشد، ثم هي تخرج من كبوتها وأزمتها، وترتفع إلى مصافِّ الدول المتقدمة والمؤثرة في العالم..

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتكررة، فهناك - على سبيل المثال - اليابان التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية في الخروج من الأزمة الرهيبة التي عصفت بها، وهناك ألمانيا التي أبيدت أيضًا في الحرب العالمية الثانية، وهناك كوريا الجنوبية التي لم تظهر على الساحة العالمية إلا منذ سنوات معدودات، وهناك كوريا الشمالية التي استطاعت أن تصنع السلاح النووي مع كل المعوقات التي تمر بها.. بل هناك الهند، مع كل ما تعانيه من فقرٍ وتكدُّسٍ سكاني رهيب، فإنها قد استطاعت أن تُصنِّع السلاح النووي، واستطاعت كذلك أن تنبغ وتبرز في مجال الكمبيوتر، بل وتصبح من الدول الأولى المرموقة في هذا المجال في العالم. ويكفي في التدليل على ذلك ملاحظة المعدلات المتنامية لصادراتها في مجال برامج الكمبيوتر فقد بلغت صادراتها نحو 23.71 مليار دولار في 2005 – 2006م مقارنة بـ 17.21 مليار دولار في 2004 - 2005،

---

1 شبكة المشكاة الإسلامية: إدريس جالو: مقال بعنوان: هجرة العقول الإفريقية الآثار والحلول، الرابط: 7717&artid=6http://www.meshkat.net/new/contents.php?catid=

2 موقع البلاغ: مقال بعنوان: العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار، الرابط: .htm0zh3t320http://www.balagh.com/thaqafa/

وتسجِّل صادرات الهند في قطاع تكنولوجيا المعلومات سنويًا نموًا هائلاً، ففي الفتره ما بين عامي 2005 – 2006 سجل حجم الصادرات الهندية في هذا القطاع نموًا بنسبة 37.77% مقارنه بالفترة ما بين 2004 - 2005.[1]

ومع أن المعوقات أمام الدول الإسلامية قد تكون أشد، إلا أن هذا ليس مبررًا لقبول مبدأ التخلف العلمي؛ فإنه إذا أرادت دولة إسلامية أن تصل إلى مستوي علمي لائق فإنها حتمًا ستصل، والأسباب متاحة للجميع، وليس أدل على ذلك من المثال الماليزي.. فدولة ماليزيا الإسلامية تتقدم اليوم بخطوات ثابتة رصينة في طريق العلم، وترتقي يومًا بعد يوم مع كل المعوقات التي تمر بها..

وهذه التجربة الماليزية تحتاج إلى دراسة متأنية؛ لأنها بالفعل تفتح أبواب الأمل أمام عموم المسلمين، وسنتعرض لها في نهاية الكتاب بإذن الله..

الملاحظة السابعة:

من الملاحظات السلبية والخطيرة كذلك والتي تدل على إهمال المسلمين لعلوم الحياة.. قضية "الإنفاق على العلم والبحوث العلمية"..

فقد أورد تقرير التنمية البشرية الصادر عن منظمة الأمم المتحدة لعام 2006م، بندًا يقيس مدى اهتمام دول العالم المختلفة بقضايا العلم، ويحدد ذلك بنسبة ما تنفقه الدولة على البحث العلمي من جملة ناتجها القومي كل عام..

وفي هذا التقرير لن نقارن الدول الإسلامية بالدول الصناعية الكبرى، مثل أمريكا واليابان والصين وفرنسا وألمانيا وإنجلترا وغيرها، وإن كان يجب أن نقارن أنفسنا بهؤلاء لنصل إلى ما وصلوا إليه، بل ولنسبقهم إن شاء الله.. ولكننا سنقارن بدولة لقيطة ليس لها جذور حقيقية، ولا تملك من القيم ما يدفعها للصدارة، كما أنها قامت على أرض مضطربة مليئة بكثير من المشكلات والصعوبات والمعوقات، وتلك الدولة هي إسرائيل!!

فإسرائيل تنفق 4.9% من ناتجها القومي على العلم والإنجازات التقنية، وتُعَدُّ هذه أعلى نسبة إنفاق في العالم على العلم، ويفوق في ذات الوقت ما تخصصه كل الدول العربية مجتمعة بنحو ثلاث مرات ونصف[2]!! وهي بهذا الكم من الإنفاق تستطيع أن تصل إلى مستوى الدول المصنِّعة والمبتكرة، بل وتفوقها،

---

1 مجلة البيان: العدد (9842) السنة السابعة والعشرون، الرابط: http://www.albayan.ae/servlet/Satellite?c=Article&cid=1161352119791&pagename=Albayan%2FArticle%2FFullDetail

2 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م،صفحة إسرائيل، الرابط الالكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_ISR.html

وبالفعل فقد أصبح لها رصيد محترم من الاختراعات والإضافات، وفي أكثر من مجال، سواء في العلوم العسكرية، أو علوم الفضاء، أو علوم الذرة، أو العلوم الطبية، وكذلك باقي مجالات التصنيع المختلفة..

فالعلم يقع في بؤرة اهتمامها، ولذلك وصلت إلى مستوى متميز، وإلى مكانة مرموقة.

أما إذا نظرت إلى الدول الإسلامية، فإنك – وللأسف الشديد – تفاجئ بأن قضايا الإنجاز العلمي والتقني والابتكارات لا تقع في بؤرة الاهتمام، ولا ينفق عليها من الناتج القومي إلا النذر اليسير، مع أنه إذا زاد الاهتمام بالعلم فإن ذلك سيساعد على تقدم الصناعة والزراعة والاقتصاد والتصدير، وكافة المجالات الأخرى، وهذا – من وجهة نظر مادية بحتة – سيقدم الأمة للأمام خطوات وخطوات، وسيصب في قوتها، ليس علميًا واقتصاديًا فحسب، وإنما أيضًا سياسيًا وعسكريًا..

ولكن – وعلى ما يبدو – فإن القضية لا تشغل أذهان المسئولين عن هذه الأمة الضخمة!!

فيذكر تقرير الأمم المتحدة أن مصر – مثلاً – تنفق 0.2% من ناتجها القومي على العلم والإنجاز التقني، أي أن نسبة إنفاق إسرائيل على العلم ضعف نسبة إنفاق مصر ما يقرب من 25 مرة[1]!!

وعليه فلا يشك أحد أن التميز إليهودي في مجال العلوم سيكون ضعف التميز المصري 25 مرة.. وهذه سنة ماضية، فالذي يبذل في الدنيا لابد أن يصل إلى ما يريده، كما لابد لتحقيق نتائج معينة أن تُبذل أسباب بذاتها، حتى لو كان هذا الذي يبذل كافر ملحد.. يقول تعالى: (**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ**[2]).

وعن بقية البلدان العربية، فإن حالها لا يختلف كثيرًا عن أحوال مصر في مجال الإنفاق على العلوم والتقنية، وهي تحوم حول نفس النسبة تقريبا..

فهذا الأردن ينفق 0.3% من الدخل القومي على العلم، وتونس كذلك، وسوريا تقل لتصل إلى 0.2% من جملة دخلها القومي. وتعد الإمارات أعلى الدول العربية من حيث الإنفاق على العلم؛ إذ يصل نسبة إنفاقها 0.6% من دخلها القومي[3]، ومع أنها أعلى الدول العربية إلا أن المسافة بينها وبين إسرائيل مازالت شاسعة..

---

1 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م صفحة مصر، الرابط اللكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_EGY.html

2 (هود: 15).

3 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م صفحة كل البلدان، الرابط اللكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/indicators/20.html

وفي غير قضايا الإنفاق على الأبحاث العلمية، وبما يعبر عن المدى الذي وصل إليه المستوى العلمي في الدول الإسلامية مقارنة بإسرائيل، فقد كشف تقريرٌ صادرٌ عن هيئة الأمم المتحدة عن حقيقة الفجـــوة التكنولوجية والعلمية بين العرب وإسرائيل، والتي تجسد تفوقًا علميًّا وتكنولوجيًا إسرائيليًا ساحقًا..

ففي حين يذكر التقرير أن لكل 1000 مواطن إسرائيلي 217 جهاز كمبيـــوتر، يـــذكر أن في الأردن 52 جهازًا لكل ألف أردني، وفي لبنان 39 جهازًا لكل ألف لبناني، وفي مصر 9 أجهزة لكل ألف مواطن مصري..[1]!!

وبالنسبة لعدد الباحثين العلميين في العالم العربي مجتمعًا، فإن التقرير يُشير أيضًا إلى أن لكل مليـــون مواطن عربي 136 باحثًا، في حين أن في إسرائيل 1613 باحثًا لكل مليون يهودي يعيش في إسرائيل[2]!!

وإذا أردنا التوسع في ذكر أمثلة أخرى، فإن في أمريكا 4374 باحثًا لكـــل مليـــون مـــواطن أمريكي، وفي اليابان 5000 باحث علمي لكل مليون مواطن ياباني[3]..

أما بالنسبة إلى نصيب المواطن في الدولة من الإنفاق على التعليم، فهو - حسب إحصائيات نفس التقرير - في إسرائيل 922 دولار سنويًا، والمواطن الأمريكي يصرف عليه 1005 دولار سنويًا، أمـــا المواطن المصري فنصيبه 6 دولار سنويًا!!

والجدول رقم (2) يوضح دارسي العلوم الطبيعية والعلماء والمهندسين، وإنتاجهم مـــن البحـــوث العلمية، والإنفاق على البحث والتطوير العلميين في الدول العربية ودول مختارة، مقارنة بالمتوسط العالمي.

ولا تُعذَر البلاد العربية والإسلامية بفقرٍ أو بضيق في ذات إليد، ويكفي في ذلـــك أن نعـــرف أن واحدة من هذه الدول التي تشكو معاناة الفقر والتكدس السكاني، تُنفق الملايين والملايين على أمور ليســـت من الأولويات في شيء.. وقد رأينا مؤسسة علمية ضخمة في مصر تنفق 15 مليون جنيه مصـــري علـــى تجميل السور المحيط بها، بينما يصعب جدًا إنفاق ألف أو ألفين جنيه مصري على مشروع بحثـــي مفيـــد!! ورأينا أيضًا من يكلف تأسيس مكتب مدير مؤسسة علمية مئات الآلاف من الجنيهات، بينما يتردد هـــذا المدير في الموافقة على مكافأة بسيطة لعالمٍ كادح!!

فالإمكانيات متاحة والأموال موجودة.. لكن المشكلة تكمن في ترتيب الأولويات، وفي فقه الواقع، وفي الضمير، وفي تقديم المصالح الخاصة على المصالح العامة، وفي ضعف الاعتقاد في أهمية العلم..

1 تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام 2006م.

2 نفس المصدر السابق.

3 نفس المصدر السابق.

وخلاصة هذه الملاحظة أن قضية العلم لم تقع بعدُ في بؤرة الاهتمام في العالم العربي والإسلامي، وكان هذا - ولا شك - أحد أهم الأسباب المباشرة لحالة التخلف والتردي التي تمر بها الأمة، والأمر يحتاج إلى وقفات..

الملاحظة الثامنة:

نظرًا للأهمية القصوى للعلم، ونظرًا للاهتمام بأبحاثه والتطلع إلى كل جديد فيه، وأهمية أن تضع الدولة في مخططاتها المستقبلية سبل الارتقاء به وتنميته؛ فإن الأمم المتحدة - كما جاء في تقرير التنمية البشرية لسنة 2001م - تُقسم العالم بحسب الإنجاز التقني إلى خمس فئات، وأولى هذه الفئات هي مجموعة القادة، ثم القادة المحتملون، ثم النشطون، ثم المهمشون، وأخيرا: الآخرون..

وقد أظهر هذا التصنيف خللاً كبيرًا في عالمنا الإسلامي!!

فالفئة الأولى وهي مجموعة القادة ضمت 18 دولة، ليس من بينهم دولة إسلامية واحدة.. بينما تقع إسرائيل ضمن هذه الفئة الأولى!!

أما الفئة الثانية وهي القادة المحتَملون، فقد ضمَّت - فيما ضمَّته - دولة إسلامية واحدة هي ماليزيا، بينما تقع مصر وإندونيسيا وتونس وسوريا والجزائر وإيران في فئة النشطين، أما بقية الدول العربية والإسلامية فتقع في طائفة المهمشين والآخرين، والذين لم يضعوا قضية العلم في حساباتهم مطلقًا..

والجدير بالذكر أن بعض هذه الدول الإسلامية تتميز بمستوى مرتفع في المعيشة، بل وارتفاع في معدلات التنمية، لكن — وللأسف - ليس لها اهتمام يُذكَر بالإنجازات التقنية.

وعند النظر إلى الدول القادة أو تلك التي يحتمل أن تصبح قادة، تدرك ولأول وهلة إلى أي مدى وضعت هذه الدول البحث العلمي في أولى حساباتها، وكيف كرَّست جهودًا مضنية للوصول إلى هذه المكانة المرموقة التي تبوأتها..

فعلى سبيل المثال فإن رجال الصناعة في مجالات الاتصالات والمعلومات، وفي مجالات تصنيع الأخشاب في دولة مثل فنلندا - وهي دولة تتفوق في هذه المجالات - يخصصون 20% من أوقاتهم لتوريث الخبرة إلى طلاب الجامعات الفنلندية.. وبذلك تستمر الدولة في طريقها نحو التفوق، ويبدأ فيها الطلاب من حيث انتهى العلماء، وتستطيع الدولة أن تحافظ على مكانتها العلمية، بل تتقدم وتسبق..

وفي دولة مثل الصين تجد أن الجامعات الحكومية تدعم مجالات البحث العلمي، ليس فقط في المشروعات الحكومية، وإنما تدعمه أيضًا لصالح المؤسسات الصناعية في القطاع الخاص، وذلك مثل تحديث الصناعات البتروكيماوية، وتحسين الأنشطة التقليدية في مجال الزراعة، وغيرها..

وهكذا تساعد الجامعات الحكومية في الصين عموم الشعب لكي يبدع في مجالات العلوم والتقنية، ولا غرو إذن في أن تصل الصين إلى هذه المكانة المتقدمة التي احتلتها بين دول العالم..

وهذه كوريا الجنوبية.. تجدها تقفز خطوات كبيرة جدًا في مجال العلوم والتقنية الحديثة، بل وتنافس الآن دول العالم الكبرى.. فإذا راجعت برامجها وقوانينها تجد أنها – مثلاً – تُقدم تسهيلات ضريبية كبيرة للشركات التي تساهم في مشروعات البحث العلمي، كما تجد أنها تمد هذه الشركات بالكفاءات العلمية التي تساعدها على إتمام مشروعاتها العلمية، وبالطبع فإن الفائدة في النهاية تعود على الدولة ككل[1]..

1 مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية،2001م، الرابط http://www.ahram.org.eg/acpss/ahram/2001/1/1/ECON8.HTM.

الملاحظة التاسعة:

وضع وترتيب الجامعات الإسلامية على مستوى العالم.. فالطبيعي أن تقدم دول العالم يُقاس اليوم بقدر إسهامها في بناء الحضارة الإنسانية وتقدم العلوم، وهو دورٌ لا تقوم به إلا الجامعات العلمية في تلك الدول..

وعلى هذا الأساس فقد نشر معهد التعليم العإلى في جامعة جياو تونج في شنغهاي بالصين (Institute of Higher Education, Shanghai Jiao Tong University) تقريرًا تقييميًّا مفصّلا حول ترتيب ومكانة أفضل خمسمائة جامعة في العالم في سنة 2004م، وتلاه تقرير سنة 2005م، ثم تقرير سنة 2006م[1].

وهذه التقارير تبرز بوضوح تلك الفجوة الهائلة في مجالات البحث العلمي والاهتمام بالإنجازات التقنية بين دول العالم الإسلامي ودول العالم الأخرى..

وبداية فإني لست مع من يُشكك في مصداقية أي من هذه التقارير، أو الادعاء بأنها غير موضوعية، وقد اطَّلعت عليها فكانت النتائج جد متقاربة، مما يعطي انطباعًا بأن هناك دقة في المعايير.. وهذا بالإضافة إلى مطابقة نتائجها للواقع الذي نحياه..

ومما يعطي المصداقية أن تصنيف جامعة شنغهاي هذا استند إلى أربعة معايير علمية وموضوعية، يشهد بها كافة الأكاديميين في العالم، كما يستند إلى عدد من المؤشرات أو وحدات القياس في كل معيار، ويخصص لكل من تلك المؤشرات نسبًا مئوية حصيلتها 100 علامة، وتلك المعايير والمؤشرات هي[2]:

1- معيار جودة التعليم: المؤشر: "خريجو المؤسسة الجامعية، والحائزون على جوائز نوبل منها أو ميداليات في مجال تخصصهم، ونسبته10%".

2- معيار جودة الكلية أو المعهد: المؤشر: "الجهاز البشري العلمي في المؤسسة، والحائزون على جوائز نوبل والميداليات في التخصص منها، ونسبته 20% والمؤشر: "الباحثون رفيعو المستوى لديها في 21 فئة من الموضوعات العلمية الرئيسية، ونسبته 20%".

---

1 نشر ترتيب الجامعات على موقع الكتروني يتبع جامعة شنغهاي، وذلك على شبكة الانترنت، الرابط الالكتروني http://ed.sjtu.edu.cn/ranking.htm

2 نفس المرجع السابق، وفي صفحة خاصة بقواعد التفضيل بين الجامعات، الرابط الالكتروني، http://ed.sjtu.edu.cn/rank/2004/Methodology.htm

3- معيار مخرجات الأبحاث العلمية: والمؤشر: "المقالات المنشورة من قبلها في فهرس علوم الطبيعة والعلوم الأساسية، ونسبته 20% والمؤشر: المقالات المنشورة في الفهارس الموسعة في العلوم الاجتماعية والفنون والعلوم الإنسانية، ونسبته 20%".

4- معيار حجم المؤسسة: المؤشر: "الأداء الأكاديمي من قبلها، مع الأخذ بالاعتبار حجم المؤسسة العلمية، ونسبته 10%.

فهي - ولا شك - معايير قوية وموضوعية جدًا، استندوا إليها في ترتيبهم لأفضل خمسمائة جامعة في العالم.. وهو ما يجعلنا نقف وقفة - من خلال تقارير السنوات الثلاث السابقة - نستقريء منها الملاحظات المهمة التالية:

1- في تقرير سنة 2004م خَلَت الجامعات الخمسمائة من جامعة إسلامية، وفي تقرير سنة 2005م دخلت دولة إسلامية واحدة بجامعتين برقم 409 و 468 على العالم، وهي تركيا..!!

وهذا فأل حسن، والوصول إلى القمة لن يحدث قفزة واحدة، وتركيا استحقت بالفعل أن تدخل هذا الترتيب، وتحتاج تجربتها إلى دراسة متأنية.

وبينما أصابتنا حالة من الحزن لخروج تركيا من تصنيف الجامعات الأولى في تقرير سنة 2006م عوَّضتنا مصر عن ذلك بدخولها في التصنيف بجامعة القاهرة، وذلك بترتيب 404 من أفضل 500 جامعة على مستوى العالم[1].

2- أمريكا هي الدولة الأولى في العالم من حيث عدد جامعاتها في تقرير سنة 2005م؛ إذ شملت القائمة 168 جامعة أمريكية، من بين العشرين الأولى فيها 17 جامعة أمريكية، ومن بين المائة الأولى 53 جامعة أمريكية.

وتتصدر جامعة هارفارد الأمريكية الجامعات الخمسمائة، ثم جامعة ستانفورد في المركز الثالث، ومعهد ماساشوستش للتكنولوجيا، والذي درس به بنيامين نيتانياهو رئيس وزراء إسرائيل الأسبق في المركز الخامس، ثم جاء معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، والذي يضم الدكتور أحمد زويل في المركز السادس.

أما بقية الجامعات العشرين الأولى: فاثنتان منها بريطانيتان، وهما جامعة كمبردج، وتأتي في المركز الثاني، وجامعة أكسفورد وترتيبها العاشر، وجامعة يابانية، وهي جامعة طوكيو، وترتيبها العشرون، وكان ترتيبها في تقرير 2004م الرابع عشر.

---

1 معهد التعليم العالي في جامعة شنغهاي جياو تونغ، الصين، الرابط http://ed.sjtu.edu.cn/rank/2006/ARWU2006TOP500list.htm

3- جاءت أولى جامعات الصين - التي خرج منـها التقرير - في المركـز 162 في ترتيـب الجامعات، وذلك بجامعة تايوان الوطنية على أنها أولي الجامعات الصينية في الترتيب، وذلك باعتبار أن تايوان جزء من الصين.. ولم يرصد المعهد صاحب التقرير لجامعات بلاده ومعاهدها ومراكزها العلمية التي تبلـغ الآلاف إلا 18 جامعة فقط..!!

وهو وإن دلَّ على شيء فإنما يدل على مصداقية وموضوعية هذا التقرير؛ إذ كان التحيز أن تـأتي بكين أو شنغهاي على رأس القائمة لكونهما في الصين الشعبية لا الجامعة الوطنية في تايوان.

4- الدولة الثانية في عدد الجامعات بعد أمريكا هي إنجلترا، وعدد جامعاتها في قائمة الخمسمائة هو 40 جامعة.. ولك أن تتخيل بعد ذلك الملازمة التي بينها وبين أمريكا، بعد أن تدرك أولاً من التابع ومـن المتبوع فيهما..؟!

5- الدولة الثالثة في عدد الجامعات في القائمة هي اليابان بنحو 34 جامعة..

6- تأتي إسرائيل لتحتل المركز الثاني عشر في التقرير، متفوقة بذلك علي دول كبري مثل روسـيا والصين، وذلك بسبع جامعات إسرائيلية، على رأسها الجامعة العبرية في القدس، وجاءت في المركـز 78، وكانت في تقرير 2004م في المركز التسعين، بما يعني أنها في صعود وتقدم مستمر..!!

7- وتأتي جنوب أفريقيا لتكون هي الدولة الأفريقية الوحيدة في قائمة دول الجامعات الخمسمائة عام 2004م، وذلك بأربع جامعات..

8- ولئلاّ نعوِّل على الفقر، فقد ضمت القائمة دولاً فقيرة مثل: سنغافورة والمكسـيك وجنـوب أفريقيا والمجر وايرلندا والهند والأرجنتين وإليونان وبولندا والتشيك وشيلي والبرتغال..

9- جاء ترتيب الدول الثمانية الصناعية الكبرى في المراكز العشرة الأولى، وذلك باستثناء روسيا، والتي جاء ترتيبها في المركز 17 بين دول القائمة، وليس هذا من قبيل المصادفة؛ فمن الواضح أن روسيا في تدهور مستمر، ولكن بصفة عامة لابد أن تكون الدول الصناعية الكبرى في الصدارة بخصوص قضايا اعلـم والتعلم.

ويبين الجدول رقم (3) تقرير معهد التعليم العإلى في جامعة جياو تونج الصينيّة لسنة 2005م.

10- بعد تقارير معهد التعليم العإلى في جامعة جياو تـونج الصـينيّة لسـنة 2004 و2005 و2006م، ظهر تقرير آخر سنة 2006 لمجموعة "لابوراتوريو دي إنترنت" المتخصصة، ومقرها مدريـد،

لتفاجئنا هي الأخرى بنتائج ترتيب أفضل ثلاثة آلاف جامعة في العالم.. إذ كانت النتائج أيضًا مفزعة (انظر الجدول رقم (4) ومخيبة للآمال[1]!!

فقد كانت أمريكا هي الدولة الأولى في العالم من حيث عدد جامعاتها في تلك القائمة أيضًا؛ وقد شملت الألف جامعة الأولى 455 جامعة أمريكية، على رأسها جميعا جامعة كاليفورنيا. وكانت الدولة الثانية أيضًا في عدد الجامعات بعد أمريكا هي بريطانيا، بنحو 79 جامعة بريطانية.. ثم جاء الترتيب بعد ذلك قريبًا من التقرير السابق.

ولا شك أن مثل هذه الحقيقة لم تكن مؤامرة، وليست حقدًا أو غيرة من الدول الإسلامية.. وإنما هي تجسيد وتصوير حيٌّ لما تمر به الأمة؛ الأمر الذي يوقفنا على تشخيص المرض وموطن الداء، ومن ثم وصف الدواء..

الملاحظة العاشرة:

وهذه الملاحظة تعم بلدان العالم الإسلامي، وهي مؤسفة جدًا، وتكمن في عدم الاهتمام مطلقًا بالهيئة التعليمية، تلك التي تحمل مسئولية قيادة البلاد علميًا وتقنيًا، وذلك بدءًا من العلماء وأساتذة الجامعات، ومرورًا بكل مراحل التعليم، وانتهاء بمدرسي المدارس الابتدائية والحضانات..

والأمر – بلا شك – يعكس قيمة العلم في منظور هذه الدول..

فإذا نظرنا إلى المرتبات والأجور التي يتقاضاها العلماء والأساتذة – كواحدة من الصور التي تعكس قيمة العلم ومكانته في هذه الدول – تجد أنها لا تكفي بحال من الأحوال لسد أقل متطلبات الحياة اليومية!!

وعليه فإن هذا العالم وذاك الأستاذ من الصعب – إن لم يكن من المستحيل – أن يبرع ويبتكر في مجاله في مثل هذه الظروف.. فهو أولاً سيبحث عن عمل خارجي إضافي كي يتكسّب منه، ويحصِّل من ورائه جزءًا من المال يتقوى به على متطلبات الحياة، وكثيرًا ما يكون هذا العمل الإضافي في خارج مجاله تمامًا..

ثم هو ثانيًا لن يهتم كثيرًا بعمله في الجامعة أو المؤسسة العلمية؛ كونه يشعر بالغبن في الأجر، وبعدم التقدير للمجهود، ومن ثَم يعطي من مجهوده ما يتناسب في تقديره والأجر الذي يتقاضاه.

ثم هو ثالثًا يشعر بالسُّخط وعدم الانتماء لهذه الدولة التي لم تُقدِّر جهده وسعيه وعلمه.. وهذا الشعور المقيت يقتل كل نوايا الإبداع والابتكار.

---

1 الترتيب الخاص بمجموعة "لابوراتوريو" منشور على موقعهم الخاص على شبكة الإنترنت، والرابط الإلكتروني http://www.webometrics.info/index.html

وفي النهاية تراه وقد قرر الهجرة وترك الديار إلى بيئة تُقدِّره علميًا أو ماديًا.. فإما أن يهاجر إلى أمريكا أو إلى أوروبا ليرتقي بعلمه وينبغ فيه، ويدخل بذلك ضمن المنظومة العلمية الغربية، وإما أن يبحث عن عقد عمل مجزٍ، ولو كان على حساب مجاله، ولو كان في بيئة لا تهتم أصلاً بالعلم ولا تحفل به!!

ولعله من البدايات المهمة والتي يجب أن تكون نقطة انطلاق في تلك البلاد التي تريد أن يكون لها مكانة بين الدول الكبرى، أن تهتم بأجور علمائها وأساتذتها ومربييها.. ويكفي في الإشارة إلى ذلك أن تعلم أن مرتب أستاذ الجامعة في بلد كمصر هو أقل من مرتب أستاذ الجامعة في أمريكا أو أوروبا الغربية بأكثر من خمسين مرة على الأقل، وأحيانًا أكثر من مائة مرة، مع أن الأسعار بصفة عامة أرخص هناك عن الأسعار في بلادنا!!

وهذا يعطي انطباعًا وخلفية عن الحالة النفسية والمادية التي يعيشها العالم هناك، مما يعني فرصًا أكبر للإبداع والتفوق والابتكار..

ولا مجال هنا للاعتذار والتعلل بضعف الوضع الاقتصادي في بلادنا، والتحديات التي تواجهنا؛ فإن مرتب الوزير في بلادنا ومن كان في وضعه السياسي يفوق مرتب مثيله في تلك البلاد الغربية المتقدمة مرات عديدة!!

فالقضية إذن ليست قضية نقص مال، وإنما هي قضية نقص علمٍ ونقص فقهٍ وسوء تصرف.. وأحيانًا كثيرة تكون نقص ضمير!!

أنا لا أقول هذا لنلقي باللوم على بعضنا البعض، ولكن لنقف وقفة جادة في سبيل حصول التغيير.. أريد أن يعلم الجميع أن ديننا يأمر بعكس ما نفعل الآن.. ديننا يأمر بالعلم النافع على إطلاقه، سواء علوم الشرع أو علوم الحياة..

وأريد أيضًا أن أقول أن الوقت ليس متأخرًا أبدًا إذا أردنا البداية، وأن النهضة لا تحتاج إلى عقود، وإنما تحتاج إلى إخلاص، وإلى جهد، وإلى بذل، وإلى خطة، وإلى عمل..

نتيجة كل هذه الملاحظات السابقة، وبعد رؤية حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كان من الطبيعي أن يُتهم الإسلام بأنه سببٌ لهذا التخلف العلمي الذي تمر به الأمة..

وقد حرص أعداء الأمة – سواء من خارجها أو من أبنائها العلمانيين – على الضرب على هذا الوتر، وادعاء أن الإسلام "دينٌ رجعي" يقاوم التجديد، ويمنع الابتكار، ويقتل الإبداع!!

ولا ريب في أن هذا الادعاء خلاف الواقع والحقيقة تمامًا؛ إذ ما عرفت البشرية قانونًا أو تشريعًا كالإسلام يحض على العلم النافع، ويدفع إلى عمارة الأرض والاهتمام بكنوزها وثرواتها..

وإذا كان الغربيون معذورين بتخوفهم من الدين الإسلامي، وذلك لسابق عهدهم وذكرياتهم الإليمة مع الكنيسة الأوروبية، تلك التي حاربت العلم والعلماء بكل طاقتها، فلم يبدع علماء أوروبا إلا بعد أن تخلصوا من سلطان الكنيسة – إذا كان الغربيون معذورين بذلك، فكيف يعذر المسلمون في هذا الفكر؟!

كيف يعذرون والنصوص القرآنية والنبوية التي تحض على العلم وتشجع عليه أكثر من أن تحصى؟ وكيف يعذرون والتاريخ الإسلامي كله يشهد بتفوق المسلمين العلمي وفي شتى مجالات علوم الحياة؟ ويشهد كذلك التاريخ الإسلامي أن الدولة الإسلامية في معظم مراحلها كانت تشجع العلم وترعى العلماء، وكان الخلفاء يجزلون العطاء للعلماء، ويولونهم عناية خاصة، وكانت هذه سياسة عامة متبعة، وتوجًا واضحًا للدولة الإسلامية على كافة مستوياتها..

إن الأمر يحتاج إلى وقفة جادة.. والألسنة التي تطعن في الإسلام لن تخرس إلا بصحوة علمية قوية، وبعزيمة صادقة.. تدفع المسلمين دفعًا إلى اللحاق بالركب، بل والسبق فيه إن شاء الله..

من هذه الملاحظات والمشاهدات العشر ومن غيرها، ندرك بوضوح أن قضية "علوم الحياة" والتقدم فيها ليست في نصابها، وليست في موضعها الصحيح الذي ينبغي أن تكون عليه بين المسلمين، بل أحيانًا ما نجدها خارجة عن بؤرة اهتمام المسلمين بالكلية..

أما لماذا وصلت الأمة إلى هذه الحالة.. فالأسباب – لا شك – كثيرة، وإن كانت كل هذه الأسباب مجتمعةً لا تبرّر هذا الموقف السلبي من قضايا الاجتهاد والابتكار في علوم الحياة، لاسيما وأن الخلفية الشرعية لإهمالنا الذي نعيشه غير موجودة تمامًا؛ إذ الإسلام – كما رأينا – يحض على العلم النافع بكل صوره..

ولذلك فالقضية غريبة على الشرع الإسلامي، وتحتاج لوقفة وتحليل.. وهو موضوع الفصل التالي.

الفصل الرابع: الإِسْلامُ وَعُلُومُ الحَيَاة

لا يخفى على أحد ذلك الخلل الكبير في المستوى العلمي لكثير من المسلمين، وأحيانًا يكون الخلل عند الملتزمين بتعاليم الدين، علمًا بأن مستوى هؤلاء الملتزمين في العلوم الشرعية غالبًا ما يكون على درجة طيبة جدًا.. مما يعكس اهتمامًا بالجانب الشرعي، وتغليبه - إلى حدٍ كبيرٍ - على الجانب الحياتي في قضايا العلوم والتعليم..

وهذا الفصل في الاهتمام بين علوم الشرع وعلوم الحياة أمرٌ غريبٌ على الشريعة الإسلامية، ودخيل على أمتنا، وهو أمر جد خطير؛ لأنه كما لا يصلح بناء الأمة الإسلامية بغير العلوم الشرعية، فكذلك لا يصلح بناء الأمة الإسلامية بدون العلوم الحياتية، والفصل بينهما - لا شك - يؤخر المسيرة، بل يكاد يوقفها، وما عرِفَتْ الأمة الإسلامية السيادة والقوة والمجد والصدارة إلا وكانت علومها الحياتية قوية وسابقة، وما عرفت الأمة الإسلامية الضعف والتأخر والتخلف إلا وكانت علومها الحياتية ضعيفة ومهملة.. والتاريخ خير شاهد على ذلك، وفي أكثر من موضع.

إذن.. لماذا حدث هذا الفصام غير المفهوم؟!!

على ما يبدو فإن القضية في الأساس هي قضية فَهْم.. وإن كان للأعداء تخطيطهم وتدبيرهم، إلا أن العيب ينبع أساسًا من داخلنا..

فعلى مدار السنوات الماضية اختل فهم المسلمين - سواء بفعل فاعلٍ خارجي أو داخلي - لمعنى كلمة "العلم النافع"، فصاروا يقصرونها على العلوم الشرعية فقط، مع أن الأدلة - كما سنوضح بعد قليل - متواترة على عكس ذلك..

والأمر هذا كان مترتبًا على فهم أن ساحة التقرب إلى الله Y محصورة فقط في الشعائر التعبدية المحضة، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، أما ساحة الدنيا وعمرانها وأصلاحها وتسخير إمكانياتها، فقد ابتعدت عن تلك التي أُريد بها وجه الله سبحانه..

ففي العقود الأخيرة التي مرت بأمتنا نظر كثير من المسلمين إلى العلوم الحياتية نظرة إهمال، بل نظرة ازدراء وتنقيص، وساعد على هذا الفهم الخاطئ بعض العلماء الذين قسَّموا العلوم إلى علوم "دينية" وعلوم "دنيوية"، فغدت علوم الطب والهندسة والكيمياء، وما على شاكلتها علومًا دنيوية، بينما علوم الشريعة من فقه وتفسير وعقيدة وغيرها هي العلوم الدينية أو الأخروية!!

وهكذا فإن المسلم الملتزم سرعان ما يشعر بحرجٍ شديد وهو يدرس هذا العلم الدنيوي؛ إذ أنه ينصرف بذلك – فيما يعتقد – عن علوم الآخرة، وهذا يعني عنده أنه سيترك شيئًا من أمور "الدين" إلى شيء من أمور الدنيا!!

والدنيا بصفة عامة مذمومة في الكتاب والسنة، وما أكثر الآيات والأحاديث التي جاءت تحث المسلمين على الزهد فيها، وعدم الاكتراث بها ولا بحجمها.. والأمر في ذلك أكثر من أن يُحصى، ويكفي للدلالة عليه أن نورد قوله تعالى: (**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**[1]).

ويقول سبحانه أيضًا منقصًا من شأنها وقدرها: (**أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**[2]).

وروى المستورد الفهري > أن رسول الله ρ قال: "**مَثَلُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي إِليمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ**"[3].

كذلك روى سهل بن سعد > قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ: "**لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**"[4].

ونتيجة لربط هذه العلوم الطبيعية والحياتية بالدنيا، نظر الملتزمون إليها على أنها مما يُبعد عن الدين الإسلامي، وأن الاشتغال بها أمرٌ مذموم، وأن الدارس للهندسة – مثلاً – والكيمياء وعلوم الذرة، هو رجلٌ نسي دينه واهتم بدنياه!!

والحق أن هذه كلها أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان؛ فعلوم الطب والهندسة وغيرها هي طرقٌ واضحة من طرق الجنة إذا صلحت النوايا وأخلصت لله تعالى، وهي علوم "أخروية" إذا ابتغى بها العبد ثواب الآخرة، وهي علوم "دينية" إذا أردا بها المسلم نصرة دينه ورفعة أمته..

والواقع كذلك أن صحابة رسول الله ρ كانوا تُجَّارًا وزُرَّاعًا وصُنَّاعًا، وقبلهم أنبياء الله Y، كلٌ كان له حرفة وصناعة بجانب مهمته الأساسية، فكان آدم حراثًا، وكان داود حدادًا، وكان نوح نجارًا،

---

1 (يونس: 24).

2 (التوبة: 38).

3 مسلم: كتاب الجنة ونعيمها وصفات أهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (2858)، والترمذي (2323)، وابن ماجة (4108)، وأحمد (18037)، وابن حبان (4330)، والطبراني في الكبير (713).

4 الترمذي: كتاب الزهد، باب هوان الدنيا على الله عز وجل (2320)، وابن ماجة (4110)، والحاكم (7847)، وقال حديث صحيح، والطبراني في الكبير (5840)، والبيهقي في شعب الإيمان (10465)، وقال الألباني: صحيح (5292) صحيح الجامع.

وكان إدريس خياطًا، وكان موسى راعيًا، وكان زكريا نجارًا.. فلم يقعد بهم انشغالهم بالآخرة والعمل لهـا وتعليم علومها عن العمل للدنيا وتعميرها وتسخيرها وتعليم علومها..

بل إن عمر بن الخطاب > كان إذا نظر إلى رجلٍ ذي سيما (هيئة حسنة) قال: أله حرفة؟ فإن قيل لا سقط من عينه[1]..!!

ثم ماذا يعني قوله ρ فيما يرويه أنس بن مالك > عن رسول الله ρ أنه قال: "**إِنْ قَامَتْ السَّـاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**"[2]؟!

لماذا يغرسها وهي من نفع الدنيا، فضلاً عن أنه لن يستفيد منها دنيويًا أصلاً؟!

والذي يُفهم من ذلك كله هو – كما يُعبر الدكتور عبد الباقي عبد الكبير[3] – أنه في سعْينا لقضاء حوائجنا والقيام بمسؤولية عمران الأرض ووظيفة الاستخلاف فيها بنية خالصة، سعْيٌ لإرضاء لله Y.. بـل إن في سعْينا لعمران الأرض، وتعليم علومها، والوقوف على ثغراتها التنموية، وإخراج المجتمـع مـن عـوْز الحاجة، كلٌ في مجاله وحسب إمكانياته وقدراته الوظيفية.. هو في الأساس سعيٌ لإعلاء كلمة الله Y ورفع راية الإسلام4..

وعليه، وإذا كانت القضية في الأساس – كما رأينا – قضية فَهم وسوء فقه.. فإننا نود القيام مـن ركائز ومنطلقات صلبة وقويمة، هي من أساس ديننا ومن صلب معتقداتنا..

وفي بداية هذا الطريق فلا أحبذ أبدًا إطلاق لفظ علوم "دنيوية" على هذه العلوم، وإنما يمكـن أن نطلق عليها "**علوم الحياة**".. فهي علوم أراد الله Y لنا أن نتعلمها لنصلح بها حياتنا على الأرض..

والحياة بصفة عامة ليست مذمومة كالدنيا، بل هي نعمة من الله تعإلى..

وانظر إلى قوله سبحانه وهو يربط بين مراعاة أحكام الشرع وبين الحياة الطيبة حين يقول: (**مَـنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**[5]).

وهكذا، فتكون علوم "الحياة" من هذا المنظور، والتي تعني شيئًا عظيمًا علويًا، أرقى وأعظـم مـن علوم "الدنيا"، والتي تعني الدونية والسفلية..

1 عبد الرءوف المناوي: فيض القدير 290/2.

2 أحمد (13004)، والبخاري في الأدب المفرد (479)، وعبد بن حميد في مسنده (1216)، وقال الألباني: صحيح (1424) صحيح الجامع.

3 عبد الباقي عبد الكبير عبد الواحد ولد عام 1970م في مدينة وردك بأفغانستان، حصل على الماجستير والدكتوراه من كلية الشريعة والقانون في السودان، ويعمل حاليا بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية بمدينة زليتين، ليبيا، ومن مؤلفاته: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية.

4 موقع إسلام أون لاين: استشارة إعمار الدنيا فريضة وضرورة للدكتور: عبد الباقي عبد الكبير.

5 (النحل: 97).

ويوضح هذا المعنى وذاك المراد قوله تعالى: (**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**[1]).

وعلى هذا النهج تسير كثير من الآيات والأحاديث.. مما يعطي ثراءً ملحوظًا لكلمة الحياة..

ثم لنقف وقفة نحاور فيها ونناقش أولئك الذين صرفوا جل وقتهم واهتماماتهم لعلوم الشريعة، ولم يشاءوا أن يصرفوا قدرًا من جهدهم وفكرهم ومالهم ووقتهم لعلوم الحياة.. ونجيب معهم على سؤال مهم مفاده:

هل يعقل أن يُهمل المسلمون علوم الحياة؟؟

وفي معرض الجواب بالنفي الصريح على هذا السؤال، نقدم هذه الأدلة وتلك البراهين القطعية على نُبل هذه العلوم إذا ما وجهت لخير الأرض، ونفع البشرية، ورفعة هذا الدين، وعزة هذه الأمة:

الدليل الأول:

هل نسي الإنسان أن الله Y قد جعله "خليفة" في الأرض؟!

وحين تكون الإجابة قطعًا بالنفي، فلنتفكر سويًا: كيف يمكن أن يُستخلف الإنسان في الأرض وهو لا يعلم شيئًا عن علومها؟!

فالحقيقة التي لا مراء فيها أن الذي يُستخلف في الأرض يجب أن يعرف ربه، وأن يعرف كيف يعبده، ثم لابد له أن يعلم طبيعة المكان الذي استخلف فيه، وكيف يمكن استغلاله لعبادة الله رب العالمين، قال تعالى: (**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**[2]).

فمن شروط الاستخلاف، ومن واجباته الأساسية، أن يعرف الإنسان كيف "يَعْمُر" الأرض، وكيف يكشف كنوزها ويستفيد من ثرواتها.. وكيف يُسخِّر كل ما يمكن أن تصلح به "الحياة" على وجه هذه الأرض.

ولما خلق الله آدم u، وعظمه ورفع قدره، وأسجد الملائكة له.. لم يكن ذلك إلا بالعلم الذي أتاه إياه، قال تعالى: (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**[3]).

والسؤال إذن: ما هذا العلم الذي علمه الله Y آدم u، وبه تفوق على الملائكة؟

---

1 (الأنعام: 122).
2 (هود: 61).
3 (البقرة: 31).

لقد علَّمه الله Y – فيما يروي ابن عباس >– أسماء كل شـــيء: الجبـــل، والشـــجر، والبحـــر، والنخلة.. وأسماء الناس والدواب[1]..

أي أن الله Y علمه العلوم "الطبيعية" التي سيحتاج إليها للحياة فوق الأرض وعمارتها، أما الملائكة فهي لا تعلم هذه الأسماء وتلك العلوم؛ لأنها لن تستخلف على الأرض، ومن ثم فهي ليست في حاجة إليها..

والواضح أنه لو علَّم الله Y آدم u العبادة بمفهومها المقتصر على الصلاة والصيام والذكر والدعاء، لتفوقت الملائكة على آدم u في هذا المجال، وما كان هناك داعٍ أن يُستخلف الإنسان في الأرض، بل يعيش في السماء كما تعيش الملائكة، يفعل أفعالهم، ويكتفي بعلومهم.. (**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**[2]).

فلم يكن علْمُ آدم u علمًا شرعيًا فقط، وإنما كان علمًا حياتيًا كذلك..

وعليه فإن الإنسان إذا أهمل العلوم الطبيعية أو علوم "الحياة"، فإنه بذلك يُهمـــل أهـــم مقومـــات استخلافه على الأرض.. وهذا لا يجوز في حق مسلم واعٍ، يفهم دينه، ويدرك طبيعـــة اســـتخلافه علـــى الأرض..

1 انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم 1/ 109 .
2 (الأنبياء: 20).

الدليل الثاني:

أكمل الله Y العلوم الشرعية قبل وفاة رسول الله ρ.. قال تعإلي: (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**[1])..

وليس هناك وحيٌ بعد رسول الله ρ، ومن ثم فستبقى العلوم الشرعية كأصول كما هي.. نعم قد يجتهد علماء الشرع في بعض الأمور بحسب المتغيرات والمستجدات في البيئة والزمان والمكان، ولكن تبقى الأصول ثابتة موجودة في القرآن والسنة..

هذا بالنسبة للعلوم الشرعية..

أما بالنسبة لعلوم الحياة، فإن الأمر يختلف؛ إذ أنها علوم لم تكتمل بعد، ولن تكتمل أبدًا.. ففي كل يوم يمر علينا يُكشف لنا كشفٌ جديد في هذه العلوم، وعلم اليوم في الطب – مثلاً – يختلف عما سيكون عليه غدًا، وهما غير ما كانا عليه بالأمس وهكذا..

فعلوم الحياة في تطور وتغير مستمر.. وما يُعَدُّ اليوم حقيقة علمية، قد يُكتَشف غدًا أنه وهم لا أصل له، أو أن هناك ما يتخطاه ويتعداه، وما أكثر المعتقدات العلمية التي ظلت موروثة لمئات السنين، و لم تتغير إلا منذ سنوات قلائل بعد اكتشاف خطئها..

يقول تعإلي: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**[2]).

فالآية نزلت بصيغة المستقبل، وستظل تُقرأ إلى يوم القيامة بصيغة المستقبل، وسيظل المستقبل إلى يوم القيامة يحمل جديدًا في علوم الحياة، سواء كان في الكون (في الآفاق)، أو في الإنسان (وفي أنفسهم)..

والعمل الدءوب في هذا المجال مطلوب ومهم.. وإلا سبق الركب، وتعذَّر اللحاق!

الدليل الثالث:

هناك الكثير من القضايا الشرعية والفقهية لا يستطيع فقهاء المسلمين أن يقطعوا فيها برأيٍ صائبٍ، يبين الحل أو الحرمة فيها إلا بالاستعانة بعلماء مسلمين في مجال العلوم الحياتية.. يكونون مهرة في مهنتهم، أكفاء في تخصصهم..

---

1 (المائدة: 3).

2 (فصلت: 53).

فإذا أخذنا علم الاقتصاد والتجارة – على سبيل المثال – كنموذج للدراسة.. فهل يستطيع فقيهٌ مسلم غير متخصص أن يستنبط آراء فقهية صائبة في كل المعاملات الاقتصادية والتجارية؟! هل يستطيع أن يقطع بحل أو حرمة في قضية من قضايا التجارة وعلم الاقتصاد دون أن يكون على إحاطة تامة بأوجه المعاملات والمضاربات التي تتم في البنوك والبورصة والشركات والأسواق وغيرها؟!

بالقطع الإجابة هي النفي، خاصة وأن العلوم قد تشعبت كثيرًا، حتى أصبح داخل كل علم علومٌ أخرى كثيرة تتفرع منه وتنبثق عنه، ولكل فرعٍ من هذه العلوم متخصصون وباحثون ودارسون..

ثم وعلى فرض إمكانية أن يُدلي الفقيه بدلوه في مثل هذه القضايا ودون الرجوع إلى متخصصين فيه – وهو مستحيل وغير جائز – فما الحال إذا وجدنا مخالفة شرعية في مثل هذه العلوم؟ كيف يمكن أصلاًحها وأسلمتها وفق المنهج الإسلامي؟! وكيف يمكننا أن نتعامل مع الأنظمة الاقتصادية العالمية المحيطة على ما بها من مخالفات، دون الوقوع في مخالفة شرعية؟!

ألا نحتاج في ذلك كله إلى اقتصادي متخصص؟! ألا نحتاج إلى من يدرس الاقتصاد بكل تفريعاته وعلومه، ويُلمُّ بكل تفصيلاته ودقائقه، ثم هو يدرس الفقه الإسلامي الخاص بالاقتصاد والتجارة، ثم يبدأ في صياغة الاقتصاد الإسلامي بالصورة التي تتناسب والعصر الذي نعيش فيه، ودون الوقوع في أدنى مخالفة شرعية؟!

ونستطيع أن نستشهد في ذلك بمثال واقعي في مجال الحقوق والقوانين، فقد كان الشهيد القاضي عبد القادر عودة من خريجي كلية الحقوق، وقد ألَّف كتابه "التشريع الجنائي الإسلامي"، والذي استطاع أن يُقدِّم فيه دراسة فقهية حول التشريع الجنائي في الإسلام وفلسفته ومقارنته مع القانون الوضعي، كما استطاع أن يُثبت بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة محاسن الشريعة الإسلامية وتفوقها على القوانين الوضعية، مع سبقها إلى تقرير كل المبادئ الإنسانية والنظريات العلمية والاجتماعية التي لم يعرفها العالم، والتي لم يهتد إليها العلماء إلا مؤخرًا..

ألا تحتاج الأمة في حياتها إلى مثل ذلك؟!!

أليست هذه ثغرةً إسلامية تحتاج إلى من يسدها ويقف عليها؟!

ثم أليس من يقوم بذلك يكون مأجورًا من الله Y على علمه وعمله هذا؟!

وهل يعتقد المسلمون المعظمون لدينهم أنهم لن يأثموا بترك هذا المجال وليس فيه متخصصون؟!

ألا يعتقد المسلمون أن دراسة الاقتصاد من هذا المنظور هو طريق مباشر من طرق الجنة؟!

والحقيقة أن الإجابة في ذلك لا تخفى على ذي عقل وصاحب لُبّ.. وليكن في خلد الجميع أنه لن يقوم هذا الدين حقًا إلا بمبدعين في شتى مجالات وعلوم الحياة!!

وفي علم الطب – كنموذج ثانٍ للدراسة – نستطيع أن نقف أيضًا على نفس ما وقفنا عليه في علم الاقتصاد، من حاجة فقيه اليوم الماسة إلى طبيب مسلم متخصص، يساعده في تقرير فتواه فيما له علاقة ببعض جوانب الطب..

إذ كيف سيدلي عالمٌ شرعيٌ في قضايا دقيقة لها علاقة قوية بالطب، دون الاستعانة بطبيب مسلمٍ ماهر، يستطيع أن يشرح بدقة طبيعة الأمر في النقطة التي يحتاجها الفقيه؟!!

وكيف لنا أن نعرف حُكم الشرع في القضايا المستجدة وثيقة الصلة بالطب؟

كيف لنا أن نعرف حكم الشرع – مثلاً – في قضايا مثل "الاستنساخ" أو "زرع الأعضاء" أو "عمليات التجميل"، أو "أطفال الأنابيب" أو التداوي بما قد يتخلله مُحرَّم.. وغيرها؟!

كل هذه الأمور وغيرها مما يستجد في حياتنا اليومية، نحتاج فيها – ولا شك – إلى أطباء مهرة في تخصصهم، ثم هم يدرسون في الشرع ما يختص بالفرع الذي يتقنونه، وبذلك يمتلكون القدرة على الإدلاء برأي صائب، يوافق بين رأي الطب ورأي الشرع.

أفلا يكون الطب من هذا المنظور طريقًا إلى الجنة؟! وهل يعذر المسلمون إذا لم يخرجوا لأمتهم أطباء يوضحون لهم هذه الأمور، ويبينوه للفقهاء، فيتمكنوا من الإفتاء بالحلال أو الحرام فيما يتعلق بهذه المسائل؟!

فهذا – ولا ريب – بابٌ لابد من أن يتفوق فيه المسلمون، ليقيموا بذلك دينهم، وليطبِّقوه كما أراد الله Y..

ومن هذا المنطلق فهذه العلوم جميعًا، سواء أكانت علوم اقتصاد أو علوم سياسة أو علوم طب أو هندسة، أو غيرها ممن هي على شاكلتها، وتنفع الأمة وتصلح الحياة للإنسان على الأرض.. هي كلها علوم أُخروية، بشرط توفر النية الصالحة، والإخلاص لله Y.

الدليل الرابع:

إذا لم يتفوق المسلمون في هذه المجالات، فما البديل؟!!

لن يخالفني أحد إذا قلت بأن البديل في ذلك هو أن يعتمد المسلمون في هذه المجالات التي أهملوها وتخلفوا فيها، على غيرهم، أو قل: على عدوهم؛ إذ هو البديل الوحيد أحيانًا!!

فهل يستقيم هذا الأمر شرعًا؟!

هل تقوم أمة على أكتاف غيرها؟! بل هل تقوم أمة على أكتاف أعدائها..؟!!

أليس أمرًا يدعو إلى الدهشة والغرابة حين يضطر المسلم لكي يبدع في مهنة ما أن يسافر إلى بلاد أعدائه ليتعلم منهم، وينقل عنهم؟!

وكيف يقوم مصنع في بلد مسلم على ماكينات وقطع غيار مستوردة من بلاد عدوه؟!

وماذا يحدث لو دارت رحى الحرب بين الأمة الإسلامية وبين أعدائها هؤلاء، أو حتى حدثت بينهما مقاطعات؟ هل سنوقف حياتنا انتظارًا لتحسن العلاقات مع الأعداء؟!

وأوضح من ذلك: كيف سنحارب أعداءنا إذا كنا نعتمد عليهم اعتمادًا كليًا في السلاح، وهم الذين يعلمون بالضبط ما قد يكون مهمًا ومؤثرًا ومتقدمًا فيمنعوه إيانا، وما قد يكون قليل الأهمية ضعيف التأثير والجدوى فيبيعونا إياه؟!

إن هذا – وايم الله – لهو العجب فعلاً!!

وحتى لا نكون مبالغين ولا مهوِّلين، فهذه إحدى إحصائيات سوق السلاح الدولية:

تشير الإحصائية إلى أن صادرات أمريكا من السلاح ما بين عام 2000 – 2004م بلغت 25.390 مليار دولار، وهي بذلك تعد الدولة الثانية في العالم في تصدير السلاح بعد روسيا والتي بلغت قيمة صادراتها 26.9 مليار دولار في نفس الفترة.. وأن 5.079 مليار دولار من إجمالي الصادرات الأمريكية من السلاح هي من دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي[1]!!

وجوهر القضية ليس فقط في دخول هذه الأموال الطائلة الخزانة الأمريكية أو غيرها، لكن القضية الحقيقية والكارثة الملمة هي في اعتماد هذه الدول اعتمادًا أساسيًا وكليًا على السلاح الخارجي فقط!!

وإضافة إلى أمريكا فإن بريطانيا وحدها – كما تشير الإحصائيات أيضًا – صدرت سلاحًا بما يبلغ قيمته 4.450 مليار دولار في نفس الفترة، وأن 1.004 مليار دولار تأتي من دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي!!

1 مركز الأهرام للدراسات السياسية و الاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية الصادر عام 2006م ص113-118.

وتشير الإحصائيات أيضًا إلى أن 40% من صادرات فرنسا من السلاح يتجه إلى العالم العربي!! وأن 18% من صادرات الصين من السلاح أيضًا يتجه إلى نفس المنطقة!! وأن 15% من صادرات روسيا من السلاح يتجه كذلك إلى العالم العربي[1]!!

والملاحظ أن دولاً كثيرة - غير إسلامية - لها باعٌ في سوق السلاح، لكنها لم تدخل بعد هذه الإحصائيات؛ وذلك إما لأنها في أول طريق التصدير، أو لأن تصديرها منه سرًا، وذلك مثل كوريا الشمالية والهند وأوكرانيا وصربيا وجمهورية التشيك وغيرها..

أما الغريب والعجيب فهو أن تكون إسرائيل هي الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح، وذلك بعد أمريكا وروسيا وبريطانيا، متخطية في ذلك دولاً مثل فرنسا والصين وصربيا والتشيك وأوكرانيا[2]..!!

وتمثل صادرات السلاح في إسرائيل 40% من إجمالي صادراتها، وهي أعلى نسبة على مستوى العالم[3]!!

أما الدولة التي حازت بنصيب الأسد من صادرات السلاح الإسرائيلي فهي الهند.. العدو التقليدي لباكستان المسلمة!!

فهل مثل هذه الإحصائيات لا تمثل غضاضة أو قلقًا أو حزنًا لدى الشباب المسلم الملتزم، وكل من عنده أدنى حمية لأمته؟!

ولا يتحجج البعض بأن القضية في ذلك هي مجرد قرار سياسي؛ إذ أنه لو حدث ذات يوم وتم اتخاذ مثل هذا القرار السياسي - أعني القرار بتصنيع السلاح والاكتفاء الذاتي منه مع ما يتطلبه ذلك من مسايرة أحدث تكنولوجيا التسليح في ذلك العصر - فإننا يجب أن يكون لدينا قبل هذا القرار العلماء الأكفاء في علوم الهندسة والذرة والكيمياء والفيزياء والطاقة وغيرها.. ممن يستطيعون تصنيع السلاح الأمثل، وإلا أصبح قرار تصنيع السلاح هذا قرارًا لا معنى له..

ولتأكيد هذا المعنى وتوضيحه بصورة أكبر كان هناك تقريرات أخرى..

---

1 مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الإستراتيجية ص118.

2 موقع مجلة دار الحياة تقرير بعنوان: إسرائيل الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح، الرابط: ed-10-8a0-c65253914-20050917/Item-2005-09http://www.daralhayat.com/special/features/ c/story.html4f5f5760872-6a00

3 موقع فلسطين المسلمة: تقرير ملف الصناعة الحربية الإسرائيلية إعداد: لواء أركان حرب متقاعد حسام سويلم، الرابط: http://www.fm- .htm19/story2004/dec2004m.com/

فقد أشار التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام 2006م، إلى مواصلة ارتفاع حصة الواردات العربية من الولايات المتحدة وآسيا، ومنها الصين بوجه خاص، وكانت نسبة الواردات العربية الإجمالية قد وصلت قيمتها في عام 2005م إلى 314.1 مليار دولار..!!

والجانب الأعظم من الواردات العربية يعتبر من الولايات المتحدة، وأهم ما يُستورَد منها: العدد والآلات ووسائل النقل المختلفة، حيث تستحوذ على 60% من إجمالي هذه الواردات، ويليها في الأهمية السلع الغذائية مثل القمح واللحوم، وتمثل حوالي 15%، ويأتي في المرتبة الأخيرة المشروبات الغازية والتبغ ومنتجاته.. وتبلغ فاتورة الواردات العربية في الأغذية وحدها 20 مليار دولار سنويًا..

وتُعد واردات مصر - كمثال من تلك الدول - من السلع الغذائية 16.8% من إجمالي الواردات المصرية، وتستهلك من القمح أكثر من 12.2 مليون طن سنويا، تستورد منها 6 ملايين طن[1]..

كل هذه الأرقام وغيرها تعكس ضعف نسب الاكتفاء الذاتي العربي من السلع الأساسية، ويعني أيضًا إمكانية استخدام هذا الضعف كسلاح ضد الدول العربية..

أما الغريب حقًا فهو أن تكون الواردات العربية من المواد الخام هي 5% فقط (انظر الشكل رقم 1، 2)؛ إذ أن ذلك يعني أننا نمتلك الكثير من الثروات الطبيعية التي حبا الله Y بها بلادنا، وهو يعني في ذات الوقت عجزنا الكبير على تحقيق أدنى نسبة تحقيق اكتفاء ذاتي.. ثم هو يعني ثالثًا أننا نصدر المواد الخام ليُعاد تصنيعها، ثم نستوردها مرة أخرى.. ولكن بأضعاف مضاعفة..!!

ويعتبر السكر من أكثر السلع الغذائية التي تعاني المنطقة العربية من عجز دائم فيها، وبدرجة اكتفاء ذاتي تصل لنحو 35% فقط، وتقدر الفجوة الكمية من السكر في الوطن العربي عام 2001م بنحو 4.48 مليون طن، تصل أقصاها في كل من الجزائر والسعودية وسوريا وإليمن ومصر، وبأهمية نسبية تقدر بنحو 20%، 16.1%، 12.1%، 10%، 8.4% لكل منها على الترتيب[2]..

أما عن السلع الاستفزازية، فإن الأرقام تشير إلى أن مصر وحدها استوردت من أنواع الجبن المختلفة التي تم حصرها في 32 نوعًا، ما قيمته نحو 121 مليون جنيه في عام واحد، هذه الحقيقة تأتى على الرغم من أن مصر تعتبر من الدول المنتجة للألبان، وتأتى أيضًا - وللأسف - رغم أن بمصر العديد من شركات تصنيع الأجبان، سواء من الشركات الحكومية أو من شركات القطاع الخاص..!!

1 موقع صندوق النقد العربي، على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني http://www.amf.org.ae/vArabic/showPage.asp?objectID={1510E2A6-2842-45F5-919B-76C62AC1AADD}

2 تقرير أوضاع الأمن الغذائي العربي 2002، الصادر عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية التابعة لجامعة الدول العربية، والتقرير منشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الاكتروني http://www.aoad.org/foods/TABLE%20OF%20CONTENTS.htm

وتبلغ فاتورة أغذية القطط والكلاب المصرية من الخارج في خلال ستة شهور فقط حوإلى 2 مليون جنيه[1]..!!

والظاهرة الأغرب تلك الأرقام التي تصل إلى نحو 5 ملايين دولار لاستيراد الآيس كريم من الخارج..!!

ألا يدعو ذلك إلى الدهشة والاستغراب..؟!

ثم ألا يدعو كل ذلك إلى تفعيل دور الصناعات عندنا لئلا نعتمد – على الأقل – على أعدائنا..؟!

وإن الحاجة الشديدة إلى ذلك لتظهر بوضوح حين نستعرض إحصائيات براءات الاختراع للمنظمة العالمية، والتي تعبر عن حقيقة الوضع الذي نعيشه.

ففي سنة 2001م قدمت مصر – كواحدة من الدول الإسلامية – اختراعًا واحدًا، وفي سنة 2002م كان نصيبها في براءات الاختراع أيضًا اختراعًا واحدًا، وفي سنة 2003م زاد هذا العدد – بفضل الله – ليصل إلى 12 اختراعًا، وكانت سنة 2004م قائمة الإنجاز بوصول عدد براءات الاختراع إلى 78 اختراعًا.. وهو تطور طيب يدعو إلى التفاؤل.

وتعتبر مصر بذلك ثاني دولة إسلامية في تسجيل براءات الاختراع، أما الدولة الإسلامية الأولى في ذلك فهي تركيا، وحصيلتها من عدد براءات الاختراع في سنة 2004م هو 104 اختراعٍ[2]..

لكن الحقيقة أن هذه النسبة – سواء التي في مصر أو التي في تركيا – هي قليلة جدًا إذا ما قورنت بغيرها من الدول الأخرى، وخاصة حين نعلم أن إسرائيل وحدها بلغ نصيبها في تسجيل براءات الاختراع في نفس العام 1222 اختراعًا، محتلة بذلك المركز رقم 15 بين دول العالم في عدد براءات الاختراع المسجلة سنويًا..!!

أما المركز الأول فكان – بالطبع – من نصيب أمريكا، والذي وصل نصيبها فيه من براءات الاختراع في نفس العام أيضًا 41.870 اختراعًا!! وتلتها في ذلك اليابان بنحو 19.982 اختراعًا، ومن بعدها فرنسا، ثم إنجلترا[3]..

---

1 موقع ديوان العرب: أشرف شهاب: مقال بعنوان: مصر تستورد طعام الكلاب والقطط، الرابط: .13http://www.diwanalarab.com/spip.php?article

2 راجع تقرير التنمية البشرية 2006، مرجع سبق ذكره.

3 تقرير التنمية البشرية 2006 .

وحتى تتضح الصورة بعض الشيء، فليس معنى تسجيل براءة اختراع الاقتصار فقط على اختراع شيء لم يكن موجودًا أصلاً، مثل التليفزيون أو الكمبيوتر أو ما شابه، وإنما تمنح براءة الاختراع عن كل إضافة علمية جديدة ناشئة عن فكرة جديدة وجهد في الابتكار، وتكون قابلة للاستغلال الصناعي بما فيها الفلاحة. ويدخل في ذلك تطوير اختراع قائم، أو تحسينه بإدخال بعض التعديلات عليه، مما من شأنه أن يرفع من كفاءته، أو يقلل من مضاعفاته الجانبية، أو يساعد على تخفيض سعره، أو غيره..

أي أن أيّ إضافةٍ على هذا الشيء ولو صغيرة يُعد اختراعًا، يستطيع صاحبه أن يُسجله باسمه في براءات الاختراع، ويكون بذلك قد أضاف للإنسانية شيئًا جديدًا..

وإنه لما كانت هناك دول قليلة السكان ودول أخرى كثيرة السكان، فإن العلماء استحدثوا طريقة أخرى أدق لحساب براءات الاختراع للدول، وذلك بحساب عدد براءات الاختراع فيها بالنسبة إلى عدد السكان، وكان من نتيجة ذلك أن احتلت إسرائيل المركز الثامن بين دول العالم في تسجيل براءات الاختراع، وسبقت في ذلك أمريكا واليابان وفرنسا وإنجلترا، ودولا أخرى كثيرة؛ لأن عدد السكان بها قليل..!!

وتوضيح ذلك أن بمثل هذه الطريقة يكون هناك اختراعًا لكل 5000 إسرائيلي، في حين أن ذلك الاختراع في أمريكا هو لكل 6700 أمريكي، وفي اليابان لكل 6300 وعلى هذا القياس أيضًا فإن النسبة في مصر هي اختراع واحد لكل 900.000 مصري[1]..!!

وغير تصنيف الدول، فإن للشركات على مستوى العالم تصنيفًا أيضًا في تسجيل براءات اختراع خاصة بها، وكانت الشركة الأولى في تقديم أكبر عدد من البراءات هي شركة "فيلبس" الهولندية، محتفظة بهذه الصدارة للسنة الثانية على التوالي.. ومن بعدها تأتي شركة "ماستوشيتا" التي منها "باناسونيك"، ثم "سيمنز" الألمانية، ثم "نوكيا" الفلندية، ثم شركة "بوش" الألمانية، ثم "إنتل" الأمريكية، ثم "بُسّ" الألمانية، ثم "ثري إم" الأمريكية، ثم "موتورولا" الأمريكية، ثم "سوني" اليابانية[2]..

شركات كثيرة – وللأسف – ليس بينها واحدة إسلامية.. فكل براءات الاختراع لدينا إنما هي من نصيب الأفراد، وهذا يعني – في أهم ما يعنيه – غياب العمل الجماعي أو العمل المؤسسي وعمل الفريق الواحد، والذي يعتمد عليه الإبداع كلية في القرن الحادي والعشرين..!!

---

1 المرجع السابق.

2 تقرير براءات الاختراع لعام 2005 الصادر عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الالكتروني http://www.wipo.int/edocs/prdocs/en/2005/wipo_pr_2005_403.html

ولا شك أن هذه الاختراعات تنعكس على طبيعة المواد المصدرة من كل دولة، والدول الكبرى هي التي تصدر مواد مصنعة أكثر من غيرها، وكلما ازدادت المواد المصنعة تعقيدًا، كلما ازداد تقدير العالم لقيمة هذه الدولة علميًا.. ويوضح الجدول رقم (5) طبيعة المواد المصدرة في بعض دول العالم.

والسؤال الآن:

أليس العلم الذي يتحصل به التصنيع والحصول على براءات الاختراع بدلاً من أن نكون في ذيل الدول الأخرى – أليس ذلك علمًا شرعيًا؟!

أليس العالِم الذي يصنع الأسلحة – مثلاً – أو يساعد في تصنيعها عالمًا نافعًا لأمته، مثابًا على علمه وعمله هذا من ربه إن أخلص فيه نيته؟!

أليس هذا الطريق من الطرق الموصلة إلى الجنة؟

وقس على ذلك كل العلوم والفروع الأخرى..

فإن تخلف المسلمين في هذه العلوم الحياتية يعني أنهم إنما يُسلمون رقابهم لسيوف أعدائهم..

ولا ريب في أن الأمة التي تعثرت فيها العلوم الطبية أو العسكرية أو الهندسية أو الفلكية أو غيرها من العلوم الحياتية، أو تلك التي يرتبط تقدمها في هذه العلوم بقرار من أعدائها.. لا ريب أن هذه الأمة على حافة هاوية عظيمة..

والواقع أنه لا نجاة من ذلك ولا مفر إلا بفقه قيمة هذه العلوم في حياة الأمة، وفي ميزان الإسلام.

الدليل الخامس:

علوم الحياة طريقٌ لمعرفة الله Y..

ففي القرآن الكريم لم تأت الدعوة للتفكر في الكون مرة أو مرتين، إنما جاءت مرات عديدة، وبصور مختلفة..

قال تعالى: (**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**[1]).

1 (البقرة: 164).

وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[1]).

وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[2]).

وهذه الدعوة المتكررة للتفكر في الكون هي دعوة لتعظيم وتقدير رب العالمين I، فكلما اتسعت علوم الحياة في ذهن العالِم كلما ازداد تعظيمًا وإجلالاً وإكبارًا لله Y، ولذلك قال سبحانه بعد الحديث عن علوم الحياة – وليس علوم الشرع –: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ[3]).

فقد قال سبحانه قبل تقريره في هذه الآية مباشرة: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ[4]).

فكل علوم المياه والنبات والجيولوجيا والإنسان والحيوان هذه.. مما يقود إلى خشية الله Y..

وهذا أينشتاين – وهو عالم غربي ليس مسلم – بعد ما نظر إلى الكون الفسيح وتدبر في أفلاكه، واستطاع أن يتوصل إلى نظرية النسبية، قال مقررًا وجود الخالق سبحانه: وراء هذا الكون قوة خارقة لا أعرفها[5]..!!

فالاهتمام بهذه العلوم إذن من شأنه أن يؤدي إلى الإيمان ويرفع من مستواه عند الفرد، ومن شأنه أيضًا أن يجعل الإنسان يزداد تمسكًا بالدين كلما تقدم العلم.. ولسنا نقصد بذلك العلماء فقط، وإنما يرتفع الإيمان عند عموم الأمة بعد أن ينتقل إليهم هذا العلم عن طريق علمائها..

الدليل السادس:

علوم الحياة طريق لفقه وفهم نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة..

---

1 (الرعد: 3).
2 (الأنعام: 99).
3 (فاطر: 28).
4 (فاطر: 27-29).
5 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم 10 ص 45 .

وهي حقيقة كشفها الإعجاز العلمي الحديث.. فكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لا تُفهم ولا يُعرف المراد منها على وجه الحقيقة إلا في ضوء دراسةٍ علميةٍ واعية..

وفي واحدة مما يُثبت تلك الحقيقة، ما جاء حول قوله تعالي: (**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**[1]).

فهاتان الآيتان فهمهما علماء السلف وفسروهما على محملٍ ووجه معين، ولما تقدم العلم كان لهما تفسير آخر مغاير تمامًا لما كان يُعتقد فيهما من قبل..

يقول الدكتور زغلول النجار[2] مُعلقًا على الآية الثانية من هاتين الآيتين: يصف الله I الجبال بأنها أوتاد، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن هذه المعالم المدهشة ليست عبارة فقط عن الارتفاعات الشاهقة التي نراها على سطح هذه الكرة الأرضية (كما تصفها أغلب المعاجم ودوائر المعارف الحالية)، إنما يؤكد الله تعالى بهذه العبارة أن للجبال امتدادات إلى داخل طبقة الليثوسفير الأرضية. فكما أن الوتد يكمن أغلبه داخل التربة أو الصخر ووظيفته هي تثبيت طرف الخيمة إلى الأرض فكذلك الجبال، والتي أثبتت علوم الأرض حديثًا أن لها جذورًا عميقة جدًّا لتثبيت ألواح الليثوسفير، بل والكرة الأرضية ككل، فما نراه فوق سطح الأرض من جبال ما هو إلا قمم لكتل ضخمة من الصخور مخترقة لطبقة الليثوسفير وطافية في طبقة الإثنوسفير البلاستيكية والأعلى كثافة، كما تطفو الجبال الجليدية في مياه المحيط؛ فتبلغ امتدادات الجبال داخل طبقة الليثوسفير ما بين 10 - 15 ضعف ارتفاعاتها فوق سطح الأرض (حسب كثافة الصخور المكونة للجبل وكثافة المادة التي ينغمس فيه الجذر).

فجبل يبلغ ثقله النوعي specific gravity 2.7 في المتوسط (كالجرانيت مثلاً) يستطيع أن يغوص داخل طبقة من الصخور السيماتية simatic rock (البالغ ثقلها النوعي 3.0 في المتوسط) حتى يبلغ طول الجزء القابع داخل الأرض 10/9 والجزء الظاهر فوق سطح الأرض 10/1 من الطول الإجمالي.

وهكذا نرى كيف تصف كلمةٌ واحدةٌ - وهي كلمة الوتد - جزئي الجبل العلوي والسفلي ووظيفته من تثبيت للكرة الأرضية وألواح الليثوسفير، وبالتالي فإن الكلمة التي يستخدمها القرآن الكريم لوصف الجبال أكثر دقة من الناحية العلمية واللغوية من كلمة "جذر" المستخدم حاليًا من قبل العلماء لوصف الجزء السفلي المختبئ داخل الأرض.

---

1 (النبأ: 6، 7).

2 هو زغلول راغب النجار من مواليد محافظة الغربية، عام 1933، تخرج من جامعة القاهرة عام 1955م وكان أول دفعته ومنح العديد من الجوائز، وأشرف على عدد كبير من الأبحاث العلمية، ومؤلفاته العلمية تربوا على مائة وخمسين بحثًا، وله العديد من المقالات والمرئيات التي تحدث فيها عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

ويتابع الدكتور زغلول قوله: ومع أن العلماء فكروا مليًّا منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أنه يمكن أن تكون للجبال جذور، إلا أن العلماء لم يؤكدوا هذه الحقيقة من وجود امتدادات سفلية وظيفتها تثبيت الأرض وألواح الليثوسفير إلا مؤخرًا. و لم نصل إلا لبداية فهم عملية تكوين تلك الامتدادات السفلية ووظيفتها في توقيف الاهتزازات المفاجئة لكوكبنا ولألواح الليثوسفير من خلال إطار علوم الفلك الحديثة، ومن خلال المفهوم الحديث لتكتونية الألواح الليثوسفيرية.

ويعتبر سبق القرآن الكريم في وصف الجبال كالأوتاد شهادة واضحة أن القرآن الكريم كلمة الله Y وأن محمدًا ρ هو آخر المرسلين[1].

ومثل هذا التفسير العلمي من شأنه أن يوقفنا على الفهم الحقيقي والتفسير الصحيح المراد من مثل هذه الآيات الكريمة، وأيضًا يعرفنا بالإعجاز العلمي الذي يحويه دستور الأمة منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.. فضلا عما يمكن أن يكون سببًا لكثير من غير المسلمين ممن ولعوا بالحقائق العلمية..!!

ومثل هذا التفسير أيضًا وهذه الحقيقة العلمية هي أفضل بكثير من أن نذكر ما وقف عليه مفسرونا السابقون، من أن المقصود بقوله تعالى: (**والجبال أوتادا**) هو أنه سبحانه - كما يقول الطبري مثلاً في تفسيره - "جعل الجبال للأرض أوتادا أن تميد بنا"[2]..

وفي واحدة أخرى من مثل هذه التفسيرات العلمية لنصوص القرآن الكريم، والتي كان لها بالغ الأثر على غير المؤمنين به حين أكدتها وأثبتتها الحقائق العلمية، ما جاء في أول سورة القمر، وهو قوله تعالى: (**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**[3]).

فبعد محاضرة ألقاها الدكتور زغلول النجار في كلية الطب بجامعة كاريف في مقاطعة ويلز غربي بريطانيا، وُجِّه إليه سؤالٌ حول الآيات السابقة، وهل هذه الآيات تمثل ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله؟

وفي رده قال بأن معجزة انشقاق القمر التي وقعت تأييدًا للنبي ρ في مواجهة الكفار تم إثباتها حديثا، ثم دلّل على ذلك بما أثبته العلماء، وبعد أن أتم إجابته استأذن رجل بريطاني في إضافة شيء إلى كلام الدكتور زغلول..

فبدأ بتعريف نفسه، وأنه يُدعى "داود موسى بيدكوك"، مسلم ويرأس الحزب الإسلامي في بريطانيا، ثم راح هذا الرجل يذكر أن هذه الآيات بعينها كانت السبب في إسلامه!!

---

1 اانظر لدكتور زغلول النجار: مقال بجريدة الأهرام المصرية، بتاريخ 31/ 12/ 2001م.
2 الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن 397/12.
3 (القمر: 1).

وكانت البداية حين أهداه أحد المسلمين ترجمة لمعاني القرآن، فكان أول ما قرأ بداية سورة القمر، وفيها واقعة انشقاق القمر، فلم يصدق ذلك وأغلق القرآن، وذات يوم قدَّر الله له أن يرى برنامجًا على قناة BBC استضاف فيه المذيع ثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين وذلك عام 1978م، وكان المذيع في هذه الحلقة يتحامل على علماء الفضاء في الإسراف الزائد في إنفاق الملايين والمليارات في مشاريع غزو الفضاء، في الوقت الذي يتضور فيه الملايين من الفقر والجوع والتخلف..

وكان جواب العلماء أنه بفضل هذا الرحلات تم تطوير عدد من التقنيات التي تطبق في مجال الطب والتشخيص العلاجي والزراعة وغير ذلك، ثم قالوا بأنهم توصلوا إلى اكتشاف لو أنفقوا أضعاف هذه المبالغ لإقناع الناس بهذه الحقيقة ما صدقهم أحد!!

وهنا سألهم المذيع عن هذه الحقيقة فقالوا: إن القمر سبق له أن انشق ثم التحم (انظر صورة رقم 1)، وأن أثارًا محسوسة تؤيد ذلك الحدث قد وجدت على سطح القمر وامتدت بداخله!!

فعاد السيد بيدكوك إلى ترجمة القرآن، فقرأ الآيات ثم قال: معجزة لمحمد في القرآن منذ أربعة عشر قرنًا يذكرها القرآن ويثبتها العلم الحديث، فلابد أن يكون هذا القرآن حقًا..!!

فكانت هذه الآيات هي السبب المباشر وراء إسلام "داود موسى بيدكوك"[1]..

فهذه ولا شك إضافة طيبة إلى أمة الإسلام، ونحن في ذلك بأمسِّ الحاجة إلى علماء مسلمين يكتشفون لنا مثل هذه الحقائق، لتكون حجة دامغة على العباد، وألا ننتظر لأن يقوم علماء أمريكيون أو روس أو غيرهم بهذا الدور، ثم لا يكون دورنا إلا أن نُسقط ذلك الكشف العلمي على ما جاء في آيات القرآن الكريم وسنة نبينا ρ، وهما اللذان لا تنقضي عجائبهما..

وعليه فإن العلوم الحياتية مكملة للعلوم الشرعية، وهي تُساعد على فهم القرآن الكريم، ومن ثم على هداية الناس لرب العالمين..!!

والأمة ستحتاج دومًا إلى العلماء المسلمين المبدعين في هذه العلوم الحياتية، الذين يفقهون علمهم إلى جوار فقه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، فيستطيعون الربط بين هذا وذاك، ومن ثم نستطيع فهم وتفسير النصوص القرآنية والنبوية.. ولا شك أن هذا سيظهر لنا قيمة ذلك الكنز العظيم الذي بين أيدينا..

فإذا كان في أمتنا الفلكي البارع، وعالم النبات المتفوق، وعالم الحيوان النابغة، والطبيب الواعي، والجغرافي الفاهم.. لا شك أن مثل هؤلاء سيفتحون أبوابًا واسعة لفقه الإعجاز العلمي العجيب في الكتاب والسنة، وسيصبح هذا الفتح سببًا رئيسيًا لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام.

1 دكتور زغلول النجار مقال بعنوان "داود موسى بيدكوك" جريدة الأهرام 2005/5/22.

وما أكثر أولئك الذين دخلوا الإسلام عند مشاهدتهم للإعجاز العلمي في اثنين من مصادر شريعتنا: القرآن والسنة!!

الدليل السابع:

هل من مصلحة الدعوة أن يكون حاملوها في ذيل أهل التخصص؟! سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، أو حتى على مستوى الأمة ككل..؟!

وبصورة أوضح.. إذا كان الطالب المسلم الملتزم بدينه غير متفوق في دراسته، ولم يكن سابقًا في علومه بين أقرانه.. هل سيكون قدوة بين الطلاب، ومن ثم يقلدونه في منهج حياته، ويتبعونه في دعوته؟! وهل سيطمئن الآباء على أبنائهم في صحبتهم له؟!

إن من أخطر الأمور أن يتميز طالبٌ أو متخصصٌ بسمتٍ إسلامي ودعوي ظاهرٍ، ثم تخاله في مجال دراسته أو في تخصصه، أو حتى في مهنته – تخاله قليل العلم، أو ضعيف المستوي، أو بطيء الأداء.. فهذه – ولا شك – دعوة سلبية، وهي دعوة إلى ترك هذا الدين الذي يلتزمه هذا المتأخر وذاك الضعيف، وذلك إما من أجل الخوف من أن يماثله في تأخره وضعفه، أو خوفًا من أن تتعطل أو تتعثر مسيرة العلوم..

وقد قال العلماء في تفسير قوله تعالي: (**رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**[1]) قالوا: إن معنى الدعاء في هذه الآية: أن لا تجعل الكافرين أعلى من المؤمنين وأعظم؛ فيفتن الكافرون بذلك، ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق ما نُصِرنا عليهم، ولو كانوا على الحق ما كانوا أضعف منا وأهون[2]..

ولقد سمعت واحدًا من الأمريكيين أسلم حديثًا يحمد الله أنه قرأ عن الإسلام واقتنع به قبل أن يرى حال المسلمين، وإلا لكانت فرصة إسلامه ضعيفة.. والسبب أنه ربما لم تكن ستواتيه فرصة الاقتناع بهذا الدين الذي لا يدفع أصحابه – كما يعبر حالهم – إلى العلم والتقدم والعمل.. لكنه – بفضل الله – كان قد قرأ عن الإسلام قبل أن يرى المسلمين، وعلم أنه يدعو إلى العمل ويحث على العلم ويحض على الفضيلة والمعاني الجميلة، وإعمار الأرض.. وعلم أيضًا أن هؤلاء المسلمين الذين يراهم لا يمثلون حقيقة الدين الإسلامي، بل هم مخالفون لمبادئه، بعيدون عن تطبيق قوانينه..

والأمر في النهاية لا يخرج عن أن يكون فتنة؛ فكم من البشر صُدُّوا عن سبيل الله برؤية تأخر المسلمين هذا وبمعاينة تخلفهم وضعفهم؟!!

---

1 (يونس: 85).

2 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم 563/2. بتصرف.

أفلا يدعو كل ذلك المسلمين إلى النبوغ في مجالات العلوم الحياتية، تمامًا كما ينبغون في العلوم الشرعية؟!

إن هذا – والله – لهو الحق الذي لا ريب فيه..

الدليل الثامن:

أمر الله Y المسلمين بالإتقان في كل شيء.. واهتم الإسلام بالمتمرسين والمتفوقين في كل مجال، وأولاهم القيادة على ذلك، وأعطى التبعية لغيرهم ومن دونهم..

ففي كلمته الجامعة فيما يرويه الإمام مسلم عن شداد بن أوس >، قال رسول الله ρ: (**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**[1]".

وانظر إلى قوله "كل شيء"؛ فهي تعني – فيما تعنيه – أن الله Y كتب الإحسان على المسلم في علمه الشرعي، وكذلك في علمه الحياتي. ولا شك أن الإحسان هذا يقتضي التفوق والنبوغ والسيادة والريادة..

وعلى ما هو واضح من سياق الآيات الكريمة في كتاب الله، وكذلك من سياق حياة رسول الله ρ، فإن القيادة تُساق دومًا إلى المتفوق، والناس جميعًا يكونون تبعًا لهذا المتفوق. ولا تشذ هذه القاعدة في حال الأمم والشعوب؛ فالأمة المتفوقة تكون قائدة، وتتبعها غيرها من الأمم، وهكذا..

ومصداق ذلك في كتاب الله Y، ما كان من إعطائه سبحانه القيادة لطالوت ~، وقد علل ذلك صراحة بأنه سبحانه زاده بسطة في العلم والجسم. وليس يخفى على أحد أن المقصود بالعلم هنا ليس هو العلم الشرعي فقط، وإنما أيضًا العلم بأمور الحرب والقيادة والإدارة، وغير ذلك مما يلزم القائد العسكري من معارف وعلوم.. وتصديق ذلك أنه كان من الممكن أن تُعطى هذه القيادة للنبي ذاته، والذي هو أعظم الناس – بلا شك – تفوقًا في مجال العلم الشرعي، وهو يوحى إليه، لكن النبي لم يقد الجيش في المعركة، وإنما قال للملأ من بني إسرائيل: (**إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا**[2]).

فهذا مجال تفوقه.. وذاك سبب قيادته..

---

1 مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (1955)، وأبو داود (2815)، والترمذي (1409)، والنسائي (4405)، وابن ماجة (3170)، وأحمد (17154)، والدارمي (1970)، وابن حبان (5883).
2 (البقرة: 247).

وكذلك فإن يوسف υ لما عرضت عليه الوزارة في مصر قال: (**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**[1]).

فهو هنا يذكر أن المجال الذي يتخصص فيه ويبدع هو مجال الاقتصاد وإدارة المال، ومن ثم لم يتردد في أن يعرض خدماته في هذا المجال المهم، و لم يقبل مكانًا آخر، حتى ولو كان مرموقًا ومؤثرًا.. وخلفيته الدافعة له في هذا الاختيار هي مستوى علمه في هذا الجانب، ومدى تمكنه منه.

ولو كان المقصود بالعلم في قوله "إني حفيظ عليم" العلم الشرعي وعلم الوحي، لكان يوسف υ صالحًا لكل المناصب، وليس فقط في الاقتصاد وإدارة المال؛ إذ أنه أعلى الجميع بلا جدال في هذا الجانب الشرعي، ولكن الواضح أنه كان يتميز – إضافة إلى ذلك – في جانب الاقتصاد، ومن ثم فقد اختاره وفضله..

ولما ولّى رسول الله ρ الصحابي الجليل عمرو بن العاص > إمارة سرية ذات السلاسل، ووضع تحت إمرته عظماء الصحابة وسابقيه إلى الإسلام.. فإنه لم يفعل ذلك لأنه كان يرى أن عمرو بن العاص أكثر منهم علمًا بأمور الشرع والدين، وإنما لأنه ρ كان يرى أنه أعلمهم بأمور الحرب، وفنون القتال والنزال والمناورة، وهو الذي لم يكن قد مضى على إسلامه بعد أكثر من خمسة شهور فقط.. ومن ثم تجده ρ وقد قال في وضوح: "**لقد وليته لأنه أبصر بالحرب**[2]".

فإتقان عمرو بن العاص > وتفوقه قدَّمه على عمالقة عظام من الصحابة، كأبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وأُسيْد بن حضير، وغيرهم ψ أجمعين، وليس ذلك إلا لفقه الرسول ρ لأهمية إتقان العلم الحياتي اللازم للحرب والجهاد.

وقد أمر رسول الله ρ المسلمين أن يقلدوا نابغين من الصحابة في قراءة القرآن فعن عبد الله بن عمرو { أن رسول الله ρ قال: "**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ فَبَدَأَ بِهِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ**[3]".

فلم يقل ذلك ρ لعلو قدر هؤلاء النفر عن بقية الصحابة مثلاً في التقوى أو الزهد أو الورع، أو لأنهم كان يكثرون من القيام أو الصيام أو النافلة أو غيرها.. وإنما قال ρ ذلك في حقهم؛ لإتقانهم للقراءة، وتمكنهم من النطق بها كما ينبغي.. ولذلك وجب على الجميع أن يتبعوهم فيها..

---

1 (يوسف: 55).

2 السيوطي: تاريخ الخلفاء ص96.

3 البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي بن كعب (3597)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن مسعود وأمه (2464)، واللفظ له، والترمذي (3810)، وأحمد (6786)، والحاكم (4999).

وعندما أمر رسول الله ρ بلالاً أن يصدع بأذان الصلاة، لم يأمره بذلك لعلمه الشرعي أو لسبقه أو لهجرته، إنما قدَّمه لحلاوة صوته في الأذان، وتفوقه في هذا المجال، بل إنه ρ لم يُقدم في ذلك عبد الله بن زيد >، ذاك الصحابي الذي رأى الرؤيا التي كانت سببًا في تشريع الأذان، وقال له: "**إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا حَــقٍّ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَإِنَّهُ أَنْدَى وَأَمَدُّ صَوْتًا مِنْكَ، فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا قِيلَ لَكَ، وَلْيُنَادِ بِذَلِكَ**"[1].

وكذلك في أمور الطب كان ρ أيضًا يأمر بالعلاج عند الأمهر والأتقن في تلك الصنعة.. وقد روى الإمام مالك ~ في الموطأ أن رجلاً من الصحابة أصيب بجرح، فدعا النبي ρ، رجلين من بني أنمار فنظــروا إليه، فسألهما رسول الله ρ: أَيُّكم أطبّ (أي أمهر في الطب)؟ فقالا: أوفي الطب خيرٌ يا رسول الله؟ فقال: "**أنزل الدواء الذي أنزل الداء**"[2] يعني الله Y..

و تعليقًا على هذا الحديث يقول ابن القيم ~: "إنه يجب الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق؛ فإنه إلى الإصابة أقرب"[3]..

أما الذي لا يتقن الصنعة وهو يشتغل بها، فقد يؤذى ويضر بدلاً من أن ينفع.. ولذلك كان الحكم الفقهي على من عالج مريضًا فأذاه، و لم يكن معروفًا عن هذا المعالِج أنه ماهرٌ بالطب متمرسٌ فيــه، فإنــه يتحمل المسئولية عن ذلك، بأن يدفع ما يعوض المريض عن مقدار الأذى الذي وقع له.. بينما لا يقع ذلــك الحكم على الطبيب الذي عرف عنه الإتقان والمهارة في صنعته..

روى أبو داود والنسائي وابن ماجة والحاكم عن عبد الله بن عمرو { أن رسول الله ρ قال: "**مَنْ تَطَبَّبَ وَلَا يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ فَهُوَ ضَامِنٌ**"[4].

ولخص الحكم الفقهي في ذلك الفقيه الطبيب الفيلسوف ابن رشد القرطبي الحفيد فقال: أما الطبيب وما أشبه إذا أخطأ في فعله وكان من أهل المعرفة، فلا شيء عليه في النفس، والدية علــى العاقلــة (يعــني العصبة) فيما فوق الثلث، وفي ما له فيما دون الثلث. وإن لم يكن من أهل المعرفة فعليه الضرب والســجن والدية، قيل في ماله وقيل على العاقلة[5].

---

1 الترمذي: أبواب الصلاة، باب بدء الأذان (189)، وقال حسن صحيح، وابن خزيمة (373)، والبيهقي في سننه (1818).

2 مالك: كتاب العين، باب تعالج المريض (1689)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (7395)، وابن أبي شيبة (23420)،

3 ابن القيم: زاد المعاد 121/4.

4 أبو داود: كتاب الديات، باب من تطبب بغير علم (4586)، والنسائي (4830)، وابن ماجة (3466)، والحاكم (7484)، وقال صــحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح، السلسلة الصحيحة (635).

5 ابن رشد: بداية المجتهد 997/1.

وفي هذا الإطار فقد أمر ρ أن يعالَج سعد بن معاذ[1]> عند الصحابية الجليلة رفيـــدة[2] >[3]؛ لأنها ماهرة بالطب، مع أن البيئة في ذلك الوقت لم تكن بعد قد تعارفت على معالجة المرأة للرجال، ولكن لعلمها بالطب وإتقانها له كانت لها هذه المكانة السامية..

بل إنه أمر سعد بن أبي وقاص > أن يأتي الحارث بن كلدة[4]، الطبيب العربي المعروف – وهو من قبيلة ثقيف – ليعالَج عنده، مع أن هذا الطبيب لم يثبت إسلامه بعد.. ولكن لإتقانه لحرفته وصنعته ومهارته فيها، قبِل رسول الله ρ أن يعالَج عنده المسلم[5]!!

كل هذه الأمور تصب في النهاية في أمر واحد، وهو أن الإتقان مطلوب في كل مهنـــة وحرفـــة وصنعة.. وذلك الإتقان لا يأتي إلا بعلم ودراسة، وخبرة وكفاءة..

أما غير المتمرس في صنعة ما وغير الخبير بها.. فلا يؤخذ برأيه، مهما كانت مكانتـــه في التقـــوى والصلاح والورع.. وليس أدل على ذلك من قصة تأبير النخل في المدينة..

فقد روى الإمام مسلم، وأحمد عن طلحة بن عبيد الله > قال: مَرَرْتُ مَعَ النَّبِـــيِّ ρ فِـــي نَخْـــلِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى أَقْوَامًا فِي رُءُوسِ النَّخْلِ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: **مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟** قَالَ: يَأْخُذُونَ مِنْ الـــذَّكَرِ فَيَحُطُّونَ فِي الْأُنْثَى يُلَقِّحُونَ بِهِ. فَقَالَ: **مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا**. فَبَلَغَهُمْ فَتَرَكُوهُ وَنَزَلُوا عَنْهَا، فَلَـــمْ تَحْمِـــلْ تِلْكَ السَّنَةَ شَيْئًا. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ρ فَقَالَ: **إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ ظَنَنْتُهُ، إِنْ كَانَ يُغْنِي شَيْئًا فَاصْنَعُوا، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَالظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ قَالَ اللَّهُ Y، فَلَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ**"[6].

فالنصيحة النبوية للقوم لم تكن من وحي إلهي و لم تكن تشريعًا، ولذلك ففي مثل هـــذه القضـــية يرجع فيها إلى أهل الخبرة والإتقان، وليس إلى الرسول ρ، على علو قدره وسمو مكانته..

ويؤكد على ذلك رواية مسلم عن رافع بن خديج > أن الرسول ρ قال لهم: "**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ**"[7].

---

1 سعد بن معاذ بن عبد الأشهل، أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدي مصعب بن عمير، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، ورُمِـــيَ يـــوم الخندق بسهم فعاش شهرًا، ثم انتقض جرحه فمات منه، وكان موته بعد الخندق بشهر. الإصابة الترجمة (3200)، أسد الغابة239/2.

2 رفيدة: امرأة من أسلم، كان رسول الله ρ حين أصاب سعد بن معاذ السهمُ بالخندق؛ قال لقومه: اجعلوه في خيمةِ رُفيدة حتى أعوده من قريب، فكانت تداوي الجرحى، وتخدم من كانت به ضيعة من المسلمين. أسد الغابة 114/6،الإصابة الترجمة (11169).

3 الطبري: تاريخ الأمم والملوك 100/2، ابن سيد الناس: عيون الأثر 103/2، ابن هشام: السيرة النبوية 198/4.

4 الحارث بن كلدة: ثقفي من أهل الطائف، طبيب العرب في عصره ، وأحد الحكماء المشهورين، رحل إلي فارس وأخذ الطب هنـــاك، ولـــد في الجاهلية وعاش في أيام الرسول ρ والخلفاء الراشدين، كان شاعرًا، توفي في أيام معاوية

5 أبو داود: كتاب الطب، باب في التداوي بالعجوة (3875).

6 مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ρ من معايش الدنيا على ســـبيل الـــرأي (2362)، وابـــن ماجـــة (2470)، وأحمد (1399)، واللفظ له، والطيالسي (230).

7 مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ρ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (2362).

وقال لهم كذلك كما في صحيح مسلم عن عائشة < وأنس بن مالك {: "**أَنْـتُمْ أَعْلَـمُ بِـأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**"[1].

وليس هناك دليل أعظم من ذلك على اهتمام الإسلام بأهل الخبرة في كل تخصص من تخصصـات الحياة، سواء كان ذلك في الزراعة أو في الطب، أو في الحرب أو في التجارة، أو في غير ذلك..

الدليل التاسع:

الإسلام بصفة عامة يحث على تكوين العقلية العلمية الموضوعية، التي تبني أفكارها على الاستدلال والاستنباط، وينكر تمامًا ذلك التقليد الأعمى، الذي لا يُنظر فيه إلى حجة، ولا يُهتم فيه بمنطق ولا برهان..

فتراه سبحانه ينكر على الكفار تبعيتهم العمياء لآبائهم فيقول: (**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**[2]).

وترى رسول الله ρ ينكر على المسلم أن يكون هملا إمعة لا رأي له ولا قرار، فيقول في الحديث الذي رواه الترمذي عن حذيفة >: "**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً؛ تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ؛ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا**"[3].

بل إن الله Y قد طلب البرهان من الكفار على كفرهم هذا وعنادهم فقال: (**أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**[4]).

وقال أيضًا: (**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**[5]).

وقد عرض ربنا سبحانه وتعالى كل القضايا بمنطق الحجة والبرهان والدليل..

فقال في إثبات وحدانيته سبحانه: (**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**[6]).

---

1 مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ρ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (2363).

2 (الزخرف: 22).

3 الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو (2007)، وقال: حديث حسن.

4 (النمل: 64).

5 (الأحقاف: 4).

6 (الأنبياء: 22).

وقال في موضع آخر: (**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**[1]).

وقال: (**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**[2]).

وفي قضية البعث يقول سبحانه معدِّدًا الأدلة والبراهين والحجج العقلية: (**وَضَرَبَ لَنَا مثلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**[3]).

وهكذا.. فالإسلام يحث على استخدام العقل، وعلى التفكير الناضج، والفقه الواعي.. بل إنه يعد الإنسان الذي عطَّل عقله أشبه بالحيوان، أو أحط قيمة منه!!

قال الله Y: (**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**[4]).

فالإسلام إذن دينٌ يدعو إلى إعمال العقل، وتحريره من قيود التقليد والجمود والمحاكاة، وأن يطلق له العنان لأداء وظيفته وفق ضوابط معينة وأطر خاصة..

وعليه فإن الذي يُعطِّل عقله عن العمل والتفكير والإبداع.. يكون قد خالف المنهج الإسلامي مخالفة جسيمة، وأضرّ بنفسه، ثم بأمته من بعده..

الدليل العاشر:

بمراجعة التاريخ الإسلامي نجد أن عهود القوة فيه كانت مرهونة دائمًا ومرتبطة تمام الارتباط بالتفوق في العلوم الشرعية والعلوم الحياتية معًا.. كما أنه لم يكن في هذا التاريخ أيٌّ من مظاهر اضطهاد العلماء، كما كان الحال عند الأوربيين..

فالدين لم يقف أبدًا عائقًا في طريق المسلمين للعلم، سواء في الجانب النظري أو في الجانب العملي التطبيقي، إنما كان الدين بالفعل عائقًا للعلم في المجتمعات الأوروبية قبل نهضتهم الحديثة، وهو الذي رسخ في أذهانهم وأذهان من تعلم على أيديهم واقتفى أثرهم من المسلمين أن الدين من المعوقات الرئيسية للعلم..

---

1 (المؤمنون: 91).
2 (لقمان: 11).
3 (يس: 78 – 81).
4 (الأعراف: 179).

فالكنيسة الأوربية في عصور ظلامهم كانت شديدة القسوة على العلماء، وكانت تقمع كل محاولة للابتكار والاختراع والبحث في العلم؛ في سبيل أن تظل لها السيطرة الكاملة على الشعوب وقيادة النـــاس.. وفي سبيل استمرار جباية الأموال.. وفي سبيل أخذ القرارات المصيرية.. بل وفي سبيل أخذ قرار الغفران من عدمه، لعبد أخطأ أو ارتكب ذنبًا..!!

من هذا المنطلق حدث صراعٌ بين الدين والعلم في أوربا، وعليه فقد شُلَّت حركة العلم في أواسط القرن السادس عشر الميلادي و لم يتوقف ذلك إلا عند بداية النهضة العلمية والثـــورة العلميـــة الأوربيـــة، والانقلاب على الكنيسة..!!

والقصص والروايات التي تصف ظلم الكنيسة الأوروبية الكاثوليكية لا تكاد تنتهي، ولا يخفى على أحد محاكمات كوبرنيكس ومحاكمات جاليليو، وما حدث لأينشتاين وماكس بلانك، وغيرها الكثير..

لقد اكتشف كوبرنيكس عام 1543م أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل 24 ساعة، فيحدث تبادل الليل والنهار، وتدور حول الشمس مرة كل عام، فيحدث تغير الفصول الأربعة، وأن الشمس هـــي مركز الكون وليس الأرض كما كان معتقدًا قبل ذلك.. إلا أن هذا الكشف كان كارثة في أوربا في القرن السادس عشر الميلادي، وقد تعجبت الكنيسة لهذا الكشف حين حاكمته بميزان الحقائق الإنجيلية، إذ وجدته يتناقض مع معتقداتهم، ومع الإحساس الظاهري للبشر، ومع الجبال الساكنة في نظر النصوص المقدسة[1]..!!

ولهذا قررت الكنيسة محاربة كوبرنيكس، واضطهدوه واتهموه بالكفر وطلبوه للقتل، بل وأحرقـــوا كتبه وأبحاثه ومنعوا تدريسها.. و لم يكتشفوا صحة ما وصل إليه إلا بعد وفاته بسنوات وسنوات..

أما جاليليو والذي أثبت أن كوبرنيكس كان على حق، وأن الشمس هي مركز الكون، واكتشف أيضًا أن القمر ليس جسمًا مستويًا.. فقد أمر البابا بإحضاره بالقوة رغم شيخوخته وسوء صحته، للتحقيق معه لتأييده فكرة تحرك الأرض، وحكمت الكنيسة عليه بالسجن في بيته (قيـــد الإقامـــة الجبريـــة) إلى أن يموت[2]..!!

وكذلك أعدمت الكنيسة أيضًا برونو حرقًا في ميدان عام لدفاعه عن تحرك الأرض، وتوقعه وجود أراضين أخرى[3]..!!

وهذا غيض من فيض.. والأمثلة على ذلك جد كثيرة، و لم تتوقف فقط على محاكمات كوبرنيكس وجاليليو، حتى إنهم توسعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضد العلماء، وقد حكمت تلك المحاكم على تســـعين

1 انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد علي أبو درة 273/30.
2 انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد علي أبو درة 269/30،279.
3 انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد علي أبو درة 300/30.

ألفًا وثلاثة وعشرين عالمًا بأحكام مختلفة في الفترة ما بين سنة 1481م إلى سنة 1499م، أي في غضون 18 سنة[1]، كما أصدرت قرارات تُحرِّم قراءة كتب جيوردا نويرنو، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية، وتأمر بحرق كتبهم، وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة 8000 كتابًا مخطوطًا لمخالفتها آراء الكنيسة[2]..!!

وهذا الواقع الرهيب والمظلم عاشته أوروبا قرونًا طويلة، سُمِّيت بالعصور المظلمة، وتُسمى أيضًا بالقرون الوسطى، حيث استغرقت نحو ألف عام من الزمان، وقد رسَّخ هذا الواقع في أذهان العلماء والفلاسفة (أمثال ديكارت وفولتير) وعموم الناس أنه لا أمل في طلب العلم والابتكار إلا بهدم سلطان الكنيسة، وإلا بمحو الدين تمامًا من الصدور، والاتجاه إلى الإلحاد بكل ما تعنيه الكلمة من معان.. فأعلنوا صراحة معارضتهم للكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل؛ لاحتوائهما على ما يتعارض مع الحقائق العلمية، ولاعتقادهم بأن الدين – كما رأوا – هو اضطهاد العلم والعلماء، وهو الحجر على العقول[3]..

وقد راحوا يدعون بعد ذلك إلى إعلاء العقل في مقابلة النصوص الرئيسية، وحجتهم أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلمية، ويستطيع التمييز بين الخير والشر..

وقد ساعدت الجمعية الوطنية الفرنسية على هذا التحرر، وذلك بإصدار قرارات سنة 1790م، كان من شأنها أن قصمت ظهر الكنيسة، حيث سرحت الرهبان والراهبات، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعين هي رجال الكنيسة بدلا من البابا!!

ثم جاء القانون الذي أقرته الحكومة الفرنسية عام 1905م بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما، وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدس والكنيسة بحرية، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يقسموا يمين الولاء للطاعة والشعب والملك والدستور المدني الجديد..

وقد توالت القرارات بعد ذلك لتعم دول أوربا كلها، ليتقلص بذلك دور الكنيسة من محاولة السيطرة على أمور العلم والسياسة، ولتنزوي تمامًا داخل الجدران، فتمارس فقط الوعظ والترانيم[4]..!!

هذا في أوروبا النصرانية..

لكن.. لماذا يقال هذا الكلام ولماذا يراد تطبيقه على الدين الإسلامي؟

---

1 الإمام محمد عبده: مقاومة النصرانية للعلم في التاريخ نقلاً عن كتاب البابا والإسلام للدكتور يوسف القرضاوي.

2 الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي فصل بعنوان الكاثوليك بتصرف. شوقي أبو خليل: سقوط غرناطة ص98 بتصرف.

3 الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي فصل بعنوان الكاثوليك بتصرف.

4 المرجع السابق فصل بعنوان الكاثوليك.

هل كان ثمة صراعٌ قد حدث بين علماء الدين والشريعة وبين علماء الحياة؟!

هل حُورب علماء الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والسلاح والجغرافيا..؟ أم كُرِّموا وقُدِّموا على غيرهم؟!

لقد كان اتصاف المسلم بفضيلة العلم بشتى أنواعه كافيًا لتقديمه على غيره، ورفعه إلى مصافّ رجال الأمة وصُنَّاعها المبجلين، والمقربين إلى الخاصة وإلى العامة على حد سواء..

لقد كان عباس بن فرناس[1] – على سبيل المثال – من علماء المسلمين الأفاضل في الأندلس، وهو صاحب سبقٍ في اختراعات كثيرة، لعل أشهرها أنه أول من قام بمحاولة للطيران في التاريخ.. ولهذا التفوق العلمي قرَّبه الخلفاء وعظموا قدره..

ولحاله هذا، ولِما وصل إليه من شهرة وحظوة لدى الأمراء، فقد كان له حسَّاد يتربصون به، وقد راحوا يتهمونه بالسحر والشعوذة، وأنه يقوم بأشياء غريبة وعجيبة في منزله، أو في معمله الاختباري إن صح التعبير، وذلك لأنه كان يشتغل بالكيمياء، وكان ينتج عن ذلك انبعاث أدخنة وتطاير أبخرة من منزله..

وقد استُدعي للمحاكمة في قرطبة – وكان الخليفة في ذلك الوقت هو عبد الرحمن بن هشام الأموي – وقيل له في ذلك أنك تفعل كذا وكذا، وتخلط أشياء بأشياء، وتقوم بغرائب وعجائب لم نعهدها، فقال في رده عليهم: أترون أني لو عجنت الدقيق بالماء فصيرته عجينًا، ثم أنضجت العجين خبزًا على النار، أأكون قد صنعت سحرًا؟ قالوا: لا؛ بل هذا مما علم الله الإنسان. فقال: وهذا ما أشتغل به في داري، أمزج الشيء بالشيء، وأستعين بالنار على ما أمزج، فيأتي مما أمزج شيء فيه منفعة للمسلمين وأحوالهم[2].

وكانوا قد أرادوا شاهدًا على صحة الدعوى، فكان الشاهد هو عبد الرحمن بن هشام، الخليفة الأموي نفسه.. وفي المحكمة وحين سمع الأقوال راح يُدلي بشهادته فقال: أشهد أنه قال لي أنه يفعل كذا وكذا (يريد أن كل هذه الأشياء يعملها ولها أصول عنده)، وقد صنع ما أنبأني به، فلم أجد فيه إلا منفعة للمسلمين، ولو علمت أنه سحر لكنت أول من حدّه!!

---

1 أبو القاسم عباس بن فرناس، من موالي بني أمية، فيلسوف شاعر، له علم بالفلك، وأول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من اخترق الجو فقد حاول الطيران، فكسا نفسه الريش، ومد له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذى في ظهره، توفي سنة أربع وسبعين ومائتين. انظر الوافي بالوفيات للصفدي، ونفح الطيب للمقري.

2 ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب ص203.

لقد أتوا بقائد الدولة وخليفة المسلمين إلى المحكمة ليشهد، ثم هو يشهد بالحق ولصالح العالِم، فكان أن حكم القاضي والفقهاء ببراءة ابن فرناس، وأثنوا عليه وحثوه على أن يستزيد من عمله وتجاربه، وحُفظت له بذلك مكانته[1]..

ولنقارن ذلك بمحاكمة كوبرنيكس ومحاكمة جالليو وغيرها مما عرضنا لها سالفًا، لنتبين أبعاد المُفارقة..

والأمثلة على توقير العلماء، وإنزالهم منزلتهم، وحفظ مكانتهم وقدرهم.. هي أكثر من أن تُحصى، ولعل ما يمكن أن نذكره هنا ما كان من حال عالم البصريات الأبرز في تاريخ الحضارة الإسلامية، الحسن بن الهيثم[2]، فقد كان أمراء عصره في كل أقطار العالم الإسلامي شغوفين بالعلم ورعاية العلماء والاهتمام بهم، الأمر الذي جعله يتنقل بحرية تامة في ربوع العالم الإسلامي بين مراكز الحضارة الإسلامية فيه، ينهل منها جميعها..

وكان للحاكم بأمر الله (الأمير الفاطمي، ت411هـ) دوره المهم في تنمية علم المهندس البصري الحسن بن الهيثم، وذلك بعد أن سمع عنه وذاع صيته في البصرة، وخاصة لما علم قوله: "لو كنت بمصر لعملت فِي نيلها عملاً يحصل بِهِ النفع فِي كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عالٍ، وهو فِي طرف الإقليم المصري".

كان من أمر الحاكم بأمر الله أن دعا الحسن بن الهيثم للمجيء إلى مصر، على أن يُساعده ويقدم العون له والمال، للقيام بمشروع السد الذي يتحكم في مياه النيل كما قال..

وما أن جاء ابن الهيثم إلى مصر، حتى استقبله الحاكم بأمر الله في قصر الضيافة الملكي، وأمر بإنزاله وإكرامه، ثم سرعان ما تناقشا في أمر السد، وكان أن اقترح عليه الأمير أن يبدأ فيه..

ولما وصل ابن الهيثم إلى أرض الواقع، والموضع المعروف بالجنادل، قبلي مدينة أسوان، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل، عاينه وباشره واختبره من جانبيه، وجد أن ما يبغيه هو فوق جهد الناس في أيامه.. فتراجع معتذرًا عن فكرته.

---

1 أمين يوسف وعلي حسين النبهان: أشهر محاكمات التاريخ بتصرف دار التراث بيروت 1972.

2 الحسن ابن الهيثم، المسمى عند الغربيين "الهازن" ولد بالبصرة ودرس بها، وتفوق في علم البصريات ويقول عنه أرنولد في كتاب "تراث الإسلام": إن علم البصريات وصل إلى الأوج بظهور ابن الهيثم، وابن الهيثم هو أول من قال بأن العدسة المحدبة ترى الأشياء أكبر مما هي عليه وأول من شرح تركيب العين ووضح أجزاءها بالرسوم.

فابن الهيثم حين وصل إلى منطقة الجنادل جنوبي مصر (وهو نفس مكان السد العإلى المقام حإليـــا) وعاين المكان، اكتشف استحالة تنفيذ فكرته في زمانه بوسائل وإمكانات عصره، فرجع إلى القاهرة معترفًـــا بفشله في تنفيذ فكرته بإقامة سد علي النيل يختزن المياه من أيام الفيضان لتروى أرض مصر في أيام التحاريق.

والشاهد في ذلك مدى اهتمام الأمير الفاطمي بالعلماء، ومدى توقيره لهم، والذي ظهر من خلال دعوته لابن الهيثم للمجيء إلى مصر، ثم حسن استقباله له وإكرامه، و لم يكن ذلك إلا لعلم ابن الهيثم ~..

ويذكر التاريخ أيضًا أن الخوارزمي[1] انتقل من بلدته خوارزم (وكانت مركزًا من مراكـــز الثقافـــة الإسلامية) إلى بغداد عاصمة الخلافة، حيث "بيت الحكمة" ذلك المجمع العلمي الكبير الذي أقامه الخليفـــة هارون الرشيد، والذي بنى المأمون بجواره مرصدًا فلكيًا..

ولأن الخوارزمي كان بارزًا في علوم الفلك والجغرافيا، فقد اتصل بالخليفة المأمون، لما عرف عنه من حبٍ للعلم والعلماء، وخاصة وأن المأمون كان بارعًا في هذين المجإلين من العلوم..

وسرعان ما أحاطه المأمون بعناية خاصة وتكريم كبير، فولاه منصبًا كبيرًا في بيت الحكمة، ثم أوفده في بعض البعثات العلمية إلى البلاد المجاورة، للاتصال بعلماء هذه المناطق، والاستزادة من علوم الآخـــرين، ونشر العلم في أرجاء الدولة الإسلامية..

وفي سياق الحديث عن مرصد المأمون، فقد كان اهتمام المأمون بعلم الفلك غالبًا علـــى اهتمامـــه بمجالات العلوم الأخرى، ولذلك أمر العلماء (ولنقارن ذلك بحال الكنيسة مع العلماء كما ذكرنا في هـــذا الشأن) أن يقيموا مرصدًا فلكيًا لقياس الكواكب ومعرفة أحوالها.. وقد تحدث صاعد الأندلسي عن اهتمام المأمون بعلم الفلك وجهوده في ذلك، فقال:

"ولما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون، وطمحت نفسه الفاضلة إلى إدراك الحكمة، وسمت به همته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة، ووقف علماء وقته على كتاب المجسطي (لبطليموس)، وفهمـــوا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه... جمع المأمون علماء عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا مثـــل تلك الأدوات، وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا بها أحوالها، كما صنع بطليموس ومن كان قبله، ففعلـــوا ذلك وتولوا الرصد بمدينة الشماسية من بلاد دمشق من أرض الشام، سنة أربع عشرة ومائتين، فوقفوا على زمن سنة الشمس الرصدية، ومقدار ميلها وخروج مركزها ووضع أوجهها، وعرفوا مع ذلك بعض أحوال

---

1 عاش محمد بن موسى الخوارزمي في بغداد فيما بين 164ــ 235 هجرية (850,780م) وتوفي هناك، وبرز في عهـــد المـــأمون، ونبـــغ في الرياضيات والفلك، وطور الفكر الرياضي وذلك بإيجاد نظم لتحليل كل من معادلات الدرجة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطـــرق جبريـــة هندسية، لذا يعتبر الجبر والمقابلة للخوارزمي هو أول محاولة منظمة لتطوير علم الجبر على أسس علمية . انظر ابن النديم: الفهرســـت ص 333 - إليان سيركيس: معجم المطبوعات 1/ 841 - أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 20 – علي عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص 148.

باقي الكواكب من السيارة والثابتة، ثم قطع بهم عن استيفاء غرضهم موت الخليفة المأمون سنة ثماني عشرة ومائتين (833م)، فقيدوا ما انتهوا إليه، وسموه "المرصد المأموني"[1].

وفي طور اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء، فقد كانوا يمنحون من الجوائز العظيمة والهبات الجزيلة التي تشجع على تحصيل هذه العلوم بصورة هي أقرب إلى الخيال، وبصورة أكثر من غيرها في أي مجال آخر..

فكان المأمون أيضًا إذا ترجم عالِمٌ من العلماء كتابًا من لغة غير العربية إلى اللغة العربية أعطاه وزن هذا الكتاب المترجَم ذهبًا، وبالطبع فليس في هذه العلوم المترجمة صلة بعلوم الشرع، إنما كانت من علوم اليونان أو الرومان أو الإغريق أو الهند، مما هي في الطب والرياضيات والهندسة وغيرها من علوم الحياة[2]..

ولذلك فقد نشطت حركة الترجمة كثيرًا في ذلك الوقت، وعلى إثرها نُقل إلى المسلمين علوم هائلة.. فاستطاعوا أن يقيموا أروع حضارة عرفتها البشرية في تاريخها..

وبهذه المناسبة والحديث عن الترجمة، فإننا نُعرّج قليلا على حركة الترجمة في البلاد الإسلامية في عصرنا هذا، لنقارنه بما كانت عليه الحياة العلمية والحضارة الإسلامية بصفة عامة في عصر الخليفة المأمون..

فإن الإحصائيات الحديثة تشير إلى أن العالم العربي يُترجِم ثلاثة كتب سنويًا لكل مائة ألف مواطن، بينما وعلى الجانب الآخر، فإن إسرائيل وحدها - على سبيل المثال - تترجم مائة كتاب سنويًا لكل مائة ألف مواطن!!

وهذا يوقفنا بعض الشيء على حقيقة الوضع العلمي المتردي الذي نعيشه الآن..

وفي هذا الشأن أيضًا أرسل المنصور والمأمون والمتوكل الرُّسلَ إلى القسطنطينية وغيرها من المدن البيزنطية لاجتلاب الكتب اليونانية التي أهملها أصحابها - على حد تعبير علي بن عبد الله الدفاع في روائع الحضارة العربية والإسلامية - ولم يعرفوا قيمتها.. فكان خلفاء المسلمين يرسلون أحيانا العلماء إلى أعدائهم أباطرة الروم ليشتروا منهم الكتب العلمية اليونانية، كما أن خلفاء بني أمية والعباس كانوا يقبلون المخطوطات والكتب العلمية من أساقفة النصارى والصابئة والمجوس وغيرهم بدلا من دفع الجزية[3]!!

أبلغ تكريمٌ للعلم والعلماء، وأبلغ رسالة في الحرص عليه، والتشجيع له.. ذلك الذي كان يقوم به الخلفاء المسلمون..؟!

1 صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم 299/2.

2 شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص442 بتصرف.

3 انظر علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم، مؤسسة الرسالة - القاهرة، الطبعة الثانية، 1999م ص 25

والحديث في هذه الأمثلة لا ينقطع.. و لم تكن هذه الأحداث عابرة في حياة الأمة الإسلامية، إنما كانت متكررة عبر قرون متتالية.. مما يؤكد على أنها لم تكن من قبيل المصادفة، أو نتيجة وجود خليفة معين أو حاكم بذاته يهتم بالعلوم..

فلقد كانت هذه العلوم سمة أصيلة من أهم سمات ومقومات الدولة الإسلامية في شتى مراحلها.. وهو ما حدا بجامعات مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة في الأندلس، لأن تفتح أبوابها للراغبين في العلم من كل أنحاء أوروبا.. إذ لم يكن هناك جوٌّ علمي، ولا بيئة علمية إلا في هذه البقاع المسلمة..

ويقول سارتون: "حقق المسلمون – عباقرة الشرق – أعظم المآثر في القرون الوسطى، فكتبت معظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية، وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري، حتى لقد كان ينبغي لأي كائن إذا أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها، وأعتقد أننا لسنا في حاجة أن نبين منجزات المسلمين العلمية في الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك والكيمياء والنبات والطب والجغرافيا"[1]..

ولنا أن نتساءل بعد:

لماذا يهرب كثيرٌ من المسلمين من القضايا العلمية الآن؟ ولماذا يُتَّهم الإسلام بالتخلف والجمود؟ ولماذا يُعلّق كثيرٌ من المتشائمين والعلمانيين الغربيين على أن هذه القواعد التي ذكرنا هي قواعد نظرية، لا مجال لها للتطبيق في مجال الحياة، وفي واقع الناس؟ ولماذا يرسخون في اعتقادنا أن الدين عكس العلم وأنه يضاده ويتنافى معه؟ وأن الإنسان إذا أراد أن يكون عالمًا حقًّا، فعليه أولاً أن يتخلص من قيود الدين؟!

ألا يثبت ذلك التشجيع المكثف على العلم، وذاك الحرص الشديد عليه الذي رأيناه من قِبل الخلفاء المسلمين على مدى عصورهم، وتلك المكانة السامقة والرفيعة للعلم والعلماء في الإسلام بصفة عامة، وعلى مدى تاريخهم الحضاري بصفة خاصة.. ألا يثبت ذلك أنه تشجيعٌ عملي واقعي، قابلٌ للتطبيق والتكرار؟!

(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ[2]).

---

1 حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص8، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص110، 111، نقلا عن سارتون: المدخل إلي تارخ العلوم.

2 (يونس: 53).

الفصل الخامس: نماذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية

في صورة تعبر عن جمع الحضارة الإسلامية بين علوم الشرع التي تحفظ الدين، وعلوم الحياة الـــتي تُسيِّر الحياة وتعمِّر الأرض.. وذلك كله لرفعة الأمة واستغنائها عن غيرها، لتحقق أهليتها بأن تكون خير أمة أُخرجت للناس..

وفي واحدة مما يمكننا من خلالها غرس الأمل وإيقاظه في النفوس..

فهذه أمثلة – مجرد أمثلة – ونماذج واقعية أخذت بأسباب العلم، وارتقت به في مدارج الســـماء؛ فأصبحت شعلة وهّاجة أضاءت سماء الإنسانية، وبدَّدت ظلام القرون الوسطى، ونعرضها في أربعة مباحث كما يلي:

المبحث الأول: علم الجرح والتعديل

المبحث الثاني: علم الطب في الحضارة الإسلامية

المبحث الثالث: علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية

المبحث الرابع: علم البصريات في الحضارة الإسلامية

المبحث الأول: علم الجرح والتعديل

لما كان الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، والمنهل البياني له في تفصيل الأحكام المجملة التي وردت فيه، وتقييد المطلق وتخصيص العام، وتأسيس الأحكام التي لم ينص عليها القرآن.. فقد عُني المسلمون بحفظه وفهمه في حياة النبي ρ وبعد وفاته، واستمر هذا الاهتمام عبر الأجيال المتتالية.

ولما كان من الأمور المعلومة بداهة أنه لا سبيل إلى معرفة ما جاء عن النبي ρ من أحاديث وأخبار إلا عن طريق الرواة والنقلة، الذين نقلوا أخباره جيلاً بعد جيل وطبقة بعد طبقة، حتى دونت السنة في الكتب المعتمدة المعروفة.. فقد كان الاطلاع على أحوال هؤلاء الرواة والنقلة، وتتبع مسالكهم، وإدراك مقاصدهم وأغراضهم، ومعرفة مراتبهم وطبقاتهم، وتمييز ثِقاتهم من ضعافهم، هو الوسيلة الأهم لمعرفة صحيح الأخبار من سقيمها..

وقد نتج عن هذا نشوء علم عظيم وضعت له القواعد، وأسست له الأسس والضوابط، فكان مقياسًا دقيقًا ضبطت به أحوال الرواة، من حيث التوثيق والتضعيف، والأخذ والرد، وذلك هو "**علم الجرح والتعديل**"، أو علم الرجال، أو علم ميزان أو معيار الرواة، **والذي لا نظير له عند أمة أخرى من أمم الأرض**..

وقد عُدَّ هذا العلم نصف علم الحديث؛ وكيف لا وهو ميزان رجال الحديث ومعيار الحكم عليهم، وهو الحارس للسنة من كل زيف ودخيل..؟!

والذي يطالع كتب الرجال والتراجم والجرح والتعديل، يقف مبهورًا أمام هذا العلم الذي لا يمكن أن يكون وضعه جاء صدفة أو تشهيًا، بل بُذِلت فيه جهود، وقُطِعت فيه فيافي وقفار، وفنيت فيه أزمان وأعمار، حتى بلغ قمة الحسن ومنتهى الجودة..

وبداية؛ فإن "**الجرح**" في اللغة يعني: التأثير في البدن بقطع بسلاح ونحوه، وقد استعير في المعنويات بمعنى التأثير في الخُلُق والدين بوصفٍ يناقضهما. وعلى هذا فهو في الاصطلاح يعني: وصف الراوي أو الطعن فيه بما يقتضي رد روايته.

أما "**التعديل**" فيعني في اللغة: التقويم والتسوية، واستعير أيضًا في المعنويات بمعنى الثناء على الشخص بما يدل على دينه القويم وخلقه السوي. وهو في الاصطلاح يعني: وصف الراوي بما يقتضي قبول روايته.

وعلى هذا فعلم الجرح والتعديل النظري هو: القواعد التي تنبني عليها معرفة الرواة الـذين تقبـل رواياتهم أو ترد، ومراتبهم في ذلك. أما التطبيقي فهو: إنزال كل راوٍ منزلته التي يسـتحقها مـن القبـول وعدمه[1].

والكلام في الرجال جرحًا وتعديلاً ثابت عن رسول الله ρ، وعن كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وجُوِّز ذلك تورعًا وصونًا للشريعة من أن يدخل فيها ما ليس منها، ونصيحة لله ورسوله والمسلمين، وليس هو طعنًا في الناس، وكما جاز الجرح في الشهود جاز في الرواة، والتثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والأموال[2]..

والحقيقة أن التجريح والتعديل لم يكن متاحًا لأي أحد؛ وذلك أن الأمر يتطلـب مـن الأهليـة والتمكن ما لا يمكن أن يصل إليه إلا القلة من جهابذة النقاد والمحدثين، الذين لديهم اطلاع واسـع علـى الأخبار والمرويات وطرقها، ومعرفة تامة بأحوال الرواة ومقاصدهم وأغراضهم، والأسـباب الداعيـة إلى التساهل والكذب، والموقعة في الوهم والخطأ، مع معرفة بأحوال الراوي وتاريخ ولادته، وبلـده، وديانتـه وأمانته وحفظه وسلوكه، وشيوخه وتلاميذه، ومقارنة مروياته بمرويات غيره، إلى غير ذلك..

وهي منزلة لا يصل إليها كل أحد، وليس أدلَّ على ذلك من أن رواة الأخبار كـثيرون يعـدون بالألوف، وأما النقاد الحاذقون فإنهم قليل لا يتجاوزن أصابع إليد في كل طبقة، وهؤلاء الأئمة الذين بلغـوا هذه المرتبة لم يبلغوها إلا بعد استيفائهم للشروط التي تؤهلهم للتصدي لهذا الأمر.

وقد قام الأئمة بهذا الواجب حسبة لله، وصيانة لدينه، وحفاظًا على سنة نبيه، قال أبو بكـر ابـن خلاّد ليحي بن سعيد: "أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماؤك عند الله؟ فقـال: لأن يكونوا خصمائي أحب إلي من أن يكون خصمي رسول الله ρ يقول: لِمَ لَمْ تذُبَّ الكذب عن حديثي؟"[3].

فلم يكن الحامل لهم على ذلك أهواء أو حظوظ النفس أو غيره، ولذلك لم تراهم يجاملوا أحدًا حتى ولو أقرب الأقربين، فوجدنا منهم من يضعف والده، وقد سُئِل علي بن المديني – كما مرَّ بنا من قبل – عن أبيه؛ فقال: اسألوا غيري، فقالوا: سألناك، فأطرق ثم رفع رأسه وقال: "هذا هو الدين، أبي ضعيف"4، وكان منهم من يُضعِّف ولده وأخاه، قال أبو داود صاحب السنن: "ابني عبد الله كذاب"، وقال زيد بن أبي أنيسة: "لا تأخذوا عن أخي يحيى"[5]..!!

---

1 الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص6.

2 الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص38.

3 الأبناسي: الشذا الفياح 740/2.

4 ابن حبان: المجروحين 15/2.

5 السخاوي: فتح المغيث 355/3.

وعلى هذا فإنه لابد من توافر **شروط معينة في الجارح والمعدِّل**، والتي من شأنها أن تجعل حكمه منصفًا كاشفًا عن حال الراوي..

ويمكن إجمال هذه الصفات أو تلك الشروط فيما يلي:

1) أن يتصف بالعلم والتقوى والورع والصدق؛ لأنه إن لم يكن بهذه الأخلاق فهو محتاج إلى من يعدله، فكيف يكون حاكمًا على غيره بالجرح والتعديل والحالة كما ذكر[1]؟!

2) أن يكون عالمًا بأسباب الجرح والتعديل؛ لأنه إن لم يكن بهذه الصفة ربما جرح الراوي بما لا يقتضي جرحه، أو بأمر فيه خلاف قوي، وربما عدَّل الرجل استدلالاً ببعض مظاهره دون خلطة ومعرفة وسير لأحواله[2].

3) أن يكون عالمًا بتصاريف كلام العرب لا يضع اللفظ لغير معناه، ولا يجرح بنقله لفظًا هو غير جارح[3].

وهذا الجرح والتعديل في الرواة يثبت بواحد من طرق ثلاثة:

الأول: الاستفاضة والشهرة؛ فمن اشتهر بين أهل الحديث بعدالته، وشاع الثناء عليه، استغنى عن بينة شاهدة بعدالته، وهؤلاء مثل: الإمام مالك، وشعبة، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ووكيع، وأحمد بن حنبل.. فمثل هؤلاء لا يُسأل عن عدالتهم؛ لأن شهرتهم بالعدالة أقوى في النفس من شهادة الواحد والاثنين بعدالتهم[4].

وقد سُئِل الإمام أحمد بن حنبل عن إسحاق بن راهويه، فقال: مثل إسحاق يُسأل عنه؟! إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين[5].

وحكم الجرح فيما سبق كالتعديل.

الثاني: أن ينص اثنان من أهل العلم على عدالته أو جرحه، وهذا باتفاق الجماهير من العلماء؛ قياسًا على الشهادة، حيث يشترط في تزكية الشاهد اثنان.

---

1 أبو الحسنات اللكنوي الهندي: الرفع والتكميل ص67.

2 زين الدين العراقي: التقييد والأيضّاح 142/1.

3 الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص27.

4 الأبانسي: الشذا الفياح 235/1.

5 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 382/2.

الثالث: أن ينص واحد من علماء الجرح والتعديل على عدالة ذلك الراوي أو جرحه، على الصحيح المختار الذي رجحه الخطيب البغدادي وابن الصلاح وغيرهما، واستدلوا على ذلك بأن العدد لم يشترط في قبول الخبر، فإنَّ الحديث الغريب (أي الذي جاء من طريقٍ واحد) قد يكون صحيحًا، فإذا كان كذلك فلا يشترط في جرح الراوي أو تعديله أكثر من معدل أو جارح واحد[1].

وخالف بعض العلماء فقالوا: لا يثبت التعديل والجرح إلا باثنين؛ قياسًا على الجرح والتعديل في الشهادات[2].

وهناك شَرطان لقبول الجرح والتعديل:

الأول: أن يصدرا ممن استوفى شروط الجارح والمعدِّل التي سبق ذكرها؛ فإن اختلَّ بعض شروط الجارح والمعدل لم يقبل جرحه ولا تعديله، ولذلك صور منها:

1) أن يكون الجارح نفسه مجروحًا: ومثال ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر في التهذيب في أحمد بن شبيب الحبطي البصري، بعد أن نقل توثيقه عن أبي حاتم، وأهل العراق، وابن حبان، قال: وقال أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث غير مرضي، قلت (ابن حجر): لم يلتفت أحدٌ إلى هذا القول، بل الأزدي غير مرضي[3].

2) أن يكون الجارح من المتشددين الذين يجرحون الراوي بأدنى جرح: ومثال ذلك ما ذكره الإمام الذهبي في الميزان في محمد بن الفضل السدوسي شيخ الإمام البخاري، الملقب بعارم، بعد أن ذكر توثيق الدارقطني له، قال: قلت (الذهبي): فهذا قول حافظ العصر الذي لم يأت بعد النسائي مثله، فأين هذا القول من قول ابن حبان... في عارم: "اختلط في آخر عمره، وتغير حديثه حتى كان لا يدري ما يحدث به، فوقع في حديثه المناكير الكثيرة، فيجب التنكب عن حديثه فيما رواه المتأخرون، فإذا لم يعرف هذا من هذا تُرِك الكل ولا يحتج بشيء منها"، قلت (الذهبي): ولم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثًا منكرًا، فأين ما زعم[4]؟

الشرط الثاني: أن يكون الجرح مفسَّرًا، وأما التعديل فلا يشترط تفسيره، وسبب التفريق بينهما أن أسباب التعديل كثيرة يصعب حصرها؛ فإن ذلك يحوج المعدل إلى أن يقول: فعل كذا وكذا، فيذكر كل ما

---

1 السيوطي: تدريب الراوي 308/1.
2 الشهرزوري: مقدمة ابن الصلاح 61/1.
3 ابن حجر: تهذيب التهذيب 31/1.
4 الإمام الذهبي: ميزان الاعتدال 8/4.

يجب عليه أن يفعله، ويقول: لم يكن يفعل كذا وكذا، فيعد كل ما يجب عليه أن يجتنبه وهذا أمر شاق جدًا، وأما الجرح فإنه يثبت في الراوي ولو بخصلة واحدة مما يقتضي الجرح[1].

وهناك سبب آخر للتفريق بينهما، وهو أن الناس اختلفوا في أسباب الجرح، فربما جرح بعضهم الراوي بما ليس بجارح عند التحقيق، فكان لابد من الاستفسار عن سبب الجرح لينظر، هل هو جرح أم لا، وليس الأمر كذلك في التعديل[2].

هذا هو مذهب الجمهور، واختار الخطيب البغدادي قبول الجرح المجمل – أي الذي لم يفسر – إذا صدر من العالم بما يصير به الراوي مجروحًا؛ لأنا متى استفسرناه عن سبب الجرح فقد شككنا في علمه، فنقضنا ما بنينا عليه أمره من الرضى به والرجوع إليه[3].

على أنه قد تتعارض أقوال أهل العلم في الراوي، فيوثقه – مثلاً – بعضهم ويجرحه آخرون.. و حينئذٍ لا يخلو الأمر من حالين:

أولا: أن يمكن الجمع بين كلام الموثق وكلام الجارح في ذلك الراوي، وذلك بأن يحمل التوثيق على أمر خاص، والتجريح على أمر خاص آخر، ولذلك صور:

1) أن يكون التوثيق للراوي في روايته عن أهل بلده، والجرح له في روايته عن غير أهل بلده، وذلك مثل إسماعيل بن عياش الحمصي؛ فإنه إذا حدث عن الشاميين فحديثه عنهم جيد، وإذا حدث عن غيرهم فحديث مضطرب.

2) أن يكون التوثيق للراوي في وقت من عمره، والتجريح في وقت آخر من عمره، وذلك في حق الرواة المختلطين، فيؤخذ من حديث هؤلاء ما روي عنهم قبل أن يختلطوا، ويضعف من حديثهم ما روي عنهم بعد الاختلاط.

ومن أمثلة هذا النوع عطاء بن السائب، وسعيد بن أبي عروبة، وصالح بن نبهان مولى التوأمة، هذا فيما إذا استمر المختلط في التحديث بعد اختلاطه، فأما إن توقف عن التحديث أو حجب عنه الناس – كما في شأن جرير بن حازم وعبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي – فإن حديثه مقبول ولا يضره اختلاطه.

3) أن يكون التوثيق للراوي في روايته عن بعض شيوخه، والجرح في روايته عن شيوخ معينين.

---

1 أبو الحسنات اللكنوي: الرفع والتكميل ص117.

2 سراج الدين الأنصاري: المقنع 249/1.

3 الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص108.

ومثال ذلك حماد بن سلمة؛ فإنه ثقة، وخاصة في روايته عن ثابت البناني، ولكن روايته عن قيس بن سعد لا يحتج بها، قال الإمام أحمد: ضاع كتابه عنه، فكان يحدث من حفظه فيخطئ.

ومثل هشام بن حسان الأزدي؛ فإنه ثقة مشهور، لكن تُكُلِّم في روايته عن بعض شيوخه، قال يحيى بن معين: يُتَّقَى من حديثه عن عكرمة، وعن عطاء وعن الحسن البصري.

ثانيًا: أن يتعذر الجمع بين الجرح والتعديل، وهنا يقدم الجرح على التعديل؛ لأن المعدل يخبر عما ظهر له من حال ذلك الراوي، والجارح يخبر عن باطن خفي عن المعدِّل، فمعه زيادة علم، فيُقدَّم قوله.

ولكنَّ ذلك بشروطٍ ثلاثة:

1) أن يكون الجرح مفسَّرًا.

2) أن لا يكون الجارح متعصبًا على المجروح أو متعنتًا في جرحه.

3) أن لا يبين المعدل أن الجرح قد انتفى عن ذلك الراوي بدليل صحيح، وذلك مثل أن يجرحه الجارح بأمر مفسق فيبين المعدل أنه قد تاب من ذلك العمل.

وبقي إذن أن نعلم أن علماء الحديث اصطلحوا على **ألفاظ معينة يصفون بها الرواة**؛ ليميزوا بها بين مراتب أحاديثهم من حيث القبول والرد، وهذه الألفاظ كما يلي:

أولا: ألفاظ التوثيق:

1) أعلاها وصف الراوي بما يدل على المبالغة في التوثيق، وأصرح ذلك التعبير بأفعل، كأوثق الناس، أو أثبت الناس، أو إليه المنتهى في التثبت.

2) ثم ما كررت فيه صفة التوثيق لفظًا، كثقة ثقة، أو معنىً، كثقة حافظ، وثبت حجة، وثقة متقن.

3) ثم ما انفرد فيه لفظ التوثيق، كثقة، أو ثبت، أو إمام، أو حجة. أو تعدد ولكن بمعنى المفرد، مثل: عدل حافظ، أو عدل ضابط.

4) ثم ما قالوا فيه: لا بأس به، أو ليس به بأس – عند غير ابن معين – أو صدوق، أو خيار، وأما ابن معين فإنه قال: إذا قلت لك: ليس به بأس فهو ثقة.

5) ثم ما قالوا فيه: محلُّه الصدق، أو إلى الصدق ما هو، أو شيخ، أو مقارب الحديث، أو صدوق له أوهام، أو صدوق يهم، أو صدوق إن شاء الله، أو أرجو أنه لا بأس به، أو ما أعلم به بأسًا، أو صويلح، أو صالح الحديث.

حكم هذه المراتب:

مَن قيل فيه من الرواة لفظ من ألفاظ المراتب الثلاث الأولى، فحديثه صحيح، وبعضه أصح من بعض، وأما أهل المرتبة الرابعة فحديثهم حسن، وأما أهل المرتبة الخامسة فلا يُحتَج بحديثهم، بل يُكتَب حديثهم للاعتبار، فإن وافقهم غيرهم قُبِلَ، وإلا رُدَّ.

ثانيًا: ألفاظ الجرح: وهي على مراتب أيضًا:

1) فشرُّها الوصف بما دل على المبالغة في الجرح، وأصرح ذلك التعبير بأفعل، كقولهم: أكذب الناس، أو إليه المنتهى في الكذب، أو هو ركن الكذب.

2) ودونها ما قيل فيه: وضَّاع، أو كذَّاب، أو يضع الحديث، أو يختلق الحديث، أو "لا شيء" عند الشافعي.

3) ودونها ما قيل فيه: متهم بالكذب، أو بالوضع، أو يسرق الحديث، أو ساقط، أو هالك، أو ذاهب الحديث، أو متروك الحديث، أو تركوه، أو فيه نظر، أو سكتوا عنه (عند البخاري في اللفظتين الأخيرتين فقط)، أو ليس بثقة.

4) ودونها ما قيل فيه: ردُّوا حديثه، أو ضعيف جدًا، أو واه بمرة، أو تالف، أو لا تحل الرواية عنه، أو لا شيء، أو ليس بشيء عند غير الشافعي، أو منكر الحديث عند البخاري.

5) ودونها ما قيل فيه: ضعيف، أو ضعفوه، أو منكر الحديث عند غير البخاري، أو مضطرب الحديث، أو لا يحتج به، أو واه.

6) ودونها ما قيل فيه: فيه مقال، أو فيه ضعف، أو ليس بذلك، أو ليس بالقوي، أو ليس بحجة، أو ليس بالمتين، أو سيئ الحفظ، أو لين، أو تعرف وتنكر، أو ليس بالحافظ.

حكم هذه المراتب:

الحكم في المراتب الأربع الأولى أنه لا يُحتَج بواحد من أهلها، ولا يُستشهد به، ولا يُعتبر به؛ فأهل المرتبة الأولى والثانية حديثهم موضوع، وأهل الثالثة حديثهم متروك، وأهل الرابعة حديثهم ضعيف جدًا.

وأما أهل المرتبة الخامسة والسادسة فيُكتَب حديثهم للاعتبار، ويرتقي إلى الحسن إذا تعددت طرقه، والله أعلم[1].

إنَّ هذه التفاصيل عن علم الجرح والتعديل، وقواعده، وضوابطه؛ لَتبين - بما لا يدع مجالاً للشك - مدى الجهد الذي بذله العلماء المسلمون من أجل توثيق السُّنَّة النبوية الشريفة، وأنهم ما تركوا سبيلاً للتيقن من ضبط صحة السُّنة إلا طرقوه؛ حيث أنشأوا هذا العلم إنشاءً؛ مما جعله قصرًا على الأمة الإسلامية، فلا توجد أمة تملك هذه الدقة في النقل عن نبيها، ولا هذه التراجم الكاملة لأكثر من نصف مليون راوٍ من الرواة، ولا التفرقة الدقيقة بين كل لفظٍ وآخر في الجرح والتعديل؛ بحيث لا تُتْرك الأمور للآراء الشخصية، فكُلٌّ من الجرح والتعديل مضبوط بقواعد صارمة تحميه من اتباع الهوى، وتحافظ على المنهج العلمي في توثيق الرواة محافظةً بالغة، وهذا دليل على دقة ومكانة علماء المسلمين الذين دفعتهم غيرتهم وحميتهم، وحرصهم على اتباع الأمة الإسلامية للسُّنّة الصحيحة إلى ابتكار ذلك العلم والتنظير له بما ليس له في تاريخ البشرية العلمي نظير.

---

1 إبراهيم بن علي آل كليب: مهمات علم الحديث.

المبحث الثاني: علم الطب في الحضارة الإسلامية

يُعدُّ الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مـــدار عصور حضارتهم الزاهرة.. وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميُّزًا وتصحيحًا للمسار.. حتى ليُخيَّل للمطَّلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبٌّ قبل حضارة المسلمين!!

ولم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب.. بل تعدَّاه إلى تأسيس منـــهج تجـــريبي أصـــيل انعكست آثاره الراقية والرائعة على كافة جوانب الممارسة الطبيَّة وقاية وعلاجًا.. أو مرافـــق وأدوات.. أو أبعادًا إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي..

وتتجلى روعة الإسهامات الإسلامية في الطب في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطبية النـــادرة، التي كان لها – بعد الله – الفضل الكبير في تحويل مسار الطب اتجاهًا آخر تابعت المسير على نهجه أجيـــالُ الأطباء إلى يوم الناس هذا..

وإن بدايات تلك الصنعة تكمن في أن الإنسان منذ وُجد على ظهر الأرض وهو يهتدي – بإلهـــام ربه – إلى أنواع من التطبيب تتفق مع مستواه العقلي وتطوره الإنساني، وكان ذلك النوع من الطب يُعرف بالطب (البدائي) انسجامًا مع المستوى الحضاري للإنسان، ولذلك نجد ابن خلدون (ت 808 هـــ) يذكر أن: ".. للبادية من أهل العمران طبًّا يبنونه في أغلب الأمر على تجربة قاصرة، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحي، وربما صح منه شيء، ولكنه ليس على قانون طبيعي.."[1].

ولما جاء الإسلام كان للعرب في الجاهلية مثل هذا الطب، فحث رسول الله ρ على التداوي فقال – كما روى أسامة بن شريك >–: "**تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ**"[2].. وعُرف عن رسول الله ρ التداوي بالعسل والتمر والأعشاب الطبيعية، وغيرها مما عُرف بـــ "الطب النبوي"..

غير أن المسلمين لم يقفوا عند حدود ذلك الطب النبوي (مع إيمانهم بنفعه وبركته)، بل أدركوا منذ وقت مبكر أن العلوم الدنيوية – والطب أحدها – تحتاج إلى دوام البحث والنظر، والوقوف على ما عنـــد الأمم الأخرى منها؛ وذلك تطبيقًا لهدي الإسلام الدافع دومًا للاستزادة من كل ما هو نافع، والبحث عـــن الحكمة أنَّى وُجدت.. فنرى أطباء المسلمين يأخذون في التعرف على الطب اليوناني مـــن خـــلال الـــبلاد الإسلامية المفتوحة، كما أن الخلفاء بدءوا يستقدمون الأطباء الروم، الذين سرعان ما أخذ عنـــهم الأطبـــاء

---

1 ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر 650/1.

2 أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (3855)، والترمذي (2038)، وقال حديث حســـن، وابـــن ماجـــة (3436)، وأحمـــد (18477)، والحاكم (8206)، وقال:حديث صحيح ووافقه الذهبي، والبخاري في الدب المفرد (291)، وقال الألبـــاني: صـــحيح (2930) صحيح الجامع.

المسلمون، ونشطوا في ترجمة كل ما وقع تحت أيديهم من مؤلفات طبية، ولعل هذا يعتبر من أعظم أحداث العصر الأموي.

وقد تميز علماء الطب المسلمون بأنهم أول من عرف التخصص؛ فكان منهم: أطباء العيون، ويسمَّون (الكحّالين)، ومنهم الجراحون، والفاصدون (الحجّامون)، ومنهم المختصون في أمراض النساء، وهكذا..

وكان من سمات هذا العصر إنشاء المستشفيات النظامية، وبروز الشخصيات الإسلامية في ميدان علم الطب، وكانت عائلة أبي الحكم الدمشقي هي المسيطرة على هذه المهنة في العصر الأموي، وكان من هذه الشخصيات أيضًا: تياذوق، وقد كان قريبًا من الحجاج بن يوسف الثقفي، وأحمد بن إبراهيم الذي كان طبيب الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك[1]..

وما كادت عجلة الأيام تدور في العصر العباسي حتى أجاد المسلمون في كل فرع من فروع الطب، وصححوا ما كان من أخطاء العلماء السابقين تجاه نظريات بعينها، ولم يقفوا عند حد النقل والترجمة فقط، وإنما واصلوا البحث وصوَّبوا أخطاء السابقين..

وكان من عمالقة هذا العصر المبهرين أبو بكر الرازي ~، والذي يعتبر من أعظم علماء الطب في التاريخ قاطبة.. وله من الإنجازات ما يعجز هذا الكتاب عن ضمِّه، وسوف نفرد له حديثًا خاصًا بإذن الله في موضع آخر من هذا الكتاب.

كما تطوَّر عند المسلمين طب العيون (الكحالة)، ولم يطاولهم فيه أحدٌ؛ فلا اليونان من قبلهم، ولا اللاتين المعاصرون لهم، ولا الذين أتوا من بعدهم بقرون بلغوا فيه شأوهم؛ فقد كانت مؤلفاتهم فيه الحجة الأولى خلال قرون طوال، ولا عجب أن كثيرين من المؤلفين كادوا يعتبرون طب العيون طبًا عربيًا، ويقرِّر المؤرخون أن **علي بن عيسى الكحال** (ت 400 هـ) كان أعظم طبيب عيون في القرون الوسطى برمتها.. ومؤلفه (التذكرة) أعظم مؤلفاته[2].

وإذا طوينا تلك الصفحة المشرقة للرازي وابن عيسى الكحال فإننا نجد أنفسنا أمام عملاق آخر يعتبر من أعظم الجراحين في التاريخ إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق وهو **أبو القاسم الزهراوي** (ت 403 هـ) الذي تمكن من اختراع أولى أدوات الجراحة كالمشرط والمقص الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة.. والتي من أهمها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة، وتمكن من إيقاف النزف بالتخثير.

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 405/1-410.

2 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 263/2.

وقد كان الزهراوي هو الواضع الأول لعلم (المناظير الجراحية) وذلك باختراعه واستخدامه للمحاقن والمبازل الجراحية والتي عليها يقوم هذا العلم، وقام بالفعل بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر.. إلى جانب أنه أول مخترع ومستخدم لمنظار المهبل.

ويعتبر كتاب الزهراوي: (التصريف لمن عجز عن التأليف) - والذي قام بترجمته إلى اللاتينية العالم الإيطالي جيراردو1 تحت اسم (ALTASRIF) - موسوعة طبية متكاملة لمؤسسي علم الجراحة بأوروبا، وهذا باعترافهم (تتألف هذه الموسوعة من ثلاثين مجلدًا مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الأول في (الطب)، والثاني في (الكيمياء)، والثالث في (الجراحة والأدوات الجراحية).. ويذهب مؤرخو الطب إلى أن الزهرواي كان أول من خص الجراحة بدراسة متميزة وفصلها عن سائر الأمراض التي تعتري جسم الإنسان.

ولقد حلَّ مبحث أبي القاسم الزهراوي في الجراحة محل كتابات القدماء، وظل مبحثه هذا العمدة في فن الجراحة حتى القرن السادس عشر (أي لما يزيد على خمسة قرون من زمانه)، ويشتمل على صور توضيحية للعديد من آلات الجراحة (أكثر من مائتي آلة جراحية!!) كان لها أكبر الأثر فيمن أتى من بعده من الجراحين الغربيين، وكانت بالغة الأهمية على الأخص بالنسبة لأولئك الذين أصلحوا فن الجراحة في أوروبا في القرن السادس عشر.. يقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالر: "إن جميع الجراحين الأوروبيين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر قد نهلوا واستقوا من هذا المبحث"[2].

وكانت قد برزت كذلك شخصيات إسلامية أخرى لامعة في ميدان علم الطب من أمثال **ابن سينا** (ت 428 هـ) الذي استطاع أن يقدم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصل إليه من اكتشافات، وما يسره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فقد كان أول من اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو الذي اكتشف لأول مرة طفيل (الإنكلستوما)، وسماها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق العالِم الإيطالي "دوبيني" بنحو 900 سنة.. كما أنه أول من وصف الالتهاب السحائي، وأول من فرّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقر عليه أساطين الطب اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أول من فرَّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي[3]..

كما كشف ابن سينا - لأول مرة أيضًا - طرق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدري والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: "إن الماء يحتوي على

1 جيراردو دا كريمونا (1114 ــ 1187م) مستشرق إيطالي. مولده ووفاته في « كريمونا» من مدن إيطاليا الشمالية. أقام زمنًا في طليطلة (بالأندلس) فترجم عن العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابًا من كتب الهيئة وأحكام النجوم والهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة.

2 جوستاف لوبون: حضارة العرب ص591.

3 عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص132، 133.

حيوانات صغيرة جدا لا تُرى بالعين المجردة، وهي التي تسبب بعض الأمراض.."[1]، وهو ما أكــده "فــان ليوهوك" في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرون من بعده، بعد اختراع المجهر.

ولهذا فإن ابن سينا يعد أول من أرسى (علم الطفيليات) الذي يحتل مرتبة عالية في الطب الحديث؛ فقد وصف لأول مرة (التهاب السحايا الأولي) وفرّقه عن (التهاب السحايا الثانوي) – وهــو الالتــهاب السحائي – وغيره من الأمراض المماثلة.. كما تحدث أيضًا عن طريقة استئصال (اللوزتين)، وتناول في آرائه الطبية أنواعًا من السرطانات كسرطان الكبد، والثدي، وأورام العقد الليمفاوية.. وغيرها[2].

ويُظهر ابن سينا براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة؛ فقد ذكر عدة طرق لإيقاف النزيف، سواء بالربط أو إدخال الفتائل أو بالكي بالنار أو بدواء كاوٍ، أو بضغط اللحم فوق العرق.. كما تحدث عن كيفية التعامل مع السِّهام واستخراجها من الجروح، وحذَّر المعالجين من إصابة الشرايين أو الأعصاب عنــد إخراج السهام من الجروح، كما نبَّه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامة بالتشريح[3].

ويعتبر ابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية، وأول من قال بأن مركز البصر ليس في الجسم البلوري كما كان يُعتقد من قبل، وإنما هو في العصب البصري[4].

وكان ابن سينا جرّاحًا بارعًا؛ فقد قام بعمليات جراحية دقيقة للغايــة مثــل استئصــال الأورام السرطانية في مراحلها الأولى[5]، وشقّ الحنجرة والقصبة الهوائية، واستئصال الخرَّاج من الغشاء البلوري بالرئة، كما عالج البواسير بطريقة الربط، ووصف – بدقة – حالات النواسير البولية.. إلى جانب أنــه توصــل إلى طريقة مبتكرة لعلاج الناسور الشرجي لا تزال تستخدم حتى الآن! وتعرَّض لحصاة الكلى وشــرح كيفيــة استخراجها والمحاذير التي يجب مراعاتها، كما ذكر حالات استعمال القسطرة، وكذلك الحالات التي يُحذر استعمالها فيها[6].

كما كان له باع كبير في مجال الأمراض التناسلية؛ فوصف بدقة بعض أمراض النساء مثل: الانسداد المهبلي، والإسقاط، والأورام الليفية.

وتحدث عن الأمراض التي يمكن أن تصيب النفساء، مثل: النزيف، واحتباس الدم، وما قد يسببه من أورام وحميات حادة، وأشار إلى أن تعفن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة أو موت الجنين، وهو ما لم يكن

1 علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص298.
2 عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص133، واظر: فوزي طوقان: العلوم عند العرب ص17.
3 انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص118.
4 حسن الشرقاوي: المسلمون علماء وحكماء ص160، مؤسسة مختار الطبعة الأولى 1978.
5 انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص148.
6 انظر: ابن سينا: القانون 165/3.

معروفًا من قبل.. كما تعرض أيضًا للذكورة والأنوثة في الجنين، وعزاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمـــر الذي أكده مؤخرًا العلم الحديث[1].

وإلى جانب كل ما سبق.. كان ابن سينا على دراية واسعة بطب الأسنان، وكان واضحًا دقيقًا في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: "الغرض من علاج التآكل منع الزيادة علـــى مـــا تآكل؛ وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه، وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك..". ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها، وذلك بإعداد الحفرة إعدادًا فنيًّا ملائمًا مع رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى ملئها بالمادة الحاشية المناسبة لتعويض الضياع المادي الذي تعرضت له السن، مما يعيـــدها بالتـــالي إلى أداء وظيفتها من جديد[2].

و لم تكن تلك حالات استثنائية للعبقرية الإسلامية في مجال الطب، فقد حفـــل ســـجل الأمجـــاد الحضارية الإسلامية بالعشرات، بل المئات من الرواد الذين تتلمذت عليهم البشرية قرونًا طويلـــة، وشـــهد بفضلهم وسبْقهم الأعداء قبل الأصدقاء.. فكان منهم أيضًا **ابن النفيس** (ت 687 هـــ) الـــذي عـــارض نظرية جالينوس الذي كان يقول بوجود ثقب بين بطيني القلب الأيمن والأيسر، فصحح ابن النفـــيس هـــذا الخطأ.. ومنه اكتشف الدورة الدموية الصغرى، حيث لاحظ من خلال دراسته لحركة الدم في القلـــب أن الدم الذي يصل إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب يكون مختلطًا بالهواء، وأن الدم الذي تلطّـــف (أي انخفضت درجة حرارته) في التجويف الأيمن ولا منفذ له من داخل القلب ليس أمامه ســـوى أن ينفـــذ إلى الرئة.. وهكذا قرر أن: "انتقال الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة، بعد تسخّنه وتصعّده مـــن الـــبطين الأيمن.."، وينفي (ابن النفيس) أن يكون للدم مجرى آخر؛ فهو ليس خاضعًا لأي مدٍّ أو جـــزر، واتجاهـــه واحد.

وهكذا أثبت ابن النفيس أن اتجاه الدم إنما يكون على هذا النحو: يمر من التجويف الأيمن للقلـــب إلى الرئة حيث يخالط الهواء، ومن الرئة عن طريق الشريان الرئوي إلى التجويف الأيسر ، بل ويزيـــد علـــى ذلك بأن يفصل القول في (الشريان الوريدي) الرئوي ويصفه بأنه ذو طبقتين؛ وذلك حتى يكون ما ينفذ من مسامه شديد الرقة، وأن شبهه بالشريان جاء من كونه ينبض، ولما كان نبض العروق من خواص الشـــريان كان إلحاق هذا العرق الرئوي بالشرايين[3]..

وهكذا قدم ابن النفيس وصفًا دقيقًا للدورة الدموية الصغرى، لم يُسبَق إليه.

---

1 انظر: ابن سينا: القانون 586/2.

2 انظر: ابن سينا: القانون 192/1.

3 عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص147،148، وانظر: محمود الحاج محمد قاسم: الطب عند العرب والمســـلمين ص101، عمر فاروق الطباع: ابن النفيس قي تاريخ الطب العربي ص179-184..

المسلمون وابتكار المستشفيات

لا شك أن إسهامات المسلمين في مجال الطب لا تُحصى.. ولعل من أجَلِّ هذه الإسهامات وأعظمها أن المسلمين هم أول من أسس المستشفيات في العالم، بل إنهم سبقوا غيرهم في ذلك الأمر بأكثر من تسعة قرون!!

فقد أُسِّس أول مستشفي إسلامي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، والذي حكم من سنة 86 هـ إلى سنة 96 هـ، وكان هذا المستشفي متخصصًا في الجذام[1]، وأنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها شأوًا عظيمًا؛ حتى كانت هذه المستشفيات تُعدّ قلاعًا للعلم والطب، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم.. بينما أُنشِئ أول مستشفي أوروبي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون!!

وكانت المستشفيات تُعرف بـ (البيمارِسْتانات)، وكان منها **الثابت ومنها المتنقّل**، فالثابت هو الذي يُنشَأ في المدن، وقلَّما تجد مدينة إسلامية – ولو صغيرة – بغير مستشفي، أما المستشفي المتنقل فهو الذي يجوب القرى البعيدة والصحارى والجبال..!!

وكانت المستشفيات المتنقّلة تُحمَل على مجموعة كبيرة من الجِمال (وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملاً!! وذلك في عهد السلطان محمود السلجوقي ~، والذي حكم من سنة 511 هـ إلى سنة 525 هـ) وكانت هذه القوافل مُزوَّدة بالآلات العلاجية والأدوية، ويرافقها عدد من الأطباء، وكان بمقدورها الوصول إلى كل رقعة في الأمة الإسلامية[2].

وقد وصلت المستشفيات الثابتة في المدن الكبرى إلى درجة راقية جدًا في المستوى، وكان من أشهرها المستشفي العضُدي ببغداد، والذي أنشئ في سنة 371 هـ، والمستشفي النوري بدمشق، والذي أنشئ في سنة 549 هـ، والمستشفي المنصوري الكبير بالقاهرة، والذي أُنشئ سنة 683 هـ، وكان بقرطبة وحدها أكثر من خمسين مستشفي[3]!!

وكانت هذه المستشفيات العملاقة تُقسّم إلى أقسام بحسب التخصص؛ فهناك أقسام للأمراض الباطنة، وأقسام للجراحة، وأقسام للأمراض الجلدية، وأقسام لأمراض العيون، وأقسام للأمراض النفسية، وأقسام للعظام والكسور وغيرها..

---

1 الطبري: تاريخ الأمم والملوك 29/4.

2 ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص405.

3 محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص328،329.

ولم تكن تلك المستشفيات مجرد دور علاج، بل كانت **كلّيات طب** حقيقية على أرقى مستوى؛ فكان الطبيب المتخصص (الأستاذ) يمرُّ على الحالات في الصباح، ومعه الأطباء الذين هم في أولى مراحلهم الطبية، فيعلمهم، ويدوّن ملاحظاته، ويصف العلاج، وهم يراقبون ويتعلمون، ثم ينتقل الأستاذ بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله الطلاب فيقرأ عليهم الكتب الطبية، ويشرح ويوضّح، ويجيب عن أسئلتهم.. بل إنه يعقد لهم امتحانًا في نهاية كل برنامج تعليمي معين ينتهون من دراسته، ومن ثم يعطيهم إجازة في الفرع الذي تخصصوا فيه.

وكانت المستشفيات الإسلامية تضم في داخلها مكتبات ضخمة تحوي عددًا هائلاً من الكتب المتخصصة في الطب والصيدلة وعلم التشريح ووظائف الأعضاء.. إلى جانب علوم الفقه المتعلقة بالطب، وغير ذلك من علوم تهم الطبيب..

ومما يذكر على سبيل المثال – لنعرف ضخامة هذه المكتبات – أن مكتبة مستشفي ابن طولون بالقاهرة كانت تضم بين جنباتها أكثر من مائة ألف كتاب!!

وكانت تُزرَع – إلى جوار المستشفيات – المزارع الضخمة التي تنمو فيها الأعشاب الطبية والنباتات العلاجية؛ وذلك لإمداد المستشفي بما يحتاجه من الأدوية.

أما **الإجراءات** التي كانت تُتخذ في المستشفيات لتجنب العدوى فكانت من نوع خاص فريد؛ فكان المريض إذا دخل المستشفي يُسلِّم ملابسه التي دخل بها، ثم يُعطَى ملابس جديدة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه التي كان يرتديها حين مرض، ثم يدخل كل مريض في عنبر مختص بمرضه، ولا يُسمح له بدخول العنابر الأخرى لمنع انتقال العدوى أيضًا، وينام كل مريض على سرير خاص به، وعليه ملاءات جديدة وأدوات خاصة..!!

قارن كل ذلك بالمستشفي الذي أُنشئ في باريس بعد هذه المستشفيات الإسلامية بقرون، حيث كان المرضى يُجبرون على الإقامة في عنبر واحد، وذلك بصرف النظر عن نوعية أمراضهم، بل ويُضطرون لنوم ثلاثة أو أربعة، وأحيانًا خمسة من المرضى على سريرٍ واحد!! فتجد مريض الجدري إلى جوار حالات الكسور إلى جوار السيدة التي تلد!! كما كان الأطباء والممرضون لا يستطيعون دخول العنابر إلا بوضع كمّامات على الأنف من الرائحة شديدة العفونة في داخل هذه العنابر! بل كان الموتى لا يُنقلون إلى خارج العنابر إلا بعد مرور أربعٍ وعشرين ساعةً على الأقل من الوفاة!! ولك أن تتخيل مدى خطورة هذا الأمر على بقية المرضى[1]!!

---

1 مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي ص116،117.

وإذا أردنا أن نستعرض بعضًا من المستشفيات الرائدة في التاريخ الإسلامي، فكان من أعظمها: **المستشفي العضُدي**، الذي أنشأه عضد الدولة ابن بويه عام 371 هـ في بغداد، وكان يقوم بالعلاج فيه عند إنشائه أربعة وعشرون طبيبًا.. تزايدوا بعد ذلك جدًا، كما كان يضم مكتبة علمية فخمة وصيدلية ومطابخ، وكان يخدم فيه عدد ضخم من الموظفين والفرَّاشين، وكان الأطباء يتناوبون على خدمة المرضى بحيث يكون هناك أطباء بالمستشفي أربعةً وعشرين ساعة يوميًا.

ومن المستشفيات الإسلامية العظمى أيضًا: **المستشفي النوري** الكبير بدمشق، والذي أنشأه السلطان العادل نور الدين محمود الشهيد ~، وذلك في سنة 549 هـ، وكان من أجَلّ المستشفيات وأعظمها، واستمر في العمل فترة طويلة جدًا من الزمان، حيث بقي يستقبل المرضى حتى سنة 1317 هـ (1899م) أي قرابة ثمانمائة سنة!!

كذلك من أعظم المستشفيات في تاريخ الإسلام: **المستشفي المنصوري** الكبير، الذي أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون ~ في القاهرة، وذلك سنة 683 هـ.. وكان آية من آيات الدنيا في الدقة والنظام والنظافة، وكان من الضخامة بحيث إنه كان يعالج في اليوم الواحد أكثر من أربعة آلاف مريض!!

ولا ننسى في هذا المضمار **مستشفي مراكش**، والذي أنشأه المنصور أبو يوسف يعقوب ~، ملك دولة الموحدين بالمغرب، والذي حكم من 580 هـ إلى 595 هـ، وكان بناء هذا المستشفي آية من آيات والإتقان والروعة! فقد غُرست فيه جميع أنواع الأشجار والزروع، بل كانت في داخله أربع بحيرات صناعية صغيرة!! وكان على مستوىً عالٍ جدًا من حيث الإمكانيات الطبية والأدوية الحديثة والأطباء المهرة[1]..

لقد كان – بحق – درّة في جبين الأمة الإسلامية..

ليس هذا فقط.. بل كانت هناك **المستشفيات المتخصصة**، التي لا تعالج إلا نوعًا معينًا من الأمراض: كمستشفيات العيون، ومستشفيات الجذام، ومستشفيات الأمراض العقلية، وغير ذلك..

وأعجب منه وأغرب: أنه كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياء طبية متكاملة؛ فقد حدَّث ابن جبير ~ في رحلته التي قام بها في سنة 580 هـ تقريبًا، أنه رأى في بغداد – عاصمة الخلافة العباسية – حيًّا كاملاً من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، يتوسطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعددة، وكان كل ذلك وقفًا على المرضى، وكان يؤمه الأطباء من مختلف التخصصات، فضلا عن الصيادلة

1 مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص110-118.

وطلبة الطب.. وكانت النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها الأغنياء من الأمة لعـــلاج الفقراء وغيرهم[1].

منهج إسلامي فريد لدراسة الطب

لم تأتِ تلك الإنجازات السابقة في مجالات الطب عند المسلمين بصورة عشوائية غير مدروسة، وإنما كان هناك منهج واضح قاد إلى هـــذا المستوى الراقي في البحث، وقاد إلى نتائج متميزة في هذا العلم المهم.

ولهذا المنهج الحضاري الراقي خصائص كثيرة، سنتعرف الآن على ثلاثة منها قادت إلى هذا التميز الملموس:

1 مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص101.

الخاصية الأولى: الانفتاح على الغير:

كانت الحضارة الإسلامية منفتحة تمام الانفتاح في أمور العلوم الحياتية على غيرها من الحضارات، و لم يكن هناك أي حرج في أن يأخذ العلماء المسلمون من غير المسلمين، أو أن يعطي علماء المسلمين سواهم من غير المسلمين..

فكان العلماء المسلمون ينظرون إلى العلوم الحياتية كميراث إنساني عام تستفيد فيه كل أمة من تجارب الأمم الأخرى، و لم يكن الطب بمنأىً عن هذه النظرة، بل كان من أهم العلوم التي اعتنى المسلمون فيها بالجمع والتطوير والابتكار؛ لأنه من أهم العلوم الإنسانية، بل إن كثيرًا من علماء المسلمين يعدون الطب هو أشرف العلوم الإنسانية بعد العلوم الشرعية؛ وذلك لحاجة الناس إليه، ولكونه يحفظ الروح، والعقل، والجسد.. ومن ثم يحفظ الإنسان لأداء مهامه الشرعية والحياتية في الدنيا..

ولذلك نجد أن الطب من أوائل العلوم التي اهتم علماء المسلمين بالبحث فيها، عن طريق ترجمة أعمال السابقين من الأطباء من الحضارات المختلفة، وكانت أولى هذه المحاولات على يد خالد بن يزيد الأموي (ت 85هـ) والذي اهتم بالطب والكيمياء، وبدأ يترجم الكتب اليونانية، وخاصة ما كان موجودًا منها في مكتبة الإسكندرية بمصر[1]..

وفي عهد الخلافة العباسية تزايدت حركة الترجمة بشكل ملحوظ، وخاصة في عهد هارون الرشيد ~، ثم ابنه المأمون من بعده، وانفتح أطباء المسلمين انفتاحًا غير مسبوق على كل العلوم الطبية من مختلف الحضارات؛ فترجمت المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية والرومانية والسريانية في الطب.. واطّلع المسلمون على كمٍّ هائل من التجارب، وبخاصة التجارب اليونانية القديمة[2]..

ولا نبالغ إذا ذكرنا أن الذي عرَّف الأوروبيين بتاريخ أجدادهم اليونان هم المسلمون؛ لأن كتب الأطباء اليونانيين والرومانيين كانت مهمَلة في الأديرة والكنائس وبعض القصور والمكتبات.. فأخذت تلمع في سماء الدنيا أسماء لأطباء يونانيين لم تكن معروفة قبل ذلك مثل: أبقراط، وجالينوس، وغيرهما..

ومن المهم هنا أن نلفت الأنظار إلى ثلاث نقاط مهمة في هذه الخاصية (خاصية الانفتاح على الغير):

---

1 ابن كثير: البداية والنهاية 60/9.

2 مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي ص122.

النقطة الأولى: أن الأطباء المسلمين كانوا من الأمانة والنزاهة بحيث إنهم دائمًا كانوا ينسبون الفضل لأهله، وما ادَّعى طبيب مسلم اكتشافًا طبيًا أو سبقًا علميًا نقله من عالم من الحضارات الأخرى، بل امتلأت كتب الأطباء المسلمين بأسماء العلماء الذين نقلوا عنهم، وأعطوهم التقدير الكافي والتبجيل الواضح..

ولك أن تستمع إلى كلام العلامة الإسلامي الطبيب المشهور أبي بكر الرازي صاحب كتاب الحاوي (من أعظم الكتب في تاريخ الطب) وهو يقول: ".. ولقد جمعت في كتابي هذا جملاً وعيونًا من صناعة الطب مما استخرجته من كتب (أبقراط) و(جالينوس) و(أرماسوس).. ومن دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء، ومن بعدهم من المحدثين في أحكام الطب مثل (بولس) و(آهرون) و(حنين بن إسحاق) و(يحيى بن ماسويه)... وغيرهم"[1].

هذه الأمانة العلمية المشرِّفة كانت بالفعل من أعظم مناقب علماء المسلمين، وبخاصة أن المعاصرين من أبناء الأمم الأخرى لم يكونوا يعرفون تاريخ أجدادهم، وبالتالي فقد كان من السهل جدًا أن تُسرق أبحاثهم، لولا البعد الأخلاقي العميق عند علماء المسلمين.

أما النقطة الثانية فهي: أن أطباء المسلمين لم يقفوا أبدًا عند حد النقل والترجمة، وإنما أخذوا تدريجيًا في تطوير ما نقلوه، ثم وصلوا إلى مرحلة الابتكار والتأليف، بل تناولوا ما نقلوه بالنقد والتحليل، ولم يكن هناك أدنى تردد في تناول نظريات مشاهير الأطباء القدماء بالتعليق والإضافة والحذف.. وأحيانًا بالاعتراض الكامل على المحتوى، وذلك مثل ما فعله ابن النفيس ~، عندما رفض نظرية جالينوس كليةً في اتجاه سير الدم من القلب، وقاده هذا الاعتراض إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، فكان ذلك سبقًا علميًا هائلاً[2]..

لقد كان الأطباء المسلمون علماء بحق، وكانوا يتميزون بعقليات مفكرة، وطاقات جبارة، مما يسّر لهم قيادة البشرية لعدة قرون في هذا المجال المهم من مجالات العلوم.

والنقطة الثالثة هي: أن الأطباء المسلمين لم يجعلوا الطب حكرًا عليهم، حتى في زمان قوة دولتهم، بل فتحوا الباب لكل العلماء المعاصرين من الديانات الأخرى؛ ليدلوا بدلوهم، وليساهموا بإنجازاتهم في سبيل تقدم هذا العلم المهم.. علم الطب..

فقد ظهرت أسماء نصرانية ويهودية مؤثرة في علم الطب مثل قسطا بن لوقا البعلبكي، وأبي النصر المسيحي، وهبة الله بن جميع الإسرائيلي، وغيرهم وغيرهم.. لدرجة أنه كان هناك عائلاتٌ نصرانيةٌ كاملةٌ انصبَّ اهتمامها الأساسي على علم الطب؛ ولذلك تراها وقد برعت فيه، وتبوأت مكانة مرموقة في الدولة

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 70/1.

2 عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص147، 148..

الإسلامية، وذلك مثل عائلة آل بختيشوع النصرانية، والتي ظلت تحترف الطب لثلاثة قرون كاملة، وكان لها مكانة عظيمة عند خلفاء بني العباس، وكان من أشهر علمائهم جبرائيل بن بختيشوع، الطبيب الخاص لجعفر البرمكي (أحد كبار رجال الدولة في عهد هارون الرشيد ~)[1]..

وتكفي الإشارة إلى أمر يدل على مدى التسامح الذي كان عند قادة المسلمين، ومدى الاقتناع عندهم بقبول الآخر، وهو أن الناصر صلاح الدين الأيوبي – ~ – عندما دخل مصر، كان بصحبته ثمانية عشر طبيبًا، من بينهم ثمانية مسلمون وخمسة يهود وأربعة من النصارى، وسامري واحد..!!

وهكذا وشت الحضارة الإسلامية علم الطب – بكل تخصصاته وفروعه – بكل نافع ومفيد، واستطاعت أن تضيف المزيد إليه، وتترك بصماتها الواضحة عليه، بما يفيد المسلمين والبشرية جمعاء.. فأثْرت الحضارة الإنسانية بصفة عامة في هذا الجانب، واستطاعت أن تكمل مسيرتها فيه من بعد ما ارتكزت على السابقين..

وهذا ما يجب أن يكون عليه تعامل المسلمين مع العلوم الحياتية الآن بصفة عامة..

الخاصية الثانية: الاعتماد على التجريب والتطبيقات الواقعية:

كانت الخاصية الثانية التي ميزت المنهج الحضاري عند المسلمين في دراسة الطب هي اعتمادهم على التجربة والمشاهدة والفروض؛ بمعنى أنه لم يكن منهجًا فلسفيًا نظريًا بحتًا، وإنما اعتمد – وبشكل رئيسي – على التجارب العملية والتطبيقات الواقعية.. وهذا يميزه كثيرًا عن المناهج الطبيعية اليونانية، والتي كانت في أغلبها فلسفات نظرية، لا تطبيق لها في الكثير من الأحايين، حتى وإن كانت صحيحة!

فقد اعتمد الأطباء المسلمون المنهج التجريبي في علم الطب، وكانوا يقومون في ذلك بتجربة طرق مختلفة ومتعددة للعلاج، وملاحظة الفروق بين هذه الطرق، وتسجيل ذلك بعناية ودقة..

واهتم الأطباء المسلمون بتسجيل الملاحظات اهتمامًا بالغًا؛ فكانوا يدوّنون ما يشاهدونه في الحالات المرضية المختلفة، كما اهتموا بمحاولة تبرير هذه الملاحظات بما يستطيعون، أو محاولة ابتكار العلاج المناسب لكل حالة.. وبذلك حدث المزج الرائع بين العلوم النظرية والعلوم العملية، واستفادت البشرية من جهود العلماء السابقين واللاحقين..

يقول ابن سينا العلامة الإسلامي المتميز: "تعهدت المرضى؛ فانفتح عليَّ من أبواب العلاجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف.."[2].

---

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 14/2،15.

2 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 73/3.

ويمتعنا الرازي ~ في هذا المجال بكلام في غاية النفاسة والفائدة، حيث يقول: "عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة مع النظرية السائدة، يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية السائدة تأييدًا لمشاهير العلماء.."[1].

فهو يقرِّر أن الجميع قد ينبهر بآراء العلماء المشهورين الكبار، ويتوقف عند نظرياتهم، إلا أن التجربة أحيانًا ما تتعارض مع النظرية، فهنا يجب علينا رفض النظرية – وإن كانت لمشاهير العلماء – وقبول التجربة والواقعة، والبدء في تحليلها والاستفادة منها.

وانطلاقًا من هذا المنهج العظيم، وهو منهج الاعتماد على التجربة والملاحظة، وافتراض الفروض، ومحاولة تطبيقها.. لم يقبل الأطباء المسلمون بالأجهزة والأدوات القديمة التي استخدمها قدماء الأطباء اليونانيين والفارسيين، بل بدءوا يفكرون في أدوات جديدة، وابتكروا أنواعًا عدة، وجربوها، فما أثبت كفاءته منها استخدموه وطوّروه.. حتى وضعوا بذلك أسسًا علمية لكثير من أدوات الجراحة والولادة وعلاج الأسنان، وعلاج كسور العظام، وصلت أحيانًا إلى حد الإبهار، وبخاصة إذا نظرنا إلى التوقيت المبكر الذي ظهرت فيه هذه الآلات، وإلى خلو العالم في ذلك الوقت من أي منافس في هذا المجال..

وليس أدل على ذلك من إنتاج الجرَّاح الإسلامي الفذ أبي القاسم الزهراوي الذي أبهر العالم – ولعدة قرون – بأدواته الجراحية التي ابتكرها واستعملها بنفسه، وسجلها في كتابه الرائع (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وأصبحت هذه الآلات العبقرية هي النواة التي طُوِّرَتْ بعد ذلك بقرون لتصبح الأدوات الجراحية الحديثة..

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزهراوي هو أول من ابتكر الآلة التي تستخدم في الحقن (الحقنة)، وكان يسميها (الزراقة)، ولا يخفي على لبيب إلى أي حد كانت الإضافة التي قدمتها تلك الآلة البسيطة في تركيبها.. العبقرية في فكرتها.. بالغة النفع، في علاج المرضى[2].

الخاصية الثالثة: الاهتمام بالضوابط الشرعية في العلاج:

وهذه هي الخاصية الثالثة الفريدة التي ميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج؛ فكل مناهج الأرض في كافة العلوم تفكر وتبتكر وتنفذ دون ضابط شرعي، أو دليل إلهي على صحة أو بطلان عمل من الأعمال، لكن الطب الإسلامي تميز بأنه كان يستمد أصولاً ثوابت من القرآن والسنة ميّزته عن شتى المناهج الأخرى..

---

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 77/1، 78.

2 عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص176.

وليس معنى هذا أن القرآن والسنة وضعا التفاصيل الدقيقة لعلاج الأمراض؛ فلا نعالج مرضًا إلا بدليل! ولكن معناه أن هناك أطرًا عامة، وحدودًا خاصة وضعها الإسلام لتكون هاديًا للأطباء المسلمين، ولكافة العلماء وعموم الناس لكي ينجحوا في الوصول إلى الحق وإلى الخير والصلاح في كل فروع الحياة، ومن هذا المنطلق نفهم قوله Y: (**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**[1]).

فكان الأطباء المسلمون – على سبيل المثال – يحترمون القاعدة الشرعية الأصيلة التي رواها أبو الدرداء > قال: قال رسول الله ρ: "**إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**"[2].. ومن هنا لم يكن مقبولاً أبدًا عندهم أن يعالجوا مرضًا بخمرٍ أو نجاسة، أو بفعل منكر؛ فقد أغلق لهم هذا الحديث الشريف أبوابًا كثيرة من الشر؛ لأن الله Y يعلم ما يُصلح عباده وما يُفسدهم..

ومثال ذلك أيضًا أن الأطباء المسلمين لم ينساقوا وراء ما كان شائعًا في زمانهم من أمور العلاج بالدجل والشعوذة، وإنما استخدموا الأسلوب العلمي الراقي في علاج الأمراض، وقادهم هذا إلى اكتشاف الكثير من الأمراض النفسية، ومعرفة طرق علاجها.

كذلك لم يستخدم المسلمون الكي في العلاج؛ لأن الرسول ρ نهى عن ذلك، فقد روى ابن عباس { أن رسول الله ρ قال: ".. **وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنْ الْكَيِّ**"[3].. وبذلك أغلق الأطباء المسلمون هذه الصفحة من طرق العلاج، والتي أثبت الطب الحديث بعد ذلك أنها مجرد تسكين مؤقت، ليس له فائدة حقيقية!!

وإذا كان من مثال رابع، فهو عدم استخدامهم السحر في العلاج، مع إدراكهم أنه علم له أصول، ولكنهم علموا أنه منهيٌّ عنه شرعًا، بل إنه من الكبائر ومن الموبقات السبع، كما روى أبو هريرة >.. أن رسول الله ρ قال: "**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**... وذكر منها: **السِّحْرُ**"[4].

وكان لاهتمام الأطباء المسلمين بالقرآن والسنة السبيل لإرشادهم إلى كثير من وسائل العلاج التي أثبت الطب الحديث كفاءتها، بل وإعجازها.. وذلك مثل الاستشفاء بعسل النحل، وحبة البركة، والحجامة.. وغير ذلك من أنواع العلاج التي حفِلت بها كتب السنة النبوية.

فهذه خصائص عظيمة وفريدة ميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج، ومكنته من وضع أصول راسخة لهذا العلم العظيم، ويسرت لعلمائنا الأفذاذ أن يقودوا البشرية كلها لعدة قرون..

---

1 (الأنعام: 38).

2 أبو داود: كتاب في الطب، باب في الأدوية المكروهة (3874)، والبيهقي في سننه الكبرى (19465).

3 البخاري: كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث (5356)، وابن ماجة (3491)، وأحمد (2208).

4 البخاري: كتاب الوصايا، باب في قوله تعالى "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما" (2615)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (89)، وأبو داود (2874)، والنسائي (6371)، وابن حبان (5561).

البعد الإنساني للطب عند المسلمين

نريد بعد ما سبق أن نلفت النظر إلى بُعدٍ رائع آخر تميز به الأداء الطبي عند المسلمين في زمن حضارتهم.. ذلكم هو البعد الإنساني، والذي يكمن في احترام الإنسان بصفة عامة، والسعي الحثيث لرفع المعاناة والألم والحرج عنه، أيًّا كان هذا الإنسان، وأيًّا كانت معاناته..

و لم يكن غريبًا على أطباء المسلمين أن يهتموا بالبعد الإنساني في تعاملهم مع المريض؛ لأن قوانين التشريع الإسلامي تنطق بهذا النهج الأخلاقي الفريد.. فالإسلام ينظر إلى المريض على أنه إنسان في أزمة، ومن ثم يحتاج إلى من يقف إلى جواره، ويأخذ بيده، ويرفع من معنوياته، ويهدّئ من روعه، ويخفف عن آلامه الجسدية، فضلاً عن المعنوية...

فالتشريع الإسلامي يسعى إلى **رفع الحرج عن المريض** بكل وسيلة، ويخفف عنه الأعباء إلى أقصى درجة.. فجعل للمريض رخصة الإفطار في رمضان، وإن عاقه اعتلال صحته عن الحج فلا حج عليه، وليس عليه إثم.. كما أن المريض الذي لا يستطيع الصلاة على صورتها الطبيعية يُعطى رخصة الصلاة في أوضاع تناسبه جالسًا أو نائمًا أو حتى بعينيه! والمريض الذي يضره الماء في الوضوء يتيمم، والذي لا يستطيع الوضوء ولا التيمم لسبب أو آخر يصلي دون أي منهما، ويسمى فاقد الطهورين!!

حتى في أوقات الجهاد في سبيل الله، رفع التشريع الإسلامي الحرج عن المريض، فلا يجاهد ولا إثم عليه.. يقول I: (**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**[1]).

بل إن التشريع الإسلامي لم يكتفِ برفع بعض التكليفات، والترخيص في بعض العبادات والفروض، وإنما يحض وبشدة على **الوقوف إلى جوار المريض**، ورفع روحه المعنوية إلى أقصى درجة؛ فجعل رسول الله ρ زيارة المريض وعيادته في بيته أو في المستشفي حقًا له على المسلمين، فقال فيما رواه أبو هريرة >: "**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ**.. وذكر منها: "**وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ**"[2].. وجعل الجنة نصيبًا لمن عاد مريضًا، فقال فيما رواه أبو هريرة >: "**مَنْ عَادَ مَرِيضًا نَادَى مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنْ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً**"[3].

---

1 (النور: 61).

2 مسلم: كتاب السلام، باب حق المسلم للمسلم رد السلام (2162)، وأحمد (8832)، وابن حبان (242)، والبخاري في الأدب المفرد (925).

3 ابن ماجة: كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا (1443)، وقال الألباني: حسن (6387) صحيح الجامع.

وأمر رسول الله ρ أن تذكر الخير عند المريض، وأن ترفع من روحه المعنوية، وتُطْمِعَهُ في الشـفاء وفي طول العمر، فقد روى أبو سعيد الخدري τ أن رسول الله ρ قال: "**إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ فَنَفِّسُوا لَهُ فِي الْأَجَلِ** (أي ارفعوا من أمله في الشفاء وطول الأجل)؛ **فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَهُوَ يَطِيبُ بِنَفْسِ الْمَرِيضِ**"[1].

بل إن رسول الله ρ يرتفع بروح المريض إلى السماء عندما يخبره أن هذا المرض هو كفارة لذنوبه، وهو مدعاة لنجاته في الآخرة إن صبر، فقد روى أبو هريرة > أن رسول الله ρ قال: "**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**"[2]. ويقول فيما رواه أنس >: "**إِنَّ اللَّهَ قَالَ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ** (أي بعينيه) **فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ**"[3]..

وهكذا ترتفع معنويات المريض المؤمن إلى السماء، ولا يشعر بأنه أصبح كمًّا عاجزًا مهملاً في المجتمع، بل إن الجميع يهتم به ويرعاه.

ولم تكن هذه النظرة الإسلامية الراقية للمرضى المسلمين فقط، بل كانت لأي إنسان مريض مهما كانت ديانته، وذلك انطلاقًا من الآية الكريمة: (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ**[4]) فالإنسان بصفة عامة مُكرَّم، ولذلك نهتم برعايته حين مرضه، وبعلاجه إذا اشتكى ولو لم يكن مسلمًا.. وقد زار رسول الله ρ غلامًا يهوديًا عندما مرض[5]، وأفرد البخاري لذلك بابًا خاصًا في صحيحه فقال: "باب عيادة المشرك".

هذا البعد الإنساني العميق الذي زرعه فينا الشرع الإسلامي الحنيف جعل الأطباء المسلمين في كل عصور الحضارة الإسلامية يتعاملون مع المريض على أنه إنسان وليس على أنه "شيء لا إحساس لـه"، ولا على أساس أنه مصدر للرزق عن طريق أخذ الأجر منه، بل كان التعامل معه دائمًا على أنه إنسان في أزمة، ويحتاج إلى من يقف إلى جواره، وليست المساعدة طبية فقط، ولكن تتعدَّى ذلك إلى المساعدة النفسية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

وبهذه الروح النبيلة تعامل الأطباء المسلمون مع مرضاهم، فكانت **الخدمة الطبية** الراقية تقدم للمرضى في الدولة الإسلامية دون تفرقة بين غني أو فقير، ولا عربي أو غير عربي، ولا أبيض أو أسود، ولا

---

1 الترمذي: كتاب الطب (2087) وقال: حديث غريب ، وابن ماجة (1438)، وابن أبي شيبة (10851)، والبيهقي في شعب الإيمان (9213)، وأبو نعيم في الحلية 208/2.

2 البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في ثواب المرض (5318)، وسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (2573).

3 البخاري: كتاب المرضى باب فضل من ذهب بصره (5329)، والطبراني في الأوسط (250)، والبيهقي في شعب الإيمان (9958).

4 (الإسراء: 70)

5 انظر البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه؟ وهل يُعرَض على الصبي الإسلام؟ (1290).

حاكم ولا محكوم، ولا مسلم أو غير مسلم.. ففي معظم الأحيان كان العلاج مجانيًا للجميع.. وكان المرضى ينعمون بنفس المستوى من الخدمة أيًّا كان مستواهم.

ولنطلع سويًا على طرف من نظام المستشفيات الإسلامية، والذي يعطي انطباعًا عن البعد الإنساني الذي نقصده..

فبمجرد دخول المريض للمستشفي يُفحص أولا بالقاعة الخارجية، فإن كان به مرض خفيف يُكتب له العلاج، ويُصرف من صيدلية المستشفي، وإن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفي كان يُقيد اسمه، ويُدخل إلى الحمام للاغتسال، وتُخلع عنه ثيابه التي دخل بها فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى ثيابًا جديدة خاصة للمستشفي، ويُدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويخصَّص له سرير مفروش بأثاث جيد، ولا يسمح بوجود مريض آخر معه في نفس السرير مراعاة لنفسيته..

وبعد دخول المريض للمستشفي الإسلامي يُعطى الدواء الذي يعيّنه الطبيب، كما يوصف له الغذاء الموافق لصحته، وبالمقدار المفروض له.. ولم يكن يضيق أبدًا على المرضى في نوع الطعام الذي يأكلونه، بل كان يقدم لهم أطايب الطعام، فقد كان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج.. كذلك لا يضيق عليهم أبدًا في كميات الطعام، بل كانت من علامات الشفاء أن يأكل المريض رغيفًا كاملاً ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة!

فإذا أصبح المريض في دَور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاؤه أُعطِيَ ثيابًا جديدة دون أجر، وليس هذا فقط بل كان يعطى مبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرًا على العمل! وذلك حتى لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة فتحدث له انتكاسة[1]!!

ولا تسلْ بعد عن مدى الطمأنينة التي ينعم بها الفقير في المجتمع الإسلامي عندما يعلم أنه إذا مَرِض فسيجد مثل هذا المستوى من الرعاية المجانية دون أن يحتاج إلى إراقة ماء وجهه أو البحث عن وساطات أو شفاعات لينال ما يستحق من الاهتمام والعلاج.. فضلاً عن مدّ يده متسولاً ليتم علاجه!!

وما أروع توجيه أبي بكر الرازي لتلاميذه أن يكون هدفهم الأول إبراء مرضاهم أكثر من نيل أجورهم منهم!! وأن يعالجوا الفقراء بمثل الاهتمام والعناية التي يعالجون بها الأمراء والأغنياء!! وأن يُوهموا المرضى بالشفاء حتى لو كانوا هم أنفسهم لا يعتقدون بذلك!! فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس[2].

ولم يكن هذا المستوى العالي من الرعاية الصحية مقصورًا على المدن والحواضر الكبرى، بل حظيت كل بقاع الدولة الإسلامية بذات الاهتمام.. وذلك من خلال المستشفيات المتنقلة التي أشرنا إليها سابقًا..

---

1 مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص110.

2 عبد المنعم صفو: تعليم الطب عند العرب، أبحاث الندوة العلمية للجمعية السورية لتاريخ العلوم،دار الجامعة (حلب،1980م) ص 279.

والتي كانت تجوب القرى والنجوع والجبال والمناطق النائية بصفة عامة، والشاهد هنا أنه كان يُنظر إلى رعايا الدولة المسلمة – في مجال الرعاية الطبية – نظرة متساوية بغضّ النظر عن بيئاتهم ومستوياتهم الاجتماعية أو الاقتصادية.

بل إن النظرة الإسلامية الرحيمة للمريض تعدّت كل طبقات المجتمع السوية لتشمل **نزلاء السجون** ممن أساءوا لمجتمعهم! فهؤلاء أيضًا كانوا يجدون الرعاية الطبية الكافية؛ فهم بَشَرٌ، ومن أبناء المجتمع على أي حال.. وما ينزل بهم من الحبس والعقاب إنما هو لإعادة أصلاًحهم لا للقضاء عليهم بالموت البطيء الذي يتعرض له نزلاء كثير من السجون في عالم اليوم..

وقد كتب الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد:

".. فكرت في أمرِ مَن في الحبوس (السجون)، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض؛ فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم، وتُحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس.. ويعالجون فيها المرضى"[1]..

وما كان لهذا الفيض الإنساني أن يستمر على مر عصور الحضارة الإسلامية لولا ينابيع العطاء المتدفقة من قلوب أبناء الأمة المسلمة والموازية لدعم الدولة نفسها..

ونقصد هنا نظام **الأوقاف الخيرية**، وما كان يقوم به من دور في حُسن رعاية المرضى وإكرامهم.. فقد كانت مستشفيات راقية بأكملها تعتمد على ريع وقف يرصده أحد المسلمين – بمن فيهم الحاكم نفسه – لتغطية كل احتياجات المستشفي بمرضاه وأطبائه ومفروشاته وأغذيته ونباتاته الطبية وأدويته.. إلى حد الإنفاق على طلاب الطب المتدربين في هذا المستشفي!!

ولعلَّ من أشهر الأمثلة على ذلك المستشفي المنصوري الكبير الذي أسسه في القاهرة الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة 683 هجرية، وأوقف عليه ما يغطي نفقاته سنويًا.. وقد سبقت الإشارة إليه آنفًا.

وفي صدد ذِكر الأوقاف الخيرية وأثرها في تغطية الجانب الإنساني في الطب عند المسلمين لابد أن نشير هنا إلى بعض الصور المبتكرة وغير المسبوقة في التعامل الإنساني مع نفسية المريض..

فقد كان رِيع بعض الأوقاف يُخصص لتوظيف اثنين يمرّان بالمستشفيات يوميًا، فيتحدثان بجانب المرضى حديثًا خافتًا يسمعه المريض دون أن يراهما.. يوحيان إليه من خلال حديثهما بتحسُّن حاله! فيما كان يُعرف "**بوقف خداع المريض**"!!.. وذلك لترتفع معنوياته، وبالتالي يتماثل للشفاء بصورة أسرع[2]!!

1 ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص148.

2 مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص112.

و لم يكن ذلك البعد الإنساني الراقي في التعامل مع المرضى سلوكًا فرديًا يمارسه بعض الأطباء، ولا كان مجرد حب شعبي للخير والرحمة ينبع من قلوب العامة.. بل كان سلوكًا عامًا تتبناه سياسات الدولة، وينتهجه أفراد الأمة حكامًا ومحكومين؛ فكثيرًا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم.. ويُذكر هنا أن المنصور الموحدي (ملك دولة الموحدين بالمغرب) كانت له زيارة أسبوعية للمستشفي (المنصوري) بمراكش بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع؛ يطمئن فيها بنفسه على أحوال المرضى[1].

ومن الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من آداب تحفظ **كرامة المريض** وتصون حياءه، وتضمن سير مراحل الفحص والعلاج دون انتهاك لخصوصياته؛ فلا يجوز – مثلاً – كشف عورة المريض إلا لضرورة، وبالقدر المطلوب فقط في الفحص أو الجراحة وما إلى ذلك... كما لا يجوز أن يشهد فحص المريض أو المريضة شخص غير ذي صفة – وخاصة إذا كان من جنس مختلف – إلى جانب عدم جواز خلوة الطبيب بمريضة من النساء، إلا مع وجود ذي مَحْرم لها، أو وجود امرأة أخرى كالممرضة مثلاً.. كذلك راعت المستشفيات في الحضارة الإسلامية الفصل في أقسامها الداخلية بين الرجال والنساء..

كذلك كان من الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى، أن راعى الشرع حقوق المريض في العلاج، بأن سمح للطبيب الرجل أن يعالج المرأة، والعكس كذلك، وذلك إن لم يوجد البديل الكفء من نفس الجنس، والذي يستطيع أن يقوم بالمهمة على الوجه الأكمل، وذلك حتى لا يفوت على المريض – رجلاً كان أو امرأة – فرصة العلاج الصحيح، بل إن الشرع أجاز كذلك أن يبحث المريض المسلم عن العلاج عند الأطباء غير المسلمين إن تعذر وجود من يستطيع علاجه من المسلمين، وذلك حفاظًا على صحة المريض وحياته..

كل هذه وغيرها ضوابط وآداب إسلامية تنقل مبدًا سماويًا – كقوله تعالى: (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**[2]) – من حيز النظريات المجردة إلى التطبيق الواقعي؛ لترتقي حياة الإنسان عن أنماط أخرى للحياة عند سائر الكائنات.. وسبحان الذي أنزل شرعًا بهذا التكامل!!

الطب الوقائي في الإسلام

1 مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص116.
2 (الإسراء: 70)

اهتم المنهج الإسلامي منذ بداية نزوله بتوعية المسلمين لكل ما فيه الخير لدينهم ودنياهم؛ فـأمرهم بالعلم وحض عليه، ورغبهم في استخدام هذا العلم في أصلاًح كل جوانب الحياة..

ومن أهم هذه المجالات التي أبدع فيها المنهج الإسلامي مجال الوقاية من الأمراض؛ فقد ظهر فيه بجلاء حرص الإسلام – ليس فقط على الأمة الإسلامية – ولكن على عموم الإنسانية.. فإن الأمراض إذا انتشرت في مجتمع فإنها لا تخصُّ دينًا دون دين، ولا تختار عنصرًا دون عنصر، ولكنها تؤثر سلبًا على حياة العموم من الناس..

كيف أخذ الإسلام التدابير اللازمة، والإجراءات الدقيقة لمنع حدوث الأمراض أصلاً؟ وإن حدثت فكيف يمكن أن تُمنع من الانتشار؟!

لقد جاء الإسلام بمنهج معجز، فيه سلامة الجسد والنفس والمجتمع.. وكيف لا يكون معجزًا وقد جاء من عند رب العالمين؟!

ففي الوقت الذي كانت القذارة في كل شيء سمة مميزة لحياة الأوربيين، حتى وصل الأمر إلى اعتبار أن الأوساخ التي تعلق بالجسم والملبس هي من البركة، ومن الأشياء التي تعطي القوة للأبدان!! حتى وصل الأمر إلى أن الإنسان كان لا يغتسل في العام كله إلا مرة أو مرتين[1]!!.. في هذا الوقت نزل المنهج الإسلامي في عمق الصحراء، وبعيدًا عن حياة المدن والحضارات العملاقة.. يُرشد الناس إلى **الطهارة** ووجوب الغسل وإلى استحبابه..

فالغسل واجب عند الجنابة وعند الحيض وفي الحج وغير ذلك.. وهو مستحب في العيدين والإحرام وغيرهما، واختلف العلماء في وجوبه أو استحبابه يوم الجمعة، والغالب أنه مستحب.. قال رسول الله ρ كما روى أبو سعيد الخدريτ :"**غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَسِوَاكٌ، وَيَمَسُّ مِنْ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ**"[2]..

بل إنه حدَّد للمسلم فترة زمنية قصوى للفارق بين الغسلين، فقال ρ: "**حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ**"[3]..

1 زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص54.

2 البخاري: كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة (840)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة (846)، وأبو داود (344)، والنسائي (1375).

3 البخاري: كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم (856)، ومسلم في الجمعة باب الطيب والسواك يوم الجمعة (849)، وابن حبان (1234) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ووصل بعض الفقهاء بأنواع الغسل المختلفة إلى سبعة عشر نوعًا من الغسل للدلالة على أهميته.. ودعا الإسلام إلى طهارة الأعضاء المختلفة من الجسم، واهتم بالأعضاء التي تكثر فيها الأمراض أو يحتمل فيها حدوث الوسخ.. ففي طهارة الفم قال ρ: "**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ**"[1].. وقال ابن عباس {: "**لقد كُنَّا نُؤْمَر بالسواك، حتى ظننَّا أن سينزل به قرآن**"[2]..

ودعا رسول الله ρ إلى طهارة ونظافة الأماكن التي يُتَوَقَّع فيها العرق والأوساخ والميكروبات، بل جعل ذلك من سنن الفطرة.. فقد قال رسول الله ρ: "**خَمْسٌ مِنْ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ**"[3]..

ولك أن تتخيل مدى رقي هذا الدين الذي يأمر بهذه الآداب في هذا العمق من التاريخ، وفي هذا المكان في الصحراء، وفي هذه الظروف الصعبة التي نشأ فيها الإسلام..

وقد أمر رسول الله ρ أيضًا بالتنزُّه من قذارة البول والغائط، وشدَّد في ذلك حتى إنه مر على قبرين؛ فقال لأصحابه يحدثهم عن صاحبي هذين القبرين وذلك كما روى ابن عباس {: "**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**"[4]..

وفي غير الطهارة، فقد حضَّ الرسول الحكيم ρ المسلمين على حماية أنفسهم من آثار **الطعام الزائد عن الحاجة**، وحذرهم من آثار التخمة.. فقال: "**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتْ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ**"[5]..

كما أمرهم بالحفاظ على نظافة الأطعمة والأشربة فقال ρ: "**غَطُّوا الْإِنَاءَ وَأَوْكُوا السِّقَاءَ**"[6].. وأوكوا بمعنى: سدُّوا فتحة الوعاء الذي به الشراب.

وقد ذهب التشريع الإسلامي إلى أبعد من ذلك، حين **منع أتباعه من كل خبيث** يؤدي إلى ضرر بالصحة الجسدية والنفسية ويضر كذلك بالمجتمع..

---

1 البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (847)، وأحمد (7840) عن أبي هريرة τ.

2 ابن أبي شيبة (1793).

3 البخاري: كتاب اللباس، باب قص الشارب (5550)، ومسلم: كتاب الطهارة باب خصال الفطرة (257)، وأبو داود (4198)، والترمذي (2756)، والنسائي (10) عن أبي هريرة τ.

4 البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر الا يستتر من بوله (213)، ومسلم: كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (292)، وأبو داود (20)، والترمذي (70)، والنسائي (31).

5 ابن ماجة: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع (3349)، وابن حبان (5236)، والحاكم (7945)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح (5674) صحيح الجامع.

6 مسلم: كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء (3755).

فحرَّم الإسلام الخمر وما يندرج في حكمها كالمخدرات.. قال رسول الله ρ: "**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ**"[1]... وبذلك حمى المسلمين من الأضرار الصحية الخطيرة للخمور والمخدرات، كما حمى البشرية جميعًا من الآثار الضارة للمخمورين سوء نتيجة للحوادث أو للجريمة أو لغير ذلك من الآثار السيئة لغياب العقل..

والذي ذكرناه في الخمر ينطبق كذلك على تحريم الفواحش؛ فالإسلام حرم الزنا وكل العلاقات غير المشروعة.. وبذلك لم يحفظ فقط صحة المسلمين ونسلهم وأخلاقهم، ولكن كان لذلك مردود على المجتمع بكامله مسلمين وغير مسلمين..

ولا يخفي على أحد أن انتشار الأمراض الجنسية في البلاد الإسلامية أقل بكثير منه في البلاد غير الإسلامية، وما ذلك إلا لكون الإسلام يمنع هذه الموبقات..

وما أروع ما قاله ρ حين قال: "**لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا**"[2].. ولا يخفي على أحد أن أمراض الإيدز والإيبولا، وغيرها من الأمراض الجنسية القاتلة لم تكن معروفة قبل ذلك، ولم تظهر إلا بظهور الفاحشة في المجتمعات..

وحرَّم الإسلام أيضًا أكل الميتة؛ لما في ذلك من أضرار جسيمة بالصحة أثبتها الآن الطب الحديث..

ومما جعلني أشعر بالفخر الشديد وأنا في زيارة لأمريكا، أني وجدهم يفتخرون بأنه إذا مات لهم طائر أو حيوان قبل الذبح فإنهم لا يأكلونه؛ لأنه يكون ضارًا بالصحة، وهذا لم يكتشفوه إلا منذ أعوام قليلة، بينما أوروبا إلى الآن تأكل الميتة!! وهذا يجعل الأمريكان يفتخرون بمنهجهم الصحي على الأوروبيين!!

فقلت في نفسي وأمام الأمريكان وغيرهم: ما أروع ديننا.. الذي حرَّم علينا هذا الذي اكتشفتموه حديثًا، ولكنه حرَّم ذلك علينا منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام!!.. فسبحان الذي يعلم السر وأخفي!!..

ولا أشك – من هذا المنطلق – في أن السجائر حرام، وأن الذي يتناولها آثم، فالدين الذي حرَّم على أتباعه الخبائث لا يمكن أن يحل لهم شرب السجائر بكل ما فيها من خبث وضرر؛ فإنها لم تترك عضوًا من أعضاء الجسم إلا وألحقت به ضررًا خطيرًا.. فعودة إلى الإسلام أيها المسلمون!!

---

1 البخاري: كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر (239)، مسلم: كتاب الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر (2003)، وأبو داود (3679)، والترمذي (1861)، والنسائي (5585).

2 ابن ماجة: كتاب الفتن، باب العقوبات (4009)، البيهقي في شعب الإيمان (3315)، وقال الألباني: صحيح (2187) صحيح الترغيب والترهيب.

و لم يهتم الإسلام فقط بصحة الجسد بل اهتم كذلك **بصحة النفس**.. فأمر بذكر الله Y، وجعل ذلك اطمئنانًا للقلب؛ فقال I: (**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**[1]) وحض المسلمين على الرفق والرحمة، وحُسن الخُلق ولين الجانب وطيب الكلام، وجعل في التبسم صدقة، وجعل في أدب المعاملات أجرًا، وشجع المسلمين على نسيان أخطاء الغير، وعلى العفو والمغفرة، وعظَّم لهم قيمة الرضا بما قسم الله Y، وجعل لهم الجنة عوضًا عما أصابهم من مصائب إذا صبروا عليها..

ولا شك أن كل هذا يصب في تكوين صحة نفسية جيدة، ويسمو بالروح ويُطمْئِن القلب، ويرتفع بأخلاق المسلم وقيمه وأهدافه إلى درجات راقية لا يتخيلها غير المسلم، ولا شك أن معدل الأمراض النفسية من قلق واضطراب واكتئاب أعلى بكثير في بلاد الغرب منها في بلاد المسلمين، وليس أدل على ذلك من مراجعة نسب الانتحار هنا وهناك لتعلم قيمة الإسلام..

وانطلاقًا من حفاظ الإسلام على صحة الفرد والمجتمع، فإن الإسلام لم يحض فقط على الاهتمام بالجسد والنفس بل اهتم كذلك **بما يُلبس من ثياب**.. فالثياب النظيفة الجميلة تعود بالفائدة على صاحبها وعلى من يعيشون إلى جواره.. بل على من يراه وإن كان لا يعرفه..

ففي أول ما نزل من القرآن نجد قول الله Y: (**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**[2]) وما أروع أن يكون اهتمام الإسلام من أول يوم نزل فيه للبشر بظاهرهم كما يهتم بباطنهم، فهو يقرن التوحيد بنظافة الإنسان فيقول: (**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**) واللفظ يحتمل ظاهر المعنى، وإن كانت له تأويلات أخرى..

كما أنَّ التشريع الإسلامي عدَّ الثوب نجسًا بمجرد وصول شيء من النجاسة إليه، كالبول والغائط والدم، ولا تصح الصلاة فيه إلا أن تزول النجاسة، حتى لو كانت النجاسة قليلة.. قال أحمد ابن حنبل ~ عن الثوب الذي أصابه بول أو غائط: "يعيد الصلاة من قليله وكثيره"، أي من قليل النجاسة أو كثيرها[3]..

كذلك ينجس الماء إذا وقع فيه من النجاسة ما يُغير لونه أو طعمه أو رائحته[4].. وكل ذلك يهدف إلى عدم استعمال شيء وصل إليه قذر أو وسخ..

ولا يهتم المسلم فقط بنظافة نفسه وثيابه، بل يجب أن يهتم **بنظافة البيئة** التي حوله.. وهذا بحث يحتاج إلى كثير تفصيل، ليس هذا موضعه..

---

1 (الرعد: 28).

2 (المدثر: 4).

3 اظر مسائل الإمام أحمد ص41. وهذا رأي غيره أيضًا من العلماء والفقهاء.

4 ابن قدامة: المغني 52/1.

وإذا كان عطاء الإسلام فيما يخصُّ الوقاية من الأمراض على هذا النحو من الرقي فإنـه لا يقـف عاجزًا أمام الأمراض إذا حدثت.. فلا يكتفي فقط بالأمر بالتداوي، ولكن يحض - وبشدة - علـى منـع انتشار الأمراض في المجتمع، فيما يُعرف بـ "**الحَجر الصحي**"..

وإنَّ المرء ليقف مبهورًا أمام عظمة التوجيه النبوي الذي يحدُّ من انتشار الأمراض في المجتمع، حيث قال رسول الله ρ: "**لاَ يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ**"[1]؛ فهو بذلك يوضح لك أبسط وسائل الوقايـة مـن الأمراض - وأنجحها في ذات الوقت - وهذا كله منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام!!

ثم هو يختار أمراضًا خطيرة بعينها - عُلِم الآن على وجه إليقين أنها تنتقل بالعدوى - ويحذر منـها تحذيرًا بيّنًا ظاهرًا لا يحتمل التأويل؛ فتراه يقول - مثلاً - في أمر مرض الجُذام الخطير: "**فِرَّ مِنْ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنْ الْأَسَدِ**"[2]..

ثم هو يضع أعظم قواعد الحجر الصحي بالنسبة للأوبئة الخطيرة كالطاعون فيقـول: "**إِذَا وَقَعَ الطَّاعُونُ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا**"[3]..

وهذا هو قمة ما وصل إليه الطب الحديث في محاولة الحد من انتشار الأوبئة الخطيرة كالطاعون..

وأخيرًا.. فإن المنهج الإسلامي في الوقاية من الأمراض لكي يضمن الدقة في التطبيق، والحـرص في أداء القواعد الصحية، فإنه **يربط كل هذه القواعد برضا الله Y**، وبالزجر والمثوبة، والجنة والنـار؛ فلـيس الغرض فقط هو الحياة الدنيوية السعيدة - وإن كان هذا متحققًا إن شاء الله - ولكن الهدف أسمى من ذلك وأجلّ، وهو سعادة الآخرة..

فنجد مثلاً في تعظيم أمر السواك وطهارة الفم ونظافته أن الرسول ρ يقول: "**السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ**"[4].. فهو لا يحقق نظافة وصحة فقط، بل يحقق أجرًا ومثوبة!!

ونجده ρ يقول في أمر الوضوء والغسل.. وذلك كما روى أبو مالك الأشعري >: "**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ**"[5]، فجعل هذا الطهور وهذه النظافة نصف الإيمان..

---

1 البخاري: كتاب الطب، باب لا هامة (5437)، ومسلم: كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر(2221)، وعبد الرزاق (19507) عن أبي هريرة τ.

2 أحمد (9720)، وابن أبي شيبة (24543)، والبيهقي في سننه الكبرى (13550)، وقال الألباني صحيح السلسلة الصحيحة (783) عـن أبي هريرة τ.

3 مسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والكهانة ونحوها (2218)، وأحمد(21876)، وابن حبان (2912).

4 النسائي: كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك (5)، وابن ماجة (289)، وأحمد (7)، والدارمي (684)، وابن خزيمـة (135)، وقـال الألباني: صحيح(3695) صحيح الجامع، عن عائشة <.

5 مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (223)، وأحمد (22953)، والدارمي (653).

ونجده يعطي أجرًا عظيمًا لمن ساهم في منع انتشار الطاعون، حتى يصل هذا الأجر إلى الشهادة في سبيل الله! فيقول لأُمِّ المؤمنين عائشة <، عندما سألته عن الطاعون: "**إِنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ**"[1]..

1 البخاري: كتاب الطب، باب أجر الصابرين في الطاعون (5402)، وأحمد (24403).

المبحث الثالث: علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية

مع أن المسلمين لم يكونوا أول من درس علم الجغرافيا إلا أنهم - بلا جدال - كانوا أول من أبدع فيه، وسنتعرض في الصفحات القادمة - إن شاء الله - لحركة تطور علم الجغرافيا وإسهامات المسلمين فيه، كما سنتعرف أيضًا على بعض العلماء الأجلاء الذين أثْرَوا ذلك العلم بما لا يتخيل من إبداعات، وبخاصة عند النظر إلى الإمكانيات الضئيلة التي كانت متاحة لهم في أزمانهم..

وبداية؛ فإن كلمة (جغرافيا) يونانية الأصل، وهي تتكون من مقطعين هما: "جيو" (Geo) بمعنى: أرض.. و"غرافيا" (Grophia) وتعني: وصف.. ومن ثم جاء التعريف الاصطلاحي لعلم الجغرافيا معبرًا عن مقتضيات "وصف الأرض"؛ فهو: "علم يُتَعَرَّفُ منه أحوال الأقاليم (القارات) السبع، الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان الواقعة فيها، وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها... إلى غير ذلك من أحوال الربع المعمور".

وكلمة "الجغرافيا" حديثة بعض الشيء في الاستخدام العربي؛ حيث كان العرب والمسلمون يستعملون بدلاً منها مصطلحات مثل: صورة الأرض، أو قطع الأرض، أو خريطة العالم والأقاليم، أو علم المسالك والممالك، أو علم تقويم البلدان أو علم الطرق[1]..

ولم يكن ظهور علم الجغرافيا لدى المسلمين وليد صدفة، وإنما كانت هناك عوامل وأسباب عدة أسهمت في ظهوره ونمائه، نذكر منها ما يلي:

1- **انتشار الإسلام**: فقد اقترن الفكر الجغرافي لدى المسلمين بانتشار الإسلام في أنحاء شتى من العالم القديم في قاراته الثلاث، وترتب على ذلك اختلاف خصائص البيئات التي سادها الدين الإسلامي؛ مما أوجد حاجة ماسة لمعرفة وجمع معلومات متخصصة عن تلك البيئات.

2- **التدبر في خلق الله**: حيث جاء القرآن الكريم ببيان كثير من الظواهر التي أودعها الله في الأرض، قال تعالى: (**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**[2]) وقوله تعالى: (**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ**[3]) وقوله تعالى: (**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا**[4]) وهكذا..

---

[1] القنوجي: أبجد العلوم 212/2، 213، وكشف الظنون 590/1.
2 (الحجر: 19).
3 (الرحمن: 19، 20).
4 (المرسلات: 25 – 27)

ولقد تدبر رواد الجغرافيا المسلمون هذه النصوص المحفزة على النظـر في عظمـة خلـق الأرض ومكوِّناها؛ مما كان له أكبر الأثر في إثراء الدراسات الجغرافية في الحضارة الإسلامية.

3- **المتطلبات الشرعية**: فقد اعتمدت جُل أركان الإسلام في أدائها على مواقيت زمنية ومكانية، وبما أن بقاع الأرض تختلف في مواقيتها الزمنية والمكانية فقد كانت هناك ضرورة لأن يهتم علماء كل ولاية إسلامية بتوضيح هذه الأمور لعامة الناس..

فالصلاة تقام في أوقات زمنية محددة؛ ولذلك وضع علماء المسلمين في كل قطر إسلامي حـدودًا زمنية لإقامة الصلاة.. وما تزال الأدوات التي تقاس بها مواعيد الصلاة موجودة في بعض المساجد القديمـة، وتسمى بالساعات الشمسية، وكان الاعتناء بذلك ناتجًا عن أن دخول الوقت شرط لإقامة الصلاة، كما أن الصلاة تستقبل فيها جهة محددة وهي الكعبة في مكة، ولذلك وجب معرفة الاتجاهات الجغرافية لتحدد قبلة الصلاة في كل مدينة أو قرية..

و لم تختلف الحال كثيرًا في الصيام الذي حُدد أداؤه بحدود شهرية وحدود يومية.. وكذلك ارتـبط الحج والعمرة بمواقيت مكانية للإحرام وهي مختلفة في أبعادها من مكة حسب الجهات الـتي يـأتي منـها المسلمون لأداء الفريضة، وكان ضروريًا معرفة تلك المواضع التي يتم إحرام الحجاج والمعتمرين منها حتى لا يترتب عند تجاوزها مخالفة شرعية تؤثر على صحة العبادة.. إلى جانب أن الحج يرتبط بميقات زمني محـدد: (**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ**[1]) وهي التي تتركز حول شهر ذي الحجة؛ لأن الحج مرتبط بالوقوف بعرفة في يوم التاسع من شهر ذي الحجة، فمن فاته الوقوف بعرفة - كما هو معلوم - فقد فاته الحج، وهكذا..

4- **تفسير ما ورد من نصوص شرعية**: فقد أسهمت بعض النصوص الشـرعية الـتي وردت في السنة في تنشيط المعرفة الجغرافية في محاولة لتفسير تلك النصوص، من ذلك ما رواه أبو هريرة > أن رسول الله ρ قال: "**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا**"[2].. وقول الرسول ρ: "**لَا يَجْتَمِـعُ دِينَـانِ فِـي جَزِيـرَةِ الْعَرَبِ**"[3]، وقوله كذلك: "**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**"[4]..

فتلك النصوص وما شاهها أظهرت حاجة مُلِحَّة في بيان المقصود من ذلك؛ لتحقيق ما أمـر بـه الرسول ρ، كما أوجدت وجهات نظر جغرافية في التحديد؛ فالنصوص السابقة مثلاً جعلت مـن تحديـد

---

1 (البقرة: 197).

2 البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (1346)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (157) واللفظ له، وأحمد (9384).

3 الموطأ برواية يحيى الليثي: كتاب الجامع، باب في إجلاء إليهود عن المدينة (1584)، وبرواية محمد بن الحسن (873)، والبيهقي في سننه الكبرى (18531).

4 أحمد (1935)، والنسائي في سننه الكبرى (5854)، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين.

جزيرة العرب محل اختلاف بين العلماء الجغرافيين، حتى إنه ورد فيه أربعة آراء، منها ما هو متسع كتحديد ابن حوقل والإصطخري، ومنها ما هو ضيق كتحديد المقدسي والجيهاني، وظهرت مصنفات هامة مثل (صفة جزيرة العرب) للهمداني، و(بلاد العرب) للحسن بن عبد الله الأصفهاني.

5- **الدعوة إلى الله وتعليم أمور الدين**: فبعد فتح البلاد الإسلامية أصبحت هناك حاجة ملحة لتعلم شرائع الدين، حيث قام عدد من التابعين بالسفر إلى البلاد المفتوحة لتعليم أبنائها أمور الدين والدعوة إليه، وفي الوقت نفسه قام أفراد من سكان تلك البلاد بطلب العلم من المنابع التي ظهر فيها الإسلام سواءً في مكة أو المدينة؛ لما تتمتع به المدينتان من وجود كبار الصحابة والتابعين، وكانت تلك الرحلات الدعوية أو العلمية تستلزم المعرفة بالمسالك المؤدية للمناطق المقصودة، كما أن أساليب الدعوة في بيئةٍ ما لا يمكن أن تصلح في كل بيئة..

ومما أسهم في تيسير الاتصال الدعوي الموقع الجغرافي لموطن الرسالة، فقد أثبتت الدراسات الجغرافية الحضارية لمنطقة الشرق العربي أن موقعها الجغرافي كان وما يزال متوسطًا في العلاقات الإقليمية والعالمية، ولذا أسهم بدور الوساطة التجارية من جانب وبدور الدعوة والبلاغ من جانب آخر.

6- **المتطلبات الإدارية والعسكرية**: نمت الدولة الإسلامية وبلغت حدودها من الصين شرقًا حتى الأندلس (أسبانيا) غربًا في غضون ثمانين سنة تقريبًا، وكان هذا النمو حصيلة فتوحات في ثلاث خلافات إسلامية (الخلافة الراشدة، والخلافة الأموية، والخلافة العباسية). ويتطلب التوسع في الدولة مراعاة أمور ترتبط بهذا التوسع.. منها:

إدارة المناطق: فعندما أصبح الأمر في معظم أصقاع العالم القديم تحت إمرة الخلافة الإسلامية كان من الأولويات التي اهتُمَّ بها الكيفية التي تتم بها إدارة المناطق بما يتفق مع الإمكانات البيئية والخصائص الاجتماعية لكل قطر، وكان الأمر يتم بدراسة التقارير الوصفية (الجغرافية) الأولية من قِبل الفاتحين لتحديد الطريقة المثلى لإدارة تلك الأقطار، وتعد تلك التقارير بمثابة النواة الأولى لتطور اتجاهات الدراسات الإقليمية.

الالتزامات المالية: نظَّم الدين الإسلامي جمع المال عبر أبواب متعددة؛ فجمع الزكاة يتعين على الموسرين من المسلمين، ويُقدَّر الخراج حسب مقدار غلَّة الأرض، وهو ما يختلف باختلاف البيئات التي بسط الإسلام تعاليمه السَّمْحة عليها، بينما تُؤخَذ الجزيةُ من أهل الذمة الداخلين في حمى الولاية الإسلامية، ومثال ذلك ما قام به المقدسي من تحديد للأقليات غير المسلمة في إطار الممالك الإسلامية.

تلبية احتياجات المناطق من المتطلبات المهمة: تقترن عمليات توفير الاحتياجات للمناطق بالمعرفة الجغرافية التي تحدد الأولوية في تقديم المتطلبات لسكان الولايات الإسلامية؛ فمثلاً بناء الطرق وتسهيلها من

المتطلبات العامة التي تكفلت بها الخلافة، ومما روي من الاهتمام بذلك ما أناط عمر بن الخطاب به نفسه بقوله: " لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب[1]"؟!

كما رغب معظم الخلفاء في معرفة الممالك التي أصبحت تحت إدارتهم، ومن ذلك ما قام به الخليفة عمر بن عبد العزيز ~ من الكتابة إلى واليه في الأندلس يطلب منه فيها موافاته بصفة الأندلس وأنهارها، وفي هذا بيان لأهمية الاتجاه الإقليمي للجغرافية في إدارة شؤون الدولة، والتعرف على أحوالها والتخطيط لمستقبلها[2].

تحديد المناطق المثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلامية: تميزت دولة الإسلام إبان نشأتها بالقوة والمنعة إلا أن ذلك لم يمنع من التفكير في الذود عن الأمة الإسلامية – التي يتربص بها أعداؤها حالة ضعفها، أو انشغال المسلمين عن الجهاد في سبيل الله – بإيجاد بعض النقاط التي تكون مراكز للدفاع عن الأراضي الإسلامية، وقد تم اختيار بعض المعابر الأرضية (الثغور) بين ممالك الإسلام والممالك غير المسلمة نصرانية كانت أم لا دينية؛ لتكون مصدات لهجوم الأعداء، وكان اختيار هذه المعابر يأتي عبر معرفة جغرافية دقيقة بطبوغرافية المكان..

كما ابتكر القادة نقاط إمداد عسكرية شبه ثابتة – في حالة الحاجة إلى استنفار أكبر عدد ممكن من المسلمين للجهاد أو صد هجوم المعتدين – ببناء المدن الحربية في مواضع مختلفة.. وما البصرة والكوفة والقيروان إلا نماذج للمدن الحربية؛ فقد اختير موقع مدينة كالقيروان بعناية من قِبل القائد المسلم عقبة بن نافع في الجزء الهامشي من المنطقة الرطبة وعلى مقربة من المنطقة الجافة وعند ملتقى طرق تتجه في جميع الاتجاهات مع اهتمام بوجود ينابيع مائية تكفل نمو المدينة، وفي هذا بيان لأهمية الموقع الجغرافي في الاتجاه العلمي للمتطلبات التي تحتاجها الدولة الإسلامية[3].

7- **الدوافع الاقتصادية**: حقق التبادل التجاري تنشيطًا للمعرفة الجغرافية عند المسلمين قدر ما حققه انتشار الإسلام في أرجاء واسعة من العالم؛ فالتجارة هي الحرفة الرئيسة للمجتمعات العربية حيث ارتبطت مدن الصحراء بالمناطق الزراعية، وكوَّن تجار المسلمين بعد انتشار الإسلام خلفية واسعة عن البلاد المحيطة بهم عبر علاقات تجارية، وجعلت التجارة المعطيات الجغرافية أعظم بكثير مما كانت لدى أسلافهم من الأمم الأخرى، ووضعتها تحت تصرفهم فوسعت أفق الجغرافيِّ؛ مما جعله يكتب عن مناطق لم يرها وإنما سمع عنها فقط من التجار، ولقد تعددت العلاقات التجارية التي كان من أبرزها تلك العلاقات مع الهند وجنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا وأوربا، ولهذا العامل تأثير في بناء أساسيات الجغرافية التجارية لدى العلماء المختصين.

1 الطبري: تاريخ الأمم والملوك 566/2.
2 عبد الستار الشيخ: عمر بن عبد العزيز ص271.
3 محمود شيت خطاب: قادة الفتح في المغرب العربي 102/1،103.

كانت تلك هي أبرز الدوافع التي من أجلها اهتم المسلمون بعلم الجغرافيا، ومن الجدير بالذكر أن هذا الاهتمام كان على مستوى الخلفاء والعلماء على حد سواء؛ فبينما أنفق الخلفاء بسخاء على الحركة العلمية، وقاموا بإنشاء صروح علمية هائلة كبيت الحكمة في بغداد، وعملوا على تنشيط حركة الترجمة للاستفادة من جهود الأمم السابقة... كرَّس العلماء حياتهم وفكرهم ووقتهم ومالهم لخدمة هذا العلم المهم، فظهر ما يعرف في التاريخ بالرحلات..

والرحلات هذه هي الأسفار الطويلة والقصيرة التي قام بها العلماء في كل أرجاء المعمورة لدراسة أحوال الأرض، وأدت بنجاح إلى تفوق الجغرافيا الوصفية، كما أسهمت في تطور الجغرافيا البلدانية (الإقليمية)، حيث كانت الرحلة هي المصدر العلمي لهذا النوع من الكتابات الجغرافية، وتمثل الرحلة الوجه المشرق للجغرافيا الإسلامية، ففي بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والأنثروبولوجية لمعظم مناطق العالم الإسلامي، وقد اعتمد كبار الجغرافيين المسلمين على الرحلة في جمع معلوماتهم، أو التأكد مما سمعوه أو نقلوه، فزاروا معظم البلدان التي كتبوا عنها، وألفوا كتبًا تحدثوا فيها عن رحلاتهم؛ عرف الناس من خلالها أجزاء كثيرة من العالم كانت مجهولة من قبل.

المسلمون وإنقاذ علم الجغرافيا

لم يظهر علم الجغرافيا قديمًا كما هو اليوم، وهذا من طبائع كل العلوم؛ فلكل علم إرهاصات.. ثم تأتي البداية المشوشة التي يتداخل فيها مع غيره من العلوم.. إلى أن يأخذ بعد ذلك دوره في التشكل والتكوين، خاصة مع ظهور المتخصصين.

وفي معرض تناول انطلاق النهضة الجغرافية لدى المسلمين يجدر بنا في البداية ذكر الإسهامات التي سبقت الحضارة الإسلامية، والتي قدمها الرحَّالة الهنود أو علماء اليونان الذين استعان المسلمون بمجهوداتهم البحثية التي كانت شرارة لانطلاق ثورتهم الجغرافية المبدعة.

لقد كان اليونان – على سبيل المثال – يقطنون ضفاف بحر غنيّ بالملاجئ الطبيعية، فنشطوا من خلال تجارتهم وقربهم من البحر، وكان منهم المؤرخ "هيرودوت" الذي قام برحلات كبيرة في برقة ومصر وفينيقية وبلاد بابل، كما زار المستعمرات الإغريقية في ساحل آسيا الصغرى الشمالي، وجزر بحر إيجة وصقلية وجنوب إيطاليا.. ويعتبر كتاب "التاريخ" الذي ألفه مختصَرًا للمعارف الجغرافية لدى الإغريق في أواسط القرن الخامس (ق. م.)..

كما قدَّمت مؤلفات "بطليموس" و"مارينوس" البدايات للمسلمين؛ حيث اعتمد المسلمون في القرن (الثالث الهجري – التاسع الميلادي) لإرساء قواعد علمهم الجغرافي على كتاب "الجغرافيا" لبطليموس، وكان اعتمادهم عليه أساسيًّا.. إلى جانب كتاب "مارينوس الصوري" الذي يأتي في درجة تالية من الأهمية[1]..

وكانت تلك المؤلفات القديمة وصفية اهتم فيها هؤلاء العلماء بحساب درجات الطول والعرض، وأسَّست لاستخدام الجغرافيا الرياضية في رسم الخرائط.

فقد حدَّد بطليموس في كتابه العالَم المعروف لدى الأقدمين؛ فكان يمتد من جزر الخالدات (وهو الاسم العربي الذي كان يُطلق على جزر الكناري حاليا في المحيط الأطلنطي) غربًا إلى الصين شرقا، أما حدوده الشمالية فكانت الجزر الواقعة شمالي بريطانيا، في حين لا تتعدى حدوده الجنوبية منطقة السودان والبحيرات الكبرى، وكان كتاب بطليموس مزودا بـ 27 خارطة، كانت إحداها تمد البحر المتوسط بحوإلى 20 درجة شرقًا؛ مما أدى بالتالي إلى استطالة الأراضي بشكل مفرط باتجاه الشرق[2].

ولم تكن استفادة المسلمين في هذا المضمار من اليونانيين فقط، بل حرصوا على الاطلاع على كل الميراث الجغرافي لشعوب العالم..

فقد قام المصريون القدامى في عهد (سينفرو) فرعون مصر برحلات عديدة بغية الاستكشاف، كما أرسلت مصر البعثات لكشف حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية والليبية وشبه جزيرة سيناء، وتيسيرًا لنقل التجارة من داخل البلاد إلى البحر الأحمر حُفِرَتْ قناة سيزوستريس بين النيل وذلك البحر[3].

أما الكريتيون فهم شعب بحري ضاعت معظم معالم تاريخه من الذاكرة، ويظهر أن نشاطهم في مضمار الملاحة كان سابقًا للفينيقيين.. وهم أقدم من ركب عرض البحر، ولم يتبق من تاريخهم سوى تجارتهم الواسعة مع مصر التي عَرفوا من خلالها سواحل الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط كما عرفوا غربًا سواحل صقلية وإيطاليا الجنوبية دون أن يتجشموا مخاطر الابتعاد أكثر من ذلك.

أما الفينيقيون فقد تمت أول حملة اكتشافية على أيديهم، وقد جهزها فرعون مصر "نيخاوس" الذي حكم في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد بالسفن والمؤن، واستطاعت هذه الحملة عام (665 ق.م) أن تدور حول أفريقيا، بعد أن انطلقت من البحر الأحمر، وعادت من طريق البحر الأبيض المتوسط.. وقد استغرقت هذه الرحلة مدة عامين.

---

1 محمد محمود محمدين: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان ص119،120. دار الخريجي للنشر والتوزيع الطبعة الثانية 1417هـ.

2 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص32،33.

3 انظر: شريف محمد شريف: تطور الفكر الجغرافي، علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا ص15-17.

وفي الفترة الواقعة قبل الميلاد بخمسة قرون قام القرطاجيون بإرسال القائد "صفون" لاكتشاف ساحل أفريقيا الغربية، فانطلق على رأس أسطول من ستين سفينة يركبها ثلاثمائة بحار بالإضافة إلى عدد من المهاجرين وفي الوقت نفسه كان القائد "هيميلكون" يكتشف سواحل أوروبا الغربية ويتوغَّل في بحر الشمال.

كما اتسعت معارف الرومان الجغرافية؛ إذ إنهم توغلوا في الحبشة بعد دخولهم مصر، ووصلوا إلى مناطق المستنقعات الفسيحة في بحر الغزال، وقاموا ببعض الاستكشافات الجغرافية هناك، كما اكتشفوا جبل كينيا وجبل كليمنجارو أعلى قمم أفريقيا..

حتى جاء حين من الدهر أخذت فيه روح البحث العلمي في هذا المجال في الخمول حينما بدأ رجال الكنيسة من أمثال القديس "أمبرواز" (330 - 397م) يجهرون بأن دراسة الكون ووضع الأرض لن يفيد الإنسانية في تحقيق أملها في الحياة الآخرة..!!

وقد أدَّى ذلك إلى أن بدأ الكثيرون يعزفون عن الرغبة في المعرفة، ويعتبرون هذه الأمور ضربًا من السحر.. واستمر الحال هكذا في أوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادي؛ فقد عانى علماء مثل "كوبرنيكوس" (1473 – 1743) و"جاليليو" (1564 – 1642) - على نحو ما ذكرنا في الباب الأول - الكثير من المضايقات من رجال الكنيسة، والتي وصلت إلى حدِّ القتل والإحراق[1]!!

وحين جاء دور المسلمين، فإنهم لم يقفوا في تناولهم لعلم الجغرافيا موقف المطلع والمشاهد فقط لمؤلفات "بطليموس" أو "مارينوس الصوري" أو غيرهما.. وإنما تعاملوا مع الأمر بخطوات إيجابية، شأن الجغرافيا لديهم شأن باقي العلوم التي اطلعوا على إسهامات السابقين فيها، ومن ثم قدموا ما عندهم من إبداعات واختراعات..

وقد مرت الجغرافيا لدى المسلمين بالمراحل التالية:

1) ظهور الجغرافيا الأدبية:

كانت المحاولات الأولى في الجغرافيا عند المسلمين قد ظهرت بشكل متواضع جدًا في مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).. فقد تكوَّن بعدها بنصف قرن ما يُعرف بالجغرافيا الأدبية، وقبل القرن التاسع الميلادي لم تكن هناك مصنفات جغرافية قائمة بمعنى الكلمة، إنما كانت تظهر بين الحين والآخر معلومات جغرافية متفرقة ضمن كتب الأدب، حتى نشطت الترجمة واطلع المسلمون على أفكار "بطليموس" و"مارينوس الصوري"، وبدأت سلسلة الجغرافيا العلمية، التي سرعان ما تبعتها أنماط متعددة للجغرافيا الوصفية..

1 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص21 - 33 .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري بدأ ما يُعرَف بالوجيزات الجغرافية في الظهور لمساعدة كتّاب الدواوين، وكان من أهم ما يمثل ذلك الكتاب الذي تصدى لدراسة مشهد الأرض الطبيعي بشكل خاص ويحمل عنوان: "كتاب المسالك والممالك" لابن خرداذبة (ت272هـ/ 885م).. وتلا ذلك وجيزات جغرافية أخرى حتى أصبحت في متناول رجال الأدب ومن ثم عامة الناس، وكان منها: "كتاب البلدان" للجاحظ (159هـ/255هـ)[1].

2) ازدهار المؤلَّفات من النوع المبسط:

وكان التطور التالي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حيث بلغ الأدب الجغرافي ذروته وذلك على أثر ظهور مؤلفات من نوع (المسالك والممالك)، أي بظهور المدرسة التقليدية للجغرافيين العرب التي كانت على صلة وثيقة "بأطلس الإسلام" الذي يمثل قمة علم المصورات عند العرب، أو علم الخُرُط..

كما حظي التبسيط الجغرافي بترحيب الجمهور الذي أقبل عليه بشغف، وتعددت مناهج وصف الرحلات.. و يمكن القول إجمالاً: إن القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان عصر تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية، حيث تعددت الأسفار الاستكشافية مما زاد من اتساع أفق الجغرافيين الوصفيين، وزادت مع ذلك معلوماتهم دقة ووضوحًا[2].

ففي عام (309هـ/921م) أرسل خليفة بغداد "المقتدر" بعثة إلى بلغار الفولغان، وعهد إلى "ابن فضلان" بكتابة تقرير عن أخلاق شعوب تلك المنطقة.. وقد ظل هذا الكتيب حتى القرن الثاني عشر الميلادي أفضل مصدر وثائقي يملكه المسلمون عن الروس وعن سكان بحر الخزر (قزوين)[3].

3) التطور الختامي للأنماط الجغرافية:

وكان ذلك في نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والقرون التالية، ففي هذه الفترة ظهرت المعاجم الجغرافية، والمؤلفات الكوزموغرافية التي تهتم بالكوزموغرافيا أو الجغرافيا الكونية، والمؤلفات الجغرافية العالمية، واحتلت الموسوعات التاريخية والجغرافية مكانة مهمة أيام المماليك في مصر.. وكذلك كثرت أقاصيص الرحالة الجغرافيين.

4) الحقبة العثمانية:

وفيها بدأ الاحتكاك بالجغرافيا الأوروبية الحديثة والاكتشافات الجغرافية الكبرى.

---

1 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص67 .

2 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص59.

3 انظر مقدمة رحلة ابن فضلان.

5) النهضة الجغرافية الحديثة:

وقد ابتدأت في مصر مع مطلع العصر الحديث، الذي اقترن برحيل الحملة الفرنسية وظهور أسرة محمد علي، فقد ظهرت عدة مؤلفات في الجغرافيا الرياضية والرحلات، ولاسيما في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين[1].

لقد كانت رحلة علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية رحلة فريدة بكل المقاييس.. ابتدأت بإنقاذ ذلك العلم المهم من الاختناق بيد الكنيسة الأوروبية، والتي حرَّمت البحث فيه كما رأينا قبل قليل.. ثم لم تكتفِ بإنقاذه – وقد كان في طور طفولته – حتى تكفَّلت بتنميته، وضَخِّ دماء العافية العلمية في جسده من جديد..

وسنحاول فيما يلي – بإذن الله – الوقوف أمام بعض الإنجازات الإسلامية المبهرة في علم الجغرافيا.. بعد أن نتعرَّف على بعض معالم المناهج الإسلامية لدراسة الجغرافيا..

المناهج الإسلامية لدراسة الجغرافيا

عرفت الدراسات الجغرافية عند المسلمين عدة مناهج، كان منها:

المنهج الأدبي: وقد كان ذا استقلالية فكرية، ويعتمد على الأسلوب الأدبي متأثرًا بروائع الشعر العربي أو المقالات النثرية.

وللمؤلَّفات التي اتخذت هذا المنهج – رغم قِلَّة عددها – قوة ورصانة علمية قلما تتوافر في غيرها من المؤلفات.. وقد كانت كتب أدب الرحلات من أوضح الأمثلة على هذا المنهج.

المنهج الرياضي: وهو انعكاس للحاجة التي نمت حول القياسات الحسابية للطوالع التي بدأت عند العرب قبل الإسلام[2].

ولقد تطور المنهج الرياضي بعد ترجمة الكتب اليونانية ذات الصبغة الرياضية، مثل كتاب (المجسطي) لبطليموس، وأصبح لهذا المنهج كتب معروفة مثل: كتاب (القانون المسعودي) للبيروني (362هـ – 440هـ)، و(الزيج الصابئ) للبتاني (244هـ – 317هـ)، وقد أعطى هذا المنهج للمصنفات الفلكية

1 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص60.

2 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص255.

رصانة علمية؛ مما جعلها ذات مرجعية في الدراسات الحديثة، ويعد هذا المنهج أساسًا في تطور الاتجاه الرياضي (الفلكي).

المنهج الوصفي الإقليمي: أصَّل جغرافيو المسلمين هذا المنهج وأبدعوا فيه، ووضعوا له الأطر العلمية، وجاء الإبداع في أدبيات هذا المنهج لأسباب عديدة منها:

أ – الاتساع في كَمِّ المعلومات عن بقاع الأرض؛ مما جعل الاستفادة الفعلية منها لا تتحقق إلا في حالة وضع تصنيف لهذه المعلومات بشكل موضوعي.

ب – التجارب المتعاقبة حول الكتابة بمنهج إقليمي، والتي امتدت لأكثر من أربعة قرون، وكان من شأن ذلك الامتداد التجريبي أن حدث تطوير لهذا المنهج، وتم إدخال تعديلات في إليات الوصف.

ج – تعدُّد المدارس الإسلامية في أسلوب الكتابة الإقليمية بما يعرف بالمدرسة البطليموسية، والمدرسة البلخية؛ مما أحدث تنافسًا بينها في قبول الطرح الجغرافي عند المتلقين.

د – تبني العديد من المصنفين لهذا المنهج، فقد كان أكثر الكتاب يُخضعون مصنفاتهم للأسلوب الوصفي المدعم بالمشاهدات والتحقيقات الميدانية.

هـ – وجود فائدة علمية وعملية للمعلومات المدونة وفق هذا المنهج؛ مما جعل أكثر الخلفاء والملوك يدعمون الاتجاه الإقليمي بتأليف عدد من المصنفات، فمثلاً قام "الشريف الإدريسي" (493هـ – 560هـ) بتأليف كتاب في تقويم البلدان لغليوم الأول (ملك هولندا) عنونه بـ "روضة الأنس ونزهة النفس".

وقد قام الجغرافيون الوصفيون والرحالة بوصف المدن بدقة، مركِّزين بذلك على تاريخها وأجوائها وأهم منتجاتها وتعاملاتها التجارية مع الآخرين، ومما جاء في ذلك:

أورد "ابن حوقل" (294هـ – 367هـ) في كتابه "صورة الأرض" وصفًا للمدن التي استعرضها في دراسته للأقاليم، وكان من تلك المدن مدينة (الفسطاط)، وقد وصفها بقوله: "الفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد، ومقدارها نحو فرسخ على نهاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام، وممالك جسام.. إلى ظاهر أنيق، وهواء رقيق، وبساتين نضرة، ومنتزهات على مرِّ الأيام خضرة... وفيها خمسة مساجد وحمامان وغير فرن لخبز عجين أهلها، ومعظم بنيانهم بالطوب، وأكثر سفل دورهم غير مسكون وبها مسجدان لصلاة الجمعة"[1].

1 ابن حوقل صورة الأرض ص137،138.

ويتضح من وصف "ابن حوقل" السابق التركيز على تقدير مساحة الفسطاط، وإيراد بعض خصائص أسواقها، إلى جانب إبراز بعض المرافق والخدمات..

ومن الأمثلة المختصرة في وصف المدن ما ذكره في وصف مدينة (الطائف) التي مرَّ بها خلال رحلاته الطويلة التي استغرقت حوإلى ثمانية وعشرين عامًا، حيث يقول: "والطائف مدينة صغيرة... كثيرة الشجر والثمر، وأكثر ثمارها الزيت، وهي طيبة الهواء، وفواكه مكة وبُقولُها منها وهي على ظهر جبل غزوان، وبغزوان ديار بني سعد وسائر قبائل هذيل، وليس بالحجاز فيما علمته مكان أبرد من رأس هذا الجبل؛ ولذلك اعتدل هواء الطائف"[1]..

وهو بهذا الوصف يؤكد أثر الموضع الجغرافي على مناخ المدينة، كما أنه أعطى بيانًا لتوزيع القبائل وارتباط استقرارها بالمدن.

كما أبدع "الشريف الإدريسي" (493هـ - 560هـ) في وصف المدن في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)؛ فهو يُولي اهتمامًا كبيرًا لدراسة المدن.. ومما ذكره في ذلك وصفه الدقيق لمدينة (قرطبة) بقوله: "ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس وأم مدنها... وهي في ذاتها مدنٌ خمس يتلو بعضها بعضًا، بين المدينة والمدينة سور حاجز.. وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق... ولا بلد أكبر اسمًا منها في بلاد الأندلس"[2].

ومن الكتابات التي احتلت منزلة مرموقة في المنهج الوصفي للدراسات الجغرافية، ما أورده "ابن بطوطة" (703هـ - 779هـ) الرحَّالة المسلم الأكثر شهرة، في كتابه المعروف باسم (رحلة ابن بطوطة).. أو (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).. حيث أبدع في وصف مشاهداته عبر رحلاته الطويلة.. وكان مما قاله في وصف مدينة (حماة): "إحدى أمهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفائق، تحف بها البساتين والجنات، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات، يشقُّها النهر العظيم المسمى بالعاصي، ولها ربض سمي بالمنصورة... فيها الأسواق الحافلة والحمامات الحسان"[3].

4. **المنهج التعليلي**: وقد اتصفت دراسات "ابن خلدون" (732هـ - 808هـ) بهذا النمط، على الرغم من وجود أعلام آخرين سبقوا ابن خلدون في هذا المضمار، ولكن ليس بالشمول والتطبيق أنفسهما؛ فمقدمة ابن خلدون الشهيرة لا تركز على وصف المدن بالقدر الذي تحاول فيه تحديد العوامل المقترنة بظروف مواقعها ونموها وأحجامها، مع تحديد لتعريف المدينة.. وهي كما يلي:

1 ابن حوقل صورة الأرض ص39.

2 الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق 574/2.

3 ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ص28.

ظروف الموقع: بلغ عدد المدن التي أنشأها المسلمون خارج الجزيرة العربية ما يزيد على مائتي مدينة خلال حكم الخلفاء الراشدين وفي عهد الأمويين والعباسيين، ويعطي هذا الرقم مع ما ذكر حول تحديد المناطق المثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلامية – كأحد العوامل المرتبطة بالمتطلبات الإدارية والعسكرية – أهمية دراسة المواقع بشكل دقيق لتحديد المزايا التي يتمتع بها والعيوب التي ترتبط به.

ومن هذا المنطلق خصَّص "ابن خلدون" لهذا الأمر فصلاً فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة في جانبين:

أ – **دفع المضارّ**: ويكون ببناء أسوار للمدن، مع الحرص على الموضع الذي تحصل به المنعة الطبيعية، ويقول في هذا: "وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة؛ إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها من العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها".

ومن القضايا التي أُخذت في دفع المضار السلامة من الأمراض بأن يكون الموقع طيب الهواء بعيدًا عن الراكد من الماء؛ لما قد يسببه ركود الماء من انتشار الآفات وما يصاحبه من تفشٍ للأمراض، وقد أعطى "ابن خلدون" أمثلة لبعض المواضع السيئة التي لم تختر بعناية مثل: مدينة قابس بالمغرب[1].

ب – **جلب المنافع**: ويراعى فيها توافر الماء بأن تكون المدينة على نهر جار أو بالقرب من عيون عذبة، كما يشترط لمثالية الموقع طيب المرعي للسائمة وقربه لما يترتب على بعده من حصول المشقة، ويراعى أيضًا توافر المزارع التي يتحصل بها قوت الناس، ويرى في اختيار المدن الساحلية الحصانة الطبيعية والبشرية فقد ذكر أن "مما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد... والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غِرَّةٍ للبيات (أي: مباغتة العدو) وسهل طروقها (غزوها) من الأساطيل البحرية"[2].

نمو المدن: يخضع نمو المدن إلى مقومات تدفع به إلى الأمام، أو إلى معوقات تحد منه.. ولقد أورد "ابن خلدون" في الفصل الرابع من الكتاب الأول أن المدن عند نشأتها يمكن أن تنمو بتوجيه من الدولة رغبة منها في اجتماع الأيدي، وهو يقول في هذا الشأن: "فلابد من تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك.. ثم إذا بُنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعُمُرُ الدولة – حينئذٍ – عمرٌ لها، فإن كان عمر الدولة قصيرًا وقف الحال بها عند انتهاء الدولة، وتراجع عمرانها، وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاد، والمنازل الرحيبة

---

1 ابن خلدون: المقدمة ص280.

2 ابن خلدون: المقدمة ص281.

تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة، وينفسح ذراع المساحة كما هو واقع ببغداد وأمثالها"[1].

تصنيف المدن وتدرُّجها: أخذ المسلمون بمسألة اختلاف المدن في أحجامها، وهذا أوجد مصطلحات تختص بهذا الاختلاف فهناك البُلَيْدَة والبَلْدَة والبَلَد، وتم ربط أحجام المدن بالأسواق، فمثلاً أوضح "ابن خلدون" أنه متى ما كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل، وأن المصر كثير العمران يختص بالغلاء في أسعار حاجاته[2].

وبعد أن تعرَّفنا – من خلال الاستعراض الموجز السابق – على بعض ملامح المنهج الإسلامي لدراسة الجغرافيا.. ذلك المنهج الذي قاد إلى روائع من الإنجازات المبهرة التي غيَّرت مجرى النظر الجغرافي عبر تاريخ الإنسانية كله.. سنحاول في الصفحات القادمة – إن شاء الله – التوقف أمام بعض المعالم المبهرة لتلك الإنجازات الخالدة..

المسلمون وإثبات كروية الأرض

بالرغم من أن "كروية الأرض" تُعدُّ الآن من الحقائق العلمية البديهية التي لا يشكُّ فيها أحد من الناس على اختلاف الأعمار والثقافات، حتى صار الصغار يدرسونها بالبراهين في مراحل تعليمهم المبكرة.. إلا أن هذه الحقيقة واجهت في عصور قديمة صعوبات بالغة حتى تستقر علميًّا في أذهان البشر..

وقد يأخذك العجب عندما تعلم أن هيئات دينية كبرى حكمت العقل الأوروبي قرونًا طويلة ضاقت بهذه الحقيقة العلمية ضيقًا حملها على تكفير من يؤمن بها من العلماء.. وربما بلغ الأمر حدَّ التعذيب أو الإعدام بأبشع الأساليب..!!

وظلَّ ذلك الوضع حتى جاء الإسلام بما يحمله من دعوة لتوسيع النظر في الكون، وتحرير العقل من الأوهام والخرافات، وإطلاق سراح البحث العلمي معتمدًا على التجريب والبرهان، ثم الوصول للحقائق بعد نقاش موضوعي حُرٍّ وهادئ؛ فأحيا ما كاد ينمحي من حقائق العلوم جميعًا (وكرويَّة الأرض إحداها)... وإليك التفاصيل..

كان الإغريق يعتقدون أن الأرض قرص دائري مسطح تحيط به مياه المحيطات من كل جانب، فها هو "هكتاتيوس" (سنة500 ق.م) والذي يعتبر أبا الجغرافيا الإغريقية يرسم خرائطه على أساس القرص المستدير[3]..

1 ابن خلدون: المقدمة ص279.
2 ابن خلدون: المقدمة ص301.
3 انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص258.

وبالرغم من أن "أفلاطون" (سنة 348 ق.م) أتى بأول نظرية عن كروية الأرض إلا إنه لم يلق التأييد الكافي ممن جاء بعده.. بل إن الدولة الرومانية رفضت هذه الفكرة، وكتب "كوزماس" (COSMAS) "أبو الجغرافيا الرومانية" في (سنة 547 م): "إن العالم يشبه العجلة، وإن مياه المحيط حوله من كل الجهات.."[1]..

وبلغ الأمر ذروته حين تبنَّت الكنيسة وآباؤها الأوائل (وعلى رأسهم "الكتانشيوس") هذه النظرية بشدة، وقالوا بأن الأرض مسطحة، وأن الجانب الآخر غير مأهول؛ وإلا سقط الناس في الفضاء2!!

والمثير للعجب أن التعامل مع معارضي أمثال تلك النظريَّات كان يتَّسم بالضراوة البالغة؛ فكان المعارض يتعرض للتعذيب على الخازوق أو الحرق حيًّا بتهمة الهرطقة (التي تعني كنسيًّا: المروق عن الدين الصحيح)!!

بل كان علماء أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي يرسمون خريطة العالم على شكل صليب: رأسه هي الجنة، وقدماه هي النار، وذراعاه: البحر الأبيض والبحر الأحمر.. وبيت المقدس (أورشليم) في موضع القلب!!!

وقد كان من أشهر العلماء الأوروبيين الذين تبنَّوا نظريَّة كرويَّة الأرض "نيقولا كوبرينكوس" (1473م – 1543م) الذي توصَّل إلى أن الأرض ليست مركز الكون.. إلا أنه لم يتجرأ على نشر كتابه إلا وهو على فراش الموت!! وظل كتاب "كوبرنيكوس" من الكتب المحرمة، واضطهدت الكنيسة كل من يؤيد اعتقاد "كوبرنيكوس" مثل "برونو" الذي أُعدم حرقًا، و"جاليليو" الذي أودع السجن حتى أُرغم على التنكر لنظرية "كوبرنيكوس" والتخلي عن آرائه، والانصياع للفكر الكنسي[3]!!!

ولما جاءت الحضارة الإسلامية، عملت على إحياء نظرية كروية الأرض وتبنَّتها.. وربما كان من أهم أسباب ذلك أن القرآن أشار بصور مختلفة إلى كروية الأرض..

فمن ذلك قوله تعالى: (**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**[4]) والدحية في اللغة هي الكرة.. كما أن هناك آيات تتحدث عن دوران هذه الكرة حول نفسها بما يُحدث الليل والنهار.. فيقول تعالى: (**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**[5]).

---

1 كتاب " كوزموس " Christian Geography Cosmography.
2 جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص397،398.
3 انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد علي أبو درة 273/30.
4 (النازعات: 30).
5 (الزمر: 5).

ويعلّق الدكتور زغلول النجار على هذه الآية الأخيرة بقوله: "معني يكور الليل علي النهار ويكور النهار علي الليل: أي يُغشي كلَّ واحد منهما الآخرَ كأنه يَلُفُّه عليه، وهو وصف واضح الدلالة علي كروية الأرض، وعلي دورانها حول محورها أمام الشمس، وذلك لأن كلاً من الليل والنهار عبارة عن فترة زمنية تعتري نصف الأرض في تبادل مستمر، ولو لم تكن الأرض مكورة لما تكور أي منهما، ولو لم تكن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار وكلاهما ظرف زمان وليس جسمًا ماديًا يمكن أن يُكَوَّر، بل يتشكل بشكل نصف الأرض الذي يعتريه..".

ثم يؤكد الله تعالى هذا المعنى فيقول سبحانه: (**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**[1]) ويُقسم في موضع آخر: (**فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**[2]) فهي آيات تشير بوضوح إلى أن الشمس عندما تشرق على مكان من الأرض، فهذا يعني أن هناك غروبًا في مكان آخر، أي أن المشارق والمغارب تتعاقب بسبب دوران الكرة الأرضية حول نفسها[3].

والغريب أنه مع أن "كرويَّة الأرض" شأن علمي كوني، إلا أننا سنرى في السطور القادمة نظرة علماء الشرع لهذه الحقيقة أيضًا، وكيفية اعتراضهم على منكريها.. مقارنة بما أشرنا إلى طرف منه آنفًا، مما كان يعانيه معتنقو المسيحية في أوروبا من آباء الكنيسة وسلطانها المطلق، عندما كان أحدهم – مهما أوتي من علم – يجهر بكرويَّة الأرض؛ لندرك الفارق الضخم بين مناخين:

صنع الإسلام أحدهما بروح مشجعة على العلم، محترِمة للعقل والنظر والتجريب والبرهان؛ فأقام حضارته العظيمة التي أحسنت الصلة – على نحو غير مسبوق – بين الدين والعلم.. حتى غدا كلاهما يدعو إلى صاحبه، ويرسخ أقدامه في القلوب والعقول جميعًا..

بينما اغتالت سُلطة الكنيسة — في المناخ الآخر — رُوحَ العلم اغتيالاً، حينما أدمنت اعتناق الأساطير، وحمْل الناس قسرًا على اعتناقها.. الأمر الذي أدَّى — في نهاية المطاف — إلى ما نرى عليه الغرب الآن من إقصاء كامل للكنيسة عن كل قضايا الحياة!!

وبالنسبة إلى نظرة علوم الشرع إلى كروية الأرض، فإن "ابن حزم" (ت:456هـ - 1064م) ينقل في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) إجماع أئمة المسلمين على كروية الأرض، فيقول عنهم: "قالوا إن البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك.. وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم ψ لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفَظ لأحد منهم في دفعه كلمةٌ.. بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها.. قال الله Y: (**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ**

---

1 (الرحمن:17).
2 (المعارج:40).
3 الدكتور زغلول النجار: جريدة الأهرام بتاريخ 2002/1/14..

وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ).. وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من: (كوَّر العمامة..) وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض..."[1].

ولابد أن نلاحظ هنا إلى أي مدىً وصل ابن حزم ~ في اعتراضه على مخالفيه في قضية بديهية كهذه.. إنه لم يَرِد على وصفهم بـ"العامَّة" دونما تكفير ولا أحكام بالقتل.. لاسيَّما وهو أحد فقهاء عصره.. ولنقارنَ ذلك بما أشرنا إليه من مصادرة الكنيسة الأوروبية لآراء الآخرين معتمدة على سطوة النفوذ الديني والروحي!!

وهذا الإمام "فخر الدين الرازي" (ت: 606هـ - 1209م تقريبًا) يقول في تفسيره (مفاتيح الغيب) في تفسير قوله تعالى: (**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ**[2]..) يقول: "المدُّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، فقوله: "وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ" يُشعر بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه؛ لأن الأرض لو كانت أصغر حجما مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به... والكرة إذا كانت في غاية الكبر، كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح.."[3].

أما علماء الجغرافيا المسلمين فكان لهم شأن آخر في إثبات كروية الأرض..

فإنهم لم يكتفوا فقط في إثبات هذه الحقيقة العلمية بنفض ما علاها من أتربة الجهل والتعصب.. وإنما أيدوها بالمزيد من الأدلة والبراهين القاطعة التي يسَّرها الله لهم..

يقول "ابن خرداذبة" (ت 272هـ - 885م) في كتابه (المسالك والممالك): "إن الأرض مُدَوَّرَةٌ كدوران الكرة.. موضحة كالمحة (المحة هي: صفار البيض) في جوف البيضة"[4].

وكتب "ابن رُستة" (ت 290هـ - 903م) في كتابه (الأعلاق النفيسة): "إن الله Y وضع الفلك مستديرًا كاستدارة الكرة أجوف دوَّارًا.. والأرض مستديرة أيضًا ومصمتة في جوف الفلك"[5].

وكتب "المسعودي" (ت 346هـ - 956م) في كتابه (التنبيه والإشراف) : "جعل الله Y الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشمل عليه من طبائع التدوير، فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر.."[6].

---

1 ابن حزم: الفصل في الملل 78/2.
2 (الرعد: 3)
3 الرازي: مفاتيح الغيب 1/19.
4 ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص4.
5 ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص8.
6 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص 319.

وقد ذكر "الشريف الإدريسي" (ت 560هـ - 1166م) في كتابه (نزهة المشتاق) ما نصه: "..وإن الأرض مدورة كتدوير الكرة، والماء لاصق بها، وراكد عليها ركودًا طبيعيًّا لا يفارقها، والأرض والماء مستقرَّان في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة.. ووضعهما وضع متوسط، والنسيم يحيط بها (يقصد الغلاف الجوي) من جميع جهاتها.."[1].

ويُذكَر أن الإدريسيَّ لما أراد صُنع نموذج للأرض كان على شكل كرة المجسمة[2]..

ويقول "القزويني" (ت 682هـ - 1283م) في كتابه (عجائب المخلوقات): "الأرض كرة، والدليل على ذلك أن خسوف القمر إذا كان يُرى من بلدان مختلفة فإنه لا يُرى فيها كلها في وقت واحد بل في أوقات متعاقبة؛ لأن طلوع القمر وغروبه يكونان في أوقات مختلفة في الأماكن المختلفة. والأرض واقفة في وسط الأفلاك كلها بإذن الله تعالى..".

ثم يفنِّد القزويني آراء علماء القرون الوسطى في أوروبا ورجال الكنيسة الذين يقولون: إن الأرض لو كانت كرة لسقط الناس في الجانب الآخر منها، أو كانت رءوسهم مقلوبة.. فيقول: "إن الإنسان في أي موضع يقف على سطح الأرض فرأسه أبدًا مما يلي السماء، ورجله أبدًا مما يلي الأرض، وهو يرى من السماء نصفها، وإذا انتقل إلى موضع آخر ظهر له من جانب السماء الذي أمامه بقدر ما كان قد خفي عنه من الجانب الآخر.."[3].

والعجيب - بعد كل ما سبق - أن بعض الكتب والمراجع العربية مازالت تنقل عن المراجع الأجنبية أن المسلمين لم يعرفوا نظرية كروية الأرض.. وأن هذه النظرية لم تعلن إلا بفضل "كوبرنيكوس" (1473م – 1543م)!!

وحَسبُك الآن مقارنة تاريخ وفاة كوبرنيكوس بأعوام وفيَّات علماء المسلمين الذين سبق ذكرهم؛ ليتبيَّن لك: مَن أخذ ممَّن؟؟!

فقد أكد المسلمون - كما رأينا - وبتحفيز من كتاب ربهم وسنَّة نبيِّهم - إثبات تلك الحقيقة الجغرافية عظيمة الأهميَّة، وذلك بعدما عدت عليها - أو كادت - جهالات العصور المظلمة.. وقد رأينا كيف اتَّسم البحث العلمي في عصور حضارتنا الإسلامية بالحرِّيَّة الكاملة ونزاهة الحوار وتحكيم التجربة..

من إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا

1 الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص7.

2 جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص402، 403، وزكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص64.

3 القزويني: عجائب المخلوقات ص35.

حيثما شرَّقتَ أو غرَّبت في فروع علم الجغرافيا، فإنَّك - لا شكَّ - ستری بصمات العلماء المسلمين - الذين سعدت الدنيا بإنجازات حضارتهم - فيها واضحة جلية، وقد استقرت بديهيات العلوم المختلفة بحسن اعتمادهم على الله في توظيف طاقات العقول وإمكانات البحث والتجريب والمشاهدة..

وستتوقف بنا الصفحات القادمة أمام بعض الإنجازات المبهرة التي سبق إليها المسلمون في الجغرافيا، والتي تُشكِّل معالم فارقة في مسيرة هذا العلم عبر التاريخ الإنساني، القديم والحديث على حد سواء..

خطوط الطول وخطوط العرض:

يُعدُّ المسلمون أول من وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرة الأرضية، وقـد وضعها العالم أبو علي المراكشي (ت 660هـ - 1262م)؛ وذلك لكي يستدل المسلمون على الساعات المتساوية في بقاع الأرض المختلفة للصلاة.. كما وضع البيروني قاعدة حسابية لتسطيح الكـرة أي نقـل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس.. وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية[1].

قياس محيط الأرض:

كان أول من قام بمحاولة قياس أبعاد الكرة الأرضية الخليفة العباسي العالم المأمون (ت 218هـ-833م) فقد جاء بفريقين من علماء الفلك والجغرافيا فريق برئاسة "سند بن علي"، وفريق بقيادة "علي بن عيسى الإسطرلابي" (ويقال: إن رئاسة أحد الفريقين كانت لبني موسى بن شاكر، وهو ما ذكرناه في الفصل السابق) واتفق معهما أن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين على الدائرة العظمى من محيط الأرض شرقًا وغربًا، ثم يقيسا مقدار درجة واحدة من خطوط الطول (التي تبلغ 360 خطًّ طول)..

ويحكي في ذلك ابن خلكان أن كل فريق اختار بقعة واسعة مسطحة، وركز في مكانٍ منها وتدًا، واتخذ النجم القطبي نقطةً ثابتةً، ثم قاس الزاوية بين الوتر وبين النجم القطبي والأرض، ثم سار شمالاً إلى مكان زادت فيه تلك الزاوية، وقاس كل فريق المسافة بين الوتدين، وكانوا يقيسون المسافات على الأرض بحبـال يشدونها على الأوتاد[2]..

والعجيب أن النتائج جاءت دقيقة وقريبة مما توصل إليه العلم المعاصر؛ فقد أخذ المأمون متوسـط قياس الفريقين، فوجده 56.66 ميلاً تقريبًا، والذي توصل إليه العلم المعاصر هو 56.93 مـيلاً. وعلـى قياس المأمون هذا فإن محيط الأرض يبلغ 20.400 ميل، أي حوإلي: 41,248كم.

ومن خلال مقارنة هذه القيمة مع القيمة التي قيست بواسطة الأقمار الصناعية في العصر الحديث، وهي 40.070 كم، يتضح أن نسبة الخطأ في قياسات فريق المأمون لم تتجاوز (3 %)!! وهو أمر جـدير بالتقدير[3]..

ثم جاء "البيروني" فقام بتجربة جديدة على أساس مختلف.. بقياس الانخفاض الرأسي مـن (قلـل الجبال) في الهند، فجاءت شبيهة بأرقام فلكيي المأمون فأثنى عليهم[4].

---

1 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص459، جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص397.
2 ابن خلكان: وفيات الأعيان 162/5.
3 انظر في ذلك يوهانس فيلارز: كنوز علم الفلك، المتحف القومي الألماني - نورنبرج، 1983 ص 25 .
4 قدري طوقان: تراث العرب العلمي ص63.

وفي ذلك يقول المستشرق "نللينو" – كما أشرنا سابقًا – في كتابه (علم الفلك عند العــرب): إن قياس العرب للكرة الأرضية هو أول قياس حقيقي أُجري كله مباشرة مع كل ما تقتضيه تلك المسافة الطويلة وهذا الفريق الكبير من العلماء والمساحين العرب، فهو يعد من أعمال العرب المأثورة وأمجادهم العلمية[1]!!

دوران الأرض حول نفسها:

في الوقت الذي كان العالم لا يتخيل فيه أن الأرض كرة لم يكن هناك من يناقش مســألة دوران الكرة حول نفسها.. ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كانوا أول من ناقش فكرة دوران الأرض في القــرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) وهم "علي بن عمر الكاتبي" و"قطب الدين الشيرازي" من الأندلس و"أبو الفرج علي" من سوريا.. فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة كل يوم وليلة..

وعن هؤلاء العلماء يقول "سارتون": إن أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القــرن 13 لم تــذهب سُدى، بل كانت أحد العوامل التي أثرت على أبحاث "كوبرنيكوس" في نظريته التي أعلنها سنة 1543م[2].

علم الخرائط:

لا يُنكِر أحدٌ أن الغرب قد استفاد من مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا عامة أيَّما استفادة.. إلا أن (أطلس الإسلام) أو الخرائط الإسلامية كانت في مقدمة مظاهر التأثير الإسلامي المباشــر في الحضــارة الغربية.

فقد تخطَّف (الغرب) مؤلَّف "الإدريسي" (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وقاموا بطباعته طبعات كثيرة ومختلفة، حتى ظل هذا الكتاب مصدرًا أساسيًّا لدارسي الجغرافيا الأوروبيين على مدار أكثر من أربعة قرون!!

صمم "الإدريسي" خريطته (انظر خريطة رقم 1) على الطريقة العربية في ذلك الوقت، حيث بــدأ بالجنوب في أعلى الخريطة، ثم انتقل إلى الشمال في أسفلها.. وتتكون مخطوطة الخريطــة مــن 70 ورقــة (33×21سم) تصل إلى نحو خمسة أمتار مربعة.

وقد قام العالم الألماني "كونراد ميلر" بنشر نسخة مُلَوَّنة منها سنة 1928م، بعد أن بذل مجهــودًا خارقًا من أجل تجميع أجزائها المختلفة، وترجمة الأسماء العربية إلى الألمانية.. ثم اهتمَّ المجمع العراقــي بهــذا

---

1 نللينو: علم الفلك عن العرب

2 سارتون: مقدمة في تاريخ العلم 46/1.

الكتاب؛ فعمل باحثوه على مراجعة وتدقيق كل النسخ الموجودة في العالم، وأخرجوا خريطة الإدريسي وطبعوها سنة 1951م وهي بطول مترين وعرض متر واحد[1]..

تصحيح أخطاء السابقين:

بين أيدينا الآن شهادة لمؤرخ غربي مشهور هو "جوستاف لوبون" الذي ستؤكد كلماته ما سبق بخصوص تفوق المسلمين في مجال الخرائط.. إلى جانب أنها ستضيف إلى عظمة إسهامات المسلمين في الجغرافيا بُعدًا جديدًا بالغ الأهمية..

يقول "جوستاف لوبون": "يكفي أن نشير إلى ما حققه العرب في الجغرافيا لإثبات قيمتهم العالية؛ فالعرب هم الذين عيَّنُوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينًا مضبوطًا في الخرائط، فصححوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشك الأوربيون في وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التي جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قرونًا كثيرة..."[2].

فالروعة والإنجاز لا يتجسدان فقط في الجديد الذي قدَّمه الجغرافيون المسلمون للعالم.. وإنما يتجسد الإنجاز وتتجلَّى الروعة كذلك في التصويب والتعديل الذي عاد به عباقرة الجغرافيين المسلمين على التراث الجغرافي اليوناني.

لقد وقع "بطليموس" – على الرغم من براعته المعروفة – في العديد من الأخطاء عند تحديد الأطوال والأعراض، ومن هذه الأخطاء:

أنه بالغ كثيرًا في تحديد طول البحر المتوسط..

وبالغ في تحديد امتداد الجزء المعمور من الأرض المعروف له..

وجعل المحيط الهندي والهادي بحيرة!!! وذلك عندما وصل جنوبي آسيا بجنوبي أفريقيا..

وبالغ في تحديد حجم جزيرة "سيلان"..

وأخطأ في وضع بحر قزوين والخليج العربي خطًّا فاحشًا[3]..

1 قدري حافظ طوفان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص199.
2 محمود الشرقاوي: الإسلام وأثره في الثقافة العالمية ص97، نقلاً عن حضارة العرب.
3 جلال مظهر: حضارة الإسلام ص390،393.

وقد صحح المسلمون كل هذه الأخطاء وغيرها، و لم يأخذ الغرب هذه التعديلات إلا عنهم.. ومن هنا يتجلَّى دور المسلمين في إنقاذ الدراسات الجغرافيَّة من التشوُّهات العلمية والمنهجيَّة.. كما رأينا من قبل دورهم في إنقاذها من بطش السلطة الكنسيَّة الغاشم..

وقد بدأت تلك المسيرة التصحيحية منذ عهد الخليفة "المأمون" (ت 218هـ - 833م)..

فقد أسدت الخريطة المأمونية (انظر خريطة رقم 3) التي أمر علماء عصره بتنفيذها، إلى الحضارة الغربية فضلاً عظيمًا، رغم ضعف إمكانات المسلمين من حيث الأجهزة الجغرافية في ذلك العصر، وقام المسلمون بإدخال الكثير من التعديلات المهمة على خريطة بطليموس (انظر خريطة رقم 2)، وحسَّنوها وأضافوا إليها الكثير من التصحيحات الجوهرية..

وقد أقبل الغرب على عطاء الجغرافيين المسلمين بشغف واهتمام بالغين؛ فلم يكن الأوروبيون حتى بداية القرن الخامس عشر يرجعون إلا إلى الجغرافيا الإسلامية كما يقرر "كراتشكوفسكي".. وقد ظلت الكارتوغرافيا الأوروبية (علم الخرائط) تعتمد على خارطة الإدريسي حتى قبيل القرن الخامس عشر الميلادي[1]..

وإجمالاً، فإنه منذ وقت الإدريسي 1150م إلى حوإلى 1450م استُمِدَّت الجغرافيا الأوروبية رأسًا من الجغرافيا الإسلامية.. إلا أن تحوُّلا عنصريًّا أصاب الفكر الأوروبي فيما بين (1450م) إلى (1550م)، فنهضت حملة ضد المسلمين لا أساس لها من العلم، وأسفرت عن تحول الجغرافيين الأوروبيين إلى جغرافيا "بطليموس"!! ولما كان استمرار هذا الأمر غير منطقي فقد اضطُرَّ العلماء ثانيةً إلى هجر بطليموس[2]..

والحقُّ أنَّ إسهامات المسلمين في الجغرافيا محيط واسع.. ربما بقدر سعة الآماد المذهلة التي بلغتها رحلات علمائهم الاستكشافية برًّا وبحرًا... وهو الجانب الذي ستحاول الصفحات القادمة الوقوف بنا أمامه..

المسلمون والكشوف الجغرافية

لم تكن النهضة الجغرافية الإسلامية لتظهر لولا جهود مضنية - بعد توفيق الله Y - قام بها العديد من العلماء الأفذاذ الذين مرَّ بنا نبأ بعضهم في صفحات سابقة..

---

1 جلال مظهر: حضارة الإسلام ص405.

2 جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص411، 412.

ولم تكن جهود أولئك العلماء حبيسة الجدران، ولا أسيرة خيالات أو موروثات بالية.. بل كان السير في الأرض والضرب في مناكبها طولاً وعرضًا، والنظر عن قرب إلى طبائعها في شتى البقاع، وملامح الحياة المتباينة فوق كل شبر منها.. كان كل ذلك هو الطابع المميز للدراسات الجغرافية عند المسلمين..

ولا عجب؛ فالإسلام يُنفِّر أتباعه من التعويل على الظن الذي "لا يُغني من الحق شيئًا"، ويدعو في أكثر من موضع إلى الاعتماد على الحق والبرهان: (**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**[1]) (**نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**[2]).

وفيما يلي أهم اكتشافات جغرافي المسلمين:

استكشاف القارات:

1) في آسيا:

كان أقصى ما يعرفه الإغريق عن شرقي آسيا هو منطقة سيراداريا (بأوزباكستان حاليًا).. وهي أقصى منطقةٍ وصل إليها "الإسكندر الأكبر" في فتوحاته (سنة 323 ق.م)..

فلما جاء المسلمون تعدَّوْا هذه الحدود، وتمكنوا من عبور جبال (تيان شاه)، والتوغل مئات الأميال إلى الشرق منها، فوقعت كل مدن وسط آسيا كبخارى وسمرقند وفرغانة وكشغر (وهي إحدى الولايات الصينية) تحت نفوذهم منذ عام (86هـ - 705م).. وقد انتشر الإسلام في هذه المناطق وبقي فيها حتى يومنا هذا، وكان الخلفاء يرسلون الوفود إلى ملوك الصين والتبت وسائر آسيا يدعوهم إلى الإسلام[3]..

وقد اكتشف المسلمون عن طريق أساطيلهم التجارية التي كانت تُبحر من ميناء عدن إلى ميناء كانتون بالصين أن بحر الصين يتصل بالمحيط الهندي، كما اكتشفوا بحيرة (آرال) شمإلى شرق قزوين، فوُضِعَتْ لأول مرة على الخرائط المأمونية في عهد المأمون باسم (بحيرة خوارزم)، وقد زار "البيروني" (ت:440هـ - 1048م) سيبيريا الشرقية، وكان أول من سَمَّى نهر أنجارا (الواقع شمال غرب بحيرة بيكال شرقيَّ سيبيريا).. كما أنه عاش في الهند قُرَابة عشرين عامًا؛ فأبدع في وصفها بما لم يسبقه إليه أحد.. وذلك في كتابه (ما للهند من مقولة)[4].

2) في أوروبا:

1 (البقرة: 111).

2 (الأنعام: 143).

3 فهمي هويدي: الإسلام في الصين.

4 نفيس أحمد ترجمة: فتحي عثمان: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص44.

لقد عرف المسلمون أوروبا رغم تخلفها وخمولها الحضاري في ذلك الوقت؛ ففي عام (308هـ – 921م) ذهب "ابن فضلان" رسولاً من قِبَل الخليفة العباسي "المقتدر" إلى بلاد البلغار في الفولجا (تطلق عند العرب على بلاد الصقالبة الروس وعلى عاصمتهم التي تقع شرقي نهر الفولجا)، كما وصف البيروني بلاد (الفرنج) وهم النرويج والإسكندنافيون، ووصف (بحر الثلج) وهو القطب الشمإلي، كما عرف المسلمون "بلاد الغال" وهي فرنسا[1]..

وقد عُثِر حديثًا على عملات إسلامية في كل من روسيا وإسكندنافيا تعود إلى العصر العباسي!!

3) في أفريقيا:

توقفت معلومات الإغريق والرومان في إفريقيا على البلاد الساحلية وحدها، أما قلب القارة السوداء فقد بقي غامضًا أمام العالم حتى وصله المسلمون كتجار أو رحَّالة أو سفراء.. فاستكشفوا القارة الغامضة، ونشروا الإسلام في السودان والسنغال والنيجر وغيرها.. وكانوا أول من اكتشف مدغشقر، وقد وصلت مراكبهم من الأندلس والجزائر إلى الصومال وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومور..

ومما يُعد من إنجازات المسلمين السَّبَّاقة أنهم أول من اكتشف منابع نهر النيل العظيمة قبل أن تصل إليها حملات الاستكشاف البريطانية بعدة قرون؛ فقد ذكر الرحالة البريطاني "ستانلي" أنه في رحلاته لاكتشاف منابع النيل قد وجد التجار العرب قد سبقوه، وأن القبائل الإفريقية تدين بالإسلام!!

الاكتشافات البحرية:

يُعتَبَر اكتشاف "كريستوفر كولومبوس" لأمريكا عام 1492م، واكتشاف "فاسكو دي جاما" لطريق الهند البحري عام 1497م من أكثر الكشوف الجغرافية تأثيرًا في مجرى التاريخ الإنساني.. وبالرغم من مرور ما يزيد على خمسمائة عام على هذين الكشفين إلا أن الجدل لم يُحسَم بعد حول أسبقيتهما..

فهل كان "كريستوفر كولومبوس" ذلك البحار الإيطإلي هو أول مكتشف للسواحل الأمريكية بالفعل؟؟

وما السِّرُّ وراء انطلاق رحلته من أسبانيا التي كانت قد فرغت للتوِّ من القضاء على الوجود الإسلامي في أراضيها؟

1 نفيس أحمد ترجمة / فتحي عثمان: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص44.

ألم يستفِد "كولومبوس" ومَنْ معه من آلاف الوثائق العلمية والخرائط الإسلامية التي وضع الأسبان أيديهم عليها من ميراث الحضارة الإسلامية الطويل؛ فأحرقوا بعضها، واستولوا على البعض الآخر مما لم يظهر بعد ذلك إلا حديثًا في مكتبة الإسكوريال في مدريد..؟؟

وما حقيقة الأهداف التي حركت الكشوف البحرية الأوروبية على نحو كثيف ومتزامن..؟؟!

إننا في السطور القادمة سنحاول – بإذن الله – إلقاء الضوء على حقيقة هذا الأمر..

فمنذ أعلن المسلمون كروية الأرض، وأثبتوا ذلك بالبراهين الفلكية والحسابية بدأت الإشارات تظهر في كتبهم إلى أنه لابد من وجود جزر معمورة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية لم تُكتَشَف بعد، وقد بُنِيَت هذه النظرية على أنه ليس من المعقول أن يكون أحد سطحي الكرة يابسة بالكامل بينما يغطي الماء الجانب الآخر؛ لأنَّ هذا سيؤدي إلى اختلال توازن الأرض وانتظام دورانها[1]..

وقد كان "البيروني" أول من أشار إلى هذه الحقيقة وبَشَّر بها في كتبه، وبناءً على هذه النظرية ابتدأت مغامرات الكشف الجغرافي التي جاء ذكرها في مخطوطات كبار الجغرافيين المسلمين، ومنهم "المسعودي" في كتابه (مروج الذهب..) و"الإدريسي" في كتابه (نزهة المشتاق..) وغيرهما..

وأول إشارة في ذلك تقول: إن بحارًا عربيًّا أندلسيًّا اسمه"خشخاش البحري" أبحر بسفينته من "لشبونة" إلى الغرب في بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) (سنة235هـ تقريبًا – 850م) وقد اكتشف في هذا البحر جزيرة مأهولة بالسكان أحضر منها الهدايا إلى حاكم الأندلس "عبد الرحمن الثاني" الذي كافأه بتعيينه أميرًا للبحرية الإسلامية.. وقد استُشهِد هذا الرجل في معركة بحرية مع قرصان (الفايكنج)[2].

أما الإشارة الثانية فتذكر أن جماعة من عرب المغرب الإفريقي قد خرجوا إلى بحر الظلمات نحو تلك الجزيرة، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) و لم يَعُدْ أحدٌ منهم و لم يسمع عنهم أي خبر!!

ثم يتلو ذلك قصة "الفتية المغرَّرين" الذين تحدَّث عنهم المسعودي والإدريسي، وتقول هذه القصة: إن ثمانية من الشباب العرب في مدينة لشبونة من عائلة واحدة من البحارة... قرروا المغامرة (في بحر الظلمات) بحثًا عن تلك الجزر التي هلك من سبقوهم دون خبر عنها.. وأن أهل المدينة أطلقوا عليهم لقب (الفتية المغررين) نسبة إلى (الغُرَّة) أي (المقدمة) وليس المغرورين نسبة إلى (الغرور) كما جاء في بعض

1 جلال مظهر: حضارة الإسلام ص396،397.
2 انظر: المسعودي: مروج الذهب 45/1.

المراجع، فمن ذلك ما ذكره "المسعودي" في كتابه (مروج الذهب) عن أخبار (من خاطر بنفسه في ركوبه – أي المحيط الأطلسي – ومن نجا منهم ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوا1..

وعندما يورِد "الإدريسي" هذه القصة يذكر أن هؤلاء الفتية الثمانية عندما عـــادوا إلى الأنـــدلس احتفى بهم أهل لشبونة، واستقبلوهم بالزينات والأفراح.. وأطلقوا على الشارع الذي يسكنون فيــه اســـم (شارع الفتية المغرَّرين)، كان ذلك في أواخر القرن العاشر الميلادي.. ثم ظل هذا الاسم معروفًا بعد ذلك في لشبونة لمئات من السنين2.

كانت هذه صورة موجزة لما أورده جغرافيو الأندلس عن سبق العـــرب لاكتشـــاف أمريكـــا.. يعضدها ما ذكره العالم المؤرخ اللغوي "الأب أنستاس الكرملي" من أن العرب قد وصلوا أمريكا من لشبونة قبل "كولومبوس" بفضل معرفتهم لتيار الخليج الحار في الأطلسي، فيقول: "سَبَقَ العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه، وإلى حركته من المكسيك إلى إيرلندا وبالعكس.."3.

على أن هناك إشارة تظهر في أقوال "كولومبوس" نفسه؛ حيث يذكر أنه كان يعتقد أولَ الأمر أن الهنود الحمر الذين رآهم في تلك الجزر لابد أن يكونوا من سلالة العرب "الذين سبقوه.." كمـــا قـــرأ في المخطوطات العربية.. وقد قامت (الجمعية الجغرافية البريطانية) بإنتاج مسلسل تليفزيوني وثـــائقي بعنـــوان (المكتشفون) وفيه حلقة مستقلة عن "كولومبوس" واكتشافاته، وهي تبين أنه قد اختار أحد رجاله الـــذين يعرفون اللغة العربية (لأنه مـــن أصل عربي) وبعث معه برسالة إلى ملك الهنود الحمر كُتِبَتْ باللغة العربيـــة يقول فيها: "يا صاحب الجلالة.. إن الملكة "إيزابيلا" ملكة أسبانيا وقشتالة تهديك السلام، وتطمع أن يكون بينها وبين بلادك علاقات صداقة.. الخ"4.

إلا أن أكثر تلك الإشارات إبهارًا وإثارة للدهشة هي تلك الخريطة التي اكتشفها المستشرق الألماني Kahle في مكتبة (طوب كابي سراي) بإسطنبول، ونشرها على العالم سنة 1929م بعد تحقيق علمـــي دولي استمر عدة سنوات..

فقد حيَّرت هذه الخريطة (انظر خريطة رقم 4) العلماء وأذهلت العالم.. وهي من تأليف جغـــرافي تركي مسلم هو "بيري ريس" واسمه الكامل "محيي الدين بن محمد الريس" (ت 1513م)، وكان أحد قادة البحرية في الأسطول التركي الذي كان سيد البحار في تلك الآونة.. وهذه الخريطة تنقسم في الواقع إلى عدة خرائط مفردة؛ فهي تبين شرقي المحيط الأطلسي حيث السواحل الأسبانية والأفريقية الغربية... أما في غربي

---

1 انظر: المسعودي: مروج الذهب 45/1.

2 انظر: المسعودي: مروج الذهب 45/1.

3 الأب انستاس الكرملي: عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغرب، نشر هذا البحث في مجلة المقتطف عدد 106، وأشار إليه العقاد في كتابـــه أثر العرب في الحضارة ص47.

4 زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة ص 47، دار الفكر العربي 1998.

المحيط فأنت ترى القارة الأمريكية بسواحلها وجزرها وموانيها وحيواناتها.. فضلاً عن سكانها الأصليين (الهنود الحمر) الذين يرسمهم عراةً وهو يرعون الغنم.

ويذكر المستشرق "كراتشكوفسكي" في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) تعليلاً لهذه الخريطة أنه لابد أن يكون "الريس" قد بناها على أساس خرائط "كولومبوس" التي ربما تكون قد سقطت في يده عندما انتصر الأسطول التركي على أسطول البندقية سنة 1499م، وأَسَرَ بعض سفنه[1]..

إلا أن هذا الرأي يلقي معارضة من كثير من الباحثين؛ لأن الخريطة بها تفاصيل لأماكن لم يعرفها "كولومبوس"، و لم يكن اكتشفها، ولكن هؤلاء الباحثين لم يقدموا تعليلاً بديلاً يكشف سِرَّ هذه الخريطة الغامضة.

اكتشاف القارة السادسة في القطب الجنوبي!!

إن أعجب ما في خرائط "بيري ريس" أنها عادت لتشغل العلماء بعد عصر رحلات الفضاء وتصوير الأرض من الأقمار الصناعية؛ فقد كان الاعتقاد الأول لدى علماء الخرائط في أمريكا وأوروبا في القرن العشرين أن الخرائط غير دقيقة، وأن بها أخطاءً في الرسم حسب أحدث معلوماتهم عن الشاطئ الأمريكي.. ولكنهم فوجئوا بعد ظهور أول صورة مأخوذة من القمر الصناعي لهذه المناطق أن خرائط "محي الدين الريس" أدقُّ من كل ما عرفوه وتصوروه!!.. وأنها تطابق تمامًا صور القمر الصناعي، وأن معلوماتهم هي التي كانت خاطئة.

وعلى أثر ذلك عكف فريق من العلماء في وكالة الفضاء الأمريكية على إعادة دراسة الخرائط مقطعيًا بعد تكبيرها عدة مرات، فكانت المفاجأة الثانية.. وهي أن "بيري ريس" قد وضع في خرائطه القارة السادسة في القطب الجنوبي والمسماة Antarctica قبل اكتشافها بأكثر من قرنين!!.. كما أنه وصف جبالها ووديانها التي لم تكتشف حتى سنة 1952م!! (انظر خريطة رقم 5)[2].

يحكي الكاتب "إريك فون دانيكن" في كتابه "Chariots of the gods?"[3] أن خرائط "بيري ريس" سُلِّمت إلى الدكتور "ماليري آرلنجتون" أستاذ الخرائط الجغرافية في الجامعات الأمريكية الذي قرَّر بعد فحص دقيق أنها تحتوي على كل الحقائق الجغرافية حول أمريكا.. ولكنه شكَّ في وجود خطأ أو عدم دقة في بعض الأماكن.. فطلب الاستعانة بجغرافيي الأسطول الأمريكي الذين أظهرت دراساتهم أن

---

1 كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي 562/2 النسخة العربية.

2 إريك فون دانكين: عربات الآلهة ص29.

3 اسم الكتاب: عربات الآلهة، وهو يتحدَّث عن سفن الفضاء، ونقتبس المعلومات منه رغم اعتراضنا على اسمه؛ لأن الحكمة ضالَّة المؤمن؛ أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها.

خرائط "بيري ريس" قد نقلت الطبوغرافيا الداخلية للقارات (أي التضاريس) بدقة مذهلة؛ فتظهر فيها الجبال والأنهار والسهول وكأنما أُخِذَت من الفضاء الخارجي..!!

وفي سنة 1957م عكف فريق من علماء الجغرافيا بالمراصد الكبرى والبحرية الأمريكية على مزيد من دراسة خرائط "الريس".. وبعد دراسات على أجهزة متطورة وجدوا أن صوره عن القارة السادسة Antarcticaصحيحة ودقيقة بدرجة مذهلة.. حتى بالنسبة للمناطق التي لم يُستكمَل اكتشافها في عصرنا الحاضر!! فالجبال على قارة القطب الجنوبي لم تُكْتَشَف حتى عام 1952م.. فهي دائمًا مغطاة بطبقة سميكة من الثلوج بحيث إن اكتشاف وجودها على الخرائط الحديثة كان باستعمال أجهزة صدى الصوت-Echo .Sounding apparatus .

والجدير بالذكر هنا أيضًا هو اهتمام وكالة الفضاء الأمريكية بمواصلة دراسة هذه الخرائط، حيث اتضح أنها تشبه تمامًا الصور المأخوذة للكرة الأرضية من مركبة فضائية أثناء مرورها فوق منطقة القارة القطبية الجنوبية، وهي صور تغطي مسافة (خمسة آلاف ميل) فوجدوا تشابهًا مذهلاً بين صور القمر الصناعي وبين خريطة "بيري ريس"[1]!!

فلكم هو مذهل تتبُّع جهود المسلمين في اكتشاف الأرض من حولهم.. وكم هو مُبهر تصفُّح ثمار تلك الجهود!!..

ويبقى أن نقرر – أخيرًا – أن استشعار خلافة الله في هذه الأرض لابد أن يكون له أكبر الأثر في بعث تلك الحركة الهائلة للكشوف والرحلات الجغرافية، التي جابت أقطار المعمورة في تلك العصور البعيدة..

ولابد – أيضًا – أن نقرر أن اهتداء المسلمين بكتاب ربهم قد كان له أكبر الأثر في هذا السير الفريد في جنبات الأرض.. حيث يقول سبحانه: (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[2]).

1 إريك فون دانيكن: عربات الآلهة ص29.

2 (العنكبوت: 20).

المبحث الرابع: علم البصريات في الحضارة الإسلامية

كغيره من العلوم التي ظهرت قبل المسلمين، كان لليونانيين وغيرهم من الشعوب القديمة اهتمام بعلم البصريات، وكان لهم فيه آثار طيبة اتكأ عليها المسلمون عند ممارستهم لهذا العلم، فقد نقلوا عن اليونان آراءهم في انكسار الضوء، والمرايا المحرقة وغيرها، ولكنهم لم يقتصروا على مجرد النقل بل توسعوا وأضافوا إضافات مبهرة من ابتكاراتهم، واستطاعوا أن يسطروا في علم البصريات تاريخًا مشرفًا.

ففي أول الأمر كانت البصريات الإغريقية تحوي رأيين متعارضين: الأول: هو الإدخال، أي دخول شيء ما يمثل الجسم إلى العينيين، والثاني: الانبعاث، أي حدوث الرؤية (الإبصار) عندما تنبعث أشعة من العينيين وتعترضها الأجسام المرئية.

وقد ظلت الحضارة الإغريقية تتناول البصريات بأخذٍ وردٍ بين هذين الرأين، وكانت مجهودات أرسطو تفتقر إلى تفصيل حتمي، وكذلك إقليدس رغم مجهوداته الملموسة، إلا أن نظرياته كانت قاصرة على تقديم شرح كامل للإبصار؛ لأنها أغفلت العناصر الفيزيائية والفسيولوجية والسيكولوجية للظواهر البصرية، حيث ذهب إلى أن العين تُحدث في الجسم الشفاف المتوسط بينها وبين المبصرات شعاعًا ينبعث منها، وأن الأشياء التي يقع عليها هذا الشعاع تُبْصَر، والتي لا يقع عليها لا تبصر، وأن الأشياء التي تبصر من زاوية كبيرة تُرى كبيرة، والتي تبصر من زاوية صغيرة ترى صغيرة.

أما بطليموس فرغم إبداعه في التوفيق بين التناول الهندسي والتناول الفيزيائي إلا أنه فشل في نهاية الأمر؛ لأن استخدامه كان مقصورًا على دعم استنتاجات سبق التوصل إليها فعلاً، بل إن معالجة النتائج التجريبية كانت تجري أحيانًا بجواز مروره لهذه الاستنتاجات.

وقد ظلت البحوث في علم البصريات تدور في هذا الفلك السابق دون تقدم أو رقي، وبقيت على ذلك حتى جاءت الحضارة الإسلامية فكان لإسهامات المسلمين في علم البصريات نسق آخر متطور وفريد؛ وذلك نظرًا لنبوغهم في العديد من العلوم المرتبطة بهذا العلم مثل الفلك والهندسة الميكانيكية وغيرهما، إذ أن ابتكاراتهم قد تتداخل فيها هذه العلوم.

فقد جاء الفيلسوف أبو يوسف الكندي (185-256 هـ / 805-873م)، والذي يُعد من أوائل العلماء المسلمين الذين طرقوا ميدان علم الطبيعة، فتناول الظواهر الضوئية وعالجها في كتابه الشهير "**علم المناظر**"، وكان ذلك أول كتاب عربي يعني بعلم البصريات.

والكندي هذا هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (185-256هـ / 805-873م)، يُعد - كما يصنفه الكثيرون - مؤسس الفلسفة العربية الإسلامية، وكان كمعظم علماء عصره موسوعيًا، فهو رياضي وفيزيائي وفلكي، بالإضافة إلى كونه فيلسوفًا[1]!

وكانت بدايته مع أسرته الغنية في الكوفة، والذي كان والده واليًا عليها، وقد توفي وترك يعقوب صغيرًا مع أخوته ووالدته، فأتم حفظ القرآن الكريم والكثير من الحديث النبوي الشريف وهو بعد في الخامسة عشر من عمره، وكعادة طلاب العلم في عصره فقد قرر السفر بصحبة والدته إلى البصرة للاستزادة من العلم، ثم انتقل بعدها إلى بغداد ليزيد من ثقافتة وعلمه، حيث كانت بغداد في العصر العباسي بحرًا زاخرًا بالعلوم المتنوعة المختلفة[2].

كانت مكتبة "بيت الحكمة" التي أنشأها هارون الرشيد وازدهرت في عهد ابنه المأمون مقصده، وصار يُمضي أيامًا كاملةً فيها وهو يقرأ الكتب المترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية، إلا أن فضوله الزائد للمعرفة والعلم لم يتوقف عند حد قراءة الكتب المترجمة فقط، فبدأ بدراسة اللغتين السريانية واليونانية على يد أستاذين كانا يأتيان إلى منزله ليعلماه، وقد تمكن من إتقان هاتين اللغتين بعد فترة وجيزة، بعدها بدأ في تكوين فريق خاص به، وصار صاحب مدرسة ذات مكانة مهمة في الترجمة، وأنشأ في بيته مكتبة تضاهي في ضخامتها مكتبة الحكمة، فصار الناس يقصدون بيته للتعلم ومكتبته للمطالعة، وسارت شهرته في البلاد عندما كان عمره خمسةً وعشرين عامًا فقط، فدعاه الخليفة المأمون إليه وصارا صديقين منذ ذلك الحين[3].

وفي البصريات فقد أخذ الكندي بنظرية الانبعاث الإغريقية، إلا أنه أضاف كذلك وصفًا دقيقًا لمبدأ الإشعاع، وصاغ من خلال ذلك أساس نظام تصوري جديد يحل في نهاية الأمر محل نظرية الانبعاث، وكان لهذا الكتاب صدى في المحافل العلمية العربية، ثم الأوروبية خلال العصور الوسطى.

ثم من بعده جاء أبو الحسن بن الهيثم (354- 430هـ) والذي تُعد أعماله العلمية فتحًا جديدًا ووثبة خطيرة في عالم البصريات وفزيولوجية الإبصار، وكانت أعماله هي الأساس الذي بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم في هذا الميدان، وكان في طليعة العلماء الأجانب الذين اعتمدوا على نظرياته - بل أغاروا عليها ونسبوها لأنفسهم - روجر بيكون وفيتلو وعلماء آخرون، ولاسيما في بحوثهم الخاصة بالمجهر والتلسكوب والعدسة المكبرة[4].

---

1 مصطفى عبد الرازق: فيلسوف العرب ص18.

2 أحمد فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب ص26.

3 رحاب العكاوي: الكندي أعظم الحكماء في تاريخ البشرية ص16 بتصرف.

4 موقع إسلام أون لاين: ابن الهيثم عبقري في ثوب الجنون.

بدأ ابن الهيثم أولا بمناقشة نظريات إقليدس وبطليموس في مجال الإبصار، وأظهـر فسـاد بعـض جوانبها، ثم في أثناء ذلك قدم وصفًا دقيقًا للعين وللعدسات وللإبصار بواسطة العينين، ووصـف أطـوار انكسار الأشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية بعامة، وخاصة إذا نفذ من جسم شفاف كالهواء والماء والذرات العالقة بالجو، فإنه ينعطف – أي ينكسر – عن استقامته1.

وقد بحث في (الانعكاس) وتبيان الزوايا المترتبة على ذلك، كما تطـرق إلى شـرح أن الأجـرام السماوية تظهر في الأفق عند الشروق قبل أن تصل إليه فعلاً، والعكس صحيح عند غروبها، فإنهـا تبقـى ظاهرة في المجال الأفقي بعد أن تكون قد احتجبت تحته، وهو أول من نوّه باستخدام الحجرة السوداء الـتي تعتبر أساس التصوير الفوتوغرافي2.

والكتاب الذي خلَّد اسم ابن الهيثم عبر القرون هو "**كتاب المناظر**"، ويوضح هذا الكتاب تصـور البصريات كنظرية أولية في الإبصار، مختلفة جذريًا عن فرض الشعاع المرئي الذي حـافظ عليـه التقليـد الرياضي منذ إقليدس وحتى الكندي.

ولقد أدخل ابن الهيثم أيضًا منهجية جديدة على هذا التفسير لعملية الإبصار، وبهذا تمكـن مـن صياغة مسائل كانت إمّا غير مفهومة طبقًا لنظرية الشعاع البصري، أو مُهمَلة من جانب فلاسفة يهـدفون أساسًا إلى تفسير ماهية الرؤية أكثر من اهتمامهم بشرح كيفية حدوث الإبصار.

وعلى الرغم من مكانة ابن الهيثم وبحوثه المبتكرة في علم الضوء، إلا أنه ظل مغمورًا لا يعرفه كثير من الناس، حتى قيض الله له من يكشف عن جهوده وينقب عن آثاره ويجليها، وكان من هـؤلاء العـالم العربي مصطفى نظيف، وذلك حين كتب عنه دراسة طيبة رائدة نشرتها جامعة القاهرة في مجلدين، وقد بذل فيها جهدًا مضنيًا في قراءة مخطوطات ابن الهيثم ومئات المراجع الأخرى، حتى خلص إلى حقيقـة صـادقة، وهي أنَّ **ابن الهيثم يُعَد واضع أسس علم الضوء بالمعنى الحديث!!**

يقول الأستاذ مصطفى نظيف: "لقد قلب ابن الهيثم الأوضاع القديمة، وأنشأ علمًا جديدًا أبطل فيه علم المناظر، الذي أنشأه اليونان، كما أنشأ علم الضوء الحديث، وإن أثره في الضوء لا يقل عن أثر (نيوتن) في المكيانيكا، فإن عُدّ (نيوتن) بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر فإن ابن الهيثم خليقٌ بأن يُعـد بحق **رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر**"3.

وطالما كان على هذا القدر من المكانة والمنزلة، فإنا نخوض بعض الشيء في شخصيته، نتعرض فيها لحياته الشخصية، ثم حياته العلمية..

1 الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص124.
2 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص148.
3 قدري طوقان: الخالدون العرب.

فهو المهندس البصري أبو علي الحسن بن الهيثم، من أصل عربي، لُقِّبَ ببطليموس الثاني، وجـده الأعلى "الهيثم" أي "فرخ النسر"، وقد عُرِف ابن الهيثم عند الأوربيين بـ (alhazen)، وهـو عـالم موسوعي من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء ومؤسس علم البصريات، وأتقن الطب وصنف فيه لكنـه لم يمارسه، وكان دائمًا يقول: "وإني ما مُدَّت لي الحياة، باذل جهدي، ومستفرغ قوتي في مثل ذلك (يقصـد الدراسة وتحصيل العلوم)، متوخيًا منه أمورًا ثلاثة: أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حيـاتي وبعـد مماتي، والآخر أني جعلت ذلك ارتياضًا لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويتقنه فكري من تلك العلـوم، والثالث أني صّيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم"1.

ولد في البصرة عام 354هـ / 965م وعاش فيها حياته الأولى، وكان في طفولته عازفًا عن اللهو مع أقرانه، مقبلاً على القراءة والاطلاع، كثير التساؤل، حيث اهتمَّ بتحصيل العلم والإلمام بما وصلت إليـه الفلسفة والعلوم التعليمية، بل والعلوم الطبية أيضًا2.

وعندما شبَّ ابن الهيثم اشتغل كموظف في الديوان الحكومي، إلا أنه عكف على مواصلة البحث والدراسة، فكان يقرأ الفلسفة ويشرح ويلخص ويختصر فيها من كتب اليونان ما أحاط فكـره بتصـوره وصنف في ذلك فروعًا كثيرة، وقد اشتغل بنسخ الكتب فيما بعد، وسار على طريق العلماء، فسافر في طلب العلم، فذهب إلى بغداد والشام ومصر، وتنقّل بين أرجاء الدولة الإسلامية.

ولقد كان في كل أحواله زاهدًا عن الدنيا مقبلاً على التحصيل والدراسة، يصفه ابن أبي أصـيبعة فيقول: "كان ابن الهيثم فاضل النفس، قوي الذكاء، متفننًا في العلوم، لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلـم الرياضي، ولا يقرب منه، وكان دائم الاشتغال، كثير التصنيف، وافر التزهد"3.

ومما يُذكَر في ذلك – كما أشرنا من قبل – أنه وهو بالشام عند أحد أمرائها فأعجب به وأراد أن يغمره بالأموال، فقال ابن الهيثم: "يكفيني قوت يوم وتكفيني جارية وخادم، فما زاد على قـوت يـوم إن أمسكتُه كنتُ خازنَك، وإن أنفقتُه كنتُ وكيلك، وإذا اشتغلتُ بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بـأمري وعلمي؟!"4.

وقد درس في بغداد الطب، واجتاز امتحانًا مقررًا لكل من يريد العمل بالمهنة، وتخصَّص في طـب الكحالة (طب العيون)، وكان أهل بغداد يقصدونه للسؤال في عدة علوم، برغم أن المدينة كانت زاخـرة بصفوة من كبار علماء العصر.

---

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 380/3.
2 ابن القفطي: أخبار الحكماء ص114.
3 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 372/3.
4 البيهقي ظهير الدين: تتمة صوان الحكمة ص16.

وقد تعرضنا لموقفه مع الحاكم بأمر الله الفاطمي، عندما استدعاه الأخير للقيام بمشروع على النيل يحجب الفيضان بعدما سمع مقولته: "لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص"1، وكيف أنه اعتذر بعد أن أدرك صعوبة أو استحالة إقامة المشروع بإمكانات عصره..

ثم وهو في مصر اتخذ من غرفة بجوار الجامع الأزهر سكنًا، ومن مهنة نسخ بعض الكتب العالمية موردًا لرزقه، هذا بخلاف التأليف والترجمة؛ حيث كان متمكنًا من عدة لغات، ولكنه لم يكن في سعة من العيش، فقد كان يرتزق من نسخ كتابين أو ثلاثة كتب رياضية، منها: كتاب الأصول لإقليدس في الهندسة، وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك، فكان ينسخها كل عام فيأتيه من أقاصي البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم، لا مساومة فيه ولا معاودة، فيبيعها ويجعلها مئونة حياته طول سنته2.

ابن الهيثم.. والمنهج العلمي

اعتمد ابن الهيثم في بحوثه على منهجين هما: منهج الاستقراء، ومنهج الاستنباط، وفي الحالين كان يعتمد على التجربة والملاحظة، وكان همه من وراء البحث هو الوصول إلى الحقيقة التي تثلج صدره، وقد حدد الرجل هدفه من بحوثه، وهو إفادة من يطلب الحق ويؤثره في حياته وبعد مماته3.

وكان ابن الهيثم يرى أن تضارب الآراء هو الطريق الوحيد لظهور الحقيقة، وقد جعل من التجربة العملية منهاجًا ثابتًا في إثبات صحة أو خطأ النتائج العقلية أو الفرضيات العلمية، وبعد ذلك يحاول التعبير عن النتيجة الصحيحة بصياغة رياضية دقيقة.

ويتضح منهج ابن الهيثم في البحث إجمالاً من مقدمة كتابه (**المناظر**)؛ فقد بين فيه بإيجاز الطريقة التي هداه تفكيره إلى أنها الطريقة المثلى في البحث، والتي اتبعها في بحوثه، يقول ابن الهيثم: ".. ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الأبصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء"4.

فقد أخذ ابن الهيثم في بحوثه بالاستقراء والقياس، وعُنِيَ في البعض منها بالتمثيل، وهي عناصر البحوث العلمية العصرية، وابن الهيثم في هذا كله لم يسبق فرنسيس بيكون إلى طريقته الاستقرائية فحسب،

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 374/3.
2 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 380/3.
3 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر عند المسلمين ص145 بتصرف.
4 انظر: ابن الهيثم: المناظر ص62.

بل سما عليه سموًا كبيرًا، وكان أوسع منه أفقًا وأعمق تفكيرًا، وإن لم يُعنَ كما عُنِـيَ بيكـون بالتفلسـف النظري، فهذا المنهج يتسم بالحيوية والتكامل؛ إذ يجد فيه رجل العلم ما يرتاح له من أساليب وطرق تسهل له عمله، ويجد فيه الفيلسوف صاحب النظر المجرد ما يثلج صدره ويقيه جمحات عقله[1].

يقول أحمد أمين: "وأهم ما امتاز به (ابن الهيثم) معرفة نظريات الرياضة، ومن أهم مميزاته تطبيـق علمه على العمل"[2].

وفوق ذلك فقد كان ابن الهيثم يتحلى بروح علمية سامقة؛ إذ قرر أن الحقائق العلمية غير ثابتـة، وأنها ليست غايات ينتهي إليها العلم، بل كثيرًا ما يعتريها التبديل والتغيير، وهو يؤمل ويرجو رجاء العـالم المتواضع الوصول إلى الحقيقة فيقول: ".. ولعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي يـثلج الصـدر ونصـل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها إليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخـلاف وتنحسم بها مواد الشبهات"[3]!!

وهكذا يتضح أن منهج ابن الهيثم في العلم يلتقي مع المنهج العلمي الحديث وأربى عليه باعتبار سبقه الزمني.

تقول زيجريد هونكه: "والواقع أن روجر بيكون، أو باكوفون فارولام، أو ليوناردو دا فنشـي، أو جاليليو، ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي؛ إنما السابقون في هذا المضمار كانوا من العرب، والـذي حققه ابن الهيثم لم يكن إلا علم الطبيعة الحديث، بفضل التأمل النظري والتجربة الدقيقة"[4].

وعلى هذا المنهج سار ابن الهيثم في كل مؤلفاته وتصانيفه، وقد كان غزير التأليف متدفق الإنتـاج في شتى أنواع المعرفة، فطرق الفلسفة والمنطق والطب والفلك والبصريات والرياضيات، مسـتحدثًا أنماطًـا جديدة من الفكر العلمي الأصيل، وقد بلغ عدد مؤلفاته ما يربو على مائتي مؤلف (237 مخطوطة ورسـالة في مختلف فروع العلم والمعرفة).

وفي البصريات وحدها ألَّفَ ابن الهيثم ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعًا، ما بين كتاب ورسالة ومقالة، غير أن أكثر هذه الكتب قد فُقد فيما فقد من تراثنا العلمي، وما بقي منها فقد ضـمته مكتبـات إستانبول ولندن وغيرهما، وقد سلم من الضياع كتابه العظيم "المناظر" الذي احتوى على نظريات مبتكرة في علم الضوء، وظل المرجع الرئيسي لهذا العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينية[5].

---

1 عمر فاروق الطباع، عبد المنعم الهاشمي: ابن الهثم مؤسس علم الضوء الحديث ص107،108.
2 أحمد أمين: ظهر الإسلام 1/
3 انظر: ابن الهيثم: المناظر ص62.
4 زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص148،149.
5 الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص123.

ولا يعرف العالم من مؤلفات ابن الهيثم حاليا سوى خمسين كتابا لم يبق منها في القاهرة سوى ثلاثة فقط، حيث تسرب العديد من كتبه الأخرى إلى أوروبا أثناء الحملة الفرنسية على مصر وأثناء الحروب الصليبية.

وإلى جانب البصريات فقد كانت له مساهماته في الهندسة، وله فيها ثمانية وخمسون مؤلفًا، تضم آراءه وبراهينه المبتكرة لمسائل تواترت عن إقليدس وأرشميدس بدون برهان، أو في حاجة إلى شرح وإثبات، ويوجد في مكتبات العالم في القاهرة ولندن وباريس وإستانبول أكثر من واحد وعشرين مخطوطًا لابن الهيثم في هذا التخصص، وفي الحساب والجبر والمقابلة ألّف ما لا يقل عن عشرة كتب، لا يوجد منها سوى مخطوطات قليلة في مكتبة عاطف بتركيا منها: حساب المعاملات، واستخراج مسألة عددية.

وفي الفلك أبدع ابن الهيثم وأسهم فيه بفاعلية حتى أُطلق عليه "بطليموس الثاني"، ولم يصلنا من تراث ابن الهيثم في الفلكيات إلا نحو سبع عشرة مقالة من أربعة وعشرين تأليفا، تحدث فيها عن أبعاد الأجرام السماوية وأحجامها وكيفية رؤيتها وغير ذلك[1].

كما أن له في الطب كتابان: أحدهما في "تقويم الصناعة الطبية" ضمّنه خلاصة ثلاثين كتابًا قرأها لجالينوس، والآخر "مقالة في الرد على أبي الفرج عبد الله بن الطيب" لإبطال رأيه الذي يخالف فيه رأي جالينوس، وله أيضًا رسالة في تشريح العين وكيفية الإبصار[2].

ابن الهيثم.. وعلم الضوء الحديث

كان لاكتشافات ابن الهيثم تأثير كبير على التراث الفكري الإنساني، أما ما يهمنا في تخصصه العلمي فهو كتابه (المناظر)؛ إذ كان ثورة في عالم البصريات، فابن الهيثم لم يتبن نظريات بطليموس ليشرحها ويجري عليها بعض التعديل، بل إنه رفض عددًا من نظرياته في علم الضوء، بعدما توصل إلى نظريات جديدة غدت نواة علم البصريات الحديث.

فقد كان بطليموس – كما ذكرنا – يزعم أن الرؤية تتم بواسطة أشعَّة تنبعث من العين إلى الجسم المرئي، وقد تبنى العلماء اللاحقون هذه النظرية، ولما جاء ابن الهيثم نسف هذه النظرية في كتابه "المناظر"، وبين أن الرؤية تتم بواسطة الأشعة التي تنبعث من الجسم المرئي باتجاه عين المبصر، وبعد سلسلة من الاختبارات أجراها ابن الهيثم بيّن أن الشعاع الضوئي ينتشر في خط مستقيم ضمن وسط متجانس.

وقد أثبت ذلك بقوله في كتاب المناظر: "إمّا أن يكون (أي الشعاع) جسمًا أو لا، فإن كان جسمًا فنحن إذا نظرنا إلى السماء ورأينا الكواكب فقد خرج من البصر جسم ملأ ما بين السماء والأرض

1 رحاب العكاوي: الحسن بن الهيثم ص72.

2 الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص318.

و لم ينقص من البصر شيء، وهذا محال في غاية الاستحالة وفي غاية الشناعة، وإن لم يكن جسمًا فهو لا يحس هو نفسه بالبصر، فالإحساس ليس إلا للأجسام ذات الحياة.." 1.

ثم بعد مناقشة مثل هذه الآراء وغيرها يدلي برأيه (في الفصل السادس من المقالة الأولى) فيقول: "فلنحرِّر الآن ما استقرَّ من جميع ما ذكرناه فنقول: إن البصر يُحِسُّ بالضوء واللون اللذين في سطح المبصَر من الصورة التي تمتد من الضوء واللون اللذين في سطح المبصَر في الجسم المشِفّ المتوسط بين البصر والمبصَر، وليس البصر شيئًا من صور المبصَرات إلا من سموت الخطوط المستقيمة التي تتوهم ممتدة بين المبصَر ومركز البصر فقط، وإذا قد تحرَّر ذلك وتبين مع هذه الحال أن هذا المعنى ممكن وغير ممتنع فإنا نحرر الآن الدعوى.."2.

كذلك برهن ابن الهيثم رياضيًا وهندسيًا علي كيفية النظر بالعينين معًا إلى الأشياء في آنٍ واحد دون أن يحدث ازدواج في الرؤية برؤية الشيء شيئين، وعلَّل ابن الهيثم ذلك بأن صورتي الشيء المرئي تتطابقان علي شبكية العينين، وقد وضع ابن الهيثم بهذه البرهنة وذلك التعليل الأساس الأول لما يعرف الآن باسم الاستريسكوب.

وكان ابن الهيثم أول من درس العين دراسة علمية، وعرف أجزاءها وتشريحها ورسمها، وأول من أطلق علي أجزاء العين أسماء أخذها الغرب بنطقها أو ترجمها إلى لغاته (انظر شكل رقم 3)، ومن هذه الأسماء : القرنية (**Cornea**) ، والشبكية (**Retina**)، والسائل الزجاجي **Vitrous Humour**)، والسائل المائي **(Aqueous Humour)** .

ومن أهم إنجازاته كذلك في هذا المجال – كما يتضح من كتابه"المناظر" – ما يلي:

- أنه أول من أجرى تجارب بواسطة آلة الثقب أو البيت المظلم أو الخزانة المظلمة واكتشف منها أن صورة الشيء تظهر مقلوبة داخل هذه الخزانة، فمهد بهذا الطريق إلى ابتكار آلة التصوير، وبهذه الفكرة وتلك التجارب سبق ابن الهيثم العالمين الإيطاليين "ليوناردو دوفنشى" و"دلا بورتا" بخمسة قرون3.

- وضع ابن الهيثم ولأول مرة قوانين الانعكاس والانعطاف في علم الضوء، وعلَّل لانكسار الضوء في مساره، وهو الانكسار الذي يحدث عن طريق وسائط كالماء والزجاج والهواء، فسبق ابن الهيثم بما قاله العالم الإنجليزي نيوتن4.

---

1 انظر: ابن الهيثم: المناظر ص133.

2 انظر: ابن الهيثم: المناظر ص119.

3 جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص304.

4 جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص303.

- قام بتعريف الضوء بصورة قريبة مما نعرفه اليوم، وذلك بأنه جسم مادي لطيف يتألف من أشعة لها أطوال وعروض، وناقش خصائصه، وقام بتعريف الانعكاس، وحدد بصورة قاطعة أن زاوية السقوط تساوي زاوية انعكاس الضوء في المرايا[1].

- كان أول من قال بأن للضوء سرعة محددة يمكن قياسها[2].

- حدَّدَ اتجاه انكسار الضوء عند انتقاله من وسط إلى وسط أقل أو أكثر كثافة من الأول، فيكون الانكسار (الانعطاف في لفظه) مبتعدًا أو مقتربًا من العمود المقام على المستوى الفاصل بين الوسطين[3].

- وكان أحد أبرز إنجازاته في هذا الكتاب تجربة الصندوق الأسود، وتعتبر الخطوة الأولى في اختراع الكاميرا، وكما تقول الموسوعة العلمية "سارتون": فابن الهيثم يعتبر أول مخترع للكاميرات، وهي ما يُسمَّى عمليًا:(Camera obscura)[4].

- عرض لصور الانعكاس من على السطوح المختلفة، وهو ما عُرف باسم مسألة ابن الهيثم، وفيها تعامل ابن الهيثم مع معادلة من الدرجة الرابعة، وذلك لتحديد مكان نقطة الانعكاس لكافة أشكال الأسطح[5].

ومن يطَّلع على كتاب المناظر والموضوعات التي تتعلق بالضوء وما إليه، يخرج بأن ابن الهيثم قد طبع علم الضوء بطابع جديد لم يسبق إليه، وقد ألف هذا الكتاب عام 411هـ/ 1021م، وفيه استثمر عبقريته الرياضية، وخبرته الطبية، وتجاربه العلمية، فتوصل فيه إلى نتائج وضعته على قمة عالية في المجال العلمي، وصار بها أحد المؤسسين لعلوم غيّرت من نظرة العلماء لأمور كثيرة في هذا المجال[6].

وخلاصة القول أنَّ ما أتى به ابن الهيثم قبل أكثر من ألف عام، شيء كثير يستحق أن ينحني العلماء أمامه إجلالاً واحترامًا؛ فهو بحق أكبر فيزيائي مسلم، وكتابه في البصريات تضمن أول وصف صحيح للعين بأخلاطها المائية وجسمها البللوري وقرنيتها وشبكيتها وغرفتها المظلمة.

كما يتضح لنا أن ابن الهيثم جعل علم الضوء يتخذ صبغة جديدة، وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، حتى أصبح أثره في علم الضوء يشبه تأثير نيوتن العام في علم الميكانيكا، فكانت المعلومات في علم

1 عمر فاروق الطباع، عبد المنعم الهاشمي: ابن الهيثم مؤسس علم الضوء الحديث ص91.
2 رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص117.
3 رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص100.
4 انظر: جورج سارتون: مقدمة لتاريخ العلم 721/1.
5 رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص118.
6 رحاب العكاوي: الحسن بن الهيثم ص84 وما بعدها.

الضوء قبل ابن الهيثم متفرقة لا يربطها رابط، فأعاد البحث فيها من جديد، واتجه في بحثه وجهة لم يسبقه إليها أحد من قبله، فأصلح الأخطاء وأتم النقص، وابتكر المستحدث من البحوث، وأضاف الجديد من الكشوف، واستطاع أن يؤلف من ذلك كله وحدة مترابطة الأجزاء، وأقام الأساس الذي انبنى عليه صرح علم الضوء.

يقول الدكتور محمد يونس الحملاوي: "لقد حفر ابن الهيثم مكانه في سجل تقدم البشرية بحروفٍ من نور حين درس واستوعب ونقد وفنَّد المسلمات التي عاشت عند رواد علم المناظر من أمثال إقليدس وبطليموس وغيرهما.. لقد أضاف الكثير لعلم الضوء حين قال بوجود سرعة للضوء، وحدد أن هذه السرعة متناهية، ولكنها كبيرة جدًا لدرجة تبدو في بعض الأحيان لا متناهية، وبرهن على ذلك معتمدًا على الأجهزة التي ابتكرها. لقد اخترع ابن الهيثم وصنع بيديه العديد من الأجهزة الفلكية والطبيعية في مجال تجاربه، وبهذا يكون ابن الهيثم قد سبق كُلاً من ديكارت ونيوتن، كما سبق ابن الهيثم أينشتاين حينما بيَّن أن سرعة الضوء محدودة، ورغم هذا يتعلم طلابنا تلكم الحقائق عن أي طريق وعن كل طريق إلا عن أصله العربي الأصيل، وعن كل العلماء إلا عن علماء أمتهم!!".

ثم.. وبعد رحلة علمية حافلة بالإنجازات التي أفادت البشرية، وساعدت على قيام النهضة الأوربية الحديثة.. وبعد تأثير دام أثره إلى اليوم.. وفي القاهرة، وفي سنة 430 هـ/1039م.. رحل ابن الهيثم – ~ – عن دنيا الناس والطبيعة، وترك أعماله القيمة تنبئ عنه، وتستمد منها الحضارة الإنسانية النور والمعرفة[1].

والحقيقة أن ابن الهيثم لم يكن وحده في هذه الحلبة، فقد أتى من بعده علماء مسلمون أفذاذ اقتفوا أثره وساروا على دربه، بل وقدموه للعالم بعد أن لم يكن قد لمع نجمه!!

علم الضوء بعد ابن الهيثم

كان **البيروني** (362 – 441هـ) ثالث ثلاثة – بعد ابن سينا وابن الهيثم – ازدهرت بهم الحضارة العربية الإسلامية في الفترة من منتصف القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ويذهب بعض مؤرخي العلوم مثل الألماني إدوارد سخاو (ت 1348هـ،1930م) إلى أنَّ البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ[2].

ومثل ابن الهيثم وغيرهم الكثير من العلماء المسلمين الذين اتصفوا بأنهم موسوعيون، فإن البيروني يكاد يكون قد ألَّف في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره؛ فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة[3]، وفي مجال الطبيعيات اهتم بالخواص

---

1 الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص122.

2 المجلد التذكاري للبيروني ص282، طبع بكلكتا الهند 1951.

3 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص114،115.

الفيزيائية لكثير من المواد، وتناول في كتاباته ظاهرة تأثير الحرارة في المعادن، وضغط السوائل وتوازنها، وتفسير بعض الظواهر المتعلقة بسريان الموائع، وظاهرة المد والجزر وغيرها، وتناولت أبحاثه أيضًا علم ميكانيكا الموانع والهيدروستاتيكا، ولجأ في بحوثه إلى التجربة وجعلها محورًا لاستنتاجاته.

وفيما يختص **بسريان الضوء** فقد فطن البيروني إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت[1]، واتفق مع ابن الهيثم وابن سينا في قولهما بأن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس[2]، كما يقرِّر أن القمر جسم معتم لا يضيء بذاته وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس عليه، وكان البيروني يشرح كل ذلك بوضوح تام، ودقة متناهية في تعبيرات سهلة لا تعقيد فيها ولا التواء.

أما الرجل الثاني في موضوعنا هذا فهو **كمال الدين أبو الحسن الفارسي**، وهو رياضي وعالم فيزياء، ولد بمدينة شيراز في بيت اشتهر بالعلم، وتلقى مبادئ علم الطب عن أبيه، وتتلمذ على يد العالم قطب الدين الشيرازي أشهر علماء المسلمين في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وصار كمال الدين الفارسي يسترشد بقطب الدين الشيرازي في دراسته، ويعرض عليه ما يواجهه من مشاكل علمية، واتصل بالعالم نصير الدين الطوسي الفلكي الرياضي المشهور.

وقد عُني كمال الدين الفارسي بالرياضة، وبدراسة علم الضوء، وكان يُسمى في ذلك العصر بـ "علم المناظر"، وانصرفت عنايته بصفة خاصة إلى ما يتعلق بكيفية إدراك صور المبصَرات بالانعطاف، ولم يجد في كتاب إقليدس في المناظر، ولا في كتب الفلاسفة بغيته في موضوع الانعطاف، فذهب إلى أستاذه نصير الدين الطوسي يسأله عن رأيه في هذا الموضوع[3].

أرشد نصير الدين الطوسي تلميذه كمال الدين الفارسي إلى كتاب "المناظر" للعالم ابن الهيثم وهو في مجلدين كان قد رآه بخزائن الكتب بفارس، وأعطاه نسخة من هذا الكتاب بخط ابن الهيثم نفسه، فاهتم به ودرسه جيدًا، وكان كمال الدين الفارسي قد وجد قبل حصوله على هذا الكتاب أقوالاً في الانعطاف تدل على جهل بهذه الظاهرة، وكانت هذه الأقوال ما زالت تتردد في بعض كتب الحكمة، وكان قد مضى على بحوث ابن الهيثم وبحوثه في الضوء والانعطاف ما يقرب من ثلاثمائة عام، ولم تكن بحوث ابن الهيثم قد عَمَّ تداولها في الأوساط العلمية بالعالم الإسلامي في القرون الثلاثة التالية له بسبب ظروف الفتن الداخلية ومحنة التتار والحروب الصليبية.

وكان من أهم إنجازات كمال الدين الفارسي دراسته لكيفية انعكاس الضوء والإبصار في كرة مشفة واحدة، وفي كرتين مشفتين، وقد أوضح كمال الدين الفارسي بعض مظاهر الخداع البصري، حين

---

1 حسن نافعة، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام 193/2.

2 قدري طوفان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص163.

3 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين 140،141.

صبغ وجه حجر الطاحون بعدة ألوان وأداره بسرعة فوجد أنه لا يظهر إلا لون واحد لامتـــزاج الألـــوان، وبذلك يكون قد سبق أسطوانة نيوتن (1642 -1727م) بعدة قرون.

وقد طوَّر كمال الدين الفارسي نظرية قوس قزح، ووضع لها الشكل النهائي في التـــراث العـــربي العلمي ليعلِّل فيها أمرين، الأول: الهيئة التي يظهر عليها قوس قزح في السماء كقوس أو كقوسين متحـــدي المركز، والثاني: الألوان وترتيبها في كل من القوسين، وقد أضاف الفارسي بنظريته إضافة علمية جديدة لعلم الضوء لم يسبقه إليها ابن الهيثم، وسبق بنظريته هذه بحوث ديكارت ونيوتن عن قوس قزح، واستطاع كمال الدين التوصل إلى تفسير جديد لظاهرة قوسي قزح مداها أن قوس قزح الأول ناتج عن انكسارين للضـــوء وانعكاس واحد، وأن القوس الثاني ناتج عن انكسارين وانعكاسين، وبرهن على تحديـــد انكســـار ضـــوء الشمس خلال قطرات المطر، وهو الانكسار الذي يحدث ظاهرة قوس قزح عن طريق تمرير شعاع من خلال كرة زجاجية.

وكمال الدين الفارسي هو أول مَن تكلم عن نظرية الضوء الموجية، وله اهتمامات ببعض الظواهر الفلكية مثل: الشفق، والسمت، ودائرة البروج.

ومن أهم مصنفات كمال الدين الفارسي: تنقيح المناظر لذوي الإبصار والبصائر، و الهالة وقـــوس قزح، ومقال: رسالة في أمر الشفق، وله في الرياضيات كتب: أساس القواعد في أصول الفوائد، وهو شرح لكتاب ابن الخوام البغدادي المسمى: الفوائد البهية في القواعد الحسابية، وله كتاب: تذكرة الأحباب في بيان المتحاب وهو في الأعداد المتحابة.

"المناظر".. وعلماء الغرب

ذكرنا سابقًا أن كمال الدين الفارسي هو الذي عُني ببحوث ابن الهيثم في البصـــريات ودرســـها دراسة وافية، وكان قد ألف في ذلك كتابه المعروف "تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر"، وعن طريـــق هذا الكتاب عرفت أوروبا الكثير عن ابن الهيثم وأعماله وجهوده في علم الضوء بعد أن لم تكن قد ذاعـــت بعد؛ حيث نشر هذا الكتاب مترجمًا في مدينة بال بسويسرا سنة (980هـــ/ 1572)، وإن كان قد سبق نشره قبل اختراع الطباعة من قبل "جيرار دي كريمونا" أشهر المترجمين في إسبانيا، الذي اهتم بإنشاء أضخم مجموعة فلكية سنة (676هـــ/ 1277م) عن العلماء العرب، وهذه الكتب استفادت منها إسبانيا والبرتغال في رحلاتهما البحرية في المحيط الأطلنطي بفضل الأزياج الفلكية (الجداول الفلكية) والمعلومات الرياضية التي خلفها العلماء العرب.

وعن طريق هذه الترجمات لأعمال ابن الهيثم تأثَّر روجر بيكون وجون بيكام وفيتلو في بحـــوثهم، فكتاب جون بيكام الموسوم بالمنظور ليس إلا اقتباسًا ناقصًا من كتاب ابن الهيثم في البصريات، وأما كتاب

فيتلو الذي ألفه سنة (669هـ/ 1270م) فمأخوذ في قسم كبير منه عن ابن الهيثم، ولا يتجاوز النتائج التي وصل إليها.

وكان كتاب "المناظر" معينًا للعديد من العلماء الحقيقيين وغيرهم، فقبل أكثر من خمسة قرون ترجم الإيطالي جيرادي كيرمونا هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية، وما زالت مكتبة الفاتيكان تحتفظ بنسخة من تلك الترجمة حتى الآن، وتلقف علماء الغرب كتاب "المناظر" ليستفيدوا منه في علوم الضوء والرياضيات، ولينسب البعض إلى أنفسهم بعض الآراء التي جاءت فيه.

ومن بين من نسب لنفسه بعض ما جاء في الكتاب في القرن السابع عشر الميلادي الألماني "كبلر"، كما أن عالم البصريات فيتيلو البولوني في كتابه "الذخيرة" نسب لنفسه الكثير مما قاله ابن الهيثم؛ مما حدا بالعالم دي لابورتا أن يقول: "لقد أخطأ فيتيلو فيما نقله عن الهازن (ابن الهيثم كما يطلق عليه الأوروبيون) وكان كالقرد المقلد، ولبث هذا الكتاب المنقول عن العربية مرجعا لأهل أوروبا في علم الضوء خلال القرون الوسطى"[1].

لقد سبق ابن الهيثم كلاً من فيتلو وكبلر في وضع أساس علم البصريات ورغم ذلك مازلنا نشير إلى كليهما على أنهما واضعا أساس علم البصريات في كتبنا!!

ومهما يكن من أمر، فقد حاز ابن الهيثم إعجاب كثير من المنصفين الغربيين، حتى وصفه جورج سارتون - وهو من كبار مؤرخي العلم - بقوله: "هو أعظم عالم فيزيائي مسلم، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا في البصريات في جميع العصور"[2].

ووصفه أرنولد في كتاب " تراث الإسلام" يقول عنه: "إن علم البصريات وصل إلى الأوج بظهور ابن الهيثم"[3].

وقد سحرت بحوث ابن الهيثم في الضوء "ماكس مايرهوف" وأثارت إعجابه إلى درجة جعلته يقول: "إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى لنا في البصريات"[4].

أما دائرة المعارف البريطانية فقد وصفته بأنه رائد علم البصريات بعد بطليموس.

---

1 مصطفى نظيف: الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية 3/1 نقلاً عن تعليق هيئة تحرير JOURNAK OF AMERICAN ORIENTAL SOCIETY VOL IV P. 1859.

2 انظر: جورج سارتون: مقدمة لتاريخ العلم 721/1.

3 أرنولد: تراث الإسلام.

4 قدري حافظ طوفان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص167.

وتقول زيغريد هونكه الألمانية: "كان الحسن بن الهيثم أحد أكثر معلمي العرب في بلاد الغرب أثرًا وتأثيرًا..".

وتقول أيضًا: "لقد كان تأثير هذا العربي (ابن الهيثم) النابغة على بلاد الغرب عظيم الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الأوروبية حتى أيامنا هذه، فعلى أساس كتاب المناظر لابن الهيثم نشأ كل ما يتعلق بالبصريات ابتداء من الإنكليزي (روجر بيكون) حتى الألماني (فيتلوا)، وأما ليوناردو دافنشي الإيطإلى مخترع آلة (التصوير الثقب) أو الآلة المعتمة ومخترع المضخة والمخرط وأول طائرة – ادعاء – فقد كان متأثرًا تأثيرًا مباشرًا بالعرب وأوحت إليه آثار ابن الهيثم أفكارًا كثيرة، وعندما قام (كبلر) في ألمانيا خلال القرن السادس عشر ببحث القوانين التي تمكن (جليليو) بالاستناد إليها من رؤية نجوم مجهولة من خلال منظار كبير كان ظل ابن الهيثم الكبير يجثم خلفه، وما تزال حتى أيامنا هذه المسألة الفيزيائية الرياضية الصعبة التي حلها ابن الهيثم بواسطة معادلة من الدرجة الرابعة مبرهنًا بهذا عن تضلعه البالغ في علم الجبر، نقول: ما تزال المسألة القائمة على حسب موقع نقطة التقاء الصورة التي تعكسها المرآة المحرقة بالدوائر على مسافة منها ما تزال تسمى "بالمسألة الهيثمية" نسبة إلى ابن الهيثم نفسه"[1].

ويقول د. تشالرز جروسي (متخصص في فسيولوجيا الأعصاب والجوانب العصبية والنفسية للإبصار) بعد دراسة قيمة في كتاب المناظر: "والخلاصة الأساسية التي يمكننا الخروج بها هي أن هذا الرجل المرموق يستحق منا دراسة أعمق، فمع أن العمل الفريد الذي قام به ابن الهيثم في دمج الفيزياء والرياضيات ووظائف الأعضاء في نظرية جديدة عن الإبصار قد احتل مكانة تاريخية، إلا أن نظرياته عن سيكولوجية الإدراك وآثارها ستظل مجالاً خصبًا ومهمًا للبحث والدراسة"[2].

وأخيرا كانت هذه الحقيقة.. يقول العالم الرياضي الفرنسي "شارل أبرنون "(1880م): "إن بحوث ابن الهيثم في ميدان المناظر تُعَدُّ أصل معارفنا في علم الضوء"[3].

---

1 زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص150.

2 تشالرز جروسي: أراء ابن الهيثم في العين والمخ واستيعابها، موقع ويكيبيديا الرابط:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D%8B%7D%8A8_%D%8A%7D%84%9D%8B%9D8%9A%D%88%9D.86%9.

3 موقع مهارات النجاح الرابط

http://www.sst5.com/inde.php?lang=0&CODE=02&id=.1455.

الفصل السادس: آراء المستشرقين في الحضارة العلمية الإسلامية

1- شهادة المؤرخ الإنجليزي ويلز

"كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط، وإن الدين الحق الذي وجدته يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام.. ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات ومناهج علمية، وقوانين اجتماعية، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ، وإذا طُلبَ مني أن أحدّد معنى الإسلام فإني أحدده بهذه العبارة (الإسلام هو المدنية)"[1].

2- شهادة العلامة بريفولت

"ما من ناحية من نواحي الازدهار الأوربي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثِّرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، وإنَّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدَّموه لنا من كشوف مدهشة ونظريات مبتكرة، بل إنه مدين بوجوده ذاته... و لم يكن بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية، وهو لم يَملّ قطّ من التصريح بأن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق[2].. ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية انبعاثًا طبيعيًا من القرآن، وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوّة العالمية"[3].

3- شهادة المفكر ليوبولد فايس

"لسنا نبالغ إذ قلنا: إنَّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يُدشَّن في مدن أوربا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة"[4].

"نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، وحَسْبُ المسلمين أنهم كانوا مثالاً للكمال البشري، بينما كنّا مثالاً للهمجية"[5].

4- شهادة الكاتب الفرنسي أناتول فرانس

"أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قُطِعَت يدُه و لم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي".

---

1 عبد المنعم النمر: الإسلام والمبادئ المستوردة ص84.

2 أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج 710/4 نقلاً عن رويلت بريفولت: بناء الإنسانية.

3 أنور الجندي: أخطر ما تواصى به المسلمون عبر الأجيال ص16.

4 محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص40.

5 عبد المنعم النمر: الإسلام والمبادئ المستوردة ص84.

"حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة، وعمق ذلك التقدم، أمرًا يدعو إلى الذهول حقًا، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضًا أن النصرانية احتاجت إلى نحوٍ من ألفٍ وخمسمائة سنة لكي تُنشِئ ما يمكن أن يُدعَى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُولِّ كلٌّ من العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثًا على العلم، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية"[1].

5- شهادة المسيو سيديو

"لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوربا من تحجُّر العقل، وشلِّ التفكير، وجدب الرُّوح، ومحاربة العلم والعلماء، ويذكر التاريخ أن اثنين وثلاثين ألف عالم قد أُحرِقوا أحياءً! ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر، بل كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك العصور المظلمة، و لم يحدث أن انفرد دينٌ بالسلطة، ومنح مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام"[2].

"لقد دِيسَت بالأقدام تلك المدنيةُ العظيمة في الأندلس! ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن طباع شريفة، نعم من رجال الإسلام. إن المدنية الإسلامية لم تتنكر يومًا للحياة"[3].

---

1 روم لاندو: الإسلام والعرب ص9،246.

2 حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص83.

3 محمد الغزالي: ظلام من الغرب ص140.

6- شهادة العلاّمة جورج سارتون

"المسلمون عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالةً وعمقًا، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراءٍ لغة العلم للجنس البشري"[1].

7- شهادة الدكتورة لويجي رينالدي

"لما شعرنا بالحاجة إلى دفع الجهل الذي كان يثقل كاهلنا، تقدمنا إلى العرب ومددنا إليهم أيدينا لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم"[2].

8- شهادة البروفسور غريسيب، مدير جامعة برلين

"أيها المسلمون ما دام كتابكم المقدس عنوان نهضتكم موجودًا بينكم، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا المستقبل"[3].

9- شهادة المستشرق درايبر

"ينبغي أن أنعي على الطريقة التي تحايل بها الأدب الأوربي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا! إن الجور المبنّي على الحقد الديني، والغرور الوطني لا يمكن أن يستمر إلى الأبد"[4].

10- شهادة المستشرق الفرنسي جاك رسلر

في غضون خمسمائة سنة ما بين 700 و 1200 ساد الإسلام على العالم بقوة حضارته وعلمه .. فكان المقاتل العربي في القرن الحادي عشر مزودًا بالقوس والقذافة قبل الغربيين بمائتي عام وكانت القذافة تستعمل لغرضين فهي لم تكن تسمح فقط بإطلاق عدة أسهم فحسب، بل كانت قادرة على قذفها لمسافة بعيدة ، ومنها ما كان يطلق من على منصات إطلاق ثقيلة . ثم كان العرب أول من صنع البارود بعد ذلك بنصف قرن"[5].

11- شهادة رينان

1 حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص8، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص110،111.

2 أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج 141/7.

3 حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص9.

4 عماد الدين خليل: تشكيل العقل المسلم ص94.

5 جاك رسلر: كتاب الحضارة العربية.

"ما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي الوَلود إلى إبداع المدنية من جديـــد؟ إن فتـــرات الازدهـــار والانحدار مرَّت على جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة"[1].

12- شهادة غوستاف لوبون

"إنَّ حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوربية الوحشية في عالم الإنسانية، فلقـــد كـــان العرب أساتذتنا... وإن جامعات الغرب لم تعرف لها موردًا علميًا سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدّنوا أوربا مادةً وعقلاً وأخلاقًا، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه... إن أوربا مَدينة للعرب بحضارتها... وإن العرب هم أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين... فهم الذين علَّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل: حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان... ولقـــد كانـــت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيرًا من أخلاق أمم الأرض قاطبةً..."[2].

13- شهادة جلين ليونارد

يجب أن تكون حالة أوروبا مع الاسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة، وأن تكون حالـــة شكرٍ أبديٍّ بدلاً من نكران الجميل الممقوت والازدراء المهين، فإنَّ أوروبا لم تعترف إلى يومنا هذا بإخلاص طوية وقلب سليم، بالدَّيْن العظيم المدينة به للتربية الإسلامية والمدنية العربية، فقد اعترفت به بفتور وعـــدم اكتراث عندما كان أهلها غارقين في بحار الهمجية والجهل في العصور المظلمة فقط. ولقد وصـــلت المدنيـــة الاسلامية عند العرب إلى أعلى مستوى من عظمة العمران والعلم، فأحيت المجتمع الأوروبي وحفظته مـــن الانحطاط، ولم نعترف – ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنيـــة – بأنـــه لـــولا التهـــذيب الاسلامي، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل المدنية، وحُسن نظام مدارسهم، لكانت أوروبا إلى اليوم غارقة في ظلمات الجهل[3].

14- شهادة كارادي فو

إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كـــان العـــالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق (للتحرُّر) من أحابيل البربرية وأغلالها، ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدًا، كانت مراكش والشرق الأوسط محطَّ أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه، وفي هذه الفترة شرع أبناء أوروبـــا يترجمون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق[4].

---

1 أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج 173/8.

2 انظر: غوستاف لوبون: حضارة العرب ص26،276،430،566.

3 محمد كرد على: الإسلام والحضارة العربية القاهرة 1968 ص82.

4 كارداي فو: الفلك والرياضيات بحث منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف "أرنولد" ص564.

15- شهادة زيغريد هونكه

"إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من اللا شيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني. وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لَفَريدة من نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقارَن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأملين: كيف حدث هذا؟ إنه الإسلام الذي جعل من القبائل المتفكِّكة شعبًا عظيمًا، آخت بينه العقيدة، وبهذا الروح القوي الفتي شقَّ العربُ طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة وضع أساسها الرسول بنفسه!! أو ليس في هذا الإيمان تفسير لذلك البعث الجديد؟! والواقع أن روجر بيكون أو جاليليو أو دافنشي ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي .. إنما السبّاقون في هذا المضمار كانوا من العرب الذين لجؤوا في بحثهم إلى العقل والملاحظة والتحقيق والبحث المستقيم، لقد قدَّم المسلمون أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهَّدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم. وإنَّ كل مستشفى، وكل مركز علمي في أيامنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نُصب تذكاري للعبقرية العربية.

وقد بقي الطب الغربي قرونًا عديدةً نسخة ممسوخة عن الطب العربي، وعلى الرغم من إحراق كتب ابن سينا في مدينة بازل بحركة مسيحية عدائية، فإن كتب التراث العربي لم تختفِ من رفوف المكتبات وجيوب الأطباء، بل ظلَّت محفوظة يسرق منها السارقون ما أحبُّوا أن يسرقوا"[1].

16- شهادة بلسنر

"لا يكاد يوجد شيء من جهود المسلمين في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بآخر"

" لم تكن علوم المسلمين بطبيعة الحال العامل الوحيد الذي أدى إلى إحياء العلم في الغرب، فتقاليد العلوم القديمة لم تتلاش تمامًا وسط الفوضى التي عمت خلال عصر غزوات البرابرة لأوربا، ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوربي قوة دفع جديدة، وأهم من ذلك أن هذا العلم الغربي قد اكتسب مادة أدَّت إلى إثرائه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمي المستقل للمسلمين أنفسهم.."[2].

17- شهادة يبدي تومبسون

"إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربي أوربا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلَّفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك

---

1 زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص 148،269،315،354.

2 بلسنر: العلوم الطبيعية والطب دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام إشراف "شاخت" و"بوزورث" ص79،81.

ويقول في مكان آخر: إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية"[1].

18- شهادة أوسلر

إن ابن سينا مكّن علماء الغرب من الشروع في الثورة العلمية، التي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر"[2].

19- شهادة جوان فرينيه

"وإذا نحن تحرَّينا الدقة نجد أن أصول التطور العلمي للرياضيات عند المسلمين تبدأ مع القرآن الكريم، وذلك فيما ورد في القرآن من الأحكام المعقَّدة في تقسيم الميراث، ويُعَدُّ الخوارزمي أول رياضي مسلم، ونحن مدينون له بمحاولة وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية والتقويم، كما ندين له باللفظ الأسباني "غوارزمي" الذي يعني الترقيم (أي الأعداد ومنازلها والصفر)، وكان الجبر هو الميدان الثاني الذي عمل فيه الخوارزمي، وهو فرع من الرياضيات لم يكن حتى ذلك الوقت موضوعًا لأية دراسة منهجية جادة"[3].

20- شهادة براند تراند جون

"إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنيةً أثناء القرن العاشر كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراحٍ أو مهندس أو معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة"[4].

21- شهادة دويبر

"ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة 813م صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض؛ فجمع الخليفة إليها كتبًا لا تحصى، وقرَّب إليه العلماء، وبالَغ في الحفاوة بهم. وقد كانت جامعات المسلمين

1 Yhompsonj\J\W\The Medioval Library N.Y. Hafner Piblishing Company 1967 P,263.

2 شوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية ص123.

3 جوان فرينيه: الرياضيات والفلك والبصريات دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام إشراف "شاخت" و"بوزورث" القسم الثالث ص168.

4 جون براند تراند: إسبانيا والبرتغال دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف "أرنولد" ص27.

مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يَغْـــدون على بلاد المسلمين ليُعالجَوا فيها"[1].

1 دوبير: المنازعة بين العلم.

22- شهادة نيكلسون

"وما المكتَشَفات اليوم لَتُحسَب شيئًا مذكورًا إزاء ما نحن مدينون به للرُّوّاد العرب الذين كانوا مشعلاً وضّاءً في القرون الوسطى ولا سيما في أوربا"[1].

23- شهادة وايدمان

"إن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدًا، وطبَّقوها على حالات كثيرة ومختلفة، ثم أنشأوا من ذلك نظريات جديدة وبحوث مبتكرة، فهم بذلك قد أسدوا إلى العلم خدماتٍ لا تقلُّ عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن، وفراداي، ورُنتجن"[2].

24- شهادة كمستون

"إنَّه لو لم يكن للعرب غير هذا الفضل في الإنقاذ، لكفاهم خدمة وفخرًا. لقد رفع العرب شأن الطب ولهم الفضل في جعل الجراحة قسمًا منفصلا عنه، وفي إنشاء المستشفيات والتفنن فيها، وفي الترخيص الشرعي لممارسة الطب"[3].

25- الباحث الألماني الدكتور بير بورمان

"إن إنجازات المسلمين في العالم واضحة جليَّة في كل شؤون العلوم والثقافة، بل إن إنجازاتهم في مجال الطب لا يستطيع أحد إنكارها، وهذا هو ما دفعني إلى تأليف كتاب بعنوان (الطب الإسلامي في القرون الوسطى)". وقال: "دفعني لتأليف هذا الكتاب أنني كمسيحي ألماني أدين بالفضل في جزء من ثقافتي للثقافة الإسلامية، وهذا ما أحاول توضيحه وتأكيده رغم محاولات البعض طمس الدور المهم الذي لعبه المسلمون في أوروبا والعالم، ولقد عكفت أنا وزميلتي الباحثة "**إيميلي سافاج سميث**" علي رصد إنجازات المسلمين في مجال الطب في القرون الوسطى"، وأضاف: "إن المستشفيات الإسلامية كانت عبارة عن أوقاف إسلامية، وكانت تقدم الخدمة الطبية لكل الناس بصرف النظر عن ديانتهم، فهناك اليهود والمسيحيون والصابئة والزرادشتيون وغيرهم، فكان المستشفى الإسلامي يعالج الجميع، وهذا يعني تسامحًا إسلاميًا كبيرًا مع غير المسلمين".. وعن أهم الأمراض التي أسهم فيها المسلمون بعلم جديد، قال: "الكثير من الأمراض، إلا أن أخطرها هو مرض المالنخوليا"[4].

---

1 قدري طوفان: علماء العرب وما قدموه للحضارة ص6.

2 قدري طوفان: علماء العرب وما قدموه للحضارة ص10.

3 قدري طوفان: علماء العرب وما قدموه للحضارة ص12.

4 حوار له بجريد الأخبار المصرية بتاريخ 2007/4/13.

26- شهادة ي. هل

"من تراث العرب علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتَّماس، ولم يكن في استطاعة بيورباخ ورجيوناس وكوبرنيق أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون أساس من علوم العرب وما أسهموا به في ميدان الرياضيات؛ ذلك أن العرب أحبُّوا تدعيم نظرياهم بنماذج عملية، وساعدهم ذلك على وصول درجة الكمال في علم الجوادسيا (مقياس سطح الأرض) الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط، واستخدم العرب هذا العلم أيضًا في تصميم مجاري المياه"[1].

27- شهادة جوستاف إ. فون جرونيباوم

"كان الرازي يتناول الطب على صورة علمية حقًّا، حتى لقد كتب رسالة موضوعها "أن مهرة الأطباء أنفسهم لا يستطيعون شفاء جميع الأمراض"[2].

28- شهادة مايرهوف

"كان تفوق المسلمين العلمي والمادي في الشطر الأعظم من العصر الوسيط معتَرفًا به غير منكور إلى حدٍّ بعيد. ثم يتناقص ذلك التفوق قرب نهاية ذلك العصر بدخول الشرق في دور الركود الذهني والاضمحلال الاقتصادي، على حين تنهض أوروبا وتتماسك وقد نبهها إلى حد كبير اطِّراد إلمامها بالعلوم الإسلامية"[3].

29- تشرش

"يعود الفضل للعرب إذ أنهم كانوا أول من أوجد حوانيت الصيدلة لبيع الأقرباذينات، ويغلب على الظن أنه لولا العرب لما وصل الطب الأوربي إلى ما هو عليه الآن"[4].

30- شهادة تومبسون

"إنَّ انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثُّر شعوب غربي أوربا بالمعرفة العلمية العربية، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلَّفات المسلمين في حقل العلوم، ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك.. إنَّ ولادة العلم في الغرب، ربما كان أمجد قسم، وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية[5].

---

1 ي. هل: الحضارة العربية ص108، تعريب الدكتور إبراهيم العدوي.

2 جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام ص424، ترجمة عبد العزيز توفيق.

3 انظر تراث الإسلام ص353.

4 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص188.

5 Thompson the mediaeval n. y. hafner piblishing combany page263.

33- شهادة ماكس فانتيجو

"كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربي مدين بوجوده إلى الحضارة العربية الإسلامية، وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة، والذي أخذ به علماء أوربا والذي أخذ به علماء أوروبا، إنما كان نتاج اتصال العلماء الأوربيين بالعالم الإسلامي عن طريق دولة العرب المسلمين في الأندلس[1].

34- شهادة الزعيم الهندي "جواهر لال نهرو"

"إنهم – العرب – آباء العلم الحديث وإنَّ بغداد تفوقت على كل العواصم الأوروبية فيما عدا قرطبة عاصمة أسبانيا العربية "الأندلس"، وإنه كان لا بُدَّ من وجود ابن الهيثم والحسن والكِندي وابن سينا والخوارزمي والبيروني لكي يظهر عند الغرب "جاليليو، وكبلر، وكوبرنيق، ونيوتن"[2].

35- شهادة الأمير البريطاني تشارلز

"إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة"[3].

38- شهادة الموسوعة البريطانية

"والحق أن كثيرًا من أسماء الأدوية وكثيرًا من مركباتها المعروفة حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة المبنى العام للصيدلة الحديثة – فيما عدا التعديلات الكيماوية الحديثة بطبيعة الحال – قد بدأه العرب"[4].

39- شهادة دريبر

"كان الفلاح المسيحي الأوربي إذا أصابته حادثة، أو فاجأته الحمى، يسرع إلى ضريح أقرب قديس انتظارًا لحدوث معجزة تشفيه، وأما العربي الإسباني فكان يعتمد على تعليمات طبيبه، ومشرطه، وتضميد جراحه"[5].

40- شهادة الدكتور كمبل

---

1 ماكس فانتيجو: في كلمة له أمام مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية المعقود في جامعة برنستون في واشنطن عام 1953م انظر شوقي أبو خليل، هاني المبارك: دور الحضارة العربية والإسلامية في النهضة الأوربية ص125.

2 جواهر لال نهروا: لمحات من تاريخ العالم.

3 محاضرة "الإسلام والغرب" والتي ألقاها في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام 1993.

4 الموسوعة البريطانية 46/18 الطبعة الحادية عشر.

5 J. Draper: A History of the intellectual devekoment of Europe Vol 11/49.

"إن أوربا كانت من عصر شارلمان حتى تأسيس مدرسة (سالرنو) الطبية (العـــرب هـــم الـــذين أسسوها)، قد انحدرت إلى أدنى دركات الانحطاط، وإن شعوبها لم تكن لتقارن بالهمج الأسطوريين الـــذين عاشوا في أدنى حدود المدنية، وأنها كانت كلها حتى الحروب الصـــليبية (1096 - 1272م) باســـتثناء إسبانيا وإيطاليا (وكانتا تحت النفوذ العربي الإسلامي) في حالة همجية تامة"[1].

1 D. Campbell: ARABIAN Medicine Vol 1/107,108.

41- شهادة أندرو ديكسون وايت

"إن معاملة المجانين في العالم الإسلامي منذ عصر عمر وما بعده كانت أرحم بكثير من الوضع الذي ساد في طول العالم المسيحي وعرضه مدة ثمانيةَ عشرَ قرنًا من الزمان، كان المجانين يُعتَبَرون خلالها ممسوسين تقمصتهم الشياطين، ومن ثَمَّةَ تعرَّضوا لأقصى ضروب التنكيل والوحشية.

ويقول أيضًا: "إن الراهب جون هوارد لاحظ في القرن الثامن عشر ما لاحظه غيره من الرُّهبان والرَّحالة الأوربيين في ذلك العصر وقبل ذلك، أنَّ المسلمين قد وفَّروا كثيرًا من الوسائل الرحيمة للمجانين، لم يَرَ هؤلاء لها مثيلاً في أراضي أوربا المسيحية. والحق أن المسلمين هم الذين نبهوا إلى ضرورة بذل الجهود التي بدأت في أوربا ابتداء من القرن الثامن عشر لمعاملة المجانين معاملة رحيمة"[1].

42- شهادة سميث

"إن البيروني كان ألمع أهل زمانه في الرياضيات، وإن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرهم في العلوم"[2].

43- شهادة سنجر

"نستطيع أن نستبين بوضوح الحالة الراهنة في ذلك العصر بأن نستجمع الصورة الحقيقية من وثائق مختلفة، تدل على أن طالب العلم الأوربي، المشغوف بالعلم، المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة ذاك الذي كانت الدراسة في باريس أو بادوا أو أكسفورد لا ترضيه، إنما كان يذهب إلى طليطلة أو قرطبة"[3].

---

1 انظر: A. D. White: A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom Vol. 11/123.

2 قدري حفظ طوفان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص311، نقلاً عن سميث: تاريخ الرياضيات الجزء الأول.

3 Ch. Singer: Medieval Contribution to modern Civlization P.124.

44- شهادة جون هرمان راندال

"وسط هذا العالم الذي أخذت رقعته في الاتساع اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية التي وجدوها في مكاتب العرب وجامعاتهم الغنية وحين أخذ الغرب يستيقظ في مطلع القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الإسلامية بنتيجة فعل المتعصبين من المصلحين المسلمين من الخلافة الشرقية إلى إسبانيا، وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفه بمؤلفات أرسطو الكبيرة، ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئًا كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزًا كل العجز عنه وهو العلم الرياضي والآلي"[1].

1 جون هرمان راندال: تكوين العقل الحديث 331/1.

الباب الثاني: صناعة العلماء

قد يبدو غريبًا عنوان هذا الباب، وقد يبدو أشد غرابةً عند من يتواضع كثيرًا فيجعل همَّه وطموحه فقط أن يصبح طالب علم، أو - كما يقول بعضهم - "طُويلب علم"..!!

ولا شك أن مثل هذه الهمة هي همة قاصرة، وهي همة تعجز في أن تلحق - بالمرة - بركب العلماء.. وأولى بصاحبها وأجدر أن يقف مع نفسه وقفة أخرى، يجدد العزم، ويعقد العهد قبل أن تتفلت من يده الأيام، ويندم ولات حين مناص!

يقول المتنبي:

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ ... فلا تقْنعْ بما دُون النُّجومِ

فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

لذا لا يصلح لك إلا أن تكون عالمًا.. وليس فقط من طلاب العلم..

ولا شك أن ذلك يتطلب نوعًا خاصًا من الإعداد.. فيتطلب خطة بعينها، ويتطلب حياة خاصة، وأيضًا حالة نفسية معينة.. أو قل: يتطلب ذلك منهجًا في الحياة جديد، فتصبح لك طريقة تفكير خاصة، وطريقة ترتيب وقت يناسب هذه الحياة الخاصة، بل وطريقة نوم وأكل مختلفة عن بقية الناس.. إنها حياة إنسان يُربِّي ليُغيِّر لا ليتغير، ويؤثِّر لا ليتأثر.. إنها حياة مختلفة حقًا!!

ومثل هذه الحياة الجديدة.. نقف على أبعادها وأطوارها، من خلال هذا الباب في فصوله الأربعة.

الفصل الأول: مَنْزِلَةُ الْعُلَمَاءِ

تُثمَّن الأشياء وتُقدَّر بحسب قيمتها، ومن ثم تكون الأولويات في تحصيلها.. ولولا ذلك لاختلط الغث بالثمين والحابل بالنابل، وما عُرف طعمٌ للحياة..

وقد علمنا في الباب الأول قيمة العلم في الميزان الإسلامي، وعرفنا أهميته، وكيف أن حياة الناس لا تستقيم إلا به، وكيف كان صفةً لازمةً للأنبياء عليهم السلام..

وكان من رحمة الله Y أنه لم يرفع العلم بذهاب الأنبياء، وإنما جعل الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يورِّثُوا علمهم هذا قبل أن يموتوا إلى طائفة معينة من البشر، أوكل إليها مهمة تعليم الناس، والقيام بالدور الذي كان يقوم به الأنبياء في حياتهم.. ولكن دون وحيٍ ودونما عصمة..

وهذه الطائفة من البشر هي "**العلماء**"..

عن أبي الدرداء > أن رسول الله ρ قال: "**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إلى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**"[1].

ففي نهاية هذا الحديث وضح رسولنا الكريم ρ أن الأنبياء لم يتركوا خلفهم مالاً ولا مُلكًا، وإنما تركوا العلم، وهذه هي أعظم تركة، ومن أخذها فقد فاز حقًّا.. يقول الله تعإلي: (**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**[2]).

وفضلاً عن ذلك فالحديث يبين فضل العلم ومنزلة العلماء؛ فالملائكة تضع أجنحتها لمن يبدءون طريق العلم؛ تواضعًا وتعظيمًا وتكريمًا وتبجيلاً لهم.. وكفى بذلك شرفًا ومنزلة..!!

1 الترمذي: كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (2682) واللفظ له، وأبو داود (3641)، وابن ماجة (223)، وأحمد (21763)، والدارمي (342)، وابن حبان (88)، وقال الألباني: صحيح (6297) صحيح الجامع.

2 (البقرة: 269).

ويخص رسول الله ρ طائفة العلماء – وليس طلاب العلم – بمزية خاصة، وهي أنه يستغفر لهم من في السماوات ومن في الأرض، بل يصل الأمر إلى أن تستغفر له الحيوانات أيضًا، بل حتى تلك التي تسبح في جوف الماء..!!

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فقط، بل إنه ρ يُفضِّل ذلك العالِم ويرفع منزلته ومكانتـــه علـــى العابد لله Y!! وقد جعل المقارنة بينهما في ذلك تمامًا كما يكون القمر ليلة البدر – كما ورد ذلك في رواية أخرى – مع غيره من النجوم، وذلك في إشارة إلى أن نور القمر يحجب نور الكواكب الأخـــرى ويُغطِّـــي عليها، مهما كثُر نورها بكثرة أعدادها..!!

ألا ترى أن الأمر جد عظيم..؟!

ومع كون هذه المقارنة عظيمة في حق العلماء، إلا أن هناك مقارنة أعظم منها، ذكرها رسول الله ρ في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهليِّ > قال: "ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ρ رَجُلَانِ: أَحَـــدُهُمَا: عَابِدٌ، وَالْآخَرُ: عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ: **فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ**"[1].

ففي هذا الحديث الشريف يُقارن رسول الله ρ بين العالم والعابد، فيشبه ذلك بالفارق بين منزلـــة الرسول ρ ومنزلة أقل المسلمين.. أي أن الفجوة التي بينه ρ وبين أدنى المسلمين، تشبه تلك التي بين العـــالم والعابد..!!

وفي ذلك من الفضل والشرف والمنزلة الرفيعة العالية ما فيه..

فلم يقارن ρ بين نفسه وبين أحد العظماء – مثلاً – في الإسلام، رغم أن مثل هذه المقارنة هـــي عظيمة أيضًا؛ إذ البون شاسع بين رسول الله ρ وبين أي إنسان آخر، ولكن لعظم المفارقة هنا وبيان الفضل، فهو يقارن بين نفسه ρ وبين أدنى المسلمين..!!

ولعل البعض قد يستغرب من كون هذه المنزلة العالية للعالم إنما هي فوق منزلة العابد.. ولعل هـــذا العجب يزول إذا علمت أن العابد الذي يعبد الله على غير علم يَضل ويُضل.. وقد كان كفار مكة أنفسهم يعترفون لله بالعبودية، ولكنها عبودية على غير علم، فكان أن كفروا وضلوا، يقول تعالى يصف حالهم وهم يتحدثون عن الأصنام: (**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى**[2]).

---

1 الترمذي: كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (2685)، وقال الألباني: صحيح (4213) صحيح الجامع.

2 (الزمر: 3).

كما أن العابد إذا كانت عبادته لله على ظنٍ فاسدٍ، فإن عبادته هذه لا تُقبل، ويكون بذلك من الخاسرين.. قال تعالى: (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ[1]).

ويروى الدارمي أن عمر بن عبد العزيز ~ كتب إلى أهل المدينة: "إنه من تعبد بغير علمٍ، كان ما يُفسد أكثر مما يصلح"[2].

بل إن من الفقهاء في الإسلام من رفع درجة العلماء فوق درجه المجاهدين في سبيل الله وليس فقط العُبَّاد!! يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود >، وهو من علماء الصحابة الأفذاذ: "والذي نفسي بيده، ليودَّنَّ رجالٌ قُتلوا في سبيل الله شهداء، أن يبعثهم الله علماء؛ لما يرون من كرامتهم"[3] أي من كرامة العلماء.

ويقول العلامة التابعي الحسن البصري ~: "يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء!!"[4].

وإن كان البعض قد يستغرب هذا الكلام، إلا أن حجته قوية..

فالجهاد لا يُعرف فضله أساسًا إلا بالعلم، وعليه فلن يجاهد إلا من "علم" قيمة الجهاد ودرجة المجاهد، كما لن تُعرف شروط الجهاد ومشروعيته إلا بالعلم، ولن يُعرف فرض العين من فرض الكفاية فيه إلا بالعلم.. ومن ثم فقد يترك "من لا يعلم" فرضًا ويقيم نافلة، وهذا لا يجوز، كما أنه قد يتعدى في جهاده الحدود المشروعة، أو يقاتل من لا يجوز قتاله.. وهذا كله لا يجوز.

وهكذا، فالعلم هو الذي يحدد مشروعية الجهاد وحدوده.. وبغير العلماء الصادقين لن يوجد مجاهدون على حق..

بل قد يأثم المسلم بجهاده بغير علم!!

وما فتنه الخوارج بخافية على أحد..

فالخوارج كانوا يعبدون الله Y، ويقيمون الفرائض، ويجاهدون في سبيل الله.. وذلك كله على غير هدىً من الله ولا علم، فكان أن خرجوا من الدين بالكلية، بينما هم يحسبون أنفسهم على أفضل درجات العبادة والجهاد..!!

---

1 (فصلت: 23).

2 أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ 1/ 349.

3 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين 1/8.

4 المصدر السابق.

ولما همَّ عمر بن الخطاب < أن يقتل أحدهم – كما يروى أبو سعيد الخدري < – قال له رسول الله ρ قـال: "**دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ**"1..

فكانت آفتهم الرئيسية أنهم اجتهدوا بغير علم، فأدى بهم ذلك إلى أن يجاهدوا على باطل.. حتى كان أحد زعمائهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم والذي قتل علي بن أبي طالب < – كان يظن تمام الظن أنه تقرب إلى الله Y بقتل أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين وزوج بنت رسول الله ρ والمبشر بالجنة مرارًا، على بن أبي طالب <!!

وكان هذا اعتقادٌ راسخ عند كل الخوارج، حتى إنك لتجد عمران بن قحطان (أحد شعراء الخوارج المتأخرين) يقول واصفًا هذه الطعنة اللئيمة التي قُتل بها على بن أبي طالب <:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها إلا ليبلُغ من ذي العرش رِضوانًا

إني لأذكره حينًا فأحسبه أوْفَى البريَّة عند الله ميزانًا

كل ذلك، وقد قال رسول الله ρ في حقه يوم خيبر – كما يروي سلمة بن الأكوع <: "**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ قَالَ: يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ**"2.. وحين كان الغد كان هذا الرجل هو علي بن أبي طالب <..

و لم يقع عبد الرحمن بن ملجم (القاتل) في هذه الكارثة إلا بفقد العلم..

يقول تعالى: (**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**3).

ولكم عانت الأمة الإسلامية من بعض المتحمسين للدين، المشتاقين للجهاد ولكن بغير علم.. وقد أدى بهم حالهم هذا إلى أن يجتهدوا اجتهادات خاطئة، ويحكموا أحكامًا جائرة، فكانت النتيجة تكفير المجتمعات المسلمة، واستباحة دماء الأبرياء، والاستهانة بكل الحرمات، والقتل والسفك والظلم والبطش باسم الجهاد والدعوة والتضحية!! والإسلام من ذلك كله براء..

1 البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (3414)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (1064)، وابن حبان (6741)، وعبد الرزاق (18649)، والبيهقي في سننه الكبرى (16479).

2 البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل (2847)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب < (2406)، وابن حبان (6932).

3 (الكهف: 103، 104).

ولأجل ذلك، ومن فقهٍ لمنزلة العلماء وقيمة العلم مقارنة بغيره، يقول كعب الأحبار > موضحًا الحقيقة: "طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله Y"[1]..

وهو ما أكده أبو الدرداء > حين قال: "من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد، فقد نقص في عقله ورأيه"[2]..

وترى سفيان بن عيينة ~، وهو من التابعين يقول أيضًا: "من طلب العلم فقد بايع الله Y"[3]..

ولذلك فإن الله Y رفع قدر العلماء وعظم قيمتهم.. يقول تعالى: (**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**[4]).

وقد فقه الصحابة والتابعون والصالحون من هذه الأمة الكريمة هذا القدر، فعظموا علماءهم، ورفعوا من قدرهم، وحفظوا لهم مكانتهم.. ولم يعتبروا في ذلك بعرقٍ ولا نسبٍ ولا جنسٍ ولا عمرٍ ولا منصب.. إنما اعتبروا فقط بالعلم.. فكان معاذ بن جبل > على صِغر سنه معظمًا جدًا بين الصحابة، حتى إنهم كانوا لا يرفعون أعينهم في عينه حياءً منه وتعظيمًا له >.. هذا مع أنه مات وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، ولكنه عُظِّم بالعلم الذي كان يحويه في صدره >..

يقول رسولنا الكريم ρ في حقه - كما يروي أنس بن مالك >: "**وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ**"[5]..

ومن هنا نستطيع فهم الموقف الذي حكاه لنا أبو مسلم الخولاني ~ (من التابعين)، وفيه يصور مدى احترام وتعظيم الصحابة لمعاذ بن جبل > مع حداثه سنه..

يقول أبو مسلم الخولاني: "أَتَيْتُ مَسْجِدَ أَهْلِ دِمَشْقَ فَإِذَا حَلْقَةٌ فِيهَا كُهُولٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ρ، وَإِذَا شَابٌّ فِيهِمْ أَكْحَلُ الْعَيْنِ بَرَّاقُ الثَّنَايَا، كُلَّمَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوهُ إلى الْفَتَى فَتًى شَابٌّ - وفي رواية أخرى: ولا يصدرون إلا عن رأيه - قَالَ: قُلْتُ لِجَلِيسٍ لِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ"[6].

---

1 أبو نعيم: حلية الأولياء 377/5.

2 ابن القيم: مفتاح دار السعادة 71/1.

3 ابن القيم: مفتاح دار السعادة 71/1.

4 (المجادلة: 11).

5 الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل (3790)، وابن ماجة (154)، وأحمد (14022)، وابن حبان (7137)، والطيالسي (2096)، وقال الألباني: صحيح (1224) السلسلة الصحيحة.

6 أحمد (22117)، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح.

فقد وصف أبو مسلم الصحابةَ الذين هم حول معاذ > بأنهم "كهول"، أي شيوخ كبار في السن، ورغم ذلك – وكما جاء في الحديث – فكانوا يرجعون فيما يختلفون فيه وفيما لا يُدركون له حلاً إلى معاذٍ وهو يومئذ فتىً شاب.. و لم يكن ذلك إلا لعلمه وفقهه >..

وقد جاء في رواية أن هؤلاء الأصحاب كانوا نحو من ثلاثين كهلاً من الصحابة[1]!!

ويؤكد معنى تقديم العلماء على غيرهم بصرف النظر عن مناصبهم مــا رواه الإمــام مســلم في صحيحه، وهو أن نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ – وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ – فَقَالَ: مَــنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ Y، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ρ قَدْ قَــالَ: **إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**"[2].

وفي مثل ذلك ما روي أن زيد بن ثابت > صلى على جنازة فقُرِّبت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس { فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ρ، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء. فقبَّل زيد بن ثابت > يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ρ[3]..

فعبد الله بن عباس { يرفع من قدر زيد بن ثابت > ويوقِّره ويقدِّمه، ويمسك له دابته رغم صــغر سنه.. وليس ذلك لشيءٍ إلا لعلمه وفقهه، وكان هذا عموم حال الصحابة ψ وعهدهم مع العلماء..

يقول علي بن أبي طالب >: "إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته في الجــواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرًّا، ولا تغتابن أحدًا عنــده، ولا تطلــبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعــإلي، ولا تجلــس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته"[4].

وقال علي > أيضًا: "العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمــة (أي: ثغرة) لا يسدها إلا خلفٌ منه"[5].

وقال أيضًا منشدًا:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاءُ

---

1 انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ 1/ 20 .

2 مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (817)، أبو القاسم الطبراني: مسند الشاميين (2999).

3 ابن القيم: مدارج السالكين 330/2، المتقي الهندي: كنز العمال 370/13.

4 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين 51/1.

5 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين 7/1.

وقدر كل امرئٍ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

ففزْ بعلمٍ تعشْ حيًّا به أبدًا الناس موتى وأهل العلم أحياءُ

بل يذكر الغزالي ~ في الإحياء أن حق المعلم أعظم من حق الوالدين؛ لأن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، فهو معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة[1]..

ثم يقرر الغزالي – بعد أن أورد قول ابن المبارك حين سُئل: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد – فيقول: "ولم يجعل غير العالم من الناس؛ لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم؛ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنًا منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا للعلم"[2].

ويروي عبادة بن الصامت > أن رسول الله ρ قال: "**ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف عالمنا**"[3] أي يعرف لعالمنا حقه..

وفي قصة موسى υ مع الخضر كان غاية توقير العلماء وإجلالهم، فمع كون موسى υ أعلى قدرًا وأعظم مكانة؛ كونه ليس نبيًا فقط، بل من أولى العزم من الرسل، إلا أنه قال للخضر موقرًا مبجّلا: "هل أتبعك؟"!

فهو يصرح بأنه سيتبع الخضر، وسبب الاتباع هو العلم: (**عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**[4])، ثم هو يستأذن منه، ويسترضيه، ويستسمحه.. لا لشيء إلا للعلم الذي رفع من قدر الخضر، وجعل له هيبة واحترامًا وإجلالاً..

ويقول الزهري ~ (وهو من التابعين العظماء) مقررًا: "كنت آتي باب عروة بن الزبير > (وهو أيضًا من التابعين) فأجلس بالباب، ولو شئت أن أدخل لدخلت، ولكن إجلالاً له"[5]!!

---

1 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين 55/1.

2 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين 7/1.

3 أحمد (22807) واللفظ له، والحاكم (421)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، وقال الألباني: صحيح (101) صحيح الترغيب والترهيب.

4 (الكهف: 66).

5 سنن الدارمي (569).

وفي سبيل التربية على ذلك يقول الحسن بن علي > لابنه ناصحًا ومرشدًا: "يا بني، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثًا – وإن طال – حتى يمسِّك".

وعلى هذا ظلت مكانة العلماء محفوظة ومرموقة في الأمة الإسلامية، وظل قدرهم مرفوعًا فوق غيرهم من المسلمين..

ولقد كان الناس يجتمعون بالآلاف حول البخاري ~ ليعلمهم حديث رسول الله ρ، وهو بعد في السادسة عشرة من عمره!!

يقول الشافعي ~:

وإن صغير القوم إن كان عالمًا كبيرٌ إذا ردت إليه المحافل

و لم يكن هذا التقدير من جانب العامة فقط، بل كان أيضًا من قبل الأمراء وأصحاب السلطان، فكانوا ينزلون العلماء منازلهم ويرفعونهم قدرهم، ولذلك عزَّت أمتهم، وسادت غيرها من الأمم..

ففي أحد مواسم الحج جاء أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ~ إلى الحج هو واثنان من أبنائه الأمراء، فاحتاجوا إلى إجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالحج، و لم يجدوا لذلك أفضل من العلامة عطاء بن أبي رباح[1] ~، فذهبوا إليه وهو يصلي، فانتظروا إلى جواره حتى انتهى من صلاته، فبدءوا يسألونه وهو يجيبهم في وضع الصلاة لا يلتفت إليهم، وهو يقبلون بهذا الوضع لأنهم يحتاجون إلى العلم، وبعد انتهاء الأسئلة انصرفوا، ثم جمع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ~ ولديه وقال لهما: "يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود"[2]!!

وكان عطاء بن أبي رباح ~ (من التابعين) عبدًا أسودًا لامرأة من مكة..!!

وصدق قول الشاعر:

العلم يرفع بيتًا لا عماد له والجهل يهدم بيت العزِّ والشرفِ

وكان المأمون قد وكل الفراء يلقن ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفراء يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما

---

1 نشأ عطاء بن أبي رباح بمكة، وكان عبدًا أسود لامرأة، وكان أنفه كأنه باقلاة وكان بنو أمية يأمرون في الحاج صائحًا يصيح لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، ويقول عنه الأوزاعي: ما رأيت أحدا أخشع لله من عطاء، ومات بمكة عام 115وعمره 88. صفة الصفوة2/ 212- 214.
2 ابن الجوزي: صفة الصفوة 212/2.

فردًا فقدماها، فرفع ذلك الخبر إلى المأمون، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال: من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين، قال: بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد أن يقدم له فردًا!! قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعة حرصا عليها. فقال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لومًا وعتبًا وألزمتك ذنبًا، وما وَضَعَ ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبيَّن عن جوهرهما، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيرًا عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم..

وإن جواب المأمون هذا ليعكس نظرة الإسلام والأمة الإسلامية كلها آنذاك إلى العلم والعلماء، وما كانوا عليه رعاة ورعية من العناية والاهتمام والتعظيم والإجلال للعلم وأهله..

فكان العالِم حقًا أعز الناس، وهذه هي الدرجة والمنزلة التي قررها الصالحون لعلماء الأمة وحفظوها لهم وأنزلوهم إياها.. وقد علموا أنهم مصابيح الدجى التي يُهتدى بها، وهو الأمر الذي أورثهم عزًا ومجدًا وتقدمًا وحضارة ورفعة..!!

فإن أردت – أخي في الله – أن تصبح عالمًا، فلابد لك أولاً أن تعرف منزلة ما تطلب، ومكانة ما تهفو إليه نفسك؛ فليس في الدنيا أعز ممن ورث الأنبياء، واستغفر له أهل الأرض والسماء!!

الفصل الثاني: جِهَادُ الْعُلَمَاءِ

لما كان العلم أشرف النعم، وأعلى المنازل والرتب.. ولما كان كذلك ميراث الأنبياء، وكان الطريق المؤهل إلى الجنة.. فلابد أن يكون تحصيله بمجهودٍ عظيم، وتضحيةٍ ثمينة؛ وكيف لا والمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسرٍ من التعب؟!

وقد أرشد رسول الله ρ إلى أن سلوك طريق الآخرة بصفة عامة صعبٌ، وأن تحصيل الآخرة متعسرٌ لا يحصل إلا بسعي حثيث، فقال – كما روى أبو هريرة > – : "**أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ**"[1].

وعلى هذا السياق روى الإمام مسلم في صحيحه عن يحيى بن أبي كثير ~ أنه قال: "لاَ يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ"[2]..

ويقول الإمام النووي في وصفه لطالب العلم: ينبغي أن يكون حريصًا على التعلم، مواظبًا عليه في جميع أوقاته، ليلاً ونهارًا، وسفرًا وحضرًا، ولا يُذهب من أوقاته شيئًا في غير العلم إلا بقدر الضرورة، لأكل ونوم قدرًا لابد له منه ونحوهما، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وشبه ذلك من الضروريات، وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثمَّ فوتها[3]!!

ويقول ابن القيم ~: وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع، وصدق الطلب، وصحة النية[4]..

ويؤكد على ذلك ابن الجوزي فيقول: "تأملت عجبًا، وهو أن كل شيءٍ نفيسٍ خطيرٍ يطول طريقه، ويكثر التعب في تحصيله، فإنَّ العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار، وهجر اللذات والراحة..".

---

1 الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (2450)، والحاكم (7851)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (881)، وأبو نعيم في حلية الأولياء 377/8، وقال الألباني: صحيح حديث (6222) صحيح الجامع.

2 مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلاة (612)، والسؤال عن إدخال الإمام مسلم هذه الحكاية عن يحيى مع أنه لا يذكر في كتابه الا أحاديث النبي ρ محضة مع أن هذه الحكاية لا تتعلق بأحاديث مواقيت الصلاة، فكيف أدخلها بينها؟ حكى القاضي عياض ~ عن بعض الأئمة أنه قال: سببه أن مسلما ~ أعجبه حسن سياق هذه الطرق التي ذكرها لحديث عبد الله بن عمر وكثرة فوائدها وتلخيص مقاصدها وما اشتملت عليه من الفوائد في الأحكام وغيرها ولا نعلم أحدا شاركه فيها فلما رأى ذلك أراد أن ينبه من رغب في تحصيل الرتبة التي ينال بها معرفة مثل هذا، فقال طريقه أن يكثر اشتغاله وإتعابه جسمه في الاعتناء بتحصيل العلم هذا شرح ما حكاه القاضي. شرح النووي 114/5.

3 النووي: التبيان في آداب حملة القرآن 13/1.

4 ابن القيم: مفتاح دار السعادة 108/1.

وهو الذي قال أيضًا: قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهي الهريسة ولا أقدر على شـــرائها؛ لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس1!!

ولما رأى أحد أصحاب الإمام أحمد بن حنبل ~ جهده ومثابرته سأله قائلاً: إلى مـــتى تســـتمر في طلب العلم، وقد أصبحت إمامًا للمسلمين وعالمًا كبيرًا؟! فقال له: "مع المحبرة إلى المقبرة"2!!

ومعنى ذلك أنه سيستمر في طلب العلم إلى أن يموت ويدخل القبر، رغم أنه لم يكن في عصره من هو أحفظ منه لحديث رسول الله ρ، حتى إنهم لَقَّبوه: "إمام السنة وفقيه المحدثين".

وهو الذي قال عنه ابن رافع: رأيت أحمد بن حنبل بمكة بعد رجوعه من إليمن وقد تشقَّقت رجلاه وأبلغ إليه التعب، فقال لي: يا أبا عبد الله، ما أخلقني أن لا أرحل بعدها في حديث. قال: ثم بلغني أنه صار إلى أبي إليمان بعد إليمن، أي إلى حمص3!!

وقد خرج الإمام أحمد إلى طرسوس ماشيًا على قدميه لعجزه عن النفقة في السفر..4!!

وهو الذي قال: لو كان عندي خمسون درهمًا لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري (كـــان إمامًا في الرواية)، فخرج بعض أصحابنا و لم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي..5!!

يقول الشافعي ~: "حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارضٍ دون طلبه، وإخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصًا واستنباطًا، والرغبـــة إلى الله تعـــالى في العون عليه"6.

---

1 ابن الجوزي: صيد الخاطر ص266.

2 ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص399.

3 ابن عساكر: تاريخ دمشق 267/5.

4 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 447/1.

5 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 447/1.

6 بدر الدين بن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم ص27.

ويقول الإمام ابن هشام النحوي:

ومن يصطبرْ للعلم يظفرْ بنيلهِ ومن يخطب الحسناءَ يصبرْ على البذلِ

وقال النظَّام: العلم شيءٌ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر1..

وصدق حوط بن رئاب الأسدي2 حين قال:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله لن تبلُغ المجد حتى تلعق الصبرَا

ولأجل ذلك حرص الفاهمون الصادقون على تحصيل العلم والسعي في طلبه، بصورة قد يتعجب لها الكثيرون ممن لم يدركوا بعد قيمة العلم وثمراته.. بل بصورة تُهوِّن على من يعرفها كلَّ شدة، وتجعلهم يبذلون أنفسهم طواعية في سبيل تحصيله..

وفي ذلك فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب > أنه قال: "كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ (هو أوس بن خوليّ) فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ρ، يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليومِ مِنْ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.."3.

أما عبد الله بن عباس {، فقد قال: "لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ρ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا فُلاَنُ، هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ρ فَإِنَّهُمُ اليومَ كَثِيرٌ. فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؛ أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إليكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ρ مَنْ تَرَى؟! فَتَرَكَ ذَلِكَ وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ، مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلاَ أَرْسَلْتَ إِلى فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لاَ، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ، فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ.

قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ فَقَالَ: كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي"4!!

ولما فُتحت البلاد آثر ابن عباس ظمأ الهواجر في دروب المدينة ومسالكها على الظلال الوارفة في بساتين الشام وسواد العراق من أجل طلب العلم هذا، وقد قال >: "لما فُتحت المدائن أقبل الناس على الدنيا وأقبلت على عمر بن الخطاب >"1!!$$

1 الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 97/6.

2 حوط بن رئاب الاسدي، المشتهر بأبي المهوش: شاعر مخضرم، عاش واشتهر في الجاهلية وأدرك الاسلام. شعره قليل متفرق. الأعلام 2/ 289.

3 البخاري: كتاب العلم، باب التناوب في العلم (89)، وابن حبان (4187).

4 الدارمي: باب الرحلة في طلب العلم (570)، والحاكم (363) وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

ولمثله أنشد أبو القاسم الجزي[2]:

لكل بني الدنيا مراد ومقصد   وإن مرادي صحة وفراغْ

لأبلغ في علم الشريعة مبلغًا   يكون به لي للجنان بلاغْ

وفي مثل هذا فلينافس أولو النهى   وحسبي من الدنيا الغرور بلاغْ

فما الفوز إلا في النعيم مؤبَّدٍ   به العيش رغد والشراب يساغْ

ثم يخبر > عن دأبه في طلب العلم فيقول: "كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم، فأقيل عند بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يوقظ لي لمكاني من رسول الله ρ، لكنني أكره أن أمله"!!

ويزيد وضوحًا فيقول: "كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ρ من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازي رسول الله ρ وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحدًا إلا سُرَّ بإتياني، لقربي من رسول الله ρ، فجعلت أسأل أُبيَّ بن كعب >، وكان من الراسخين في العلم، عما نزل بالقرآن في المدينة، فقال: نزل بها سبعٌ وعشرين سورة، وسائرها بمكة"[3].

وقد قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كله؟!

فردَّ عليهم وقال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب[4]!!

ولننظر إلى الشافعي ~ كيف يتحدث عن نفسه في طلب العلم حين يقول: "حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ (لمالك ~) وأنا ابن عشر سنين"[5]..!!

وقد تكون هذه طفولة صعبة بالنسبة للكثيرين، لكنها في النهاية أنتجت وولدت رجلاً مثل الشافعي، الذي نفع الله Y بعلمه الأمة، ليس في زمانه فقط، ولكن فيما تلا ذلك من أزمان أيضًا..

---

1 انظر: مسند البزار 311/1.

2 هو محمد بن أحمد بن يوسف بن جزي، الكلبي، أبو القاسم، من أهل غرناطة، وذوي الأصالة والنباهة فيها، ولد سنة 693، ومات وهو يحرض الناس يوم الكائنة بطريف سنة 741 هـ. انظر نفح الطيب 5/ 514 – 416 والأبيات أيضًا في هذا المصدر.

3 ابن سعد: الطبقات الكبرى 371/2.

4 الذهبي: تذكرة الحفاظ 81/1.

5 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 366/24.

يقول الشافعي ~: "فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تُعطيني أشتري به قراطيس (أوراق يكتب عليها)، فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح، آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديمة.."1.

ولما كبُر الشافعي قليلاً، وكان بين العاشرة والثالثة عشرة، احتاج إلى المزيد من الورق ليكتب عليه ما يتعلمه، ولم يكن له مال يشتري به الأوراق، فكان يذهب إلى الديوان يستوهب "الظهور" (وهي الأوراق المستعملة من ناحية واحدة فقط، يطلبها ليستنفع بالناحية الأخرى) فيأخذها ليكتب على ظهرها2!!

كل هذه المعاناة ليُحصِّل العلم..

قال ابن أبي حاتم: سمعت المزني يقول: قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: "أسمع بالحرف (أي بالكلمة) مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعًا تتنعم بما تنعمت به الأذنان"، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال. قيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره!!

وصدق الشافعي ~.. إذ لولا هذا الطلب وذاك الحرص ما كان الشافعي..

فليس من فراغ أن يصبح الإنسان إمامًا يُقتدي به في العالمين.. قال ابن تيمية: "إنَّما تنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين"3!!

ويقول ربنا I في كتابه الكريم، يعلمنا الدعاء النافع حقًا: (**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**4).

ففي تفسير هذه الآية يقول ابن عباس {: أي: اجعلنا أئمة يقتدي بنا في الخير5.. وذلك – لا شك – لا يتأتى إلا بمجهود مضن، وتضحيات غالية عزيزة.. ومن طلب العلا سهر الليالي!!

وكما لم يمنع الفقر ولا ضيق ذات اليد من أن يصير الشافعيُّ الشافعيَّ، فلم يمنع ذلك أيضًا من أن يكون سفيان الثوري ~ فقيه العرب ومحدثهم، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة، وأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال فيه زائدة: "الثوري سيد المسلمين"6، وقال فيه الأوزاعي: "لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان"7..!!

---

1 ابن الجوزي: صفة الصفوة 249/2 – ابن عساكر: تاريخ دمشق 51/ 282 .
2 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 361/24.
3 ابن تيمية: مجموع الفتاوى 358/3.
4 (الفرقان: 74).
5 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم 439/3.
6 ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل 118/1.
7 أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ 204/1.

ويصور ذلك بنفسه فيقول: لما أردت أن أطلب العلم قلت: **يا رب، لابد لي من معيشة**. ورأيت العلم يُدرس (أي: يذهب ويندثر) فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه، قال: وسألتُ الله الكفاية.. يعني أن يكفيه أمر الرزق!! وكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيض له أُمًّا صالحة، قد تكفلت بالإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها..

قالت أمه له: "يا بني، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي"[1]..!!

فكانت رحمها الله تعمل بالغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلم؛ ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوله بالموعظة والنصيحة لتحضه على تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات مرة: "يا بني، إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك"[2]..!!

وهكذا كانت كفاية الله له..

فلم يكن من غرابةٍ بعدُ أن يتبوأ سفيان الثوري السيادة في العلم، والإمامة في الدين، وكيف وقد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الصالحة، وتغذَّى من فضائلها وتقواها..؟!

ولم يكن العلماء يكتفون بطلب العلم في بلادهم، ولكن كانوا يطلبونه في أصقاع العالم المختلفة، ولهم في ذلك حكايات أشبه بالأساطير؛ إذ تراهم يقطعون آلاف الأميال من أجل الدرس والتحصيل.. ويكفي أن نعرف فقط وسائلهم في ذلك الوقت، لندرك حجم المعاناة والمخاطرة التي كانوا يتعرضون لها في هذا الطريق..

فهذا جابر بن عبد الله > يرحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس > في طلب حديث واحد، يقول جابر: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ρ، فابتعت بعيرًا، فشددتُ إليه رحلي شهرًا، حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فبعثت إليه أنَّ جابرًا بالباب فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟! فقلت: نعم. فخرج فاعتنقني، قلت: حديث بلغني لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت.. فذكر الحديث[3].

وبعد سماع الحديث عاد جابر إلى المدينة مباشرة؛ إذ لم يكن له بغية في الشام غير هذا الحديث الواحد!!

---

1 أبو نعيم: حلية الأولياء 370/6.

2 ابن الجوزي: صفة الصفوة 189/3.

3 البخاري: الأدب المفرد (970)، أحمد (16085)، والحاكم (3638) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

وقد رحل أبو أيوب الأنصاري كذلك من المدينة إلى عقبة بن عامر بن عبس الجهني في مصر ليروي عنه حديثًا واحدًا، فقدم مصر، و نزل عن راحلته و لم يحل رحلها، فسمع منه الحديث ثم ركب راحلته وقفل إلى المدينة راجعًا[1]!!

ويقول حاتم الرازي (من العلماء الجهابذة النُّقاد، من الطبقة الرابعة، من أهل الري) ~ يقص أمر رحلته العجيبة: أحصيت ما مشيت على قدميَّ زيادة على ألف فرسخ (أي نحو خمسة آلاف كيلو متر، والفرسخ هو ثلاثة أميال، أو 5544 مترًا!!)، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، وأما ما سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا - وذلك في المغرب الأقصى - إلى مصر ماشيًا، ومن مصر إلى الرملة ماشيًا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى إنطاكية، ومن إنطاكية إلى طرسوس، ثمَّ رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بَقِي عليَّ شيء من حديث أبي إليمان فسمعته، ثمَّ خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفي، كل ذلك ماشيًا، هذا سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين!! وخرجت المرة الثانية، وكان سني في هذه الرحلة سبعًا وأربعين سنة[2]!!

وكان أسد بن الفرات ~، وهو الفقيه المالكي العظيم الذي دوّن مذهب الإمام مالك ~، والذي كان يعمل قاضيًا للقيروان ثم مجاهدًا في سبيل الله، وفتح جزيرة صقلية حيث استشهد هناك سنة 213هـ، كان هذا العلامة الفقيه القاضي المجاهد يحكي عن نفسه، وكيف طلب العلم فيقول:

إنه ذهب إلى المدينة فتعلم على يد الإمام مالك ~، ثم رحل إلى العراق فسمع من أصحاب أبي حنيفة ~، وبالذات محمد بن الحسن الشيباني، وكان يجلس في مجلسه مع مئات وآلاف الطلاب فلا يستطيع أن يسأل ما يريد، ولا أن يتعلم ما يشتهي، فذكر ذلك للإمام الجليل محمد بن الحسن وقال له: "إني غريب قليل النفقة، والسماع منك نذر (أي قليل لشدة الزحام)، والطلبة عندك كثير، فما حيلتي؟

فقال له العلامة الجليل المتجرد محمد بن الحسن ~: اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك، فتبيت عندي، وأسمعك!!

قال أسد بن الفرات ~: "وكنت أبيت عنده وينزل إلي، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعست، ملأ يده ونفخ في وجهي بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه ودأبي، حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه".

---

1 أحمد (17490)، وعبد الرزاق (18936)، وابن أبي شيبة (13729).

2 أبو حاتم الرازي: الجرح والتعديل 360/1، وابن عساكر: تاريخ دمشق 10/52.

فانظر رحمك الله إلى همة العالمين الجليلين، وانظر كيف فرَّغ محمد بن الحسن من وقته لأسد بن الفرات.. وذلك لأنه يعلم أنه سينشر هذا العلم في بلاد لن يستطيع محمد بن الحسن الوصول إليها، ومن ثم فهو أولى من غيره بتفريغ مزيد من الوقت له..

ثم انظر إلى همة أسد بن الفرات ~، الذي كان يكفيه أنه تعلم على يد الإمام مالك ~.. لكنه طالب العلم الذي لا يرتوي ولا يشبع أبدًا، فيظل يطلب العلم مادام فيه نبض الحياة..!!

روى الدارمي بسندٍ صحيح غير أنه مرسل، عن طاووس بن كيسان ~ أنه قال: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ρ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: "**مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إلى عِلْمِهِ، وَكُلُّ طَالِبِ عِلْمٍ غَرْثَانُ** (أي: جائع، أو: لا يكتفي ويطلب المزيد) **إلى عِلْمٍ**"[1].

فلم تكن أجسادهم لأجل ذلك تقوى على ملامسة الفراش؛ كون هذا يمنعهم من تحصيل العلم!!

ولقد كان البخاري ~ يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج، ويكتب الفائدة تمر بخاطره، ثم يطفئ سراجه، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى، حتى كان يتعدد منه ذلك قريبًا من عشرين مرة[2]..!!

وهو الذي قال عنه عمر بن حفص الأشقر: إنهم فقدوا البخاري أيامًا من كتابة الحديث بالبصرة، قال: فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان! وقد نفد ما عنده، ولم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم، حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث[3]!!

ويحكي النووي ~ عن نفسه فيقول: "بقيت سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض، وكان إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وأنتبه[4]"!!

وذلك الجهد العظيم يُصوره فخر الدين محمد الساعاتي، أحد جهابذة الطب في تاريخ الإسلام، حين يصف معاناته في تحصيل الطب فيقول:

يحسدني قومي على صنعتي لأنني بينهم فارس

سهرت في ليلي واستنعسوا لن يستوي الدراس والناعس[5]

1 الدارمي: باب من هاب الفتية مخافة السقط (285)، وقال حسين سلم أسد محقق سنن الدارمي: إسناده صحيح.
2 ابن كثير: البداية والنهاية 25/11.
3 الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 13/2.
4 ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية
5 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 162/4.

ويصوره أيضًا ابن رشد، حين نعلم أنه لم يدع النظر في الكتب إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة زواجه..[1]!! وكان من نتيجة ذلك أنه صنف وشرح وهذب أكثر من عشرة آلاف ورقة..!! وكان يُفزع إلى فتياه في الطب كما يُفزع إلى فُتياه في الفقه، مع الحظ الوافر في الإعراب والآداب والحكمة..!!

أما الجاحظ والذي أُغرم بالمطالعة إغرامًا شديدًا، حتى إنه لم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته.. فكان من حرصه على طلب العلم وجهاده في ذلك، أنه كان يستأجر حوانيت الورَّاقين في البصرة الزاخرة بشتى الرسائل والمدونات في العلوم المختلفة، ويعتكف فيها للدرس والمطالعة[2]..!!

وفي مثل ذلك يحكي الإمام أحمد بن حنبل ~ عن طفولته فيقول: "كنت ربما أردت البكور في الحديث (أي الخروج من بيته مبكرًا لكي يجد مكانًا مناسبًا في درس الحديث) فتأخذ أمي بثيابي حتى يؤذِّن الناس، أو حتى يصبحوا"[3]!!

فهو يحاول الخروج لطلب الحديث والعلم قبل صلاة الفجر، لكن أمه تخشى عليه، فتستبقيه حتى يكون الأذان..!!

بل وأكثر من ذلك أنهم كانوا كثيرًا ما يهملون أهم ضرورات الحياة لأجل العلم، يفضلونه في ذلك على أنفسهم، وقد ذكر الذهبي في سيره عن عبد الرحمن بن أبي حاتم أنه قال: كنا بمصر سبعة أشهر، لم نأكل فيها مرقة، كل نهارنا مقسمٌ لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة. قال: فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكًا أعجبنا، فاشتريناه، فلمّا صِرنا إلى البيت، حضر وقت مجلس، فلم يمكنّا إصلاحه ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغير، فأكلناه نيئًا، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه. ثم قال: "لا يُستطاع العلم براحة الجسد"[4]!!

وهذا ابن الجوزي يقول: لقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل؛ لأجل ما أطلب وأرجو.

وقال: كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء. فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث رسول الله ρ، وأحواله وآدابه، وأصحابه وتابعيهم[5]..

---

1 انظر ترجمته عند الذهبي: تاريخ الإسلام
2 انظر ترجمته عند الذهبي: تاريخ الإسلام.
3 الذهبي: سير أعلام النبلاء
4 الذهبي: سير أعلام النبلاء
5 ابن الجوزي: صيد الخاطر ص231.

بل انظر إلى حال من كان غنيًا منهم.. فهذا يحيى بن معين ~ (من كبار علماء الجرح والتعديل)، وقد خلف له أبواه ألف ألف درهم، فأنفقها كلها في تحصيل الحديث، حتى لم يبق له نعل يلبس[1]..!!

بل انظر إلى من يُعرض عليه المال منهم، وكيف كان زهدهم فيه..

فهذا ابن الهيثم ~، والمعروف عند الأوربيين بـ (الخازن Alhazen)، وهو عالم موسوعي من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء، وهو مؤسس علم البصريات، وله في ذلك الاكتشافات المذهلة، والتي عليها قامت النظريات العلمية الحديثة، ومن المستحيل أن تجد كتابًا أو مرجعًا في علم البصريات لا يُشير فيه إلى ابن الهيثم، وخاصة كتابه "المناظر" الذي كان ثورة حقيقية في عالم البصريات!!

فقد كان ابن الهيثم يعيش حياة مادية متعسرة، ولأن الأمراء والخلفاء - كما ذكرنا من قبل - كانوا يقدرون العلم والعلماء، فقد أُعجب به أحد أمراء الشام حين كان عنده، وأراد أن يغمره بالأموال، فقال ابن الهيثم: يكفيني قوت يوم، وتكفيني جارية وخادم؛ فما زاد على قوت يومي إن أمسكته كنت خازنك، وإن أنفقته كنت وكيلك، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بأمري وعلمي[2]..؟!!

فإلى هذا الحد كان ابن الهيثم خائفًا أن يُلهيه المال الفائض عن حاجة يومه عن الاشتغال بالعلم.. فالقضية عنده: مَنْ للعلم إن لم أكن أنا له..؟!

ولهذا كان هو ابن الهيثم..

ولقد قال يومًا مبيِّنًا منهجه في الحياة بصفة عامة، وفي قضية العلم عنده بصفة خاصة: "وإني ما مُدَّت لي الحياة، باذلٌ جهدي، ومستفرغ قوتي في مثل ذلك (يقصد الدراسة وتحصيل العلوم)، متوخِّيًا منه أمورًا ثلاثة: أحدها: إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي. والآخر: أني جعلت ذلك ارتياضًا لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويُتقنه فكري من تلك العلوم. والثالث: أني صّيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم"[3]..!!

وفي ظروف غير الفقر والمال قد تكون أشد وأصعب منهما.. كان المجهود أيضًا فوق العادة، فلم يستسلم علماء الأمة للأمر الواقع، ولم يكسلوا أو يتوانوا، بل برعوا حتى وهم تحت أغلال القيود..!!

---

1 المزي: تهذيب الكمال 31/ 547 .

2 البيهقي ظهير الدين: تتمة صوان الحكمة ص16.

3 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 380/3.

فكان الطوسي[1] ذا مكانة عالية ودرجة رفيعة عند خلفاء العباسيين لنباهته وحدة ذكائه، ولهذا فإن أحد وزراء البلاط أضمر له الغدر حسدًا، وأرسل إلى حاكم قهستان (من لأعمال نيسابور) يتهمه زورًا وبهتانًا، مما دفع به إلى السجن في إحدى القلاع، وقد كان من نتيجة سجنه أن أنجز في خلال اعتقاله معظم مصنفاته في الفلك والرياضيات، وهي التي كانت سبب ذيوع صيته وشهرته وبروز اسمه بين عباقرة الإسلام في جميع الأنحاء!!

وهذا سيد قطب2~، يكتب "الظلال" وهو من أشهر التفاسير الحديثة، والذي قلَّ أن تجد مكتبة إسلامية في أنحاء العالم الإسلامي تخلو منه، سواء بالعربية أو بغيرها – كتب معظم هذا التفسير العظيم خلال فترة ءسجنه!!

وقبله كان أيضًا العالم الجليل ابن تيمية الذي صنَّف مؤلفات عدة في فترة سجنه، منها – على سبيل المثال – كتاب في التفسير في ربعة مجلدات!!

ثم عجيبٌ جدًا أن ترى من يسجن نفسه ويتغرب متعمدًا، لينقطع إلى العلم والدراسة والتأليف..!!

ففي جنوب قسنطية في قلعة ابن سلامة بالجزائر ينقطع ابن خلدون أربع سنوات كاملة للكتابة، وقد أنجز في هذه المدة مقدمته الشهيرة "مقدمة ابن خلدون"، والتي خلدت اسمه في التاريخ، وكيف لا وقد وضع فيها قواعد تفسير التاريخ، فضلاً عن أسس علم الاجتماع الحديث، سابقًا في ذلك دوركايم وغيره من الغربيين..!!

وعن مقدمته تلك يقول: "وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها"3.

وقد كان له من العمر آنذاك ثلاث وأربعون سنة، وكانت المدة منذ خروجه من بلده الأندلس وإلى رجوعه إليها خمسًا وعشرين سنة!!

ورحل ابن البيطار (من كبار علماء النبات المسلمين 646هـ) إلى أقطار العالم الإسلامي، في سبيل طلب العلم وتحصيله، وقد زار أيضًا اليونان وبلاد الروم في طريقه إلى المشرق، وبذلك فقد أخذ عن

---

1 ظهر الطوسي في القرن السادس الهجري، وكان أحد حكماء الإسلام المرموقين، كرمه الخلفاء العباسيين لمكانته في العلم، وجعله هولاكو من مستشاريه الطبيين العلميين واستطاع أن يبني مرصدًا في بغداد، وكذلك استطاع إنشاء مكتبة كبيرة. انظر الزركلي: الأعلام 30/7.

2 سيد قطب (1906م – 1966م): كاتب وأديب ومفكر إسلامي، له إسهامات مجيدة في قضايا الأدب الإسلامي والفكر الإسلامي والدعوة، فقد أعانه الله على إكمال تحفته الخالدة "في ظلال القرآن" رغم المصاعب التي مرَّ بها في حياته.. كما ألَّف إلى جانب الظلال: هذا الدين– خصائص التصور الإسلامي– المستقبل لهذا الدين.. وغيرها

3 ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر 44/7.

المسلمين كما أخذ عن اليونان والرومان، وفي بلاد اليونان لقي مهتمين بعلم النبات فاستفاد منهم، كما رافقهم لدراسة النبات في مواضعه.. وفي المغرب قام بالعمل نفسه[1]..

ويقول ابن أبي أُصَيْبعة أنه شاهده في دمشق، ورافقه لمعاينة النبات في مواضعه، كما قرأ عليه ابن البيطار تفسيره لأسماء أدوية ديسقوريدس[2]..

وكان ابن البيطار يصحب أستاذه العشاب الشهير ابن الرومية إلى الريف، فيعاينان النبات معًا..

وهذه قصة عجيبة للإمام الجليل "بقي بن مخلد الأندلسي[3]"~ (ت 276هـ)، والذي سأل عن العلم فدلوه على بغداد حيث الإمام أحمد بن حنبل ~، فسافر ماشيًا من الأندلس في أقصى غرب بلاد المسلمين إلى بغداد[4]!!

يحكي عن نفسه فيقول: "لما قربت من بغداد اتصل بي خبر المحنة التي دارت على أحمد بن حنبل، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه (كان أحمد بن حنبل قد حُبس في بيته، وجُعل تحت المراقبة ورهن الإقامة الجبرية)، فأغممت بذلك غمًا شديدًا، فاحتللت الموضع، فلم أعرج على شيءٍ بعد إنزإلى متاعي في بيت أكتريه (أستأجره) في بعض الفنادق أن أتيت المسجد الجامع، وأنا أريد أن أجلس إلى الخلق وأسمع ما يتذاكرونه.

فدفعت إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يكشف عن الرجال، فيُضعِّف ويُقوِّي، فقلت: من هذا؟ لمن كان قربي، فقال: هذا يحي بن معين، فرأيت فرجة قد تفرَّجت قربه، فقمت إليه فقلت: أبا زكريا رحمك الله، غريبٌ نائي الدار، أردت السؤال فلا تستخفَّني. فقال لي: قل. فسألته عن بعض من لقيت من أهل الحديث، فبعضًا زكَّي، وبعضًا جرِّح.

فسألته في آخر السؤال عن هشام بن عمَّار، وكنت قد أكثرت من الأخذ منه، فقال: أبو الوليد هشام بن عمار صاحب الصلاة، دمشقي ثقةٌ وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كِبرٌ وتقلَّد كبرًا ما ضرَّه شيئًا لخيره وفضله. فصاح أهل الحلقة: يكفيك – رحمة الله عليك – غيرك له سؤال!

فقلت وأنا واقف على قدمي: أكشفك عن رجل واحد: أحمد بن حنبل؟!

---

1 المقري: نفح الطيب 692/2.

2 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 500/3.

3 بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن الحافظ أحد علماء الأندلس ذو رحلة واسعة صنف المسند والتفسير وغيرهما وكان ورعًا فاضلاً زاهدًا مجاب الدعوة توفي بالأندلس سنة ست وسبعين ومائتين. تاريخ دمشق 354/10.

4 ابن عساكر: تاريخ دمشق 357/10.

فنظر إلى كالمتعجب وقال لي: ومثلنا نحن نَكْشف عن أحمد بن حنبل؟! ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم.

فخرجت أستدلُّ على منزل أحمد بن حنبل فدُلِلت عليه، فقرعت بابه فخرج إلي وفتح الباب، فنظر رجل لم يعرفه، فقلت: يا أبا عبد الله، رجلٌ غريبٌ، نائي الدار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالب حديث، ومُقيِّد سُنَّة (أي جامع حديث)، ولم تكن رحلتي إلا إليك.

فقال: ادخُل الأسطوان (يعني: الممر إلى داخل الدار) ولا يقع عليك عين.

فدخلت، فقال لي: وأين موضعك؟! قلت: المغرب الأقصى. فقال لي: إفريقية؟ قلت: أبعد من إفريقية، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية، بلدي الأندلس.

قال: إن موضعك لبعيد، وما كان شيءٌ أحب إلي من أن أُحسن عون مثلك على مطلبه، غير أنِّي في حيني هذا مُمتحنٌ بما لعلَّه قد بلغك.

فقلت: بلى قد بلغني، وأنا قريب من بلدك، مُقبلٌ نحوك.

فقلت له: يا أبا عبد الله، هذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فان أذنت لي أن آتي كل يوم في زِيِّ السُّؤَّال (في هيئة متسوِّل)، فأقول عند الباب ما يقولونه، فتخرج إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية.

فقال لي: نعم، على شرط أن لا تظهر في الحِلق، ولا عند المحدثين.

فقلت: لك شرطك.

فكنت آخذ عصا بيدي، وألف رأسي بخرقة، وأجعل ورقي ودواتي في كمي، ثمَّ آتي بابه فأصيح: الأجر – رحمك الله – والسُّؤَّال هناك كذلك، فيخرج إلي ويُغلق باب الدار، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر.

فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له (الخليفة المأمون ومن بعده المعتصم وكذا الواثق)، وولي بعده من كان على مذهب السنة (الخليفة المتوكل)، فظهر أحمد وعلت إمامته، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي، ويقص على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة، ويقرؤه عليَّ وأقرؤه عليه[1]..!!

1 الذهبي: سير أعلام النبلاء 292/13.

وقد كان من نتيجة هذا المجهود الشاق الذي بذله بقي بن مخلد، ونتيجة ذلك التحايل في سبيل طلب العلم والصبر على تداعياته، أنه ~ رجع إلى الأندلس فملأها علما، وقد عمل مسنده المشهور في أحاديث رسول الله ρ، "مسند بقي بن مخلد"، والذي يُعد من أعظم كتب المسانيد، يصفه طاهر بن عبد العزيز الأندلسي فيقول: حملت معي جزءًا من مسند بقي بن مخلد إلى المشرق، فأريته محمد بن إسماعيل الصائغ، فقال: ما اغترف هذا إلا من بحر، وعجب من كثرة علمه[1].

وعن قدر الجهد المبذول في هذا المسند يقول الإمام أبو محمد بن حزم الظاهري ~: "ومسند بقي روى فيه عن ألف وثلاث مائة صاحب ونيف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه، واحتفاله فيه، وجَوْدة شيوخه، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً، ليس فيهم عشرة ضعفاء"[2]!!

وهذا المسند يقع في نحو 200 جزء، وفيه (30.969) حديثًا، بزيادة (969) حديثًا على مسند شيخه الإمام أحمد..!!

وحول شخصيته ومنهجه في مؤلفاته وبحوثه يقول الذهبي: وكان إمامًا مجتهدًا صالحًا، ربانيًا صادقًا مخلصًا، رأسًا في العلم والعمل، عديم المثل، منقطع القرين، يفتي بالأثر، ولا يقلد أحدًا[3].

أما العجيب والمحزن فهو أن مسند بقي بن مخلد هذا يُعد مفقودًا الآن، وإن كان المباركفوري قد نقل في تحفة الأحوذي أنه موجود في مكتبة برلين بألمانيا.

غير أن بقيًّا كان له مصنفات أخرى على قدر كبير أيضًا من الأهمية والتفرد، يقول ابن حزم: وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين فمن دونهم، الذي قد أربى فيه على مصنف ابن أبي شيبة وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور... حتى قال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيرًا لا يقلد أحدًا، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل وجاريًا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي[4].

أما عن تفسيره فيقول ابن حزم: أقطع أنه لم يؤلَّف في الإسلام مثل تفسير بقي، لا تفسير محمد بن جرير، ولا غيره[5]..!!

---

1 الذهبي: تاريخ الإسلام.

2 المصدر السابق.

3 الذهبي: تاريخ الإسلام.

4 انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق 10/ 358 .

5 حاجي خليفة: كشف الظنون 1/ 443، السيوطي: طبقات المفسرين ص30، الأدنروي: طبقات المفسرين ص37.

وفوق ذلك كانت له هذه المنقبة العجيبة أيضًا، يقول الذهبي: ومن مناقبه أنه كان من كبار المجاهدين في سبيل الله، يقال: شهد سبعين غزوة..!!

فهل يمكن أن تتخيل مقدار عمله وجهده، ثم أجره إن شاء الله؟!

وصدق الله إذ يقول: (**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**[1]).

و لم يكن بقي بن مخلد ~، هو الوحيد صحاب الرحلة الطويلة للبحث عن العلم، ولكن هناك الكثير والكثير ممن قضوا جلّ حياقم سعيًا وراء العلم.. وكان من هؤلاء العظماء الإمام الجليل شعبة بن الحجاج..

فقد روى الخطيب البغدادي في كتابه "الكفاية في معرفة أصول علم الرواية" تلك الرحلة التي قام بها هذا الإمام العظيم من أجل اعتبار حديث واحد، حتى يقف على علته!!

يقول الخطيب البغدادي: كان جماعة من السلف قعودًا على باب الإمام شعبة، يتذاكرون، فقال أحدهم: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عطاء، عن عقبة بن عامر، قال: كنا نتناوب رعاية الإبل على عهد رسول الله ρ، فجئت ذات يوم والنبي ρ جالس وحوله أصحابه، فسمعته يقول: "من توضأ، فأحسن الوضوء، ثم دخل المسجد، فصلى ركعتين واستغفر الله، غفر الله له". فقلت: بَخٍ بَخٍ! فجذبني رجل من خلفي. فالتفت، فإذا هو عمر بن الخطاب. فقال: الذي قال قبل أحسن! فقلت: وما قبل؟! قال: قال: "من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قيل له: ادخل من أي أبواب الجنة شئت".

واتفق أن استمع الإمام شعبة إلى هذا الحديث، فخرج إلى هؤلاء الرهط وعنّفهم على تهاونهم في عدم تحري الدقة عند رواية هذا الحديث، لوجود علة في سند الرواية: (إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عطاء، عن عقبة)! وأوضح أنه قد سمع أبو إسحاق يروي هذا الحديث، فذهب للتأكد من صحة هذه الرواية، فسأله عمن حدّثه بهذا الحديث فقال له أبو إسحاق: حدثني عبد الله بن عطاء، عن عقبة، فألح شعبة بن الحجاج على أبي إسحاق في السؤال: "هل سمع عبد الله بن عطاء من عقبة"؟! لأن سماع المحدثين من بعضهم يعتبر شرطًا للقبول بصحة الحديث.

ولما لم يتيقن شعبة بن الحجاج من ذلك، قرر أن عليه الذهاب إلى عبد الله بن عطاء بمكة لسؤاله عن هذا الحديث، فبدأ في التجهز لهذه الرحلة، ثم توجه إلى من البصرة إلى مكة، وكان موسم الحج قد بدأ، ولكن لم يكن قصد شعبة الحج، وإنما كان همه معرفة صحة هذا الحديث، فلما لقي عبد الله بن عطاء، سأله عمن سمع منه هذا الحديث، فأخبره أنه سمعه من سعد بن إبراهيم! أي صحت شكوك شعبة بن الحجاج بأن

---

1 (المطففين: 26).

عبد الله بن عطاء لم يسمع هذا الحديث من عقبة بن عامر مباشرة. وهنا كان على شعبة البحث مرة أخرى!!

ولم يكن هذا الشخص الذي سماه عبد الله بن عطاء ممن ذهبوا للحج في هذا العام، بل كان في بلده بالمدينة المنورة، فرحل شعبة بن الحجاج ثانية إلى المدينة، ولقي هذا الرجل، وسأله عمن سمع منه هذا الحديث، فأخبره بأنه سمع هذا الحديث من رجل آخر يقطن في البصرة، وهنا شك شعبة في الأمر، ولكنه أراد أن يكمله للنهاية، فرجع إلى البصرة، فلقي الرجل الذي سُمي له. وسأل شعبة هذا الرجل عن ذلك الحديث، فأخبره أنه سمعه من أحد الضعفاء!

وهنا أيقن شعبة بن الحجاج بضعف هذا الحديث، وقال: لو صح لي مثل هذا الحديث عن رسول الله ρ كان أحب إلي من أهلي ومالي ومن الناس أجمعين[1]!!

فيالله من همم!! يطوف بلدانًا شتى، ويدخل مدائن عدة، وتمضي به الأزمان، وينفق الأموال العظام.. من أجل الوقوف على صحة حديث واحد..!!

وبمثل هذا الجهد العظيم في الرحلة، فقد كان الصادقون من أهل هذه الأمة أيضًا يتسابقون لحجز الأماكن لحضور مجالس العلم.. يقول جعفر بن درستويه (من كبار المحدثين): "كنا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المديني ~ (وهو من علماء الجرح والتعديل) وقت العصر لمجلس غد بعد الفجر، فنقعد طول الليل؛ مخافة أن لا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه"[2]!!

وفي ذلك يقول وهب بن مُنَبِّه ~ (وهو من التابعين): "مجلس يتنازع فيه العلم أحب إلي من قدره صلاة لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سنة أو ما بقي من عمره "[3].

ولأجل ذلك كانوا لا يتركون موطنًا فيه علم إلا طرقوه وحصَّلوا منه، يقول مكحول ~ (وهو من التابعين): "أعتقت بمصر فلم أدع بها علمًا إلا حويته فيما أرى، ثم أتيت العراق، ثم أتيت المدينة فلم أدع بهما علمًا إلا حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت الشام فغربلتها"[4]!!

وتلك هي الطبيعة المتعطشة دائمًا التي تكون عليها نفسُ طالب العلم وهمته، يقول الحسن البصري ~: "منهومان لا يشبعان منهوم في العلم لا يشبع منه ومنهوم في الدنيا لا يشبع منها"[1].

---

1 الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية 400/1.
2 أبو سعد التميمي السمعاني: أدب الإملاء 112/1.
3 الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (325).
4 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 470/28.

ولعله أخذ هذا المعنى من عبد الله بن مسعود > حيث يقول: "منهومان لا يشبعان صاحب العلـــم وصاحب الدنيا ولا يستويان أما صاحب العلم فيزداد رضى للرحمن واما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان ثم قرأ عبد الله: (**كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**)، قَالَ: وَقَالَ الآخَرُ: (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**)2.

وليس أقل من أن صاحب مثل هذه النفس كان إذا فاته شيءٌ من العلم، نزل به الهـــم والحـــزن، وأصابه المرض..!!

فقد ذكروا حديثًا لشعبة لم يسمعه، فجعل يقول: "**واحزناه!!**". وكان يقول: "إنِّي لأذكر الحديث يفوتني فأمرض3"!!

ولأجل ذلك كله لم يكن العلماء فقط هم الذين يطلبون العلم ويبحثون عنه، بل سبقهم إلى تلـــك الفضيلة الأنبياء أيضًا، مع علو قدرهم، وسمو منزلتهم..

وفي صورة توضح ذلك، فقد روى أُبي بن كعب > عن النبي ρ قال: "**قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إليهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إليهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ.**

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّـــخْرَةِ وَضَـــعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنْ الْمِكْتَلِ، (فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا).

وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: (آتِنَـــا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنْ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِـــرَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: (**أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ**).

قَالَ مُوسَى: (**ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**).

---

1 الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (331).

2 الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (332) والآيات من سورة العلق 5،6، وسورة فاطر28.

3 أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء 7/ 155 .

وقد أشعره الله بالتعب ليتوقف ويكتشف ضياع الحوت، ومن ثم يستطيع الوصول إلى من وُصف له بأنه سيُعلِّمه، ويعني ذلك أن الله Y لما اطلع على الإخلاص في قلبه، وظهر على إثر ذلك رغبته الحقيقية في التعلم، فقد يسَّر الله له الوصول إلى ما كان يبغيه، ووفقه إلى طريق العلم..

وهكذا كل من أراد أن يتعلم بصدق، فإن الله يُيسِّر له وسائل التعليم..

ويتابع رسول الله ρ القصة فيقول:

فَلَمَّا انْتَهَيَا إلى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ. فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا)؟

قَالَ: (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ!

(قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا).

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ.."[1].

ثم كان من أمرهما ما كان في سورة الكهف من أحداث..

وما يمكن أن نضيفه هنا، هو أن هذا الجهد العظيم المبذول في تعلم العلم وتحصيله – كما رأينا سابقًا – رغم كل المعوقات والصعوبات التي قد تعتري الطريق – لم يكن ذلك الجهد قاصرًا على العلماء المسلمين فقط، بل شاركهم في ذلك كل من نبغ وتفوق في أي من مجالات العلوم الأخرى من كل أمم الأرض؛ إذ هي سنة كونية وقاعدة مطردة..

فمن بذر لابد وأن يرى الثمر، وعلى قدر البذل والجهد، لابد وأن يكون العطاء..

1 البخاري: كتاب العلم: باب إذا سئل العالم أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله (122)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر υ (2380)، والترمذي (3149)، وأحمد (21155)، وابن حبان (6220). والآيات من سورة الكهف من 61-68.

وعليه، فكما نبغ علماء مسلمون وذاع صيتهم وشهرتهم في مجال علمهم، نتيجة ما بذلوه من مجهود، وما صبروا عليه من مشاق وتضحيات.. فقد نبغ أيضًا علماء غير مسلمين في مجال علومهم، نتيجة طبيعية وحتمية لما مروا به أيضًا في رحلتهم العلمية الخاصة بهم..

فهذا توماس أديسون مخترع المصباح الكهربائي.. كان من دأبه الكد والعمل ودونما انقطاع طيلة الأربع والعشرين ساعة على مدار اليوم، يختلس منها فقط فترات وجيزة للراحة، ليعود على إثرها للبحث والعمل من جديد، وكان يكتفي في طعامه بالوجبات السريعة في المعمل..!!

وفي سنة 1886م استطاع أن يؤسس مصنع "منلوبارك" الشهير بمدينة "نيوجيرسي"، حيث تلاحقت منه اختراعاته التي سجل منها ما يقارب 1500 اختراعًا..!!

وقد بقي في معمله الذي اتخذ منه بيتًا ومصنعًا أربعة أيام متصلة، رافضًا الخروج منه قبل تحقيق اختراعه، وكان يردد: "**إما النجاح أو أن أموت**"..

ولما توفي في الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة 1931م، كان هذا العبقري قد سجَّل رسميًا 2500 اختراعًا!!

ولما سُئِل عن سر هذا الإنجاز الجبّار أجاب: "إن المثابرة والكد والصبر أساس النجاح.. وإن نسبة الوحي والإلهام هي 1%، و 99% عرق جبين"..

وهذا أنطوان لافوازييه[1] مكتشف الأوكسجين.. انقطع كلية عن اللهو والمرح مع أقرانه، وعاش منهمكًا في الدراسة والعلم، حتى تدهورت صحته بسبب ذلك، وأُصيب بتوعك في معدته، الأمر الذي فرض عليه العيش على الحليب لعدة أشهر، حتى نصحه أحد أصدقائه بالتقليل من الإجهاد الفكري، والزيادة في النشاط البدني!!

ورغم ذلك فقد شغل ثلاث وظائف، هي: عضوية المجمع العلمي، وعضوية المزرعة، ومدير دار الأسلحة.. ولم يمنعه ذلك كله من القيام باختباراته العلمية، وقد خصص لها 6 ساعات يوميًّا!!

أما العالم نيوتن[2].. فقد ضرب أروع الأمثلة في تحمل الفقر وضيق العيش وصلف الحياة.. فقد رأت أمه أن تبعده عن الدراسة بعد وفاة أبيه، وذلك ليعتني لها بالأرض والحرث، كما كان يفعل أبوه من قبل!!

---

1 ولد لافوازييه في باريس 1743م، عمل بالمحاماة كوالده ونال جائزة لابتكاره في طريقة إنارة شوارع باريس إلا أنه كان يعشق البحث فقاده ذلك لأن يكون أبو الكيمياء الحديثة وهو أول من تعرف على الأوكسجين، ورغم عبقريته إلا أن مصيره كان الإعدام بعد قيام الثورة الفرنسية.

2 ولد السير إسحاق نيوتن 1642م في بلدة وولثروب البريطانية، وظهرت عليه براعة ميكانيكية فصنع أدوات إلية من تصميمه مثل طائرة ورقية ومزولة وساعة مائية، واكتشف قانون الجاذبية، وقانون الجذب العام، ومن مؤلفاته "الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية"، وتوفي عام 1727.

وبالفعل تخلى مُكرهًا عن الدراسة..!!

ولأجل ذلك، وفي سبيل كسر ذلك الطوق الذي قيَّده عن إتمام تعليمه، كان يختلي بكتبه كلما سنحت له الفرصة، ولما كانت تأمره أمه بمرافقة الخادم إلى السوق، كان يستجيب لها حتى إذا ما أشرف على المدينة خلا إلى كتابه وطلب من الخادم أن يقوم بمهام الشراء بمفرده!!

وهكذا يمضي الخادم لشأنه، ويبقى نيوتن مستلقيًا على العشب يحل إحدى المسائل الحسابية في استغراق كلي، ريثما يعود الخادم من السوق، فيرجعا معًا إلى المزرعة..

أما العالم الفرنسي المشهور لويس باستير1، فقد افتقده الناس ليلة زفافه، ولما بحثوا عنه وجدوه في مختبره يجري بعض التجارب!!!

هذه هي أحوال العلماء في جهادهم من أجل العلم، ومن أجل تحصيله.. ولا يظنن أحدٌ أنه بعيدٌ عن تحصيل مثل هذه الدرجات التي حصَّلها هؤلاء السابقون، ويتحجج في ذلك بأن جهله عريض، أو أن حصيلته قليلة، أو أن بضاعته في ذلك مزجاة!!

فالأمر فقط كما روى معاوية > بسند حسن أن رسول الله ρ قال: "**يا أيها الناس، تعلموا، إنما العلم بالتعلم، وإنما الفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرًا يفقه في الدين**"2.

ولا ريب أن الأمة التي يكون أتباعها على هذه الدرجة من معرفة قيمة العلم، ومن الحرص عليه، والرغبة الشديدة فيه.. لابد أن تكون أمة رائدة سائدة قائدة..

ولاشك أن الذي يتخلى عن هذه الحمية العلمية، يقود أمته ونفسه من قبل إلى الانقياد، بل ويقودهما إلى مواطن الهلاك ومصارع السوء..

---

1 لويس باستر ولد في عام 1822 في مدينة دول في فرنسا، ابتدع طريقة للقاح ضد مرض الكلب واستطاع اكتشاف طريقة اللاهوائية وهي استطاعة بعض الكائنات على العيش دون أوكسجين أو هواء، وهو أول من عرف البكتريا والجراثيم وعرف التعامل معها وتوفي عام 1895.
2 الطبراني في الأوسط (2663)، وقال الألباني: حسن لغيره صحيح الترغيب والترهيب 16/1.

الفصل الثالث: أَوْقَاتُ الْعُلَمَاءُ

صناعة العلماء تبدأ من حرصهم على احترام الوقت كركيزة إسلامية وقيمة حضارية كبرى، وهي الحقيقة التي لم يغفلها الإسلام أبدًا، فكان أن اهتم اهتمامًا كبيرًا بالوقت، وحث أتباعه على استثماره والمحافظة عليه، وذلك فيما ينفع دينهم ودنياهم..

فلعظم الوقت وأهميته الكبرى أقسم الله Y به في كتابه الكريم في أكثر من موضع، فأقسم سبحانه بالفجر، والضحى، والليل، والعصر.. ولم يقسم الله Y إلا بغالٍ وعزيزٍ ونفيس..

وإنه إذا كانت النظرية الغربية ترى أن الوقت هو المال، فإن النظرية الإسلامية ترى أن هذه القيمة بخسٌ لحقِّ الوقت؛ إذ هو أغلى من أن يُقدَّر بمال، ولذلك فكان الوقت في منظومتها هو الحياة..

فالوقت باهظ الثمن؛ إذ هو الحياة بعينها، وما حياة الإنسان إلا ذلك الوقت الذي يقضيه من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة..

ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول ابن القيم ~:

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أستفد هدى ... ولم أكتسب علمًا فما هو من عمري[1]

ولم يكن عجيبًا أن أحدهم حين مرّ بقومٍ وهم في ملهى أو في مقهى جالسون، أنه أخذ يتألم! ولما قيل له في ذلك قال: والله آسف، وأتمنى لو أن الأوقات تشترى كما تشترى البضاعة لاشترينا من هؤلاء أوقاتهم..!!

وفي ذلك يقول الحسن البصري ~: "أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم"[2]!!

وإنه – وللأسف – فإن الكثيرين لم يُدركوا هذه الحقيقة، ولم يفقهوا كون "الوقت" من أعظم وأكبر نعم الله Y على الإنسان، فغبنوه وقدَّروه بأقل من ثمنه، ففرطوا في استهلاكه والانتفاع بكل لحظة

---

1 ابن القيم: مفتاح دار السعادة 1/ 122 .

2 أنور بن سعيد البيلاوي: الوقت بين حرص السلف وتفريط الخلف ص10.

فيه.. فقد روى ابن عباس > أن رسول الله ρ قال: "**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**"1!!

ولذالك يقول ابن مسعود >: "ما ندمت على شيءٍ ندمي على يومٍ غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي".

وإنه لما كان لعلماء الإسلام مهمة شريفة، وغاية نبيلة- على نحو ما وضحنا سابقًا - فضلا عن معرفتهم تلك القيمة الغالية للوقت.. فقد كان لهم تعاملهم الخاص معه، وبمعنى آخر: كان لهم تعاملهم الخاص مع أنفاسهم التي تُعد عليهم.. وذاك الذي أورثهم حضارة عريقة الجذور، استطاعت أن تؤتي أُكلها علمًا وعزًا ومجدًا، لم يعرف التاريخ لمثلها نظيرًا!!

وفي تجسيد عملي، وفي صورة واقعية تبين تثمين ذلك الوقت وكيفية إدارته في واقع علماء المسلمين، يقول الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي: إني لا يحل لي أن أُضيِّع ساعة من عمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد ما كنت أجده وأنا ابن عشرين2.

ثم ترى العجب حين تراه يُكمل فيقول: وأنا أقصر بغاية جهدي وقت أكلي حتى أختار سفّ الكعك وتحسِّيه بالماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ؛ توفرًا علي مطالعةٍ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه3!!

وقال موسى بن إسماعيل التَّبُوذكِيّ: لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا لصدقت، كان مشغولاً: إما أن يحدث أو يقرأ أو يُسبِّح أو يصلي، وقد قسم النهار على ذلك4.

بل إن الإمام سُليم بن أيوب الرازي (أحد كبار أئمة المذهب الشافعي ت 447هـ) كان يحاسب نفسه على الأنفاس أن تضيع دون إفادة، فقد حكى عنه أبو الفرج غيث بن علي التنوخي الصوري قال: وحُدِّثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يدع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة، إما ينسخ، أو يُدرِّس، أو يقرأ، وينسخ شيئًا كثيرًا. ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني (أحد تلامذته) أنه نزل يومًا إلى داره ورجع، فقال: "وقد قرأت جزءًا في طريقي"!!

---

1 البخاري: كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة (6049)، والترمذي (2304)، وابن ماجة (4170)، واحمد (3207)، والحاكم (7845).

2 أبو الفضل العسقلاني: لسان الميزان 243/4.

3 ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة 108/1.

4 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 265/7.

قال: وحدثني المؤمَّل بن الحسن: أنه رأى سُلَيمًا حَفِيَ عليه القلم (أي: لم يعد صالحًا للكتابة) فإلى أن قَطَّهُ (أي: براه وأصلحه) جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء أصلاحه القلم؛ لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ[1]!!

وهذا محمد بن سلاَم البِيْكَنْدي شيخ البخاري (ت 227هـ) كان في حال الطلب جالسًا في مجلس الإملاء والشيخ يحدِّث ويُمْلي، فانكسر قلم محمد بن سلام فأمر أن ينادى: **قلم بدينار**.. فتطايرت إليه الأقلام[2].

وذلك لئلا ينشغل ولو برهة عن الدرس والتحصيل؛ فالمال يعوّض، أما الوقت والتحصيل فهيهات هيهات أن يرجع..!!

ومن هذه المشكاة، كان الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول: أثقل الساعات عليَّ: ساعة آكل فيها[3]!!

ويحكي ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء فيقول: حكى لنا القاضي شمس الدين الخوئي عن الشيخ فخر الدين بن الخطيب أنه قال: والله إنني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز[4]!!

وحكى أيضًا القاضي عياض في ترتيب المدارك عن ابن المكوى القرطبي[5]، وكان قد حبب إليه الدرس مدة عمره لا يفتر عنه ليله ونهاره، فقال:

ذكر أن صديقًا له قصده في عيد زائرًا له، فأصابه داخل داره وبابه مفتوح، فجلس منتظره، وأبطأ عليه، فأوصى إليه، فخرج وهو ينظر في كتاب فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه لاشتغال باله بالكتاب!! فتنبّه حينئذٍ له وسلَّم عليه، واعتذر إليه من احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه!! فقال له الرجل: **في أيام عيد ووقت راحة مسنونة؟!** فقال: إذا علمت بهذه النفس انصبت إلى هذه المعرفة، والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة[6].

وعن مكانته يقول ابن عفيف: إليه انتهت رئاسة العلم بالأندلس، حتى صار بمثابة يحيى بن يحيى في زمانه، واعتلى على جميع الفقهاء، ونفذت الأحكام برأيه، فحكم على الحاكم، وبعُد صيته بالأندلس، وكان

---

1 ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص263.
2 الذهبي: سير أعلام النبلاء
3 أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد ص88
4 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 130/3.
5 هو أبو عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي المعروف بابن المكوى، مولى بني أمية.
6 القاضي عياض: ترتيب المدارك 636/4.

~ من ذوي المتانة في دينه والصلابة في رأيه والبعد عن هوى نفسه، لا يداهن السلطان، ولا يدع صـــدعه بالحق، كان البعيد والقريب عنده في الحق سواء[1]!!

فلأجل ذلك الحرص الشديد على الوقت في الدراسة وتحصيل العلم، لم تكن تضيع منـــهم برهـــة سُدى.. ومن ثم فإنك تراهم يقتنصون ما أُسمِّيه بـــ "**الفراغات البينية**"، وهي التي تكون بين عمل وآخر، بل ويجعلون من أعمال حياتهم الضرورية – مثل أوقات الأكل، ودخول الخلاء، والـــذهاب إلى عمـــل مـــا – يجعلون منها أوقاتًا للدرس والعلم أيضًا!!

فقد ذكر الحافظ الذهبي في ترجمة أبي حاتم الرازي أنه قال: قال لي أبو زرعة (يعني الرازي): مـــا رأيت أحدًا أحرص على طلب العلم منك، فقلت له: إن عبد الرحمن ابني لحريص. فقال: من أشبه أباه فما ظلم.

قال الرَّمَّام (وهو أحمد بن علي، أحد رجال إسناد الخبر): فسألت عبد الرحمن عن اتفـــاق كثـــرة السماع له وسؤالاته لأبيه فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل الخلاء وأقرأ عليـــه، ويدخل البيت في طلب شيء فأقرأ عليه[2]!!

فكانت ثمرة تلك المحافظة العجيبة على الزمن، والحرص الشديد على طلب العلم هذا – كانت ثمرته نتاجًا علميًا كبيرًا، منه: كتاب "الجرح والتعديل" في تسعة مجلدات، وهو من أهم الكتب النفيســـة الحافلـــة الرائدة في هذا العلم، وكتاب "التفسير" في عدة مجلدات، وكتاب "المسند" في ألف جزء!!

وهذا عبد الرحمن بن تيمية يحكي عن أبيه فيقول: كان الجد إذا دخل الخلاء يقول: اقرأ لي هـــذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع[3]!!

وعلى هذا النحو أيضًا قال عمَّار بن رجاء: سمعت عبيد بن يعيش يقول: أقمت ثلاثين ســـنة مـــا أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث[4]!!

بل إن داود الطائي كان يستفّ الفتيت، ويقول: بين سفِّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية[5]!!

---

1 القاضي عياض: ترتيب المسالك ص657.
2 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 388/24.
3 أبو عبد الله الزرعي: روضة المحبين 70/1.
4 الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي 178/2.
5 ابن الجوزي: صيد الخاطر ص489.

وحكى القطب اليونيني عن الإمام النووي ~ أنه كان لا يضيع له وقت في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وإيابه يشتغل في تكرار محفوظة، أو مطالعة، وإنه بقي على التحصيل – على هذا الوجه – ست سنين[1]!!

وبالإمكان أن أذكر هنا تجرِبة شخصية مررت بها ونفعتني كثيرًا، من خلال استغلال تلك المسافات البينية، أو الأوقات المهدرة بين العمل والآخر..

فحين كنت في أمريكا، ولما كانت المسافات التي نقطعها يوميًا بالسيارة للوصول إلى العمل طويلة جدًا، فقد حرصت على أن أستغل ذلك الوقت وأستفيد منه قدر الطاقة، وقمت على إثر ذلك بإعداد برنامج عملي تفصيلي لسماع محاضرات علمية في أثناء ركوب السيارة، واستطعت سماع مكتبة كبيرة وقيمة من الأشرطة المسموعة التي في المسجد، والتي هي عندي وعند أصدقائي، وكانت لشيوخ وعلماء من بلدان إسلامية شتى، فأضافت إلى علومًا ما تخيلتُ أن أحوزها.. وكل ذلك في وقت قد يُهدَر دونما تقدير!!

مع العلم بأن استماعي هذا لم يكن بطريقة عشوائية، وإنما كان وفق برنامج مدروس ومتكامل، يضيف المعلومة إلى المعلومة، والموضوع إلى الموضوع، وهكذا..

فماذا لو خصص كل منا "شريطًا" إسلاميًا – مثلاً – وجعله معه أثناء سفره – وخاصة وكلنا يمر بتجربة السفر والتنقل والترحال – واستطاع أن يستفيد من سماعه في السيارة التي يستقلها، أو يستفيد ويفيد منه الآخرين، إذا كان يستقل موأصلاًت عامة؟!!

إن الأمر جدٌّ هيِّن.. وما عليك إلا أن تعرف قيمة ما عزمت عليه.. ولا إخال أنك لم تعرفه الآن!!

وليس الأمر في ذلك مقتصرًا فقط على أوقات السفر، فهناك أيضًا أوقات الانتظار، سواء كان ذلك لقضاء عمل معين أو مصلحة خاصة.. وما أكثر ذلك في حياتنا!! فهناك – مثلاً – عيادات الأطباء.. وهناك مكاتب المحاماة.. وهناك انتظار المحاضرات.. وغيرها الكثير من الفراغات الوقتية الهائلة!!

فمن الممكن في ذلك تخصيص كتاب لقراءته والاستفادة منه، أو حَمل المصحف للحفظ فيه أو قراءة الورد اليومي، وذلك في مثل كل هذه الأمور.. ويكفي في ذلك ألا تجعل وقتًا يمر عليك دون فائدة!!

وقد حكي عن أبي بكر بن الخياط النحوي ~ أنه كان يدرس جميع أوقاته، حتى في الطريق!! وكان ربما سقط في جرف، أو خبطته دابة لسبب ذلك[2]!!

---

1 السخاوي: ترجمة النووي ص11،12.

2 أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد ص77.

وأما الفتح بن خاقان (استوزره المتوكل واتخذه أخًا له) فكان يحمل الكتاب في خُفِّه، فإذا قام مـــن بين يدي المتوكل لحاجة أو ليصلي، أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الـــذي يريـــد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه1.

أما حالهم في سهر الليل، فكان له شأنٌ آخر..

فكان محمد بن الحسن الشيباني ~ لا ينام الليل، وكان عنده الماء يزيل نومه به، وكان يقـــول: إن النوم من الحرارة لابد من دفعه بالماء البارد2!!

وذكر ابن اللباد أن محمد بن عبدوس صلَّى الصبح بوضوء العتمة (العشاء) ثلاثين سنة، خمس عشرة من دراسة، وخمس عشرة من عبادة3!!

ويحكي أحد أصحاب الإمام مالك، وهو عبد الرحمن بن قاسم؛ فيقول: كنت آتي مالكًـــا غلسًـــا فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشـــراح الصـــدر، فكنـــت آتي كـــل ســـحـــر، فتوسدتُ مرة عتبته فغلبتني عيني فنِمت، وخرج مالك إلى المسجد و لم أشعر به، فركضتني جارية سوداء له برجلها، وقالت لي: إن مولاك (ظنت أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه وتردده عليه) قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسعٌ وأربعون سنة قلَّما صلَّى الصبح إلا بوضوء العتمة4!!

وإذا نظرنا إلى حالهم مع أقرانهم ومحيطهم ودروسهم فإنك ترى العجب العجاب..

وقد كان العلامة الكبير أبو المعالي محمود شكري الألوسي البغدادي الحفيد، يمتاز بالجد الشـــديد والحرص على الوقت، فكان لا يثنيه عن دروسه شدة الحر، ولا قرص برد الشتاء، وكثيرًا ما تعرَّض تلاميذه بسبب تأخرهم عن الدرس إلى النقد والتعنيف..

قال عنه تلميذه العلامة بهجة الأثري: أذكر أنني انقطعت عن حضور درسه في يوم مزعج، شـــديد الريح، غزير المطر، كثير الوحل؛ ظنًا مني أنه لا يحضر المدرسة، فلمّا شخصت في اليوم الثاني إلى الـــدرس، صار ينشد بلهجة الغضبان: ولا خير فيمن عاقه الحر والبرد.. 5!!

ولهذا قال بعضهم: "من أمضى يومًا من عمره في غير حقٍ قضاه، أو فرضٍ أدَّاه، أو مجدٍ أصَّـــله، أو حمدٍ حصَّله، أو خيرٍ أسَّسَه، أو علمٍ اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه".

---

1 ابن النديم: الفهرست ص169.

2 طاشكبري: مفتاح السعادة ومصباح السيادة 23/1.

3 القاضي عياض: الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع 235/1.

4 الذهبي: سير أعلام النبلاء 120/9.

5 من مقدمة الأستاذ عدنان عبد الرحمن الدوري: لكتاب إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد للآلوسي محمود الحفيد ص15.

وعليه فلا نعجب حين نسمع بعد ذلك عن وفرة حفظهم وسعة تحصيلهم..

فلا نعجب - مثلاً - حين نعلم أن النووي وهو في أول طلبه للعلم، كان يقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا!!

فكان يقرأ درسين في "الوسيط"، وثالثًا في "المهذب"، ورابعًا في الجمع بين الصحيحين، وخامسًا في "صحيح مسلم"، ودرسًا في "اللُّمع" لابن جني في النحو، ودرسًا في "أصلاًح المنطق" لابن السكيت في اللغة، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في أصول الفقه، تارة في "اللمع" لابن إسحاق، وتارة في "المنتخب" للفخر الرازي، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين[1]!!

قال النووي: وكنت أُعلِّق جميع ما يتعلق بها من شرح مُشْكل، وأيضًاح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغإلي، وأعانني عليه[2]!!

وفي مثل ذلك ما ذكره الذهبي في تاريخه عن إسماعيل بن أحمد الحيري النيسابوري الضرير، فيقول في ترجمته: سمع عليه الخطيب البغدادي بمكة صحيح البخاري بسماعه من الكشميهني في ثلاثة مجالس: اثنان منها في ليلتين، كان يبتدئ بالقراءة وقت المغرب ويختم عند صلاة الفجر، والثالث من ضحوة النهار إلى طلوع الفجر!!

وقد علق الذهبي على ذلك بقوله: وهذا شيءٌ لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه[3]!!

وقد قرأ الفيروز آبادي (صاحب القاموس المحيط) صحيح مسلم في ثلاثة أيام وهو بدمشق.

وذكر الحافظ السخاوي في حق شيخه ابن حجر قال: وقع لشيخنا الحافظ ابن حجر أجلَّ مما وقع لشيخه المجد اللغوي، فإنه قرأ صحيح البخاري في أربعين ساعة رملية، وقرأ صحيح مسلم في أربعة مجالس سوى مجلس الختم، وقرأ سنن ابن ماجة في أربعة مجالس، وقرأ كتاب النسائي الكبير في عشرة مجالس، كل مجلس منها نحو أربع ساعات، وقرأ صحيح البخاري في عشرة مجالس كل مجلس منها أربع ساعات.

ثم قال السخاوي: وأسرع شيء وقع له (أي لابن حجر) أنه قرأ في رحلته الشامية معجم الطبراني الكبير في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر!! قال: وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو ألف حديث وخمسمائة[4]!!

---

1 الذهبي: تذكرة الحفاظ 1470/4.

2 الذهبي: تذكرة الحفاظ 1470/4.

3 السخاوي: فتح المغيث 52/2.

4 انظر سيد العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة 557/1، 558، نقلا عن الضوء اللامع للسخاوي.

كما لا نعجب بعد ذلك أيضًا أن يصبح لهم باع عريض في شتى أصناف العلوم..

وفي صورة تعبر عن ذلك، وتُجسِّد قيمة الوقت عندهم، وكيفية تحصيلهم للعلوم، وتبين أيضًا سعة اطلاعهم ووفرة تصنيفاتهم.. ما يقصه صاحب طبقات الأطباء عن ابن سينا، حيث يحكي عن نفسه فيقول:

أحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقضى مني العجب... ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلي، وكان من علماء الفلسفة، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد، وكنت من أجود السالكين، وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به.

ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق، وكذلك كتاب إقليدس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره، ثم انتقلت إلى المجسطي، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية، قال لي النائلي: تول قراءتها وحلها بنفسك، ثم اعرضها عليّ لأبين لك صوابه من خطئه، وما كان الرجل يقوم بالكتاب، وأخذت أحل ذلك الكتاب، فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه أفهمته إياه (أي أنه بدأ يشرح لأستاذه)!!

ثم فارقني النائلي متوجهًا إلى كركانج، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح، من الطبيعي والإلهي، وصارت أبواب العلم تنفتح علي.

ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه؛ وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون عليَّ علم الطب، وتعهدت المرضى فانفتح عليَّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة!!

ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفًا، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغلت النهار بغيره، وجمعت بين يدي ظهورًا، فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية، ورتبتها في تلك الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة.

وكلما كنت أتحيَّر في مسألة و لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس، ترددت إلى الجامع، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق، وتيسر المتعسر!!

وكنت أرجع بالليل إلى داري، وأضع السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلى قوتي، ثم أرجع إلى القراءة، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى أن كثيرًا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام!!

وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني!!

... حتى أحكمت على المنطق والطبيعي والرياضي، ثم عدلت إلى الإلهي، وقرأت كتاب "ما بعد الطبيعة"، فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظًا، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه!!

وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين، وبيد دلال مجلد ينادي عليه، فعرضه عليَّ فرددته رد متبرم، معتقدٌ أن لا فائدة من هذا العلم، فقال لي: اشتر مني هذا فإنه رخيص، أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاجٌ إلى ثمنه.

واشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، ورجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته، فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظًا على ظهر القلب، وفرحت بذلك، وتصدقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء؛ شكرًا لله تعالى[1]!!

أعتقد أن معنى استغلال الوقت واستثماره قد وضح لنا من خلال التعرف على قصة ابن سينا، وطريقته في تلقي العلوم والبحث عنها، وهي ليست طريقة خاصة بابن سينا وحده، ولكنها الطريقة الأصيلة التي يحرص عليها أي عالم يريد أن يصل إلى الإبداع!

وغير ابن سينا، كان هناك الشافعي أيضًا..

فقد ذكر ابن خلكان أن أحد علماء الأنساب في العراق تحدث مع الشافعي في هذا العلم (علم الأنساب)، فوجده من كبار العلماء فيه، فلما طال بينهما الحديث، قال له الشافعي: مثلي ومثلك لا يليق بهما أن يتحدثا عن أنساب الرجال من قبل آبائهم، فتعال نتحدث عن أنسابهم من قبل أمهاتهم[2]!!

ثم يذكر أنه لقيه طلبة الطب في الفسطاط، فوجدوا عنده من المعرفة في علومهم ما أطمعهم في أن يخصص لهم درسًا يأخذون فيه عنه علوم الطب، فأشار إلى الفقهاء واقفين ينتظرونه في ظل جدار جامع عمرو بن العاص فقال: وهل ترك لي هؤلاء من الوقت ما أتفرغ به لكم؟[3]!!

---

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء3/71-74.

2 الصفدي: الوافي بالوفيات 2/175.

3 ابن أبي حاتم الرازي: آداب الشافعي ومناقبه ص432.

ولما قدم الشافعي الفسطاط كان يجالسه أرباب الحلق، عبد الله بن الحكم ونظراؤه، وكان حسن الوجه والخلق، فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان، وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح بجامع عمرو، فيجيئه أهل القرآن ويسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث، فيسألونه عن معانيه وتفسيره؛ فإذا ارتفعت الشمس قاموا، واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة؛ فإذا ارتفع النهار تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو، حتى يقترب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله في الفسطاط1!!

وقال الربيع: أقام الشافعي ها هنا في الفسطاط أربع سنين، فأملى ألفًا وخمسين ورقة، كلها في أربع سنين، وكان مع ذلك عليلاً شديد العلة، وربما خرج الدم وهو راكب، حتى يملأ سراويله وخفه (يعني من البواسير) 2!!

وتراه يحكي عن نفسه فيما رواه عنه عمرو بن سواد قال: قال لي الشافعي: ولدت بعسقلان، فلما أتت عليَّ سنتان حملتني أمي إلى مكة، وكانت همتي في شيئين: الرمي، وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى إني أصيب من عشرةٍ عشرة، وسكت عن العلم، فقلت: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي3!!

وليس لنا بعد ذلك أن نعجب أيضًا من حالهم وهم على فراش الموت.. إذ تراهم يطلبون العلم حتى آخر لحظات حياتهم..

فقد روى المعافى بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري ~ قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذُكر له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحالة؟! فقال: ينبغي للإنسان ألا يدع اقتباس العلم حتى الممات4!!

و عن فرقد (إمام مسجد البصرة) أنهم دخلوا على سفيان الثوري في مرض موته، فحدثه رجل بحديثٍ فأعجبه، فضرب سفيان بيده إلى تحت فراشه، فأخرج ألواحًا فكتبه، فقالوا له: على هذه الحال منك؟! فقال: إنه حسن؛ إن بقيت فقد سمعت حسنًا، وإن مت فقد كتبت حسنًا5!!

ويروي القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي موقفًا جميلاً لأستاذه الإمام أبي يوسف القاضي، والإمام أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، صاحب أبي حنيفة وتلميذه وناشر علمه ومذهبه، وقاضي الخلفاء العباسيين الثلاثة: المهدي والهادي والرشيد، وأول من دُعي: قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي

---

1 ياقوت الحموي: معجم الأدباء 304/17.
2 البيهقي: المناقب 289/2،290.
3 أبو نعيم: حلية الأولياء 77/9، وأبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 362/24.
4 ابن عساكر: تاريخ دمشق 199/52.
5 أبو نعيم: حلية الأولياء 64/7.

قضاة الدنيا، ت 182هـ، يقول القاضي إبراهيم: مرض أبو يوسف فأتيته أعوده، فوجدته مُغمىً عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم، ما تقول في مسألةٍ؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو بها ناج! ثم قال: يا إبراهيم، أيما أفضل في رمي الجمار – أي في مناسك الحج – أن يرميها ماشيًا أو راكبًا؟ قلت: راكبًا، قال: أخطأت، قلت: ماشيًا، قال أخطأت، قلت: قل فيها، يرضى الله عنك!! قال: أما من كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشيًا، وأما ما كان لا يوقف عنده، فالأفضل أن يرميه راكبًا.

قال: ثم قمت من عنده، فما بلغت باب الدار حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات ~1!!

ويروي الفقيه أبو الحسن على بن عيسى ~ أنه دخل على أبي الريحان البيروني ~ وهو في لحظات حياته الأخيرة، وقد حشرجت نفسه، وكادت أن تخرج، فقال البيروني وهو في هذه الحالة من حالات الاحتضار: كيف قلت لي يومًا في مسألة الجِدَّات التي تكون من قبل الأم؟!

يسأله عن مسألة من مسائل الميراث!!

فيقول الفقيه أبو الحسن: فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟!

قال لي: يا هذا، أُوَدِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرًا لي من أن أُخلِّيها وأنا جاهل بها؟!2

فهو يريد أن يتعلم الأمر قبل أن يموت، لا لشيءٍ إلا لمجرد العلم، وذلك أنه يعلم فضل ومزية تلك المكانة والمنزلة.. فأعاد عليه الفقيه أبو الحسن شرح المسألة وعلَّمه وحفَّظه، ثم قال: "وخرجت من عنده، وأنا في الطريق سمعت الصراخ"3!!

لقد مات أبو الريحان البيروني ~ بعد دقائق من تعلمه المسألة..!!

وقد يتخيل البعض أن هذه مبالغات من هؤلاء العلماء، وأن الحرص على الوقت إلى هذه الصورة قد يكون تكلفًا.. لكن الذي ينظر إلى إنتاج هؤلاء العلماء يدرك بوضوح أهمية استغلال كل لحظة من لحظات الحياة، وخاصة أن التراث الذي تركوه ما زلنا ننتفع به إلى ساعتنا هذه، وقد يبقى خالدًا إلى يوم القيامة!

---

1 ابن معظم شاه الكشميري: العرف الشذي للكشميري 358/2. الطبعة الأولى المحقق محمود أحمد شاكر المدقق مؤسسة ضحى للنشر والتوزيع

2 الصفدي: الوافي بالوفيات 1070/1.

3 ياقوت الحموي: معجم الأدباء 181/17،182.

قال الخطيب البغدادي: سمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي، يحكي أن محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ عن ثلاثة ثمانين سنة) مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة[1]!!

أي أنه ~ كتب في حياته ما يزيد على نصف مليون ورقة!!

ولا يتأتى أبدًا هذا الإنتاج الغزير بدون حرص أكيد على كل لحظات الحياة مهما دقت!

يقول الأستاذ محمد كرد علي في ترجمة الطبري: وما أُثِر عنه أنه أضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة[2]!!

ولعل عجب القارئ يزداد ويزداد إذا علم أن الإمام الطبري لم يكن منتجًا في مجال واحد فقط، بل في عدة مجالات في آن واحد، فله التصانيف العظيمة في التفسير، وكذلك في التاريخ، هذا غير تميزه الملحوظ في الفقه، حيث يعد صاحب مدرسة فقهية خاصة به!!

وغير الطبري فقد بلغ الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي البغدادي الذي يقول فيه الإمام ابن تيمية: "إنه من أذكياء العالم"[3]، بلغ في محافظته على الزمن مبلغًا أثمر أكبر كتاب عُرِفَ في الدنيا، وهو كتاب "الفنون"، وقد جاء في ثمانمائة مجلد!!

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في ترجمته: وأكبر تصانيفه كتاب "الفنون"، وهو كتاب كبير جدًا، فيه فوائد كثيرة جليلة في الوعظ، والتفسير، والفقه، والأصول، والنحو، واللغة، والشعر، والتاريخ، والحكايات، وفيه مناظراته ومجالساته التي وقعت له، وخواطره، ونتائج فكره، قيدها فيه[4].

وهذا هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي تليمذ ابن عقيل (ت 597هـ) أحد أعلام الأئمة الذين يقتدي بهم في حرصهم على الزمن، ها هو يتحدث عن نفسه يصف إنتاجه – كما يقول أبو المظفر –: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يديَّ مائة ألف، وأسلم على يديَّ عشرون ألف يهودي ونصراني[5].

أما مقدار ما ألَّف وصنف، فنترك ابن تيمية يحدثنا عنه:

---

1 السيوطي: طبقات المفسرين 82/1.
2 محمد كرد علي: كنوز الأجداد 123.
3 ابن تيمية: درء التعارض 133/4.
4 ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة 107/1-108.
5 الصفدي: الوافي في الوفيات 2582/1.

يقول الإمام ابن تيمية — ~– في "أجوبته المصرية" "كان الشيخ أبو الفرج مفتيًا كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة حتى عددها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك له ما لم أره".

ويقول الحافظ الذهبي: "وما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل ولم يدع ابن الجوزي فنًا من الفنون إلا وصنف فيه، منها ما هو عشرون مجلدًا ، ومنها ما هو في رسالة قصيرة[1].

ولعلنا نفهم سر هذا الإنتاج العجيب عندما ننظر إلى تقديره ~ للوقت وقيمته..

يقول الموفق عبد اللطيف– فيما نقله عنه الذهبي إنه كان "لا يضيع من زمانه شيئًا"[2].

ويقول ابن الجوزي نفسه– ~– : لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون لك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني، وما يتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه، واستوحش من الوحدة، خصوصًا في أيام التهاني والسلام، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرت من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق.

ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب. فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شئ من وقتي[3].

لقد عرف ابن الجوزي ~ مهمته في الحياة، فما ضيع لحظة في عمل يسلهيه عن مهمته!

وعلى سنن من سبق، مشي رئيس الطب في زمانه : ابن النفيس– ~– ويقول عنه الإمام التاج السبكي:"وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله، قيل: ولا جاء بعد ابن سينا مثله، قالوا وكان في العلاج أعظم من ابن سينا".هذا الطبيب الرائد صنف كتابًا في الطب سماه "الشامل" يقول فيه تاج السبكي:

1 الذهبي: تاريخ الإسلام 4265/1.
2 الذهبي: تذكرة الحفاظ 1346/4.
3 ابن الجوزي: صيد الخاطر 225/1.

"قيل لو تم لكان ثلاثمائة مجلدة، تم منه ثمانون مجلدة ، وكان فيما يذكر يملي تصانيفه من ذهنه"1. فكيف تم له لك؟

كان ــــ إذا أراد التصنيف، تُوضع له الأقلام مبرية، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف، إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا انحدر، فإذا كلَّ القلم وحفي، رمى به وتناول غيره، لئلاّ يضيع عليه الزمان في بري القلم2..

ودخل ذات مرة إلى الحمام، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمّام (موضع نزع الثياب وخلعها) واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله3..!!

إن ما ذكرناه هنا من أمثلة لتقدير العلماء لقيمة الوقت ما هو إلا غيضٌ من فيض، وإن النظر في حياة هؤلاء العظماء ليعكس اهتمامًا – قد يبدو لنا متكلفًا – لهذه القيمة الغالية: الوقت، ولعل بعض الناس يرى أن الأمر أهون من ذلك، وأن الحياة فيها متعًا كثيرة، تحتاج أن يفرغ لها وقت وأوقات.. لكن العالمين ببواطن الأمور، والناظرين إلى حقيقة الأشياء، والفاهمين لقصر الدنيا وحقيقة الآخرة.. هؤلاء يعتبرون الأنفاس معدودة، فضلاً عن الساعات والأيام، ولله در الحسن البصري ~ إذ يقول: "يا ابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، إذا ذهب يومك ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل"4!!

فما أنت – يا عبد الله – إلا بضع لحظات.. فإما نفعٌ لك وللبشرية، وإما ضياعٌ وهلاكٌ وخسران!!

"والكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"5..

وأسأل الله أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

الفصل الرابع: أَخْلاَقُ الْعُلَمَاء

مرّ بنا في الفصول الثلاثة السابقة أمورٌ لا غنى عنها في تكوين العلماء.. وأول هذه الأمور هو إدراك قيمة الوقت ومنزلة العلماء، أما الأمر الثاني فهو التيقن أن ذلك لن يتأتى إلا ببذل الغالي والنفيس، وصرف

---

1 القنوجي: أبجد العلوم 115/3.

2 انظر: عمر فاروق الطباع: ابن النفيس في تاريخ الطب العربي ص157، نقلاً عن ابن فضل الله العمري: مساللك الأبصار.

3 انظر: عمر فاروق الطباع: ابن النفيس في تاريخ الطب العربي ص157، نقلاً عن ابن فضل الله العمري: مساللك الأبصار.

4 ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ ص382.

5 الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن شداد بن أوس مرفوعًا إلي رسول الله ρ (2459)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (4260)، وأحمد (17164)، والحاكم (7639) وقال صحيح افسناد و لم يخرجاه ووافقه الذهبي.

الجهد كل الجهد في سبيل ذلك، وأما الأمر الثالث والأخير فهو إدراك قيمة الوقت والحرص على كل دقيقة من دقائق الحياة..

وإذا كنا قد وقفنا على ذلك، فلنعلم أن مثل هذه الأمور وتلك الخلال ليست خاصة بالمسلمين وحدهم، وإنما يشترك فيها ويتساوى في تحصيلها العالم المسلم وغير المسلم، وهي تصلح للعالم التقي كما تصلح للعالم الفاجر.. فالجميع في الجَمْع بينها سواء..

وبالنظر إلى رسالة الإسلام، ودور هذا الدين العظيم في أصلاًح الأرض كلها، وفي نفع العالمين، كل العالمين، كان لزامًا على العالم المسلم أن يكون مختلفًا عن غيره، متميزًا بما لا يقدر غيره على التميز به..

ولا يكون ذلك في جانب الجهد أو التحصيل فقط، فهذا - كما ذكرنا - أمر مشترك بين عموم العلماء، ولكن يكون - وفي المقام الأول - في جانب الأخلاق والقيم..

إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وهم قدوة المجتمع، وهم بناة الأمة وقائدو التغيير والأصلاًح، لذا كان لزامًا عليهم أن يكون لهم أخلاق خاصة، يتفردون بها عن عموم الخلق، سواء من المسلمين أو من غير المسلمين..

إن هذا يعني أن هناك أخلاقًا معينة وصفات خاصة، لابد أن يتحلى بها العالم المسلم، ولابد أن تصطبغ بها حياته وتكون غالبة عليه.. ومنذ بداية الطريق..

وفي ذلك فإنا نكتفي بما يمكن أن يكون هو الأساس وليس الكل؛ إذ الأمر أكبر من أن يحويه هذا الفصل، ويكفي أن أخلاق العالم تُمثِّل في حد ذاتها أخلاق الإسلام..

وعليه؛ فإن أهم ما يجب على العالم أن يتصف به من أخلاق.. ما يلي:

أولاً: الإخلاص:

وهو حجر الزاوية في القضية برمتها.. وهو الخطوة الأولى في طريق تحصيل العلم.. إذ هو الميـــزان الحساس الذي به يُقوَّم ويوزن عِلْمنا، بل أعمالنا كلها.. وبه نصعد إلى أعلى الدرجات والمنازل، ومن غيره نهوي – كما سنُبين – إلى أسفل الدركات وأحط الرتب..!!

إنه الإخلاص..

إنه السر الدفين المخبوء داخل قلب المرء، والذي لا يطلع عليه غير من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور..

فتُرى..

لماذا نتعلم هذا العلم..؟!

وأيُّ شيء نبغي من وراء تحصيله..؟!

وبالأحرى: لماذا نُريد أن نكون علماء..؟!

هل هذا لأجل الله عز وجل، وطمعًا في جنته، وخوفًا من ناره؟!

أم أنه لأجل التكسب وجني المال..؟! أو لأجل التفاخر والتباهي، والرفعة في دار الدنيا، والمنزلـــة العالية في قلوب الخلق..؟!

وقبل الإجابة على هذه الأسئلة، لنعي جيدًا ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة > قـــال: سمعـــت رسول الله ρ يقول: "**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْـــتَ لِـــأَنْ يُقَـــالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.**

فهذا الشهيد الذي مات في وسط المعركة، والذي جاد بنفسه التي هي أغلى ما يملك.. يُجر علـــى وجهه حتى يُلقى في النار!!

لقد اطلع على باطنه الذي يعلم السر وأخفى، وعلم أنه إنما كان يُقاتل ليرتقي أرفع الـــدرجات في أعين الناس، كان يُقاتل ليتحدث الناس عنه بأنه جريء مقدام.. وقد تحقق طلبه وبُغيته، وتحدَث الناس عنـــه

بذلك، ليأخذ نصيبه في دار الدنيا، ومن ثم فليس له نصيب في الآخرة.. (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[1]).

وهذا عن أوَّل الثلاثة الذين هم أول من يُقضى عليه يوم القيامة، وأما الثاني فهو:

"وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ".

وهذا الرجل الثاني، الذي يحكم عليه ضمن أول من يحكم عليهم يوم القيامة، هو بيت القصيد في بحثنا، وهو موضوع دراستنا..

وهو لم يكن عالمًا وحسب، وإنما كان عالمًا متفاعلاً ومؤثرًا في مجتمعه، تعلَّم العلم، ثم راح يبذل جهده ووقته وعرقه ليعلمه الناس.. ثم هو يُجَرُّ على وجهه حتى يُلقى في النار!!

ولا عجب؛ إنه كمال العدل.. فلم يكن في ذلك كله يطلب وجه الله Y.. لقد انطوى قلبه على مكنون من الأهداف الشخصية والمصالح الخاصة في دار الدنيا.. لقد أراد أن يُشار إليه بالبنان، وأراد أن يكون حديث الناس في مجالسهم وسمرهم، وأراد أن يُعلم أنه الأعلم، وأنه الأقرأ..

وكل هذا قد حدث!!

حدث ونال ما تمنى، وتكلم الناس كما أراد، وتحقق حلمه الذي كان يسعى إليه.. فكان هذا هو أجره ونصيبه، وقد أخذه كاملاً كما أراده هو.. فليس العدل إذن أن يأخذه مرة ثانية.. ومن ثم فليس لك في الآخرة نصيب!!

أما الرجل الثالث، فكان أيضًا على شاكلتهم في مقصده ومراده، فنال أيضًا درجتهم، وجُر على وجهه في النار، يقول رسول الله ρ عنه يصفه:

"وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"[2].

والقضية جد خطيرة، والموضوع ليس بالهيِّن!!

---

1 (يونس: 44).

2 مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (1905).

فمع وجود الكافرين، ومع وجود المنافقين، ومع وجود أصحاب الكبائر والمعاصي، ومع وجود من اقترف من الموبقات ما اقترف.. مع وجود كل هؤلاء يقضي رب العالمين سبحانه أول ما يقضي على هذه الطوائف الثلاث، والتي كانت في حياتها ملء سمع الدنيا وبصرها!!

وإن ذلك ليوقفنا على حقيقة مهمة وقاعدة خطيرة، وهي أن الأعمال التي ليس فيها إخلاص، والتي لم يرد بها وجه الله تعالى، هي أعمال محبطة، وهي أعمال لا وزن لها ولا قيمة.. يقول تعالى: (**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**[1]).

ومن ثم كان الإخلاص أول خطوة في طريق العلماء، وإنا وإن علمنا ذلك، فإن الحصول عليه – كما العلم – هو مطلب غالٍ وعزيز، وليس يحصل بين يوم وليلة، وإنما يحتاج الأمر فيه إلى مجاهدة شاقة على طول طريق العلم، بل وعلى طول طريق الحياة!!

فالنفس تتغيَّر بين الحين والآخر، والقلب يتقلب بين الفينة والثانية، ومن الممكن أن ينوي الإنسان نيةً صالحة لله Y في أول عمل ما، ثم ومع مرور الوقت، وأثناء أداء نفس العمل، يأتيه – مثلاً – من يُثني عليه فيه، أو من يعظمه بسببه، أو غيره.. فيجد نفسه وقد تغيرت عليه نيته وتبدلت؛ فينظر وقد ارتاحت نفسه لذلك الثناء وهذا المديح واستكانت إليه.. وهذا بعينه هو المحظور الذي وقع فيه!!

يقول سفيان الثوري ~: "ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي؛ لأنها تنقلب عليَّ"[2].

وقد قيل ليحيى بن معاذ ~: متى يكون العبد مخلصًا؟ فقال: إذا صار خُلقه كخلق الرضيع، لا يبالي من مدحه أو ذمه.

وقال يوسف بن الحسين: أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر[3]!!

ومن ثم فالأمر يحتاج إلى طول متابعة، وعظيم مجاهدة..

يقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة: "يا قوم، أريدوا بعلمكم الله؛ فإني لم أجلس مجلسًا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، و لم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح[4]".

---

1 (الزمر: 65).
2 ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم 13/1.
3 ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم 17/1.
4 النووي: بستان العارفين ص82.

وإن ذلك ليتأكد في الحديث الذي رواه ابن عمر { أن النبي ρ قال: "**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ اللَّهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ**"1.

وكان المطرِّف بن عبد الله يقول في دعائه: "اللهم إني أستغفرك مما زعمت أني أريد به وجهك، فخالط قلبي منه ما قد علمت"2!

فليست القضية إذن في فضائل الأعمال، إنما هي منهج حياة!!

وقد روى ابن عمر، أن رسول الله ρ قال محذرًا: "**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إليهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ**"3.

فرسول الله ρ يذم في ذلك من أراد بعلمه أن يجادل ضعاف العقول، يريد تكبرًا عليهم، أو من يتيه بعلمه أمام العلماء يفاخرهم به، أو من يريد بعلمه الجاه والمكانة بين الناس، وصرف وجوه عوامهم إليه.. فكل ذلك نهايته إلى النار!!

وقد اجتمع الفضيل بن عياض وسفيان الثوري يومًا، فجلسوا يتذاكرون شيئًا من الرقائق، فرقَّ كل واحد منهم وبكى، فقال سفيان الثوري ~: أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة"، فقال الفضيل بن عياض: "ولكني أخاف - يا أبا عبد الله - ألا يكون أضرُ علينا.. ألست تخلصتَ إلى أحسن حديثك وتخلصتُ أنا إلى أحسن حديثي، فتزينتُ لك وتزينتَ لي؟! فبكى سفيان الثوري ~ وقال: "أحييتني أحياك الله"4!!

وكان الإمام الشافعي ~ يقول: "وددت أن الناس تعلموا هذا العلم و لم يُنسب إلى منه شيء"5!!

وهذا الإخلاص هو الذي دفعه إلى قبول الحق أيًّا كان قائله، يقول في ذلك: "ما ناظرت أحدًا قط على الغلبة، وددت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الحق على يديه"6..

وخرج أيوب السختياني مرة في سفر فتبعه أناس كثير، فقال: "لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره، لخشيت المقت من الله Y"7!!

---

1 الترمذي: كتاب العلم، باب فيمن يطل بعلمه للدنيا (2655) وقال حديث حسن، وابن ماجة (258) واللفظ له.
2 ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم 17/1.
3 الترمذي: كتاب العلم، باب فيمن يطل بعلمه للدنيا (2654)، وابن ماجة (253) واللفظ له، والدارمي (373)، وقال الألباني: حسن (6382) صحيح الجامع.
4 الذهبي: سير أعلام النبلاء 439/8.
5 ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم 123/1.
6 ابن الجوزي: صفة الصفوة 251/2.
7 أبو بكر القرشي: التواضع والخمول 84/1.

حفظه الإخلاص وصِدق النية من العجب بنفسه بسبب علمه، وخاصة وهو في مثل هذه الحالة، والناس حوله مشيعون وله معظمون..

وعليه فإن الإخلاص هو أول الطريق في منهج العلماء الربانيين..

والأمر كما ذكرنا في البداية ليس مجرد وقفة مع النفس في لحظة من اللحظات، أو في يوم من الأيام، وإنما هو منهج حياة، فيه مراجعة دائمة، ومراقبة مستمرة، والموفَّق من وفقه الله عز وجل.

ثانيًا: الزهد في الدنيا:

يأتي الزهد في الدنيا نتيجة طبيعية وحتمية للإخلاص عند العلماء؛ فإذا لم يكن العالم مخلصًا في علمه لله تعإلي، متجردًا فيه عن إغراءات الدنيا وزخارفها، لن يكون بإمكانه تحقيق خُلق وفضيلة الزهد فيها، وما لم يحقق الزهد فيها فلن يكون علمه خالصًا لوجه الله تعإلي..

وأعني فيما أعني هنا.. ألا نطلب الدنيا بعلمنا..

وهذه حقيقة يقع فيها الكثيرون، وخاصة وأن أغلب العلوم الآن – وبالأخص العلوم الحياتية – تعد من مصادر الدخل الأساسية للفرد.. وقد يكثر المال بسبب التفوق في هذه العلوم، فيفتن به وينسى قضيته، وتتبدل نيته!!

يقول رسول ρ في الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن عوف >: "**فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**"1.

أمرٌ جد خطير أن نسعى لتحصيل العلم ونتعلم – أيًّا كانت العلوم – من أجل المال.. وأخطر منه أن يفتح الله Y أبواب الرزق الواسعة على العالم فتنة له، فيقع فيها، فتراه لا يعد يصرف علمه إلا في الوجه الذي يأتي فقط بمال!!

وهذه – وللأسف – حقيقة مشاهدة، ومن دعاة في الدين وعلماء!!

---

1 البخاري: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (3791)، ومسلم: في أوائل كتاب الزهد والرقائق (2961) والترمذي (2462)، وابن ماجة (3997)، وأحمد (17273).

فقد كان أحد من أعرفهم إمامًا في مسجد في دولة غربية، وكان يأخذ راتبًا على هذه الإمامة، ولما انفصم العقد الذي كان بينه وبين إدارة المسجد، وجدته وقد قرَّر أن يظل بالبلد يعمل بأي عمل آخر ولو كان بعيدًا تمامًا عن مجال الدعوة والدين، فالمهم عنده هو الاستمرار في تحصيل المال والثروة..

ورغم أن بيته كان قريبًا من المسجد الذي كان يعمل إمامًا له، إلا أنه لم يعدْ يأتي إلى الصلاة.. لقد ذهب الراتب، فذهبت الدعوة، بل وذهبت صلاة الجماعة!!

أما الغريب، فهو أن هذا الشيخ بعينه هو الذي قصَّ عليَّ قبل ذلك – متندرًا أحوال العلماء والدعاة الذين يقومون بمثل ذلك.. فحكى لي في أسىً – أن أحدهم – وكان إمامًا أيضًا – إذا جاء يوم إجازة الأسبوع، كان لا ينزل إلى المسجد يُصلِّي، رغم أن بيته فوق المسجد تمامًا..!!

وقد مرَّت الأيام، ووقع هو فيما وقع فيه صاحبه.. والمؤمن لا يأمن على نفسه الفتنة أبدًا، ونسأل الله الثبات..

ومثل هذه الصورة نراها أيضًا في غير أئمة المساجد.. فحين كنت في الأردن وجدت من يشكو إلى أن إحدى الإذاعات طلبت من أحد الدعاة البارزين أن يلقي حديثًا فيها، لتعليم الناس ونشر العلم وغيره.. فوافق على أن يُدفع له أولاً مبلغٌ وقدره كذا..!!

لقد أُتيحت له الفرصة لنشر العلم، والدعوة إلى الخير، والقيام بمهمة الأنبياء، وهيأت له الأسباب لتبليغ الجمع الغفير.. إلا أنه غلبته الدنيا، فصار يعمل ويُعلِّم لأجلها، و لم يعد بحسبانه نفع الأمة، أو العمل على نهضتها، أو المشاركة في حل أزماتها.. فوق أنه أصلاً قد حُرم أجر هذه المهمة؛ كون ما طلبه من مالٍ وأجر لم يكن بمقدورهم!!

إننا إزاء هذه الأزمات والفتن لابد أن نعود إلى الأصول، وأن نقف وقفات طويلة أمام القدوات الحقيقية في هذا الشأن، ألا وهم الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.. فهم القدوة في الدعوة، وهم القدوة في العلم..

إننا حين نراجع قصصهم في القرآن الكريم، نجد أنهم في دعوتهم وعلمهم دائمًا ما يقرنون ذلك بقولهم: (**لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**[1]). وقولهم: (**وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ**[2]).

---

1 (الأنعام: 90).

2 (هود: 29).

وقولهم: (**يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي**[1]). وقولهم: (**مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**[2]). وقولهم: (**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**[3]).

وهذه الآية الأخيرة تكررت في سورة الشعراء على لسان خمسة أنبياء، وهم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، على الترتيب!!

بل إن الله Y قد خص نبيه محمد ρ بقوله: (**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**[4]).

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرًا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، (**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**) أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله Y والدار الآخرة[5]..

وعليه فإن ربط العالم علمه، أو ربط دعوته بالمال.. فهو ليس على الطريق السويِّ، وأن علمه هذا ودعوته تلك يصبحان وبالاً عليه يوم القيامة..

وقد جاء أن أحد الأمراء قصد ابن الهيثم ليتعلَّم عليه، فخشي أن يضيع وقته معه سدى، فأراد أن يختبر حبه للعلم فطلب منه أن يدفع مائة دينار في كل شهر، فبذل الأمير المال وبعد أن تعلَّم على ابن الهيثم ثلاث سنين وأراد الانصراف، صحبه الأستاذ العظيم مودِّعًا ومعه كل ما أخذه من المال، وكان قد حفظه له فأعطاه إياه، وقال له: أنت أحوج لهذا المال مني عند عودتك إلى بلادك، وإني قد جرَّبتك بهذه الأجرة، فلمّا علمتُ أنه لا خطر ولا موقع للمال عندك في طلب العلم بذلت مجهودي في تعليمك وإرشادك، **واعلم أنه لا أجرة ولا رشوة ولا هدية في إقامة الخير**".

وقد يتساءل أحدهم: هل لا يمكن الجمع بين العلم والدنيا؟ أو بمعنى آخر: هل يظل محكومًا على العلماء بالفقر..؟!

والحقيقة أن هذه القضية ليست معضلة، وهي ليست في حسبان العلماء الحقيقيين بالمرة؛ إذ أنهم يدركون جيدًا أن ما كان من رزقهم فلن يفوتهم، وهم يعلمون أن الرزق يطلب الإنسان كما يطلبه الإنسان

---

1 (هود: 51).
2 (الفرقان: 57).
3 (الشعراء: 109).
4 (ص: 86).
5 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم 57/4.

تمامًا، فكلاهما يبحث عن الآخر، وهكذا فما قُدِّر لنا من رزق لا يمكن الزيادة عليه، تمامًا كما لا يمكن الانتقاص منه، بعز عزيز أو بذل ذليل..

ومن ثم فإن العالم يطلب العلم ويتعلمه وينشره، وقد يكون ذلك العلم – كما ذكرنا – هو مصدر رزقه، فإذا جاءه من وراء ذلك مال وفير، كان ذلك نعمة من الله Y تستحق الشكر والامتنان، فضلاً عن تأدية حقه.. وإذا جاءه قليل، صبر وحمد الله، واحتسب الأجر عنده.. فلا يشغل باله بهذه القضية إطلاقًا..

لكن أن يصرف حياته، ويكرس علمه وعمله لأجل الدنيا وجمع المال، ويكون ذلك مقصده وديدنه.. فهذا غير ممكن لمن أراد أن يكون عالمًا ربانيًا يبغي الأجر عند الله، ويقتفي أثر الأنبياء، قدوته عليهم السلام..

إن الدنيا إذا أصبحت هدفًا، فلا شك أن الفتنة عظيمة..

والشيطان يوهم الإنسان أحيانًا أنه يجب أن يمتلك الدنيا لينفقها في سبيل الله.. فإذا جاءت الدنيا فُتن فيها الإنسان على الأغلب، إلا ما رحم الله وقليل ما هم..

إننا يجب أن نراجع مناهج سلفنا وعلمائنا لنعرف الطريقة المثلى في التعامل مع قضية الدنيا والمال.

فهدف عثمان بن عفان أو أبي بكر الصديق، أو عبد الرحمن بن عوف، أو طلحة بن عبيد الله، أو سعد بن عبادة.. أو غيرهم من أغنياء الصحابة رضوان الله عليهم، لم يكن أبدًا جمع المال ثم إنفاقه في سبيل الله.. وإنما جاءهم المال بعمل لم يستنزف كل أوقاتهم وغالب حياتهم، فأنفقوه في سبيل الله، وكان منهم من تخلَّى عن ماله وتركه بالكلية من أجل الدعوة والرسالة!!

يقول يونس بن ميسرة: "ليس الزهد بتحريم الحلال وإضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة – إذا أصبت بها – أرغب منك فيها لو لم تصبك"[1]..

ثم إنك لا تضمن أبدًا أنه إذا أتتك الدنيا وجاءك المال الوفير ألا تُفتن به، وكيف تضمن أن تراعي فيه حق الله، فضلاً على أن تنفقه كله أو بعضه في سبيل الله..؟!

وما أكثر من وقع في ذلك.. يقول رسول الله ρ محذرًا في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري >: "**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا**.."[2].

---

1 ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم 289/1.

2 مسلم: كتاب التوبة والدعاء والذكر والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة (2742)، والترمذي (2191)، والحاكم (8543).

وفضلاً عن الزهد في الدنيا، فإن على العالم ومن يسلك طريق العلم أن يترفع عن الدنايا، ويتحرز عن الشبهات والمكروهات..

يقول الشافعي ~:

أَمَتُّ مطامعي فأرحت نفسي	فإن النفس ما طَمِعَت تهون
وأحييتُ القنوعَ وكان ميتًا	ففي إحيائه عِرْضٌ مَصون

وليس معنى هذا أن ينعزل العلماء عن الدنيا، ويتركوا الاختراع والابتكار الذي يأتي بصورة طبيعية بمال أو ثروة؛ فإننا نُريد سبقًا في العلوم، وامتلاكًا للقدرات العلمية والعسكرية والحضارية التي تكفل لأمتنا مكانة سابقة في العالمين.. لكن المقصود هو هدف العلماء وغايتهم.. أهو تقدم الأمة ورفعتها، أم هو المال وبريقه؟!

إن القضية ليست قضية هامشية في حياة العلماء.. فالثروة الحقيقية التي يمتلكها العالِم تكمن في عقله وفي فكره، ولا يجب أبدًا للعالم أن يهبط بثروته هذه إلى سفاسف الدنيا ومغريات العوام.. فليس سهلاً أن تكون قائدًا وقدوة، وليس يسيرًا أن تكون وارثًا للأنبياء!!

ثالثًا: العلم النافع:

لم يكن على المسلم – وخاصة العالم – إلا أن تكون حياته مورقة مثمرة، وعليه فلا يجب أن يُضيِّع عمره في فراغ، كما لا يجب أن يكون عمله عبثًا.. بل لابد أن يكون كل عمله، وكل وقته وجهده فيما ينفعه وينفع الآخرين في الدنيا والآخرة..

ومن ثم فإنك لا تكاد تجد رسول الله ρ ذكر العلم أو حث عليه، إلا وأضاف إليه صفة "النفع"..

فقد روى أبو هريرة > أن رسول الله ρ قال: "**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ** (أي: ثلاثة أشياء، وفي الترمذي: ثلاث): **إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**"[1].

وروى زيد بن أرقم > أن رسول الله ρ كان يقول: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**"[1].

1 مسلم: كتاب الوصية، باي ما يلحق الإنسان بعد وفاته (1631)، وأبو داود (2880)، وأحمد (8831)، وأبو يعلي (6457).

وعليه فقد كان رسول الله ρ يحض على العلم النافع ويحث عليه فيقـــول: "**سَـــلُوا اللَّـــهَ عِلْمًـــا نَافِعًا**"2..

ومن هنا قسم العلماءُ العلومَ إلى ثلاثة أنواع:

1) علم نافع: ينفع الإنسان ويفيد البشرية في دينهم ودنياهم..

2) علم ضار: يضر الإنسان في دينه، أو دنياه..

3) علم لا هو بالنافع ولا هو بالضار: فهو يُعدُّ ضارًا؛ لأنه أضاع الأعمار وبدَّد الأوقات..

وقد فقه الصحابة ψ هذا الأمر جيدًا، وكانوا حريصين تمام الحرص على قضية العلم النافع، وكيف يُطلب ويُحصَّل..

ففي قصة الدجال – على سبيل المثال – ذكر رسول الله ρ في أحاديث كثيرة صفاته وعلاماتـــه، وعدَّدها، وكانت كل صفة من صفاته غريبة في حد ذاتها، تسترعي انتباه المتطلعين وتستثيرهم للسؤال عنها، ومعرفتها على وجه الحقيقة واليقين..

إلا أن كل ذلك لم يدفعهم إلى السؤال عن تفاصيل أكثر ، ولكن عندما ذكر رسول الله ρ مـــدة مكوثه في الأرض وهي: "**أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**..".

قال الصحابة: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ اليومُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: لاَ، **اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**"3!!

إنما وفقط قضية العلم النافع.. يريدون أن يتعلموا ما يعينهم على العمل، ولا يكترثون بالبحث عن قضايا لا ينبني عليها عمل، بل كل اهتمامهم مما ينفع دنياهم وآخرتهم.

لقد زرع رسول الله ρ في صحابته هذا النهج القويم في البحث عن النافع من العلوم، لذلك حـــين جاءه أعرابي ليسأله: "**مَتَى السَّاعَةُ؟**" قال له مباشرة: "**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**"4..

---

1 مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (2722)، والنسائي (5470)، وابن ماجة (250)، وأحمد (13699)، وابن حبان 83).

2 ابن ماجة: كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه النبي ρ (3843)، وأبو يعلي (1927)، وابن أبي شيبة (26712)، وعبد بن حميـــد (1093)، وقال الألباني: حسن (3635) صحيح الجامع.

3 مسلم: كتاب الفتن واشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته (2937)، وأبو داود (4321)، وابن ماجة (4075)، وأحمـــد (17666)، وكل عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه.

4 البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (3485)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع مـــن أحـــب (2639)، وأحمد (12715).

فهو بذلك نقله من طور النظريات، وما لا ينبني عليه كثير عمل، إلى طور العمل، والعمل النافع الذي ينفعه في الآخرة..

هذا هو العلم النافع الذي يؤتي ثمارًا وفيرة في الدنيا والآخرة..

ومثل هذا الكلام يقال أيضًا على العلوم الحياتية، فقد أدرك أبناء موسى بن شاكر حقيقة هذا العلم النافع جيدًا، وهم أول وأشهر فريق علمي جماعي في التاريخ، ذاع صيتهم في علوم الرياضيات والفلك والعلوم التطبيقية والتقنية، وكانوا من علماء القرن الثالث الهجري.. لقد أدرك هذا الفريق العظيم قيمة أن يكون العلم نافعًا، فاستفادوا من علمهم وأفادوا منه المسلمين، بل والبشرية جمعاء..

ففي كتابهم "الحيل" استحدثوا آلات لخدمة الزراعة والفلاحة، مثل المعالف الخاصة لحيوانات ذات أحجام معينة، تتمكن أن تصيب مأكلها ومشربها، فلا تنازعها غيرها الطعام والشراب، وعمل خزانات للحمامات، وآلات لتعيين كثافة السوائل، وآلات تثبت في الحقول لكيلا تضيع كميات الماء هدرًا، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات.

وكان من جملة أعمالهم أيضًا عمل سراج إذا وضع في الريح العاصف لا ينطفئ، وعمل سراج يخرج الفتيلة لنفسه ويصب الزيت لنفسه، وكل من يراه يظن أن النار لا تأكل من الزيت ولا من الفتيلة شيئًا البتّة، وأيضًا عمل نافورة يفور منها الماء مدة من الزمان كهيئة الترس، ومدة متماثلة كهيئة القناة، وكذلك لا تزال دهرها تتبدل!!

وكتابهم السابق يحتوي على مائة تركيب ميكانيكي، مع شروح تفصيلية ورسوم توضيحية لطرائق التركيب والتشغيل، وكان استخدامهم للصمامات التي تعمل تلقائيًا، وللأنظمة التي تعمل بعد زمن معين، وغير ذلك مما من شأنه يحصل فيه التحكم الإلي، من أهم الإنجازات في تاريخ العلم والتقنية بشكل عام.

وقد كان لكل هذه الأفكار الإبداعية - كما يقول أحمد فؤاد باشا - أثرٌ كبير في دفع مسيرة تقنية "الحيل النافعة" أو الهندسة الميكانيكية قدمًا؛ حيث تميزت تصاميمها بالخيال الخصب والتوصيف الدقيق والمنهجية التجريبية الرائدة[1].

ولعل الإنسان يُدرك قيمة بحوث أبناء موسى بن شاكر عندما يرى القواعد النظرية الكثيرة التي ألفها الإغريق لكنهم لم يسقطوها على الواقع، وبالتالي لم يستفيدوا منها، و لم تستفد كذلك البشرية..

---

1 أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص30، 31.

أما العلم الذي لا ينبني عليه عمل، فلا منفعة منه، ولا طائل من ورائه، وما هو إلا مضيعة للوقت.. ومثال ذلك من يبحث في طول سفينة نوح υ.. أو في نوع الشجرة التي أكل منها آدم υ.. أو المدة التي قضاها قابيل حاملاً هابيل حتى يدفنه.. وغيرها كثير!!

ولو كان العلم بهذه الأشياء فيه منفعة أو فائدة من قريب أو من بعيد، لذكرها لنا I، أو قصها علينا رسوله ρ..

وأما العلم الضار، فقد عدّد ابن رجب طائفة منه فقال: أصعب ذلك ما أُحدث من الكلام في أفعال الله تعالى من قضائه وقدره؛ فكذب بذلك من كذب، وزعم أنه نزّه الله بذلك عن الظلم!

وأصعب منه ما أُحدث بعد ترجمة فلسفة اليونان، وذلك من الكلام أيضًا في ذات الله وصفاته، مما سكت عنه النبي ρ والصحابة والتابعون..

وقد تجلت مظاهر هذا العلم في كتابات بعض الصوفية، الذين كتبوا كتابات لا تُفهم بحال، ولا تدفع أبدًا إلى خيرٍ أو صلاح!!

ومن أمثلة هذا قول بعضهم عن الألف والباء في البسملة: "**الألف في التحقيق لسان حل "النقطة" في فوت كنهها، والباء لسان حل تفصيلها، وقلم خطها في تشكيلها، ومبدأ بسطها في تنزيلها**"..!!

وأنا على يقين أن كاتب هذا الكلام لا يفقه معناه فضلا عن قارئه!!

وقد قال الذهبي ~ في سياق ذكر التصوّف الفلسفيِّ والقول بوحدةِ الوُجود: "والله لأن يعيشَ المسلمُ جاهلاً خلفَ البقر، لا يعرف من العلم شيئًا سِوى سُورةٍ من القرآن يصلِّي بها الصلواتِ، ويؤمن بالله واليوم الآخر، خيرٌ له بكثيرٍ من هذا العِرْفان وهذه الحقائقِ! ولو قرأ مائة كتابٍ أو عَمِلَ مائةَ خَلْوَة!"[1].

ومن أمثلة ذلك العلم الضار أيضًا علوم الفن والرقص وما يلحق بهما.. والعجيب في ذلك أن تجد حكومات مسلمة تخصص مدارس للرقص بأنواعه، وتنفق عليها من أموال المسلمين، بل وترعى الفرق الراقصة، وتنسبها إلى القومية، وتعطي الجوائز القيمة لمن أبدع في أغنية أو لحن، واصفة إياه بأنه من رهبان الفن وعلماء الموسيقى!!

ومثلهم من ظل يتعلم ويبذل جهده ووقته وعمره كي يضيف وترًا إلى العود!!

ومن أمثلة هذا العلم الضار كذلك علوم التنجيم، وعلوم السحر..

1 الذهبي: لسان الميزان 312/5.

وبالجملة فالعلم الضار هو العلم الذي يضر بالإنسان والبشرية، سواء كان هذا الضرر دنيويًا أو أخرويًا..

فإذا كان لا ينبغي للمسلم أن يصرف أوقاته في علم لا يترتب عليه نفع له أو للمسلمين في الدين أو الدنيا.. فما البال وما الخطب بمن يصرف أوقاته فيما يضر بالمسلمين!!

رابعًا: العمل بما علِم:

طالما كان هناك إخلاص، وطالما كان هناك علم نافع ينبني عليه عمل.. إذن لابد أن يكون هناك استثمارٌ لهذا العلم.. وهو العمل به!

يقول أبو الدرداء >: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبيك يا رب، فيقول: "**ما عملت فيما علمت**"[1]؟!

وذكر الخطيب البغدادي بسنده قال: كان إسماعيل بن إبراهيم بن جارية يقول: "كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به"[2]..

ولفهم تلك القضية، فماذا يعني كونك – مثلاً – عندك من الأدلة على فضل صلاة الفجر، أو الصلاة في جماعة، والأهمية الكبيرة والثواب العظيم عليهما، والوعيد الشديد لمن يتخلف عنهما.. ثم تتخلف أنت..؟!

إن مثل ذلك العلم يكون حجة على الإنسان، لا حجة له.. وقس على ذلك كل العلوم، سواء في علوم الشريعة أو في علوم الحياة..

ومن هذه الوجهة، فقد قسم رسول الله ρ الناس إلى أربعة أصناف، وذلك بحسب العلم والمال الذي عندهم.. فهناك من أنعم الله عليهم بالعلم والمال، وهناك من حرمهم الله العلم والمال، وهناك من أعطاهم العلم ومنعهم المال، وهناك من رزقهم المال ومنعهم العلم..

فقد روى أبو كبش الأنماري > أن رسول الله ρ قال: "**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ.**

1 أبو محمد المنذري: الترغيب والترهيب 74/1.
2 الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي 258/2.

ذلك أن العلم عنده ضبط حركة المال، فجعله يتحكم فيه تحكمًا شرعيًا.. فتراه يأتي به من جهة حلال، وتراه ينفقه في الوجه الذي أحله الله، وفوق ذلك فهو لا ينسى حق ذلك العلم عليه، من جهة نشره وتعليمه وتدريسه..

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ.

وما أعظم تلك المثوبة وذلك الجزاء العظيم، الذي هو متوقف فقط على الإخلاص والنية الصالحة!! وما أعظم الحسنات التي من الممكن أن يكتسبها الذي حرم المال وهو يبغي الإنفاق..!!

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.

فحرمان العلم مع وجود المال، جعله لا يعرف وجوه الحلال والحرام في الإتيان به، أو صرفه وضبط حركته، فتراه يتصرف فيه من تلقاء نفسه، فيتخبط فيه معربدًا ميمنة وميسرة، فيمسك تارة شُحًّا وحرصًا، وينفق أخرى فخرًا وسمعة ورياء..

وهكذا، فإن أكثر الأغنياء يفتنون.. يقول رسول الله ρ في الحديث الذي رواه أبو ذر >: "**إِنَّ الْأَكْثَرِينَ** (في المال) **هُمْ الْأَقَلُّونَ** (في الحسنات) **يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**.."1.

فقليلٌ جدًا من يُؤتى المال فيثبت، ويتصرف فيه بما ينبغي أن يكون..

أما الصنف الرابع:

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ؛ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ"2.

وإن هذا الصنف من الناس – والله – لمسكين.. فهو ليس لديه كثير مال، ولم يتعلم العلم ولم يطلبه، ورغم ذلك تراه يتمنى أن لو كان عنده مال، لعمل فيه – ليس بالتعلم، أو بإنفاقه في طرق الخير وفي

---

1 البخاري: كتاب الاستقراض والديون والحجر والتفليس، باب أداء الديون (2258)، مسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة (94)، وأحمد (21385)، وابن حبان (170).

2 الترمذي: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر (2325) وقال حديث حسن صحيح، وأحمد (18060)، وقال الألباني: صحيح: (3024) صحيح الجامع.

مصارفه الشرعية، وإنما – بعمل ذلك الرجل العاصي، الذي ينفق ماله في معصية الله Y، والذي يتكبر بماله ويتطاول به على الناس..!!

وقد وقع عليه وزر نيته..!!

وفي عدم العمل بالعلم يروي أسامة بن زيد > أن رسول الله ρ قال: "**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أليس كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**"1.

ويروي أنس بن مالك > أن رسول الله ρ قال: "**لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ**"2.

وقال الحسن: "إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ الْبَابَ مِنَ الْعِلْمِ فَيَعْمَلُ بِهِ، فَيَكُونُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ كَانَتْ لَهُ فَجَعَلَهَا فِي الآخِرَةِ. قَالَ: وَقَالَ أيضًا: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي بَصَرِهِ وَتَخَشُّعِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ وَصَلاَتِهِ وَزُهْدِهِ"3.

وفي أمثلة عملية وحية على أحوال علماء الأمة في العمل بالعلم، فإن المروذي يقول: قال الإمام أحمد: ما كتبت عن النبي ρ حديثًا إلا وعملت به، (في مسند الإمام أحمد حوإلى 40.000 حديث) حتى مر بي في الحديث أن النبي ρ احتجم وأعطى الحجام دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت4!!

بل إنه ~ استأذن زوجته في أن يتخذ أَمَةً فأذنت له، فاشترى جارية بثمن يسير وسماها ريحانة؛ استنانًا بالرسول ρ!!

وهذا الحسن البصري ~، جاءه الرقيق يومًا وطلبوا منه أن يكلم الناس في خطبة الجمعة عن فضل عتق الرقاب؛ إذ كان الناس وقتئذٍ يَقبلون منه ما لا يقبلون من العلماء.. فقام الحسن في الجمعة الأولى فلم يتكلم في هذا، وفي الثانية لم يتكلم أيضًا، وفي الجمعة الثالثة تكلم فأحسن في فضل عتق الرقاب، وكان أن خرج الناس من المسجد فأعتقوا من كان عندهم من الرقيق..

---

1 البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (3094)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (2989).

2 أحمد (13445)، وابن حبان (53)، والطبراني في الأوسط (8223)، وقال الألباني: صحيح (291) السلسلة الصحيحة.

3 الدارمي: باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله (385).

4 الذهبي: نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء إعداد محمد بن موسى الشريف 929/2.

وحينها جاء الرقيق المحررون لوجه الله تعالى يشكرون الحسن ويقولون: أبطأت علينا ثلاث جمع، فقال: لقد انتظرت حتى رزقني الله مالاً، فاشتريت عبدًا وأعتقته لوجه الله تعالى؛ حتى لا آمر الناس بما لم أفعل..!!

وقال عبد الرحمن بن مهدي: سمعت سفيان يقول: "ما بلغني عن رسول الله ρ حديث قَطّ إلا عملت به، ولو مرةً واحدةً"1..

ويقول أبو رافع: "صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ، فَقَرَأَ "إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ" فَسَجَدَ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: سَجَدْتُ بِهَا خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ρ، فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ"2.

وفي العلوم الحياتية، فإن الصينيين كانوا قد اخترعوا البوصلة، إلا أنهم كانوا يستخدمونها في السحر والخرافات، وحينما وصلت لأيدي المسلمين، كانوا هم أول من استخدمها في الملاحة البحرية، وفي تحديد القبلة في الصلاة.. وبدءوا يطورونها كي تؤدي فوائد عملية للناس..

وقد مرَّ بنا سعيْ ابن الهيثم لتطبيق فكرته لبناء سدٍّ على النيل يحمي مصر من مياه الفيضان..

وهو الذي أنكر نظرية إقليدس وبطليموس في علم البصريات، والتي تقول بأن العين هي التي ترسل أشعتها على الأشياء، وأثبت بتجاربه العملية أن العكس هو الصحيح3..

أما الجزري ~ (من علماء الهندسة الميكانيكية المعدودين) فقد طلب منه الخليفة أن يصنع آلة تغنيه عن الخدم كلّما رغب في الوضوء للصلاة، فصنع له الجزري آلة على هيئة غلام منتصب القامة، وفي يده إبريق ماء، وفي اليد الأخرى منشفة، وعلى عمامته يقف طائر، فإذا حان وقت الصلاة يصفر الطائر، ثم يتقدم الخادم نحو سيده ويصب الماء من الإبريق بمقدار معين، فإذا انتهى من وضوئه يقدم له المنشفة ثم يعود إلى مكانه، والعصفور يغرِّد4!!

وهكذا، كان للعلم الذي تعلمه العلماء المسلمون، سواء الشرعي أو الحياتي، تطبيق عملي في حياتهم اليومية، واستثمار حي وحقيقي له..

---

1 الذهبي: سير أعلام النبلاء 242/7

2 البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في صلاة العشاء (732)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة (578)، وأبو داود (1408).

3 الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص124.

4 محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام 237/5 .

خامسًا: الرحمة:

من الأخلاق التي لابد أن يتصف بها العلماء أيضًا الرحمة..

فكثيرًا ما يضع العالِم حواجز كثيرة بينه وبين عموم الناس إذا لم يكن متصفًا بهذا الخلق العظيم: خلق الرحمة.. والناس عادةً تنفر من الإنسان غليظ الطباع، قاسي المشاعر؛ ولذلك قد يحوي عقل العالِم علمًا هائلاً لكنه لا يستطيع أن يُفيد الخلق به؛ لأنَّ قلبه ما حوى رحمةً ولا شفقة!!

لذلك على العالم أن يتعلَّم الرحمة تمامًا كما يتعلَّم العلم، ويباشر هذه الرحمة مع عباد الله تمامًا كما يباشر تجاربه وقواعده وأصوله العلمية.

ومن هنا نفهم لماذا قدّم الله عز وجل صفة الرحمة عنده سبحانه وتعالى على صفة العلم؛ فقال: (**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**)[1].

فالملائكة يصفونه سبحانه بأنه وسع كل شيء رحمة وعلما.. وقد قدموا قبل طلبهم وسؤالهم ودعائهم سبحانه للذين آمنوا – قدموا قبل ذلك رحمته I ولم يقدموا علمه.. في صورة إنما توحي باستئناسهم وارتياحهم وحاجتهم لهذه الرحمة أولاً..

بل إنه سبحانه قال يصف العبد الصالح الذي وُصِفَ بالعلم، والذي أرسل إليه موسى υ كي يتعلم منه: (**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**[2]).

فقد رزقه الله الرحمة أولاً وزوده بها، وذلك كي ييسر له التعامل مع الناس، ثم علَّمه I من علمه بعد ذلك..

وهذا بعينه ما بدا واضحًا في بقية أحداث القصة في الآيات التي جاءت بعد ذلك، وكيف عامل العبد الصالح موسى υ، وكيف صبر على أسئلته التي أثارها رغم تعهداته..

ومن أوضح الأمثلة العملية على ذلك، ما جسده رسول الله ρ بنفسه في حياته، فكان نعم المعلِّم هو ونعم المربي هو، ونعم القدوة هو ρ..

---

1 (غافر: 7).

2 (الكهف: 65، 66).

وانظر إلى تجسيد الصحابي الجليل معاوية بن الحكم السلمي τ لهذه الرحمة في التعليم، وذلك حين يصف سلوك رسول الله ρ معه؛ فيقول: "بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ρ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: "يَرْحَمُكَ اللَّهُ"، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إلي! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ.

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ρ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: **إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ.**

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ: فَلَا تَأْتِهِمْ. قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قَالَ: **ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ**.."[1].

ولعلنا نلحظ بوضوح في هذا الموقف أن رحمة رسول الله ρ لم تمرَّ هكذا دون أن يلتفت إليها معاوية τ أو ينتبه إليها، لقد علَّق عليها، وذكر أنها من أجلِّ صفات المعلِّم وأحسنها.. ثم لعلَّنا نلحظ أيضًا أن هذه الرحمة هي التي شجعت معاوية على أن يتقدم بأسئلة أخرى ليستفيد ويستزيد.. ولو كان أسلوب المعلِّم غليظًا لامتنع السائل خشية التعرُّض للغلظة أو القسوة.

وإنَّ العجب بعد ذلك أن تجد علماء يستعملون هذه الغلظة في معاملتهم ودعوتهم، الأمر الذي ينفر الناس منهم، ويصدهم عن دعوتهم، فضلا عن الاقتداء بهم..

وقد حدث قريب من هذا في عهد رسول الله ρ، فكان له معه موقف..

فقد روى أبو مسعود الأنصاري > قال: "جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللَّهِ ρ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي – وَاللَّهِ – لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فِيهَا! قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ρ قَطُّ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ الْكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ، وَذَا الْحَاجَةِ**"[2].

---

1 مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة (537)، والنسائي (1218)، وأبو داود (930)، وأحمد (23813).

2 البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود (670)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (466)، والدارمي (1259)، وابن خزيمة (1605)، وابن حبان (2137)، والطبراني في الكبير (560)، وابن أبي شيبة (4657).

وإن مثل ذلك الخلق يتطلبه المعلِّم في كل مكان وكل مجال.. فيتطلبه الأب في البيت، والمدرس في المدرسة، والأستاذ في الجامعة، والطبيب في المستشفى أو العيادة.. ويتطلبه بصفة خاصة الداعية والمـــربي في كل أحواله ومقاماته..

سادسًا: توريث العلم:

نقل العلم هو أعظم استثمار له.. فبه قد وصل إلينا، وبه أيضًا يصل إلى غيرنا.. وإن أعظم الأعمال هي تلك التي لم يقتصر نفعها على صاحبها، وإنما التي يتعدى نفعها إلى الآخرين..

ونقل العلم وبيانه للناس هو أعظم حق له على العلماء الربانيين.. فبه يـــتعلم الجاهـــل، ويرشـــد الضال.. يقول تعإلى: (**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**)1.

ومن هنا فإن من أهم أخلاق العالم أيضًا هو أن ينفع بعلمه الآخرين، فينقله لهم ويورثه إيـــاهم.. لتعم الفائدة، ويعود النفع على الأمة بأثرها..

وذلك الأمر قد فقهه جيدًا أبو هريرة > فيقول: "إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: "أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ"، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُـــدَى.." إلى قَوْلِـــهِ: "الرَّحِيمُ" وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ ρ بِشِبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ"2.

وعن فضل ذلك ومكانته، يروي زيد بن ثابت > أن رسول الله ρ قال: "**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**"3.

وفي صورة رائعة، توضح فضل من يعلِّم العلم على غيره، فإن رسول الله ρ يضرب المثل فيقـــول: "**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَـــاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَـــقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً.**

---

1 (آل عمران: 187).

2 البخاري: كتاب العلم، باب حفظ العلم (118)، وأبو داود (1261).

3 أبو داود: كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (3660)، والترمذي (2656)، وابن ماجة 232)، وأحمد (4157)، والدارمي (29)، وقـــال الألباني صحيح (404) السلسلة الصحيحة.

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"[1].

ومن هنا تراه ρ يحضُّ على تعليم الغير، فيقول في حِجة الوداع في خطبته الجامعة، عن ابي بَكْرة τ: "لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ"[2].

وروى عثمان > أن رسول الله ρ قال: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"[3].

وفي شرحه يقول ابن حجر: والذي يُعلِّم غيره يحصل له النفع المتعدي، بخلاف من يعمل فقط، بل من أشرف العمل تعليم الغير، فمُعلِّم غيره يستلزم أن يكون تعلمه وتعليمه لغيره عمل وتحصيل نفعٍ متعدٍ... ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمِّلٌ لنفسه ولغيره، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي، ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عنى I بقوله: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[4].

ويقول معاذ بن جبل >: ".. وتعليمه من لا يعلمه صدقة.."[5].

ويقول جابر بن عبد الله: "إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره؛ فإن كاتم ذلك العلم ككاتم ما أُنزل على رسول الله ρ"[6]!!

وهو يريد أنه إذا جاء زمان يلعن فيه الناس أوائل هذه الأمة، أي الصحابة ψ، فمن كان عنده علم في الدفاع عنهم فليظهره، وإلا فإن من يكتمه كمن يكتم ما أُنزل على رسول الله ρ.. وكلاهما أمر عظيم!!

ومن هنا كان التحذير الشديد من كتمان العلم عمن يسأل عنه..

فقد قال رسول الله ρ: "مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ"[7]!!

---

1 البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم (79)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ρ من الهدى والعلم (2282)، وأحمد (19588)، وابن حبان (4).

2 البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ρ رب مبلغ أوعى من سامع (76)، ومسلم: كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (1679)، وابن ماجة (233).

3 البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (4739)، وأبو داود (1452)، والترمذي (2907).

4 ابن حجر: فتح الباري 76/9، والآية من سورة فصلت: 33.

5 الغزالي: إحياء علوم الدين 11/1.

6 الطبراني في الأوسط: (430)

7 أبو داود: كتاب العلم: باب كراهية منع العلم (3658)، والترمذي (2649)، وابن ماجة (264)، وأحمد (7561)، والحاكم (345)، وقال: حديث صحيح، وقال الألباني: صحيح (6284) صحيح الجامع.

ولعلَّنا ندرك بعد ذلك سبب انتشار علم الإمام مالك، حتى صار له مذهبٌ فقهيٌّ خاصٌّ به، وعدم انتشار علم الإمام الليث بن سعد ~، وقد كان فقيه عصره وإمامه البارز..!!

وتظهر الحقيقة في أنَّ الإمام مالك ~ كان له من التلاميذ الذين يبلِّغون عنه، وينشرون علمــه، في حين لم يجد الإمام الليث من يحمل مذهبه حتى يعُمَّ وينتشر.. وقد أشار إلى هذه الحقيقة الإمام الشــافعي ~ حين قال: "الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به"1.

وبذلك أيضًا استفادت الدنيا من علم الرازي ~.. فقد كانت له مدرسة في تعليم الطب؛ فكــان يؤلف الكتب، ويجري التجارب والأبحاث مع طلبة العلم، وكان يقوم بجولة معهم للاطمئنان على المرضى.. فورَّث ~ العلم، واستفادت منه ليست أمة الإسلام فحسب، وإنما البشرية جمعاء..!!

وفي العلوم الحياتية أيضًا، فقد أهدى أبو نصر بن عراق (وهو من علماء القرن الرابع الهجري، وله مصنفات في الآلات الفلكية والمثلثات) أكثر كتبه ورسائله إلى أبي ريحان البيروني، وقد اعترف له الــبيروني بفضله، فكان يلقبه بـــ "أستاذي"2!!

أما الجلدكي (وهو من علماء القرن الثامن الهجري)، والذي اشتهر بسعة اطلاعه وتبحره في علـــم الكيمياء، فكان محبًا لنشر هذا العلم بين الناس؛ ولذلك كانت داره مفتوحة أمام طلاب المعرفـــة، وصـــدره واسعًا لإجابة من يستفتيه في مسألة من مسائل الكيمياء، أو أي فرع من فروع المعرفة3..

سابعًا: الأمانة العلمية:

لعلنا يجب أن نقف كثيرًا أمام أهم صفتين اتصف بهما رسول الله ρ حتى قبل أن تنزل عليه الرسالة ويتعلَّم العلم، وهما صفتا: الصدق والأمانة؛ إذ عُرِف بهما في مجتمعه، مما كان له أبلغ الأثر بعـــد ذلـــك في نجاحه في توصيل علمه ودعوته للناس..

وإن القلب ليحزن حقيقةً عندما يرى أن هذا الخلق قد افتُقِد كثيرًا في زماننا هذا.. فتجد من يسرق الصفحات ولا ينسبها إلى أصحابها، بل تجد من يسرق الكتب كاملة ويحصل بها على درجات الترقيـــة في الجامعات الأكاديمية، ودون أي رادع إيماني أو إلزام خلقي يصدُّه عن ذلك..!!

وهذه الآفة من أخطر الأخلاق وأخبثها..

---

1 ابن حيان الأنصاري: طبقات المحدثين بأصبهان 406/1.

2 هداية العارفين ص698.

3 رحاب خضر عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام 50/4-55.

ولأجل ذلك فقد كان علماء المسلمين في كل علومهم، سواء كان علمًا شرعيًّا أو حياتيًّا – كانوا حريصين أشد الحرص على تحري الدقة والأمانة العلمية فيما ينقلونه عن غيرهم، حتى ولو كان النقل عن مجهولين، وكان ذلك واضحًا في كل كتبهم وتصانيفهم..

من هذا مثلاً ما يقوله ابن الأثير في مقدمة كتابه (الكامل) بعد أن يذكر السبب الذي من أجله كان كتابه هذا: "ولا أقولُ إني أتيتُ على جميع الحوادث المتعلّقة بالتاريخ؛ فإنَّ من هو بالموصل لابد أن يشذَّ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول: إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمَّله علم صحّة ذلك.

فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبريّ؛ إذ هو الكتاب المعوّل عند الكافة عليه، والمرجوعُ عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أُخلّ بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد، كلّ رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربّما زاد الشيء أليسير أو نقصه، فقصدتُ أتمّ الروايات، فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شيء مكانه، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقًا واحدًا على ما تراه.

فلمّا فرغتُ منه وأخذتُ غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، ووضعتُ كلّ شيء منها موضعه.."1.

وترى المقريزي في مقدمة كتابه (المواعظ والاعتبار) يذكر أنه سلك في كتابه هذا ثلاثة أنحاء، وهي:

"النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من شيخه العلم وجِلَّة الناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته. فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم؛ فإني أعزو كل نقلٍ إلى الكتاب الذي نقلته منه؛ لأخلص من عهدته، وأبرأ من جريرته، فكثيرًا ممن ضمني وإياه العصر، واشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه في معرفة علوم التاريخ، وجهل مقالات الناس، يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه، ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذي يقطع عليه، ولا يحتاج في الشريعة إليه، وحسب العالم أنْ يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه.

وأما الرواية عمن أدركت من الجِلَّة والمشايخ؛ فإني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدّثني إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه، أو أكون قد أنسيته، وقلّ ما يتفق مثل ذلك.

وأمّا ما شاهدته؛ فإني أرجو أن أكون – ولله الحمد – غير متهم ولا ظنين.."2.

---

1 ابن الأثير: الكامل في التاريخ 8،7/1.

2 المقريزي: المواعظ والاعتبار مقدمة الكتاب.

وهذا أبو كامل المصري، من علماء القرن الثالث الهجري، والذي كان يُلقب بأستاذ الجبر، وقد صنف فيه كتابه المعروف بـ (الكامل بالجبر).. فقد ذكر في هذا الكتاب أيضًا أنه إنما هو تكملة لما وصل إليه أستاذه محمد بن موسى الخوارزمي عن الجبر والمقابلة[1]..!!

بل إن أبناء موسى بن شاكر – الذين ذكرناهم سابقًا – كان لهم مع الأمانة العلمية شأنًا عجيبًا..

فتراهم في أشهر كتبهم، وهو "الحيل"، يوضحون ما ليس من عملهم، وما قد يخفى على كثير من أمتهم فيقولون: "فكل ما وصفْنا في كتابنا فإنه من عَمَلنا، إلا معرفة المحيط من القطر؛ فإنه من عمل أرشميدس، وإلا معرفة وضع مقدارين بين مقدارين لتتوإلى على نسبة واحدة؛ فإنه من عمل مانا لاوس"[2]!!

وأعجب من ذلك أن ترى العالم المسلم يشهد على أبيه؛ التزامًا بنهج رسول الله ρ..!!

فقد ذكر ابن حبان أن علي بن المديني سُئِل عن أبيه فقال: اسألوا غيري.

فقالوا: سألناك.

فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: هذا هو الدين، "أبي" ضعيف[3]!!

دفعته الأمانة العلمية إلى أن يعترف بالحق، فيُضعِّف أباه؛ حتى لا يُؤخذ عنه ما قد يُسيء إلى العلم، أو إلى الدين بصفة عامة..

وفي الحديث عن الأمانة العلمية، فإن ذلك يجرنا إلى أمر أعظم من مجرد سرقة الأفكار أو الكتب، وهو التظاهر بالمعرفة العلمية.. أو قل إنه: الفتوى بغير علم!!

وذلك ليس في العلوم الشرعية فقط، بل في كل مجالات العلوم، قلَّ شأنها أو عظم، حتى لَيتسع فيشمل المسئول في الشارع، والمستشار في الزواج، والطبيب في مستشفاه، والقاضي في محكمته.. وأخطر من هذا كله: الفتوى في الدين!!

وفي مثل ذلك روى البخاري وابن حبان – واللفظ له – عن مسروق > أنه قال: "بينما رجل يُحدِّث في كندة قال: يجيء دخان يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام. قال: ففزعنا، فأتيت ابن مسعود، قال: وكان متكئًا، فغضب، فجلس، وقال: يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم شيئًا فليقل: "الله أعلم"؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: "**لا أعلم**"؛

1 الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص199.
2 انظر: بنو موسى: كتاب معرفة مساحة الأشكال ص 17، 25.
3 ابن حبان: المجروحين 15/2.

فإن الله جل وعلا قال لنبيه ρ: **(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)**1. فهذا الرجل يروي عن أحداث يوم القيامة ما لا علم له به، ولم يأتِ في آية قرآنية أو حديث شريف؛ مما أثار غضب الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود τ؛ فطفق يعلِّم السامعين أهمية توقف المسلم عند ما يعلمه، وأهمية قول: لا أعلم.

وهذه هي القاعدة العريضة التي لابد أن يحتكم إليها كل إنسان، فمن كان عالمًا قال بعلمه، ومن لم يكن عالمًا لا ينبغي له أن يعطي الناس شيئًا هو فاقده؛ ذلك أن من أفتى بغير علم ضلَّ وهلك.!!

وقد روى الخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عمر أنه قال: "العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسُنّة ماضية، ولا أدري"2.

ولا غرو.. فقد انتفت يومًا "**لا أدري**"، فحدثت الحادثة، ووقعت الكارثة.. وقُتِلَ صحابي بسبب فقدها!!

يقول جابر >: "خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ. فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ρ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: **قَتَلُوهُ قَتَلَهُمْ اللَّهُ؛ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ** (أي: الجهل أو: التحير في الكلام) **السُّؤَالُ؛ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ، أَوْ يَعْصِبَ** - شَكَّ مُوسَى - **عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**"3.

إنَّ كثيرًا من الناس يستحيون من ذكر كلمة "لا أعلم"، وكأنه على الإنسان أن يعلم علوم الدنيا والدين جميعًا!! وما أبلغ الدرس الذي علمنا إياه رسول الله ρ، وهو يجيب أحيانًا على بعض الأسئلة بقوله: "لا أدري"، مع كونه أعلم الخلق، وسيد البشر، وخير الرسل..

يروي جبير بن مطعم τ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ρ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟

قَالَ: فَقَالَ: "**لَا أَدْرِي**".

فَلَمَّا أَتَاهُ جِبْرِيلُ υ قَالَ: "يَا جِبْرِيلُ، **أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟**"

قَالَ: لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّي Y.

---

1 البخاري: كتاب التفسير، باب الم غلبت الروم في أدنى الأرض (4496)، وابن حبان (6585)، والآية من سورة ص: 86.

2 الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 23/4.

3 أبو داود: كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم (336)، والدار قطني (3)، والبيهقي في سننه الكبرى (1016) صحيح أبي داود (325)، وقال الألباني: صحيح.

فَانْطَلَقَ جِبْرِيلُ υ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقُلْتُ: "لَا أَدْرِي"، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي Y أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: "أَسْوَاقُهَا"[1].

وليس هذا هو الموقف الوحيد في حياته ρ؛ فقد سُئِل عن أهل الكهف، وسُئِل عن الساعة، وكذلك عن الرُّوح، وسُئِل عن ذي القرنين.. ولم يُجب عن كل ذلك حتى نزل عليه الوحي بالإجابة، وهو في ذلك غير ناظرٍ ولا عابئٍ بما كان يقوله المشركون حين يتأخّر الوحي بها[2]!!

وقد وعى الصحابة ψ الدرس، وتعلموا منه ρ كلمة "**لا أعلم**"، وصارت لهم منهجًا في الحياة.. والأمثلة على ذلك في كتب السنن أكثر من أن تُحصَر، فمنها ما رواه أبو هريرة > قال: قال رسول الله ρ: "**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**" قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**". قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: "**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**"[3].

فلم يُفتوا ψ بغير علم، ولم يتطوع أحدٌ منهم بتبسيط المسألة، أو باقتراح إجابة.. بل إنهم شفعوا "**الله ورسوله أعلم**" بسؤال يوضح لهم الصورة أكثر مما علموه عنها!!

ويقول الشعبي: "كان أبو بكر يقول: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم"[4]!!

وعلى هذا النهج سار علماء الأمة من بعدهم..

يقول **ابن القيم** في (إعلام الموقعين): "وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويَوَدّ كل واحدٍ منهم أن يكفيه إياها غيرُه، فإذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين، ثم أفتى"[5].

ويقول عبد الرحمن بن أبي ليلى ~: "أدركت عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ρ، ما منهم رجلٌ يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه، ولا يحدِّث حديثًا إلا ود أن أخاه كفاه"[6].

---

1 أحمد (16790)، والحاكم (2148)، وقال هذا حديث صحيح، وأبو يعلي (7403)، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن.

2 انظر البخاري: كتاب العلم، باب وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (125)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب سؤال إليهود النبي ρ عن الروح (2794)

3 مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الغيبة (2589)، وابن حبان (5758)، والبيهقي في شعب الإيمان (6719).

4 ابن أبي شيبة: (30103).

5 ابن القيم: إعلام الموقعين 1/ 33 .

6 المصدر السابق 1/ 34 .

وهذه قصة رائعة يرويها أبو عياش ~ توضح نفور علماء الصحابة والتابعين من الفتوى إلا عند الاضطرار.. يروي أبو عياش أنه كان جالسًا عند عبد الله بن الزبير وعاصم بن عمر فجاءهما محمد بن إياس بن البُكَيْر؛ فقال: إن رجلاً من أهل البادية طلق امرأته ثلاثًا؛ فماذا تريان؟ فقال عبد الله ابن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول؛ فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة، فإني تركتهما عند عائشة زوج النبي ρ، ثم ائتنا فأخبرنا، فذهبْت فسألتهما، فقال ابن عباس لأبي هريرة: أفته يا أبا هريرة، فقد جاءتك معضلة. فقال أبو هريرة: الواحدة تُبِينُها، والثلاث تُحرِّمُها حتى تنكح زوجًا غيره[1].

ويقول ابن عباس: إن كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون[2].

وقال سحنون بن سعيد: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علمًا، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه[3]!!

ويقول حذيفة: إنما يُفتي الناسَ أحدُ ثلاثة: من يعلم ما نُسِخ من القرآن، أو أميرٌ لا يجد بدًا، أو أحمق متكلف. قال: وكان ابن سيرين يقول: فلست بواحد من هذين، ولا أحب أن أكون الثالث[4]!!

ويقول النووي عن عطاء بن السائب التابعي: "أدركتُ أقوامًا يسأل أحدهم عن الشيء فيتكلم وهو يرعد"[5]!!

وعن الهيثم بن جميل قال: شَهِدْتُ مالكًا سُئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: "لا أدري"[6]!!

وعن مالك أيضًا: أنه ربما كان يُسأل عن خمسين مسألة فلا يجيب في واحدة منها، وكان يقول: "من أجاب في مسألة فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف خلاصه، ثم يجيب"[7].

وسُئِل عن مسألة فقال: "لا أدري"، فقيل: هي مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال: "ليس في العلم شيء خفيف"[8].

---

1 الموطأ، رواية يحيى الليثي 2/ 571 .
2 ابن القيم: إعلام الموقعين 1/ 34 .
3 المصدر السابق 1/ 35 .
4 ابن القيم: إعلام الموقعين 1/ 35 .
5 النووي: آدَاب الفتوى والمفتي والمستفتي مقدمة الكتاب.
6 القاضي عياض: ترتيب المدارك 144/1.
7 انظر: الشهرزوي: أدب المفتي والمستفتي ص79 – 80 ، القاسمي: الفتوى في الإسلام ص45.
8 النووي: آدَاب الفتوى والمفتي والمستفتي مقدمة الكتاب.

وقال حماد بن زيد: "سُئِل أيوب عن شيء فقال: لم يبلغني فيه شيء. فقيل له: فقل فيه برأيك. فقال: لا يبلغه رأيي"1!!

وهذا ابن النفيس شيخ الطب في زمانه، ومكتشف الدورة الدموية الصغرى، تقدم إليه أحد المرضى، وسأله عن علاج لورمٍ في يده، فلمّا فحصه قال في تواضع: "أعرف صفة الورم، وأتفهَّم أسبابه، ولكنني لا أعرف له علاجًا؛ فالتمسه عند غيري"2.

ثامنًا: العزة:

لم يرث الأنبياء غير العلماء، وإذا كانت رتبة النبوة أعلا المراتب وأشرف المنازل عند الله Y.. فإنه لا يليها في المرتبة والمنزلة غير تلك التي ورثتها.. ولقد قال الله Y: (**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**3).

فالعلماء أعزّاء بالعلم الذي هو إرث الأنبياء.. فلا يخضعون ولا يذلون ولا يهانون؛ إذ أنهم لا يريدون من دنيا الناس شيئًا؛ حكامًا كانوا أو محكومين..!!

وهكذا، فلا يضيرهم كيد المستكبرين، ولا ظلم المستبدين، ولا بريق أموال المزهوين..

ويستوي في ذلك الأمر أن يكونوا أغنياء أو فقراء.. فإنهم يعلمون قوله ρ: "**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**"4.

ومصداق ذلك ما ذكره ابن عبد البر من أن الحجاج سأل خالد بن صفوان: مَنْ سيد أهل البصرة؟ فقال له: الحسن (الحسن البصري). فقال: وكيف ذلك وهو مولى؟! فقال: احتاج الناس إليه في دينهم، واستغنى عنهم في دنياهم، وما رأيت أحدًا من أشراف أهل البصرة إلا يروم الوصول إلى حلقته؛ ليستمع قوله ويكتب علمه.

فقال الحجاج: هذا – والله – السُّؤْدد!!

وتلك العزة التي هي في الغنى، صورها الشافعي ~ حين قال منشدًا:

---

1 ابن سعد: الطبقات الكبرى 247/7.

2 انظر في ذلك صبري الدمرداش: قطوف من سير العلماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006م، ج2 ص 175 .

3 (المنافقون: 8).

4 البخاري: كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس (6081)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض (1051)، وابن ماجة (4137)، وأحمد (7546)، وابن حبان (679)، وكلٌّ عن أبي هريرة ρ.

أمطري لؤلؤًا جبال سرنديب وفيضي آبار تبريز تبرًا

أنا إن عشت لست أعدم قوتًا وإذا مت لست أعدم قبرًا

همتي همة الملوك ونفســـي نفس حر ترى المذلة كفرًا

وإذا ما قنعت بالقوت عُمري فلماذا أهاب زيدًا وعمـــرًا؟!

وجسّدها أبو حازم التابعي ~ حين دخل على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك؛ ورأى منـــه الأخير عزته وقوته في الحق؛ فقال له يطلب صحبته:

هل لك أن تصحبنا، وتصيب منا ونصيب منك؟ قال: كلا. قال: و لم؟ قال: إني أخاف أن أركن إليكم شيئًا قليلاً، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات، ثم لا يكون لي منه نصيرًا. قال: يا أبا حـــازم، ارفع إلى حاجتك. قال: نعم، تدخلني الجنة، وتخرجني من النار. قال: ليس ذاك إلي. قال: فمـــا لي حاجـــة سواها[1].

وذكر السيوطي أيضًا في حسن المحاضرة أن السلطان الصالح إسماعيل استعان بالصليبيين وأعطـــاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وترك الـــدعاء لـــه في الخطبـــة، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي، فغضب السلطان منهما، فخرجـــا إلى الديار المصرية. فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين – وهو في الطريق – رسولاً يتلطف به في العـــودة إلى دمشق، فاجتمع به ولاينه، وقال له: ما نريد منك شيئًا إلا أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده لا غير!!

فقال الشيخ له: يا مسكين، ما أرضاه يُقبِّل يدي، فضلاً عن أن أقبل يده! يا قوم، أنتم في وادٍ وأنا في واد! والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم[2].

وفي مواقف أخرى له أيضًا يقول الباجي: خرج السلطان أيوب في يوم العيـــد في أُبَّهـــة الملـــك، وأخذت الأمراء تقبل الأرض، فالتفت إليه الشيخ العز بن عبد السلام، وناداه: يا أيوب، ما حُجَّتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك مُلك مصر ثم تبيح الخمور؟

فقال السلطان: هل جرى هذا؟

فقال العز: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلَّب في نعمة هذه المملكة – يناديه بأعلى صوته والعساكر واقفون –!!

---

1 سنن الدارمي (647)، وأبو نعيم: حلية الأولياء 235/3.

2 السيوطي: حسن المحاضرة 162/2.

قال: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال العز: أنت من الذين يقولون: "إنا وجدنا آباءنا على أمة"؟!

فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة.

فسأله الباجي: أما خفته؟

قال العز: والله يا بني، استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدَّامي كالقِط[1]!!

والأمثلة في ذلك جد كثيرة.. وكلها تجسد وضْع العلماء الصحيح بين الناس، وكيف أنهم هم القادة لا المقودون، وأنهم هم الموجِّهون لا الموجَّهون..

تاسعًا: التواضع:

طالما كانت العزة من شيم العلماء وأخلاقهم، فكان لابد أن يأتي التواضع تاجًا يزين رؤوسهم..

وكما أن العزة لا تعني الغرور أو الكبر، فكذلك التواضع لا يعنى التذلل أو التزلف.. وإنما يعني أن يُنصف العالِم غيره من نفسه، وأن يقف عند حدود علمه لا يتجاوزه، وألا يتدخل فيما ليس هو من اختصاصه.. كما أن منه أن يَعِيَ جيدًا قوله تعالى: (**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً**)[2].. وهذا هو المعنى بخلق التواضع عند العلماء..

إن العالم المتواضع يدرك أن بضاعته في العلم قليلة مهما زادت، وبسيطة مهما عظمت، وليس أدل على ذلك من موقف واحد من أعظم علماء الأرض، وهو الخضر ~؛ إذ يُقدِّر علمه بالقياس إلى علم الله Y بقولٍ عجيب..

لقد جاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة التي كانت تُقِلُّ موسى والخضر عليهما السلام، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: "يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ.." [3]!!

وهذا الشعور الدائم بالقلة والبساطة هو الذي يورث التواضع في القلب..

---

1 السبكي: طبقات الشافعية 211/8.

2 (الإسراء: 85)

3 البخاري: كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (3220)، الترمذي (3149)، وابن حبان (6220).

وهو ما عناه الشافعي حين قال:

كلَّما أدَّبني الدهــــر	أراني نقص عقلي
أو أراني ازددتُ علمًا	زادني علمًا بجهلي!

وهو أيضًا ما أدركه الفخر الرازي، إمام علم الكلام والفلسفة والعقيدة في عصـــره، وصـــاحب التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) حين قال في أخريات حياته:

العلم للرحمن جلَّ جلاله	وسواه في جهلاته يتغمغمُ
ما للتراب وللعلوم وإنما	يسعى ليعلم أنه لا يعلمُ!

وذلك الشعور هو ما يدفع العالم الرباني إلى أن يعرف قدر نفسه وقدر غيره.. فلا ينتقص من غيره، ولا يتعالى هو عليهم.. وفي ذات الوقت لا يزهو بنفسه، ولا يأخذه العجب أو الغرور بمـــا عنـــده، ومـــا حصله..

وقد قال رسول الله ρ: "**يظهر الإسلام حتى يختلف التجار في البحر، وحتى تخـــوض الخيـــل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون: من أقرأ منا؟ من أفقه منا؟ من أعلـــم منـــا؟ ثم قـــال لأصحابه: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أولئك منكم من هذه الأمة، فأولئـــك هم وقود النار**"[1].

وذلك شأن العلماء المغرورين، والذي إن دلَّ حالهم على شيء فإنما يدل على جهلهم وقلة علمهم؛ إذ لو كانوا يعلمون، لعلموا أنهم ما حصَّلوا كثيرًا، بل ولا قليلاً!!

وقد ضرب الإمام مالك بن أنس ~ أروع الأمثلة في تجسيد خلق التواضع عند العلماء؛ فقد روى ابن عبد البر عنه أنه قال: لما حجَّ أبو جعفر المنصور دعاني فدخلتُ عليه فحدثته، وسألني فأجبته فقال:

إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها – يعني الموطأ – فينسخ نسخًا ثم أبعث إلى كـــل مصر (قطر أو بلد) من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيهـــا لا يتعـــدون إلى غـــيره، ويدعون ما سوى ذلك من هذا العلم المحدَث؛ فإني رأيتُ أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم.

---

1 الطبراني في الأوسط 221/6، والبزار (283)، وقال الهيثمي مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار موثقون.

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به ودانوا به، من اختلاف الناس: أصحاب رسول الله ρ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار كل أهل بلد لأنفسهم.

فقال: لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرتُ به. قال الراوي بعد نهاية القصة: "وهذا غاية في الإنصاف لمن فهم"[1]!!

ورُويَ أيضًا عن عبد الرحمن بن القاسم أنه قال لمالك: ما أعلم أحدًا أعلمَ بالبيوع من أهل مصر. فقال له مالك: وبم ذلك؟ قال: بك. فقال: أنا لا أعرف البيوع فكيف يعرفونها بي[2]؟!

وهكذا يكون العالم المتواضع.. وهكذا تكون مواقفه وردود فعله..

يروي أبو هريرة > أنَّ رسول الله ρ قال: "**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ**"[3].

وفي التحذير من الضد، قال رسول الله ρ: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**"[4].

وقال رسول الله ρ أيضًا: "**وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**"[5].

عاشرًا: العمل في فريق، والبداية من حيث انتهى الآخرون:

إذا قام العالم بكل ما سبق من أعمال، واتصف بكل ما سبق من خِلال، فلا شك أنه يكون عالمًا متميزًا جليلاً.. لكن هذا لا يكفي لتنمية وتطوير حركة العلم، ولا لرِفعة ونهضة الأمة، إنما يحتاج العلم وتحتاج الأمة إلى تضافر الجهود، وتفاعل الطاقات.. ولا يكون هذا إلا حين يضع العالِم يده في يد غيره من العلماء.. وكذلك بأن ينظر بصورة عملية وجدية في جهود السابقين والمعاصرين من أقرانه في العلم.

---

1 الموطأ - رواية محمد بن الحسن 33/1.

2 ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله (533/1).

3 مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب استحباب العفو والتواضع (2588)، والترمذي (2029)، وأحمد (8996)، ومالك برواية محمد بن الحسن (1817).

4 مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (91)، والترمذي (1998)، وابن ماجة (59)، وأحمد (3789).

5 مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة واهل النار (2865)، والبيهقي في سننه الكبرى (20872).

ووضع اليد في يد الآخرين هو ما يمكن أن نسميه "العمل في فريق"، وهذا ولا شك يحقق أهـــدافًا مهمة، مثل: الإبداع، وسرعة الإنجاز، وزيادة الإنتاج، ودقة الإتقان، وبروز الكفاءة العالية.. كما أنه يُساعد على خَلْق روح التطوير، وصناعة مادة التقدم والحضارة..

وذلك كله يفتقده العمل الفردي، والذي تقوم عليه – للأسف – كثيرٌ من المؤسسات في الأمـــة الإسلامية، كما رأينا قبل ذلك في عرضنا لتسجيل براءات الاختراع بالنسبة للشركات والمؤسسات.. إذ لم يوجد بين الشركات الكثيرة التي سجَّلت براءات اختراع شركة واحدة إسلامية، وكانت براءات الاختراع عندنا – على قلتها – إنما هي من نصيب الأفراد فقط!!

وقد أدرك علماء المسلمين في تاريخنا تلك القيمة، فأثْرَوا الحياة العلمية في جميع المجالات، واستطاعوا أن يصنعوا نهضة الأمة وحضارتها..

وقد تجلَّت قيمة "العمل في فريق" – على سبيل المثال – في ظهور مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان ~؛ فقد كان أبو حنيفة يحضُرُ – كعادة العلماء المسلمين في تحصيلهم للعلم – حلقة حماد بن أبي ســـليمان، وبعد موت شيخه حماد آلت رياسة الحلقة إليه، وقد التف حوله تلاميذه ينهلون من غزير علمه..

إلا أنَّ أبا حنيفة كانت له طريقة خاصة حين تطرح المسائل والقضايا المختلفة في حلقته؛ فلم يكن يتصدى لها هو في البداية، وإنما كان يطرحها على تلاميذه أو فريقه – إن جاز التعبير – أولاً، ثم يُدلي كـــل منهم برأيه فيها، ويقوم أبو حنيفة بجمع كل هذه الآراء ومناقشتها، ثم يصوِّب أخيرًا مـــا ارتـــآه صـــوابًا.. ليحصل الإبداع والإثراء، ومن ثَمَّ الوصول إلى أفضل الحلول..

ولم يكن هذا خاصًا فقط بالعلوم الشرعية، إنما وجدناه كذلك في العلوم الحياتية.. ومـــن أشـــهر الأمثلة على ذلك ما تمَّ في زمان الخليفة العباسي العالم المأمون (ت: 218هـــ/ 833م)؛ حيث قام العلماء بأول محاولة لقياس أبعاد الكرة الأرضية.. والذي يهمنا هنا هو أنه قام بذلك عن طريق فريقين من العلماء – سيأتي تفصيل ذلك لاحقًا إن شاء الله– وكان أحد هذين الفريقين: "بنو موسى بن شاكر"!!

وفي ذلك يقول المستشرق (نللينو): "إن قياس العرب (المسلمين) للكرة الأرضية هـــو أول قيـــاس حقيقي أُجرِيَ كله مباشرة، مع كل ما تقتضيه تلك المسافة الطويلة **وهذا الفريق الكـــبير مـــن العلمـــاء والمساحين العرب**؛ فهو يُعدُّ من أعمال العرب المأثورة وأمجادهم العلمية"[1].

أما بنو موسى بن شاكر – وقد مرَّ بنا قبل ذلك حديث عنهم – فكانوا وحدهم فريقًا متكـــاملاً، ولا نكون مغالين إذا قلنا بأنهم أول فريق علمي ظهر في العالم!! وفي كتابهم المشهور "الحيل" في علم الهندسة

1 نللينو: علم الفلك عند العرب

والميكانيكا، اتضحت روح الفريق بشكل مباشر، وتجسَّد فيه مبدأ العمل الجماعي القائم على المشاركة والتعاون، حتى إنه ليصادفك كثيرًا عبارات مثل: "نريد أن نجد.."، "وذلك ما أردناه.."، كما تجد أن أغلب أفعال المضارعة هي مثل: "نبين"، "نقول"، "نريد".. وهكذا..

إننا لانشك في أن هذه الجماعية هي التي كانت سببًا في نبوغهم وتقديمهم للأمة وللبشرية ما لم يضارعهم فيه أحدٌ في زمانهم، يقول عنهم ابن خلكان: ".. الإخوة الثلاثة الذين ينسب إليهم حيل بن موسى، وهم مشهورون بها.. وكانت لهم همة عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل، وأتعبوا أنفسهم في شأنها، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم، وأحضروا النقلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة.."[1]!!

ومن عجائب الحكمة التي ظهرت أيضًا بفضل التعاون والعمل في فريق، ما كان بين ابن رشد وابن زهر (أبي مروان بن زهر)..

فحين ألَّف ابن رشد كتابه "الكُلِّيات"، والتي تعود شهرته في الطب إليه، وقد جمع فيه النظريات العامة لعلم الطب، والمباديء الأساسية لعلم الأمراض - حين ألَّف كتابه هذا، رأى أنه في حاجة إلى كتاب آخر يكمله، ويكون مقصورًا على الجزئيات؛ لتكون جملة كتابيهما - كما يذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء - ككتاب كامل في صناعة الطب.. ومن ثَمَّ قصد ابنُ رشد أبا زهر (الطبيب الأندلسي الشهير) وكانت بينهما مودة، ورجاه أن يقوم بهذه المهمة..

وقد تم له ما أراد، وألف ابن زهر أهم كتبه وهو: "التيسير في المداواة والتدبير" وهو موسوعة طبية عظيمة، وفيه تظهر براعة ابن زهر وتضلُّعه في الصناعة الطبية!!

ولذلك تجد ابن رشد يقول في آخر كتابه "الكليات": "فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه، وقد بقي علينا من هذا الجزء القول في شفاء عَرَض عرض من الأعراض الداخلة على عضو من الأعضاء، وهذا وإن لم يكن ضروريًا لأنه منطوٍ بالقوة فيما سلف من الأقاويل الكُلية ففيه تتميمٌ ما وارتياض؛ لأنَّا ننزل فيها إلى علاجات الأمراض بحسب عضو عضو، وهي الطريقة التي سلكها أصحاب الكنانيش (الكتب)، حتى نجمع في أقاويلنا هذه إلى الأشياء الكلية الأمور الجزئية؛ فإن هذه الصناعة أحق صناعة ينزل فيها إلى الأمور الجزئية ما أمكن، إلا أنا نؤخِّر هذا إلى وقت نكون فيه أشد فراغًا لعنايتنا في هذا الوقت بما يهم من غير ذلك، فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء، وأحب أن ينظر بعد ذلك إلى الكنانيش، فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقَّب بـ"التيسير" الذي ألَّفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر، وهذا الكتاب سألته أنا إيّ+ اه وانتسخته فكان ذلك سبيلاً إلى خروجه.." [2].

---

1 ابن خلكان: وفيات العيان 161/6.

2 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 319/3،320.

ومن هنا تظهر قيمة العمل الجماعي في الوقوف على ما هو أهم ومطلوب، ومن ثم تكميل النقص، وإثراء العلم.. وتقدم الأمة!!

وغير "العمل في فريق" هناك أيضًا خاصية مهمة في ضمان خروج العمل في أفضل صورة ممكنة، وهي خاصية "البدء من حيث انتهى الآخرون".. فكل حضارة معتبرة لم تبدأ أبدًا من الصفر، وإنما تبدأ من حيث انتهى سابقوها.. ولو بدأت كل حضارة في مضمار العلوم من الصفر لما ازدهرت أي حضارة، ولما وصلت حضارة اليوم إلى ما وصلت إليه من هذا التقدم العلمي المذهل..

وقد ارتكز المسلمون في نهضتهم على الحضارات التي سبقتهم، من فرعونية وإغريقية ويونانية وفارسية، واستطاعوا بعد ذلك أن يواصلوا العطاء والتقدم الذي ابتدأه من سبقهم، وقد قدموا في ذلك للإنسانية – وللنهضة الأوربية بصفة خاصة – أجل ما يمكن أن تفخر به!!

وعلى هذا فإن ما نريده اليوم هو أن نبدأ من حيث انتهى أو من حيث يقف سابقونا؛ إذ هي سنة قيام الأمم والحضارات، واللاحق في ذلك يبني على السابق..

فإذا كانت شركة سنجر الأمريكية – على سبيل المثال – لم تخترع ماكينة الخياطة، فإنها أضافت إليها تطوير الحركة الميكانيكية بالرجل بدلاً من إليد، واستطاع سنجر بذلك أن يحقق نجاحًا باهرًا في تسويق وبيع الماكينات، وفي ذات الوقت إفادة الإنسانية وتقدم الحضارة!!

وأمّا في العلوم الشرعية فلا تعتمد حضارتنا أبدًا على حضارات أخرى؛ فديننا مكتمل وشرعنا تامّ، قال تعإلي: (**اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**)1... ومع ذلك ففي مجال التصنيف والتأليف يمكن أن يكمل عالم جهود علماء سابقين، وبذلك تستفيد الأمة، وتكتمل العلوم.

وقد قام الإمام النووي ~ – على سبيل المثال – بالبدء في تصنيف كتاب (المجموع شرح المهذَّب)، ولكنه مات و لم يتمّه؛ فجاء الإمام السبكي ~، وابتدأ في إكمال الشرح، ومات أيضًا قبل أن يتمه؛ فجاء الشيخ محمد نجيب المطيعي ~، وأكمل ما بدأه الشيخان من عمل..

ولو حاول كل واحد ممن أتوا بعد الإمام النووي أن يصنف شرحًا خاصًا به.. فترى كم كان يضيع من الزمان، وكم كان يضيع من علم لعالم مثل النووي، وكم كان يضيع من استفادة يستطيع اللاحقون أن يبنوا عليها..؟!

---

1 (المائدة: 3) .

ومثلما فعل هؤلاء فعل أيضًا جلال الدين السيوطي في تفسير القرآن المسمَّى بـــ "**تفسير الجلالين**"، وهذه التسمية جاءت نسبة إلى مؤلِّفيه الجليلين: جلال الدين المحلِّي، وجلال الدين الســيوطي؛ وهـو مـن التفاسير القيِّمة المفيدة، التي لاقت انتشارًا واسعًا بين المسلمين..

فقد بدأ الإمام جلال الدين المحلِّي ~، وهو من العلماء البارزين في القرن الثامن الهجري، بتـأليف هذا التفسير من سورة الكهف، وانتهى به إلى سورة الناس، وعندما شرع في تفسير سورة الفاتحة وما بعدها وافته المنيَّة.. فجاء الإمام السيوطي من بعده، وهو من علماء القرن التاسع الهجري، فشـرع في تكميلـه، واستطاع أن يتمه إلى نهاية سورة الإسراء.

وبهذا العمل اكتمل هذا التفسير العظيم، والذي كان له من القبول والنفع الكثير، وبه حُفِظ علـمٌ من الضياع، كما حُفظ وقتٌ ثمينٌ من أن يُهدر..

وغنيٌّ عن البيان أنه لكي يقبل عالمٌ أن يتعاون مع الآخرين ويأخذ منهم ويعطي لهم، لابد أن يكون متواضعًا متجردًا، لا يبغي نفعًا شخصيًا ولا مصلحة ذاتية.. ولو توفَّر لدينا هذا النوع من العلماء، فهـذه – واللهِ – هي أولى خطوات الرِّيادة!!

الفصل الخامس: تَنْشِئَةُ الْعُلَمَاءِ

نسعد كثيرًا، ويأخذنا الإعجاب والفخر كل مأخذ، حين نسمع عن عالمٍ عظيمٍ نبغ في مجال من مجالات العلوم المختلفة، ويزداد الإعجاب والفرح حين يكون هذا العالم مسلمًا ملتزمًا بتعاليم دينه، يبغي الصلاح ونفْع الأمة.. والعجيب أن هذا الشعور وذاك الإحساس أحيانًا لا يتخطَّى حاجز النظرة العابرة واللحظة الآنية، تلك التي تنظر فقط إلى الأمور في نهاياتها، وإلى الثمار في أوج نضجها، وليس إلى النَّبْت من أول غرسه وكيف نبَت!!

وإنه لحريٌّ بنا – ونحن نبغي العلم ورفعة الأمة – أن نقف على ذاك النبت منذ بدايته.. كيف ينمو؟ وكيف ينشأ؟ وما هي السبل التي من شأنها أن تخرج لنا هذه الثمرة الطيبة؟ وهي: "العلماء"!!

وإذا كنا قد ذكرنا في هذا الصدد جهد العالم نفسه، وأهمية الإرادة ووجود الاستعداد عنده.. فإنا نرى أن هذا الجهد يُثمر بصورة أكبر إذا ما توافرت وتضافرت عدَّة عوامل أخرى، نجملها في النقاط التالية:

أولاً: دور الأسرة في تنشئة العلماء

يقع الواجب الأكبر في إخراج العلماء وتنشئتهم على عاتق قطبي الأسرة: الأب والأم؛ فهما المظلة الحقيقية التي يخرج من تحت عباءتها العلماء، وهما البلد الذي يخرج نباته كما يُسقى ويُغذَّى.. يقول تعالى: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا)1.

والأبوان غالبًا ما يحددان وجهة الطفل ومصيره، وقد ذكر رسولنا ρ هذا الأمر في الحديث الذي رواه أبو هريرة > فقال: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟" ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ >: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)2.

وقد فقه كثيرٌ من الآباء المسلمين تلك الحقيقة، فبذلوا جهدهم ليوفروا لأبنائهم تلك البيئة الصالحة التي تساعدهم على أن يكونوا علماء.. فكان منهم – على سبيل المثال – من يستقدم لأبنائه علماء مشهورين لتعليمهم وهم صغار، وكانوا يختارون من هؤلاء العلماء المشهورين من يجمعون – في الغالب – بين أكثر من علم!!

---

1 الأعراف: 58 .

2 البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (1271)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (4803).

وكان من ذلك أن محمد بن عبد الله بن طاهر (حاكم بغداد في أيام المتوكل العباسي، وتوفي سنة 253هـ) اختار لتعليم ابنه طاهر العالِمَ النحوي اللغوي أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، بل إن هذا الأب أفرد لذلك العالم الذي استقدمه لتعليم ابنه دارًا في داره ليقيم فيها هو وتلميذه، وكان يتغدَّى معه، هذا غير إجرائه له مرتبًا معلومًا في الشهر1!!

ومثله فعل الخليفة المأمون حين وكَّل الفرَّاء (من أئمة الكوفيين أيضًا، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، تُوُفِّي سنة 207هـ) بتعليم ابنيه في داره على نحو ما مرَّ بنا، والطريف في ذلك - كما ذكرنا أيضًا - أن ابني المأمون هذين، اللذين تربَّيا على العلم وحفظ مكانة العلماء، تنازعا ذات يومٍ على تقديم نعل الفرَّاء إليه!! ولما علم المأمون بذلك بادر بسؤاله: مَنْ أعزُّ الناس؟ فأجابه الفراء بأنه ما يعرف أعزَّ من أمير المؤمنين، فقال له المأمون: بل أعز الناس من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليَّا عهد المسلمين، حتى رضي كل واحد أن يقدم له فردًا!! ثم أخبره بأن ما فعلاه رفع من قدرهما، وكشف عن جوهرهما2!!

وهذا عتبة بن أبي سفيان يأتي بمؤدِّبٍ لولده، ويقول له: "ليكن أول أصلاًحك لولدي أصلاًحك لنفسك؛ فإنَّ عيونهم معقودة بك؛ فالحَسَن عندهم ما صنعتَ، والقبيح عندهم ما تركت، علِّمهم كتاب الله، ولا تملهم فيكرهوا، ولا تدعهم منه فيهجروا، ورَوِّهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أَعَفَّه، ولا تخرجهم من بابٍ من العلم إلى غيره حتى يحكموه؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم. تهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، وامنعهم من محادثة النساء، وأشغلهم بسير الحكماء، واستزدني بآدابهم أَزِدْك، ولا تتكلنَّ على عذر مني؛ فقد اتكلت على كفاية منك"3.

ومثل هذا لَيَعكِس حرص الآباء على تنشئة أبنائهم التنشئة العلمية السليمة، وحرصهم على رعايتهم وتربيتهم منذ صغرهم ليكونوا علماء الغد ورجالاته..

ولقد كان من وسائل هؤلاء الآباء أيضًا في تنشئة أبنائهم ليصبحوا علماء ما كان من تشجيعهم لهم، واحتفائهم بهم، وتقديمهم الغإلى والنفيس ليرغبوا أطفالهم في العلم، كما كان منه أيضًا إكرام معلميهم.

فكان عبد الملك بن مروان يُرغِّب بنيه، ويقول لهم: "يا بَنِيَّ، تعلَّموا العلم؛ فإن استغنيتم كان لكم كمالاً، وإن افتقرتم كان لكم مالاً"4.

---

1 انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الثالثة، ج1 ص 328 .

2 راجع القصة في الكتاب، وانظرها أيضًا في وفيات الأعيان 6/ 179.

3 انظر تاريخ دمشق 38/ 272 – ابن عبد ربه: العقد الفريد 1/ 234.

4 انظر ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله 1/ 242.

وحدَّث النضر بن الحارث؛ فقال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: قال لي أبي: "يا بُـــنيَّ، اطلـــب الحديث، فكلَّما سمعتَ حديثًا وحفظتَه فلك درهم. فطلبتُ الحديث على هذا"1.

وهذا أبو القاسم بن الوزير الخاقاني يحتفل بدخول ابنه الكُتَّاب، فكان مما فعله أنه دعا من القـــوّاد والرؤساء جماعةً بلغوا ثلاثين فردًا، وأمر الداعي بإعطاء المُعلِّم ألف دينار! وأكرم الناس وأكلوا2.

وحتى لا يُظَنُّ أن الأمر خاصٌّ بالخلفاء أو الأمراء أو المشهورين من العلماء فقط، فهذا والد ابـــن سينا، وكان شخصًا لم يُعرَف عنه أنه اشتُهِرَ بعلم أو رياسة، أحضر لولده ابن سينا – رغم نبوغه وعبقريته الفذَّة منذ صغره – عالِمَ الفلسفة المشهور أبا عبد الله النائلي، وأنزله داره؛ بغية أن يعلِّم ولده ابن سينا3.

وهذا أيضًا الإمام الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت 310هـــ) يحدِّث عـــن نفســـه فيقول: حفِظتُ القرآن ولي سبع سنين، وصلَّيت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبـــت الحـــديث وأنـــا في التاسعة4!! والشاهد هنا: كيف وصل إلى هذه الرتبة العَلِيّة والدرجة الرفيعة تلك؟!

والإجابة في ذلك تكمن في قوله وهو يحكي دور والده: رأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ρ، ومعي مخلاة مملوءة بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه، وقصَّ رؤياه على المعَبِّر؛ فقال لـــه: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، وذبَّ عن شريعته. **فحرص أبي على معونتي على طلب العلم**، وأنـــا حينئِذٍ صبيٌّ صغير5!

ولا نعجب بعدُ أن نرى الطبري وهو يحدث عن نفسه وهو بصدد تفسير القرآن العظيم الذي ألَّفه، والمسمّى (**جامع البيان في تأويل القرآن**)، والذي يقع في أكثر من عشرين جزءًا كبيرًا؛ فيقول: "**حـــدثتني نفسي به وأنا صبي**"6!! أي منذ أن شجعه والده، وأعانه على طلب العلم، وحببه له، حتى غدا ~ شـــيخ المفسرين والمحدِّثين والمؤرِّخين، والمجتهد العظيم.

وفي عصرنا، كان والد المودودي الهندي هو مُعلِّمَه الأول؛ حتى إنه علَّمَهُ – كما سيأتي – اللغـــة العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه وغيرها، وقد حكى ابنه عن ذلك فقال عن والده: "لقـــد أحسن تربيتي، وعلمني النطق السليم، وكان يحكي لي كل مساء قصص الأنبياء والمرسلين، ووقائع التـــاريخ

---

1 انظر الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ص 165.

2 انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية 1/ 329.

3 انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 3/ 71.

4 انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء 18/ 49.

5 المصدر السابق: نفس الصفحة.

6 انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء 18/ 62.

الإسلامي، وحوادث الهند، واهتم بأخلاقي؛ وكان يأخذني معه دائمًا عند رفاقه، وكُلُّهُم على درجة عالية من الثقافة والاتزان، فانتقلت إلى من مجالستهم العادات الفاضلة الحسنة"[1].

وبصفة عامة فإن من أهم واجبات الآباء أن يُعظِّموا عند الأبناء قيمة العلم، ويرفعوا عندهم قيمة المعلمين والمدرسين، وإلاّ يصبح كلام المعلم للطفل هباءً منثورًا.. ومن أروع ما جاء في ذلك ما كان من حال أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك هو واثنين من أبنائه الأمراء - كما مرَّ بنا - مع العالم الجليل عطاء بن أبي رباح العبد الأسود؛ حيث قال سليمان لولديه: "يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذُلّنا بين يدي هذا العبد الأسود"2!!

وهكذا يكون دور الآباء مع الأبناء في سبيل تخريج وتنشئة العلماء.. أما **دور الأم في ذلك**؛ فهو أعظم عملٍ يمكنها القيام به، وكيف لا وقد اجتمع لها من وسائل تربية الأبناء وقضاء أغلب الأوقات معهم ما لم يجتمع للأب؟ فهي أقرب الناس لقلوب أبنائها، وأحرص الناس على منفعتهم، ولو جعلت القضية قضيتها، والمهمة مهمتها لخرج لنا جيل نفاخر به العالمين.. فالأم مدرسة حقيقية، شريطة أن تضع مصالح الأمة وهموم المسلمين نصب عينها.

وصدق حافظ إبراهيم3 إذ يقول:

الأُمُّ مَدرَسَةٌ إِذا أَعدَدتَها ... أَعدَدتَ شَعبًا طَيِّبَ الأَعراقِ
الأُمُّ رَوضٌ إِن تَعَهَّدَهُ الحَيا ... بِالـرِيِّ أَورَقَ أَيَّمـا إيراقِ
الأُمُّ أُستاذُ الأَساتِذَةِ الإلى ... شَغَلَت مَآثِرُهُم مَدى الآفاقِ

وجسَّد ذلك معروف الرصافي4؛ فقال:

و لم أرَ للخلائق من مَحَـلّ ... يهذّبها كحِضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربيـة البنين أو البنات

---

1 مجلة المختار الإسلامي، ربيع الأول 1400هـ ص 84.

2 ابن الجوزي: صفة الصفوة 212/2.

3 هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس، الشهير بحافظ إبراهيم (1288 - 1351هـ / 1871 - 1932م)، شاعر مصر ومدون أحداثها نيفًا وربعًا من القرن. وُلِدَ في ديروط، ونشأ يتيمًا، وتوفي بالقاهرة. نظم الشعر في أثناء الدراسة، واشتُهِرَ حتى لُقِّب بشاعر النيل. له: ديوان حافظ، والبؤساء، وليالي سطيح، وكتيب في الاقتصاد وغيرها. انظر الأعلام 6/ 76 .

4 هو معروف بن عبد الغني البغدادي الرصافي (1294 - 1364هـ / 1877 - 1945م)، شاعر العراق في عصره، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وُلِدَ ببغداد، ونشأ بها في الرصافة، وتوفي في الأعظمية ببغداد. له كتب منها: ديوان الرصافي، ودفع الهجنة، ومحاضرات في الأدب العربي، وغيرها الكثير. انظر الأعلام 7/ 268 .

وأخلاق الوليد تُقاس حسنًا   بأخلاق النساء الوالدات

وليت الأمهات يكتشفن مواهب أبنائهن قبل أن تمر السنوات وتضيع فيما لا فائدة فيه.. ولنا عبرة في النَّوَار بنت مالك < أم زيد بن ثابت >..

لقد كان زيد بن ثابت طفلاً صغيرًا، واشتاقت نفسه للجهاد وهو بعدُ ابن ثلاثة عشر عامًا، وحين حاول أن يخرج للحرب في بدر، ردَّه رسولُ الله ρ بسبب صغر سنه.. وعندها رجع إلى البيت يبكي بسبب عدم مشاركته المسلمين في الجهاد، ولما رأته أمه على هذه الحالة لم تطيب خاطره بكلمات وكفى، فإنها كانت تدرك بعمق مواهبه وإمكاناته؛ فلفتت نظره إليها وقالت له: إن لم يكن باستطاعتك أن تجاهد بالسيف والدرع كما يفعل المجاهدون في المعركة، فباستطاعتك أن تخدم رسول الله ρ والإسلام بالعلم الذي عندك!!

لقد كانت القراءة والكتابة مَزِية لدى زيد >، فوق أنه يحفظ الكثير من آيات القرآن الكريم.. وهذا مجال يتفوق فيه على غيره.. وهكذا استطاعت الأم الواعية الفاهمة أن تفتح لصغيرها بابًا آخر، بعد ما أُغلق أمامه باب الجهاد مؤقتًا.

وحين ذهبت به إلى رسول الله ρ وعرضت عليه إمكانات ولدها، وما يمتلكه في غير مجال الجهاد والحرب، اختبره ρ وسمع منه، ولما علم قدراته وطاقاته قال له: **"اذهب فتعلَّم لغة اليهود؛ فإني – والله – ما آمنهم على كتابي"**[1]..

فذهب زيد وتعلم لغة إليهود في أقل من سبع عشرة ليلة!! ولعله كان عنده بعض الخلفية عنها، واستطاع خلال الأيام السبعة عشر أن يُتم تعلمها وإتقانها..

وبعد ذلك جعله رسول الله ρ من كَتَبَة الوحي، وكفاه شرفًا بذلك.. حتى إنه بعد وفاة رسول الله ρ أوكل إليه أبو بكر الصديق > مهمة جمع القرآن، وكان عمره وقتئذٍ ثلاثًا وعشرين سنة!!

فلكم نبغ ذلك الطفل!! ولكم أفاد الأمة الإسلامية!! وكان ذلك ثمرة أمٍّ مسلمة استطاعت أن تهب الأمة أعظم ثروة.. فتُرى إذن: كم يكون أجرها ومكافأتها عند الله!!

وقبل أمِّ زيد بن ثابت – والأمثلة جد كثيرة – كانت هند بنت عتبة، أم الصحابي والخليفة معاوية بن أبي سفيان >.. فقد قيل لها ومعاوية مازال طفلا صغيرًا: "إن عاش معاوية ساد قومه"، فردَّت هي من فورها وكلها ثقة وحزم: "ثَكِلْتُه إن لم يسُدْ إلا قومه"[1]!!

---

1 أبو داود (3645)، وأحمد (21658)، والحاكم (252)، وانظر أيضًا: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة 593/2 – والمزي: تهذيب الكمال 10/ 28 .

وقد كان لها ما عزمت وأرادت، حيث صار خليفة للمسلمين، ومؤسس الدولة الأموية، صاحبة التاريخ العظيم والمآثر الجليلة في الإسلام..

وغير أُولاء الأمهات الجليلات، كانت هناك أيضًا أم "ربيعة الرأي"2، شيخ الإمام مالك، حيث خرج زوجها فرُّوخ في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية، وترك ربيعة حملاً في بطنها، لتقوم هي على تنشئته وتربيته وتعليمه، وقد ترك عندها ثلاثين ألف دينار.. ولما رجع بعد سبعٍ وعشرين سنة، دخل مسجد المدينة، فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، وإذا فيها مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، ولما سأل عن صاحب هذه الحلقة أجابوه بأنه ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ابنه)!!

فرجع إلى منزله وقال لزوجته وأم ولده: "لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها"، فقالت له: فأيهما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي هو فيه؟! فقال: لا – والله – بل هذا. فقالت: أنفقت المال كله عليه. قال: فوالله ما ضيَّعتيه3!!

وإنَّا لَنَعجَبُ حين نعلم أنَّ سفيان الثوري ~ – فقيه العرب ومحدثهم، وأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال فيه زائدة4: "الثوري سيد المسلمين"5، وقال فيه الأوزاعي6: "لم يبقَ من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان"7 – كان وراءه أمٌّ صالحة، تكفلت بتربيته والإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها!!

يصوِّر ذلك هو بنفسه فيقول: "لما أردت أن أطلب العلم؛ قُلتُ: **يا ربِّ، لابد لي من معيشة.** ورأيت العلم يَدْرُس (أي: يذهب ويندثر)؛ فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه، قال: وسألتُ الله الكفاية"، يعني أن يكفيه أمر الرزق، فكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيَّض له أمه التي قالت له: "يا بُنَيَّ، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي"8!!

فكانت رحمها الله تعمل بالغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلُّم؛ ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوَّله بالموعظة والنصيحة لتحضَّه على تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات

---

1 ابن كثير: البداية والنهاية 118/8.

2 هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي مولاهم أبو عثمان المدني المعروف بربيعة الرأي، يقول ابن حجر عنه: ثقة فقيه مشهور. مات سنة 136 هجرية على الصحيح. انظر تقريب التهذيب ص 207 - تاريخ بغداد 8/ 420 – الباجي: التعديل والتجريح 2/ 573 .

3 ابن خلكان: وفيات الأعيان 289/2،290.

4 هو زائدة بن قدامة الثقفى، أبو الصَّلت الكوفى، من كبار أتباع التابعين، قال الذهبي: ثقة حجة صاحب سنة، توفي غازيًا بالروم سنة 161 . انظر الكاشف 1/ 400 - تقريب التهذيب ص 213 .

5 ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل 118/1.

6 هو أبو عمرو الأوزاعي، واسمه عبد الرحمن بن عمرو، والأوزاع بطن من همدان، ولد سنة 88هـ. إمام أهل الشام في زمانه في الحديث والفقه، قال ابن سعد: كان ثقة مأمونًا صدوقًا فاضلاً خيرًا كثير الحديث والعلم والفقه حجة. كان يسكن بيروت وبها مات سنة 157هـ. انظر الطبقات الكبرى 7/ 488 - تهذيب الكمال 17/ 308 .

7 أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ 204/1.

8 أبو نعيم: حلية الأولياء 370/6.

مرة: "يا بني، إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تَرَ ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك"1!!

وهكذا كانت أمه فكان هو.. تَبوَّأ السيادة في العلم والإمامة في الدين!!

ولا يفوتنا هنا أن ننوِّه بدور الأم في حياة الأئمة المشهورين، مثل البخاري، أمير أهـــل الحـــديث، وكذلك الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك، أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة..

فقد نشأ البخاري - كما سيأتي - يتيمًا ضريرًا في حِجْر أمه، لتقوم هي على تربيته أفضل تربيـــة، فتتعهده بالرعاية والدعاء، وتدفعه إلى التعلم والصلاح، وتزين له أبواب الخير، بل وترحل به وهو في ســـن السادسة عشرة إلى مكة للحج، ثم تتركه هناك وترجع، ليطلب العلم بلسان قومه.. ليرجع ويكـــون هـــو البخاريُّ، ولتُعلِّم أمهات المسلمين - والأرامل منهن خاصة - كيف تكون تربية الأبناء، وما دور الأمهات في جهادهن لرفعة الأمة والنهوض بها!

وكان السر أيضًا في نجابة وظهور **الإمام مالك** ~ يكمن في أمه العاقلة، تلك التي أحسنت توجيـــه أبنائها، واختارت لهم الطريق السوي، وهيئت لهم أسباب النجاح، وفي قصتها يأخذنا العجب كل مأخـــذ حين نعلم أن مالكًا الطفل لم يكن يريد أن يتجه إلى العلم، وإنما رغب في أن يتعلم الغناء ويجيده، وبالتـــالي يصبح مغنِّيًا!! فالغناء - كما يخيل للحالِم والرائي - مصدرًا للشُّهرة، ومجلبةً سريعةً للثروة، لكن أم الإمـــام مالك العاقلة لم ترضَ لولدها ذلك، وحالها هنا على عكس الأمهات اللائي يسارعن إلى تشجيع أولادهـــن لصقل تلك الموهبة التي ظهرت حسب ما يظنون!! ففي لطفٍ شديد ولباقة جمة، اســـتطاعت أن تصـــرف ولدها عن فكرته، وأن تختار بديلاً سريعًا لها، **وهو العلم**؛ ذلك الذي يرفع من قدر البيـــوت وإن كانـــت خاملة، ويُعلِي من قيمة الرِّجال وإن جاءوا من حضيض الفقر وقسوة العوز2.

يقول الإمام عن تلك الحادثة: نشأتُ وأنا غلام، فأعجبني الأخذ عن المغنين، فقالت أمي: يا بـــني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يُلتَفَت إلى غنائه؛ فدع الغناء واطلب الفقه. فتركت المغنين وتبعت الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترى3.

فهذه الأم الفاضلة العاقلة لم تكذب على ولدها وتقول له: إنه قبيح الوجـــه؛ إذ لم يكـــن مالـــك كذلك، بل كان وسيمًا ذا شقرة، وإنما هي أرادت أن توحي إليه بما يصرفه عن عزمه، فقالت قولتها تلـــك اللبقة المهذبة1.

---

1 ابن الجوزي: صفة الصفوة 189/3.

2 انظر في قصة أم مالك: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبنـــاني - بـــيروت، الطبعـــة الرابعـــة، 1418هـــ - 1998م ص 6، 7 .

3 سرح العيون ص 181، نقلا عن المصدر السابق، نفس الصفحة.

و لم يتوقف دور أم مالك عند ذلك، و لم تكتف بتوجيهه إلى طلب العلم وحسب، بل إنها ألبسته ثياب العلم ووجَّهته إلى من يتعلَّم منه، يقول مالك في ذلك: فألبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي – يعني القلنسوة الطويلة – وعمَّمتني فوقها، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن!! ثم تختار له المعلِّم والأستاذ – وكان أشهرهم آنذاك ربيعة بن أبي عبد الرحمن – فتقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه2. ومقصدها بالطبع هو تعلُّم العلم والأدب جميعًا.

وبذلك يبتدئ الصبي الصغير مالك بن أنس مسيرته الطويلة في طريق العلم حتى يصير إمامًا فذًّا من أئمة المسلمين، فيكون أثمن عطية، وأغلى هدية، من أم فاضلة تجيد التربية وتحسن التوجيه3.

أمّا والدة الشافعي ~ فقد شبَه دورها دور أم البخاري ~.. إذ أن والد الشافعي مات بعد أن وُلِدَ الشافعي بزمن قصير، فنشأ الشافعي يتيمًا، وأصبح مصيره مرتبطًا بتصرُّف أمه.. فإن كانت الأم عاقلة حاذقة فإنها – لا شك – ستهيئ للطفل أسباب السعادة والنشأة الصالحة، وإن كانت الأخرى فإنها ستعرض وليدها للشقاء والمستقبل المضطرب..

على أن أم الشافعي أثبتت وبكل جدارة أنها من الأمهات الصالحات الحاذقات المجاهدات؛ إذ أهدت للأمة الإسلامية إمامًا عظيمًا، ملأ سمع الأرض والسماء!!

ومن طريف ما يذكره المؤرخون عن والدة الشافعي أنها كانت ذات حذق وذكاء، وتفقُّه في الدين، وقوة عارضة، وقدرة على الاستبطان، ودليل ذلك أنها تقدمت هي وامرأة أخرى مع رجل للإدلاء بشهادة أمام قاضٍ، فأراد القاضي أن يفرِّق بين المرأتين، ولكن والدة الشافعي المتصفة بما أسلفنا من شمائل اعترضت على القاضي قائلة: ليس لك ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: (**أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى**)4؛ فأسقط في يد القاضي وانصاع لقولها5.

وهذه الأم الفاضلة لا يُتَوَقع منها إلا أن تحسن رعاية وليدها، وتسهر على تنشئته تنشئة صالحة، وتختار له الطريق القويم.. وكان من ذلك أنها ارتحلت به حين بلغ عامين من عمره من غزَّة – مسقط رأس الشافعي – إلى مكة، حيث العلم والفضل، وحيث البادية حولها، والتي فيها يقوَّم لسان الغلام وتصح لغته6، وكان الشافعي هو ثمرة جهود تلك المرأة الفاضلة..

---

1 انظر مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص 7 .
2 انظر ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص 9 .
3 راجع مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص 8، 9 .
4 البقرة: 282 .
5 ابن حجر: توإلي التأسيس بمعإلي ابن إدريس ص 42، نقلا عن مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص 10 .
6 راجع في قصة أم الشافعي: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص 10، 11 .

وإذا جئنا إلى صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك بن شيبان، فإنا نراها وقد أهدت إلى دنيا المؤمنين وعالم الموحدين إمام أهل السنة **أحمد بن حنبل** ~..

فقد وهبت صفية حياها كلها لطفلها اليتيم (أيضًا!!)، واختارت من أجله الترمُّل في سن الشباب هجًا لحياهًا، وقد كان الكثيرات من نساء العرب يفضِّلن الزواج إذا مات الزوج؛ صونًا للعفة وحفاظًا على السمعة، بل إنه كان من الأمور المتعارف عليها أن تتزوج المرأة إذا ترمَّلت أو طلقت، أما صفية فقد منحت شباها لوليدها..

ذلك أن زوجها محمد بن حنبل مات شابًا في الثلاثين، وكانت هي دون الثلاثين حين وفاة زوجها، ورغم ذلك فإنها لم ترض بالزواج، وإنما ارتضت أن تملأ على ولدها حياته حنانًا وأنسًا، وهو ما لم يكن يخفيه أحمد ~ بعد أن كبر.

وإذا عرفنا أن الإمام ابن حنبل لم يتزوج قبل سن الأربعين أدركنا أن السبب في ذلك هو ما هيأته له أمه من سبيل العناية وغامر الاهتمام[1]..

وهكذا وعلى طول الطريق كان دور الأم في تنشئة العلماء.. من أجل النهوض بالأمة، والعمل على تقدمها، ونفع المسلمين ورفعتهم..

ويبقى في دور الأسرة بصفة عامة في تنشئة العلماء **دور الزوجة**..

وأعني بذلك دورها تجاه زوجها ليكون عالمًا؛ فبيت المرأة بصفة عامة هو مملكتها، وهو منطلقها الحيوي والحقيقي نحو أي أصلاًح أو تغيير، وذلك يكون عن طريق أولادها - كما قدمنا سابقًا — وقبل ذلك عن طريق زوجها..

وفي هذا الصدد بإمكان الزوجة أن تُهيئ للزوج الجو العلمي المناسب ليُبدِع وينتج في مجاله وعلمه وصناعته.. وبإمكانها أن تُحمِّسه على التقدم والإبداع والاختراع، فتوفر له الجو النفسي الذي يناسب ذلك.. وبإمكانها أن تخفف عنه مطالب الحياة؛ فلا ترهقه بالمتطلَّبات غير الضرورية في المعيشة والحياة؛ لأجل توفير نفقات العلم.. وبإمكانها أن يكون من ضمن طلباها قبل الزواج مكتبة قيمة، تشترك فيها مع زوجها، ويتعاونان على إعدادها معًا لبيت الزوجية الجديد، ولست أعني بالمكتبة "القيمة" ارتفاع ثمنها أو فخامة شكلها، وإنما أعني تنوع مصادرها، وغزارة محتوياها.. ولو كانت كتبها ذات طباعة غير فاخرة، أو كانت على أرفف بسيطة زهيدة الثمن، ولا شك أن الأطفال سيستفيدون استفادة جمَّة من وجود هذه المكتبة..

---

1 راجع في قصة أم الإمام أحمد: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص 14، 15 .

وحقيقة فإن نبوغ الزوج وتفوقه غالبًا ما يكون لأن وراءه زوجة تدفعه إلى ذلك وتعينه عليه، وفي المثل المتداول: "وراء كل رجل عظيم امرأة"، ولا نغإلى هنا إذا قلنا: "وراء كل رجل عظيم امرأة أعظم"!!

ولا ضير إذا ما كان دور الزوجة هنا ظاهرًا أو غير ظاهر؛ ولا ضير إذا ما كانت الزوجة تقوم بدور الجندي المجهول أو غيره؛ فالبديهي أن تفوق الزوج ونجاحه في عمله ونبوغه في علمه ما هو إلا دليل على عِظَم الزوجة وتفوقها، وهو يعكس نجاحها هي، بل وصلاحها، تلك التي هيأت له من الوسائل والأسباب التي ذكرناها أولاً ما جعله يصل إلى ما وصل إليه..

فالزوجة الصالحة، والتي تبغي نفع الأمة والعمل على نهضتها، هي تلك التي تدفع زوجها دائمًا إلى الأمام لتحقيق النجاح، والوصول إلى الهدف المنشود.. ورحم الله تلك التي كانت تنادي على زوجها في الصباح تقول له: اتَّق الله فينا، ولا تطعمنا إلاّ حلالاً؛ فإننا نصبر على الجوع في الدنيا، ولا نصبر على النار في الآخرة1!!

وفي تجسيد دور الزوجة في ذلك المجال، فليس أقل من دور زوجة الحافظ الهيثمي (وهي بنت شيخه الحافظ العراقي)؛ إذ ثبت أنها كانت تساعد زوجها في مراجعة كتب الحديث2.

وفي دور غيرها، فقد أجمع المؤرخون على أن جميع الأعمال الطيبة، والأفعال الحسنة التي قام بها الخليفة المهدي، فأكسبته الشهرة الفائقة، إنما كانت بتأثير زوجته "الخيزران"3!!

وغير هذه وتلك فإن ابنة سعيد بن المسيب دخل بها زوجها، وكان من أحد طلبة والدها، فلما أن أصبح أخذ رداءه يريد أن يخرج، فقالت له زوجته: إلى أين تريد؟ فقال: إلى مجلس سعيد أتعلَّم العلم، فقالت له: اجلسْ أعلِّمْك علم سعيد4!!

فهي لم تعِنه وتساعده فقط على تعلُّم العلم، وإنما تقوم بدور المعلِّم كذلك!! ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول زوجها عبد الله بن أبي وداعة بعد أن دخل بها: ".. **فإذا هي أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعإلي، وأعلمهم بسنَّة الرسول، وأعرفهم بحق الزوج، وإن كانت المعضلة وهجز الفقهاء عنها فأجدها عندها فأسألها علمها**"5!!

1
2 عبد الله بن محمد بن الصديق الحسني: تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة، مكتبة القاهرة – مصر ص 39 .
3 انظر محمد كمال الدين الأدهمي: مرآة النساء فيما حسُن منهن وساء، مكتبة التراث الإسلامي – القاهرة ص 86، وهي أم الهادي وهارون الرشيد، ملكة حازمة متفقهة، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي. انظر الأعلام 2/ 328 .
4 أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري بن الحاج: المدخل، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية، 1397هـ - 1977م، ج 1 ص 215 .
5 انظر إحياء علوم الدين 3/ 104 .

والمرأة بدورها في ذلك كله – كأمٍّ وكزوجة – تُشاطِر الرجال تمامًا بتمام في سبيل تنشئة العلماء والعمل على رفعة هذه الأمة، إن لم يكن لها فضل السبق عليهم والأجر عنهم..

ثانيًا: دور الدولة في تنشئة العلماء

لا يقِلُّ دور الدولة في تنشئة العلماء عن دور الأسرة، بل إن دورها قد يفوق دور الأسرة في أحيانٍ كثيرة.. وقد يكون لزامًا على الدولة في سبيل بناء نهضتها، وفي سبيل قيادة مسيرتها نحو التقدم والاستقلالية، والبعد عن ذُلِّ التبعية، أن تحوز نصيب الأسد في كفالة العلماء، ورعايتهم وتنشئتهم، وتفقد أحوالهم!!

والحقيقة أن الدولة الإسلامية لم تغفل يومًا دورها المحوري في هذا المجال، بل ربما كان هو الدور الغالب عليها، حتى إنك لتجد المدارس، والمعاهد العليا، والمكتبات العامة وكذلك الخاصة، وقد ازدانت بها مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.. وفي ذلك يذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب جمًّا غفيرًا من خلفاء المسلمين وأمرائهم، الذين كان لهم دورٌ كبير في رعاية العلماء وطلاب العلم، وكانت لهم إليد الطولى في إنشاء المدارس والمعاهد والمكتبات في مختلف الأمصار الإسلامية، واستطاعوا أن يساعدوا العلماء في بناء أمة متعلِّمة ذات حضارة عالمية..

وكان من هؤلاء على سبيل المثال نظام الملك، الوزير السلجوقي العظيم؛ الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس، حتى قيل فيه: إنَّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة، وكان ينشيء المدارس حتى في الأماكن النائية، وكان كلَّما وجد في بلدةٍ عالمًا قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة، ووقف عليها وقفًا، وجعل فيها دار كتب[1]!!

ولعلَّ أهم ما كان يتميز به النظام الوقفي هو اشتراطه أن يتولَّى المدرسة أعلم العلماء في مجاله وفي علمه، وهو الأمر الذي كان وراء نبوغ الكثير من العلماء وكذلك الطلاب.

ولم تكن هذه المدارس صغيرة أو بدائية، ويكفي أن نعلم أن إحدى مدارس الوزير السلجوقي نظام الملك، وهي نظامية بغداد، بلغ عدد تلاميذها ستة آلاف تلميذ، وكانوا كلُّهم **يتعلَّمون بالمجان، بل إن الطالب الفقير كان له فوق ذلك شيء معلوم يتقاضاه من الرِّيع المخصَّص لذلك**[2].

وغير نظام الملك – والأمثلة أكثر من أن تحصى – كان هناك أيضًا صلاح الدين الأيوبي، فقد أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه، في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس[1]!!

---

1 انظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار الوراق، ودار السلام – القاهرة، الطبعة الأولى، 1418هـ – 1998م ص 104.

2 المصدر السابق: نفس الصفحة.

ومثله كذلك كان الخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد مرَّ بنا التعرُّض له في هذا المجال في أكثر من موضع، فقد قال عنه عبد الله بن المبارك: "ما رأيتُ عالمًا، ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظًا للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ρ وأيام الخلفاء الراشدين والصحابة، أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، **لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعِلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة**"2؛ ولم يكن ذلك إلا بكثرة إنفاقه، واهتمامه بالعلم والعلماء وطلابه منذ الصغر!!

ونظرة واحدة على عدد المدارس على اختلاف أقسامها، والبيمارستانات التي شُيِّدَت في عصر النهضة والحضارة الإسلامية تُوقِفُك على ما كان من دور الدولة في رعاية العلماء وتنشئتهم منذ الصغر.. فقد كانت هناك مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره، ومدارس للحديث الشريف، ومدارس للفقه، وأخرى للطب، كما كان هناك مدارس خاصة بالأيتام!!

وفي محاولة للوقوف على بعض من ذلك يقول ابن كثير في حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة: "فيها كَمُلَ بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يُبْنَ مدرسة قبلها مثلها، ووُقِفَت على المذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدارس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقُدِّر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد"3.

وتابع ابن كثير فقال: "ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها، وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلَّف أحدٌ من هؤلاء، وعُمِلَ سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحُمِلَ منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعَوَام، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا..".

إلى أن قال ابن كثير: "ووُقِفَت خزائنُ كتبٍ لم يُسمَع بمثلها في كثرتها، وحُسْن نسخها، وجودة الكتب الموقوفة بها"4!!

وبعد مرحلة الصغر كان للدولة الدور البارز أيضًا في **الاهتمام بأبنائها العلماء** ورعايتهم بما يليق ومكانتهم..

---

1 انظر في ذلك على سبيل المثال: النعيمي: الدارس في أخبار المدارس.

2 أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينورى: الإمامة والسياسة، وهو المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي – القاهرة، 1387هـ - 1967م 157/2.

3 البداية والنهاية 13/ 163 .

4 المصدر السابق، نفس الصفحة.

فكانت أولاً توفر لهم من المرتبات ما يكفي لمعيشتهم عيشة هانئة، وهذا عدا ما كان يُعطَون من رواتب أخرى كحاجات معاشية.. فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني ممن عيَّنه السلطان صلاح الدين ليدرِّس في مدرسته الصلاحية، وقد جعل له كل شهر أربعين دينارًا عن التدريس، وعشرة دنانير للإشراف على أوقاف المدرسة، وستين رطلاً مصريًا من الخبز كل يوم، وراويتين من ماء النيل كل يوم.

وكان من رواتب شيوخ الأزهر الشهرية، راتب يأخذه الشيخ لنفقات بغلته، إذْ كان من أوقاف الأزهر وقف خاص لبغلة الشيخ ونفقاتها[1].

ومثل هذا يُعَدُّ من أبواب تفريغ العلماء للتأليف والابتكار، وأيضًا تعليم الناس، وإفادتهم، دينيًا ودنيويًا..

ومما يستحق التنويه به في ذلك الصدد أيضًا أنه كان للمعلمين في ذلك الوقت المبكر نقابة خاصة بهم، وكان جماعة المعلمين هم الذين يختارون النقيب، وما كان يتدخل السلطان إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء فيصلح بينهم..

وفي ذلك يروى أبو شامة في الروضتين عن مقلد الدولعي أنه قال: لما مات الحافظ المرادي، وكُنّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد؛ فمنّا مَن مال إلى المذهب، وأراد أن يستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنّا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدس، ثم عاد إلى بلاد العجم؛ فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين بن الدّاية نائبًا عنه، وقال لهم: ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع، وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نُرضي الطائفتين ونستدعي الشيخين. فاستدعاهما جميعًا، وولى شرف الدين المدرسة التي سُمِّيَت باسمه، وولى قطب الدين مدرسة النفري[2].

وفي مرحلة أخرى فإن **دور الدولة في التعامل مع العلماء المبدعين** كان له شأنٌ آخر**!!**

فهذا الخليفة الموحدي الثالث المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يُنشئ "**بيت الطلبة**"، للنابغين ويشرف عليه بنفسه، حتى إن بعض حاشيته حسدوا هؤلاء الطلبة على موضعهم منه، وتقريبه إياهم، وخلوته بهم دونهم، ولما بلغ ذلك المنصور الموحدي فزع وخاطبهم قائلاً: "يا معشر الموحدين، أنتم قبائل،

---

1 انظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص 102 .

2 انظر الروضتين في أخبار النورية والصلاحية ص 17 .

فمن نابه منكم أمرٌ فزع إلى قبيلته، وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلا أنا، فمهما نابهم من أمرٍ فأنا ملجأهم، وإلى فزعهم، وإلى يُنسَبون.."1، فكان أن قامت دولة الموحدين وسادت وعمَّت الأرجاء!!

ولأبي عُبَيد القاسم بن سلام قصة طريفة مع عبد الله بن طاهر تدل على تقدير الأمراء لعقول العلماء، وتكريم النابغين منهم.. فإنه لما وضع أبو عبيد القاسم بن سلام كتاب "غريب الحديث" عرضه على عبد الله بن طاهر، فاستحسنه وقال: "إن عقلاً بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيقٌ أن لا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش"، ثم أجرى له كل شهر عشرة آلاف درهم2!!

وقد مرَّ بنا ما كان من الجوائز العظيمة والهبات الجزيلة التي كان يمنحها الخلفاء والحكام للعلماء بهدف التشجيع على تحصيل العلوم، والتي كانت (أي: الجوائز والهبات) في صورة هي أقرب إلى الخيال، وأنه كان من ذلك إعطاء وزن الكتاب المُترجَم – من لغة غير العربية إلى اللغة العربية – ذهبًا للعالِم الذي يقوم بترجمته!!

وقد كان من جرَّاء ذلك أن نشطت حركة الترجمة، ونُقِلَت علوم هائلة على إثرها إلى المسلمين..

وأروع من ذلك ما قامت به الخلافة العثمانية، وذلك حين نجحت في تجميع النابغين من جميع القرى والأمصار، ووفرت لهم الرعاية التي جعلت كل نابغة يعطي **ما** عنده من فن وعلم؛ وهو الأمر الذي ساعد على ازدهار الدولة حضاريًا وعسكريًا حتى باتت الدولة الأولى في العالم!!

و لم يكن اهتمام الدولة يقتصر على رعاية العلماء من أبنائها، بل كان الحكام يستدعون **العلماء من شتى الأمصار** ليستفيدوا من علومهم، ويسعدوا برعايتهم!!

فها هو الأمير المعز بن باديس، أحد أمراء دولة الصنهاجيين في المغرب الإسلامي، كان لا يسمع بعالم جليل إلا أحضره عنده، بل وجعله من خاصته، وبالغ في إكرامه، وعوَّل على آرائه، ومنحه أسمى الرتب3!!

وها هو السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته، وبذَل له ما يستعين به على أمور دنياه4.

---

1 المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 81 .

2 انظر تاريخ بغداد 12/ 406 – تاريخ دمشق 49/ 74 – تهذيب التهذيب 8/ 284 .

3 انظر في ذلك ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ص 129 – الأعلام 7/ 269 .

4 علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1424هـ – 2004م ص 140 .

وإن هذه الصورة لتتضح في وصيته لابنه وهو على فراش الموت؛ فقد جاء فيها: ".. وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظِّم جانبهم وشجعهم، **وإذا سمعت بأحدٍ منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك، وأكرمه بالمال**.."1.

وقد مرَّ بنا استدعاء الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر لابن الهيثم العالم الشهير، والاحتفاء بقدومه وإكرامه، وتقديم العون والمال له..

ومرَّ بنا أيضًا انتقال الخوارزمي من بلدته خوارزم إلى بغداد، حيث (بيت الحكمة)، وكيف أحاطه المأمون بعناية خاصة وتكريم كبير، وولاّه منصبًا كبيرًا في بيت الحكمة، ثم أوفده في بعض البعثات العلمية إلى البلاد المجاورة، للاتصال بعلماء هذه المناطق، والاستزادة من علوم الآخرين، ونشر العلم في أرجاء الدولة الإسلامية..

بل إن اهتمام الدولة برعاية وتنشئة العلماء لم يقتصر فقط على المسلمين منهم، وإنما تعدّى ذلك ليشمل العلماء غير المسلمين أيضًا!!

فها هو السلطان محمد الفاتح يراسل مهندسًا مجريًا نصرانيًا يُدعى أوربان، كان بارعًا في صناعة المدافع، فيحسن استقباله، ويزداد في إكرامه، ويعتني به عناية خاصة، فيوفِّر له جميع الإمكانيات، ويزوده بكل ما يحتاجه؛ ليتمكَّن هذا المهندس بعد ذلك من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة، والتي كان على رأسها **المدفع السلطاني** المشهور، والذي لم يُرَ مثله2!! وهو بعينه ما تقوم به أمريكا وأوربا الآن..

وهذه أسرة بختيشوع النسطورية، كان أبناؤها أطباء الأسرة العباسية لقُرَابة 70 سنة، من زمن المنصور إلى المعتمد، فكانت لهم الرعاية والاهتمام الخاص3. وكان من هذه الأسرة جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس (ت213هـ)، والذي كان طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله، حتى إنه ليقال: إن منزلته مازالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه: من كانت له حاجة إلى فليخاطب بها جبرائيل4!!

وكذلك كان ابن ميمون اليهودي الأندلسي له رعاية واهتمام خاص عند **صلاح الدين** الأيوبي، وكان طبيبه الخاص5!!

---

1 المصدر السابق ص 148 .

2 انظر عبد العزيز العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، دار إشبيلية – الرياض، الطبعة الثانية، 1986م – 1406هـ ص361 .

3 انظر الأعلام (2/ 44، 45 .

4 المصدر السابق 2/ 111 .

5 انظر الأعلام 7/ 329 .

على أن الحكام والأمراء كانت لهم وسائل أخرى إذا لم يستطيعوا أن يجتذبوا العلماء، وكان من هذه الوسائل: شراء مؤلَّفات العلماء العلمية فور انتهاء أصحابها من تأليفها!!

وعلى سبيل المثال فإنه لما سمع الحكم الخليفة الأموي بالأندلس بكتاب "الأغاني" المشهور الآن في الأدب، ما كان منه إلا أن أرسل إلى مؤلِّفه أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه ليرسله إليه في بلده، وكان له ما أراد؛ حيث أرسل إليه أبو الفرج بنسخة من كتابه المذكور، فكان أن قُرِيء الكتاب في الأندلس قبل أن يُقرَأ في العراق موطن المؤلف!!

ناهيك عمَّا يُصاحِب تلك الروح العلمية العالية عند أولي الأمر، وما يمكن أن يتمخض عنها من حالة علمية ومعرفية عامة!!

ونستطيع أن نتلمس دور الدولة في تنشئة ورعاية العلماء في عصرنا الحاضر من خلال **مؤسسة الملك فيصل الخيرية**، كمثال حي وشاهد عيان على ما ذكرناه..

فهذه المؤسسة تَمنح جائزةً سنوية (**جائزة الملك فيصل العالمية**) لتكافىء الذين أوقفوا حياتهم للعلم، وحقَّقوا إنجازاتٍ فريدةً، وتحولاً إيجابيًا في مجالات إبداعهم، وتُمنَح للعلماء الذين كان لنتائج بحوثهم الأثر في تحقيق تقدُّم جوهري في تخصصاتهم العلمية خدمةً للإنسانية، ومن شأن هذا الحافز أن يشجع على توسيع البحوث العلمية وتطويرها لارتياد آفاقٍ جديدة، وذلك في ميداني: الطب والعلوم.

وقد تحدَّدت غايات الجائزة في:

- العمل على خدمة الإسلام والمسلمين في المجالات الفكرية والعلمية والعملية.
- تحقيق النفع العام لهم في حاضرهم ومستقبلهم، والتقدم بهم نحو ميادين الحضارة والمشاركة فيها.
- تأصيل المثل والقيم الإسلامية في الحياة الاجتماعية، وإبرازها للعالم.
- الإسهام في تقدُّم البشرية، وإثراء الفكر الإنساني.

وتتيح المعايير الموضوعية التي تعتمدها الجائزة الفرصة لأي عالم أو مفكر له دراسة علمية أصيلة في الفرع المعلن أن يكون مؤهَّلاً لنيل الجائزة، مادام قد أغنى مجال تخصصه، وأسهم في تطوره، وحقَّق فائدة ملحوظة للبشرية[1]..

---

1 موقع جائزة الملك فيصل العالمية على شبكة الإنترنت، وهو على الرابط:
http://www.menofia.edu.eg/announcements/faisal/section- 1-ar.html

ومثل هذه الجائزة أيضًا جائزة محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات، ورئيس مجلس الوزراء، وحاكم دبي؛ والتي جُعِلَت خصيصًا لخدمة الأمة العربية، وحرصًا على ضمان تطور ونمو مؤسساتها، ورقي ورفعة شعوبها..

يقول راعي الجائزة: "لقد أردنا أن تكون هذه الجائزة وسيلة فعّالة لتطوير الإدارة العربيــة، وأداة عملية للارتقاء بالممارسات الإدارية والمهنية في المؤسسات العربية، وحرصْنا على أن تكون فرصة للتعبير عن تقديرنا ومساندتنا للأداء المتميز، والإنجاز الفعّال، والعمل الجيد الذي يستجيب لمتطلبات أمتنا ويخدم شعوبنا العربية[1]..

بقي أن نقرِّر أنَّ على الدولة جانبًا كبيرًا من الجهود المطلوبة لتنشئة العلماء وإخراجهم إلى الوجود، وأنه لا مناص لها من بذل ذلك الجهد إذا ما أرادت النهوض ومواكبة العصر، والاقتداء بمثيلتــها في عصــر الحضارة والنهضة الإسلامية؛ فينبغي عليها الاهتمام بالعلماء والباحثين في الجامعات وفي مراكــز البحــوث المختلفة، ومن صور ذلك: تقديم الحوافز الماديّة والمعنوية لهم، وعدم إخضاعهم للبيروقراطية واللوائح الــتي تعوق طريقهم، كما ينبغي عليها منح تسهيلاتٍ، وامتيازاتٍ، وحوافز تشجيعية للمرافق البحثية وللعــاملين فيها؛ وذلك بهدف ملاحقة التطور ودفع عجلة الإنتاج في هذا المجال، فضلاً عن إيقاف طوفان هجرة العقول والكفاءات إلى دول أخرى متقدمة.

ثالثًا: دور العلماء والدعاة في تنشئة العلماء

للعلماء والدعاة في تنشئة العلماء دورٌ لا يُضاهيه دور آخر في تأثيره الفعلــي ونتيجتــه المباشــرة والقريبة؛ إذ لا يُثمِّن الشيء إلا من علِمَه وزانه، ولا يعرف طعم العسل إلا من ذاقه وطعِمَه.. والخدُّ يعلم ما في الدمع من حُرَقٍ[2]..

فلأنهم أعلم الأمة بمصالح الأمة، ولأنهم أحرص الناس على الأصلاًح، ولأنهم أحرصهم على سيادة العلم؛ فكان دورهم جد كبير في إخراج العلماء، وفي تربية المجتمع على إخراج وتنشئة هؤلاء العلماء..

أما بالنسبة للدعاة فالمجال رحبٌ والمساحة واسعة، ولو أخذ الدعاة على عاتقهم هذا الدور بمحمل من الجد لخرج لنا جيلٌ من العلماء يكفي الأمة، ويسدُّ الثغرات في كل المجالات!! وكيف لا والدعاة هــم

---

1 انظر موقع جائزة محمد بن راشد آل مكتوم على الرابط:
http://www.arabmanagementaward.com/Default.aspx?&lang=ar

2 شطر بيت لشاعر المهجر إلياس فرحات، وتمامه هو: "الخد يعلم ما في الدمع من حرق .. وليس تعلم ما فيه المناديل".

أعلام الأمة وموجِّهو دفَّة مسيرتها؟! وهم وسيلة الأصلاَح الأولى في المجتمع، وعن طريقهم يحصل الأمل المنشود؟!

وقد جسَّد معاذ بن جبل > ذلك الدور، فقام وهو يحمل هم الأمة يخطب الناس، ويقول: "تعلَّموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبِّر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاّء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة سادة، هداة يقتدى بهم، أدلة في الخير، تقتص آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء"[1].

فلم يترك > واردة ولا شاردة في الحث على العلم، وبيان فضله ومنزلته إلا أتى بها، يخاطب بها قومه ومجتمعه؛ علَّهم يأخذون في تعليمه ويهُبُّون إلى تحصيله..

فالمهمة جليلة وجد عظيمة، وخاصة إذا كان حال الأمة غير مرضيّ.. ولعلنا نوجه من هنا دعوة إلى كل الدعاة في أنحاء العالم الإسلامي، بأن يسدوا الثغرة التي أوكلهم الله إياها وأوقفهم عليها، وأن يقوموا بها على وجهها.. وقد قال رسول الله ρ: "**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**.."[2].

وحريٌ بدعاة المسلمين بأن يقفوا على مواطن النزف التي تصيب الأمة، وأن يكشفوا عنها، ويعملوا على علاجها ومقاومتها، وألا يتخوضوا في سفاسف الأمور وما لا يعود ينفعٍ على الأمة من قريب أو بعيد.. وأحرى بهم بأن يسيروا وفق منهج واضح وهدف محدد، عن طريقه يمكن تربية المجتمع وتنشئة وإخراج العلماء.

على أن دور الدُّعاة غالبًا ما يأخذ طابع الحثِّ والنصح، والتوجيه والإرشاد، على الاهتمام بالعلم وتعليمه، وبذل المال فيه، وإنفاقه على طلبته ومشاريعه ومؤسساته، متوجهين في ذلك لكل فئات المجتمع وطبقاته، بدءًا بالأطفال وانتهاءً بالآباء، ومرورًا بأرباب الصنائع والحرف المختلفة في المجتمع، وانتهاءً بالدولة ومؤسساتها..

---

1 رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (1/ 235) وقال: هكذا حدثنيه أبو عبد الله عبيد بن محمد ~ مرفوعًا بالإسناد المذكور، (وكان قد ذكر الإسناد).

2 البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (3202).

فكان من ذلك، في سبيل تنشئة الأطفال مثلاً وتعويدهم على أن يُصبحوا علماء، أن عمرو ابن العاص > مرَّ على حلقة من قريش فقال: "ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة؟ لا تفعلوا! أوسعوا لهم في المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم إياه؛ فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم"1.

فكان الاعتناء بتعليم الأطفال الجرأة على طرح أفكارهم، والمشاركة بها في نوادي الكبار، وذلك بمجالسة العقلاء الكبار، فتكبر عقولهم وينضج تفكيرهم.. كان ذلك وسيلة مهمة من قبل الدعاة والمصلحين في تنشئة الأطفال ليصبحوا علماء، ومن الخطأ أن يُمنَع الصغير من حضور مجالس أهل الخبرة والتجربة، كما أن من الخطأ عدم الاهتمام بالنشء في هذه الفترة المبكرة.

بل إن ابن شهاب الزهري ~ كان يشجع الصغار ويقول لهم: "**لا تحتقروا أنفسكم** لحداثة أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يتبع حدَّة عقولهم"2.

و لم تقتصر نصيحة الدعاة في هذا الدور على الأطفال فحسب، وإنما – وكما أشرنا سابقًا – كانت لهم توجيهاتهم الخاصة لآباء هؤلاء الأطفال؛ وذلك أن الآباء ربما ينخرطون في دوامة الدنيا وصروفها، فينشغلون بذلك عن أبنائهم وتقديم الرعاية اللازمة لهم ليصبحوا علماء، لا عن قصدٍ بقدر ما هو عن تكاسل أو جهل.. وهنا يصبح دور الدعاة دورًا محوريًا ومهمًا جدًا!!

فهذا الإمام النووي ~ وهو طفل صغير كان الصبيان يُكرِهونه على اللعب معهم، وهو يهربُ منهم ويبكي؛ يريد أن يتعلم ويحفظ القرآن، وقد صادف أن مرَّ بقريته الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي ورأى ذلك، فما كان منه إلا أن ذهب إلى والده ونصحَه بأن يفرّغه لطلب العلم، وكان أن استجاب والد النووي، حتى إنه رحل به إلى دمشق ليتعلم في مدرسة دار الحديث3.. ليصبح بعد ذلك الإمام النووي، والذي ملأ سمع الدنيا بعلمه، وصار إمام عصره، وبرع في الحديث والفقه واللغة، وترك لنا أسفارًا وكتبًا مازالت تحييه في عالمنا!!

وكان للمجتمع أيضًا بصفة عامة نصيبٌ بارز من دور الدعاة في هذا المجال.. ومما يُذكر في ذلك أن أسد بن الفرات بن سنان4 ولاّه زيادة الله القضاء بإفريقية، وقدَّمه على غزو صقلية؛ فخرج في عشرة آلاف رجل، منهم ألف فارس. ولما خرج إلى سوسة ليتوجه منها إلى صقلية، خرج معه وجوه أهل العلم

---

1 انظر الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ص 159 .

2 رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 1/ 409 .

3 انظر القصة في تحفة الطالبين في ترجمة الإمام النووي لابن العطار ص 2.

4 هو أسد بن الفرات الفقيه المالكي العظيم، أصله من خراسان، ورحل أبوه إلى القيروان في جيش الأشعث، فأخذه معه وهو طفل، فنشأ بها ثم بتونس، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث. دوّن مذهب الإمام مالك، وكان يعمل قاضيًا للقيروان، ثم مجاهدًا في سبيل الله، وفتح جزيرة صقلية، واستُشهِد هناك سنة 213هـ. الأعلام 1/ 298 .

يشيعونه، وهنا استغل ذلك الحدث الجليل وقام فيهم خطيبًا؛ فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك لــه، يــا معشر الناس، **ما بلغت ما ترون إلا بالأقلام! فأجهدوا أنفسكم فيها، وثابروا على تدوين العلم، تنالوا به الدنيا والآخرة1!**

وإذا أردنا تجارب واقعيةً وأسوةً في ذلك الصدد، فإنما هو دور الدعاة والمصلحين في هــذه الأمــة وعلى امتداد العالم الإسلامي، وسيرتهم في ذلك، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: جمال الدين الأفغــاني (1254- 1314هــــ / 1838- 1897م)، ومحمــد عبــده (1265-1323هــــ / 1849-1905م)، ومحمد رشيد رضا (1282-1354هــ / 1865-1935م)، ومحمد أبو زهــرة (1316-1394هــ / 1898-1974م)، وحسن البنا (1324-1368هــــ / 1906-1949م)، وعبــد الحميد بن باديس (1305-1359هــ / 1887-1940م).. وغيرهم كثير من الــدعاة والمصــلحين، والذين ينبغي أن يُترسَّم خطاهم ويُقتَفَى أثرُهم، وخاصة فيما نحن بصدده في قضية تنشئة العلماء.

أمّا دور العلماء في هذا المجال، فإنه لا يقل عن دور الدعاة، ولهم في ذلك سبلٌ ووسائل شتى، على أن أنجع وسيلة يمكن أن يقوموا بها هي **توريث العلم**..

فنقل العلم هو أعظم استثمار له؛ فبه وصل إلينا، وبه أيضًا يصل إلى غيرنا.. وإن أعظم الأعمــال هي تلك التي لم يقتصر نفعها على صاحبها، وإنما التي يتعدى نفعها إلى الآخرين..

ونقل العلم وبيانه للناس هو أعظم حق له على العلماء الربانيين؛ فبه يتعلم الجاهل، ويرشد الضالّ.. يقول تعإلي: (**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**)[2].

ومن هنا فإن من أهم وسائل العلماء في سبيل تنشئة العلماء هو أن ينفعوا بعلمهم الآخرين؛ فينقلوه لهم ويورثوه إياهم.. لتعُمَّ الفائدة، ويعود النفع على الأمة بأثرها.

وذلك الأمر قد فقهه جيدًا أبو هريرة >، فتراه وهو يقول: "**إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْــرَةَ، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَــا أَنْزَلْنَــا مِــنْ الْبَيِّنَــاتِ وَالْهُدَى.." إِلَى قَوْلِهِ: "الرَّحِيمُ" وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللَّــهِ ρ بِشِــبَعِ بَطْنِــهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ**"[3].

---

1 انظر النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص 31 .

2 (آل عمران: 187).

3 البخاري: كتاب العلم، باب حفظ العلم (118)، وأبو داود (1261).

وعن فضل نقل العلم ومكانته، يروي زيد بن ثابت > أن ρ قال: "**نَضَّرَ اللَّهُ امْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**"[1].

وفي صورة رائعة، توضح فضل من يعلم العلم على غيره، فإن رسول الله ρ يضرب المثل فيقـــول: "**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَـــاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَـــقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّـــذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**"[2].

ومن هنا تراه ρ يحضُّ على تعليم الغير، فيقول في حِجَّة الوداع في خُطبته الجامعة: "**لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ**"[3].

وروى عثمان > أن رسول الله ρ قال: "**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**"[4].

وفي شرحه يقول ابن حجر: والذي يُعلِّم غيره يحصل له النفع المتعدي، بخلاف من يعمل فقط، بل من أشرف العمل تعليم الغير، فمُعلِّم غيره يستلزم أن يكون تعلمه وتعليمه لغيره عمل وتحصيل نفعٍ متعدٍ... ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمِّلٌ لنفسه ولغيره، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعـــدي، ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى بقوله: (**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**)[5].

ويقول جابر بن عبد الله: "إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره؛ فإن كـــاتم ذلك العلم ككاتم ما أُنزل على رسول الله ρ"[6]!!

وهو يريد أنه إذا جاء زمان يلعن فيه الناس أوائل هذه الأمة، أي الصحابة ψ، فمن كان عنده علم في الدفاع عنهم فليظهره، وإلا فإن من يكتمه كمن يكتم ما أُنزل على رسول الله ρ.. وكلاهما أمر عظيم!!

---

1 أبو داود: كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (3660)، والترمذي (2656)، وابن ماجة 232، وأحمد (4157)، والدارمي (29)، وقـــال الألباني: صحيح (404) السلسلة الصحيحة.

2 البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم (79)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ρ مـــن الهـــدى والعلـــم (2282)، وأحمد (19588)، وابن حبان (4).

3 البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ρ رب مبلغ أوعى من سامع (76)، ومسلم: كتاب القسامة، باب تغليظ تحـــريم الـــدماء والأعـــراض والأموال (1679)، وابن ماجة (233).

4 البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (4739)، وأبو داود (1452)، والترمذي (2907).

5 ابن حجر: فتح الباري 76/9، والآية من سورة فصلت: 33.

6 الطبراني في الأوسط: (430)

ومن هنا كان التحذير الشديد من كتمان العلم عمَّن يسأل عنه..

فقد قال رسول الله ρ: "**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**"[1]!!

ولعلنا ندرك بعد ذلك سبب انتشار علم الإمام مالك، حتى صار له مذهب فقهيٌّ خاصٌّ به، وعدم انتشار علم الإمام الليث بن سعد ~، وقد كان فقيه عصره، وإمامه البارز..!!

وتظهر الحقيقة في أن الإمام مالك ~ كان له من التلاميذ الذين يبلِّغون عنه، وينشرون علمه، في حين لم يجد الإمام الليث من يحمل مذهبه حتى يعمَّ وينتشر.. وقد أشار إلى هذه الحقيقة الإمام الشافعي ~ حين قال: "الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به"[2].

وبذلك أيضًا استفادت الدنيا من علم الرازي ~.. فقد كانت له مدرسة في تعليم الطب؛ فكان يؤلِّف الكتب، ويجري التجارب والأبحاث مع طلبة العلم، وكان يقوم بجولة معهم للاطمئنان على المرضى.. فورَّث ~ العلم، واستفادت منه ليست أمة الإسلام فحسب، وإنما البشرية جمعاء..!!

وفي العلوم الحياتية أيضًا كان العلماء المسلمون يهتمون بقضية توريث العلم؛ فقد أهدى أبو نصر بن عراق (وهو من علماء القرن الرابع الهجري، وله مصنَّفات في الآلات الفلكية والمثلثات) أكثر كتبه ورسائله إلى أبي ريحان البيروني، وقد اعترف له البيروني بفضله، فكان يلقبه بـ "أستاذي"!!

أما الجلدكي (وهو من علماء القرن الثامن الهجري)، والذي اشتهر بسَعَة اطِّلاعه وتبحُّره في علم الكيمياء، فكان محبًا لنشر هذا العلم بين الناس؛ ولذلك كانت داره مفتوحة أمام طلاب المعرفة، وصدره واسعًا لإجابة من يستفتيه في مسألة من مسائل الكيمياء، أو أي فرع من فروع المعرفة..

وغير وسيلة توريث العلم كان للعلماء المسلمين وسائل أُخرى في دورهم في تنشئة العلماء؛ فكان من ذلك تأليفهم الكتب التي تحثُّ على تعلُّم العلم، وتبين فضله ومكانته، والكتب المؤلَّفة في ذلك أكثر من أن تحصى، ومن أبرزها: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، وآداب العلماء والمتعلِّمين للحسين بن المنصور اليمني، وأخلاق العلماء للآجري، وجماع العلم لمحمد بن إدريس الشافعي، ومسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب لمرعي الكرمي، واقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، وغيرها كثير..

---

1 أبو داود: كتاب العلم: باب كراهية منع العلم (3658)، والترمذي (2649)، وابن ماجة (264)، وأحمد (7561)، والحاكم (345)، وقال حديث صحيح، وقال الألباني:صحيح (6284) صحيح الجامع.

2 ابن حيان الأنصاري: طبقات المحدثين بأصبهان 406/1.

على أن أهم وأبرز وسيلة قام بها العلماء والدعاة في هذا الشأن هي **رعاية النابغين والموهوبين من طلبة العلم، معنويًا وماديًا**..

فقد اهتم الإسلام برعاية النابغين والتنويه بهم، خاصة وأن هؤلاء النابغين يعدُّون في الأساس ثـــروة الأمة وعمادها..

فكان عمر بن الخطاب > - على سبيل المثال - يحب عبد الله بن عباس ويقرِّبـــه مـــن مجلســـه، ويستشيره في الكثير من أموره، ويُدخله مع أشياخ بدر، ويأخذ **برأيه رغم صغر سنه**، حتى عاب ناسٌ مـــن المهاجرين ذلك على عمر، وقالوا: تُدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟! وهنا قال لهم عمر: أما أني سأريكم اليوم منه ما تعرفون فضله، فسألهم عمر عن تفسير سورة (**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**)[1]، فسكت بعضهم، وقال بعضهم: أمر الله نبيَّه إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا أن يحمده ويستغفره، فقال عمر: يا ابن عباس، تكلَّم. فقال عبد الله: أعلَمَ الله رسوله متى يموت، أي: فهي علامة موتك فاستعدّ، فسبِّحْ بحمد ربك واستغفره[2].

وفي هذا الصدد أيضًا قال الصفدي يصف اهتمام الإمام أبي حيان محمد بـــن يوســـف الغرنـــاطى بالنابغين فيقول: "لم أره قَطّ إلا يسمع أو يكتب أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك، **وكان له إقبال على أذكياء الطلبة؛ يعظِّمهم وينوِّه بقدرهم**"[3].

ولما اتجه مالك بن أنس لطلب العلم وهو حَدَث صغير كان يُعاني شظف العيش، فكان فقيه مصر الليث بن سعد - وكان من الأغنياء - يرسل إليه بالهدايا وبالمال، حتى انصلحت حاله، واستطاع أن يكون مالك بن أنس!!

وبعد أن منَّ الله عليه كان الإمام مالك ~ يدعو طلبته لبيته، ويبرهم ويكرمهم ويهتم بهم؛ فقد قال عبد الله بن عبد الحكم: هيأ مالك دعوة للطلبة وكنتُ فيهم، فمضينا إلى داره، فلمّا دخلنـــا قـــال: هـــذا المستراح وهذا الماء، ثم دخلنا البيت فلم يدخل معنا، ودخل بعد ذلك فأُتِينا بالطعام[4]..

والإمام مالك أيضًا هو الذي أفضى به طلب العلم، وإنفاقه على طلابه إلى أن ينقض سقف بيتـــه فيبيع خشبه[5]!!

---

1 النصر: 1.

2 القصة في البخاري: كتاب المغازي، باب منزل النبي ρ يوم الفتح (3956).

3 انظر ابن حجر: الدرر الكامنة 2/ 121.

4 انظر ابن فرحون: الديباج المذهب ص 9.

5 المصدر السابق، نفس الصفحة.

بل إن هارون الرشيد بعث إلى مالك مجموعة من الإبل كهدية، فتصدَّقَ بها مالك على تلاميذه، وأعطى واحدًا منها لتلميذه الشافعي!!

وأكثر من ذلك ما كان من قصة أسد بن الفرات ~ مع شيخه محمد بن الحسن الشيباني.. فقد ذهب أسد إلى المدينة فتعلَّم على يد الإمام مالك ~، ثم رحل إلى العراق فسمع من أصحاب أبي حنيفة ~، وبخاصةٍ من محمد بن الحسن الشيباني، وكان يجلس في مجلسه مع مئات وآلاف الطلاب فلا يستطيع أن يسأل عمّا يريد، ولا أن يتعلم ما يشتهي، فذكر ذلك للإمام الجليل محمد بن الحسن، وقال له: "إني غريب قليل النفقة، والسماع منك نَزْر (أي قليل لشدة الزحام)، والطلبة عندك كثير، فما حيلتي؟

فقال له العلاّمة الجليل المتجرِّد محمد بن الحسن: اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك، فتبيت عندي، وأسمعك!!

قال أسد: "وكنت أبيت عنده وينزل إلي، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعستُ، ملأ يده ونفخ في وجهي بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه ودأبي، حتى أتيتُ على ما أريد من السماع عليه"[1].

فانظر رحمك الله كيف فرَّغ محمد بن الحسن من وقته لتلميذه أسد بن الفرات، وكيف اهتم به وبتعليمه..

وعلى دربهم يحكي زفر بن الهذيل أن الإمام أبا حنيفة ~ كان يجلس إلى شيخه حمّاد، فكان يسمع مسائله فيحفظها، ثم إذا أعادها من الغد حفظها وأخطأ أصحابه، وهنا قال شيخه منوِّهًا به وبتفوقه: "لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة"، وقد صحبه لذلك أبو حنيفة عشر سنين، حتى أمره أن يجلس مكانه[2]!!

ولم يحدْ أبو حنيفة عن النهج، فكان أيضًا يهتم بطلبته النابهين ويتفقد أحوالهم.. يقول تلميذه النجيب الإمام أبو يوسف: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ رثّ الحال، فجاء أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه، فقال: يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي[3]، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثيرٍ من الطلب، وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة، وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه؛ قال لي: ما شغلك عنّا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي، فجلست، فلمّا انصرف الناس دفع إلى صُرَّة، وقال: استمتع بها، فنظرت فإذا فيها مائة درهم، فقال لي: الزم الحلقة، وإذا فرغت هذه فأعلمني. فلزمت الحلقة، فلما قضيت مدة يسيرة، دفع إلى مائة

1 انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك 1/ 169 .
2 تاريخ بغداد 333/13.
3 يريد أن لديه سعة في الرزق تعينه على ما هو فيه من التفرغ لتدريس العلم.

أخرى، ثم كان يتعهَّدني (يرعاني) وما أعلمته بقِلَّة قطّ، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه يخبر بنفادها حتى بلغت حاجتي من العلم أحسن الله مكافأته[1].

وروي أيضًا أن الحسن بن زياد كان فقيرًا، وكان يلازم الإمام أبي حنيفة، فكان أبوه يقول له: لنا بناتٌ وليس لنا غيرك، فاشتغل بهنَّ؛ فلمّا بلغ الخبر الإمام أبا حنيفة أجرى عليه رزقًا، وشجَّعه وقال له: الزم الفقه؛ فإني ما رأيت فقيهًا معسرًا قط[2].

وعلى هذا كان نهج العلماء العاملين، ومن قبلهم الدعاة الصادقين..

رابعًا: دور المجتمع في تنشئة العلماء

للمجتمع في تنشئة العلماء دورٌ لا يقل أهمية عن الأدوار السابقة.. فالمجتمع الذي يعيش فيه العالِم يُعدّ بمثابة البيئة التي يتنفس فيها والأرض التي ينمو في تربتها ومن خلالها؛ ومن ثَمَّ فإنه لكي ينشأ العلماء فلابد من مجتمع واعٍ وفعَّال، يُقدِّر للعلماء قدرهم، ويُنزِلهم مكانتهم التي أنزلهم الله إياها.

والحقيقة أن هذا الدور ليس من قبيل الترف أو الفضل، وإنما هو فرض وواجب على المجتمع تجاه العلماء؛ إذ هم – كما أشرنا إلى ذلك من قبل – ورثة الأنبياء، وهم الذين زكاهم الله عز وجل ورفع قدرهم فقال تعإلي: (**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**[3]).

ويروي عبادة بن الصامت > عن رسول الله ρ أنه قال: "**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**"[4]..

وقال أيضًا: "**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا**"[5].

ومثله ما رواه أبو موسى الأشعري > عن رسول الله ρ أنه قال: "**إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللَّهِ: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَإلى فِيهِ[6]، وَالْجَافِي عَنْهُ[1]، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ**"[2].

---

1 مناقب الكردري 122/2.

2 المصدر السابق، نفس الصفحة.

3 (المجادلة: 11).

4 أحمد (22807) واللفظ له، والحاكم (421)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، وقال الألباني: صحيح (101) صحيح الترغيب والترهيب.

5 الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصغير (1843)، وأحمد (6733)، والحاكم (209)، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (358)، وقال الألباني صحيح (5444) صحيح الجامع.

6 الغإلي فيه: المجاوز حده.

فدور المجتمع إذن في تنشئة العلماء دورٌ مهمٌ وجليل، ويتمثل في توقير العلماء وتقديره لهم، وتكريمه إياهم، والنظر إليهم بعين الإكبار والإجلال والتعظيم.. وذلك تمامًا بتمام كما كرَّم الإسلامُ العلمَ، ورفع قدره وأعلى من شأنه وأهله!!

وعلى هذا فإن تكريم المجتمع للعلماء ليس تكريمًا لأشخاصهم بقدر ما هو تكريمٌ للعلم في صورة أشخاصهم..

ومثل هذه الصورة المثلى لم تُعدم في المجتمعات الإسلامية في عصور قوتها، حتى غدا التواضع للعلماء في هذا المجتمع رفعة، وحتى عُدَّ احترامهم والخضوع لهم فخرًا!! فهذا حَبْرِ الأمة ابن عباس τ مع جلالته وقرابته لرسول الله ρ وهو يأخذ بركاب زيد بن ثابت > رغم صغر سنه ويقول: "هكذا أُمِرنا أن نفعل بعلمائنا"!!

ولن نعجب حين نرى الشافعي ~ وهو يقول: "كنتُ في مجلس مالك وأريد أن أصفح الورقة[3] فأصفحها صفحًا رقيقًا؛ هيبة له لئلاّ يسمع وقعها"[4]!!

ومثله أيضًا الربيع بن سليمان يقول: "والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي؛ هيبة له"[5]!!

وهذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الجماعات فإن يوسف بن موسى المروزي يحكي فيقول: كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت مناديًا ينادي: يا أهل العلم، **لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري**. فقاموا جميعًا إليه!!

ثم تابع فقال: وكنت معهم، فرأينا رجلاً شابًا ليس في لحيته بياض (أي صغير السن)، **فأحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلسًا للإملاء**، فأجابهم إلى ذلك، فقام المنادي ثانيًا في جامع البصرة فقال: يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري فسألناه أن يعقد مجلس الإملاء فأجاب بأن يجلس غدًا في موضع كذا..."[6]!!

---

1 أصل الجفاء ترك الصلة والبر، وجفاه: أبعده وأقصاه.

2 أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (4843)، والبخاري في الأدب المفرد (357)، وابن ابي شيبة (32561)، والبيهقي في شعب الإيمان (2685)، وقال الألباني: حديث حسن (2199) صحيح الجامع.

3 أي: أعرضها ورقة ورقة.

4 انظر تاريخ دمشق 14/ 293 - فيض القدير 3/ 253 .

5 انظر تاريخ دمشق 51/ 404 .

6 انظر فتح الباري 1/ 486 .

فهو ينادي في المدينة كلها بقدوم عالمٍ إليها ليس من أهلها، فترى الناس وقد قاموا إليه، وأحاطوا به من كل جانب، يريدون أن يستفيدوا من علمه، فيطلبوا منه مجلسًا لذلك، وحين يحدد ذلك العالم (وهو البخاري) الموعد ينادي المنادي من جديد؛ يُعلم الناس بموعد مجلس العالم المغترب، كي يكون لقاؤهم معه واحتفاؤهم به!!

ولقد كان الناس يجتمعون بالآلاف حول البخاري ~ ليعلمهم حديث رسول الله ρ، وهو دون العشرين من عمره[1]!!

وعلى النقيض من ذلك، ترى الأمة في حال ضعفها لا توقر العلماء ولا تنزلهم منزلتهم ولا ترفعهم قدرهم، بل قد تُعلي من شأن المطربين واللاعبين واللاهين ولا تأبه بوجود العلماء!! ولا شك أن هذه علامة من علامات الوهن الشديد، وهي متكررة في معظم مراحل الأمة.

ومما يُذكر في ذلك أن عبد الملك بن حبيب السُّلَميُّ[2] عالم الأندلس وفقيهها سمع أن زِرْياب[3] (المغنِّي) قدِم الأَندلس في عهده، فاحتفى الناس به أيما احتفاء، وصاروا يقلدونه في كل شيء، وبذل له الرؤساء الأموال، حتى بلغ من ذلك أنه غنّى يومًا بين يدي الأمير عبد الرحمن الثاني ابن الحكم، فطرِب الأمير لذلك لحسن صوته وعذوبته طربًا شديدًا، فأعطاه ألف دينار دفعةً واحدةً، وكان عبد الملك بن حبيب فقير الحال، لا يكاد يجد من يعينه على العيش، فقال شاكيًا حاله وعاتبًا على أهل زمانه:

صلاح أمري والذي أبتغي ... سهل على الرحمن في قدرته

ألف من الحمر وأقلل بها ... لعالم أوفى على بغيته

زرياب قد يأخذها دفعة ... وصنعتي أشرف من صنعته[4]!

وإن تعجب فعجب بمن يُقدّم صاحب صنعة ما، أنّى كانت، على صاحب صنعة العلم ووريث الأنبياء!! وإنك لن تراهم في ذلك إلا أصحاب الأهواء والشهوات.

وليت شعري ماذا كان سيقول عبد الملك بن حبيبٍ لو رأى زماننا الذي نعيشه؟! وماذا لو رأى جانبًا أو لونًا من تكريم أرباب الفن واللعب فيه؟!!

---

1 انظر تهذيب الكمال 24/ 452 .

2 هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان القرطبي، أبو مروان: عالم الأندلس وفقيهها في عصره. ولد في إلبيرة سنة 174هـ، وسكن قرطبة وتوفي بها سنة 238هـ. له تصانيف كثيرة، قيل: تزيد على ألف، وكان ابن لبابة يقول: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها، وعيسى بن عبد الملك بن حسين العصامي فقيهها. انظر تاريخ علماء الأندلس ص 101 - الأعلام 4/ 157 .

3 هو علي بن نافع، أحد المغنين المطبوعين، والموسيقيين المشهورين، سافر من بغداد إلي الأندلس، واستقبله هناك عبد الرحمن بن الحكم. توفي سنة 230هـ . انظر ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء الأندلس ص 25 نفح الطيب 1/ 344 - الأعلام 5/ 28 .

4 انظر الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص 101 - ونفح الطيب 2/ 7 .

على أن الذي نقصده هنا هو أن المجتمع الإسلامي في فترات قوته، والتزامه أحكام الإسلام قد حفظ مكانة العلماء وصانها لهم، وبوَّأهم ما يستحقونه من الحفاوة والإكرام، والمنزلة العالية، والدرجة رفيعة.. فسادَ المسلمون الدنيا وملؤوها علمًا ومجدًا وحضارة.

وإن مثل ذلك لو تم القيام به على الوجه الأكمل، فمن شأنه أن يحفز الشباب على بلوغ درجات العلماء، فوق أنه سيجعل باب الإبداع والابتكار مفتوحًا على مصراعيه.. فيعود من جديد مجد المسلمين وحضارتهم إلى الرِّيادة والصدارة، وتراهم وقد انطلقوا في أصقاع الأرض، ينشرون العلم، ويبصِّرون الناس، ويدلُّونهم على حقيقة إنسانيتهم وأسرار خلقهم!!

خامسًا: دور رجال الاقتصاد والثروة في تنشئة العلماء

الأسخياء عظَّمهم الله في الدنيا كما عظَّم العلماء.. فإذا كان العلماء بعلمهم وبمنزلتهم التي أكرمهم الله بها، فإن الأسخياء من رجال الاقتصاد والثروة سادوا كذلك بسخائهم وقُربهم من الله عز وجل ومن الناس..

وفي الإنفاق بصفة عامة يقول الله عز وجل: (**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**)1 . يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: "هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.."2.

وروى أبو ذر > قال: **انْتَهَيْتُ إلى النَّبِيِّ ρ وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ يَقُولُ: هُمْ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، هُمْ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. قُلْتُ: مَا شَأْنِي؟ أَيُرَى فِيَّ شَيْءٌ؟ مَا شَأْنِي؟ فَجَلَسْتُ إليهِ وَهُوَ يَقُولُ، فَمَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْكُتَ، وَتَغَشَّانِي مَا شَاءَ اللَّهُ؛ فَقُلْتُ: مَنْ هُمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً، إلاَّ مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**، وزاد مسلم: "**مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ**.."3.

وإنه إذا كانت سبل الخير وطرق الإنفاق كثيرة ومتنوعة، فإن من أفضل وأحسن وأنفع ما ينفق فيه المحسنون ويبذل فيه الأسخياء والموسرون من رجال الاقتصاد والثروة نشر العلم، وتعهُّد طلابه ورعايتهم، والعمل على تنشئة العلماء، وإقامة المراكز والمؤسسات البحثية.. وذلك أن طلب العلم ونشره يحتاج فيما

1 البقرة: 261 .

2 تفسير ابن كثير 1/ 691 .

3 البخاري: كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ρ (6147)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (1652).

يحتاج إليه إلى تفرغٍ وجهادٍ بالنفس والنفيس كما سبق أن رأينا، وذلك يتعذَّر كثيرًا على من لم يُكْفَوا مؤونة العيش وهم كُثُر، وقد قال الشاعر1:

بِالعِلمِ وَالمالِ يَبني الناسُ مُلكَهُمُ   لَم يُبْنَ مُلكٌ عَلى جَهلٍ وَإِقلالِ

والمجتمع المسلم قبل كل شيء مجتمعٌ متكافلٌ ومترابط، ومتممٌ بعضه بعضًا، وما من شريحة من شرائحه إلا وهي تقوم بدورٍ فاعلٍ فيه، وتسد ثغرة من الثغرات المهمة التي لا يمكن إغفالها، والتقصير في أي دور من تلك الأدوار يؤدي بالضرورة إلى إحداث خللٍ وأضرار وتأثيرات سلبية على المجتمع الإسلامي ككل!!

وعليه فإن مساعدة رجال الاقتصاد والثروة لإخوانهم من العلماء وطلاب العلم، وعملهم على سد تلك الثغرة الحيوية والمهمة في المجتمع، والتي كثيرًا جدًا ما تحتاج إلى الإنفاق عليها، من شأنه أن يعمل على قيام حياة علمية متقدمة، ومن شأنه أن يُيسِّر ويتيح للعلماء القيام بواجبهم في نشر العلم، ونفع الناس، وهدايتهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدين والدنيا.

فهذا العالم المجاهد التاجر، الذي اشتغل بالتجارة لأجل الإنفاق على العلماء وطلاب العلم، عبد الله بن المبارك ~، يقول: "إني أعرف مكان قوم لهم فضلٌ وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، وحاجة الناس إليهم شديدة وقد احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أغنيناهم نشروا العلم لأمة محمد ρ، ولا أعلم بعد النبوة درجة أفضل من بَثِّ العلم"2!!

وقد قال له الفضيل بن عياض يومًا: "أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام؟ كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا"؟! فرد عليه ابن المبارك وقال: "يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون فيه عرضي، وأكرم به عرضي، وأستعين به علي طاعة ربي، لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه حتى أقوم به". فقال له الفضيل: "يا بن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا"3.

ويحكي الذهبي عن ابن المبارك أيضًا فيقول: بلغنا أنه قال للفضيل بن عياض: "لولاك وأصحابك ما اتجرت"4!!

---

1 هو أحمد شوقي (1285 - 1351هـ / 1868 - 1932م) أشهر شعراء العصر الأخير، يلقب بأمير الشعراء، مولده ووفاته بالقاهرة. انظر الأعلام 1/ 136 .

2 المزي: تهذيب الكمال 16/ 19، 20 – ابن عساكر: تاريخ دمشق 32/ 455 .

3 المصدرين السابقين: نفس الصفحات.

4 انظر سير أعلام النبلاء 8/ 386 .

وذكر ابن حجر أن بن المبارك كان يتجر ويقول: لولا خمسة ما اتجرت: السفيانان (يعني العالمين الكبيرين والمحدِّثين العظيمين: سفيان الثوري وسفيان بن عيينة رحمهما الله)، والفضيل، وابن السماك، وابن علية؛ فيصلهم1.

وقال علي بن خَشْرم: قلت لعيسى بن يونس: كيف فَضَلَكُم ابن المبارك و لم يكن بأسن منكم؟ قال: كان يقدم ومعه الغِلْمة الخرسانية، والبزَّة الحسنة، فيَصِل العلماء، ويعطيهم..2.

وكان من ذلك ما يحكيه جعفر بن عبد الله الوراق حيث قال: قدِم ابن المبارك الكوفة ومعه مال، فقسمه، فصرَّ صُررًا، فجعل يوجه إلى كل شيخ بصُرَّة3!!

وهكذا كان حال التاجر المسلم في عصره، عبد الله بن المبارك، مع العلماء وطلاب العلم؛ يكفلهم بالمال، ويغنيهم عن ذل السؤال، ويعينهم على مؤونة العيش؛ ليتفرغوا هم للعلم ونشره، ونفع الناس به.. وذلك كله رغم ما أُثر عنه من علمه هو وجهاده في سبيل الله!!

وغير ابن المبارك كان هناك أيضًا دعلج بن أحمد (ت 351هـ)؛ إذ كان ضمن منظومة من لهم صدقات جارية على العلماء والمحدِّثين!!

قال الخطيب البغدادي في ذلك ما مؤداه: كان من ذوي أليسار، مشهورًا بالبر، له صدقات جارية ووقوف على أهل الحديث ببغداد ومكة وسجستان. (أي جعل لهم قدرًا كبيرًا من المال موقوفًا عليهم، لا ينفق منه على وجه آخر من وجوه الخير)، وزاد ابن ناصر الدين قول الحاكم: لم يكن في الدنيا أيسر منه4.

وقال الذهبي: قال الحاكم: "دعلج الفقيه... له صدقات جارية على أهل الحديث بمكة وببغداد وسجستان"5!!

ومثل ذلك الصنيع إذا قام به رجال الاقتصاد والثروة في مجتمعنا، وكان لهم اهتمام خاص بالمؤسسات والمراكز العلمية الناجحة – وهناك الكثيرين ممن يقومون بذلك بفضل الله – من شأنه أن يعمل على خلق جو علمي عام، ينشأ فيه العلماء ويكثرون، ويدفعهم ذلك إلى إتمام مسيرتهم، واستكمال طريقهم نحو تقدم الأمة ورفع الحرج عنها في كل المجالات العلمية المختلفة..

---

1 انظر تهذيب التهذيب 1/ 242 – وتاريخ بغداد 6/ 235 .
2 انظر الذهبي: تاريخ الإسلام 1/ 1385 .
3 انظر تاريخ دمشق 32/ 457 .
4 انظر تاريخ بغداد 4/ 42 – الأعلام 2/ 340 .
5 الذهبي: سير أعلام النبلاء 16/ 31 .

ونستطيع هنا أن نُشيد ببعض مؤسسات رجال الاقتصاد والثروة في عصرنا الحاضر، والذين بات لهم دورٌ بارزٌ في هذا المجال.. فنذكر على سبيل المثال لا الحصر **مؤسسة سعيد هائل الخيرية**، كمثال حضاري إيجابي..

فهي مؤسسة علمية ثقافية تأسست في عام 1996م بقرار من مجموعة هائل سعيد أنعم وشركاه؛ تكريمًا لذكرى هائل سعيد أنعم ~؛ لما قدمه من خدمات لمجتمعه في الميدان التنموي بصورة عامة، وفي المجال الخيري بصورة خاصة، انطلاقًا من حسِّه الإسلامي وتجسيدًا لأمانيه في تطوير العلوم والثقافة والتكنولوجيا في بلاده اليمن.

وتهدف المؤسسة إلى الآتي:

- الإسهام في تطوير جيل من العلماء والخبراء والمتخصصين إليمنيين في ميادين العلوم الطبيعية الأساسية والتطبيقية والتقنية والتنموية.
- إنشاء مركز للبحث العلمي.
- الإسهام في تطوير قطاعات الإنتاج الوطني وقطاع الزراعة على الخصوص والنهوض بها وتحديثها بزيادة البحوث والتجارب العلمية والعملية.
- تنظيم المسابقات للعلماء والمبدعين لتشجيعهم على البحث العلمي والأعمال الإبداعية وعلى إجراءات علمية مبتكرة أو متطورة وتقديم جوائز للبحوث والابتكارات للفائزين.

وتنتهج المؤسسة أساليب علمية وعملية لتنفيذ أهدافها، وهي تنظيم الندوات والمحاضرات وورش العمل والمؤتمرات العلمية، وكذلك تنمية العلاقات بين المؤسسة ومؤسسات البحث العلمي داخل إليمن وخارجها لتحقيق الأهداف المشتركة، وإبراز عملية الإبداع العلمي والفكري والأدبي، وضمان تقدير العلماء والأدباء والكتاب ورجال الفكر ونوابغ الباحثين الذين يسهمون في بناء الوطن وحضارته، وتشجيع البحث الأدبي والنقدي والمعرفي.

وتتوزع مجالات منح الجائزة في الوقت الراهن فيما يلي:

- جائزة العلوم الطبية.
- جائزة العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- جائزة العلوم الإسلامية.

- جائزة الإبداع الأدبي.

- جائزة العلوم البيئية والزراعية.

- جائزة العلوم الاقتصادية.

وتمنح هذه الجوائز في اليوم السابع والعشرين من شهر إبريل من كل عام في ذكرى وفاة السيد/ هائل سعيد أنعم[1].

وفيما يخص البحث العلمي؛ فقد تم إنشاء صندوق السعيد لدعم البحث العلمي بقرار من مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة تكريمًا لذكرى السيد/ هائل سعيد أنعم، ولتحقيق المقاصد والأهداف التالية:

1- دعم البحث العلمي وتشجيعه في الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية المتخصصة في إليمن، وذلك من خلال:

- دعم البحوث العلمية الأصيلة للباحثين والمتخصصين والأكاديميين في الجامعات والمؤسسات والمراكز التعليمية المؤهلة.

- تشجيع الباحثين والمتخصصين والأكاديميين في الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية إليمنية على إجراء بحوث علمية مبتكرة، ثم تصميمها بعناية مع مؤسسات البحث العلمي الراقية، المحلي منها والعربي والدولي.

- دعم البحوث العلمية عن طريق المنح أو التعاقد مع الصندوق في مجالات معينة من العلوم الأساسية والتطبيقية والتكنولوجية ذات الأولوية للصندوق والمؤسسة.

- التطوير المشترك للتكنولوجيات الناشئة التي من شأنها الإسهام في تطوير الاقتصاد إليمني.

2- المشاركة في دعم المؤتمرات المتخصصة والندوات وورش العمل العلمية التي تتواءم وأهداف المؤسسة.

3- المشاركة في تنمية إمكانات مكتبة السعيد من كتب ومراجع ونصوص إلكترونية في العلوم الأساسية والتطبيقية والتكنولوجية.

4- العمل على نشر نتائج البحوث العلمية ووقائع المؤتمرات والندوات وورش العمل التي تقيمها الجامعات ومؤسسات ومراكز البحث العلمية التخصصية والتي تتفق وأهداف المؤسسة.

---

1 جائزة السيد/ هائل سعيد أنعم للعلوم والآداب، الدورة الثانية عن عام 1998م (كتاب توثيقي) ص 4 .

5- إقامة وتعزيز الصلات بين مراكز ومؤسسات البحث العلمي محليًا وعربيًا ودوليًا.

ويدير الصندوق لجنة خاصة مؤلفة من رئيس ونائب رئيس وخمسة أعضاء يختارهم مجلس إدارة مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة من ذوي الكفاءة العالية، ومن أصحاب التخصصات والخبرات العلمية المختلفة ولمدة ثلاث سنوات[1].

ومثل هذه المؤسسة هناك مؤسسات أخرى كثيرة تقوم بمثل هذا الدور، وهي - ولله الحمد - في ازدياد وتطور مستمر، وإنا لنأمل في أن يقوم خيرون من هذه الأمة ذوو ثروة بتخصيص أموال بعينها للبحث العلمي، مضارعة بنوبل السويدي، صاحب ومؤسس الجائزة المشهورة على الأبحاث العلمية الممتازة.

ويهمنا بعد أن نقرر أن كل هذه العوامل التي ذكرناها في سبيل تنشئة العلماء لا شك أنها تساعد كثيرًا في إنتاج وإخراج علماء متميزين، لكن الحقيقة التي لا يمكن إغفالها هي أن العامل الرئيسي هو الرغبة الداخلية والإرادة الحقيقية في نفس الطفل، أو الشاب، أو الرجل، أو المرأة في أن يصبح عالمًا متميزًا، فهذا هو الأساس والمعوَّل عليه، ومن دون ذلك تضيع كل الجهود المذكورة هباءً منثورًا.. ونسأل الله أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

1 الموقع الرسمي لمؤسسة السعيد للعلوم والثقافة على شبكة الإنترنت، الرابط http://www.al-saeed.net/index.php

الباب الثالث: دور العلم في بناء الحضارات
(أَمْثِلَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ)

لئلاّ يكون الحديث محض تسلية أو تنفيس، وفي سبيل طرق ميدان العمل وترك ميدان القول.. وحتى نخرج من طور النظرية إلى طور العملية والتطبيق..

وفي واحدة مما يمكننا من خلالها غرس الأمل وإيقاظه في النفوس..

فهذه أمثلة ونماذج واقعية، نعرضها في فصولٍ ثلاثة:

الفصل الأول: وفيه نماذج من تاريخ الحضارات القديمة التي اهتمت بالعلم؛ فسادت العالم قرونًا طويلة.

الفصل الثاني: ونذكر فيه نماذج من الحضارة الإسلامية، أخذت بأسباب العلم، فارتقى بها في مدارج السماء؛ لتصبح شعلة تضيء سماء الإنسانية، وتبدد ظلام القرون الوسطى**!!**

الفصل الثالث: وفيه نماذج من الواقع المعاصر، في صورة دول؛ اهتمت بالعلم؛ فصارت قوى عظمى، يخطب الجميع ودَّها، ويلجئون إليها لطلب العلم والحضارة والمدنية.

الفصل الأول: دور العلم في بناء الحضارات القديمة

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في بناء الحضارة الصينية.

المبحث الثاني: دور العلم في بناء الحضارة الرومانية.

المبحث الثالث: دور العلم في بناء الحضارة الفارسية.

المبحث الرابع: دور العلم في بناء الحضارة الهندية.

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الحضارة المصرية.

المبحث السادس: دور العلم في بناء الحضارة اليونانية.

المبحث الأول: دور العلم في بناء الحضارة الصينية.

كان للحضارة الصينية منجزات عظيمة في مجال العلوم والصناعة والطب والفلك والمعمار؛ ففي مجال العلوم كتب الصينيون عن الخسوف وعن مجموعات من النجوم كما أوردوا ملاحظاتٍ على الضوء، وعلى المرايا بأنواعها: المقعَّرة والمحدَّبة والمستوية، كما أدركوا النسبة الصحيحة في النحاس والقصدير.

وتذكر كتب التاريخ فضل أسرة (سونج 960- 1279م) في النهضة العلمية بالصين القديمة؛ حيث حَفِلَت فترة سونج بالعديد من الاختراعات، ونشأت في عام 1100م مصانع الحديد والصلب العملاقة والتي أنتجت حوإلى 150 ألف طن من الحديد والصلب. وأنتج الصينيون عام 1078م من الصلب ما يعادل ما أنتجته إنجلترا في بداية الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. وكانت الدولة تكافيء المخترعين على اختراعاتهم.

ومن أهم الاختراعات التي قام بها الصينيون:

الطباعة، واختراع الورق:

صنع الصينيون حوإلى (105م) الورق من قشر الشجر والقِنَّب والخرق، وقد كانوا قبله يكتبون علي الخيزران والحرير.

وقد حوت المتاحف وقتئذٍ مجموعاتٍ موحيةً من النقوش الفنية على البرونز وأحجار إليشب[1]، ومن الصور الزيتية والمخطوطات؛ وأُنشِئَت في البلاد دور الكتب التي بقي بعضها بعد أن زالت أمجاد الحروب، وكانت كلتا العاصمتين الشمإلية والجنوبية من أهم مراكز العلم في آسيا .

و قد دخلت الطباعة في أيام أسرة سونج فأحدثت في حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن لم يدرك الناس – حينها – مداها، وكان هذا الفن قد نما شيئًا فشيئًا خلال القرون الطوال حتى بلغ أَوْجَه في أيام تلك الأسرة، فأتم مرحلتيه الكبيرتين؛ إذ صُنِعَت الألواح المحفورة لتُطبَع عليها صفحاتٌ كاملة،وصُفَّت الحروفُ المفكَّكة المفرَدة من المعادن المجموعة في القوالب، وكان هذا الاختراع الصيني الخالص أعظم اختراع في تاريخ الجنس البشري بعد الكتابة[2].

وكانت الخطوة الأولى في هذا الاختراع العظيم هي كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب اللذين قنع بهما الصينيون؛ ذلك أن الحرير غإلى الثمن والغاب ثقيل، وكانوا يحتاجون

1 نوع من الأحجار الكريمة، كانت تستخدم للكتابة عليها.

2 ول ديورانت: قصة الحضارة ـ 4/2 صـ 151 وما بعدها

إلى ثلاث عربات نقل يحمل عليها الكتب المدونة على شرائح الغاب التي كانت أثمن ما يملكون من متـــاع الدنيا آنذاك.

وكان اختراع الحبر أيضًا في بلاد الشرق. نعم إن المصريين قد صنعوا الورق والحبر في العهد الذي نستطيع أن نسميه أقدم العهود، ولكن الصين هي التي أخذت عنها أوربا طريقة خلط الحبر بسناج المصابيح. ولقد كان "الحبر الهندي" صيني الأصل، وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبـــق[1] شـــائع الاستعمال في الصين من أيام أسرة (هان)؛ فلمّا ظهر الحبر الأسود في القرن الرابع الميلادي أصبح اســتعمال الحبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة[2]. وكان اختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعـــة؛ لأنه كان أصلح المواد للاستعمال في القوالب الخشبية، ويمتاز بأن الكتابة به لا تكاد تُمحَى مطلقًـــا؛ فلقـــد وُجِدَت أكداسٌ من الورق في آسيا الوسطى ظلت تحت الماء حتى عطنت، ولكن ما عليها من الكتابة ظـــلَّ واضحًا تُستَطَاع قراءتُه[3].

وكان استخدام الأختام في مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التي نشأت عنـــها الطباعـــة، ولا يزال اللفظ الصيني الذي يطلق على الطباعة هو نفسه الذي يطلق على الخاتم، وكانت الأختام الصينية تطبع في باديء الأمر على الطين كما كانت تُطبَع عليه في بلاد الشرق الأدنى، ثم أخذوا في القرن الخامس الميلادي يُنَدُّونها بالحبر، وفي هذه الأثناء كانت أمهات الكتب الصينية القديمة تُحفَر على الحجر في القرن الثامن بعـــد الميلاد، وسرعان ما نشأت بعدئذٍ عادةُ استخراج صورٍ من هذه النقوش المحفورة بعد طلاءها بـــالحبر. وفي القرن السادس نجد الدَّوِّيين يستعملون أختامًا من الخشب لطبع الرُّقى السحرية، وبعد مائة عام مـــن ذلـــك الوقت أخذ المبشرون البوذيون يُجرُون التجارب بقصد استخراج عدَّة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضّاح وطباعة على المنسوجات، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود، وأقدم ما وصل إلينا مـــن الطباعة على لوح محفور ألف ألف رُقْيَة سحرية طُبِعَت في اليابان حوإلى عـــام (770م) مكتوبـــةً باللغـــة السنسكريتية وبحروف صينية، فهي بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات في بلاد آسيا. وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب (الكليشهات) في أيام أسرة تانج، ولكن يلُوحُ أنها قد تلفت أو فُقِدَت في أثناء الفوضـــى والقلاقل التي أعقبت عهد (منج هوانج).

وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة في بلاد الصين باعثًا دينيًا، كما كانت الحال في أوربا في العصور الوسطى المتأخرة، وكما هي الحال بين بعض الشعوب البدائية في الوقـــت الحاضـــر؛ ذلـــك أن الأديان في ذلك الزمن القديم كانت تسعى لنشر عقائدها عن طريق العين وعن طريق الأذن معًـــا، وجعـــل صلواتها ورقاها وأقاصيصها في متناول كل إنسان.

---

1 المادة الخام التي يستخرج منها الزئبق .

2 ول ديورانت : قصة الحضارة ـــ 4/2 ص156.

3 السابق :ص 157

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون؛ فقد اخترعوا البـــارود في أيام أسرة (تانج)، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذٍ على الألعاب النارية، ولم يستخدموه في صـــنع القنابـــل اليدوية وفي الحروب إلا في عهد أسرة سونج (عام 1161م).

وقد عرف المسلمون ملح البارود (نترات البوتاسا) – وهو أهم مركبـــات البـــارود – في أثنـــاء اتِّجارِهم مع الصين وسمَّوه (الثلج الصيني)، ونقلوا سِرَّ صناعة البارود إلى البلاد الغربية، واستخدمه المسلمون في أسبانيا في الأغراض الحربية، ولعلَّ سير روجر بيكين – أول من ذكره من الأوربيين – قد عرفـــه مـــن دراسته لعلوم المسلمين، أو من اتصاله بـــ (ده- بروكي) الرَّحّالة الذي طاف في أواسط آسيا.

والبوصلة البحرية أقدم عهدًا من البارود، وإذا جازفنا بأن نصدِّق ما يقوله عنها المؤرِّخون الصينيون فإن دوق جو قد اخترعها في عهد الإمبراطور تشنج وانج (1115-1078 ق.م) ليهتـــدي بهـــا بعـــض السفراء الأجانب في عودتهم إلى بلادهم. ويقول الرواة: إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها "بإبرة تشير إلى الجنوب". وأكبر الظن أن الصينيين الأقدمين كانوا يعرفون ما لحجر المغناطيس من خواصّ مغناطيسية، ولكن استعماله كان مقصورًا على تحديد الاتجاهات في بناء الهياكل، وقد ورد وصـــف الإبرة المغناطيسية في (السونج- شو) وهو كتاب تاريخي مؤلَّف في القرن الخامس الميلادي، ويقول المؤلِّف: إنَّ مخترعَها هو الفلكي جانج هنج (المتوفى في عام 139م)[1]، على أن هذا العالِم لم يفعـــل أكثـــر مـــن أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه. وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فائدتها للملاحين هو ما جاء في كتاب أُلِّف في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي وهو يعزو استخدامها في هذا الغرض إلى البحارة الأجانب- وأكبر الظن أنهم من المسلمين – الذين كانوا يُسيِّرون سفنهم بين سومطرة وكانتون[2].

وكان الصينيون من أوائل الأمم التي اتخذت الفحم وقودًا واستخرجوه من الأرض بكميات قليلـــة منذ عام 122 ق.م.

و أنتجت الحضارة الصينية كذلك كتبًا من أرقى الكتب الدراسية في الزراعة، وفي تربية دود القـــز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين، وأُلِّفت رسالاتٌ قيِّمة في علم تقويم البلدان. وقد خلَّف عالمها الرياضـــي المعمَّر جانج تسانج (المتوفى في عام 152ق.م) وراءه كتابًا في الجبر والهندسة فيـــه أول إشـــارة معروفـــة للكميات السالبة، وقد حسب (دزو تسو تشونج- جي) القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقـــام عشرية، وحسَّن المغناطيس أو "الأداة التي تشير إلى الجنوب"، وقد وردت عنه إشارة غير واضحة قيل فيها: إنه كان يجري التجارب على سفينة تتحرك بنفسها. واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيمسغرافا) في عام 132م[3].

---

1 ول ديورانت: قصة الحضارة 4/2 ص251.
2 السابق نفسه .
3 ول ديورانت: قصة الحضارة 4/2 صـــ 252

الرياضيات:

وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينيين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند، ولكنهم هم الذين أنشئوا علم الهندسة في بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض، وكان في وُسْعِ الفلكيين في أيام (كونفوشيوس) أن يتنبَّئوا بالخسوف والكسوف تنبُّؤًا دقيقًا، وأن يضعوا أساس التقويم الصيني بتقسيم اليوم إلى اثنتي عشرةَ ساعةً، وتقسيم السنة إلى اثني عشر شهرًا يبدأ كل منها بظهور الهلال، وكانوا يضيفون شهرًا آخر في كل بضع سنين لكي يتفق التقويم القمري مع الفصول الشمسية.

الطب:

وكان الطب في الصين خليطًا من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية، وكانت بدايته فيما قبل التاريخ المدوَّن، ونبغ فيه أطباء عظماء قبل عهد أبقراط بزمن طويل، وكانت الدولة من أيام أسرة (جو) تعقد امتحانًا سنويًا للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتُحدَّد مرتبات الناجحين منهم في الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة في الاختبارات، وقد أمر حاكمٌ صينيٌّ في القرن الرابع قبل الميلاد أن تُشرَّح جثثُ أربعين من المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام، وأن تُدرَس أجسامُهم دراسةً تشريحيةً، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظري، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد[1].

وكتب (جانج جونج- تنج) في القرن الثاني عدَّة رسائل في التغذية والحِميَات (الريجيم) ظلَّت هي النصوص المعمول بها مدى ألف عام، وكتب (هوا- دو) في القرن الثالث كتابًا في الجراحة، وأشاع العمليات الجراحية باختراع نبيذٍ يخدِّر المريض تخديرًا تامًا. ومن إهمال المؤرِّخين أن ضاعت أوصاف هذا المخدِّر فيما بعد، ولم يُعرَف عنها شيءٌ[2].

وفي أوائل القرن السادس كتب داو هونج- جنج وصفًا شاملاً لسبعمائة وثلاثين عقارًا مما كان يستخدم في الأدوية الصينية، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب جاو يوان- فانج كتابًا قيمًا في أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع المهمة زمنًا طويلاً. وكثرت دوائر المعارف الطبية في أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التي تبحث كل منها في موضوع واحد في عهد الملوك من أسرة سونج، وأُنشِئَت في أيام هذه الأسرة كُلِّية طبية؛ وإن ظل طريق التعليم الطبي هو التمرين والممارسة.

وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد مخازن الأدوية منذ ثلاثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال في اليوم الواحد. وكان الأطباء يطنبون في تشخيص الأمراض؛ فقد ميَّزوا من أنواع النبض أربعًا وعشرين حالة، واستخدموا اللقاح في معالجة الجدري، وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه،

---

1 السابق 253

2 السابق 254

ولعلَّهم قد أخذوا هذا عن الهند، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهري. ويلوح أن هذا المرض الأخير قد ظهر في الصين في أواخر أيام أسرة (منج)، وأنه انتشر انتشارًا مروعًا بين الأهلين، وأنه بعد زواله قد خلَّف وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة.

و لم يتقدم علم الطب تقدمًا يستحق الذكر من أيام (شي هوانج- دي) إلى أيام الملكة الوالدة، ولعلَّ في وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب في أوربا من عهد أبقراط إلى عهد باستير. وغزا الطب الأوربي بلاد الصين في صحبة المسيحية ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدُّنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة، أمّا فيما عداها فهم يفضِّلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوربيين والعقاقير الأوربية[1].

1 ول ديورانت: مصدر سابق 255.

المبحث الثاني: دور العلم في بناء الحضارة الرومانية

تعد الحضارة الرومانية من أعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة اليونانية، ولم يكن لحضارة أن تقوم، وتتقدم بذلك القدر بدون أن يكون فيها من العلماء، والحريصين على نهضتها وتقدمها من يقودها إلى ذرا ذلك المجد والعظمة، وكان هؤلاء هم علماء الحضارة الرومانية، وكان تناولهم للعلم يعتمد على تجارب علمائهم الشخصية، أو النقل عن الحضارات المجاورة لهم .

فنجد مثلاً أن دراسة الجغرافيا كانت لديهم أكثر واقعية، وكان الغرض منها أن يُستَعان بها على الملاحة، وقد نشر بمبنيوس ميلا Mela Pomponius (43م) خرائط قسَّم فيها سطح الأرض إلى منطقة حارة في الوسط، ومنطقتين معتدلتين شمالية وجنوبية، وكان الجغرافيون الرومان يعرفون أوربا وشمالي آسيا الغربية، وشماليها الشرقي، أما سائر أجزاء العالم فكانت لديهم عنها أفكار غامضة، وأقاصيص خرافية غريبة. وقد وصلت السفن الأسبانية والأفريقية الصغيرة إلى جزائر ماديرا Madeira وكناريا أو الخالدات (Canary).

وكان أكبر المنتجات العلمية الإيطالية، وأكثرها دلالة على الجد في ذات الوقت كتاب التاريخ الطبيعي Historia Naturalis الذي وضعه كيوس بلنيوس سكندس Caius Plinius Secondus، وقد قضى كيوس حياته كلها تقريبًا جنديًا، ومحاميًا، ورحّالة، وحاكمًا، وقائدًا للأسطول الروماني في غربي البحر المتوسط، ولكنَّه رغم هذه المشاغل كلِّها ألَّف رسائل في الخطابة، والنحو، والحرب، وكتب تاريخًا لروما، وتاريخًا آخر لحروب روما في ألمانيا، وسبعة وثلاثين "كتابًا" في التاريخ الطبيعي هي كل ما بقي من هذا الفيض العظيم من المؤلفات.

وكتابه هذا في جملته وتفصيله دائرة معارف كتبها رجل واحد، وجمع فيها خلاصة علم زمانه وأخطائه. وفي ذلك يقول: "إن الغرض الذي أرمي إليه هو أن أعرض وصفًا عامًا لكل ما نعرف أنه موجود على سطح الأرض"، فهو يبحث في عشرين ألف موضوع، ويعتذر عما تركه من الموضوعات الأخرى، ويشير في هذا الكتاب إلى ألفي مجلد كتبها 473 مؤلفًا، ويعترف بدَيْنه إلى من رجع إليهم من الكتّاب ويذكر أسمائهم جميعًا بصراحة لا نظير لها في الأدب القديم، ويشير عرضًا إلى أنه وجد أن كثيرًا من المؤلفين نقلوا أقوال من سبقوهم بنصها دون أن يعترفوا بهذا النقل[1].

---

1 ول ديورانت: قصة الحضارة 2/5 186 وما بعدها.

الطب عند الرومان:

أمّا الطب فقد أخذوه عن اليونان، ولكنَّهم أحسنوا صياغته، وتنظيمه، وطبَّقوه على الصحة العامة والخاصة، ولقد كانت روما تحيط بها من جميع جهاتها تقريبا مستنقعات واسعة، وكانت معرضة للفيضانات الوبائية، فكانت بذلك في أشد الحاجة إلى العناية بالصحة العامة، فنحن نسمع أنَّ الملاريا كانت منتشرة في روما في القرن الثاني قبل الميلاد، وأن بعوضة الأنوفيل كانت في ذلك الوقت مستقرة في مناقع بنتين (Pontine)، وانتشر داء النقرس بانتشار الترف، وتدل بعض الفقرات في كتابات الهجائين الرومان على ظهور الزهري في القرن الأول بعد الميلاد، واجتاحت الأوبئة الفتاكة إيطاليا الوسطى في عام 23 ق.م وفي أعوام 95، 79، 166 ميلادية[1].

وكان الناس من أقدم الأزمنة يحاولون التغلب على المرض والطاعون بالسحر والصلوات، وكانوا يحملون مرضاهم وقرابينهم إلى هيكل إيسكلبيوس Aesculapius ومنيرفا، وكان الكثيرون منهم يتركون فيهما الهدايا شكرًا على نعمة الشفاء. فلمّا أن حلَّ القرن الأول قبل الميلاد أخذت عنايتهم بالطب الحقيقي تزداد شيئًا فشيئًا، ولم تكن الدولة في ذلك الوقت قد وضعت نظامًا لممارسة مهنة الطب، فكان الحذَّاؤون، والحلاقون، والنجارون يمارسونه مع مهنهم الأصلية إذا شاءوا، ويستعينون بالسحر، ويخلطون عقاقيرهم بأنفسهم ويبيعونها للناس.

وفُتِحَت في عهد فسبازيان مُستَمَعات Auditoria لتعليم الطب يتولَّى التعليمَ فيها أساتذة تعترف بهم الدولة وتؤدِّي إليهم رواتبهم، وكانت اللغة اليونانية لغة التعليم في هذه المعاهد كما أنَّ اللغة اللاتينية هي اللغة التي تُكتَبُ بها تذاكرُ الدواء في هذه الأيام. وكان يُطلَق على خريجي هذه المعاهد اسم: أطباء الجمهورية، وكانوا هم وحدهم الذين يستطيعون ممارسة الطب بصفة قانونية في روما بعد عهد فسبازيان. ونصَّ في قانون أكوليا Les Aquilia على أن تشرف الدولة على الأطباء، كما نص فيه على وجوب تحملهم تبعة إهمالهم. وكان قانون كرنليا Les Cornelia يفرض أشد العقوبات على من يتسببون في موت المرضى بسبب إهمالهم أو خطئهم الناشيء من جهلهم بأعمالهم. ومع هذا فإن الدَّجّالين ظلوا يمارسون دجلهم، ولكن عدد الأطباء المتعلمين ظلَّ يزداد شيئًا فشيئًا[2].

وقد وصل الطب العسكري في عام (100م) إلى أرقى ما وصل إليه في الزمن القديم؛ فكان في كل فيلق أربعة وعشرون جراحًا، كما كان له هيئة للإسعاف الأولي ونقالات ميدان منظمة أحسن تنظيم، وكانت الدولة تعين الأطباء لمعالجة الفقراء مجانًا وتؤدي لهم أجورهم، أما الأغنياء فكان لهم أطباؤهم الخصوصيون وكان "رؤساء الأطباء Archiarti" يُعنون بالإمبراطور وأسرته، وخدمه وأعوانه، وتؤدى

---

1 ول ديورانت : قصة الحضارة 2/5 صـ 194.

2 السابق 195.

لهم على ذلك أجور طيبة، وكانت بعض الأسر تتعاقد أحيانًا مع بعض الأطباء علـــى أن يعنـــوا بصـــحتها ويداووها من أمراضها مدة معينة1.

وبلغت مهنة الطب في ذلك الوقت درجة عظيمة من التخصص، فكان في الـــبلاد أخصـــائيون في المسالك البولية، وفي أمراض النساء، وكان فيها أطباء مولِّدون، وأطباء رمد، وأخصائيون في أمراض العـــين والأذن، وأطباء بيطريون، وجراحو أسنان، وكان في وسع الرومان أن تكون لهم أسنان صناعية من ذهب، وأسنان مرتبطة بأسلاك، وكباري وأسنان ذات قشرة ذهبية، كما كان لديهم عدد كبير من الطبيبات، وقد كتبت الكثيرات منهنَّ كتبًا في الإجهاض كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقـــات الراقيـــة، وكـــان الجراحون يتخصصون في فروع الجراحة المختلفة، وقلَّما كان يوجد جراح غير متخصص في فرع خـــاص. وكان الأتروبين يُستَعمَل في التخدير، وقد وُجِدَ في خرائب مدينة (بمبي) أكثر من مائتي أداة جراحية مختلفة. وكان تشريح جثث الآدميين عملاً غير مشروع، ولكنهم كانوا يستعيضون عن ذلك بفحص عن أجســـام المجروحين أو المحتَضَرِين.

وكان العلاج بمياه العيون واسع الانتشار، وكانت العيـــون الحـــارة الكـــبرى معاهـــد للعـــلاج والاستشفاء. وقد جمع شارميس Charmis المرسيلي ثروة طائلة بإدارة حمامات باردة. وكان المصـــابون بالسل يرسلون إلى مصر أو شمالي إفريقية، على حين كان الكبريت يُستخدَم لعـــلاج الأمـــراض الجلديـــة، ولتبخير الحجرات بعد انتشار الأمراض المعدية. وكانت العقاقير آخر ما يلجأ إليه الناس من وسائل العلاج، ولكنهم كانوا يلجأون إليها في كثير من الحالات، وكان الأطباء يصنعونها بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها، ولا يطلعون الجماهير عليها، ويبيعونها بأغلى الأثمان التي يطيقها المرضى2.

وليس بين الكتّاب المعروفين في علم الطب في هذا العهد كاتب من أصل روماني إلا واحدًا فقط، وحتى هذا الكاتب لم يكن طبيبًا. لقد كان أورليوس كرنليـــوس سلســـس Aurelius Cornelius Celsus من أبناء الأشراف، جمع حوإلى عام 50م في دائرة المعارف كل ما درسه عن الزراعة، والحرب، والخطابة، والقانون، والفلسفة، والطب. وقد ضاع كل ما كتبه إلا القَسَم الخاص بالطب، ويُعَدُّ كتابُـــه في هذا العلم أعظمَ مؤلَّفٍ وصل إلينا من القرون الستة المحصورة بين أبقراط وجالينوس، ويمتاز فوق هذا بأنـــه كُتِبَ بلغةٍ لاتينية فصحى نقية لُقب سلسس من أجلها بشيشرون3 الطب. ولقد ظلَّت الأسماء اللاتينية الـــتي ترجم بها المصطلحات الطبية اليونانية تسيطر على علم الطب من ذلك الوقت إلى أيامنا هذه4!! .

الهندسة عند الرومان:

---

1 السابق 196.

2 ول ديورانت قصة الحضارة 2/5 ص 197.

3 كاتب وخطيب روماني مميز.

4 ول ديورانت قصة الحضارة 2/5 ص 197.

برع الرومان كذلك في إنشاء الطرق فقد كانت السفن والطرق التي تحمل عليها البضائع، والقناطر التي تربط الطرق بعضها ببعض، والموانئ والأحواض التي تستقبل السفن، والقنوات المبنية التي يجري فيها الماء النقي إلى روما، والمصارف التي تنصرف فيها مياه المستنقعات الريفية وأقذار المدن، كانت هذه كلها من عمل المهندسين الرومان واليونان والسوريين يساعدهم آلاف من العمال الأحرار وجنود الفيالق والعبيد. وكانوا يرفعون الأحمال أو الحجارة الثقيلة، أو يجرونها بوساطة البكرات أو القوائم الخشبية العمودية تديرها الروافع التي يدفعها فيها الحيوانات أو الآدميون،وقد أقاموا على أحد شواطئهم جدرانًا ذات درجات ثلاث حتى لا ينكشف الطين في قاع النهر إذا انخفض ماؤه .

كما أنشئوا ميناءً مزدوجًا عند" أستيا "لملوكهم "كلوديوس "(41 ـــ 54م) ونيرون وتراجان، وافتتحوا موانئ أصغر منها في مرسيليا وبتيولي، وميسينم، وقرطاجنة وبرنديزيوم ورافنا؛ وجددوا أعظم موانئ الإمبراطورية كلها في الإسكندرية. وقد جففوا البحيرة الفوسية، واستصلحوا أرضها للزراعة وذلك بأن شقوا لها نفقًا يخترق جبلاً من الصخر الصلب، وأنشأ تحت الأرض في روما مصارف من الأسمنت المتحجر للآجر والقرميد قاومت البلي مئات السنين، وجففوا مناقع كمبانيا حتى أصبحت صالحة للسكنى، ويدل ما عثر عليه فيها من آثار على أن قصورًا فخمة كثيرة أقيمت فيها ، وقاموا بتنفيذ المشروعات العامة المدهشة التي خفف بها قيصر وغيره من العباقرة التعطل في البلاد وجملوا بها روما.

وكانت الطرق القنصلية من أقل أعمالهم مشقة، ولكنها لم تكن تنقص عن طرق هذه الأيام. وكانت سعتها تختلف من ستة عشر إلى أربع وعشرين قدمًا ولكن بعض هذا العرض كان يشغله بالقرب من روما ممرات جانبية مرصوفة بألواح حجرية مستطيلة الشكل، وكانت تسير مستقيمة إلى أهدافها مضحية بالنفقات العاجلة في سبيل اقتصاد دائم؛ وأقيمت على المجاري التي لا حصر لها قناطر كثيرة النفقات، فإذا وصلت إلى المستنقعات اخترقتها فوق قباب مقامة على جدران من الآجر والحجارة، وكانت تصعد فوق الجبال الوعرة وتنحدر على سفوحها دون أن تستخدم النفق، وسارت بمحاذاة الجبال أو الجسور العالية تحميها الجدران القوية، واختلفت المواد التي ترصف بها باختلاف الأماكن التي تمر بها، وكانت الطبقة السفلى تصنع في العادة من الرمل ويتراوح سمكها بين أربع بوصات و ست، أو من الملاط بسمك بوصة واحدة، ثم تقام فوق هذه الطبقة أربع طبقات من البناء: الأولى وسمكها قدم وتبنى من الحجارة يمسكها الأسمنت أو الطين، تليها طبقة ثانية سمكها عشر بوصات من الأسمنت القوي، ثم طبقة ثالثة سمكها ما بين اثنتي عشر وثمان عشر بوصة وتتألف من عدة طبقات من الأسمنت المقوى أيضًا، فوقها الطبقة الرابعة وتتخذ من حجر الصوان أو الحمم البركانية الكثيرة الأضلاع والتي يختلق قطر كل منها بين قدم واحد وثلاث أقدام، وسمكها بين ثمان بوصات واثنتي عشر بوصة، وكان يسوون الوجه الأعلى لهذه القطع، وكانت مواضع اتصالها بعضها ببعض لا تكاد تتبينها العين، وكانت الطبقة العليا تصنع في بعض الأحيان من الأسمنت المقوى، وفي الطرق القليلة الأهمية كانت تصنع من الحصباء؛ وفي بريطانيا كانت من حجر الصوان المخلوط بالأسمنت فوق طبقة من الحصباء. وكان سمك الطبقات السفلى كبيرًا إلى حد جعل المهندسين لا يعنون كثيرًا بتصريف

الماء الجوفي. ويمكننا أن نقول عن هذه الطرق بوجه عام إنها أطول الطرق أعمارًا في التاريخ كله، ولا يـــزال بعضها يستخدم إلى اليوم، ولكن منحنياتها الشديدة التي صُنِعَت لسير البغال والعربات الصغيرة جعلتها غـــير صالحة لوسائل النقل الحديث.

وكانت القناطر التي تحمل هذه الطرق نماذج طيبة لتضافر العلم والفن، ولقد ورث الرومان عـــن مصر البطليموسية أصول الهندسة المائية واستخدموها على نطاق بلغ من السعة حدًا لم يسبقهم أحد إليه من قبل، وبقيت الأساليب التي نُقِلَت عنهم لم يطرأ عليها تغيير إلى هذه الأيام، وقد وضعوا الأسس، وأشـــادوا الأرصفة تحت الماء كما كانت تشاد هذه وتلك في أقدم العهود، وكـــانوا يـــدفعون في أنـــواع المجـــاري أسطوانات مزدوجة مملوءة بمواد البناء، وقد أحكموا إغلاق كل منهما ونزحوا الماء مما بينهما، وغطوا الجزء المعرى بالحجارة أو الجير، وأقاموا الرصيف المطلوب إقامته على هذا الأساس. وقد أقيمت على نهـــر التيـــبر قبالة روما تسعة جسور بعضها قديم : كجسر سبليسيوس الذي لم يكن يجوز استخدام المعادن فيه، وبعضها متقن البناء كجسر فبريسيوس لدرجة أنه بقي صالحًا للاستعمال إلى هذه الأيام[1].

---

1 ول ديورانت: قصة الحضارة 2/5 ص 225 وما بعدها .

المبحث الثالث: دور العلم في بناء الحضارة الفارسية

يرجع الفضل في حضارة الفرس إلى (آل ساسان) الذين حكموا فارس في القرن الثالث الميلادي، وككل القوى العظمى كان للفرس حضارة علمية لا يُستَهان بها، وكان أبرز ما عُرِفَت به الحضارة الساسانية علم نظم الإدارة، والتنظيمات السياسية، التي بدأت منذ أقرَّ "أردشير" (أول الحكام الساسانيين) عددًا من الأنظمة والقوانين في الدولة، منها وضع ديانة أساسية للبلاد، ووقع اختياره على الديانة الزرادشتية، التي كانت سائدة لدى الشعب، وأمر كبير وزراءه "تنسر" بجمع كافة النصوص المتعلقة بكتابها المقدس المدعو (الفستا) أو (الأبستاق) في مجلدٍ واحد، وأجازه باللغة البهلوية، واعتبره الكتاب المقدس.

وفي عهد ولده وخليفته "سابور" أدخل رجال الدين إلى هذه النصوص الدينية نصوصًا طبية وفلكية وطبيعية، عدّوها نصوصًا تعليمية، وجبت إضافتها إلى ثقافة الزرادشتي الصالح لدينه ووطنه[1].

النُّظم الاجتماعية والإدارة:

بدأ "أردشير الأول" في إرساء أول نظام اجتماعي عرفته الحضارة القديمة، ارتكز على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات رئيسية؛ تأتي في مقدمتها طبقة "رجال الدين"، ثم طبقة "رجال الجيش"، ثم طبقة "الكتّاب"، ثم طبقة "الفلاحين والعمال".

وتذكر المصادر أنه بعد وفاة "أردشير" تولى الحكم ابنه" شابور" الذي ورث دولة قوية، واهتم بتدعيم الدولة، وأعاد تنظيم الامبراطورية، وأقام سدَّ "شستر"، وأنشأ العديد من المدن، كما اهتم بالعلوم فأمر بترجمة الكثير من الكتب الإغريقية في شتى العلوم، كالطب والفلك والفلسفة[2].

التعليم في الحضارة الفارسية:

يذكر (ول ديورانت) في قصة الحضارة أن الفرس كان لديهم عاداتٌ خاصّة في تعليم أبنائهم، فيقول: "كان الوليد يبقى في أحضان أمه حتى السنة الخامسة من عمره ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة، وفي هذه السنة يدخل المدرسة. وكان التعليم يُقصَر في الغالب على أبناء الأغنياء، ويتولّاه الكهنة عادةً؛ فكان التلاميذ يجتمعون في الهيكل أو في بيت الكاهن؛ وكان من المبادئ المقررة ألاّ تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سببًا في إفساد الصغار. وكانت الكتب الدراسية هي (الأبستاق)[3] وشروحها، وكانت مواد الدراسة تشمل الدين، والطب أو القانون، أمّا طريقة الدرس فكانت الحفظ عن ظهر قلب، وتكرار الفقرات الطويلة غيبًا.

1 عبد الحفيظ يعقوب: من ملامح الحضارة الإيرانية القديمة 80.

2 حسن برنيا: تاريخ إيران القديم 230

3 هو كتاب الديانة الزرادشتية، وقد سبقت الإشارة إليه.

أمّا أبناء الطبقات غير الموسرة فلم يكونوا يتلقون ذلك النوع من التعليم، بل كان تعليمهم مقصورًا على ثلاثة أشياء: ركوب الخيل، والرمي بالقوس، وقول الحق.

وكان التعليم العالي عند أبناء الأثرياء يمتد إلى السنة العشرين أو الرابعة والعشرين، وكان مَن يُعَدُّ إعدادًا خاصًّا لتولِّي المناصب العامة أو حكم الولايات؛ يُدرَّبون على القتال بلا استثناء.

وكانت حياة الطلاب في هذه المدارس العليا حياة شاقة؛ فكان التلاميذ يستيقظون مبكرين، ويدرَّبون على الجري مسافات طويلة، وعلى ركوب الخيل الجامحة وهي تركض بأقصى سرعتها، والسباحة، وصيد الحيوان، ومطاردة اللصوص، وفلاحة الأرض، وغرس الأشجار، والمشي مسافات طويلة في حر الشمس اللافح أو البرد القارس؛ وكانوا يدرَّبون على تحمُّل جميع تقلبات الجو القاسية، وأن يعيشوا على الطعام الخشن البسيط.

لقد كان هذا في الحق تعليمًا ينشرح له صدر فريدرك نتشه في اللحظات التي يستطيع فيها نسيان ثقافة اليونان الأقدمين وما فيها من تنوع وبريق[1].

العلوم الطبية

كان الفرس الساسانيون يثقون بعلوم الإغريق والرومان، خاصة في الطب، حيث تؤكِّد المصادر أن معظم أطباء الملوك كانوا إغريقًا أو رومانًا، ومع ذلك تتضمن (الأوتسا) وشروحها، وأشهرها (نسك هُبسارم) معلومات طبية جيدة، تستهلها بحقيقة أن "أهورامزدا" ردَّ على "أهريمن" الذي خلق الأمراض لقهر الإنسان بأن أوجد لكل مرض نباتًا يشفى منه، كما يتضمن (النسك) تفاصيل عن صفات الطبيب الجيد، ومراحل تعليمه، وواجباته تجاه مرضاه ومجتمعه، إضافة إلى أجوره التي تختلف حسب حالة المريض الاجتماعية ونوعية المرض، ونجد في "النسك" توجيهًا للمرضى الإيرانيين بضرورة اللجوء إلى الطبيب الوطني، قبل الاستعانة بالطبيب الأجنبي، وكذلك تفاصيل أخرى عن أنواع الأمراض وأشكال الأوبئة، وكذلك أمراض الحيوانات الإليفة وعلاجها.

ولعل أبرز ما في هذا النسك من معلومات طبية، هو تقديمه معلومات عن الطب النفسي، وتفريقه بين صحة الجسد و صحة الروح، وتأكيده على أهمية طبيب الروح، علمًا بأنه لا يستخدم أدوية بل يستخدم طرقًا معنوية للعلاج.

وقد أوردت كتب التراث العلمية الساسانية ثلاث طرق للعلاج، وهي:

---

1 ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول ـــ الجزء الثاني 443.

العلاج بالأعشاب وهي "كالأدوية"، والعلاج بالسكين وهي "الجراحة"، وثالثها الكلام المقـــدس، وهو "العلاج النفسي"، وكان يُضاف له حرقُ البخور لطرد الأرواح الخبيثة، ويبدو أن الأطبـــاء النفســـيين كانوا يقتربون بحسب علومهم من رجال الدين أكثر من رجال العلم، حيث كان هـــؤلاء يشـــبهون الإثم بالمرض، ويوازون بينهما، ويعتقدون أن الرذائل كالجهل والغرور والخداع ما هـــي إلا أســـباب لا مرئيـــة لأمراض الزكام والإسهال والجفاف والحمَّى وغيرها.

ويبدو أن نجاح العلوم الطبية المعاصرة التي أثبتت وجودها في المجتمع الساساني دفعت في اتجاه إنشاء مدرسة لتخريج الأطباء، وقد سهَّل تحقيق الهدف لجوء عدد كبير من الأطباء الرومان إليهم

(أثناء اضطهادهم في رومانيا)، مما دفعهم لتأسيس أفضل مدارس الطب في "جنديسابور" آنـــذاك، وظلَّت هذه المدرسة مزدهرة، وتُخرِّج العديد من الأطباء حتى بدايات العصر الإسلامي[1]..

العلوم الأخرى:

وهي تلك العلوم التي ازدهرت استمرارًا للعلوم التي عرفتها دول إيران الأقدم من الدولة الساسانية، ومعظم هذه العلوم كانت منذ عهد كسرى الأول (531 ــ 579م) الذي كان – على الرغم من كونـــه زرادشتيًا – واسع الأفق، حرَّ التفكير، ذا عقلية علمية متميزة؛ إذ كان يتقبل بحث الآراء المختلفة في مسائل الطبيعة العلوم المختلفة، و لم يتردَّد في الاستعانة بأبناء الديانات الأخرى (كالنصارى) في الوظائف التعليمية أو العلمية ذات النفع العام، وكان مثقفًا يتقن اللغة السريانية، والسنسكريتية، وكان معجبًا بفلسفة أفلاطـــون وأرسطو، لدرجة أنه كلَّف أحد المطارنة بترجمة كتب المنطق التي كتبها أرسطو، والتي تحدث فيها عن الآراء التاريخية بوصف الآلهة والعالم، ونظريات الخلف.. وغيرها

ويبدو تأثير ذلك الملك عظيمًا في إيران، وذلك لحرصه على نقل معارف الأمم المجاورة إلى بلاده، ففي عهده نقلت مجموعة الكتابات الهندية والبوذية إلى اللغة البهلوية والساسانية[2].

العمارة

كان للفرس طراز فني خاص في العمارة؛ فقد شيَّدوا في أيام قورش (550ــ 529 ق.م)، مقابر وقصورًا، كشف علماء الآثار القليل منها، وقد يستطيع المعول والمجرف – وهما المؤرِّخان اللذان لا ينقطعان عن البحث والتنقيب – أن يكشفا لنا في المستقبل القريب ما يُعلِي من تقديرنا للفن الفارسي.

---

1 حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم 300 وما بعدها .

2 من ملامح الحضارة الإيرانية 101.

وإلى أقصى الجنوب عند نقش رستم غير بعيد من برسبوليس يقوم قبر (دارا) الأول منحوتًا في واجهة صخرة في الجبل كأنه ضريح هندوسي، وقد نُقِشَ مدخلُه ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر، وأقيمت عند هذا المدخل أربعة عُمُد دقيقة حول باب غير شامخ. ومن فوق هذا الباب شخوص قائمة كأنها فوق سقف يمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس تحمل منصة رُسِمَ عليها الملك كأنه يعبد أهورا- مزدا، والقمر. والفكرة التي أوحت بهذا الرسم وطريقة تنفيذها تسري فيهما روح البساطة والرِّقة الأرستقراطية.

أمّا أروع الآثار الفارسية القديمة التي تنفرج عنها الأرض الكتوم يومًا بعد يوم فهي الدرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التي كشفت في برسبوليس؛ ذلك أنَّ دارا (521 ق. م) ومن جاء بعده من ملوك الفرس قد أقاموا لهم فيها قصورًا يحاولون بها أن يرجئوا الوقت الذي تُنسَى فيه أسمائهم. ولسنا نجد في تاريخ العمائر كلها ما يشبه الدرج الخارجية العظيمة التي كان القادم من السهل يرقاها إلى الربوة التي شيدت عليها القصور.

وأكبر الظن أن الفرس أخذوا هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى (الزجورات)، أي أبراج أرض الجزيرة، وتلتف حولها، ولكنها كان لها مع ذلك خصائص لا يشاركها فيها غيرها من المباني. ذلك أنها كانت سهلة المرتقى واسعة يستطيع عشرة من رُكّاب الخيل أن يصعدوها جنبًا إلى جنب. وما من شك في أن هذه الدرج كانت مدخلاً بديعًا إلى الطور الفسيح الذي يعلو عن الأرض المجاورة له علوًا يتراوح بين عشرين وخمسين قدمًا، والذي يبلغ طوله ألفًا وخمسمائة قدم، وعرضه ألفًا، والذي شُيِّدت عليه القصور الملكية، وكان عند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين مدخل أمامي كبير نُصِبَت على جانبيه تماثيل ثيران مجنَّحة ذات رؤوس بشرية كأبشع ما خلَّفه الفن الآشوري. وكانت في الجهة إليمنى بعد هذا المدخل آية العمائر الفارسية على الإطلاق، ونعني بها (الجهل- منار)، أو الرَّدهة العظمى التي شادها خشيارشاي الأول، والتي كانت هي وغرفات الانتظار المتصلة بها تشغل رقعة من الأرض تربو مساحتها على مائة ألف قدم مربع، فهي أوسع من معبد الكرنك الفسيح، ومن أية كنيسة أوربية عدا كنيسة ميلان[1].

ولا يزال ثلاثة عشر عمودًا من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر خشيارشاي باقية إلى اليوم بين خربات القصر، كأنها جذوع نخل في واحة مقفرة موحشة، وتُعَدُّ هذه الأعمدة المبتورة من الأعمال البشرية القريبة من الكمال، وهي أرفع من مثيلاتها في مصر القديمة أو اليونان، وتعلو في الجو علوًا لا تصل إليه معظم الأعمدة الأخرى، إذ يبلغ ارتفاعها أربعة وستين قدمًا، وقد خطت في جذوعها ستة وأربعون محزًا، وتشبه قواعدها أجراسًا تغطيها أوراقُ أشجارٍ مقلوبة الوضع، ومعظم تيجانها في صورة لفائف من الأزهار تكاد تشبه اللفائف "الأيونية"، يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرّنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف. وقام من خلف الجهل- منار، أي من شرقيها "بهو العُمُد المائة" و لم يبق من

1ول ديورانت: قصة الحضارة 449/2 .

هذا البهو سوى عمود واحد والحدود الخارجة لتصميمه العام. ولعلَّ هذين القصرين كانا أجمل ما شـاده الإنسان في العالم القديم والحديث على السواء.

وأقام أرت خشتر الأول والثاني (379-382م) في مدينة السوس (في منطقة الأحواز) قصرين لم يبق منهما إلا أساسهما. ذلك أنهما شُيِّدا من الآجر المكسو بأجمل ما عُرِفَ من القرميـد ذي اللؤلـوء الزجاجي.

ولم يكن التصوير والنحت في السوس وفي غيرها من العواصم فنين مستقلين، بل كانا تابعين لفـن العمارة، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صنع فنانين جيء بهم من أشور وبابل وبلاد اليونان[1].

بناء الطرق

انشأ المهندسون طاعةً لأمر دارا الأول (521 _ 486 ق.م) طرقًا عظيمة تربط حواضر الدولـة بعضها ببعض، وكان طول أحد هذه الطرق (وهي الممتدة من السوس إلى سرديس) ألفًا وخمسمائة ميـل، وكان طولها يقدر تقديرًا دقيقًا بالفراسخ (وكان الفرسخ 3.4 ميل)، ويقول هيرودوت: "إنه كـان عنـد نهاية كل أربعة فراسخ محاط ملكية ونُزُل فخمة، وكان الطريق كله يخترق أقاليم آمنة عـامرة بالسـكان"، وكان في كل محطة خيول بديلة متأهبة لمواصلة السير بالبريد، ولهذا فإن البريد الملكي كان يجتاز المسافة من السوس إلى سرديس بالسرعة التي يجتازها بها الآن رتل من السيارات الحديثة، أي في أقل قليلاً من أسـبوع، مع أن المسافر العادي في تلك الأيام الغابرة كان يجتاز تلك المسافة في تسعين يومًا. وكانوا يعبرون الأنهـار الكبيرة في قوارب، ولكن المهندسين كانوا يستطيعون متى شاءوا أن يقيموا على الفرات أو على الـدردنيل نفسه قناطر متينة تمر عليها مئات الفيلة الوجلة وهي آمنة، وكان ثمة طرق تصل فارس بالهند مجتازة ممـرات جبال أفغانستان، وقد جعلت هذه الطرق مدينة السوس مستودعًا وسطًا لثروة الشرق التي كانت حـتى في ذلك العهد البعيد ثروة عظيمة لا يكاد يصدقها العقل. وقد أنشأت هذه الطرق في الأصل لأغراض حربيـة وحكومية، وذلك لتسيير سيطرة الحكومة المركزية وأعمالها الإدارية؛ ولكنها أفادت أيضًا في تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار2.

---

1 ول ديورانت: قصة الحضارة 450/2.

2 السابق 2/ 413.

المبحث الرابع: دور العلم في بناء الحضارة الهندية

جهود الهند في العلم قديمة جدًا وحديثة جدًا في آنٍ معًا؛ فهي حديثة إذا نظرنا إلى العلم باعتباره بحثًا دنيويًا مستقلاً، وهي قديمة إذا نظرنا إليه باعتباره مشغلة فرعية من مشاغل الكهنة؛ ولما كان الدين هو لُبُّ الحياة الهندية وصميمها، فإن العلوم التي كان من شأنها أن تعاون الدين هي التي سبقت غيرها بالرعاية والنمو؛ فالفلك قد نشأ من عبادة الأجرام السماوية، ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابين؛ ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحَّة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية، صحيحة في تركيبها وفي مخارج أصواتها، على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة، فقد كان علماء الهند هم كهنتها، بكل ما في ذلك من خيرٍ ومن شرٍّ.

علم الفلك:

نشأ علم الفلك عن التنجيم نشأة غير مقصودة، ثم أخذ رويدًا رويدًا ينفُضُ عن نفسه الأغلال في ظلِّ اليونان؛ وأقدم الرسائل الفلكية – وهي السِدْ ذانتا حوإلى 425 ق.م – كانت قائمة على أساس العلم اليوناني حتى لقد اعترف "فارهاميرا" الذي أطلق على مؤلَّفه الموسوعي اسمًا له مغزاه إذ أطلق عليه "مجموعة كاملة للتنجيم الطبيعي" – اعترف صراحة باعتماده على اليونان، وعلَّل "آريا بهاتا"– وهو أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود – الكسوف والخسوف، والاعتدإلين والانقلابين (في حركة الأرض حول الشمس)، وأعلن عن كروية الأرض ودورتها اليومية حول محورها، وكان فيما كتبه سابقًا لعلم النهضة الأوربية سبقًا جريئًا؛ حيث قال: "إنَّ عالم النجوم ثابت، والأرض في دورانها هي التي تُحدِثُ كلَّ يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق، واختفاءها في الغرب" وجاء بعده خَلَفُه المشهور (براهما جوبتا) فنَسَّق المعلومات الفلكية في الهند، ولو أنه أعاق تقدم الفلك هناك برفضه لنظرية "آريا بهاتا" الخاصة بدوران الأرض، هؤلاء الرجال وأتباعهم هم الذين لاءموا بين حاجات الهنود والتقسيم البابلي للسماء إلى أبراج، وهم الذين قسَّموا العام اثني عشر شهرًا، كل شهر منها ثلاثون يومًا، وكل يوم ثلاثون ساعة، وكانوا يضيفون شهرًا زائدًا كل خمسة أعوام، وحسبوا بدقة تستوقف النظر قُطْرَ القمر وخسوف الشمس، وموضع القطبين ومواضع النجوم الرئيسية ودورانها، وشرحوا نظرية الجاذبية– ولو أنهم لم يصلوا إلى قانونها– عندما كتبوا في "سِدْ ذانت" : "إن الأرض تجذب إليها كل شيء بما لها من قوة جاذبة"[1].

1 ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الثاني الجزء الثالث 236.

الجبر والرياضة:

تقدم الجبر عند الهنود وعند اليونان دون أن يأخذ فريق عن فريق فيما يظهر لكن احتفاظنا باسمه العربي (الجبر كلمة عربية معناها ملاءمة التركيب) يدل على أن هذا العلم قد أُتِي به إلى أوربا الغربية من العرب- وهذا معناه أنه جاء إليها من الهند لا من اليونان، وأبطال هذا الميدان من الهنود هم- كما في علم الفلك- آريا بهاتا وبراهما جوبتا وبهاسكارا؛ ويظهر أن أخيرهم (وُلِدَ سنة 1114م) قد ابتكر العلامة الجذرية وكثيرًا غيرها من الرموز الجبرية، وهؤلاء الرجال هم الذين ابتكروا فكرة الكمية السلبية التي كان يستحيل الجبر بغيرها، وصاغوا القواعد التي يمكن بها إيجاد التباديل والتوافيق، وحسبوا الجذر التربيعي للعدد 2، وحلّوا في القرن الثامن الميلادي معادلاتٍ غير متعينة من الدرجة الثانية، كانت تجهلها أوربا حتى أيام "يولر" بعد ذلك بألف عام، ولقد صاغوا علمهم هذا في قالب شعري، وخلعوا على مسائل الرياضة رشاقة تُميِّز العصر الذهبي في تاريخ الهند1.

غير أن الهنود لم يكونوا على هذه الدرجة من التوفيق في الهندسة؛ ولو أن الكهنة استطاعوا – في قياس مذابح القرابين وبنائها – أن يصوغوا النظرية الفيثاغورسية (التي مؤداها أن المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين) قبل ميلاد المسيح ببضع مئات من السنين، وكذلك استطاع "آريا بهاتا"- وقد يكون متأثرًا باليونان في ذلك- أن يحسب مساحة المثلث والمعَّين والدائرة وأن يقدر قيمة النسبة التقريبية (في حساب النسبة بين طول قطر الدائرة ومحيطها) بـ 3ر1416- وهو رقم لم يعادله في دقة الحساب رقم آخر حتى عهد "بير باخ" في أوربا؛ وكان "بهاسكارا" سباقًا إلى حساب التفاضل، إذ فكر فيه على نحو تقريبي، وأعد "آريا بهاتا" قائمة بحساب الجيب، وجاء في كتاب "سوريا سِدْ ذانتا" مجموعة منسقة في حساب المثلثات، كانت أرفع مستوى من كل ما عرفه اليونان في هذا الباب2.

الكيمياء:

تقدمت الكيمياء بادئة طريقها من مصدرين: الطب والصناعة؛ فقد أسلفنا بعض القول في براعتهم الكيماوية في صَبِّ الحديد في الهند القديمة، وفي الرقي الصناعي العظيم في عصور "جوبتا"، حينما كان ُينظر إلى الهند – حتى من روما القيصرية – على أنها أمهر الأمم جميعًا في صناعات كيماوية مثل: الصباغة والدبغ وصناعة الصابون والزجاج والأسمنت.

---

1 السابق 237 .

2 انظر : ماكدونال: تاريخ الهند القديم 29

وفي القرن الثاني قبل الميلاد، خصص "ناجارجونا" كتابًا بأكمله للبحث في الزئبق؛ فلمّا كان القرن السادس كان الهنود أسبق بشوط طويل من أوربا في الكيمياء الصناعية، فكانوا أساتذة في التكليس والتقطير والتصفية والتبخير واللحام وإنتاج الضوء بغير حرارة، وخلط المساحيق المنومة والمخدرة، وتحضير الأملاح المعدنية، والمركبات والمخلوطات من مختلف المعادن؛ وبلغ طرق الصلب في الهند القديمة حدًا من الكمال لم تعرفه أوربا إلا في أيامنا هذه، ويقال: إنَّ الملك يورس، قد اختار هدية نفسية نادرة يقدمها للإسكندر ثلاثين رطلاً من الصلب، إذا آثرها على هدية من الذهب أو الفضة؛ ونقل المسلمون كثيرًا مما كان للهنود من علم الكيمياء والصناعة الكيماوية إلى الشرق الأدنى وأوربا، وكان الفرس قد نقلوا بدورهم عن الهند سِرَّ صناعة السيوف "الدمشقية"1.

الطب الهندي:

كان التشريح وعلم الوظائف الأعضاء- مثل بعض الجوانب الكيمياء- نتيجتين عرضيتين للطب الهندي؛ ففي القرن السادس قبل الميلاد- رغم أنه عهد يغوص في القدم، كان الأطباء الهنود يعرفون خصائص الأربطة العضلية، ورتق العظام، والجهاز اللمفاوي، والضفائر العصبية، واللفائف والأنسجة الدهنية، والأوعية الدموية، والأغشية المخاطية والمفصلية، وأنواعًا من العضلات أكثر مما نستطيع أن نتبينه من جثة حديثة.

وقد زلَّ أطباء الهند في العصر السابق لميلاد المسيح في نفس الخطأ الذي وقع فيه أرسطو حين تصور القلب مركز الشعور وأداته، وظنوا أن الأعصاب تصعد من القلب وتهبط إليه، لكنهم فهموا عمليات الهضم فهمًا يستوقف النظر بدقته- أعني الوظائف المختلفة للعصارات المعدية، وتحول الكيموس إلى كيلوس، ثم تحول الكيلوس إلى دم، وسبق "أتريا"، "وايزمان" بألفين وأربعمائة عام حين ذهب (حوإلى 500 ق.م) إلى أن نطفة الوالد مستقلة، وكانوا يحبذون فحص الرجال للتحقق من توافر عناصر الرجولة فيهم قبل إقدامهم على الزواج؛ وجاء في تشريع "مانو" تحذير من عقد الزواج بين أشخاص مصابين بالسل، أو الصرع، أو سوء الهضم المزمن، أو البواسير، أو شقشقة اللسان.

وكان مما فكرت فيه مدارس الطب الهندية سنة 500 ق.م، ضبط النسل على آخر طراز يأخذ به رجال اللاهوت، وهو يقوم على نظرية هي أن الحمل مستحيل في مدى اثني عشر يومًا من موعد الحيض؛ ووصفوا تطور الجنين وصفًا فيه كثيرًا جدًا من الدقة، وكان مما لوحظ في هذا الصدد أن جنس الجنين لا يتعين إلا بعد مدة، وزعموا أن جنس الجنين في بعض الحالات يمكن التأثير فيه بفعل الطعام أو العقاقير2.

1ول ديورانت : قصة الحضارة 3/2 صـ 238.

2 السابق نفسه : 239.

وتبدأ مدونات الطب الهندي بكتاب "أترافا- فيدا"، ففي هذا الكتاب تجد قائمة بأمراض مقرونة بأعراضها، لكنك تجدها محاطة بكثير جدًا من السحر والتعزيم؛ فقد نشأ الطب ذيلاً للسحر؛ فالقائم بالعلاج كان يدرس ويستخدم وسائل جثمانية لشفاء المريض، على أساس أن هذه تساعد على نجاح ما يكتبه له من صيغ روحانية؛ ثم أخذ على مرِّ الزمن يزيد من اعتماده على الوسائل الدنيوية، ماضيًا إلى جوار ذلك في تعاويذه السحرية؛ لتكون هذه مُعينة لتلك من الوجهة النفسية، كما نفعل اليوم بتشجيعنا للمريض.

وفي ذيل كتاب "أترافا- فيدا" ملحق يسمى "أجو- فيدا" (ومعناها: علم إطالة العمر)؛ ويذهب هذا الطب الهندي القديم إلى أن المرض يسببه اضطراب في واحد من العناصر الأربعة: (الهواء والماء والبلغم والدم)، وطرائق العلاج هي الأعشاب والتمائم السحرية؛ ولا يزال كثير من طرائق الطب القديم في وصف الأمراض وعلاجها مأخوذًا به في الهند اليوم، وإنَّ ذلك لَيُصِيب من النجاح أحيانًا ما يثير الغيرة في صدور الأطباء الغربيين؛ وتجد في كتاب "رجْ- فيدا" نحو ألف اسم من أسماء هذه الأعشاب، وهو يحبِّذ الماء على أنه خير علاج لمعظم الأمراض؛ على أن الأطباء والجراحين حتى في العهد الفيدي كانوا يتميزون بما يفرِّق بينهم وبين المعالجين بالسحر؛ وكانوا يسكنون منازل تحيط بها حدائق يستنبتون فيها الأعشاب الطبية.

وأعظم اسمين في الطب الهندي هما "سوشروتا" في القرن الخامس قبل الميلاد و"شاراكا" في القرن الثاني بعد الميلاد؛ فقد كتب "سوشروتا"- وكان أستاذا للطب في جامعة بنارس، باللغة السنسكريتية مجموعة من أوصاف الأمراض وطرائق علاجها، وكان قد ورث العلم بها من معمله "ذانوانتاري"؛ فبحث في كتابه بإطناب في الجراحة، والتوليد، والطعام الصحي، والاستحمام، والعقاقير، وتغذية الرُّضَّع والعناية بهم والتربية الطبية، وأما "شاركا" فقد أنشأ "سامهيتا" (ومعناها موسوعة) تشمل علم الطب، وهي لا تزال مأخوذًا بها في الهند؛ وبثّ في أتباعه فكرة عن مهنتهم كادت تقترب من فكرة أبقراط: "لا ينبغي أن تعالجوا مرضاكم ابتغاءَ منفعةٍ لأنفسكم، ولا إشباعًا لشهوة ما من شهوات الكسب الدنيوية، بل عالجوهم من أجل غاية واحدة هي التخفيف عن الإنسانية المعذبة، بهذا تفقدون سائر الناس"1.

ويتلو هذين الاسمين التماعًا في تاريخ الطب الهندي اسم "فاجبهاتا" (625م) الذي أعد موسوعة طبية نثرًا ونظمًا، ثم اسم "بهافامِسْرًا" (1550م) الذي وصف الزئبق علاجًا لذلك المرض الجديد- مرض الزهري- الذي كان من عهد قريب مع البرتغاليين، جزءًا من التراث الذي خلّفته أوربا للهند2.

وصف "سوشوترا" كثيرًا من العمليات الجراحية- الماء في العين، والفتق، وإخراج الحصاة من المثانة، وبقْر الأمهات عن الأجنة وغير ذلك، كما ذكر (121) أداة من أدوات الجراحة منها المشارط والمسابير والملاقط ومناظير القُبُل والدُّبرُ، وعلى الرغم من تحريم البراهمة لتشريح جثث الموتى، جعل يدافع عن

1 ول ديورانت: قصة الحضارة 3/2 صـ 242.
2 السابق 243.

ضرورة ذلك في تدريب الجراحين؛ وكان أول من رقَّع أذنًا جريحة بقطع من الجلد اقتطعها من أجزاء أخرى من الجسم، وعنه وعن أتباعه من الهنود أخذ الطب الحديث عملية تقويم الأنف؛ ويقول "جارِسُنْ": "لقد أجرى قدماء الهنود كل العمليات الجراحية الكبرى تقريبًا، ما عدا عملية ربط الشرايين"1؛ فقد بتروا الأطراف، وأجروا الجراحات في البطن، وجبروا كسور العظام، وأزالوا البواسير؛ وقَعَّد "سوشوترا" القواعد الدقيقة لإجراء الجراحة، ويعد اقتراحه بتعقيم الجرح بالتبخير أول ما نعرفه من جهود في وسائل التطهير أثناء الجراحة(37)؛ ويذكر لنا "سوشوترا" و "شاراكا" كلاهما فوائد أنواع من الشراب الطبي في تخدير الجسم عند الألم، وحدث في سنة 927 م أن قام جراحان بتربنة الجمجمة لملك هندي، فخدره عن الجراحة بفعل عقار يسمى "ساموهيني"2 .

وأوصى "سوشوترا" بأن تُتَّبع في تشخيص الأمراض التي أحصى منها (1120)، طريقة النظر بالمنظار، وطريقتا جس النبض والتسمُّع بالأذن، وقد جاء وصف لجسّ النبض في رسالة تاريخها 1300م؛ وكان تحليل البول طريقة مستحسنة في تشخيص الأمراض؛ حتى لقد اشتهر أطباء التبت بقدرتهم على علاج أي مريض دون النظر في أي شيء يتعلق به ما عدا بوله؛ وكان العلاج الطبي في الهند في عهد يوان شوانج، يبدأ بصيام مداه سبعة أيام، وكثيرًا ما كان يشفى المريض في هذه الفترة، فإذا بقي المريض لجؤوا بعدئذ إلى استخدام العقاقير، لكنهم لم يكونوا يسرفون في استخدامها حتى في أمثال هذه الحالات؛ إذ كان معظم اعتمادهم على تدبير الطعام الملائم، والاستحمام والحقن الشرجية، والاستنشاق، والحقن في مجاري البول، وإخراج الدم بدود العلق أو بالكؤوس.

وقد كان لأطباء الهنود شهرة خاصة في تكوين ترياقات السموم، ولقد عرفت الهند التطعيم منذ سنة 550 م، مع أن أوربا لم تعرفه إلا في القرن الثامن عشر، ذلك لو حكمنا من نص يُعزَى إلى "ذانوانتاري" وهو طبيب من أقدم أطباء الهنود، وهذا هو: "خذ السائل من البثور التي تراها على ضرع البقرة ... خُذْه على سنان المشرط، ثم طعِّم به الأذرع بين الأكتاف والمرافق، حتى يظهر الدم؛ عندئذٍ يختلط السائل بالدم فتنشأ عن اختلاطه حمى الجدري"3.

ومن اللافت للنظر أن كثيرًا من قوانين الصحة التي أوصى بها "سوشوترا" و "مانو" تُسلِّم تسليمًا– فيما يظهر– بما نسميه نحن بنظرية المرض عن طريق الجراثيم؛ ويبدو لنا أنَّ التنويم كوسيلة للعلاج قد نشأ عند الهنود الذين كثيرًا ما كونا ينقلون مرضاهم إلى المعابد لمعالجتهم بالإيحاء التنويمي، أو "نعاس المعبد" كما كان يحدث في مصر واليونان. أمَّا الأطباء الإنجليز الذين أدخلوا طريقة العلاج بالتنويم في إنجلترا– وهم

1 السابق نفسه.

2 أقيمت المستشفيات في سيلان منذ 427 ق.م ، وفي شمال الهند منذ 226 ق.م.

3 ول ديورانت : قصة الحضارة 3/2 ص 244

"بريد" و"ازديل" و"اليوتسُن" "فلاشك في أنَّ ما أوحى لهم بآرائهم تلك، وببعض خبرتهم، هو اتصالهم بالهند"[1].

وقد تطور الطب الهندي بصفة عامة تطورًا سريعًا في العهدين الفيدي والبوذي، ثم أعقب ذلك قرونٌ سار فيه التقدم بخطواتِ الوئيد الحذر؛ ولسنا ندري كم يدين "أتريا" و"ذانوانتاري" و"سوشوترا" لليونان!! وكم تدين اليونان لهم!! يقول "جارسن": إنه في أيام الإسكندر "كان لأطباء الهنود وجراحيهم شهرة – هم جديرون بها – بما يتميزون به من تفوُّق في العلم والمهارة في العمل"، وحتى أرسطو نفسه – في رأي طائفة من الباحثين – مدين لهم وكذلك قل في الفرس والعرب، فمن العسير أن تقطع برأيٍ في مدى ما أخذه الطب الهندي من بغداد، ومن الطب البابلي في الشرق الأدنى عن طريق بغداد؛ فمن جهة ترى بعض طرائق العلاج مثل الأفيون والزئبق، وبعض وسائل الكشف عن حقيقة المرض مثل جس النبض، قد جاءت إلى الهند من فارس فيما يظهر، لكنَّك من جهة أخرى ترى الفرس قد ترجموا إلى لغتيهما في القرن الثامن الميلادي موسوعتي "سوشوترا" و "شراكا" اللتين كانتا قد مضى عليهما ألف عام، وينتهي "لورد آمِتهِل" إلى نتيجة هي أن أوربا الوسيطة والحديثة مدينة بعلمها الطبي للعرب بطريق مباشر، وللهند عن طريق العرب؛ ولعلَّ هذا العلم قد نشأ في بلاد مختلفة في وقت واحد تقريبًا، ثم جعل يتطور بما كان بين الأمم المتعاصرة في سومر ومصر والهند من صلات وتبادل فكري[2].

---

1 السابق نفسه .
2 السابق 245 .

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الحضارة المصرية

لا شك أن أي حضارة لا يستقيم بنائها عبثًا، ولا يمكن أن تكون راسخة شامخة إلا بأسس ودعائم قوية، وأن أساس أي حضارة هو ما توصلت إليه من علم في شتى مجالات الحياة المختلفة، ذلك العلم الـــذي بدأ بحاجة الإنسان البدائية للحياة، وتطور بإعمال عقله، ولا شك أن الحضارة المصرية القديمـــة أســـهمت إسهامًا كبيرًا في الحضارة الإنسانية لما توصلت إليه من اكتشافات ومخترعات، كما سنرى:

اختراع الكتابة:

يُعَدُّ أعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة، وسواء أكانوا هـــم أول من اخترعها، أم سبقهم في ذلك السومريون أو الصينيون فهذه مسألة موضع جدل ونظر، ولكنهم على أية حال اخترعوها مستقلين عن غيرهم، وينبغي ألا ننسى أن اختراعًا كهذا – بقطع النظر عـــن موضـــع ظهوره – لا يمكن تحديد زمنه بالضبط، لأنه لا يظهر دفعة واحدة، ولا في زمن معين، وإنَّ ذلك الاختـــراع بدأ في مصر في عصر ما قبل التاريخ، ويمكن أن يقال: إنه وصل إلى مرتبة من الكمال قبل نهاية ذلك العصر؛ لأن أقدم كتابة وصلت إلينا ترجع إلى عصر الدولة القديمة.

ونستطيع أن نفترض أن المصريين بدءوا الكتابة باستعمال صور للتدليل على الأشياء أو الأفكار لا الكلمات، ثم أصبحت هذه الصور تدريجيًا – وبمضي الزمن – مصطلحاتٍ مبسَّطة ومقعَّدة مرتبطة في النهاية بكلمات منطوقة، وبذلك أصبحت كل صورة لا تمثل فكرة فحسب، بل كلمة معينة من كلمـــات اللغـــة المصرية، وربما يحدث فيما بعد أن تذهب الفكرة الأصلية وتحتفظ الصورة بقيمتها الصوتية، وأن يحـــدث أن يستعملوها، بل استعملوها فعلاً في كتابة كلمات ذات أصول واحدة، وبخاصة في كلمات أسماء الأشخاص، أو الكلمات ذات الدلالة المعنوية التي لا يمكن تأديتها عن طريق التصوير، وبمرور الزمن تقـــدم المصـــريون خطوة أخرى، حين استعملوا بعض الرموز للدلالة على العلامات الساكنة الأولى في الصـــوتيات، وهكـــذا صار لديهم – زمن الدولة القديمة – مجموعة عِدَّتها أربع وعشرون علامة هجائية، و لم تزد عن هذا العـــدد فيما بعد1.

1 جورج سارتون : تاريخ العلم 1/ 76

اكتشاف ورق البردي:

بلغ اختراع الكتابة قيمته الاجتماعية عن طريق اختراع آخر، وهو إيجاد مادة صالحة للكتابة، مع سهولة الحصول على هذه المادة بثمن في متناول الأيدي، ومن الواضح أنه طالما ظلَّت الكتابة مقصورة على النقش على الحجر (كما كانت الحال على ما يبدو في بلاد اليونان لعدة قرون)؛ فإن مجالها ينحصر في كتابة الوثائق ذات الأهمية البارزة، أمّا الإنتاج الأدبي فيكون طويلاً لدرجة أنه لا يمكن نقشه على الحجر أو المعدن، ولا بُدَّ من مادة أرخص لحفظه عن طريق تدوينه بالكتابة.

وقد تغلَّب المصريون القدماء على تلك المشكلة الأساسية بطريقة رائعة، فقد اكتشفوا طريقة لاستخدام ورق البردي في الكتابة، وهو مادة صالحة جدًا للكتابة، صنعها المصريون من لُبِّ السيقان الطويلة لنبات البردي الذي كان يكثر في مستنقعات الدلتا، وكان اللُّب يُقطَّع إلى شرائح طويلة توضع متعارضة في طبقتين أو ثلاث، ثم تُبلَّل بالماء، ثم تضغط وتصقل، ولم يكن الأمر يكلفهم أكثر من جمع نبات البردي كثير الانتشار، أمّا صنعه ورقًا فكان هينًا للغاية.

غير أن كل اختراع يتطلب اختراعاتٍ أخرى مكمِّلة له، فلا يكفي أن يكون لدينا شيء في متناول اليد لنكتب عليه، بل يجب أن يكون لدينا أيضًا أدوات الكتابة نفسها، وقد استعمل المصريون في الكتابة أنواعًا مختلفة من الألوان ليكتبوا بها على ورق البردي بفرشاة دقيقة صُنِعَت من السمار الرقيق الذي وجدوه في نفس المواضع المائية مع نبات البردي.

ومن الواضح أن ورق البردي تفوق على غيره من المواد التي استعملها المصريون للكتابة في أي زمن من الأزمنة (مثل: العظام والفخار والعاج والجلد والكتان)، على أن ناحية من نواحي هذا التفوق لم تتضح لأول وهلة، مع أنها في نظرنا أهم هذه النواحي، وهي أن الأخبار المكتوبة على العظام أو الجلد أو غيرهما من المواد تظل قطعًا غير متصلة، لا يمكن الاحتفاظ بها مجموعة مدى قرون من الزمن، أما العباقرة مخترعو ورق البردي، فبعد أن صنعوا منه صفحات منفصلة لم يلبثوا أن أدركوا أنه يمكن لصق كثير من هذه الصفحات بعضها إلى بعض الواحدة ذيل الأخرى وبذلك أمكنهم عمل درج – وهو في اللاتينية فليومن volumen ، ومنه اشتُقَّت كلمة فليوم volume في اللغات الأوروبية الحديثة – ليحتوي على نصٍّ مهما بلغ طوله، ويحفظه حفظًا تامًا في ترتيبه الخاص، واختلف عرض الدرج من ثلاثة أقدام إلى ثمانيةَ عشرَ قدمًا، وأما الطول فيتوقف على النص الذي يحتويه، وأطول بردية معروفة هي التي تسمَّى هاريس رقم 1 (بالمتحف البريطاني

رقم 9999)، ويبلغ قياسها 133 قدمًا × 16 قدمًا[1]، وبفضل اختراع الدرج وصل إلينا كثير من النصوص القديمة كاملاً[2].

الفلك:

ترجع معرفة المصريين بالنجوم إلى أبعد عصر من عصور ما قبل التاريخ، وليس في هذا ما يدعو إلى العجب؛ لأن جوَّ مصر الصافي ولطافة طقسها المنعش أثناء الليل، حدا بالناس إلى التأمل في حركات الأجرام السماوية، ولا بد أنهم لاحظوا أن النجوم موزعة توزيعًا غير متساوٍ، وأنها مجموعات (أو أبراج) ذات أشكال معينة، وتسهيلاً للرجوع إلى هذه المجموعات قسَّموا منطقة واسعة على طول خط الاستواء إلى ستة وثلاثين قسمًا يشمل كل منها أسطعَ النجوم والمجموعات (أو أجزائها)، مما يمكن رصد ظهوره كل عشرة أيام متعاقبة (وهو ما يُسَمّى: ديكان)، ولدينا جداول قديمة لهذه الأقسام، والنجوم الخاصة بكل منها[3].

ومن المعروف أن أهم حدث في الحياة المصرية هو الفيضان السنوي للنيل، إذ يتوقف عليه رخاء الفلاح أو ضنكه (في الفيضان المنخفض)، واتفق ذلك الحدث تمامًا (أو تقريبًا لأنه انتظامه لم يكن دائمًا) مع شروق الشِّعرَى إليمانية، وهي أكثر النجوم تألقًا في السماء.

وقبل ذلك حاول المصريون حساب الزمن بواسطة القمر، ولكنهم سرعان ما انتقلوا عنها إلى التقويم الشمسي؛ فغدت السنة عندهم أولاً مقسمة إلى اثني عشرَ شهرًا، وكل شهر منها ثلاثة ديَاكين)، وساوت السنة ستة وثلاثين ديكانًا، ولكنهم سرعان ما أضافوا إليها خمسة أيامٍ أعيادًا[4].

العمارة والهندسة:

الأهرام معروفة لكل إنسان، وهي لذلك غنية عن التعريف، ولكنَّ القارىء العادي لا يفكر إلا في أهرام الجيزة الثلاثة وهي أكبر الأهرام، ولكنَّها ليست كل ما هنالك منها، ولا هي أقدمها، أمّا أقدم هرم فهو ما بُني للملك زوسر من الأسرة الثالثة (في القرن الثلاثين قبل الميلاد)، وهو المعروف باسم الهرم المدرَّج بسقارة (قرب العاصمة القديمة منف جنوبي القاهرة)، ويبلغ ارتفاع هذا الهرم حوإلى مائتي قدم، أما الهرم الأكبر، وهو أضخم الأهرام الثلاثة بالجيزة، فكان بناؤه بعد ذلك بقرن من الزمن للملك خوفو من الأسرة الرابعة، وهو أضخم بناء من العصور القديمة، ومن أضخم ما شيَّد الإنسان على الإطلاق، إذ يبلغ طول كل جانب من جوانبه حوإلى 775 قدمًا، وارتفاعه عندما كان كاملاً 480 قدمًا وهذه الأهرام التي

---

1 عُثِرَ عليها عام 1855م بالقرب من معبد " الدير البحري "، وقد وصلت إلي يد أحد تجار الآثار في نفس الوقت، واشتراها منه في العام نفسه المستر "هاريس" الإنجليزي الأصل، و أول مذكرة كُتِبت عن هذه الورقة كانت عام 1858م.

2 جورج سارتون: تاريخ العلم 1 /81.

3 السابق 85.

4 سارتون: تاريخ العلم 88/1.

شيدت لإيواء القبور الملكية وحفظها وصيانتها بُنيَت من الحجر الجيري كتلة فوق كتلة، ما عدا الحجـــرات الجنائزية والممرَّات المتعرِّجة التي تؤدي إليها. وتثير إقامة هذه الأبنية الضخمة منذ تسعة وأربعين قرنًا مضت معضلاتٍ فنيةً متعددة لم يتضح كثيرٌ منها حتى الآن؛ فلا يزال مما يحير الفكر مثلاً: كيف تمكن المعمـــاريون أيام خوفو من ابتكار تصميم لهذا البناء، وكيف تمكَّنت رعيته من إقامته؟ ذلك أن أدواهم الهندسية، بالغة ما بلغت من التقدم بالقياس إلى أدوات الشعوب القديمة – كانت درجاتٍ كثيرةً دون أدواتنا – والواقـــع أن الأهرام بالجيزة عجيبة جدًا لدرجة أن بعض العلماء الذين حاولوا كشف أسرارها وقعوا فريسةً لنوع مـــن الجنون، فنسبوا إلى بنائيها القدماء قدراتٍ سحريةً وميتافيزيقية.

وقد فسَّر بعض المستخِفِّين بمجهودات بناة الأهرام معجزة البناء هذه؛ بقولهم: "استخدم المصريون آلافًا كثيرة من الرجال لمدة طويلة من الزمن، فأحلُّوا القوة البشرية محلَّ القوة الإلية بأعداد لا تنتـــهي مـــن العمال"، ولا ريب أهم استخدموا آلافًا كثيرة من العمال، ولكن هذا لا يفسر المعجزات المعمارية والفنيـــة، بل يضيف إليها معجزاتٍ بشرية تشبهها في صعوبة تفسيرها؛ ذلك أنه من السهل أن نتحدث عن حشد 30 ألف رجلٍ، للقيام معًا بعمل شاق، ولكن كيف حدث ذلك بالضبط؟ إنَّ عدد الرجال الذين يمكن حشدهم للإفادة منهم في عمل معين في مكان محدود يتطلب أن يكون عددًا محدودًا، ومع التسليم بأن من المستطاع أن نستخدم عددًا كبيرًا – عشرات الآلاف مثلاً – من العمال معًا في وقت واحد؛ فإن الإشراف على مثل هذه العدد من العمّال يحتاج إلى مهارة كبيرة وتدبير، كما أن إطعامها من جوع، وسدَّ حاجاها الأخـــرى يستلزم خبرة إدارية، ومهارة بالغة في شئون التموين، وسواء أكانت القوة اللازمة لعمـــلٍ مـــن الأعمـــال مستوردةً من محركٍ مكني أم من كتلة بشرية، فإنَّ ترتيب هذا العمل وتنفيذه يتطلب معرفة وذكاء وتنســـيقًا بين العمل والعمال[1].

الرياضيات:

تتضمن الأعمال المعمارية والهندسية في مصر قدرًا كبيرًا من المعرفة بالحساب والهندسة، وأول ذلك أهم كانوا في حاجة ضرورية لمعرفة الطرق البسيطة لإجراء الحسابات المعقدة، وقد استطاعوا سدَّ مثل هذه الحاجة منذ القدم، فهناك صولجان ملكي بمتحف (الأشموليان) بأكسفورد يرجع تاريخه إلى عهد الملك نارمر[2] قبل الأسرة الأولى (أي عام 3400ق.م)، يسجِّل الاستيلاء على 120 ألف أسير، و400 ألـــف ثـــور، و1.422.000 من الماعز، وهذه لا شك أعداد كبيرة منقوشة بطريقة قريبة إلى حدٍّ ما من طريقة الأعداد الرومانية، لوجود رموز تحيل المليون لأرقام عشرية يمكن تكرارها عدة مرات حسب العدد المطلوب، وعلى العموم كتب المصريون أكبر الوحدات أولاً، ثم أعقبوها بالوحدات الأخرى حسب أهميتها.

1 سارتون : تاريخ العلم 90/1.

2 موحد مصر في القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد، ومؤسس الأسرة الفرعونية الأولى.

أما الحاجة إلى الهندسة فواضحة حتى في بناء آثار بسيطة في مظهرها الخارجي كـالأهرام، وهـذه تعود بنا إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد، ذلك أنه تحتَّم على بناة الأهرام أن يقطعوا كتل الحجر الجيري علـى مقاسات مضبوطة قبل وضعها على مواضعها المطلوبة، وأكبر هذه الكتل هي التي رتبت ترتيبًا معقدًا فـوق المقبرة الملكية بمثابة دعامات لتحويل الضغط عن سقفها، ويوجد من هذه الدعامات 56 دعامـة لسـقف المقبرة الملكية في الهرم الأكبر، يبلغ متوسط وزنها 54 طنًا، وبلغت الدقة التي رُوعِيَت في بناء ذلك الهـرم (خوفو- الأسرة الرابعة) درجة لا يمكن تصديقها1.

ويدل قطع الأحجار التي تطلب تركيبها بعضها إلى بعض معرفة بالهندسة وقياس الأحجار (وسنرى الآن كيف ذهب المصريون بعيدًا في هذا المضمار). ومع أنه من المستطاع أن تقول في اطمئنان بوجود أجهزة رياضية كافية نوعًا ما لدى بناة الأهرام، وأنه لم يكن في الإمكان أن ينهضوا بالجانب العلمي من عملـهم بدون هذه الأجهزة، فلا توجد لدينا نصوص رياضية من الدولة القديمة ولا غيرها قبل الأسرة الثانية عشـرة (2000 – 1788 ق.م) مع احتمال إرجاع أهم نصين من النصوص المتأخرة التي وصلت إلينا إلى تلـك الأسرة نفسها2.

الطب:

لا حاجة إلى التأكيد بقدم الطب المصري، ففي كل حضارة من الحضارات يتطور الطب مبكـرًا، لأن الحاجة إليه عامة ملحة دائمًا، بحيث لا يمكن إغفالها في أية بقعة من بقاع الأرض، وليس هناك من شك أن المصريين مارسوا نوعًا من الطب منذ أبعد العصور ما قبل التاريخ، أي قبل الميلاد بعدة آلاف من السنين، مثال ذلك أنَّ استعمال الملاخيت كحلاً وطلاءً للعين يرجـع إلى عصـر البـداري (4500 ق.م)، وأن استعمال الجالينا (خام الرصاص) لأغراض مشابهة جاء بعد ذلك في عصور ما قبل الأسرات أيضًا، وكـان الختان طقسًا من طقوس المصريين منذ عصر سحيق، دلَّت عليه آثاره في الجثث التي استُخرِجَت من مقـابر عصر ما قبل التاريخ (أي منذ عام 4000 ق.م) وفي مقبرة مـن الأسـرة السادسـة (حـوإلى 2625-2475ق.م).

وأقدم طبيب معروف باسمه هو إيمحتب وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة في القرن الثلاثين قبل الميلاد، وكان إيمحتب رجلاً عالمًا وفلكيًا وطبيبًا ومهندسًا معماريًا، وصار إيمحتب في العصور التاليـة معبودًا عند المصريين، باعتباره بطلاً وطبيبًا منزهًا عن كل شائبة، ثم عبدوه بعد ذلك باعتباره إلهًا للطـب. ونحن لا نعرف إلا نزرًا يسيرًا عن مدى معرفة إيمحتب بالطب، غير أنَّ رفعه إلى مقام الإله ينطـوي معـان واضحة، تجعلنا مطمئنين إلى تقدير المصريين له بأنه أول رجل عظيم في الطب.

1 السابق 98.
2 سارتون: تاريخ العلم 99/1.

و لم يقتصر الأمر في عصر الأهرام على وجود كثير من الأطباء فحسب، بل تعداه إلى وجود أخصائيين بينهم في بعض فروع الطب، وتظهر مهارة أحد أطباء الأسنان الأوليين في فك سفلي وجد في مقبرة من الأسرة الرابعة، (2900- 2750) أجريت فيه عملية لتصريف الإفرازات من خراج تحت الضرس الطاحن الأول، ويتضح من اللوحة الجنائزية الخاصة بالطبيب (غيري)، وهو رئيس أطباء أحد فراعنة الأسرة السادسة (2625- 2475) أنه كان أيضًا "طبيب العيون بالقصر" والطبيب الباطني للقصر" وأنه كان يلقب بألقاب منها "العارف بالإفرازات الباطنية" و"حارس الدير"1.

ثم نرتفع في مصر من هذه الأعماق إلى الأطباء العظام والجراحين والأخصائيين الذين ساروا في صناعة الطب على قانون أخلاقي ظل يُتَوَارث جيلاً بعد جيل حتى وصل إلى القَسَم الذائع الصيت: قسم أبقراط الذي انتقل إليهم من الحضارة اليونانية. وكان من المصريين أخصائيون في التوليد وفي أمراض النساء؛ ومنهم من لم يكن يعالج إلا اضطرابات المعدة، ومنهم أطباء العيون. وقد بلغ من شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحدًا منهم إلى بلاد الفرس. أولئك هم الأخصائيون، أما غير الأخصائيين منهم فقد تُرِكَ لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس؛ وكان من عملهم فوق هذا أن يحضِّروا أدهان الوجه، وصبغات الشعر، وتجميل الجلد، وأعضاء الجسم، ومبيدات البراغيث.

وقد وصلت إلينا عدة برديات تبحث في الشئون الطبية. وأعظمها قيمة بردية أدون سميث، وسميت كذلك نسبة إلى مستكشفها وهي ملف طوله خمسة عشر قدمًا، ويرجع تاريخها إلى عام 1600 ق. م تقريبًا وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيرًا . وحتى لو ضربنا صفحًا عن هذه المراجع الأولى لظلت هذه البردية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة في التاريخ وهي تصف ثماني وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف من كسر في الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكي، وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثًا دقيقًا في نظام منطقي في عناوين مرتبة من تشخيص ابتدائي مؤقت، وفحص، وبحث في الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة، وتشخيص العلة، والاستدلال بأعراضها على عواقبها وطريقة علاجها، ثم تعليقات على سطح المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها. ويشير المؤلف في وضوح لا نجد له مثيلاً قبل القرن الثامن عشر الميلادي إلى أن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن في المخ.

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من الأقراباذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها. ففي بردية إيبرز ثَبْتٌ بأسماء سبعمائة دواء لكل الأدواء المعروفة، من عضة الأفعى إلى حُمَّى النِّفاس2. وتصف بردية كاهون (ويرجع عهدها إلى حوالي عام 1850 ق.م) أقماع اللبوس، ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل. وقد عُثِرَ في قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوي على

1 ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول، الجزء الثاني 130.

2 هي حدوث ارتفاع في درجة الحرارة في خلال أربعين يوما من الولادة.

مزهريات، وملاعق، وعقاقير جافة، وجذور. وقد انتقلت بعض هذه الوسائل العلاجية مـــن المصـــريين إلى اليونان، ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان، ومن الرومان إلى العالم بعد ذلك ولا نزال إلى اليوم نتجـــرع في ثقة واطمئنان كثيرًا من الأدوية التي خلطها وجهَّزها لنا المصريون على شاطئ النيل في أقدم الأزمان. 1

ولقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتِّباع الوسائل الصحية العامـــة، وبختـــان الذكور، وبتعويد الناس أن يُكثِرُوا من استخدام الحقن الشرجية. ويقول ديودور الصقلي في هـــذا المعـــنى: "وهم يتَّقون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام الملِّينات وبالصوم وبالمقيئات، كل يوم في بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة في البعض الآخر؛ وذلك لأنهم يقولون: إن الجزء الأكبر مما يخـــلُّ بالجسم من طعام يزيد على حاجته، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد"2.

ويعتقد (بليني) أن المصريين قد تعلَّموا عادةً استخدام الحقن الشرجية من الطائر المعـــروف "بـــأبي منجل" وهو طائر يقاوم الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من الطعام بإدخال منقاره الطويـــل في دبـــره واستخدامه كالمحقن. ويروي هيرودوت أن المصريين كانوا "يطهرون أجسامهم مرة في كل شهر ثلاثة أيـــام متوالية، ويعملون على حفظ صحتهم بالمقيِّئات والحقن الشرجية، لأنهم يظنون أن جميع ما يصيب الناس من الأمراض إنما ينشأ مما يأكلون من الطعام"3. وهذا المؤرخ- وهو أول مؤرخ للحضارة- يصف المصريين بأنهم بعد اللوبيين4 أصح شعوب العالم أجسامًا.

التحنيط:

ومن الأمور التي تميزت بها الحضارة المصرية إيمانها بفكرة الحياة بعد الموت، تلك التي دفعت أفرادها إلى التفكير بطريقة يحافظون بها على جسم الإنسان بعد موته، تمهيدًا لانتقاله إلى هذا العالم الآخـــر، الـــذي كان في معتقدهم عالم إله الموت(أوزوريس) .

وكانوا يدرسون التفاصيل المادية لجسم الإنسان أثناء حياته، ويحاولوا أن يحتفظوا بها بعد موته، بما يكفل عدم تحللها، وانصب اهتمامهم الأساسي على الجسد، كيف يحفظونه، وذلك من خلال التحنيط الذي كان يقوم به الكهنة والأطباء أو الفيزيائيين في أماكن خاصة وفقًا للطقوس الدينية الجوهرية الخاصة بالدفن.

واتبعوا للتحنيط أسلوبًا علميًا دقيقًا، يتلخص في تفريغ جسم الإنسان مما فيه باســـتخدام بعـــض الأدوات في ذلك، فكانوا يفرغون الصدر،ويغسلوا الأحشاء، ويقوموا بحشوها بالبصل، ثم

---

1 ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول، الجزء الثاني،132 وما بعدها.

2 السابق نفسه.

3 انظر ول ديورانت : قصة الحضارة 2/1 صـــ 135.

4 أقوام بدائيون لا حضارة لهم، عاشوا في أفريقيا.

يلفون الجسم بلفافات كتانية تُسرِع في تجفيف الجسم، كما يفرغون الدماغ من الأنف، ويضمدون الجسم بعناية، كل عضو على حدة، وتوضع الأصابع والأكف والأقدام والأرجل والأذرع متقاطعة على الصدر، الجسم يغطى بضمادات طويلة جدًا جدًا من الكتان المغطسة بمادة صمغية التي تحمي الجسم من الصدمات ولا تسمح للبكتريا بالدخول للجسم.

و بفضل تلك الطريقة العلمية المبتكرة والفريدة جدًا تمكنَّا من الوصول إلى عدد من الجثث المحنطة للعديد من الأسر الفرعونية القديمة.

وهكذا كان العلم، والتفكير العلمي سبيل قدماء المصريين إلى تلك النهضة العظيمة، التي لا تزال آثارها باقية حتى يومنا هذا.

المبحث السادس: دور العلم في بناء الحضارة اليونانية

عُرِفَ اليونان بالتقدم العلمي مبكرًا في تاريخ الحضارة الإنسانية، إذ يذكر (ول ديورانت) في قصة الحضارة أن العصر الذهبي للحضارة القديمة كان عند"اليونان"، حيث ظهر النشاط الثقافي في ثلاثة أشكال رئيسية هي الفن، والتمثيل، والفلسفة، ويذكر أن الفلاسفة كانوا يخشون مهاجمة العقائد الدينية للشعب مهاجمة صريحة، ونشط فيهم علماء كثيرون، وكان عصر (بركليز) تحديدًا هو عصر النهضة البارزة علميًا على مختلف مجالات العلوم1.

علم الحساب والهندسة:

يكاد علم الحساب المتداول بين جمهرة اليونان قبل عصر بركليز أن يكون علمًا بدائيًا لم يدخل عليه إلا القليل من الصقل والتهذيب، فكان يُرْمَز لرقم 1 بشرطة عمودية ولرقم 2 بشرطتين، وبثلاث شُرَط لرقم 3 وبأربع لرقم 4، وكانت الأعداد 5، 10، 100، 1000، 10,000 يرمز لها بالحروف الأولى من الكلمات اليونانية التي تُسمَّى بها هذه الأعداد وهي: بنتي Pente، وديكا Deka، وهكتون Hekaton، وكليوي Chilioi، ومريوي Myrioi. ولم يضع علماء الحساب اليونان رمزًا للصفر. ومما يدل على أن علم الحساب اليوناني مصدره بلاد الشرق أنه أخذ عن المصريين النظام العشري فقد كان اليونان يَعدُّون بالعشرات، وأخذ عن البابليين في علمي الفلك وتقويم البلدان الطريقة الاثني عشرية والسِّتِّينية؛ فكانوا يعدون في هذين العلمين بالاثني عشرات والستينات2.

أمّا الهندسة النظرية، فكانت من الدراسات المحبَّبة إلى الفلاسفة، ولم تكن تُدرَس لفائدتها العملية بقدر ما كانت تدرس لفائدتها الذهنية النظرية وما فيها من استدلال منطقي خلاّب، وما فيها من دقة ووضوح، وتفكير متتابع ينبني بعضه على بعض. كذلك كانت دراسات الفيثاغوريين للقطع المكافئ، والقطع الزائد، والقطع الناقص هي التي مهدت السبيل إلى مؤلّف (أبولونيوس البرجي) Appolonius of Perga في القطاعات المخروطية، وهو المؤلف الذي كان عظيم الشأن في تاريخ العلوم الرياضية. وفي عام 440 ق.م. نشر أبقراط الطشيوزي (وهو غير أبقراط الطبيب) أول كتاب معروف في الهندسة النظرية وحل مشكلة تربيع المساحة الكائنة بين قوسين متقاطعين . وفي عام 420ق.م أفلح هيبياس الإليائي Hippias of Elia في تقسيم الزاوية ثلاثة أقسام متساوية بالاستعانة بالمنحنى.

---

1 ول ديورانت: قصة الحضارة 1/4 صـ 174.

2 السابق : 175.

وملاك القول أن براعة اليونان في الهندسة قد بلغت من العظمة ما بلغه ضَعفهم في الحساب. وكان للهندسة شأن عظيم في جميع نواحي نشاطهم، وحتى فنونهم نفسها قد تدخلت فيها فوضعت أشكالاً كثيرة للحلي المنقوشة على خزفهم وأبنيتهم1.

علم الفلك:

وكان هذا العلم قد خطا خطوته الأولى في بلاد اليونان حين أعلن (أنبادوقليس) في (أكرجاس) أن الضوء يستغرق بعض الوقت في انتقاله من نقطة إلى أخرى. ثم خطا خطوةً ثانية حين أعلن (بارمنيــدس) في (إيليا) Elea أن الأرض كروية الشكل، ثم قسَّم هذا الكوكب الأرضي إلى خمس مناطق، وعرف أن القمر يواجه الشمس بجزئه المنير على الدوام. ثم قام (فيلولوس) Philolaus الفيثاغوري في طيبة فخلــع الأرض عن عرشها في مركز الكون وأنزلها منزلة كوكب من الكواكب الكثيرة التي تطوف حول "نار تتوســطها" جميعًا. وجاء (لوقيبوس) Leucippus تلميذ فيلولوس فقال: إن النجوم قد نشأت من الاحتراق المتوهج لمواد "تندفع في مجرى الحركة العالمية للدوامة الدائرية" ومن تجمع هذه المواد وتركزها. وقــام في (أبــدرا) (دمقريطس) تلميذ لوقيبوس بعد أن درس العلوم البابلية، فوصف المجرة بأنها مكونة من عدد لا يحصى مــن النجوم الصغرى، ولخص التاريخ الفلكي بقوله: "إنه تصادم دوري وتحطيم لعدد لا يحصى مــن العــوالم". وجملة القول أن القرن الخامس كان في جميع المستعمرات اليونانية عصر تطور علمي عجيب في زمن يكــاد يكون خلوًا من الآلات العلمية2.

الطب.. وأبقراط:

لقد كان أهم الحوادث في تاريخ العلوم اليونانية في عصر (بركليز) نهضة الطب القائم على العقل لا على الخرافة؛ ذلك أن الطب اليوناني قبل ذلك الوقت حتى في القرن الخامس نفسه كان وثيــق الارتبــاط بالدين إلى حد كبير، وكان كهنة هيكل أسكلبيوس Asclepius لا يزالون يقومون بعــلاج المرضــى. وكان العلاج في هذا الهيكل يقوم على خليط من الأدوية التجريبية، والطقوس المــؤثرة الرهيبــة، والرُّقــى السحرية التي تؤثر في خيال المريض وتطلقه من عقاله، وليس ببعيد أنهم كانوا يلجأون أيضًــا إلى التنــويم المغناطيسي وإلى بعض المخدرات. وكان الطب الدنيوي ينافس الطب الديني ويحاول أن يتغلب عليه. وكان أنصار هذا وذاك يعزون منشأ علمهم إلى أسكلبيوس، ولكن الأسكلبيسيين غير الدينيين كــانوا يرفضــون الاستعانة بالدين في عملهم، ولا يدَّعون أنهم يعالجون المرضى بالمعجزات، وقد أفلحوا شيئًا فشيئًا في إقامــة الطب على قواعد العقل3.

---

1 ول ديورانت: قصة الحضارة 1/4 صـ 177

2 السابق نفسه 178

3 ول ديورانت: قصة الحضارة 1/4 ص 184 ..

وتطور الطب الدنيوي في بلاد اليونان أثناء القرن الخامس في أربع مدارس كبرى: في كوس ونيدس من مدن آسية الصغرى، وفي كرتونا بإيطاليا، وفي صقلية. وفي أكرجاس اقتسم أنبادوقليس مفاخر الطب مع أكرون Acron الطبيب المفكر المنطقي. وقد وصلت إلينا أنباء مدونة ترجع إلى عام 520 عن طبيب يدعى (دِمُسِديز) Democedes وُلِدَ في (كرتونا)، ومارس مهنة الطب في إيجينا، وساموس، وسوسة. وفي كرتونا أيضًا خرَّجت المدرسة الفيثاغورية أوسع أطباء اليونان شهرةً قبل أبقراط، ونعني به (ألقميون) Alcmaeon الذي يُلقِّبونه: الأب الحق للطب اليوناني. ولكنه لم يكن في واقع الأمر إلا اسمًا متأخرًا في ثبت طويل من أسماء الأطباء غير الدينيين ضاعت أسماؤهم فيما وراء أفق التاريخ، وقد نشر هذا الطبيب في أوائل القرن الخامس كتابًا في الطبيعة Peri Physeos- وكان ذلك هو العنوان المألوف في بلاد اليونان لأي بحث عام في العلوم الطبيعية، ومبلغ علمنا أنه كان أول من حدَّد من اليونان موضع العصب البصري وقناة إستاكيوس، وشرَّح الحيوانات، وفسَّر فلسفة النوم، وقرَّر أن المخ هو العضو الرئيسي في عملية التفكير، وعرَّف الصحة تعريفًا فيثاغوريًا فقال: إنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة. وكان أكبر رجال الطب في نيدس هو يوريفرون Euryphron الذي كتب في الطب خلاصة موجزة تعرف باسم الجمل النيدية Cnidian Sentences، وقال عن التهاب البلورا: إنه مرض من أمراض الرئتين، وإن الإمساك منشأ الكثير من الأمراض، وذاع صيته لنجاحه في عمليات التوليد.

ويبدو أبقراط، كما تراه في سيرته الموجزة التي كتبها سويداس Suidas، أعظم أطباء زمانه بلا منازع. وقد وُلِدَ في جزيرة كوس في السنة التي ولد فيها دمقريطس، وأصبح الرجلان صديقين حميمين بالرغم من بُعْدِ موطنيهما، ولربما كان "للفيلسوف الضاحك" نصيب في توجيه الطب وِجْهَة دنيوية. وكان أبقراط ابن طبيب، وقد نشأ ومارس صناعته بين آلاف المرضى والسياح الذين وفدوا على كوس "لأخذ الماء من عيونها الساخنة". ووضع له معلمه هيرودكس السلمبري Herodicus of Selymbria الأساس الذي بنى عليه فنَّه بتعويده الاعتماد على نظام التغذية وعلى الرياضة الجسمية أكثر من اعتماده على الأدوية. وذاعت شهرة أبقراط حتى كان من بين مرضاه حكام مثل بردكاس Percdiccas ملك مقدونيا، وأردشير الأول ملك الفرس، وفي عام 430 ق.م. استدعته أثينا ليحاول وقف انتشار الطاعون فيها[1].

وليس في كل ما كُتِبَ في الطب، وفي كل ما يمكن أن يكتب فيه ما هو أكثر تنوعًا من مجموعة الرسائل التي كانت تُعزَى في القديم إلى أبقراط؛ ففيها كتب مدرسية للأطباء، ونصائح لغير رجال الطب، ومحاضرات للطلبة، وتقريرات، وبحوث، وملاحظات، وتسجيلات سريرية (إكلينيكية) لحالات طريفة، ومقالات كتبها سوفسطائيون ممن يهتمون بالناحيتين: العلمية والفلسفية في الطب. وكانت الاثنان والأربعون سجلاً سريريًا هي السجلات الوحيدة من نوعها في السبعة عشر قرنًا التي أعقبت ذلك العهد، وكانت أعلى الأمثلة في الأمانة باعترافها أن المرض أو العلاج قد أعقبه الموت في ستين في المائة من الحالات.

1 ول ديورانت : قصة الحضارة 1/4 صـ 185 ..

وأربعة لا أكثر من هذه المؤلَّفات هي التي انعقد إجماع المؤرخين على أنها من كتابات أبقراط؛ وهي "الحكم" و"الأدلة" و"تنظيم التغذية والعوائد في الأمراض الحادة"، ورسالته "في جروح الرأس"، أمّا ماعدا هذه الأربعة من المؤلَّفات المعزُوَّة إلى أبقراط فمن وضع مؤلِّفين مختلفين عاشوا في أوقات مختلفة بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد.

والتشخيص أضعف النقط في طب أبقراط. فقد يبدو أنه لم يكن يعنى بقياس النبض، وكانت الحمى تعرف باللمس البسيط كما كان الاستماع يحدث بالأذن مباشرة. وكان يؤمن بالعدوى في أحوال الجرب، والرمد، والسل. وفي كتابه عن (الجسم Corpus) صور إكلينيكية كثيرة للصرع، والتهاب الغدة النكفية الوبائي، وحمى النفاس، والحمى اليومية، وحمى الثلث، وحمى الربع. ولم يرد في المجموعة ذكر للجدري أو الحصباء، أو الخناق (الدفتريا) أو الحمى القرمزية أو الزهري، كما لم يرد فيه ذكر صريح للتيفود.

وتنزع رسائل "التنظيم" نحو الطب الوقائي بدعوتها إلى دراسة أحوال الداء في أول ظهوره – وهي محاولة لمعرفة أولى علامات المرض والقضاء عليه قبل أن يستفحل. وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب في الطب، ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة، وفي مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى، ويقول: إنَّ معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضى فيها إمّا عليها، وإمّا على المريض ذاته، وإنَّ تقديره الحسابي – الذي يكاد يبلغ في دقته الحساب الفيثاغوري – الذي يصل فيه المرض إلى أشد حالاته لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية.

ويقول أبقراط: إنَّ الطبيعة – أي قوى الجسم وبِنيته – هي أهم علاج لكل مرض أيًا كان نوعه، وإن كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلِّل أو يزيل العقبات القائمة في طريق هذين الطريقين الطبيعيين للشفاء؛ ولهذا فإنَّ الطريقة الأبقراطية لا تستخدم العقاقير في العلاج، وأكثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقي، والمقيئات، والأقماع، والحقن الشرجية، والحجامة، والإدماء (إسالة الدم)، والكمّادات، والمراهم، والتدليك، والمياه المعدنية. ومن أجل ذلك كان دستور الأدوية اليوناني جد صغير يتكون معظمه من المسَهِّلات. وكانت أمراض الجلد تُعالَج بالحمامات الكبريتية، وبالتدليك بدهن كبد الدلفين. ويسدي أبقراط للناس هذه النصيحة: "عِشْ عيشةً صحية؛ تنجُ من الأمراض إذا انتشر في البلد وباء أو أصابتك حادثة. وإذا مرضت ثم اتبعت نظامًا صالحًا في الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء". وكثيرًا ما كان يوصي بالصوم إذا سمحت بذلك قوة المريض لأنه "كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى". ويمكن القول بوجه عام إن "الإنسان يجب ألا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم إلا إذا كانت معدته شديدة الجفاف".

أما الجراحة فكانت لا تزال في معظم الأحوال عملاً لا يتخصص فيه الطلاب، ويشتغل به كبـــار الأطباء، وإن كان من الموظفين في الجيوش جراحون.

وجملة القول: إن العلوم اليونانية قد بلغت الدرجة التي ينتظر الإنسان أن يبلغها علم من العلوم من غير الاستعانة بآلات دقيقة للرصد والملاحظة، ومن غير التجارب العلمية[1].

1 ول ديورانت : قصة الحضارة 1/4 صـــ 194 .

الفصل الثاني: دور العلم في بناء الحضارة الإسلامية

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في بناء الخلافة في أيام عمر بن عبد العزيز

المبحث الثاني: دور العلم في بناء الخلافة صدر الدولة العباسية

المبحث الثالث: دور العلم في بناء الخلافة الأموية بالأندلس (عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم - قرطبة كمثال تطبيقي)

المبحث الرابع: دور العلم في بناء الدولة الزنكية والأيوبية (نور الدين محمود - صلاح الدين الأيوبي)

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الخلافة العثمانية

المبحث الأول: دور العلم في بناء الخلافة في أيام عمر بن عبد العزيز

كان قبسًا من نورٍ أضاء سماء الأمة الإسلامية في فترة من الفترات التي ضعفت فيها الهمم، وفترت فيها العزائم، فقيَّضه الله عزَّ وجلَّ للأمة ليكون مجدِّد دينها على رأس المائة الثانية، وقد كان !!

نشأته العلمية:

اختار "عبد العزيز" ـــ والد عمر ـــ صالح بن كيسان ليكون مربيًا لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تأديبه وتعليمه، وحبَّبه في العلم، وكان أبوه حريصًا على تقويمه، وتشجيعه على الجد والاجتهاد؛ يروي ابن كثير عنه أنه كان يلزم الصلوات المفروضة في المسجد منذ نعومة أظفاره، فتأخَّر مرة عن صلاة الجماعة، فسأله مؤدبه "صالح بن كيسان" عمّا أخره، فذكر له أن الخادمة كانت ترَجِّل له شعره، فقال له: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة، وكتب إلى والده في ذلك، فبعث أبوه له من يحلق رأسه1، هكذا كانت تربيته.

كما تأثر فيما بعد بشيوخ كبار مثل "عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود" الذي كان عمر يحترمه ويُجِلُّه كثيرًا، وأخذ عنه ونهل من علمه وأدبه، ولما تُوُفِّي والده ضمه إليه عمُّه "عبد الملك بن مروان" (الخليفة الفقيه)، مما دفعه إلى العلم دفعًا، وجعله يدرك ـــ منذ فترة مبكرة ـــ أن الحياة لا تقوم إلا بالعلم، وأن العلم "لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كُلَّك"..

وهكذا تربى عمر وتعلم على يد طائفة كبيرة من العلماء والفقهاء، بلغ عددهم ثلاثة وثلاثون عالمًا، فيهم ثمانية من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين2، نهل من علمهم وتأدب بأدبهم، ولازم مجالستهم حتى ظهرت آثار هذا العلم وهذه التربية على تصرفاته، فامتاز بشخصية علمية دقيقة...

حبه للعلم:

كان من توفيق الله جلَّ وعلا له أن حبَّب إليه العلم منذ نعومة أظفاره، فرحل في طلب العلم، وأطال الجلوس في حلقات الفقهاء، ومجالس المحدثين.. ومنذ كان وإليا للمدينة المنورة وهو حريص على تلقي العلم من الصحابة وكبار التابعين، يذكر أنه كان يكثر من مجالسة شيخه "عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة"، وكان من شيوخه أيضًا سعيد بن المسيب، الذي عُرِفَ عنه أنه كان لا يأتي أحدًا من الأمراء إلا عمر، وذلك لما عرفه عنه من حب للعلم، وتوقيره للعلماء، ولمكانته العلمية وما حصله فترة شبابه من علم

---

1 البداية والنهاية 678/12

2 مسند أمير المؤمنين عمر صـــ 34

جعله معلمًا لكثير من معاصريه، ومن شيوخه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان مجلس عمر ~ يضم نخبة من كبار العلماء يذكر الزهري (الإمام العالم) أنه كان مع "عمر بن عبد العزيز" في ليلة يتحادثان، فقال له عمر: "كل ما حدَّثته الليلة فقد سمعته، ولكنَّك حفظت ونسينا"[1]..

وهذا يبين رسوخ قدمه في طلب العلم، وكثرة سماعه، وسعة اطِّلاعه، حتى يصرِّح للإمام الزهري، بأنه سمع كلَّ ما حدَّث به...

ومن الدلائل الواضحة على سعة علمه:

أنه ما من كتاب من كتب السنة أو الفقه الاستدلالي، إلا وفيه ذكر لعمر بن عبد العزيز، من حديث أو رأي، أو أمر، أو قضاء، ونحو ذلك.

الاحتجاج لرأيهم بقوله وفعله، من ذلك الرسالة الشهيرة التي بعث فيها الليث بن سعد إلى الإمام مالك، وفيها يحتج الإمام الليث غير مرة لصحة قوله بقول عمر على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله.

كذلك يرد ذكره في كتب المذاهب الأربعة، على سبيل الاحتجاج به، حتى إن الحنفية جعلوا له وصفًا متميزًا به، وهو " عمر الصغير" تمييزًا له عن جده الفاروق عمر τ، والإمام مالك ذكره في "الموطأ" في زيادة على عشرين موضعًا، كما أنَّ أصحابه من بعده قد أكثروا من ذكر عمر في كتبهم، وكذلك فعل الشافعية، وأمّا الحنابلة فيكفي للدلالة على شأنه الكبير عندهم والاحتجاج بقوله، ما قاله إمام المذهب ~ تعإلي:" لا أدري قول أحد من التابعين حُجَّة إلا قول عمر بن عبد العزيز"[2].

ورسالته الطويلة العظيمة في الرَّد على القَدَرية[3]، وحُجَجه القوية فيها، وتفنيد آرائهم، شاهد واضح، ودليل ناصع، على غزارة علمه، وكبير شانه، كذلك حجاجه للخوارج، وكشف زيوف آرائهم، حيث ناظرهم فما ترك لهم حُجَّة إلا كسرها بمنطق قويم، ودليل قوي، وحُجَّة غالبة، ورأي قاهر[4].

أقوال العلماء في علمه:

اجتمعت آراء الأئمة وشهاداقم على أن عمر بن عبد العزيز أحد الأفراد من العلماء الراسخين، ومن أبرز علماء زمانه المليء بكبار التابعين، وهذه شذرات من أقوالهم:

---

1 ابن سعد: الطبقات الكبرى 385/5.
2 مقدمة مسند الإمام أحمد.
3 في حلية الأولياء 5 /346.
4 حلية الأولياء 309/5.

عن الزهري قال عبيد الله بن عبد الله:" كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة"1. وهذه شهادة عظيمة من أستاذه وخاصة شيوخه.

وقال مجاهد: "أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه سيحتاج إلينا، فما خرجنا من عنده حتى احتجنا إليه"، وقال أيضًا: "أتينا عمر نعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه"2.

وقال ميمون بن مهران: "كان عمر بن عبد العزيز معلِّم العلماء"، وقال فيه سيد العلماء أيوب السختياني- وكفى به-: " لا نعلم أحدًا ممن أدركنا كان أخذ عن النبي ρ أكثر منه"3.

وأمّا الإمامان مالك وابن عيينة فقالا: "عمر بن عبد العزيز إمام"4. وقال الحافظ ابن سعد فيه: "كان ثقةً مأمونًا، له فقه وعلم وورع، وروى حديثًا كثيرًا، وكان إمام عدلٍ، ~ ورضي عنه"5، ووصفه الحافظ ابن عبد البر بأنه:" كان أحد الراسخين في العلم"6.

وقال الإمام الذهبي: "وكان إمامًا فقهيًا مجاهدًا، عارفًا بالسنن، كبير الشأن، ثبتًا، حجة، حافظًا"7.

فهذه كلمة إجماع من هؤلاء الأئمة الثقات، وبذلك أصبح عمر موئل العلماء، وقبلة الطالبين، روى الحديث فأكثر، ونظر في النصوص فاجتهد واستنبط، فأخذ عنه الفقهاء، واعتبروا رأيه حجة.

قال الليث بن سعد ~: حدثني رجل كان صحب ابن عمر وابن عباس، وكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة، فقال: "ما التمسنا علمَ شيءٍ إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفروعه، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة"8.

جهوده في نشر العلم وتدوينه:

لم يجلس أمير المؤمنين عمر في حلقات العلم ليبثَّ فيها ما عنده، و لم يتصدر المجالس للإفتاء ونشر الفقه؛ إلا أنَّ له سابقة عظيمة، ودورًا أكبر خطرًا، وأعظم أثرًا، وأكثر نفعًا للمسلمين في هذا المجال... ذلكم هو جهده العظيم في تدوين الحديث النبوي، وكذلك جهده الوافر في تسيير العلماء والفقهاء لتعليم الناس وتثقيفهم وإرشادهم، وكان من جهده العظيم في هذين الجانبين ما يأتي:

1 انظر تاريخ الإسلام للذهبي 190، والكامل في التاريخ 371/2،، وغيرهم .
2 الطبقات 398/5، و البداية والنهاية 194/9... وغيرها.
3 تهذيب التهذيب 419/7.
4 السابق صـ 420.
5 عن سير أعلام النبلاء 115/5.
6 جامع بيان العلم 130/2.
7 تذكرة الحفّاظ 118/1.
8 ابن كثير: البداية والنهاية 194/9.

أولاً: تدوينه العلم وأمره بذلك:

كان رسول الله ε قد نهى عن كتابة غير القرآن في أول الأمر، مخافة اختلاط غـــير القـــرآن بــــه، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بالكتابة والإباحـــة المطلقـــة لتـــدوين الحديث الشريف، فنُسِخَ النهي، وصار الأمر إلى الجواز.

قال الخطيب البغدادي: "إنَّ كراهة الكتاب في الصدر الأول إنما هي لئلاّ يضاهى بكتاب الله تعالى غيره، أو يُشتَغَل عن القرآن بسواه.. ونهى عن كَتْبِ العلم في صدر الإسلام، لقِلَّة الفقهاء في ذلك الوقـــت، والمميزين بين الوحي وغيره؛ لأنَّ أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يُؤمَن أن يُلحِقوا ما يجدون في الصحف بالقرآن، ويعتقدوا أنَّ ما اشتملت عليه كلامُ الرحمن"1.

ولقد هَمَّ عمر بن الخطاب τ بجمع السنة، وفكَّر طويلاً، ثم لم يلبث أن عَدَلَ عن ذلك؛ فعن عروة بن الزبير " أن عمر بن الخطاب τ أراد أن يكتب السنة، فاستفتى أصحاب النبي ρ في ذلك، فأشاروا عليها أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له، فقال: إني أريـــد أن أكتـــب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا؛ فأكبُّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشـــوب كتاب الله بشيء أبدًا"2.

ولما أُمِنَ ذلك ودعت الحاجة لم تُكرَه كتابة العلم، وثبت أن كثيرًا من الصحابة قد أباحوا تـــدوين الحديث، وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصوا بكتابة الحديث وحفظه.

بَيْدَ أن التدوين الذي آتى ثمارَه هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلَّى ذلـــك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك؛ فمن إرشاداته قوله:" أيها النـــاس، قيِّدوا النعم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة"3. و لم يكتفِ أميرُ المؤمنين عمر بهذا الإرشاد العام، والحضَّ على حفظ العلم بكتابته، بل سعى – بحكمه خليفة المسلمين – إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمَّة العلماء بجمـــع سنن وأحاديث رسول الله ε، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين من إباحة كتابة الحـــديث، وهم قد حملوا علمًا كثيرًا، فخشي عمر على ضياعه خاصة وأنه ليس دائمًا تتوفر الحفظة الواعـــون لنقلـــه، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار.

1 انظر محمد الخطيب: أصول الحديث 176:147.
2 ابن عبد البر: جامع بيان العلم 76/1 :93.
3 ابن الجوزي: مناقب عمر بن عبد العزيز 276.

وثمة سبب آخر يضاهي سابقه في الأهمية، وهو انتشار الوضع، ودس الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبي ρ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: "لولا أحاديث تأتينا من قِبَلِ المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبتُ حديثًا، ولا أَذِنتُ في كتابته"1.

ورأي الزهري هذا كان رأي كثيرٍ من أئمَّة ذلك العصر؛ حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفَّز العلماء على حفظ السنن بتدوينها.

وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بقرار الخليفة الورع المجاهد أمير المؤمنين عمر؛ فاتخذ خطوة حازمة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ρ، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة2؛ فكتب إلى الإمام الثَّبْت، أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، أبي بكر بن حزم، يأمره بذلك ففي صحيح البخاري: "وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله □ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم (ضياعه)، وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ρ، ولتُفْشُوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا"3، وعند ابن سعد عن عبد الله بن دينار: قال: "كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ε، أو سنة ماضية، أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن4، فاكتبه، فإني خِفْتُ دروس العلم وذهاب أهله"5.

كذلك وجَّه كتابًا بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري، فقد ذكر ابن عبد البر أن ابن شهاب قال: "أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا"6. ومن هنا قال الحافظ ابن حجر: "وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كَثُرَ التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد"7، بل إنَّ عمر أرسل إلى أهل المدينة جميعًا يحثهم على جمع حديث رسول الله ε؛ ليشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث؛ فعن عبد الله بن دينار قال: "كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن أنظروا حديث رسول الله ε فاكتبوه، فإني قد خفت درس العلم وذهاب أهله"8.

ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّم أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية؛ ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ρ، وما سمعه من أصحابه الكرام؛ روى أبو نعيم في "تاريخ

---

1 الخطيب البغدادى: تقييد العلم 1 /257.

2 الخطيب: أصول الحديث 176، وما بعدها.

3 فتح الباري 194/1.

4 وكانت من أثبت الناس بحديث أم المؤمنين عائشة <، كما ذكر ابن حزم.

5 ابن سعد: الطبقات الكبرى 378/2.

6 جامع بيان العلم 91/1.

7 فتح الباري 208/1.

8 الدارمي: باب من رخص في كتابة العلم (488) قال حسين سليم أسد : إسناده صحيح.

أصبهان" فقال: "كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله فاجمعوه واحفظـــوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء"1.

كذلك فإن عمر بن عبد العزيز τ اهتمَّ باللغة العربية؛ فشجَّع أهل البلاد المفتوحة علـــى تعلمهـــا وإتقانها، وكان يُغدِق عليهم – لذلك – العطايا، كما كان يعاقب من يَلْحَن بالعربية، وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية في فهم كتاب الله تعالى والسنة الشريفة2.

منهجه وطريقته في التدوين:

اتبع عمر بن عبد العزيز ~ في جمع الحديث النبوي وتدوينه منهجًا سديدًا قويمًا، ووضع فيه شروطًا صارمة، ويتجلَّى ذلك في أربعة أمور:

الأول: حُسْنُ اختياره للقائمين بهذا الأمر:

فقد اختار له (ابن حزم)، والزهري: فأمّا أبو بكر بن حزم فهو أحد أوعية العلم، ومـــن أعـــلام عصره، قال فيه الإمام مالك: "ما رأيت مثلَ ابن حزمٍ أعظم مروءةً ولا أتم حالاً، ولا رأيت من أُوتِيَ مثل ما أوتي: ولاية المدينة، والقضاء، والموسم"، وقال: "كان رجل صدق، كثير الحديث"3، وقال ابن سعد: "كان ثقة عالمًا كثير الحديث"4 توفي سنة (120هـــ)5.

وأما ابن شهاب الزهري فهو الإمام العلم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق: قال فيه الليث بن سعد: "ما رأيت عالمًا قطُّ أجمع من ابن شهاب: يحدِّث في الترغيب والترهيب؛ فتقول: لا يحسن إلا هـــذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن القرآن والسنة، كان حديثه"6.

وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقي أحدٌ أعلم بسُنَّةٍ ماضية منه"7، وقيـــل لمكحول: "مَنْ أعلم من لقيت؟ قال: ابن شهاب. قال: ثم من؟ قال: ابن شهاب"8.

الثاني: أنه طلب ممن يدون له السُّنة جمع الأحاديث مطلقًا وتدوينـــها، وتتبـــع أحاديـــث أنـــاس مخصوصين لما امتازوا به، وتدوين أحاديث معينة لأهميتها؛ فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عَمـــرة بنـــت

---

1 ابن حجر: فتح الباري 195/1.
2 عبد الرحمن الشرقاوي: "عمر" 178.
3 سير أعلام النبلاء 313/5.
4 انظر سير أعلام النبلاء 131/5.
5 السابق.
6 سير أعلام النبلاء 326/5.
7 تهذيب التهذيب 395/9.
8 تذكرة الحفاظ 1 /108.

الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة1، والسيدة عائشة هي أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ε وشؤونه الخاصة داخل بيته ومع أهله.

وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع وتدوين حديث "عمر بن الخطاب"، وذلك لمـــا يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق، وأقضيته وسياسته في الصدقات، وكتبه إلى عماله فيها، وقد طلب عمر ذلك أيضًا من سالم بن عبد الله بن عمر، وكل ذلك واضح من النهج الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في الاقتداء بجده τ.

الثالث: أنه ألزم مَن يُدوِّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم، ويتحرَّى الثابت من الحديث، وذلك واضح في رواية الدارمي؛ حيث يقول عمر لابن حزم: "اكتُبْ إلى بما ثبت عندك من الحديث عـــن رسول الله ρ، وبحديث عمر"، وعند الإمام أحمد :"اكتب إلى من الحديث بما ثبت عندك عن رسول الله ρ، وحديث عَمْرة"[2].

وهذه نقطة عظيمة الأهمية في تأسيس منهج التدوين على أسسٍ راسخة، ثابتة صحيحة.

الرابع: تَثَبُّته شخصيًا من صحة الحديث والتحديث:

فعمر من كبار العلماء، وليس بأقل شأنًا من العلم ممَّن أمرهم بالتدوين؛ لذلك قام بمشاركة العلماء في مناقشة بعض ما جمعوه، زيادةً في التثبت؛ من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي قـــال: رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء ليس العمل عليه؛ قال: هذه زيادة ليس العمل عليها"3.

ثمرة هذا التدوين:

لقد آتَتْ هذه الجهود الباكرة المباركة أُكُلَها، وتمثَّل ذلك بتلك الدفاتر التي جمعها الإمام الزهـــري، فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها عدَّة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد في دولته الكبيرة دفترًا منها.

ويُلاحَظ أن كثيرًا من العلماء جمع لنفسه مسموعاته، ليعود إليها كلَّما وجد في نفسه الحاجـــة إلى إتقان حفظها، أما التدوين الرسمي، الذي تولَّته الدولة، وعُمِّمَت ثمرتُه على الأمصار، فكان بأمر عمر بن عبد العزيز.

---

1 ابن سعد: الطبقات الكبرى 2 /387.

2 مقدمة مسند الإمام أحمد ص20.

3 محمد الخطيب: أصول الحديث 179.

ومن الثمرات الطيبة– أيضًا – ذلك المنهج السديد الذي اتبعه أمير المؤمنين عمر، بوضع الأسس والنقاط المهمة أثناء التدوين، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده.

وهذا كله ناتج من دِقَّة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصيرته وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له.

ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصِّدِّيق بجمع القرآن، ففعل، فكان لهما الفضل الكبير على الأئمة، ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هي لهجة قريش – فإن الله Y قد ادَّخر لعمر بن عبد العزيز تلك المنقبة العظيمة، والمكرمة الجليلة، في إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من واجبات الدولة حماية السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع.

وهي سُنَّة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فلولا التدوين لضاع الكثير من الحديث النبوي، خاصة في العصور المتأخرة، بعد أن قلَّ الحفظ والرواية والسماع، بل حتى الاهتمام بالحديث الشريف.

ولِعُمَر بذلك مِنَّةٌ عظيمة على الأمة، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وهذا من توفيق الله للعظماء وكبار المصلحين، عندما تخلُص سرائرهم، يوفقهم الله للحق، ويدلهم على الخيرات، ويسدد خطواتهم ويهيئ لهم من أمرهم رشدًا.

ثانيًا: نشره العلم في الأمصار:

لما كان "من واجبات الدولة أن تُسهِّل تحصيل العلم لجميع القادرين على تحصيله، وهو من فروض الكفايات التي يجب على الدولة القيام به، وتمكين الناس من الوصول إليه"[1]، لم يألُ عمر ~ جهدًا في القيام بهذا العبء خير قيام، و أداء هذا الواجب على الوجه الأكمل، فأرسل العلماء إلى الأمصار بل والبوادي، ليعلموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم به.

فبعث إلى مصر الإمام المفتي الثبت، عالم المدينة "نافعًا" مولى ابن عمر وراويته؛ قال عبيد الله بن عمر: "بعث عُمر بن عبد العزيز نافعًا مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن"[2].

وأرسل عشرة من فقهاء مصر من رجال التابعين إلى إفريقية ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ρ، لينالهم من الخير مثل الذي يَعُمُّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم، فلم يحتج عمر أن يسير لها العلماء، بل تطلَّع إلى أقاصي دولته، فأرسل العلماء إليها، بل إنه أرسل الفقهاء إلى البدو ليعلموا الناس في مضاربهم ويفقهوهم في دينهم؛ روى ابن الجوزي عن ابن أبي

1 تذكرة الحفاظ للذهبي 119/1، وذكره الإمام أحمد في مقدمة مسنده.
2 الذهبي: سير أعلام النبلاء 97/5.

غيلان قال: "بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث الأشعري يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقًا..."[1].

كذلك كان يرسل الكتب إلى الأمصار الإسلامية في دولته الكبيرة، يعلمهم فيها السنن والفقه، ويأمرهم بإحياء ما كان عليه رسول الله ρ وصحابته، والالتزام بالشرع، وترك ما خالفه، وكانت الكتب تُوَجَّه إلى الولاة والأمراء ليعملوا بها، ويحملوا الناس على التزام ما جاء فيها، وإذا أُشكِلَ على عمر أمرٌ بعث إلى المدينة يسألهم عن ذلك؛ يقول الإمام مالك: "كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسألهم عمّا مضى، وأن يعملوا بما عندهم"2، ويقول الحسن البصري: "وما ورد علينا قَطُّ كتاب عمر بن عبد العزيز إلا بإحياء سنة، أو إماتة بدعة، أو رد مظلمة"[3].

وقد أمر ~ بإفشاء العلم، وذمِّ كتمانه، وذلك واضح في كتابه إلى أبي بكر بن حزم: "ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا"4.

وقد عمل ~ على تذليل الصعوبات أمام العلماء وطلبة العلم؛ ففرض المرتبات للعلماء، ولكلِّ مَنْ نَصَبَ نفسه للعلم وحبسها عليه؛ فقاريء القرآن الذي حفظه، وقام يُقرِئه للناس، ويُعلِّمهم أحكامه، والمحدِّث الذي يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوي، والفقيه الذي ينظر في الكتب ويستنبط منها، ويعلِّم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذي يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم، وسدُّ حاجاتهم، وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفَّل به الدولة، ويُؤخَذ من بيت المال، ونعمّا فعل ~، فبذلك شجع كلَّ مَن وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة.

روى الإمام الثقة الحجة الخطيب البغدادي عن أبي بكر بن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى وإلى حمص: "مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم؛ لئلاّ يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن، وما حملوا من الأحاديث"[5].

اهتمامه ـــ ~ ـــ بتعليم أولاده:

لم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز بالعلم على هذا القدر – على عِظَمِ شأنه – ، ولكنه كان نموذجًا مثإليا في تربية أبنائه على العلم، وحُبِّ العلماء وتوقيرهم، واتبع إجراءاتٍ تعليمية جعل منها منهجًا

1سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي 92.
2 مقدمة مسند الإمام أحمد ص17.
3 السابق ص6.
4 الن حجر: فتح الباري 194/1.
5 الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث 155.

جديرًا يلبي حاجة الناشئ المسلم، وكان يغرس في أبنائه حب العلم منذ الصغر، ويتعاهدهم بالرعاية والعناية، فها هو ~ يعلِّم ابنه (عبد الملك) مُذْ أصبح يجيد الكلام القراءة وبعض القرآن، قبل أن يدفع به للمعلمين، ويقول له ابن عمه في ذلك: (دعه يلعب مع الصبيان، فما زال طفلاً)، فأخذ عمر بيده وقال له: "يا بُنَيَّ كُنْ عالمًا، فإن لم تستطع فمتعلمًا"1...

ولما اطمأنَّ إلى أنَّ بنيه قد أخذوا حظهم من التربية المستقيمة في بيت الأبوة القويمة العليمة، وأُسِّسَتْ أخلاقُهم على التقوى، وتشرَّبت نفوسُهم حبَّ العلم والتعلُّم، اختار لهم مؤدِّبًا عالمًا تقيًا، بعث به إليهم، وأرسل إليه رسالة يحدد له فيها الطريقة المثلى للتأديب فقال له: "فإني قد اخترتك على علمٍ منِّي بك، لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك من غيرك من موإلى وذَوِيَّ الخاصة بي،.. وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت في قراءته، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج للرمي..."[2].

وظلَّ ~ يتابع أبناءه ويتعهَّدهم بالرعاية، ويُسدِّد خطاهم ويوجههم، فكتب إلى أحد أبنائه يقول: "يا بُني احذر الصرعة على الغفلة، حين لا تستجاب الدعوة، ولا سبيل إلى الرجعة، ولا تغترنَّ بطول العافية، فإنما هو أجل ليس دونه فناء، ولا بعد أن تستكمله بقاء"3.

وقال لابنه عبد العزيز: "يا بُني إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم، فلا تحملها على شيء من الشر، ما وجدت لها محملاً على الخير"4

وبلغه أن ابنًا له اتخذ خاتمًا، واشترى له فصًا بألف درهم، فكتب إليه عمر قائلاً: "أما بعدُ، فقد بلغني أنك اشتريت فصًا بألف درهم، فبعه، وأشبِع به ألف جائع، واتخذ خاتمًا من حديد، واكتب عليه: رحم الله امرًا عرف قدر نفسه"5.

رحم الله عمر بن عبد العزيز؛ كان طودًا من أطواد العلم، ونبراسًا لمن جاء بعده؛ فجزاه الله عن الأمة خير الجزاء !!

---

1 انظر سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي،ص 219.

[2] السابق 220.

3 أبو نعيم: حلية الأولياء 240/4

4 انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص200، وما بعدها.

5 السابق نفسه.

المبحث الثاني: دور العلم في بناء الخلافة صدر الدولة العباسية (هارون الرشيد والمأمون)

شكَّلت "الخلافة العباسية" مرحلة هامة واسعة التأثير في تاريخ الإســـلام، و لايكـــاد المنشـــغلون بالحضارة الإسلامية يتحدثون عنه إلا وتأتي فترة الخلافة العباسية كواسطة العقد، و قمة المجد التي تشار إليها دائمًا، و لم يكن ذلك من فراغ، فقد اهتم الخلفاء العباسيون عامة بالنهضة والرقي بالأمة الإسلامية، بعد أن وطدوا أركان دولتهم، وكان أبرز اسمين في النهضة العلمية التي حدثت في العصر العباسي " هارون الرشيد" وابنه المأمون .

نشأة الرشيد العلمية:

وُلِدَ هارون الرشيد ونشأ وتربَّى في بيت علمٍ وأدب؛ فقد اهتم والده (المهدي) بتعليمـــه، وعهـــد بذلك لطائفة من كبار علماء عصره، كان منهم "الكسائي" الذي يُذكَر عنه أنه كان إمامًا في عـــددٍ مـــن العلوم، وجلس الرشيد كذلك إلى إمام اللغة "الخليل بن أحمد"، وعلَّمه "المفضَّل الضبِّي"(وهو من أوثق رواة الشعر في زمانه) الشعرَ وأيام العرب، وملأه الأصمعي (رواية العرب) بنوادر العرب الأدبية، كما قرأ الرشيد القرآن على "حمزة الزيات" أربع مرات، واختار لنفسه ـــ منذ حداثة سنه ـــ إحدى القراءات السبع فأتقنها وأجادها، فلا عجب أن يصبح مثقفًا ثقافة واسعة، وأن يجمع إلى عقله الراجح أدبًا جمًّا، ومعرفةً بشتَّى أنواع العلوم والمعارف، إلى الحدِّ الذي جعل معاصريه يقولون: "كان فهم الرشيد فهم العلماء"[1].

وكان الرشيد يحب العلماء، ويسعى لطلب العلم على أيديهم مهما بذل من جهد؛ قال القاضـــي الفاضل[2]: "ما أعلم أنَّ لملكٍ رحلةً قطُّ في طلب العلم إلا للرشيد؛ فإنَّه رحل بولديه: الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك ~، قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين.."[3].

1السيوطي: تاريخ الخلفاء 247.

2 هو عبد الرحيم بن علي اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل: (529 ـــ 596) وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي ..(انظر معجم المؤلفين: 5 /209 و ابن خلكان: وفيات الأعيان 1: 357 - 359).

3 السيوطي : تاريخ الخلفاء 249.

تقديره للعلماء:

كان الرشيد ~ محبًّا للعلم والعلماء، وكان يعرف للعلماء فضلهم؛ لذا لما بلغه موت عبد الله بن المبارك حزن عليه، وجلس للعزاء فعزاه الأكابر، و أمر الأعيان أن يعزوه فيه [1]

وعن أبي معاوية الضرير، قال: صبَّ على يدي بعد الأكل شخصٌ لا أعرفه؛ فقال الرشيد: تدري من يصب عليك؟ قلت: لا. قال: أنا؛ إجلالاً للعلم[2].

وقد كان العلماء يبادلونه هذا التقدير،فقد رُويَ عن الفضيل بن عياض أنه قال:" ما من نفس تموت أشد عليَّ موتًا من أمير المؤمنين هارون، ولوددتُ أنَّ الله زاد من عمري في عمره"، قال عثمان ابن كثير الواسطي: فكَبُرَ ذلك علينا؛ فلمّا مات هارون، وظهرت الفتن، وكان من المأمون ما حمل الناس على القول بخلق القرآن؛ قلنا: الشيخ كان أعلم بما تكلَّم.[3]

النهضة العلمية في عصر الرشيد:

كان لابد لهذه النشأة المفعمة بطلب العلم أن تثمر حياةً قوامها العلم، وتشجيع العلماء؛ لذا فقد عُرِفَ عصر الخليفة العباسي الرشيد بأنه عصر ازدهار الحركة العلمية في الدولة العباسية، لاسيما بعد انتشار حركة النقل والترجمة آنذاك...

بتولي الرشيد الحكم بدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ (الدولة العباسية) التي دامت أكثر من خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت الفنون والآداب، وعمَّ الرخاء ربوع الدولة الإسلامية؛ فقد أنشأ بيت الحكمة، وزوَّده بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلَّفات من مختلف بقاع الأرض كالهند وفارس والأناضول واليونان. وكان يضم غرفًا عديدة يمتد بينها أروقة طويلة، خُصِّصَ بعضُها للكتب، والبعض الآخر للمحاضرات، في حين خُصِّص جزءٌ ثالث للناسخين والمترجمين والمجلِّدين، وعهد الرشيد إلى "يوحنا بن ماسويه" بالإشراف على بيت الحكمة، وكلَّفه بالقيام بترجمات كثيرٍ من الكتب التي قدمت لبغداد من حرب أنقرة، ووضعه أمينًا على الترجمة وكان أكثر هذه الكتب يتجِّه إلى الطب والفلسفة وعلوم الفلك، وكان منها مؤلفات علماء اليونان كأرسطو وجالينوس وأبقراط.[4]

وغدت (بغداد) قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيث كبار الفقهاء والمحدثين والقُرَّاء واللغويين، وكانت المساجد الجامعة تحتضن دروسهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه

1 السيوطي : تاريخ الخلفاء 242.

2 السابق نفسه.

3 الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد 14/ 12.

4 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 109/2 وما بعدها.

بالمدارس العليا، من حيث غزارة العلم، ودقة التخصص، وحرية الرأي والمناقشة، وثراء الجدل والحوار. وكان الرشيد نفسه يميل إلى أهل الأدب والفقه والعلم، ويحيط نفسه بهم.

وكان الرشيد وكبار رجال دولته يقفون وراء هذه النهضة، يصلون أهل العلم والدين بالصلات الواسعة، ويبذلون لهم الأموال تشجيعًا لهم، حتى إن ول ديورانت يذكر في "قصة الحضارة" : "ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثلما جمعت حاشية الرشيد، من العلماء ذوي العقول الراجحة النابهين "[1]، ففي عصره اجتمع أبو يوسف (صاحب كتاب الخراج أول كتاب في منهج الاقتصاد الإسلامي)، وعبد الله بن المبارك (الزاهد المجاهد)، والفضيل بن عياض ، و اثنان من الأئمة الأعلام مالك والشافعي رحمهم الله جميعًا .

اهتمامه بعلماء الشرع:

لما كانت ثقافة الرشيد ~ قائمة على الكتاب والسنة، وما يدور حولهما من شروح وإيضاحات، لم يكن غريبًا أن يختار وينتقي لمناصب الدولة خِيرَة علماء الشرع، فكان من أول ما قام في هذا الصدد أن اختص العلامة "أبا يوسف" بمكانة عالية، وجعله "قاضي قضاة" الدولة، بحيث لا يُعَيَّن أحدٌ من القضاة إلا بأمره وإشارته، وكان أبو يوسف يكثر من وصية الرشيد، و لم يكن الرشيد إلا مستمعًا له عاملاً بوصاياه ، من ذلك وصيته الطويلة التي يحثه فيها على كل ما فيه مصلحته ومصلحة المسلمين.[2]

وكان يحفظ للإمام مالك بن أنس ~ مكانته ومقامه، ويمنحه من السلطة بالمدينة ما يجعل أمره نافذًا على الوإلي، بل ويستقبل منه رسالة طويلة في "وعظه" و إرشاده تشمل أجمل ما يهدى للملوك، والأمراء من النصائح والإرشادات، والسلوك في تعامله مع الرعية،.. [3]

وذكرنا كيف كانت منزلته عند الفضيل بن عياض، وكيف أدرك فضله وعلمه، ذلك أن الرشيد كان يرفع من قدر العلماء دائمًا، فضلاً عن أنه بنفسه كان من العلماء ..

علوم الحياة في عصره:

لقد بلغ التقدم في علوم الحياة في عصر الرشيد ذروةً سامقةً، في حين كان الغرب يعيش أشدَّ عصوره تخلُّفًا، ومما يُذكَر في هذا الشأن أنَّ هارون الرشيد أرسل هدية عجيبة إلى شارلمان ملك الفرنجة،

1 ول ديورانت: قصة الحضارة 2/13 .
2 الوصية مذكورة بالتفصيل في حسن التقاضي في سيرة أبو يوسف القاضي للكوثري 94 ــ 101.
3 انظر الرسالة مطولة: إبراهيم عبد الباقي: مشكاة المواعظ.

وكانت الهدية عبارة عن ساعة ضخمة بارتفاع حائط الغرفة تتحرك بواسطة قوة مائية، وعند تمام كل ساعة يسقط منها عدد معين من الكرات المعدنية بعضها في إِثْرِ بعض بعدد الساعات فوق قاعدة نحاسية ضـــخمة، فيُسمَع لها رنينٌ موسيقيٌّ يُدَوِّي في أنحاء القصر..

وفي نفس الوقت يُفتَح بابٌ من الأبواب الاثني عشر المؤدية إلى داخل الساعة، ويخرج منها فـــارس يدور حول الساعة، ثم يعود إلى حيث خرج، فإذا حانت الساعة الثانية عشرة يخرج من الأبواب اثنا عشـــر فارسًا مرةً واحدةً، ويدورون دورةً كاملةً، ثم يعودون فيدخلون من الأبواب فتُغلَق خلفهم. كان هذا هـــو الوصف الذي جاء في المراجع الأجنبية والعربية عن تلك الساعة التي كانت تُعَدُّ وقتئذٍ أعجوبـــةً، وأثـــارت دهشة الملك وحاشيته.. ولكن رهبان القصر اعتقدوا أنَّ في داخل الساعة شيطانًا يحركها ..فتربصوا بها ليلاً، وأحضروا البُلَط، وانهالوا عليها تحطيمًا، إلا إنهم لم يجدوا بداخلها شيئًا"[1].

وقد برز عدد كبير من علماء الحياة في عهد الرشيد، بفضل حَثِّه على العلم، وتقديره للعلماء أيًـــا كانت دياناتهم، وإنزالهم منازلهم، فمن هؤلاء: طبيب الرشيد الخاص "جبرائيل بن بختيشوع" الـــذي تـــذكر كتب الطب أنه جمع ثروة عظيمة من الاشتغال بالطب (كطبيب خاص للرشيد)، ويُروَى أنه لما حضر قال له الرشيد ما اسمك؟ قال جبرائيل، قال له أي شيء تعرف من الطب؟ فقال أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس، وأيبس الرطب الخارج عن الطبع، فضحك الخليفة وقال هذا، غاية مـــا يحتـــاج إليـــه في صـــناعة الطب،وقال له ذات مرة وهو يحج بمكة: "لقد دعوتُ اللهَ لك في مواقف دعاء كثيرة، ثم التفت إلى أبنائـــه وقال: عسى أن تكونوا كرهتم قولي!، ولكن تعرفون أنه يقوم على صلاح بدني، وقوامه به، وأقـــوم علـــى صلاح المسلمين، وقوام المسلمين بي. فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين"[2].

ومما أُثِرَ عنه ~ أنه كان يجمع الأطباء، ويستشيرهم في أمور عديدة، فمن ذلك ما يذكره ابن عبـــد ربه في العقد الفريد : جمع الرشيد من الأطباء أربعة: عراقيًا، وروميًا، وهنديًا، ويونانيًا .فقال: ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معه، فقال العراقي: الدواء الذي لا داء معه حب الرشاد الأبـــيض، وقـــال الهندي: الإهليلج الأسود، وقال الرومي: الماء الحار، وقال اليوناني ـــ وكان أطبهم ـــ حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة، والماء الحار يرخي المعدة، والإهليلج الأسود يرق المعدة، لكن الدواء الذي لا داء معه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه، قال: صدقت .[3]

هكذا كان ~ حريصًا على العلم والعلماء، مدركًا لدورهم في نهضة الأمة الإسلامية ورقيها، فلا عجب ـــ والحال كذلك أن : ينشأ ناشيء الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه، فنجد ابنه المأمون يسير على الخطى التي رسمها له، وعلمه إياها والده الرشيد، في الحرص على العلم والتعلم ..

---

1 الشادياق: "كشف المخبا في فنون أوربا" 218 وما بعدها.

2 ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء 109/1.

3 ابن عبدربه: العقد الفريد 307/6.

المأمون.. والنهضة العلمية

نشأة المأمون العلمية:

لاشك أن رجلاً يحب العلم ويُجِلُّ العلماء، ويقوم بكل تلك المنجزات الحضارية في وقت توليه الحكم، مثل الرشيد، لا شك أن اهتمامه بأبنائه، وتربيتهم، وتنشئتهم نشأة علمية رصينة، سيكون كبيرًا، ولذا لم يكن غريبًا أن تكون تلك التنشئة العلمية الفذة لولدي الرشيد "الأمين والمأمون"، بل إن بعض المؤرخين قد أطلقوا على المأمون لقب "الخليفة العالم" لما عُرِفَ عنه ــ منذ حداثة سِنِّه ــ من إقبالٍ شديدٍ على العلم والتعلُّم، وقد كان الكسائي معلِّمه ومؤدبه هو وأخاه الأمين.

كذلك كان من مؤدبيه "أبو محمد إليزيدي" أحد كبار علماء عصره، كما سمع من"هشيم بن بشر" الحديث ومن عباد بن العوام، وأبي معاوية الضرير، وغيرهم من كبار العلماء[1]، وقد أَكَبَّ المأمون على دراسة الحديث حتى صار من رواته، فسمع منه الكثيرون ورووا عنه، ساعده على ذلك ما منحه الله من ذاكرة قوية، كانت مضرب المثل، وكان المأمون يقرأ الفقه على "الحسن اللؤلؤي"، ويذكر ابن تغري بردي أنه برع في الفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان[2].

وقد قال عنه "الدينوري": إنه نجم ولد العباس في العلم والحكمة، أخذ من جميع العلوم بقسط، وضرب فيها بسهم وهو الذي استخرج كتاب إقليدس من الروم، وأمر بترجمته وتفصيله، وعقد المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان استاذه فيها أبا الهذيل محمد بن الهذيل العلاف.ودخل بلاد الجزيرة والشام، فأقام بها مدة طويلة، ثم غزا الروم، وفتح فتوحًا كثيرة، وأبلى بلاء حسنًا"[3]، ويصفه جمال الدين القاسمي بقوله: "عُرِفَ الخليفة المأمون بمحبته للعلم والعلماء، وشغفه بالحكمة والحكماء، بل لم يُرَ في أولاد الملوك من تعشَّق العلوم الحكمية على حداثة سنه، وأقام بين العلماء لمناظرتهم في جميع أنواع العلوم مثله، وكان مجلسه يضم عدد من العلماء والحكماء، وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد..[4]".

وهكذا نشأ "المأمون" يقبل على فروع المعرفة ويستزيد منها، فهو يهوى العربية والأدب، حتى نراه شاعرًا، ويهوى الفقه فيجادل فيه الثقات المتخصصين، ويهوى الحديث حتى يؤخذ منه، ثم يهوى الفلسفة بعد ذلك، ويكون له معها شأن"[5]...

النهضة العلمية والحضارية في عصر المأمون:

---

1 العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي 2 / 211.
2 ابن تغري بردي : المنهل الصافي 445.
3 الدينوري: الأخبار الطوال 401.
4 القاسمي: تاريخ الجهمية والمعتزلة 165.
5 محمد هدارة : المأمون الخليفة العالم ص110.

شهد عصر المأمون نهضة حضارية كبيرة، فقد كان المأمون محبًا للعلم والأدب وكان شاعرًا وعالمًا وأديبًا، يحب الشعر ويجالس الشعراء ويشجعهم، وكان يعجب بالبلاغة والأدب، كما كان للفقه نصيب كبير من اهتمامه، وكان العلماء والأدباء والفقهاء لا يفارقونه في حضر أو سفر، وقد أدى تشجيعه للشعراء في أيامه إلى إعطاء الشعر دفعة قوية، وكان تشجيعه للعلوم والفنون والآداب والفلسفة ذا أثر عظيم في رقيها وتقدمها، وانبعاث حركة أدبية وعلمية زاهرة، ونهضة فكرية عظيمة امتدت أصداؤها من بغداد حاضرة العالم الإسلامي ومركز الخلافة العباسية إلى جميع أرجاء المعمورة، فقد استطاع المأمون أن يشيد صرحًا حضاريًا عظيمًا، وأن يعطي العلم دفعةً قويةً ظلَّت آثارها واضحة لقرون عديدة؛ فقد أرسل البعوث إلى "القسطنطينية" و"الإسكندرية" و"أنطاكية" وغيرها من المدن للبحث عن مؤلَّفات علماء اليونان، وأجرى الأرزاق على طائفة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية، وأنشأ مجمعًا علميًا في بغداد، ومرصدين أحدهما في بغداد والآخر في "تدمر"، وأمر الفلكيين برصد حركات الكواكب، كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة للعالم[1].

ازدهار حركة الترجمة في عصر المأمون:

كان لتشجيع المأمون حركة الترجمة أكبر الأثر في ازدهارها في عهده، فظهر عدد كبير من العلماء الذين قاموا بدور مهم في نقل العلوم والفنون والآداب والفلسفة إلى العربية، والإفادة منها وتطويرها، ومن هؤلاء:

"حنين بن إسحاق" الطبيب البارع الذي ألَّف العديدَ من المؤلَّفات الطبية، كما ترجم عددًا من كتب أرسطو وأفلاطون إلى العربية[2].

"ويوحنّا بن ماسويه" الذي كان يشرف على "بيت الحكمة" في بغداد وكان يؤلف بالسريانية والعربية، كما كان متمكنًا من اليونانية، وله كتاب طبي عن الحميات اشتهر زمنًا طويلاً، ثم ترجم بعد ذلك إلى العبرية واللاتينية[3].

و"ميخائيل بن ماسويه" وكان طبيب المأمون الخاص، وكان يكرمه غاية الإكرام وكان يثق بعلمه فلا يشرب دواءً إلا من تركيبه[4].

ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى ظهور تلك النهضة الحضارية والعلمية في عصر المأمون، ذلك الهدوء الذي ساد الأجواء بين الخلافة العباسية والروم، والذي استمر لأكثر من عشرة أعوام.

---

1 القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء 1 /120.
2 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 164/2.
3 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء 109/2
4 السابق 2/ 126.

وهكذا ازدهرت الحركة العلمية في عهد المأمون تأليفًا وترجمة، واستهل فيها أبو يوسف يعقوب "الكِنْدي" نشاطه العلمي، الذي لم يقتصر على التعريف بفلسفة أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة، بل تعدَّى ذلك للتوسع في الآفاق العقلية بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي، وعلم الظواهر الجوية[1]..

هذا، ولم يكن نشاط المأمون العلمي مقتصرًا على شراء الكتب والتشجيع على التأليف والترجمة، بل كان يسعى إلى إحضار العلماء الأجانب للاستفادة من علمهم وخبرتهم، ولعلَّ أصدق ما يدل على ذلك إلحاح المأمون في طلب العالم الهندسي "ليون" الذي كان قد دفن نفسه في أحياء القسطنطينية الفقيرة، وأخذ يعيش عيشًا بسيطًا بتعليم الناس، فاتفق أن كان أحد تلامذته من بين أسرى المسلمين، فأظهر في إحدى المناسبات معرفته بالاستدلال الهندسي، فلمّا سُئِلَ عن مُعلمه دلَّ عليه، فأرسل "المأمون" إليه يدعوه للحضور إلى بغداد، فعرض "ليون" الرسالة على الجهات الرسمية في بلاده، وعلم الإمبراطور بها فمنعه من السفر، وكانت تلك الرسالة سببًا في شهرة هذا العالم، وتنبُّه بلاده إلى عبقريته، وظل المأمون يراسله ويسأله عن أمور في الهندسة والفلك[2].

اهتمامات المأمون العلمية:

لم يكن المأمون بعيدًا عن الإحاطة ببعض المسائل الهندسية، فقد كان واسع الاطِّلاع، شغوفًا بالعلم والمعرفة، يقول: "لا يعرف الهندسة من لم يقرأ كتاب إقليدس"[3]. وإلى جانب ثقافته في العلوم الحياتية، كان على دراية بالمسائل الفقهية، كما كان لتلقيه دروسًا في علوم القرآن والحديث دوره المهم في تكوينه العلمي.

ويدلنا يحيى بن أكثم (قاضي المأمون) على صورة من مجالس المأمون العلمية، فيقول: كان إذا حضر الفقهاء ومن يناظرونه من سائر العلماء، أدخلهم حجرة مفروشة، ثم أمرهم بالطعام والشراب، ثم أمر أن يتطيبوا ويتزينوا، حتى يدخلوا عليه فيدنيهم، ويناقشهم، ويناظرهم أحسن مناظرة[4].

وكان المأمون في سعيه لتثقيف الناس لا يفرق بين علم وآخر، وكانت غايته من كل علم التماس ما لا يسع جهله، أي الأخذ من كل علم بطرف، ولهذا خاض في كل العلوم والمعارف، ولم يقتصر على شيء منها بعينه، حتى إنه كانت له معرفة بالطب، روى أحد الفقهاء الذين كانوا يحضرون مجلسه أنه تغذى عنده يومًا فوُضِعَ على المائدة أصنافٌ متعددة من الطعام، فكلّما وُضِع صنفٌ نظر إليه المأمون؛ وقال: هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا... يقول: فما زالت تلك حاله حتى رُفِعَت الموائد، فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت "جالينوس" في معرفته، أو في النجوم كنت أبرع من "هرمس" في

---

1 القفطي : أخبار الحكماء 240، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (2/ 179).

2 العصامي: النجوم العوالي 214/2.

3 انظر الأعلام للزركلي 138/8، ووفيات الأعيان 147/6.

4 الذهبي: تاريخ الإسلام 3 /432.

حسابه، أو في الفقه كنت كعلي بن أبي طالب في علمه[1]،.... فرَدَّ المأمون قائلاً: يا أبا محمد إنَّ الإنسان إنما فُضِّلَ على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحمٌ أطيب من لحم، ولا دمٌ أطيب من دم[2]!!.

وهكذا كان المأمون ــ ومن قبله والده الرشيد ــ مثالاً لحكام المسلمين الذين اتخذوا العلم طريقًا لرفعة أمتهم، ووصلوا بها إلى ذرا المجد..

1 ولا شك أن مقارنته بعلي بن أبي طالب τ فيها الكثير من المبالغة غير المقبولة.

2 ابن عساكر : تاريخ دمشق 33 /291.

المبحث الثالث: دور العلم في بناء الخلافة الأموية بالأندلس (عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم)

يذكر المؤرخون أن النهضة العلمية في الأندلس بدأت متأخرة بعض الشيء، وهي التي قام عليها عماد تلك الحضارة العظيمة، التي قلَّما يجود الزمان بمثلها..

والحق أن بوادر تلك النهضة العلمية كانت مع الفاتحين الأوائل، الذين كان بينهم العديد من العلماء، في مختلف مجالات الحياة، ثم كان أن أنعم الله على الأندلس، وشعب الأندلس بحكام علماء، نشأوا على حُب العلم وأهله، وعرفوا ما للعلم من أهمية وقيمة في الرقي بمجتمعه وأمتهم، فساعدوا على قيام تلك النهضة العلمية، وكان من أعظم هؤلاء الخلفاء وأبرزهم" عبد الرحمن الناصر"، وابنه الحكم المستنصر.

عبد الرحمن الناصر والنهضة العلمية:

كان لنشأة الناصر العلمية، وحبه للعلم منذ صغره دور بارز في النشاط العلمي الذي حدث للأندلس أثناء تولِّيه الخلافة، فقد درس عبد الرحمن القرآن والحديث وهو طفل لم يبلغ العاشرة بعدُ، وبرع في اللغة والحساب وفنون الفروسية، وتلقّى العلم على أيدي محدثين وفقهاء كبار، منهم "قاسم البياني"[1].

وعلى الرغم من تولِّيه السلطة في عهد مليء بالفتن والاضطرابات، إلاّ أنه استطاع بفطنته وذكائه أن يقضي على كل هذه الفتن، ويوحِّد البلاد تحت إمرته، ويعلن الخلافة الأموية بالأندلس، وتلقَّب بـ"أمير المؤمنين الناصر"[2]، وبدأ يركز على العلم والعلماء، ومحاولة الترقي العلمي بالأندلس؛ لذلك يذكر المؤرخون أن بلاط الناصر كان يحفل بالكثير من العلماء والأدباء، فمنهم ابن عبد ربه صاحب "العقد الفريد"، و"منذر بن سعيد"كبير فقهاء عصره ،و"أبو القاسم الزهرواي"الطبيب والجراح الكبير ، وقد كان عبد الرحمن يكرم هؤلاء العلماء، ويُجِلُّهم، ويحرص كل الحرص على إنزالهم ما يليق بهم من مكانة، والسماع لرأيهم ومشورتهم دائمًا، كما اجتهد في تخير قضاته من أولي العلم والمعرفة[3].

هذا وقد بلغ من عناية "الناصر" بالعلم والمعرفة أن بذل جهدًا خارقًا في جمع الكتب، كما وضع أساس المكتبة الأموية الكبرى[4] التي ازدهرت في عهد ابنه "المستنصر"، ورفعت من شأن الأندلس كمنارة علمية كبرى يقصدها القاصي والداني.

---

1 محمد عنان: تراجم إسلامية 167.

2 ابن عذاري: البيان المغرب 2 /158.

3 الإشبيلي: ريحان الألباب وريعان الشباب 1139.

4 ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام ص122.

ويُذكَر أنه اشتُهِرَ عنه اهتمامه بالكتب، وولعُه الشديد باقتنائها، حتى بلغ ذلك أحد ملوك عصره، وهو الإمبراطور البيزنطي (أرمانوس) الذي أرسل له هدية علمية، يتودَّده ويأمل أن يحوز رضاه، فأرسل إليه كتابين من تصانيف الأوائل، أحدهما في الطب: وهو كتاب"ديسقوريدس"، والآخر في التاريخ: وهو كتاب" رهوشيش"، وكان باللاتينية[1].

وبذلك كان عهد الناصر بداية مجيدة، ودفعة قوية، لعصرٍ عظيمٍ ازدهرت فيه العلوم والآداب، وانصرف العلماء فيه لتحصيل العلم وتصنيف الكتب في شتى فروع المعرفة، ولا ريب في ذلك فإنَّ كثيرًا من كتب العلم التي أُلِّفت في عهده، لَتَدُل على ما اتَّسم به من مناخ خصب نمت فيه القدرات العلمية، فأعطت ثمارًا يانعة في ميدان الفكر، وجعلت من حاضر الخلافة "قرطبة" دارًا للعلوم، ومركزًا ثقافيًا مهمًا استقطب العلماء من نواحي الأندلس المختلفة، بل ومن خارجها، في صورة تؤكد عظمة ذلك العصر، ومدى اهتمام الناصر بالعلم والعلماء حينئذٍ.

يُذكَر من اهتمامه بعلوم الحياة أن حركة الاشتغال بالطب ـــ مثلاً ـــ بدأت في عصره تأخذ أبعادًا جديدة، فتتبعت الخيرات في أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق، وقامت الهمم، وظهر الكثير من الأطباء المشهورين في دولته.

ومن أهم تلك الكتب كتاب "زاد المسافر" الذي نقله الطبيب العلاّمة (ابن بريق)، الذي كان من أمهر أطباء الأندلس، ودرس الطب في القيروان على يد (ابن الجزار) ستة أشهر، ثم عاد للأندلس بهذا الكتاب، فأحسن الناصر وفادته، وأجزل له العطاء..

وكان الخلفاء يحرصون على أن يكون في قصورهم عدد من الأطباء البارعين المهرة، لحاجتهم إليهم في التداوي، ولهذا اشتغل الكثير من الأطباء الأندلسيين، وعُرِفوا بخدمة الخلفاء، وممارستهم الطب في قصورهم، فمنهم أصبغ القرطبي، الذي خدم عبد الرحمن الناصر، وكذلك ابن بريق..، ومنهم "سليمان بن باج" الذي عرف الناصر عنه تمكُّنَه العميق في الطب وتركيب الأدوية، فقرَّبه منه، وأصبح طبيبه الخاص، وكذا نال يحيى بن إسحاق مكانة رفيعة عند الناصر نظرًا لما تمتع به من سعة العلم والسيرة الحسنة، مما جعله يوليه الوزارة[2].

تقديره للعلماء:

لما بنى الناصر مدينة "الزهراء" واستفرغ جهده في زخرفتها وتنميقها وإتقان قصورها، كان من انهماكه بذلك أن تخلَّف مرة عن شهود الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة، والمفروض أن يشهدها في المسجد

---

1 الإشبيلي: ريحان الألبان وريعان الشباب "مخطوطة" 1139.

2 انظر ابن جلجل: طبقات الأطباء 110.

الجامع لا في غيره بحكم ولايته. فلمّا حضر لصلاة الجمعة بعد افتتاح "الزهراء" - وكان القاضي "المنذر بن سعيد" يخطب في المسجد، بدأ خطبته بقوله تعالي: (**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**[1]).

ومضى في هذه الطريقة والتذكير الخاشع، والموعظة المؤثرة، والقول البليغ في النفوس والقلوب - وما زال بالقوم حتى أخذ منهم الخشوع كل مأخذ، وضَجَّ المسجد على رحبه بالبكاء، وأخذ الخليفة من تلك الكلمات الإيمانية الصادقة بأوفر نصيب، فبكى وندم على ما حصل من التفريط، وكانت كل كلمة بالنسبة إليه سلاحًا ماضيًا يعمل عمله متخطيًا كل الحواجز والاعتبارات. غير أن الخليفة - على كل تأثره - وجد بعض الشيء على المنذر، وشكا ذلك لولده الحكم وقال - وقد أتعبته نفسه -: والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، ثُمَّ أقسم ألاّ يصلي خلفه صلاة الجمعة، فجعل يلزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة في الزهراء؛ عند ذلك قال له ابنه الحكم: ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك إذا كرهته؟ وهنا تبدَّت الأصالة وغلب الدين، إذ قال الخليفة للحكم بعد أن زجره: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه - لا أُمَّ لك - يُعزَل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكن أحرجني فأقسمت، ولوَدِدْتُ أن أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلِّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالي، فما أظننا نعتاض عنه أبدًا.

فهذه مكانة العلماء عند الناصر، مكانة عظيمة، يعرف بها حقهم، ويقدِّر موعظتهم ولو كانت ثقيلةً عليه.

الحكم المستنصر ودور العلم في حياته:

كان لنشأة المستنصر العلمية، على يد والده الناصر، أثرٌ بالغٌ في تشكيل وعيه العلمي المبكر، فقد درس على أيدي نخبة من كبار علماء عصره، منهم "محمد القرطبي"، الذي درس عليه علوم اللغة والحساب، والأدب والنحو، وأفاد منه دراسة العلوم بطريقة تحليلية عميقة، كما درس علوم الدين على يد العلامة "ابن أصبغ"، وأخذ علوم التاريخ عن "علي الرعيني"، فكان لكل هؤلاء العلماء وغيرهم أعمق الأثر في تكوين شخصية الحكم العلمية[2]..

---

1 (الشعراء: 128:135).

2 المقَّري: نفح الطيب 1 /395.

وقد نتج عن إقبال الحكم على دراسة العلوم والآداب، ومجالسته للعلماء أن أصبح شغوفًا بـــالعلم وتحصيله، مما كوَّن لديه شخصية علمية فذَّة، جعلت المؤرخين والعلماء يشيدون به، ويعتدُّون بآرائه، ومـــن الأمثلة على أن أقوال "الحكم" كانت حُجَّة لدى العلماء ما أشار إليه "الحميدي" عند ترجمته لابن عبد ربه، إذ قال: "هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر – وخطه حجة عند أهل العلم – ؛ لأنـــه كـــان عالمًـــا ثبتًا[1]"...

ولا شك أنه إذا كان الخليفة "عالمًا ثبتًا"؛ فإن العصر سيكون عصـــر العلـــم والعلمـــاء، والرقـــي والازدهار للأندلس على نحو ما رأينا!!، وهكذا قدم المستنصر إلى الحركة العلمية في الأندلس دفعة كـــبرى من النشاط، بل إنه أسهم فيها إسهامًا ماديًّا، بأن وضع كتابًا في (أنساب الطالبيين والعلويين القـــادمين إلى المغرب)، وذلك لسعة معرفته بالتاريخ والأنساب [2]..

وكان لغلبة النشاط العلمي في عهد الحكم المستنصر أثر في ذهاب بعض المستشرقين إلى القول بأن "انصراف الحكم إلى العلم واهتمامه بالكتب والعناية بها، قد أدَّى إلى عدم تطلعه للغزو والجهاد.."[3] وهـــذا الأمر غير صحيح على إطلاقه، فلم يكن خلفاء المسلمين وعلمائهم ليهتموا بجانب على حساب جانب آخر، ولو أمعنّا النظر في سيرة الحَكَم، لوجدناه قد اهتمَّ – إلى جانب اهتمامه بالعلم – بالجهاد والغزو، وهذا مـــا يثبته المؤرِّخون، فيذكر الحميدي أنه "واصل غزو الروم، ومن خالفه من المحاربين"[4]، ويؤكِّد ابن الخطيب أنه كان "ذا همة عالية في الجهاد، جعلت ملوك عصره يهادنونه ويسالمونه، لقوته وبأسه"[5]، هذا كله بالإضافة إلى أن عصر الحكم كان عصر سلام نسبي مع ممالك النصارى، واستقرار لشتى مناطق الأندلس، وذلـــك بعـــد جهود أبيه (الناصر) وما عقده من معاهدات صلح مع ملوك النصارى.

وقد اتبع الحكم وسائل عديدة لنشر العلم في البلاد فمنها:

1ـــ العناية بالعلوم وتشجيع العلماء على البحث والتأليف: فقد ســـعى إلى تقريـــب أولي العلـــم والمعرفة وإكرامهم، وتهيئة المناخ الملائم الذي يمكِّنهم من الانصراف إلى العلم والبحث العلمي، وبالتالي فقد يسَّر السبل أمام إنتاجهم الفكري حسب تخصص كل منهم، وفي هذا يقول الإشبيلي: "وفي أيامـــه كثُـــرَ العلماء وأدلوا بما بما عندهم، وأُلِّفت التوإليف، وصُنِّفَت التصانيف"[6]..

---

1 الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص101.
2 المقَّري: نفح الطيب 3 /60.
3 لين بول: قصة العربي في أسبانيا، ترجمة علي الجارم ص141.
4 الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس 6.
5 لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة 1 / 478.
6 الإشبيلي: ريحان الألباب " مخطوطة".

ولذلك لا غرابة أن نجد في عصره كثيرًا من العلماء المبرَّزين في شتى ميادين العلم، فبرز في علوم الدين: الليثي، والثغري، وابن الفخار، وغيرهم، وفي ميدان الأدب واللغة برز أبو علي القإلي، وابن الصفّار، وغيرهما، وفي الطب: أحمد الحرّاني، والزَّهراوي،، وفي الرياضيات والفلك والجغرافيا برع المجريطي، وابن السمح وغيرهم من العلماء الذين أسهموا في ازدهار العلوم والآداب بما أضافوه من أنواع الإنتاج العلمي القيم..

2 ــ اهتم الحكم اهتمامًا بالغًا بالكتب، وسار على نهج والده في ذلك، في الحرص على جمع كل المؤلَّفات في مكان واحد، ذلك أنه رأى أنَّه لن يتم النشاط العلمي إلا بتوافر المؤلفات في شتى المجالات، وحتى يتمكن المشتغلون بالعلم وطلاب العلم على السواء من تحصيله بأيسر الطرق.

3ــ توفير المكان المناسب لطلبة العلم.. تمثَّل ذلك في مكتبة "قرطبة" التي تحوَّلت إلى ما يشبه الجامعة بمفهومنا المعاصر، لأنها كانت بحق (دار العلوم)[1]، حيث كانت تستقبل أفواجًا من الكتب، التي كان المستنصر قد أوصى بها أعوانه المنتشرين في كل مكان من العالم الإسلامي يومئذٍ، وهكذا رسم المستنصر خطة لإنشاء مكتبة عامرة تكون عونًا لطلاب العلم، ومرجعًا أساسيًا لكل من أراد الاستزادة، فقد ورث عن أبيه ثروة طيبة من الكتب كانت النواة والأساس لمكتبة قرطبة العظيمة، التي نمّاها الحكم، وأمدَّها بذخائر نفيسة من التأليف العلمية، حتى أصبحت في صورة فريدة لم يجمع مثلها أيُّ خليفة في الإسلام، وبلغ من ضخامة محتويات تلك المكتبة أن اشتُهِرَ أمرُها في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي، حتى أصبحت مثلاً بارزًا على الازدهار العلمي والنشاط الفكري، وغدت من أعظم خزائن الكتب في الإسلام[2]..

يذكر ابن الأبار في حديثه عن الحكم أنه: "كان حسن السيرة فاضلاً عادلاً مشغوفًا بالعلوم، حريصًا على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان، ونفق ذلك لديه، فحُمِلَت من كل جهة إليه، والمُلْكُ سوق، ما نفق فيها جُلِبَ إليها، حتى غصَّت بها بيوته، وضاقت عنها خزائنه[3]".

قال ابن حيان عند ذكر الحَكَم: "كان من أهل الدين والعلم، راغبًا في جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم، باحثًا عن الأنساب، حريصًا على تأليف قبائل العرب وإلحاق من درس نسبه أو جهله بقبيلته التي هو منها، مستجلبًا للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروى عنهم"[4]..

---

[1] انظر الفصل الخاص بقرطبة ص... من هذا الكتاب.

2 القلقشندي: صبح الأعشى 466/1.
3 ابن الأبار: الحلة السيراء 1 /201.
4 الحميدي: جذوة المقتبس 2 /125.

ولم يُسمَعْ في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها، فلقد أفاء على العلم، ونوَّه بأهله ورغَّب الناسَ في طلبه، ووصلت عطاياه وصِلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه، ومنهم أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكِنْدِي وغيرهما؛ جرى ذِكْرُ هذا في كتب تواريخهم.

وكان له ورَّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التوإليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق عنها. ومن وَرَّاقيه ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة، وكان مع هذا كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلَّما تجد له كتابًا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم: يقرؤه ويكتب فيه بخطه – إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه – نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن. وكان موثوقًا به مأمونًا عليه. صار كل ما كتبه حُجَّة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به"[1].

وقال أبو محمد بن حزم في كتاب جمهرة الأنساب من تأليفه، وذكر الحكم: "اتصلت ولايته خمسة عشر عامًا في هدوء وعلو. وكان رفيقًا بالرعية، محبًا في العلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم. وأخبرني تليد الفتى – وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس – أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط"[2].

فإذا كان هذا الحال مع الدواوين (تتجاوز الألفي ديوان) فما بالنا بمصنفات العلم وكتب المعرفة الأخرى، التي ولا شك ستكون أعظم وأكثر عددًا!! بالإضافة إلى أن تلك المقولة تشير إلى ما امتازت به تلك المكتبة من تنظيم، إذ إنَّ مواد المكتبة مرتبة تبعًا لمواضيعها، ولكل موضوع فهرسه الخاص، وهي ما يعرف بالفهرسة الموضوعية الموجودة في مكتبات اليوم.

وذكر المقَّري عند حديثه عن مكتبة المستنصر: "أنه جمع من الكتب مالا يحد ولا يوصف كثرةً ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها"[3].

وقد أشار إلى هذا العدد الهائل من الكتب الكثير من الكتاب المحدثين ممكن كتبوا عن هذا الخليفة و تحدثوا عن سيرته العلمية، بل إن المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه" تشير إلى أن تلك المكتبة ضمت نصف مليون كتابٍ[4]...

---

1 الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس 2 /125.

2 ابن حزم : جمهرة أنساب العرب 1 /44

3 المقري: نفح الطيب 1/ 395.

4 زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب 353.

وهكذا أسهمت هذه المكتبة، وذلك الاهتمام البالغ بالعلم والعلماء في نهضة غير مسبوقة للأندلس، غدت دليلاً واضحًا على مدى ما حققه الحكم المستنصر للحركة العلمية من جهود، وما حققه الأندلسيون في ميدان العلم، جعلتهم يصفون قصر الحكم بأنه "مصنع لا يُرَى فيه إلا النَّسَّاخون والمجلِّدون والمزخرِفون يُحَلُّون الكتب بالمنمنمات والرسوم الجميلة"[1].

والجدير بالذكر أنَّ الورّاقين قد نالوا من وراء علمهم هذا منزلةً رفيعةً في المجتمع، كما أنهم بلغوا درجةً طيبةً من الثَّراء، كل ذلك من اهتمام الخليفة بالعلم، والعلماء والكتب..

ولأهمية النسخ في النشاط العلمي باعتباره وسيلة من وسائل حفظ العلوم وصيانتها من الضياع، ونشرها بين الناس، فقد اهتم الخلفاء باستقدام أمهر الكتاب، وأشدهم عنايةً بالعلم من أجل ذلك، بل وتذكر صاحبة كتاب (فن التجليد عند المسلمين)[2] إلى أن ذلك الاهتمام تعدَّى إلى المجلِّدين المختصين بالشكل الخارجي للكتاب وتجليده، وإخراجه في أحسن صوره.

جهوده في نشر التعليم:

يضاف إلى ذلك جهود الخليفة المستنصر في رفع شأن التعليم في بلاده، وتيسيره لرعيته، فيذكر ابن عذاري أنه: "أمر بإنشاء سبعٍ وعشرين مكتبةً يُلحَق ثلاثٌ منها بالمسجد الجامع بقرطبة، والباقي فرَّقه على أنحاء قُرطُبة، وعيَّن فيها العلماء والفقهاء للقيام بتدريس النشء في تلك المكتبات، وأجرى عليهم المرتبات، وأغدق عليهم الصلات، وبالَغَ في تعليم أطفال المسلمين"[3].

و لم يقتصر الخليفة الحكم على ما تقدَّم، بل كان يسعى للأفضل في سبيل الترقي بالمستوى العلمي لرعيته، فقد أنشأ "حوانيت خاصة" بقرطبة لتعليم أولاد الضعفاء والفقراء؛ مما يدل على أن الحكم قد أتاح الفرصة لجميع أفراد المجتمع في الاستفادة مما هيأه لهم من سبل اكتساب العلم والمعرفة، فلم يعد العلم قاصرًا على ذوي المقدرة المادية من الناس، بل غدت فرص التعليم متاحة لكل من يريد.

الحكم و علماء الشرع:

و لم يقتصر اهتمام الحكم على حدِّ نشر العلم والمعرفة، والاهتمام بالعلوم الحياتية فحسب، بل كان – كما ذكرنا – يحمل كل الإجلال والإكبار لعلماء الشرع، ويوقِّرهم، ويستشيرهم في كل أموره، من ذلك أنه أراد ~ أن يقطع شجرة العنب من الأندلس، في محاولة منه للقضاء على الخمور، فاستشار الفقهاء

1 إنجل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة: حسين مؤنس) 10.
2 اعتماد القصيري: فن التجليد عند المسلمين ص 30.
3 ابن عذاري: البيان المغرب 240/2.

في ذلك، فذكروا له أنها قد تُصنَع من غيرها (أي الخمور)، فكَفَّ عن ذلك[1]، وفي ذلك إشارة دالَّة إلى مكانة هؤلاء العلماء، وما وصلوا إليه وما بلغوه من احترام وتعظيم.
كما كان حريصًا على تعليم ابنه "هشام المؤيَّد" على يد كبار علماء الفقه في الأندلس، وهو" يحيى الليثي" ~، الذي كان مجلسه من أشهر المجالس العلمية في قرطبة، وكان يتوافد عليه الطلاب من شتّى أقطار الأندلس لينهلوا من علمه، ومن بينهم ابن الخليفة، يجلس مع طلبة العلم، كواحد منهم، وقد حمل في نفسه ما ربّاه عليه والده، من إجلالٍ وإكبارٍ للعلم والعلماء[2]..

ولما نبغ الفقيه "عبد الله بن القاسم الثغري"، وحصَّل العلم من أقطار المشرق والمغرب، حتى شبهه أصحابه بسفيان الثوري، لم يكن من الخليفة المستنصر إلا أن ولاّه القضاء على بلاده، تقديرًا لدوره، وعلمه، بالإضافة إلى أنه كان يشجع العلماء على البحث والدرس، فهو الذي جعل الفقيه "محمد بن الحارث الخشني" يؤلِّف عددًا من الكتب يذكر ابن الفرضي أنها بلغت ألف كتاب[3]!!.

ولم يكن "الخشني" وحده من حَظِيَ بتأييد الخليفة، وتشجيعه، بل كان إلى جانبه عدد كبير من العلماء والفقهاء، منهم " أبو بكر محمد بن يحيى" الذي أظهر اهتمامًا كبيرًا بالدراسات الفقهية، وألَّف كتبًا كثيرة في ذلك، منها كتاب خاص عن "فقه التابعين"، ولمعرفته الواسعة بالفقه وأحكام الشريعة، ولاّه الخليفةُ القضاءَ، وأجزل له العطاء[4].

كما يذكر ابن الفرضي (في تاريخ علماء الأندلس) أن "محمد بن عبد الله بن سيد" نال منزلة سامية لدى الخليفة الحكم، وبتشجيع منه كتب له كتاب (المستخرجة) وهو كتاب فقهي في الفقه المالكي[5].

ومن علماء الحديث الذين قرَّبهم "الحكم" كان (قاسم بن أصبغ البياني) ~، الذي يُعَدُّ من كبار حفّاظ الحديث في زمانه، ومن ألمع مَنْ أخرجته الأندلس في هذا الميدان، رحل إلى المشرق فأخذ العلم من" القيروان ومصر وبغداد والمدينة" ثم عاد إلى الأندلس، فتهافت عليه طلاب العلم من كل مكان، وأُعجِبَ "المستنصر" بجهوده، فقرَّبه منه، بل وأمره بتأليف كتابٍ في الحديث، فصنَّف كتابًا في السنن المسندة فيه 2494 حديثًا[6].

---

1 المقري: نفح الطيب 1 / 395.
2 الحميدي: جذوة المقتبس 98.
3 ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 190.
4 ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 191.
5 السابق 192.
6 المقري: نفح الطيب 3/ 169

كما شجَّع المستنصر المحدث "يعيش بن سعيد الوراق" على تأليف كتاب في الحديث سماه (مسند ابن الأحمر) نسبة إلى "محمد بن معاوية القرشي"[1]، ولا شك أن في اهتمام المستنصر بإخراج مصنف في حديث (ابن الأحمر) ما يدل على مكانته العلمية، وما يتمتع به من منزلة علمية كبيرة بين أهل الحديث، ويدلنا كذلك على إحاطة الخليفة بكبار أهل الحديث في عصره، وإنزالهم منازلهم[2]. وكان لابن الأحمر إسهام في حركة الإنتاج العلمي المتصل بالحديث، فقد ألَّف مسندًا في الحديث فيه أربعة آلاف وثلاثون حديثًا..

وكذلك ما فعله الحكم (وقت أن كان وليًا للعهد) من اهتمام بمحمد بن مفرح القرطبي، الذي كان قد رحل للمشرق في طلب العلم، فلمّا عاد للأندلس، أرسل في طلبه، وأكرمه، ورفع مكانته بين علماء الحديث، فصنَّف له مؤلفات عديدة في مختلف ضروب المعرفة[3].

وكان من متابعاته للعلماء، أن تابع النشاط العلمي للعلامة المقَّري "عبد الملك البجاني"، الذي رحل للمشرق، وأخذ عن علمائه، ثم عاد إلى الأندلس ومعه كتاب "الوقف والابتداء" عن نافع برواية (ورش)، وما إن علم الخليفة بذلك حتى بعث في إحضاره، وقرَّبه من مجلسه، وأفاد من علمه[4].

كما اهتم المستنصر بتخصيص جانب من دار الملك (قصر الخلافة) لتكون مركزًا للبحوث والدراسات (كما نطلق عليها اليوم)، يجتمع فيها العلماء والباحثون للبحث والدراسة والتأليف، من هذه الاجتماعات ما يذكره الحميدي في (جذوة المقتبس): "دعا الحكم المستنصر بعض علماء اللغة (محمد بن أبي الحسين، وأبو علي القالي، وابن سيده)؛ وذلك لمقابلة كتاب "العين" للخليل بن أحمد، وأحضر لهم نسخًا كثيرة من هذا الكتاب، وانصرف هؤلاء العلماء إلى دارسة تلك النسخ، ومعرفة وجوه الاختلاف بينها"[5]، وهو عمل يُذكِّرنا بما يقوم به المحقِّقون لكتب التراث هذه الأيام، ويدلُّنا على عقلية الحكم المستنصر العلمية، وحرصه على التحقق من كتبه، وعنايته الفائقة بها.

كذلك يذكر ابن حبان في المقتبس، أنه ~ اهتم بجهود (الزبيدي)[6] في علم اللغة، وخلع عليه "خلعة سنية" بعد تصفحه لكتابه في اختصار كتاب "العين"، بل إن الزبيدي يذكر في تأليفه لكتاب (طبقات النحويين) (الذي ضمَّنه أشهر النحاة في المشرق والأندلس) يذكر أنه اتبع في تأليف هذا الكتاب منهجًا علميًا أملاه عليه الخليفة المستنصر؛ يقول: "ألَّفتُ هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به (أي الخليفة

---

[1] وهو غير سعيد بن الأحمر، ذكره الذهبي في تاريخه بأنه محدث الأندلس ومسندها الثقة، وكان الوراق من أروى الناس عنه، وانظر سير أعلام النبلاء 16/ 68

2 انظر سيرة ابن الأحمر المحدث في: جذوة المقتبس للحميدي ــ 386، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وابن خير الإشبيلي في"الفهرسة"

3 ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 91/2 وما بعدها.

4 المراكشي: الذيل والتكملة لكتاب الصلة 13/5.

5 انظر: الحميدي: جذوة المقتبس ص50 وما بعدها.

6 العالم اللغوي الأندلسي الكبير، وصاحب معجم (تاج العروس)، وله العديد من المؤلفات الثرية.

المستنصر)، وأقمته على الشكل الذي حدَّه.. بعنايته وعلمه، وأوسعني من روايته وحفظه، إذ هو البحر لا تُعبَر أواذيه، ولا تُدرَك سواحلُه..."[1].

وهو بذلك يشير أيضًا إلى سعة علم المستنصر، ومدى اهتمامه بالتأليف، وإدراكه لحاجة الناس لكتابة مثل هذا الكتاب، في طبقات النحويين.

تقديره لعلماء الحياة:

وإذا كان هذا هو الحال مع علماء الشرع، فإن الحال لم يختلف كثيرًا مع علماء الحياة، الذين اهتم بهم المستنصر اهتمامًا بالغًا، وأجزل لهم العطاء، بل يذكر أنه استحدث نظامًا جديدًا للأطباء المشتغلين بخدمة الخلفاء، فقد أنشأ ديوانًا يضم أولئك الأطباء، وينزلهم درجاتٍ متفاوتةً حسب قدرهم وكفاءتهم، فمنهم "أحمد بن حفصون" الذي اشتغل بخدمة الخليفة المستنصر، ونال مكانة عالية بين أطباء البلاط. ولحق بخدمة الخليفة كذلك "أبو بكر أحمد بن جابر"، وكان كبير المنزلة عند الخلفاء مُعظَّمًا لديهم، وكذا الطبيب "أبو عبد الملك الثقفي" الذي جمع بين المهارة في الطب والبراعة في الهندسة، وكان عالي المقام عند المستنصر[2].

وكان المستنصر على عادته في تقديرهم وتشجيعهم على تأليف الكتب المهمة، كلٌّ في مجاله:

فمن العلماء الذين حظوا بعناية المستنصر في مجال الطب (عريب بن سعد القرطبي) وهو مؤرخٌ طبيب، حظي بمكانة عالية عنده، جعلته يُهدي عمدة كتبه، وأجلَّها في هذا المجال للخليفة المستنصر، يقول في مقدمة كتابه (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود): "وإنَّ أحق ما طرقت الهمم إليه، واستعملت الأفكار فيه بعد حقوق الله عز وجل، واستيفاء حدود شكره طلب الزلفى إلى الإمام الحكم المستنصر.. ولما رأيت أنَّ أحظى الأعمال المقربة من رأيه - أيَّده الله - وأقرب الوسائل إليه، وأزكاها لديه تأليف كتب العلم، وجمع منثور الحكم، وتجديد آثار الذين سبقوا إلى فضيلة... تكلَّفت كتابًا يشتمل على أقاويل العلماء في ابتداء خلق الله تعالى الإنسان..."[3].

وفي ميدان طب العيون برع الأخوان أحمد و عمر ابنا يونس الحراني في عصر الناصر والمستنصر، حيث رحلا إلى المشرق ودرسا الطب على يد ثابت بن سنان وغيره، ثم عادا للأندلس، فأحسن المستنصر استقبالهما، ورفع مكانتهما بين علماء الطب... وكان أن تُوُفِّي عمر، وبرع أخوه أحمد من بعده في الطب، فسمح له الخليفة المستنصر بإقامة خزانة طبية بالقصر رتَّب فيها 12 صبيًا لصناعة الأدوية، ولم يكن يبخل بشيء من العلاج للفقراء والمساكين الذين كانوا يترددون على هذه الخزانة (كأنها الصيدلية في أيامنا)[4].

---

1 الزبيدي: طبقات النحويين 231.

2 ابن جلجل: طبقات الأطباء 111.

3 عريب بن سعيد: خلق الجنين (مخطوطة) ورقة 85ب...

4 ابن جلجل: طبقات الأطباء: 113.

كذلك ازدهر علم الفلك في عهد الخليفة المستنصر، فقد أولاه رعايته وأحاطه بتشجيعه، واستجلب من مصر والعراق أهم الكتب الأساسية فيه، قديمها وحديثها، مما أدَّى إلى نبوغ الكثير من الفلكيين الـــذين تخصصوا في مراقبة حركات النجوم واستخدام آلات المرصد، وأثبتوا نبوغهم وعبقريتهم في ذلك المجال بمـــا قاموا به من تصحيح وتحسين للجداول الفلكية، وتقويم نتائج من سبقهم. كما كان له أثـــره البـــالغ ~ في ازدهار الدراسات الرياضية، والبحث في مواضيعها المختلفة، إذ يُروَى عنه أنه كان يقدر العلاّمة (عبـــد الله السري) المعروف ببراعته في الحساب والهندسة، وألَّف كتابًا مشهورًا في (البيع)، وعلى الرغم من حـــرص المستنصر على تقريبه منه للاستفادة من علمه، إلا أنه كان ~ حريصًا على الزهد والبعد عن مجالس الأمراء، إلا في حاجة[1]..

وتذكر المستشرقة (زيغريد هونكة) أن الحكم لم يكن ــ إلى ذلك كله ــ يقتصر في أخذ علـــوم الحياة عن العلماء المسلمين، بل كان من العلماء المقربين إلى مجلسه علماء نصارى، يقـــدرهم ويرفـــع مـــن قدرهم لما لديهم من علم، كان أبرزهم (الأسقف القرطبي ابن زيد) الذي نال مكانة رفيعة لـــدى الحكـــم المستنصر، وصنَّف له كتابًا في الفلك أسماه (تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان) ذكر فيه منازل القمر، ومـــا يتعلَّق بذلك مما يستحسن مقصده وتقريبه..."[2].

وهكذا كان اهتمام الخلفاء في الأندلس بالعلم، وبالكتب، وبالعلماء، لم يقتصر على حدِّ التحفيـــز والتشجيع، بل شمل شتى جوانب النهضة العلمية، وتيسيرها على طلبة العلم، ووصل إلى حدِّ الأمر بكتابـــة المؤلفات، والمكافأة على إنجازها، بل ووضع الخطط العملية، والخطوات المنهجية للباحث والعالم حتى يؤلِّف مؤلَّفاته، التي عُدَّتْ بحقٍّ ذُخرًا للإسلام والمسلمين، وخيرَ دليل على اهتمام هؤلاء الخلفاء رحمهم الله بنهضـــة أمتهم على أساس قوي من العلم، فلا عجب بعد ذلك أن نرى في الأندلس علماء نوابغ، أناروا العالم كلـــه من مغربه إلى مشرقه، وبنوا في الأندلس حضارةً أضاءت الشرق والغرب، وبقيت حتى يومنا هـــذا مثـــالاً يُحتَذَى، ودليلاً راسخًا على أن العلم سبيل للنهضة والرقي والرفعة.

1 القفطي:أخبار الحكماء ص 243

2 شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه ص501.

قرطبة كمثال تطبيقي

مدينة قرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)

في عمق التاريخ.. وفي غابر الزمن.. وفي أرض حُجبت فيها شمسُ العلم والحضارة بغيمٍ كثيف من ظلمات الجهل والتخلف..

وسط كل ذلك.. وامتدادًا لحضارة إسلامية إنسانية، طالت السماء وناطحتها؛ علمًا وقِيَمًا ومجدًا.. بزغ نجم **مدينة قرطبة**، **كشاهدٍ حيٍ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعزّ الإسلام** في ذلك الوقت من التاريخ، وهو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).. يوم أن كانت أوربا تغطّ في جهل عميق..

قرطبة.. ذلك الاسم الذي طالما كان له جرس معين، ووقع خاص في الأذن الإسلامية.. بل وفي أذن كل أوربي آمن بالنهضة والحضارة الإنسانية..

قرطبة.. تلك المدينة التي ينسب إلى عبد الرحمن الناصر أنه قال فيها:

هِمَم الملوك إذا أرادوا ذِكْرَهَا — من بَعْدهم فَبِألْسُن البنيان

أَوَ ما تَرَى الهرمَيْن قد بقيا وكم — مَلِكٌ محاه حوادث الأزمان

إن البناء إذا تعاظم شأنه — أضحى يَدُلّ على عظيم الشان

والتي أنشد أبو البقاء الرندي يرثيها:

وأين قرطبة دار العلوم فكم — من عالمٍ قد سَمى فيها له شان؟!!

وتلك هي الحقيقة..

ولنبدأ بالبداية..

فهي مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من إسبانيا.. وقد أرَّخت لها موسوعة المورد الحديثة فقالت: "أسسها القرطاجيون فيما يعتقد. وخضعت لحكم الرومان والقوط الغربيين"[1] (انظر خريطة رقم 6).

---

1 موسوعة المورد الحديثة (1995).

وقد قام بفتحها القائد الإسلامي الشهيد طارق بن زياد ~، وذلك سنة (93 هجرية - 711 ميلادية).

ومنذ ذلك العهد بدأت مدينة قرطبة تخط لنفسها خطًا جديدًا وملمحًا مهمًا في تاريخ الحضارة.. فبدأ نجمها في الصعود كمدينة حضارية عالمية، لاسيما في عام 138هـ / 756م، عندما أسس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) لقيام الدولة الأموية في الأندلس، وذلك بعدما سقطت في دمشق على أيدي العباسيين..

وفي عهد عبد الرحمن الناصر (أول خليفة أموي في الأندلس) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، بلغت قرطبة أوج ازدهارها، وقمة ريادتها وحضارتها، خاصة وأنه اتخذها عاصمة لدولته الفتية، ومقرًا له كخليفة للمسلمين في العالم الغربي.. وقد جعل منها منبرًا للعلوم والثقافة والمدنية.. حتى غدت تنافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قارتها، وبغداد عاصمة العباسيين في المشرق، والقيروان والقاهرة في إفريقيا.. وحتى أطلق عليها الأوروبيون "جوهرة العالم"..!!

وقد شمل اهتمام الأمويين بقرطبة اهتمامهم كذلك بنواحي الحياة المختلفة فيها، من زراعة وصناعة، وبناء الحصون، ودور الأسلحة وغيرها.. وقد شقوا الترع وحفروا القنوات، وأقاموا المصارف، وجلبوا للأندلس أشجارًا وثمارًا لم تكن تزرع فيها..!!

معالم من قرطبة

في هذه السطور القادمة سنتعرف على بعض مظاهر الرقي والحضارة التي تميزت بها الأندلس عامة، وقرطبة خاصة؛ لنقف على الإسهامات الإسلامية لمسيرة الإنسانية..

1) قنطرة قرطبة:

كان من المعالم المهمة في قرطبة "قنطرة قرطبة" (انظر صورة رقم 2)، والتي تقع على نهر الوادي الكبير، وقد عرفت باسم "الجسر" وأيضًا "قنطرة الدهر"، وكان طولها سبعةً وثلاثين مترًا تقريبًا، وعرضها ثمانون ذراعًا (الذراع يساوي 46.2 سم)، وارتفاعها ستون ذراعًا!!

وقد وصفها ابن الوردي فقال: وبمدينة قرطبة القنطرة العجيبة التي فاقت قناطر الدنيا حسنًا وإتقانًا، وعدد قسيها سبعة عشر قوسًا، كل قوس منها خمسون شبرًا وبين كل قوسين خمسون شبرًا[1]..

ووصفها الإدريسي فقال: ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخرًا في بنائها وإتقانها، وعدد قسيها سبع عشرة قوسًا، بين القوس والقوس خمسون شبرًا، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبرًا، وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرًا، ولها ستائر من كل جهة تستر القامة، وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعًا، وإذا كان السيل بلغ الماء منها إلى نحو حلوقها، وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الخاشنة من الرخام، وعلى هذا السد ثلاث بيوت أرحاء، في كل بيت منها أربعة مطاحن[2]..

2) مسجد قرطبة:

يعتبر الجامع الكبير من أهم معالم قرطبة وآثارها الباقية إلى اليوم.. وهو يُسمى بالأسبانية Mezquita (وتنطق: ميتكيتا) وهي تحريف لكلمة (مسجد)، وقد كان أشهر مسجد بالأندلس (على اعتبار أنه الآن كاتدرائية)، ومن أكبر المساجد في أوربا..!!

وقد بدأ بناؤه عبد الرحمن الداخل سنة 170هـ/ 786م ومن بعده ابنه هشام الأول.. وكان كل خليفة جديد يضيف لهذا الجامع ما يزيد في سعته وتزيينه.. ليكون أجمل المساجد في مدينة قرطبة، ومن أكبر المساجد وقت وجوده..!!

وفي وصف لهذا الجامع يقول صاحب الروض المعطار: وبها (بقرطبة) الجامع المشهور أمره الشائع ذكره، من أجلِّ مساجد الدنيا كبرَ مساحة، وإحكامَ صنعة، وجمالَ هيئة، وإتقان بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميمًا إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقًا وطولاً وعرضًا!!

1 ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص12.

2 الإدريسي: نزهة المشتاق 579/2.

طوله مائة باع وثمانون باعًا، ونصفه مسقف ونصفه صحن بلا سقف، وعدد قسي مسقَّفه أربع عشرة قوسًا، وسواري مسقفه بين أعمدته وسواري قببه صغارًا وكبارًا مع سواري القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلها تحمل اثني عشر مصباحًا، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر الطرطوشي، ارتفاع الجائزة منه شبر في عرض شبر إلا ثلاثة أصابع، في طول كل جائزة سبعة وثلاثون شبرًا، وبين الجائزة والجائزة غلظ الجائزة، وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يشبه بعضها بعضًا، قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل، فهي تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها، وسعة كل بلاط من بلاط سقفه ثلاثة وثلاثون شبرًا، وبين العمود والعمود خمسة عشر شبرًا، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام.

ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها، وفيها من الفسيفساء المذهب والبلور مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله.. وفي جهتي المحراب أربعة أعمدة: اثنان أخضران واثنان زرزوريان، لا تُقوَّم بمال، وعلى رأس المحراب خَصّة رخام قطعة واحدة مسبوكة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان، واستدارت على المحراب حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة، ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة، خشبه أبنوس وبقس وعود المجمر، يقال إنه صنع في سبع سنين، وكان صناعة ستة رجال غير من يخدمهم تصرفًا!!

وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطسوت ذهب وفضة وحسك، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة سبع وعشرين من رمضان، وفي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان > الذي خطه بيمينه، وفيه نقطة من دمه، ويخرج هذا المصحف في صبيحة كل يوم، يتولى إخراجه قوم من قَوَمة الجامع، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش، وله كرسي يوضع عليه، فيتولى الإمام قراءة نصف حزب فيه، ثم يرفع إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي إلى القصر، بين حائطي الجامع في ساباط متصل، وفي هذا الساباط ثمانية أبواب، منها أربعة تنغلق من جهة القصر وأربعة تنغلق من جهة الجامع، ولهذا الجامع عشرون بابًا مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس، وفي كل باب منها حلقتان في غاية الإتقان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفصّ المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك، أنواع شتى وأصناف مختلفة من الصناعات والتنميق.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة (المئذنة) الغريبة الصنعة، الجليلة الأعمال، الرائقة الشكل والمثال، ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي، منها ثمانون ذراعًا إلى الموضع الذي يقف عليه

المؤذن، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعًا، ويصعد إلى أعلى هذا المنار بدرجين: أحدهما من الجانب الغربي، والثاني من الشرقي، إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى، ووجه هذه الصومعة مبطن بالكذّان منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة، بصنعة تحتوي على أنواع من التزويق والكتابة.

وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسيّ دائرة على عقد الرخام، وبيت له أربعة أبواب مغلقة يبيت فيه في كل ليلة مؤذنان، وعلى أعلى الصومعة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهبًا واثنتان من فضة وأوراق سوسنية، تسع الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلاً من الزيت، ويخدم الجامع كله ستون رجلاً، وعليهم قائم ينظر في أمورهم[1]. ا.هـ

وقريب من ذلك يصفه ابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب)..

وقد كانت ساحته تملأها أشجار البرتقال والرمان، ليأكل منها الجائعون والقادمون إلى المدينة من شتى البقاع[2].. (انظر صورة رقم 3)!!

ومما يحزن له القلب وتدمع له العين أن هذا المسجد العظيم المهيب قد تحوّل عقب سقوط الأندلس إلى كاتدرائية، وأصبح تابعًا للكنيسة، مع احتفاظه باسمه، وتحولت مئذنته الشاهقة إلى برج تنتصب فوقه أجراس الكنيسة لإخفاء طابعها الإسلامي، كما لا يزال يعلو جدرانه المنيعة نقوشٌ قرآنية تعكس عبقرية فنية نادرة!! وهو الآن من أشهر المواقع التاريخية في العالم كله.. وتستطيع دخوله مقابل دفع 6 يورو..!!

وفي ذلك يقول إقبال يخاطبه:

إن أرضًا أنت فيها لسماء للعيون

كيف لم يسمع أذانًا أهلها منذ قرون؟

3) جامعة قرطبة:

لم يقتصر دور مسجد قرطبة على العبادة فقط، وإنما كان أيضًا **جامعة علمية** تُعد من أشهر جامعات العالم آنذاك، وأكبر مركز علمي في أوروبا، ومن خلاله انتقلت العلوم العربية إلى الدول الأوروبية، وعلى مدى قرون..!!

1 الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار 456/1، 457.

2 ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب.

وكان يُدرس في هذه الجامعة كل العلوم، وكان يُختار لها أعظم الأساتذة.. وكان طلاب العلم يفدون إليها من الشرق والغرب على السواء، مسلمين كانوا أو غير مسلمين..!!

وقد احتلت حلقات الدرس والعلم أكثر من نصف المسجد، وكان للشيوخ راتبٌ جيد ليتفرغوا للدرس والتأليف، وكذلك أيضًا خصصت أموال للطلاب، ومكافآت ومعونات للمحتاجين..!!

وهو الأمر الذي أثرى الحياة العلمية بصورة ملحوظة في ذلك الوقت وفي تلك البيئة، واستطاعت قرطبة أن تخرج للمسلمين وللعالم الجم الخفير من العلماء، وفي جميع مجالات العلوم.. وفي السطور التالية نتعرف على بعض منهم..

علماء من قرطبة

لا غرو بعد أن يكون في قرطبة تلك الجامعة العريقة، وهؤلاء الحكام المهتمون بالعلم بهذه الدرجة الكبيرة (سنتعرض لذلك وسنبين الحياة العلمية في قرطبة والمكتبات التي كانت بها) أن تنجب قرطبة الكثير من العلماء، الذين كانوا شعلة مضيئة في سماء العلوم ومحراب الإنسانية..

وهذان مثالان رائعان لعلماء هذه الفترة العظيمة من فترات التاريخ الإسلامي..

أولاً: الزهراوي:

يُعد خلف بن عباس أبو القاسم، الزهراوى، الأندلسي (325 -404هـ / 936 - 1013م) أشهر جراح، وطبيب، وعالم بالأدوية وتركيبها في ذلك الوقت.. وقد سبق أن تحدثنا عنه في أكثر من موضع في هذا الكتاب..

وقد ولد الزهراوي بالزهراء، من ضواحي مدينة قرطبة، ونشأ بها، وتعلم الطب بجامعة قرطبة علي أيدي أطبائها.. وقد برع فيه حتى أصبح طبيب الخليفة الأموي، الحكم الثاني!!

وللزهراوي في الطب إنجازات وإبداعات علمية صارت حديث العلماء في الشرق والغرب في عصره وبعد عصره.. فهو أول من أسس علم الجراحة العامة في العالم، وأول من مارس الجراحة بيديه من بين الأطباء العرب السابقين له والمعاصرين؛ فقد كان الحجامون هم الذين يقومون بالعمليات الجراحية تحت إشراف الأطباء الباحثين كعلماء في الجراحة[1]..

---

1 انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص332،331.

كما يعد الزهراوي أول رائد لفكرة الطباعة في العالم؛ فلقد خطا الخطوة الأولى في صناعة الطباعة، وسبق بها الألماني يوحنا جوتنبرج بعدة قرون، وقد سجل الزهراوي فكرته عن الطباعة ونفـذها في المقالـة الثامنة والعشرين من كتابه الفذ "التصريف"..

ففي الباب الثالث من هذه المقالة، ولأول مرة في تاريخ الطب والصيدلة يصف الزهراوي كيفيـة صنع الحبوب (أقراص الدواء)، وطريقة صنع القالب الذي تصب فيه هذه الأقراص أو تحضر، مع طبع أسمائها عليها في الوقت نفسه باستخدام لوح من الأبنوس أو العاج مشقوق نصفين طولاً، ويحضر في كل وجه قدر غلظ نصف قرص، وينقش علي قعر أحد الوجهين اسم القرص المراد صنعه، مطبوعًا بشـكل معكـوس، فيكون النقش صحيحًا عند خروج الأقراص من قالبها؛ وذلك منعًا للغش في الأدوية، وإخضاعها للرقابـة الطبية[1]..!!

ويعد الزهراوي أيضًا المبتكر الأول لعملية القسطرة، وصاحب فكرتها والمبتكر لأدواتها.. وقـد وصف عملية غسل المثانة وأدخل إليها بعض السوائل المطهرة بواسطة الآلات.. وابتكر الزهراوي كذلك آلة دقيقة جدا لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة؛ لتسهيل مرور البول.. كما نجح في إزالة الدم من تجويف الصدر، ومن الجروح الغائرة كلها بشكل عام..!!

وفي الجراحة العامة يعد الزهراوي أول من أجري عملية شق القصبة الهوائية "تراكيو ستومي" علي خادمه، ونجح فيها، وكان الأطباء قبله، مثل ابن سينا والرازي، قد أحجموا عن إجرائها لخطورتها..

والزهراوي كذلك هو أول من نجح في إيقاف نزيف الدم أثناء العمليات الجراحية، وذلك بـربط الشرايين الكبيرة، وسبق بهذا الربط سواه من الأطباء الغربيين بستمائة عام.. والعجيب أن يأتي من بعده من يدعي هذا الابتكار لنفسه، وهو الجراح إمبراطور باري عام 1552 م!!

والزهراوي هو أول من استخدم خياطة الجراح بإبرتين، وبخيط واحد مثبت فيهما.!!

وهو أخيرًا أول من ابتكر التدريز، أو التخطيط المثمن في جراحات البطن.. وأول من مارس تخييط الجراح من الداخل، كي لا تترك أثرا مرئيا للجراح، وقد أطلق علي هذا العمل اسم "إلمام الجـروح تحـت الأدمة".. وبذلك يعد الزهراوي رائدا أيضًا في أولي عمليات جراحات التجميل[2]!!

---

1 انظر علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص266.

2 شوقي أبو خليل: علماء الأندلس ص31.

هذا وقد خرَّجت قرطبة للمسلمين وللعالم أجمع - غير ما ذكرنا - علماء كثيرين، وفي شتى المجالات، ولا يتسع المجال هنا لجمعهم، ويكفي أن نذكر أنه كان منهم غير ما سبق: ابن باجه، وابن طفيل، ومحمد الغافقي (أحد مؤسسي طب العيون)، وابن عبد البر، وابن رشد، والإدريسي، وأبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي، والقاضي القرطبي النحوي، والحافظ القرطبي، وأبو جعفر القرطبي، وغيرهم كثير..

وإن هذا ليحدو بنا إلى أن نتعرف على السبيل الذي جعل قرطبة تُخرِّج كل هؤلاء العلماء، والذين أضاءوا عصور الظلام في أوربا، وبددوا الجهل والتخلف، وأفادوا الإنسانية في أوربا والعالم الإسلامي، وقادوها إلى الرفعة والمدنية..

وأعني: السبيل الذي جعل من قرطبة عاصمة عالمية للحضارة العلمية والمدنية..

التعليم والمكتبات في قرطبة:

كان للخلفاء دور كبير في إثراء الحياة العلمية في قرطبة، فلم يهملوا الجانب الثقافي والمعرفي، والذي ولعوا به ولعًا قبل غيرهم.. وكم كان في قرطبة من خلفاء علماء، ووزراء حكماء..!!

فقد كان الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 - 350 هـ/ 913 -962م) ذا ولع وحب شديد للعلم والمعرفة.. وفي صورة تعبر عن ذلك أن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع لم يجد شيئًا يتقرب به إلى قلب الناصر حينما عزم على عقد معاهدة معه سوى أن يهديه كتابًا جديدًا لم يعرفه من قبل، وهو كتاب ديسقوريدس، وكانت هذه النسخة رائعة، حيث كتبت بحروف من ذهب وزينت برسوم جميلة[1]!!

وإن حب الناصر للكتب هو الذي جعله يهتم بمكتبة القصر كثيرًا، ويقوم بتزويدها بكل ما هو نفيس من الكتب.

ولما تولى الحُكم الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر في سنة 350هـ / 962م جعل كل هدفه السير بالأندلس قدمًا في طريق العلم والمعرفة، فوجه جل اهتمامه إلى بناء وتعمير مكتبة قرطبة أو مكتبة القصر..

ولأنه لم يكن للمكتبات عند إنشائها أبنية مستقلة خاصة، بل كانت المكتبة جزءًا غير مستقل من مبنى المؤسسة التي تنشأ في كنفها، فكانت مكتبة الحكم تشغل أحد أجنحة قصر الخلافة بقرطبة، وكان هذا الجناح هو ما يعرف في التاريخ باسم **مكتبة الحكم، أو مكتبة قرطبة الأموية**..

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 328/1.

وعندما ضاقت غرف المكتبة بما تحويه من كتب، علاوة على عدم استيعابها للزيادة المطـردة مـن الكتب، كان من الضروري أن تنقل المكتبة في مكان آخر، وقد استغرقت عملية النقل هذه سـتة أشـهر كاملة!!

وكان المبنى الجديد يضم عددًا من الأقسام، منها: قاعة الكتب، وهي أصل المكتبة، ومركز البحث والتأليف، ومركز النقل والترجمة، ومركز التدقيق والمراجعة..

أما وظائفها الخاصة فكانت على النحو التالي:

1) المكتبة:

وتشمل القاعة الرئيسية في مبنى المكتبة، وكانت تحوي عددًا كبيرًا من الكتب التي كـان يجمعهـا الأمراء من كل حدب وصوب..

ولقد جمع الحكم من الكتب ما لا يحد كثرة ولا يوصف نفاسة، وصلت على وقتـه 400.000 مجلد، استغرق نقلها ستة أشهر.. ووصل عدد فهارس المكتبة فقط في أسماء دواوين الشعر 44 فهرسا، بكل فهرسة عشرون ورقة..

واهتم الحكم بهذه الكتب عناية كبرى، فجمع في قصره حذاق النساخين، والمهـرة في الضـبط، والمجيدين في التجليد صيانة لكتبه.

وقد اعتمدت المكتبة على مجموعة مصادر في بناء وتنمية مجموعاتها من الكتب، كان منها: الشراء، ويعتبر المصدر الأهم في جمع الكتب؛ حيث كان الحَكم ينفق في شراء الكتب ونوادر المخطوطات أمـوالا طائلة!!

وعلى سبيل المثال بعث الحكم في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، ودفع إليه فيه ألف دينار، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يظهر في بغداد[1]!!

وكذلك ألف له كتابًا يتضمن أنساب قومه بني أمية، وقد فعل الحكم ذلك أيضًا مع القاضـي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر، ومحمد بـن يوسف الوراق الذي صنف له كتابًا ضخمًا في مسالك إفريقية وممالكها، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بـن يحيى بن مفرج[2].

---

1 جودة هلال، محمد محمود صبح: قرطبة في التاريخ الإسلامي ص80.

2 ابن الأبار: الحلة السيراء ص48.

وكان يعين هؤلاء الكتاب بالمال على كتابة مصنفاتهم، كما كان لا يتردد في مساعدتهم عن طريق إعارتهم ما كانوا يحتاجون إليه من مصادر؛ فقد أرسل إلى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب (تاريخ مصر والمغرب) كتابا، استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه المذكور، في القسم الخاص بالأندلس1..

ولقد كان من المصادر أيضًا غير الشراء: الهبات والهدايا؛ فكان العلماء يهدون الكتب لمن يطلبها على سبيل الهبة، حتى ولو كان المطلوب مخطوطًا أصليًا نادرًا.. وفضلاً عن ذلك فقد كانت تأتي كتب أجنبية من البلدان الأخرى هدية إلى حكام المسلمين..

ومن المصادر أيضًا: الوقف؛ وكان يمثل مصدرًا مهمًا في إثراء المكتبة بالمجموعات القيمة من الكتب، حيث كان الحكام والمحكومون شديدي الرغبة في وقف الكتب على مختلف معاهد التعليم، وإنشاء المكتبات بها؛ حتى ينالوا الأجر والثواب من الله على ذلك، وإفادة طلاب العلم من جهة أخرى2.

2) مركز البحث والتأليف:

وهو يشمل فئات من الباحثين والمؤلفين، كل على حسب تخصصه، فكان فيها من العلماء المتخصصين في مختلف فروع المعرفة، وكان يتم تكليف بعض علماء الأندلس للتأليف في تخصصات معينة، ومن أمثلة ذلك: تكليف محمد بن الحارث الخشني لتأليف بعض الكتب للمكتبة، كان منها كتاب (تاريخ قضاة قرطبة)، وكتاب (فضائل الإمام مالك)، وغيرها كثير[3]..

3) مركز النقل والترجمة:

كان مركز النقل والترجمة يُزود المكتبة بالمصنفات في الحضارة الأجنبية والفكر العالمي، ومن ثم اهتم القسم بترجمة أمهات الكتب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، وقد عمل في قسم الترجمة نخبة ممتازة من لمترجمين الذين يجيدون اللغات الأجنبية، خاصة اليونانية واللاتينية، وكان منهم: عبد الله الصقلي، ومحمد النباتي، ومحمد بن سعيد، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم، وغيرهم.. وكان أكثر العلوم التي ترجمت في المجالات العلمية: الطب والهندسة والفلك4.

4) مركز التدقيق والمراجعة:

---

1 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص46.

2 انظر: ابن الجوزي: المنتظم 42/9، وانظر الجبرتي: عجائب الآثار 566/1.

3 إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص48.

4 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 328/1.

كانت مهمة هذا القسم مراجعة الكتب وتصحيحها وتهذيبها، سواء المؤلفة أو المترجمة؛ حتى تصبح خالية من النقص العلمي أو العيب المادي، وكان يعمل في هذا القسم نخبة من العلماء المعروفين، والمشهود لهم بغزارة علمهم وتميزهم في كل تخصص.. وكان من هؤلاء العلماء: الرياض محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي، وأبو محمد بن أبي الحسن الفهري القرطبي، ومحمد بن معمر الجياني[1].

5) إدارة المكتبة:

شملت المكتبة فِئات من العاملين، منهم فئة المؤلفين، وفئة المترجمين، وفئة منتجي الكتب، وتشمل النساخين ومن في حكمهم، كالمراجعين والمجلدين والمزخرفين، وفئة المتخصصين في شئون المكتبات، كالقائمين بالأعمال الفنية والخدمات المكتبية، بالإضافة إلى فئة العمال والسعاة الذين يقومون بعمليات الأمن والحراسة، وتنظيم أثاث المكتبة.

وكان الأفراد في كل فئة يعملون تحت إشراف مسئول يتولى شئون العمل من حيث توزيعه عليهم وتجهيز مستلزماته، وكان يشرف على هؤلاء جميعًا من الناحية العلمية والإدارية "خازن".. كانت وظيفته تماثل وظيفة رئيس المكتبة أو مدير المكتبة، وكان يتولى وظيفة الخازن أحد أساطين العلماء، أو أحد مشاهير الأدباء، بحيث يسمح عمله وتتيح ثقافته وخبرته القيام بهذه المسئوليات الجسام على أكمل صورة.

وعلى هذا.. كان للحياة العلمية على المستوى العام في قرطبة لونٌ آخر.. وشأنٌ جديدٌ، لم تعهدهما تلك البقعة الجغرافية في زمانها..

قرطبة الألفية الثالثة:

للحال التي رأينا.. وللحياة التي شاهدنا.. لا غرو أن تصبح قرطبة (منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي) وكأنها مدينة عصرية، تضارع المدن العالمية في الألفية الثالثة..!!

وكيف العجب وقد شهدت الحياة العلمية والتعليمية فيها نهضة قلما نراها في عصرنا هذا.. حتى انتشرت المدارس لتعليم الناس، وحتى انتشرت المكتبات الخاصة والعامة، وحتى صارت هي أكثر بلاد الله كتبًا، وحتى غدت مركزًا ثقافيًا ومجمعًا علميًا لكل العلوم وفي شتى المجالات..

1 خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي دار المعارف ص 192.

ومن عجيب ما يروى هنا أن ابن رشد تناظر يومًا مع أبي بكر بن زهر، فقال ابن رشد: إذا مات عالم بإشبيلية فأُرِيد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات بقرطبة مطرب فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية[1]..!!

وقد كان الفقراء يتعلمون في مدارس بالمجان على نفقة الحكام أنفسهم.. ولذا فليس عجيبًا أن تعلم أن جميع أفراد الشعب كان قد عرف القراءة والكتابة، **ولم يوجد في قرطبة شخص واحد لا يجيد القراءة والكتابة**[2].. في حين لم يكن يعرفها أرفع الناس في أوربا، باستثناء رجال الدين..!!

وجدير بالذكر أن هذه النهضة العلمية والحضارية في قرطبة في ذلك الوقت، واكبها أيضًا نهضة إدارية، وذلك من خلال عدد من المؤسسات والنظم الرائدة في الحكم، ومنها: الإمارة والوزارة، وقد تطورت أنظمة القضاء والشرطة والحسبة..

وواكبتها أيضًا نهضة صناعية عظيمة؛ إذ تطورت فيها الصناعة كثيرًا، واشتهرت صناعات مثل: صناعة الجلود، وصناعة السفن، وآلات الحرث، والأدوية وغيرها.. وكذلك استخراج الذهب والفضة والنحاس[3]!!

أما إذا نظرت إلى الحياة المدنية والعصرية فيها، فتراها مقسمة إلى خمس مدن، يقول المقري: "وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفي كل منها من الحمامات، والأسواق، والصناعات.. ما يكفي أهلها"[4].

كما تميزت قرطبة – كما يذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان، والإدريسي في نزهة المشتاق – بأسواقها الممتلئة بكافة السلع، وكان لكل مدينة سوقٌ خاص بها[5]..

وقد بلغ عدد ضواحي قرطبة ثمان وعشرين ضاحية، وكان فيها ثلاثمائة حمامًا، وثلاثة آلاف مسجد، وكان عدد سكان قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر خمسمائة ألف نسمة.. وتعتبر بذلك ثاني أكبر مدينة في تعداد السكان في العالم بأسره في ذلك الوقت، وذلك بعد بغداد المدينة الأولى، والتي كان تعداد سكانها يبلغ ثلاثة ملايين..!!

والجدير بالذكر أن عدد سكان قرطبة حاليًا يبلغ 310,000 نسمة تقريبًا[6]!!

---

1 المقري: نفح الطيب 155/1.

2 محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام ص 99. ط ثانية 1978م.

3 القلقشندي: صبح الأعشى 218/5.

4 المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب 558/1.

5 ياقوت الحموي: معجم البلدان 324/4.

6 موقع ويكبيديا الرابط:

وكانت قرطبة منذ عهد عبد الرحمن الناصر، والذي يعد عصره أزهى عصور الأندلس جميعًا؛ إذ أنه حكم الأندلس خمسين عامًا أثبت خلالها أنه أكفأ الحكام، واستطاع أن يحرز نجاحًا تامًا في ميدان السياسة وفي ميدان الحضارة على السواء.. كانت قرطبة في عهده تُضاء بالمصابيح ليلاً لمسافة 16 كم..!! وكانت مبلطة، ومحاطة بالحدائق الغناء..!! وكذلك انتشر فيها البريد..!!

وقد طرق قرطبة في حدود سنة 350هـ ابن حوقل، التاجر الموصلي - كما يحكي ياقوت في معجمه - فقال يصفها: "وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسافله من ربضها وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديها، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع، ومساكن العامة بربضها، وأهلها متمولون متخصصون"[1].

بل إن سكان قرطبة قد تميّزوا خاصة بأنهم أشراف الناس وعلمائهم، وأرفعهم مكانةً..!!

يقول في ذلك الإدريسي في نزهة المشتاق: "ولم تخلُ قرطبة قَطّ من أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة، ولهم مراكب سنية وهمم علية.."[2]!!

ويقول الحِميري في الروض المعطار: "قرطبة: قاعدة الأندلس، وأم مدائنها، ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، **وهم أعلام البلاد وأعيان الناس**، اشتهروا بصحة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزي، وعلو الهمة، وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء.."[3].

ويصفها ياقوت في معجمه فيقول: "مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها، وكانت سريرًا لملكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أمية، ومعدن الفضلاءِ ومنبع النبلاءِ من ذلك الصقع.."[4].

ويقول أبو الحسن بن بسّام في كتابه الذخيرة: "كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر درر القرائح؛ ومن أفقها طلعت نجوم

---

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D%82%9D%8B%1D%8B%7D%8A%8D%8A9_(%D%8A%5D %8B%3D%8A%8D%8A%7D%86%9D8%9A%D%8A(7

1 ياقوت الحموي: معجم البلدان 324/4.
2 الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 575/2.
3 الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص456.
4 ياقوت الحموي: معجم البلدان 324/4.

الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر؛ وبها انتشأت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة؛ والسبب في ذلك، وتبريز القوم قديمًا وحديثًا هنالك على من سواهم، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على أهل البحث والطلب، لأنواع العلم والأدب[1].

وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق – يعني قرطبة خاصة والأندلس عامة – أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها؛ فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرقٍ كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر.."!!

ويصفها وأهلها ابن الوردي في خريدة العجائب فيقول: "وأهلها أعيان البلاد، وسراة الناس في حسن المآكل والملابس والمراكب وعلو الهمة، وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء وأجلاء الغزاة وأمجاد الحروب.."!!

ثم قال بعد أن وصف مسجدها وقنطرتها: "ومحاسن هذه المدينة أعظم من أن يحيط بها وصف"[2]..!!

كانت هذه هي إحدى مدن الحضارة الإسلامية في العالم الغربي.. وليست هي الوحيدة، بل لو كان حديثنا عن بغداد أو دمشق أو القاهرة أو البصرة أو غيرها وغيرها، لكان على نفس الدرجة من العجب أو أشد.. ولا غرو؛ فهذه حضارة المسلمين، أعظم حضارات الدنيا، ودرة الجبين في تاريخ الإنسانية الطويل!!

1 أبو الحسن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 33/1، تحقيق: إحسان عباس.

2 ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص12.

المبحث الرابع: دور العلم في بناء الدولة الزنكية والأيوبية

(نور الدين محمود ـ صلاح الدين الأيوبي)

إنه المجاهد الكبير نور الدين محمود، الذي تولَّى إمارة حلب بعد وفاة والده المجاهد أيضًا (عماد الدين زنكي)؛ فوضع نصب عينيه السير على منهاج أبيه في جهاد الصليبيين، الذين كانوا قد بدءوا في احتلال إمارات الشام، وتمكَّن من التغلُّب عليهم، في بعض المناطق، وتمكن من فرض سيطرته على عددٍ من قلاع الشام، كما استطاع – كذلك – أن يضم إنطاكية لإمارته، ثم دمشق بعد ذلك، ثم استطاع أن يضم إليه مصر، ودخلت تحت سيطرته.

لقد كان ذلك المجاهد قريبًا من العلم قربه من الجهاد؛ فيذكر (ابن عساكر) في حديثه عن (نور الدين محمود): "وكان حريصًا على تحصيل الكتب الصحاح والسنن، كثير المطالعة للفقه والحديث"[1].

جهوده في نشر العلم:

إنَّ من مآثر نور الدين محمود أن حياة الجهاد العظيمة التي عاشها لم تشغله عن الاهتمام بالعلم سواء بتعلمه أو الاهتمام بنشره؛ فقد أُثِرَ عن نور الدين محمود ~ اهتمامُه الشديد بالعلم، والمبالغة في العطاء عليه، رغبةً منه في إعادة بناء دولته (الزنكية) بناءً قويًّا على أساسٍ من العلم؛ من هنا حرص ~ على نشر العلم والتعليم بين الناس، فأمر بإنشاء عدد من مدارس الفقه في شتى مذاهبه، لتكون قبلةً لطلاب العلم، فأمر بإنشاء (المدرسة العادلية) في المذهب الشافعي، والمدرسة (البدرية) للمذهب الحنفي، وكان أول مَنْ بنى مدرسةً للحديث هو نور الدين محمود[2]، فقد كان يؤمن أنه لا يمكن أن تقيم راية الجهاد إلا إذا أعددت الشعب بالتعليم؛ لذا كان يُعِدُّ الناس للجهاد بنفخ روح الإيمان في نفوسهم من ناحية، وبنشر العلم والثقافة من ناحية أخرى.

ولم يكن اهتمامه ~ منصبًا على علوم الدين فحسب، بل كان يقدر لعلوم الحياة قدرها؛ فقد كان ~ شديد الاهتمام بالابتكار في سائر المجالات كالفلك وعلم النجوم، وكان يحثُّ العلماءَ على الابتكار؛ من ذلك ما فعله مع رضوان بن رستم الساعاتي، الذي صنع الساعاتِ التي عند باب الجامع الأموي بدمشق، حيث كان يخصُّه بالكثير من المال والعطايا، حتى يتقدم في صناعته ويتقنها[3]..

---

1 ابن عساكر : تاريخ دمشق 57/ 118.

2 انظر بالتفصيل: عبد القادر النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس 149/1.

3 عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 433/1.

كذلك اهتمَّ نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات)، وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب، وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية، وتُعتَبَر البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات.

وكان الملك العادل نور الدين محمود وخلفاؤه من البيت الأيوبي هم أول من استكثر منها من الملوك والسلاطين، كما اهتموا بدراسة الطب وممارسته اهتمامًا بالغًا وقايةً لبلادهم من الأوبئة والأمراض، وكانت حلب في عهد الملك نور الدين محمود إحدى مراكز تدريس الطب في بلاد الشام، وكان ميدان ذلك البيمارستان النوري الذي كان يؤدي رسالة علمية لها أهميتها في تدريس الطب إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية علاج المرضى ومتابعتهم1.

أهم المؤسسات العلمية التي أنشأها:

1- البيمارستانات:

أ- البيمارستان النوري: قال ابن الشحنة: إن الملك نور الدين محمود هو الذي بنى هذا البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهواء2. وقد ذكر ابن الشحنة أنَّ الملك نور الدين حينما أراد بناء هذه البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة، صحيحة الهواء صالحة لإقامة البيمارستان بها، وذبحوا خروفًا وقطعّوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلمّا أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الرّبع الذي كان في هذا الموقع، فبنوا البيمارستان فيه ، وهذه خطة حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان، ومما يذكر أن هذا الأمر شبيه بما فعله "الرازي" من قبل في بغداد حينما أشرف على بناء المستشفى العضدي3، كل ذلك في وقت تنعدم فيه آلات قياس الأبعاد ودرجات الحرارة واختبارات الأجواء.

ويقع هذا البيمارستان حاليا في منطقة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف حاليا بزقاق البهراميّة4، وقد وجد مكتوبًا عند باب البيمارستان: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قِسيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين ناصر الحق بالبراهين محي العدل في العالمين قامع الملحدين قاتل الكفرة المشركين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته5، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان عددًا كبيرًا من الأوقاف1؛

1 إبراهيم المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 412.

2 ابن الشحنة :الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص230 .

3 قام الرازي أيضًا بذبح خروف ، وتقطيعه أربعة أرباع، ووضع كل ربع في مكان، ولما أصبح نظر إلي أكثر الأجزاء التي لم تتغير رائحتها، فبنى فيها المستشفى: انظر السباعي: من روائع حضارتنا 101 .

4خير الدين الأسدي: أخبار حلب وأسواقها ص 167.

5 كامل الحلبي: نهر الذهب في تاريخ حلب 65/2، 66.

لكي تُدِرَّ قدرًا وفيرًا من المال لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير، وقد أشار محمد كرد إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارستان تشتمل على كثيرٍ من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدين محمود على هذا البيمارستان2؛ ممّا يؤكِّد أثر هذا البيمارستان في النشاط العلمي في هذا العهد إلى جانب الوظيفة الطبية التي كان يقوم بها.

ب- البيمارستان النوري في دمشق: يُنسَبُ هذا البيمارستان إلى لملك نور الدين محمود زنكي قال عنه ابن الأثير: وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق؛ بلغني أنه لم يجعله وقفًا على الفقراء فحسب، بل على كافَّة المسلمين من غني وفقير3.

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي بتدريس الطب، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفي سنة 570هـ/1174م؛ فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، كما شاركه في ذلك مجالس العلم التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب وتدريسه لطلابهم، ولم تُشِرْ المصادر إلى وجود مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك، عندما أُنشِئت أول مدرسة خاصة لتدريس الطب سنة 621هـ/1224م وهي المدرسة قبلي الجامع الأموي بدمشق4.

2- **المدارس**: كانت المساجد هي المراكز الأولى للتعليم في الإسلام، إلى جانب كونها محل عبادة المسلمين، ومقر اجتماعاتهم ولكن مع مرور الزمن انتقل التعليم في بعض مظاهره عن المساجد إلى أماكن أخرى عُرِفَت بالمدارس، ولما تولى نور الدين حكم الدولة الزنكية شاهدت حركة بناء المدارس انتشارًا واسعًا فقد أخذ في إنشائها، واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، وبنى لهم العديد من المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك إلى دعم المذهب السني، ومقاومة التشيع في المنطقة، ومن أهم المدارس التي قام بإنشائها:

المدارس في حلب: بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم نور الدين محمود لها في عام 541هـ والذي ركز نشاطه مُنذ استلامه الحكم في تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب، فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، مما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السنية، وتوجيه التعليم وجهة سنية عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية،

---

1 ابن الشحنة: الدرالمنتخب ص 231.

2 محمد كرد علي: خطط الشام 187/6.

3 ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص 170.

4ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 1 / 413.

وقد جلب عددًا من العلماء الأَكْفَاء لتولي المهمة، وبهذه السياسة نجح نور الدين في إنقاذ حلب من تأصُّل الفكر الشيعي بها، وتمكَّن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي في المنطقة1، وقد أثمرت تلك الجهود في دعم حركة التعليم في حلب حتى أصبحت من المراكز العلمية المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، بل ربما تفوَّقت عليها في بعض المجالات لما تميزت به حلب من موقع متوسط بين تلك المراكز، وإمكانات مادية وبشرية تفوق في بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى، إضافة إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم الزنكي في نفس القوة التي بدأ بها نظرًا لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرين طيلة عصر نور الدين، والسلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم (2). وكانت أبرز المدارس التي أنشئت في حلب:

المدرسة النورية: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة 544هـ (1149م) وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري وهو أول من وُلي التدريس في هذه المدرسة، وكان قدم إليها من دمشق، ثم ولي تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهبل المتوفى سنة (597هـ/1201م)3.

المدرسة العصرونية: كان موقع هذه المدرسة في الأصل دار لأبي الحسن علي بن أبي الثُريّا وزير بني مِرداس أصحاب حلب ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشترى هذه الدار وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمدرسين بها من الفقهاء وذلك سنة 550هـ حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية4، وبعد أن أتّم نور الدين محمود بناء هذه المدرسة استدعى لها من نواحي سنجار الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفي سنة 585هـ ، وفوّض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أولّ من درّس بها فعُرِفَت به، ونسبت إليه5.

المدرسة الأسدية الجُوّانية: تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان المتوفي سنة 564هـ/1168م الذي أنشاها بمحلة الرحبة بحلب للمذهب الشافعي6.

المدرسة الشُعيْبيَّة: كان موقع هذه المدرسة مسجدًا يقال: إنه أول ما اختطَّه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وعُرِفَ هذا المسجد بأبي الحسن الغضائِرِيّ المتوفَّى سنة 313هـ؛ فلمَّا ملك نور الدين محمود حلب، وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شُعيب الأندلسي إلى حلب؛ فصيّر له هذا المسجد مدرسة،

---

1 إبراهيم المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 389.
2 انظر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 167 ومابعدها.
3 النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 1 /262.
4 ابن الشحنة: الدر المنتخب ص 110.
5عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة 244 ،و النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس : 1/.167
6 النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس 55/1 ، وعز الدين بن شداد: الأعلاق: 253.

وجعله مدرسًا بها فعرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرِّسًا بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة 596هـ/1199م[1].

ب- في دمشق: كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة 491هـ/1097م هي المدرسة الصادرية الحنفية ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس، في الحكم الزنكي لدمشق (549هـ - 569هـ/1154 – 1174م) وقد توزعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنبلي، وأخيرًا المذهب المالكي، ومن أهم هذه المدارس:

المدرسة النُورية الكبرى: ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة تقع بخط الخَوّاصين[2]، وأن الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي[3]، وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة 580هـ، ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظرًا، وأنها قصر من القصور الأنيقة"ينصب فيها الماء وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين، ~"[4].

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد؛ حيث كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تُذكَر حركةُ التعليم في بلاد الشام في تلك العصور يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دور التعليم، وتتضح أهمية هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي تركه شيوخها ومدرسوها ومُعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرَّجوا فيها، إضافةً إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد، وقراءة الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكّون العتبة العليا لباب المدرسة تبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق من رِيعها على الطلاب والمدرسين والعاملين بالمدرسة إنفاقًا سخيًا متواصلاً، ونَصُّ هذه الكتابة كالآتي: بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه، ووقف عليها، وعلى الفقهاء، والمتفقهة بها جميع الحّمام المُستجد بسوق القمح. والحّمامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة، والدار المجاورة والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتًا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نُصَّ

---

1 عز الدين بن شداد: الأعلاق: 257.

2 يسميه أهالي دمشق حاليًا: سوق الخياطين.

3 عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة 248. وانظر: النعيمي: الدارس في المدارس 262/1.

4 رحلة ابن جبير: 107/1.

وشُرِط؛ فكتب الوقف رغبة في الآخرة، وتقدمه بين يديه يوم الحساب: فمن بّدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم1.

المدرسة العمادية: بناها نور الدين محمود ~ تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي وهو أول من درَّس بها، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة 567هـ فقال: وفي رجب من هذه السنة فوّض إلى المدرسة التي بحضرة حمام القصير، وعولّ علي في التدريس بها والنظر في أوقافها2.

دور الحديث: على الرغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي، وشيوع لفظ "مدرسة" على المكان المخصص للتعليم والإقامة والرعاية، فقد وُجِد بجانبها دُورٌ تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس، وإن لم تحمل اسمها فلفظ (دار) كان مرادفًا في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة، وقد ورد كثيرًا في ذلك العهد، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، ولم يطلق عليها مسمّى مدرسة، ومن بعده تكاثرت دور الحديث كمدارس أحادية يخصصها لهذا العلم، وقد عُنِي المسلمون بدراسة الحديث الشريف عنايةً كبيرةً باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدُّور التي تتولى مهمة تدريس أقوال النبي ρ، وأفعاله، وأحواله من حيث رواية الحديث والبحث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول ρ من حيث أحوال رواتها ضبطًا وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعًا، كما تتناول دراسة المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، والمراد منها مبينًا على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقًا لأحوال النبي ρ3. وكان الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريسًا، وتشييد دُوُر خاصة به من أبرز سمات التعليم في العهد الزنكي، وتُعد مبادرة نور الدين تلك إدراكًا منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي، وتحمُّل عبء تقويضه من المنطقة، ونشر المذهب السني، أو ما يتمثل بالخطر الصليبي المحيط بالمنطقة، إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد العدوان، فكثرت الدراسات والتأليف حول فضائل الجهاد والحث عليه، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصص، وكانت دور الحديث مقرًا لذلك النشاط4.

أ- في حلب: أوردت في بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دور الحديث في حلب في هذا العهد، ولكن تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور أو نشاطاتها أو مواقعها، واكتفت بنسبتها إلى مؤسسيها، وكان أبرز تلك الدور ما يأتي:

1الزيبي: الحياة العلمية في العهد الزنكي 165.

2 العماد الأصفهاني: البرق الشامي 30/1، وانظر الدارس: 171/1.

3كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة ص 132.

4الحياة العلمية في العهد الزنكي ص 133.

– دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود[1]، وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدريس هذا العلم .

– دار أخرى أنشأها نائب نور الدين في حلب مجد الدين ابن الدّاية المتوفى سنة 565هـ/1170م2.

– دار أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في الخانقاه التي بَنَتْها3.

ب– في دمشق: كانت العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريسًا، وإنشاء دُوُر خاصة به كان من أبرز سمات التعليم في هذا العهد، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، والتي أوكل مهمة التدريس فيها والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال، وهو الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر المتوفي سنة 571هـ (1176م) ثم تلى ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي. ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار4.

وبتشجيع من الملك العادل نور الدين محمود تّم تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق، وهو (تاريخ مدينة دمشق) للحافظ ابن عساكر وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: "ورَقِيَ خبر جمعي له إلى حضرة الملك الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام... وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز والاستتمام ليلّم بمطالعة ما تيسَّر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجيًا الظفر بالتمام، شاكرًا لما ظهر منه من حسن الاهتمام"5؛ مما يوضح حرص نور الدين محمود على الإطلاع على تاريخ عاصمته (دمشق)، وتشوقه إلى ذلك، كما أنه يؤرخ لنا زمن تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب، ويعد هذا العمل من الآثار العلمية المجيدة التي تبناها نور الدين محمود.

أثر العلماء في دولة نور الدين:

كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ– الجهاد ضد الصليبيين: كان نور الدين محمود يعمل دائمًا بمشورة العلماء ومساندتهم؛ حيث كانت لهم الكلمة النافذة، والمكانة المرموقة، والحظ الوافر في كلٍّ من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن

---

1 ابن الشحنة : الدر المنتخب ص 123.

2عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة 286 وما بعدها.

3السابق نفسه.

4ابن عساكر: تاريخ دمشق 1/ 7.

5 السابق في المقدمة ص 4.

عساكر1، ومن أعماله التي قام بها لينضمَّ إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخًا لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النُّورية بدمشق؛ فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلَّق منه بباب الجهاد، والحثِّ على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثًا في فضائل الجهاد في جزء واحد؛ دفعه إلى جمعه رغبتُه في حَثِّ الناس على فضائل الجهاد، والاستشهاد في سبيل الله2، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفَّى سنة 597هـ أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين؛ فقد انتقل إلى دمشق 562هـ في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سندًا لنور الدين؛ حيث تولَّى لديه العديد من الوظائف المهمة في الدولة التي مكّنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد3.

ب– السفارة بين الدول: شارك بعض العلماء في العهد الزنكي في مهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية إمّا بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين، أو لقضاء مصلحة بين الدولتين، ومن سفراء الاستنجاد، وطلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى 572هـ؛ إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيرًا من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، والسلطان السلجوقي مسعود عام 532هـ أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام4.

كما واصل القاضي كمال الدين القيام بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود؛ إذ اعتمده نور الدين سفيرًا إلى الخليفة العباسي المستضيء يطلب منه تقليدًا بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل)، وبما في طاعته كديار بكر، وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: فأكرم الخليفة كمال الدين إكرامًا لم يكرمه رسولاً قبله، وأُجِيبَ إلى ما التمسه5.

ونلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمورًا، منها:

1- أن نور الدين ~، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.

2- أن عصر الملك العادل، كان حافلاً بالحركة العلمية مزدهرًا بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال

---

1 تُوُفِّي سنة 571هـ / 1176م.
2معجم البلدان 78/13.
3 ياقوت الحموي: معجم البلدان 14/19.
4ابن الأثير : الكامل في التاريخ 5/ 139.
5. السابق 125.

الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها، ويعود ذلك إلى ذكاء لماح ونِيَّة حسنة، وعلمٍ غزير، مما مكَّنه من حلِّ مشكلات عصره بينما عجز عنها قبله فحول وأساطين.

3- أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدَّى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة.

كانت تلك صورة من اهتمام الملك العادل نور الدين محمود بالعلم، وهي صورة مشرقة في كل جوانبها، تكشف عن عقلية عظيمة سعت إلى نهضة شاملة للعالم الإسلامي، وكان صاحبها ذا مشروع نهضوي عظيم، بدأ فيه، ثم أدركه القدر بعد أن مهَّد الطريق لمن جاء بعده.

دور العلم في حياة صلاح الدين الأيوبي

كان صلاح الدين ~ حريصًا على العلم، شديد الرغبة في سماع الحديث، يذكر كاتب سيرته القاضي العلامة بهاء الدين بن شدَّاد في كتابه (النوادر السلطانية):
كان ~ متى سمع عن شيخٍ ذي رواية عالية وسماعٍ كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع منه، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وكان يوقِّر العلماء، ويحفظ لهم مكانتهم دائمًا1..

وقد يظنُّ الكثير من الناس أن صلاح الدين شغلته أعمال الجهاد عن الانصراف إلى شئون الدولة الأخرى الحضارية، ولعلَّ صورة الفارس المحارب صلاح الدين قد طغت على الجوانب الأخرى من شخصيته، فأخفت بعضًا من ملامحها المشرقة، وقسماتها المضيئة.

وأولُ عملٍ يلقانا من أعمال صلاح الدين هو دعمه للمذهب السني؛ بإنشائه مدرستين لتدريس فقه أهل السنة، هما المدرسة الناصرية2 لتدريس الفقه الشافعي، والمدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنها كانت توزع على أساتذتها ومعيديها وتلاميذها قمحًا، كانت تُغِلُّه من أرض موقوفة عليها، وفي الوقت نفسه قصر تولي مناصب القضاء على أصحاب المذهب الشافعي، فكان ذلك سببًا في انتشار المذهب في مصر وما يتبعها من أقاليم.

وقد برز في عصر صلاح الدين عدد من الشخصيات العلمية والفكرية، مثل (القاضي الفاضل) المتوفَّى سنة 596 رئيس ديوان الإنشاء وصاحب القلم البديع في الكتابة3، وكان صلاح الدين يستشيره في أدق أمور الحرب والسياسة، و(العماد الأصفهاني) المتوفَّى سنة 597 هـ، صاحب المؤلَّفات المعروفة في الأدب والتاريخ4، الذي نجح مع القاضي الفاضل في تطوير ديوان الإنشاء في مصر، وهذا الديوان يشبه في وظيفته وزارة الخارجية.

وقد كان من مظاهر اهتمام صلاح الدين بالعلم؛ تدبير أمور الدولة على أساسٍ إداريٍّ علميٍّ؛ فقد استقرَّت النظم الإدارية؛ فكان السلطان يرأس الحكومة المركزية في العاصمة، يليه نائب السلطان؛ وهو المنصب الذي استحدثه صلاح الدين لينوب عنه في أثناء غيابه يليه الوزير، وكان يقوم بتنفيذ سياسات

---

1 بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية (130/1)

2 الدارس في تاريخ المدارس 195/1، وابن كثير: البداية والنهاية 104/14.

3 واسمه عبد الرحيم بن علي البيساني، انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ 235/5 . و السلوك لمعرفة دول الملوك (25/1).

4 ذكر القنوجي: بلغ الرفعة عند نور الدين محمود بن أتابك زنكي والسلطان صلاح الدين، وتقلَّبت به الأحوال إلى أن عظُمَ أمرُه، وصنَّف التصانيف النافعة منها: كتاب خريدة القصر وفريدة العصر، جعله ذيلاً على: زينة الدهر للخطيري وجعله في عشر مجلدات، وله : كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات في التاريخ، وكتاب الفتح البستي في فتح القدسي (انظر أبجد العلوم 674).

الدولة، ويلي ذلك الدواوين، مثل: (ديوان النظر) الذي يشرف على الشئون المالية، و(ديوان الإنشاء) ويختص بالمراسلات والأعمال الكتابية، و(ديوان الجيش) ويختص بالإشراف على شئون الجيش، و(ديوان الأسطول) الذي عُنِيَ به صلاح الدين عنايةً فائقةً لمواجهة الصليبيين الذين كانوا يستخدمون البحر في هجومهم على البلاد الإسلامية، وأفرد له ميزانية خاصة، وعهد به إلى أخيه العادل، وقد اشترك الأسطول في عدة معارك بحرية في سواحل مصر والشام، منها صدُّه لحملة أرناط على مكة والمدينة1.

وعُني صلاح الدين بالمؤسسات الاجتماعية التي تعين الناس وتخفف عنهم بعض عناء الحياة؛ فألغى الضرائب التي كانت تفرض على الحجاج الذين يمرون بمصر، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجئون إلى المساجد، وجعل من مسجد (أحمد بن طولون) مأوى للغرباء من المغاربة.

كذلك لم يهمل صلاح الدين ~ جانب العلوم الحياتية، إذ نراه اهتمَّ اهتمامًا بالغًا بالعلماء، والأطباء، وأقام عددًا من المستشفيات التي جلب لها الأطباء المتخصصين في شتى التخصصات، ومن أهم هذه المستشفيات (المارستان) 2 الذي أمر ببنائه في القاهرة، وهو بناء ضخم متَّسع، وضع عليه صلاح الدين مشرفين من ذوي العلم والدراية، ووضع لديهم خزائن الأدوية، وكانت هذه المستشفى مزودة بأَسِرَّة كبيرة ومجهزة لاستقبال المرضى..

و مما يُؤثَر عن صلاح الدين أنه كان يحب العلم، ويشجع العلماء، ولا يضن بمال أو جهد في سبيل إنعاش الحركة العلمية في البلاد، فأنشأ كثيرًا من المدارس، وقرَّب العلماء والكتاب والراسخين في العلم وفنون الثقافة المختلفة منه.

وكان نظام الكتاتيب موجودًا في عهد صلاح الدين، فكان الصبي إذا شَبَّ عن الطوق التحق بهذه الكتاتيب ليتعلَّم القرآن، ويحفظ طرفًا من الحديث، ثم أصول الحساب، واللغة، وهكذا حتى يبرع في علم من العلوم، وإذا شبَّ الغلام وترعرع وأراد أن يستزيد من العلم رحل إلى مواطن العلم في مصر والشام وبغداد ومكة، ليتقن علوم دينه وحياته3.

هذا وقد قامت المدارس المختلفة في مصر والشام بدور كبير في تعليم المذاهب الفقهية على أوسع نطاق، وذلك إلى جانب المدارس التي أُنشِئَت في القدس عقب استردادها عام 583هـ، وقد بنى صلاح الدين عام 572هـ أول مدرسة للحنفية عُرِفَت باسم (المدرسة السيوفية)(بجوار سوق السيوفيين) ، وبلغ من عناية صلاح الدين بهذه المدرسة أن أوقف عليها اثنين وثلاثين دكانًا، و لم يضنَّ بمال على الأساتذة الذين

1 ابن الأثير: الكامل في التاريخ 5/ 169

2 السلوك في معرفة دول الملوك 12/1

3 عبد الله ناصح علوان: صلاح الدين محرر فلسطين 101.

يقومون بالتدريس فيها، وبقيت هذه المدرسة قائمة يشع منها نور العلم حتى وضعت الحرب الصليبية أوزارها[1].

كما أنشأ صلاح الدين المدرسة الصالحية، وجعلها للمذهب الشافعي، وكان يهتم بشؤون هذه المدرسة اهتمامًا بالغًا، فأوصى أن تكون عظيمة البناء فسيحة الأرجاء، ووقف لها حمامًا بجوارها وحوانيت شتى، حتى يشجع الطلاب على تلقي العلم[2]..

أما مدرسة القدس، فقد بناها صلاح الدين عقب استرداد بيت المقدس عام 583هـ، وكلَّف القاضي العلاّمة (بهاء الدين بن شدَّاد) بالتدريس فيها، فكثرت وفود طالبي العلم إلى بيت المقدس، كما أمر صلاح الدين بتنظيم العمل في شتى المدارس التي أنشأها على اختلاف تخصصاتها في أمور العلم والدين، فكان القائمون بالتدريس ينقسمون إلى فريقين:

الفريق الأول: فريق المدرسين، وهم الأساتذة المتبحرون في العلم.

والفريق الثاني: فريق المعيدين، وهؤلاء يقومون بإعادة ما يلقيه المدرسون على الطلاب، ويشرحون لهم ما استغلق عليهم فهمه..وكان(المعيد) لا يبخل بوقته في سبيل شرح المادة العلمية، وتيسيرها على الطلاب[3].

ويتضح من مناهج المدارس التي أسسها صلاح الدين أنه كان يقتفي آثار معلمه (نور الدين) في التعمير من جهة، ونشر العلم من جهة أخرى، مع التركيز على تعليم المذهب السني..

وكان من اهتمامهم بالعلم اهتمامهم بنشر وسائل العلم المختلفة، ولذا راجت لديهم سوق الكتب، وكان في مصر سوق كبير لها في الجانب الشرقي من جامع (عمرو بن العاص)، وأسواق أخرى عديدة، تضم أنفس الكتب وأقيم الذخائر، كما كان يوجد بدمشق سوق كبير للكتب[4]...

واهتم ~ اهتمامًا بالغًا بأصلاًح جوانب العقيدة، و تعليم المسلمين عقيدتهم الصحيحة، يقول عنه القاضي (بهاء الدين): (وكان ~ كثير التعظيم لشعائر الدين، ومبغضًا للفلاسفة والمعَطِّلة، ومن يعاند الشريعة[5] (أي مذهب أهل السنة والجماعة)، فحارب إبّان وزارته لمصر كل عقائد الشيعة التي كان (الفاطميون) ينشرونها، وقد استطاع أن يستأصل – بفضل الله وتوفيقه – جذور هذا المذهب، ولما فتح

1 المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك 2/ 321.
2 السابق 440.
3 صلاح الدين محرر القدس : عبد الله ناصح علوان 115، وما بعدها .
4 المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك 3/ 356.
5 ابن شداد: النوادر السلطانية 37 .

المدارس المتبعة لمذهب أهل السنة والجماعة (كالمدرسة الكاملية) و(المدرسة الناصرية) أمر جميـــع طبقـــات الشعب أن يلتحقوا بهذه المدارس، ليدرسوا الدين الصحيح، ويتلقوا عقيدة أهل السنة والجماعة.

وهكذا ظهر لنا صلاح الدين الأيوبي خير مثال للخليفة العالم المجاهد القدوة، التي يجب أن يحتـــذى به في شتى جوانب حياته، ~، لم يمنعه تصديه لجهاد الصليبيين، وانشغاله بتوحيد أقطار العالم الإسلامي مـــن محاربة الأعداء الداخليين، والسعي الحثيث على نشر العلم والعقيدة الصحيحة، و لم يتوقف عند ذلك، بـــل سعى لنشر العلم الحياتي، وتوفيره للمسلمين، حتى تنهض الأمة الإسلامية، تلك الأمة التي كانت ــ بعد كل تلك الجهود ــ قادرة على دحر الصليبيين ، وتحرير المسجد الأقصى ..

وهكذا ــ بالعلم والجهاد وتصحيح العقيدة ــ يمكن للأمـــة أن تقوم، وتنهض ، وتستعيد مجدها الغابر .

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الخلافة العثمانية (محمد الفاتح)

كيف فُتِحَت "القسطنطينية" بالعلم؟

ظلَّ (فتح القسطنطينية) حُلمًا يرواد الفاتحين المسلمين، منذ سمعوا رسول الله ρ يُبشِّر؛ فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: " سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ"[1]، وروي عنه ρ: **"لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ**"2..

وتعاقبت دول الإسلام، واتسعت رقعة الفتوحات، حتى أذن الله بالفتح على في عهد الدولة العثمانية، وعلى يد الأمير (محمد بن مراد الثاني) الذي حمل لقب (الفاتح)، فكيف صار هذا الأمير هو الأمير الخير، كما بشر به رسول الله، وكيف كان جيشه خير الجيوش؟

تذكر كتب التاريخ والسير أن محمد الفاتح حظي بتربية علمية خاصة، منذ طفولته، فقد اهتم والده السلطان (مراد الثاني) بتنشئته تنشئة علمية وجسدية جادة، فمرَّنه على ركوب الخيل والرمي والمبارزة، وجعله يتتلمذ على يد خيرة أساتذة عصره، ومنهم (أحمد بن إسماعيل الكوراني)3 الذي ذكر السيوطي أنه كان أول معلمي الفاتح، وقال عنه: إنه "كان عالمًا فقيهًا، شهد له علماء عصره بالتفوق والإتقان، بل إنهم كانوا يسمونه: أبا حنيفة زمانه)، وتشير الروايات التاريخية إلى أن الكوراني حبَّب الفاتح في العلم، وجعله يقبل عليه بهمَّة ونشاط، فما مضى وقت حتى كان محمد الفاتح قد حفظ القرآن، ودرس التاريخ الإسلامي، وكان على اطِّلاع بالمحاولات الإسلامية السابقة لفتح القسطنطينية، وأسهمت تربيته في تنشئته على حُبِّ الإسلام، والعمل بالقرآن، وحب العلم، وتقدير العلماء، وقد تأثَّر الفاتح كذلك بالشيخ (آق شمس الدين سنقر)4 الذي كان أول من زرع حُلْمَ (فتح القسطنطينية) في ذهنه منذ الصغر، وكبر الفتى وهو يصبو إلى

---

[1] رواه أحمد 176 / 2 ، والدارمي 126 / 1 ، وابن أبي شيبة في المصنف 2 / 153 / 47 ، وأبو عمر الداني في السنن الواردة في الفتن 2 / 116 ، والحاكم 422 / 4 و 508 و 555 ، وقال : حديث حسن الإسناد . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

2 رواه أحمد و ابنه في زوائده (4 / 235) و ابن أبي خيثمة في "التاريخ" (2 / 10 / 101 - مخطوطة الرباط)، والبخاري في "التاريخ الصغير" (ص 139)، والطبراني في "الكبير" (1 / 119 / 2)، والحاكم (4 / 422)، وابن عساكر (16 / 223 / 2). وقال الألباني في "السلسلة الضعيفة والموضوعة" (2 / 268): ضعيف.

3 العالم الجليل، تولى قضاء العسكر، ثم منصب الفتوى، توفي بالقسطنطينية ((813 ــ 893)) من مؤلفاته: شرح صحيح البخاري، كشف الاسرار عن قراءة الائمة الاخيار، شرح جمع الجوامع في اصول الفقه، غاية الاماني في تفسير الكلام الرباني، وقصيدة في علم العروض. (عمر كحالة: معجم المؤلفين 166/1).

4 هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي، (792 ــ 863) ارتحل مع والده إلي الروم، وطلب فنون العلم وتبحر فيها، وأصبح علمًا من أعلام المسلمين في العصر العثماني، تولى تربية الفاتح ... انظر (عمر كحالة: معجم المؤلفين 271/9).

تحقيق ذلك الحلم.. وقد درَّس الشيخ (آق شمس الدين) لمحمد الفاتح العلوم الأساسية (من قرآنٍ وحـــديث وسُنَّة نبوية وفقه)، وكذلك اللغات (العربية والفارسية والتركية)، كما درَّس لـــه بعـــضَ علـــوم الحيـــاة كالرياضـــيات والفلـــك والتـــاريخ..
وكان الشيخ آق شمس الدين صارمًا مع محمد الفاتح، حتى إنه بعد أن تولَّى السلطنة، يقول لأحد وزرائـــه: "إنَّ احترامي لهذا الشيخ يأخذ بمجامع نفسي وأنا ماثل في حضرته مضطربًا ويداي ترتعشان!"[1]. وقد أثَّرَت هذه المجموعة من العلماء، وهذه التنشئة العلمية في تشكيل الأمير الصغير، وتربيته سياسيًا وعسكريًا.

وما إن تولَّى محمد الثاني مهام السلطنة خلفًا لوالده مراد الثاني، حتى وضع فتح القسطنطينية هـــدفًا نصب عينه، واتخذ من أجل ذلك عددًا من الخطوات العملية العلمية:

في البداية بذل الفاتح جهودًا مختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، فاعتنى بتقوية الجـــيش العثماني ماديًا ومعنويًا، فحرص على نشر العلماء بينهم، حتى يغرسوا فيهم روح الجهاد، ويذكِّروهم بحديث رسول الله ρ في الثناء على جيش الفتح؛ حتى يجتهدوا في فتح القسطنطينية؛ عسى أن يكونوا هم الجـــيش المقصود، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود، وربطهم بالجهاد في ســـبيل الله..

وفي ذات الوقت أخذ بزمام الاستعداد المادي، والأَخْذ الأسباب؛ فأخذ يستعين بأهل الخبرة والعلم وسألهم: لم لا نستطيع أن نفتح القسطنطينية؟ فحددوا له ثلاثة أسباب:

1. عدم وجود حصون للمسلمين عند بداية الحصار.. مما يجعل المسلمين في العَرَاء أثنـــاء الشـــتاء القارص... وأعلموه أنَّ بناء الحصن يستغرق سنة كاملة..

2. عدم وجود مدفع يستطيع أن يخترق سمك الأسوار أو يجوز ارتفاعها..

3. امتداد سلسلة بعرض الخليج، تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج، وتهديد الأسوار الضعيفة[2].

من هنا انطلق الفاتح، وبعقلية العالم الواعية، وبنفس يملؤها الطموح، وروح تملؤهـــا الحيويـــة، في استقدام عدد من العلماء المختصين، وتكوين مجلس للبحث في كيفية التغلب على هذه العقبات، وبذل مـــن أجل ذلك المال الكثير، وحثَّ الكثير من ذوي الدراية والخبرة في فنون الحرب علـــى تقـــديم مقترحـــاتهم، وأفكارهم، حتى تكون محل مناقشة، مما أسفر بعد ذلك عن وضع حلول عاجلة، ساعدت في تكوين الخطة الأولى للفتح..

---

1 الشوكاني: البدر الطالع 2 /166.
2 محمد صفوت: فتح القسطنطينية ص57.

خطة فتح القسطنطينية:

لقد وضع محمد الفاتح خطة عبقرية، تحدث عنها المستشرقون بانبهار شديد، وقالوا: إن هذا الرجل سبق الإسكندر الأكبر ونابليون؛ فقد قام محمد الفاتح بعد تحديد أسباب امتناع الفتح... بحلِّها واحدًا تلو الآخر؛ فللتغلُّب على العائق الأول، وهو عدم وجود حصن للمسلمين أمام سور القسطنطينية؛ قرَّر بناء حصنٍ في مدة زمنية لا تتعدى الأشهر الثلاثة... فجمع العمال، واختار منهم المتقنين المهرة، وحفَّزهم بقوله: "أتحبون أن تكونوا من أتباع رسول الله يوم القيامة....وتكونوا من الذين قال فيهم "ولنعم الجيش ذلك الجيش؟" فتحفز العمال، وأنجزوا العمل في وقت قياسي، وتم بناء قلعة عظيمة يستغرق بناؤها سنة كاملة في ثلاثة شهور فقط...

أمَّا العائق الثاني، وهو عدم وجود المِدفع الصالح لاختراق أسوار المدينة؛ فقد ضرب الفاتح المثل في تفعيل قاعدة "**الحكمة ضالَّة المؤمن؛ أنَّى وجدها؛ فهو أحقُّ الناس بها**"[1]؛ فقد استقدم الفاتحُ العالمَ المجري المهندس (أوربان)، والذي كان قد علم أنه أعدَّ مدافعَ ذات قوة خاصة، بإمكانها أن تدكَّ أسوار القسطنطينية، وكان (أوربان) قد عرض خدماته على إمبراطور القسطنطينية، فلم يمنحه ما كان يريده من مكافأة، فجاء للفاتح، فاستقبله استقبالاً حسنًا، وأغدق عليه الأموال، وعرف كيف يستفيد منه أكبر استفادة، بل ويسَّر له كل الوسائل التي تمكِّنه من إتمام اختراعه، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وفنيين، وشرع (أوربان) في صنع المدافع، بمعاونة عدد من المهندسين العثمانيين الآخرين، وكان الفاتح يشرف عليهم بنفسه، ولم تمضِ ثلاثة أشهر حتى كان (أوربان) قد صنع ثلاثة مدافع ، بينها مدفع ضخم عملاق، كان يزن سبعمائة طن، وتزن القذيفة الواحدة فيه ألف وخمسمائة كيلو جرام!!، يصل مداها ألف ميل، يجرُّه 60 ثور بمعاونة 400 من الرجال الأشداء كل 200 على جانب[2].

وعندما أرادوا أن يجربوه لأول مرة في (أدرنة) أنذر السلطان سكان المنطقة، ثم أطلقوه فسُمِعَ دَوِيُّه على بُعْدِ ثلاثة عشر ميلاً، وسقطت قذيفته على بُعد ميل، وتركت أثرًا بعمق ستة أقدام في الأرض، وقد قطع هذا المدفع – الذي أسماه العثمانيون بالمدفع السلطاني – الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين اثنين، و سُرَّ السلطان محمد الفاتح بنجاح التجربة، وتفاءل بالفتح، وأجزل العطاء لهذا المهندس المجري، ولكل المهندسين الذين عاونوه3..

أمَّا عن السلسلة الموجودة بعرض الخليج؛ فقدكانت هذه السلسلة تعوق دخول أسطول المسلمين إلى داخل الخليج حتى تصل إلى الأسوار... ولهذا قرَّر أن يقوم بعمل فريد من نوعه.... فقام بعمل ممر تسير

1 الترمذي: باب العلم: كتاب فضل العلم على العبادة (2687)، وابن ماجة من حديث أبي هريرة (4169)، وابن ابي شيبة 240/7، والقضاعي في الشهاب (146).

2 محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة ص240.

3 عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ص82.

فيه السفن خلال الجبل حتى تصل مباشرة إلى داخل الخليج بدون المرور عبر السلسلة وهذه المسافة تقدر بثلاثة أميال.. واستعمل في ذلك قضبانًا خشبية دهنها بالزيت لتسهل من حركة السفن، وكان عددها سبعين سفينة.. واستعمل في جرِّها مئات الثيران ومئات الرجال....واستغرق نقل السفن من بعد غروب الشمس حتى ما قبل الفجر...حتى يفاجيء الروم.... وقد استمرَّ الحصار ثلاثةً وخمسين يومًا حتَّى قيض الله الفتح للجيش1.

وهكذا كان العلم سبيلاً للتخطيط، وعاملاً هامًا من عوامل فتح القسطنطينية، و تحقيق ذلك الحلم للمسلمين .

بيد أن دور العلم لم يقتصر على التمهيد للفتح ، أو استخدامه للحرب، بل ظل ملازمًا للنهضة العثمانية في عهد" محمد الفاتح" .

النهضة العلمية بعد الفتح:

اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

كان السلطان محمد الفاتح محبًا للعلم والعلماء؛ ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، وقد كان السلطان أورخان (726هـ / 761 هـ) أول من أنشأ مدرسة نموذجية في الدولة العثمانية، وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه وانتشرت المدارس والمعاهد في بورصة وأدرنة وغيرهما من المدن2.

ولقد فاق محمد الفاتح أجداده في هذا المضمار، وبذلك جهودًا في نشر العلم، وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الأصلاًحات في التعليم، وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في جميع المدن الكبيرة والصغيرة، وكذلك القرى، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، ونظَّم هذه المدارس، ورتَّبها على درجاتٍ ومراحل، وحدَّد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة إلى أخرى إلا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السابقة، وخضوعه لامتحان دقيق، وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها، وأحيانًا يحضر امتحانات الطلبة، ويزور المدارس بين الحين والحين، ولا يأنف من استماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، وكان يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد، ولا يبخل بالعطاء على النابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كل مدارس الدولة

1 عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ص82.

2 الرشيدي: محمد الفاتح ص 384 وما بعدها.

بالمجان، وكانت المواد التي تُدَرَّس في تلك المدارس هي: التفسير، والحديث، والفقه، والأدب،وعلوم اللغة، والهندسة، والرياضة وعلوم الفلك .. إلخ1.

كما أنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثماني مدارس على كل جانب من جوانب المسجد، وأربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وكانت مدارس المرحلة الأولى تدرس: مبادئ العلوم الدينية، والرياضة والطبيعة، علاوة على حفظ أجزاء من القرآن، وتسمى في مجموعها"دروس الخارج"، والمرحلة الثانية كانت تدرس مقاصد هذه العلوم، ولا سيما الفقه، ويضاف إليها مواد التاريخ الإسلامي واللغة العربية، وهي في مجموعها عموميات ومدخل للتخصص، ويمكن لخريج المرحلة الثانية تولي الوظائف البسيطة ، أما الطالب الذي كان يريد إكمال التعليم، فإنه يلتحق بالمرحلة العلمية الثالثة، وهي بمثابة" إعداد" للمرحلة الأخيرة، حيث يدرس على يد علماء متخصصين في العلوم العالية المقررة فيها، حتى إذا أتم الدراسة بنجاح تمكن من دخول المرحلة الرابعة" الصحن".

ومدارس الصحن هي بمثابة جامعة علمية كبرى، تتكون من المدارس الثمان المبنية حول جامع الفاتح، وبجوارها المدارس الموصلة للصحن، وهي ثماني مدارس أخرى.

وأُلحِقَت بهذه المدارس مساكنُ للطلبة ينامون فيها، ويأكلون فيها طعامهم، وخُصِّصَت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسي طوال السنة في هذه المدارس، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصةً، وكان يشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحرًا في أسماء الكتب والمؤلفين، وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة ودقيقة، ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص، وهذا الأمين مسئول عن الكتب التي في عهدته، ومسئول عن سلامة أوراقها، وتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الأقل[2].

وكانت مناهج هذه المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص، وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضًا، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون في إنشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية3.

اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرَّب إليه العلماء ورفع قدرهم، وشجَّعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال، ووسَّع لهم في العطايا والمنح والهدايا؛ ليتفرغوا للعلم والتعليم ويكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان إلى الدولة أمر بنقل

---

1 انظر " أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية" علي همت بركي (تعريب: محمد إحسان) ص84 - 93 .

2 الرشيدي: السلطان محمد الفاتح 158.

3 الشوكاني: البدر الطالع 41/1.

العمال والصناع إلى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس، ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل، ومن بينهم العالم أحمد جلبي ابن السلطان أمير علي، فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه، وأعاده إلى وطنه مع رفاقه معززًا مكرمًا[1].

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوز وإملاق إلا بادر إليه مساعدته وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه.

وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي إلى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين في تفسير القرآن فيقوم في كل مرة واحدٌ منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها، ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ويشجع هؤلاء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة.

اهتمامه بالترجمة:

كان السلطان محمد الفاتح متقنًا للغة الرومية، ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، من ذلك كتاب (مشاهير الرجال) لبلوتارك، ونقل إلى التركية كتاب (التصريف في الطب) لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور آلات الجراحة، وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية2.

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي (جورج أميروتزوس)، ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه (ابن العالم الرومي) - الذي كان يجيد اللغتين: الرومية والعربية - ترجمة الكتاب إلى العربية، وإعادة رسم الخرائط، مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغتين: العربية والرومية، وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمَّة، وكان العلاّمة علي القوشجي وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك كلَّما ألف كتابًا بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح3.

ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة، و قد كون الفاتح مكتبة خاصة في قصره غنية بنوادر الكتب، وروائع الآثار، فيها 12 ألف مجلدًا من مختلف اللغات (العربية، والتركية، والفارسية واليونانية..)، بالإضافة إلى المكتبات الأخرى الملحقة بمدارس الصحن، ومدرسة أيا صوفيا، وسار على هذا النهج وزراؤه، ثم السلاطين الآخرون من بعده، حتى أصبحت استنبول من أغنى العواصم الإسلامية بروائع الكتب والآثار الإسلامية، لحرص السلاطين والوزراء على اقتناء الكتب

---

1 محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة 247.

2 عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ص 396.

3 الرشيدي: محمد الفاتح 413 .

القيمة من أطراف العالم الإسلامي ، وتكوين مكتباهم الخاصة بالجوامع الكبرى، ولا تزال هذه المكتبات تحتفظ بأكبر قدر من روائع المخطوطات العربية[1]..

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان محمد الفاتح مغرمًا ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات، والخانات والحمامات، والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، وقد أدخل المياه إلى القسطنطينية بواسطة قناطر خاصة، وقد حرص على تشجيع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات، وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءً ورونقًا.

وقد اهتمَّ الفاتح بالعاصمة القسطنطينية {التي غيَّر اسمها إلى إسلام بول (إستانبول الآن)} اهتمامًا خاصًا من أجل أن يجعلها أجمل عواصم العالم، وحاضرة العلوم والفنون.

وفي عهده كَثُرَ العمران وانتشر، فاهتمَّ بدُورِ الشفاء، ووضع لها نظامًا مثاليا في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب – ثم زيد إلى اثنين من حُذَّاق الأطباء من أي جنس – كان يعاونهما كحّال (أي طبيب عيون) وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وأن لا تُصرَف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفًا بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفى بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأدياهم[2].

وهكذا، لم يكن للنهضة أن تتم، ولا للفتح أن يكتمل إلا بتضافر تلك الجهود، مع الإخلاص لله عز وجل، والأخذ بالعلم والنهضة بأبناء الأمة نهضة علمية حقيقية، لا تقتصر على جانب علوم الشرع فحسب، بل تأخذ علوم الحياة (من طب و هندسة وغيرها) سبيلاً إلى رقيها وتقدمها...

---

1 سيد رضوان: السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي: 83 ..

2 السلطان محمد الفاتح صـ 154.

الفصل الثالث: دور العلم في بناء بعض الحضارات الحديثة

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في بناء أمريكا

المبحث الثاني: دور العلم في بناء اليابان

المبحث الثالث: دور العلم في بناء كوريا الجنوبية

المبحث الرابع: دور العلم في بناء ماليزيا

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الإمارات

المبحث الأول: دور العلم في بناء أمريكا

يخطئ من يظن أن سبب تفوق الولايات المتحدة الأمريكية وتفردها كقوة عظمى تُملِي رغباتها على دول العالم أجمع هو قوتها العسكرية فقط، بل ومع اعترافنا بقدرة الآلة العسكرية الأمريكية إلا أن أهم ما يميز النهضة الأمريكية أنها نهضة شاملة قوامها هو العلم، فهي لم تقتصر على مجال دون الآخر بل إنها نهضة عسكرية واقتصادية وسياسية مما ساعدها في هيمنتها على العالم كدولة لا نظير لها، وقد سجل التاريخ الخطوات الجادة نحو التقدم الاقتصادي والصناعي التي بدأتها الولايات المتحدة خاصة في إعادة بناء هيكلها الاقتصادي ليدعم موقعها العالمي بعد الدمار الشامل الذي لحق بالعديد من بلدان العالم من المحيط الأطلسي إلى الهادي عقب الحرب العالمية الأولى والثانية.

وقد استفادت الولايات المتحدة من مرحلة الحرب الباردة في إعادة بناء اقتصادها واسترداد مكانتها الاقتصادية في الأسواق العالمية خاصة أوروبا الغربية واليابان وأيضًا كوريا الجنوبية وتايوان حتى وصلت إلى تفوق اقتصادي لم يسبق له مثيل، وأصبح اقتصادها الأكبر على مستوى العالم وتعادل قيمته ثلث اقتصاديات العالم مجتمعة، حيث يقدر حجم الاقتصاد الأمريكي بـ10 تريليون دولار..

وكان العلم بمثابة القاعدة التي ارتكزت عليها النهضة الأمريكية، ويتضح ذلك إذا نظرنا ما صاحب النهضة الأمريكية من مساهمات في مجال العلم والتكنولوجيا على مدار القرنين السابقين، لقد ساهمت الولايات المتحدة خاصة في مجال الاختراعات التي غيرت الحياة اليومية للإنسان العادي نوعًا وكيفًا بما يكشف عن أمة تقدّر العلم وتدعم العلماء وتشجعهم..

وقد تخيرنا بعض الأمثلة لهذه المخترعات الأمريكية في مختلف المجالات كمقدمة توضح مدى الاهتمام الأمريكي بالعلم ودوره في صناعة نهضتها:

1- **في المجال الزراعي** قدمت الولايات المتحدة الأمريكية العديد من الاختراعات منها:

اختراع ماكينة حلج القطن في عام 1794م.

اختراع شفرة المحراث المصنوعة من الحديد الزهر المصبوب في عام 1797م.

اختراع المحراث الزاحف في عام 1904م، وقد كان هذا مقدمة للمحراث الإلى والذي يعتمد على البنزين كوقود للمحرك.

2- في مجال الإعلام وهندسة الاتصالات:

اختراع نموذج للتلغراف في عام 1854م.

قام الأمريكي وليام بالوك في عام 1863م بتطوير أول ماكينة طباعة للجرائد، وتحتوي على نظام للتغذية بالورق.

اختراع الآلة في عام 1873م.

قام الأمريكي توماس أديسون في عام 1876م بتطوير الهاتف الإلي، وكـــان يعـــيش في ولايـــة بنسلفانيا في هذا الوقت.

اختراع الحاكي الإلى للأسطوانات (الجرامافون) في عام 1887م.

اختراع أسطوانة الأوديون المستعملة في الإرسال الإذاعي في عام 1906م.

اختراع دائرة الإرسال الإذاعي المحددة في عام 1912م.

اختراع البث الإذاعي على الموجات الطويلة في عام 1933م.

اخترع الأمريكي بيتر جلودمارك في عام 1953م نظام المرشحات الثلاثة الذي ساعد على إنتاج التليفزيون الملون، كما أنه اخترع آلة تسجيل الفيديو الإلكترونية.

3- في مجال الأحياء والطبيعة:

اختراع أول جهاز بدائي للكشف المعدني في عام 1881م.

اختراع السائل المستخدم كوقود للصواريخ في عام 1926م.

اخترع الثلاثي الأمريكي باردين وشوكلي وسراتان صمام الترانزيســـتور الإلكتـــروني في عـــام 1947م، والذي استخدم فيما بعد في أجهزة الاستقبال الإذاعي.

اكتشاف نموذج الهندسة الوراثية المعروف بالـــ DNA في عام 1960م.

4- في مجال المواصلات:

اختراع السفينة البخارية في عام 1790م.

اختراع سيارة مطافئ تسير بالبخار في عام 1829م.

اختراع أول ترام كهربائي 1873م.

اختراع أول طائرة تسير بالبنزين في عام 1903م.

اختراع المحرك الكهربائي لمحرك السيارة (المارش) في عام 1910م.

5- في مجال الصناعات الحربية:

اختراع المسدس الدوار في عام 1836م.

اختراع أول غواصة حربية في عام 1862م.

اختراع المدفع الرشاش في عام 1890م.

اختراع القناع الواقي من الغازات السامة في عام 1914م.

تمكن الأمريكي روبرت أوبينهايمر بقيادته لفريق من العلماء والمهندسين من إنتاج أول قنبلة ذرية في عام 1945م.

6- في مجال العلوم الطبية:

اختراع ضمادة الجروح (Band- Aid) في عام 1920م.

اختراع عقار لمرض سرطان الدم يتحكم في عملية تكاثر الخلايا السرطانية 1953م.

اختراع عقار قادر على كبت النظام المناعي في الجسم البشري أثناء عملية زرع الأعضاء في عـــام 1957م.

7- في مجال الحاسب الإلي:

اخترعت الأمريكية جريس هوبر أول حاسب إلى في عام 1952م.

اخترعت جريس هوبر أول لغة خاصة بالحاسب الإلى في عام 1959م.

8- في مجال التصنيع وهندسة الإنتاج:

اختراع طريقة لغزل القطن باستخدام سلك معدني في عام 1809م.

اختراع ماكينة الخياطة في عام 1846م.

اخترع الأمريكي جورج إيستمان الفيلم المستعمل في آلات التصوير في عام 1888م.

اختراع آلة لتقطيع الجلد لتصنيع الأحذية في عام 1879م.

9- في مجال الإنشاءات والمواد:

اختراع مادة المطاط في عام 1835م، والذي استخدم فيما بعد في صناعة إطارات السيارات.

إنتاج مادة الأسفلت في عام 1872م، واختراع جهاز تكييف الهواء في عام 1902م، واختراع جهاز الطباعة الفوتوغرافي في عام 1937م[1]..

وغير هذه الاختراعات الكثير والكثير، وكما رأينا في مختلف المجالات وليس في العلوم العسكرية فقط، ولعل ذلك يفسر لنا سر التفوق الأمريكي، حيث أنه وبحق ما تم إنجازه في غضون المائة سنة الأولى بعد الاستقلال الأمريكي أمر مذهل للغاية!!

ففي عام 1890م مثلاً، كانت الولايات المتحدة قد أصبحت تنتج من الحديد والفولاذ بكميات تساوي إنتاج بريطانيا العظمى وألمانيا مجتمعتين، وفي العام1900 أصبحت الولايات المتحدة بحسب معايير عدة، أعظم دولة صناعية يتمتع شعبها بأعلى مستوى للمعيشة في العالم، وفي العام 1913 أنتجت الولايات المتحدة أكثر من ثلث المنتجات الصناعية في العالم، وفي الفترة الزمنية التي تلت الحرب العالمية الثانية، كانت الولايات المتحدة تنتج 50% من الإنتاج العالمي الإجمالي، وإلى اليوم لا تزال الولايات المتحدة تنتج حوالي 25% من المصنوعات العالمية والمنتجات الزراعية والخدمات، وقد تضاعف إنتاجها القومي الإجمالي ثلاث مرات منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي رائدة في عدة ميادين عالمية مختلفة، مثل الهندسة الكيميائية، وهندسة علم الوراثة، والبحوث والإنماء في ميدان الأرض والفضاء والعلاقات العامة والكمبيوتر، وخدمات المعلومات، وحقول أخرى مماثلة في التكنولوجيا المتطورة، وما تزال الصناعات الأمريكية الخاصة تتمتع بنجاح متواصل، وللشركات الأمريكية التي تنتج طائرات الركاب وتبيعها، أو في مجال صناعة الكمبيوتر والمتاجرة به، أكبر نصيب في السوق العالمية، ووادي السليكون بالقرب من مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية خير شاهد على التطور التكنولوجي، حيث يعد الأول والأكبر على مستوى العالم للبحث في الكمبيوتر وإنتاجه، حيث تتواجد فيه أكثر من 4000 شركة تتمتع كلها بالتكنولوجيا المتطورة، ومن المعلوم أن الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع بمهارات صناعية وتقنية عالية ولكن مالا يعرفه الكثيرون، ومنهم عدد كبير من الأمريكيين، هو أن الولايات المتحدة هي الدولة الرائدة في مجال الزراعة، فأمريكا هي الأولى في تزويد العالم بالحبوب، إذ تنتج حوالي 20% من القمح والذرة والشوفان في العالم، كذلك يتولى المزارعون والفلاحون الأمريكيين أمر 14% من إنتاج الألبان في العالم، و17% من إنتاج اللحوم، و27% من إنتاج الزيوت النباتية والسمن النباتي، وأكثر من 60% من إنتاج فول الصويا، مع العلم أن حصة

1 د.صفي الدين حامد: الإمبراطورية الأمريكية، الجزء الثالث ص349.

الولايات المتحدة الأمريكية من الأراضي الزراعية في العالم لا تتعدى 8% من إجمإلى مساحة الأراضي الزراعية في العالم1!!

كما أنه من الملاحظ ويثير الإعجاب في النموذج النهضوي الأمريكي الاستفادة الواسعة التي حققها قطاعي العمل والتجارة من الجامعات الكبرى وبحوثها الأساسية واستعدادهما لدعم وتبني المواهب، وقد شجّع هذا الدعم المبدعين وأصحاب المواهب وأعطاهم الثقة، ولما لا وهم يرون الشركات العملاقة تجري وراءهم وتبحث عنهم وتتلقف أفكارهم لتطبيقها، بل وتغريهم هذه الشركات بالتوظيف في أعلى المناصب وبأعلى الأجور، ولذا فإنه من الطبيعي في هذا الجو الذي يشجع على العلم ويعلي من شأن العلماء-وهو عالٍ- أن نرى هذا الفيض من الابتكارات والاختراعات بل ونرى تسابق العلماء من كافة أنحاء العالم إلى الهروب بعلمهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكما استفادت الولايات المتحدة من دعم قطاع التجارة للعلماء فقد استفادت أيضًا من النجاح الذي حققته شركاتها بدعمها للعلماء وتجاربهم، لقد حفّز نجاح هذه الشركات المجتمع الأمريكي ككل وخاصة الشباب على إنشاء شركاتهم الخاصة وأعطاهم الجرأة على المغامرة والصبر وهم على ثقة بالنجاح، حتى بلغ عدد الأمريكيين الذين يديرون أعمالاً خاصة وذلك في عام 1984م حوإلى عشرة ملايين أمريكي، كما ساهم نحو أربعة أضعاف هذا العدد (حوإلى 42 مليون) في شركات وصناعات متفرقة2.

وكما يقال أن النجاح يجلب النجاح، فما أن رأى الشعب الأمريكي ثمرة تقدمه ورأى بلاده تتجه نحو الصدارة إلا ونما بداخلهم حبهم وولائهم لبلادهم، التي رفعت شأنهم وأعزتهم بين كل شعوب العالم، وقد ترجم بعض كبار أغنياء الولايات المتحدة هذه المشاعر في شكل عملي، فمثلاً قام بعضهم بتوزيع قسم كبير من ثرواتهم قبل موتهم للمؤسسات الخيرية، والمستشفيات والجامعات والمكتبات والمتاحف وصالات العرض الفنية والمؤسسات الثقافية، ومنهم الأمريكي الفذ كارنيجي3 الذي بلغت قيمة تبرعاته خلال حياته 370 مليون دولار من أصل ثروته المقدرة بـ400 مليون دولار وذلك من أجل مصلحة المجتمع، حيث أتاحت هذه التبرعات بناء 2800 مكتبة عامة مجانية، وقد أدت مثل هذه المبادرات الشخصية إلى أنه يوجد في الولايات المتحدة اليوم حوإلى 200ألف مؤسسة كبيرة وصغيرة يتوقف دورها على دعم المشاريع البحثية المختلفة، وتقديم التبرعات إلى القضايا العامة والخيرية4..

---

1 د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا،115-118.

2 د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا،121،120.

3 ديل كارنيجي (1888-1955): مؤلف أمريكي، ومدير معهد كارنيجي للعلاقات الإنسانية.

4 د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا، 124، 125.

وبالتأكيد أن الشعب الأمريكي لم يبادر إلى مثل هذه الأفعال التي تمتلئ بأسمى معاني الولاء للوطن كما تكشف مقدارًا هائلاً من التعلم النضج العقلي، ولكن البداية كانت من جانب الإدارة الأمريكية التي تحكم البلاد حينما وضعت التفوق في كل المجالات كهدف استراتيجي مطلوب تحقيقه، واختارت العلم كوسيلة وحيدة لتحقيق هدفها، والأرقام هي بالفعل خير شاهد..

ورد في تقرير التنمية البشرية الصادر عن البنك الدولي لعام 2006م أن نسبة الإنفاق العام على التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية 5.1 % من الناتج المحلي الإجمالي لعام 1991م، وزادت هذه النسبة فبلغت 5.9 % من الناتج المحلي الإجمالي لعام 2004م، ولا ينبغي أن نستهين بهذه النسبة فإن الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة الأمريكية بلغ 12.98 تريليون دولار في عام 2006م[1]..

كما زادت نسبة الالتحاق بالتعليم الثانوي من 85% عام 1991م إلى نسبة 90% في عام 2004م، وأيضًا قفز عدد مستخدمي الانترنت من ثمانية أشخاص من كل ألف فرد أمريكي في عام 1990م، إلى 630 مستخدم للانترنت من كل ألف أمريكي في عام 2003م..

أمَّا بالنسبة لما تنفقه الولايات المتحدة على البحث والتطوير فقد بلغ نسبة 2.6 % من الناتج المحلي الإجمالي لعام 2003م، كما قدّرت ثروة الولايات المتحدة الأمريكية من الباحثين في الفترة (1990 – 2004م) بحوإلى 4.484 ألف باحث من كل مليون فرد أمريكي أو مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية..

وبالإضافة إلى ذلك فقد بلغت الصادرات المصنّعة التي تحتوي على تكنولوجيا عالية نسبة 32% من إجمإلى الصادرات الأمريكية المصنعة في عام 2004م[2]..

ولعل حداثة الإحصائيات يبرهن بالدليل العملي أن الولايات المتحدة الأمريكية مازالت تُقدِّر أهمية العلم والعلماء، ومازالت تنفق بسخاء على مختلف المجالات العلمية وذلك للمحافظة على تفوقها وريادتها على كل دول العالم.

وقد كشفت الإحصائية السابقة حجم الأموال الهائل الذي تنفقه الولايات المتحدة على قطاع التعليم، وهو قطاع متميز يشهد الجميع بكفاءته، ولكن الأمر اللافت والذي نود أن نشير إليه ونستخلص منه العبرة هو المعايير التي تم وضعها للتأكد والاطمئنان على مستوى الطلاب الخريجين من المدارس الأمريكية، فعلى الرغم من الشهرة الواسعة التي حققتها المدارس الأمريكية والثقة التي حازتها إلا أنه في الولايات المتحدة لا تكفي الشهادة المدرسية كبطاقة تخوِّل لحاملها دخول الجامعة تلقائيًا، إذ يجب على

---

1 صفحة الولايات المتحدة الأمريكية في كتاب الحقائق، الصادر عن وكالة المخابرات الأمريكية، والمنشور على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/us.html#Econ

2 تقرير التنمية البشرية للبنك الدولي، والمنشور على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_USA.html

الطالب عند تقديم طلبات الدخول إلى الكليات والجامعات أن يجتاز العديد من الامتحانات المركزة جميع المجالات الثقافية تقريبًا، وبالتحديد ثمة امتحانان يجريان لتلاميذ الصفوف الثانوية الذين يودون الانتساب إلى كلية أو جامعة ما، وهما امتحانات رفيعا المستوى تتولى منظمات غير حكومية إجراءهما في جميع أنحاء البلد، احدهما "امتحان الكفاءة المدرسية" (SAT) وهو يهدف إلى اختبار التلميذ في القدرات اللغوية والحاسبية الضرورية للتحصيل الجامعي، والثاني هو "اختبار الكلية الأمريكية" (ACT) وهدفه أن يختبر قدرات الطالب في اللغة الانجليزية والرياضيات والعلوم الاجتماعية والطبيعية، ويجري هذان الامتحانان في مواعيد محددة في كل مكان من الولايات المتحدة وتشرف عليهما هيئات غير تجارية وغير حكومية، وتستخدم الجامعات نتائج هذين الامتحانين كمقاييس محددة للمقارنة، فلا يجوز البتة اعتبارها امتحانات رسمية، ويتقدم حوإلى مليوني تلميذ إلى امتحان (SAT) كل سنة، علمًا بأن نصف هذا العدد من تلاميذ الصف الثانوي الأخير (أي الثالث)، أما النصف الباقي فمن تلاميذ السنة الثانوية الثانية، أما امتحان (ACT) وهو يعتمد أساسًا في الجزء الغربي من الولايات المتحدة، فيتقدم إليه سنويًا حوإلى المليون تلميذ ثانوي أيضًا، وتوفر نتائج هذين الامتحانين مقاييس مشتركة وقومية النطاق، رغم التنوع الواسع الموجود في المدارس الثانوية من حيث برامجها ومقرراتها التعليمية ومستوياتها، وتنشر عدة جامعات المجموع العام للعلامات التي أحرزها التلاميذ المتقدمون إلى هذه الامتحانات، مما يبين "النوعية" أو مستوى القدرة المطلوب، كذلك تتواجد أيضًا برامج اختبار مماثلة على مستويات أعلى، فكل من أنهى سنوات الجامعة الأربع ويود الالتحاق بكليات الطب أو الحقوق، يجب أن يجتاز امتحانًا رفيع المستوى، وقد جرى الاتفاق على هذه الامتحانات بين عدد من كليات الحقوق والطب ولذلك تجري على نطاق قومي وفي أوقات محددة، إلا أنها شأن امتحاني ((SAT ACT)) لا تعتبر رسمية أو حكومية إنما هنالك نوع آخر من الامتحانات الرسمية يتميز بالصعوبة، فإذا درس شخص ما لعدة سنوات مثلاً ونال شهادة طبية من الجامعة، فهذا لا يعني أن من حقه أن يباشر ممارسة الطب الفعلية في الولايات المتحدة، إذ أن كل ولاية تطلب اجتياز امتحانات إضافية خاصة1..

أمّا عن الجهود التي بذلتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة في مجال تيسير سبل المعرفة والتثقيف والحث على القراءة والإطلاع فيكفي أن نقول أنه تَصدُر في الولايات المتحدة أكثر من 11 ألف مجلة ونشرة دورية، بينها أكثر من أربعة آلاف تصدر شهريًا، وأكثر من 1300 تصدر أسبوعيًا..

وأنه في عام 1986م بلغ عدد الصحف الصادرة نحو 9144 صحيفة في 34 لغة مختلفة، وبلغ عدد النسخ التي تباع من الصحف اليومية في الولايات المتحدة يوميًا نحو 63 مليون نسخة2..

---

1 د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا، 106-108.

2 د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا، 165، 166.

وكل هذا بجانب ثروة حقيقة من الكتب والمجلدات في شتى فروع العلم، ويكفي في الحديث عـــن هذه النقطة ذِكر مكتبة الكونجرس الأمريكي، ومكتبة جامعة هارفارد التي تعدّ مكتبتها من أعظم المكتبـــات الجامعية في العالم..

ونتمنى من خلال الموجز أليسير الذي عرضناه أن نكون ساهمنا في توضيح الدور المحوري للعلم في النموذج النهضوي للولايات المتحدة الأمريكية..

المبحث الثاني: دور العلم في بناء اليابان

كانت الضربة القاصمة التي تلقتها اليابان في الحرب العالمية الثانية وأدَّت إلى استسلامها وهي في حالة انهيار كامل؛ إذ خلَّفت الحرب وراءها سبعة ملايين عاطل، ومسحت من على وجه الأرض تمامًا رُبُعَ الطاقة الصناعية، وخرَّبت كل المدن الرئيسية تقريبًا، وذلك بجانب الكارثة الإنسانية التي سببتها قنبلتا هيروشيما وناجازاكي مِن قتلى وجرحى وتلوثٍ بيئيٍّ وإشعاعي، كانت هذه الضربة كفيلةً باختفائها كدولة، ونهاية دورها إلى الأبد..

ولكن اليابان أبت إلا أن تضرب المثل لكل دول العالم، وتعلمها معاني العزيمة والإصرار، وتلقِّن الجميع درسًا في التخطيط الدقيق والمثابرة حتى تحقيق الأهداف، كما أوضحت تجربة اليابان بما لا يدع مجالاً للشك الدور الذي يمكن للعلم أن يؤديه في حياة البشر..

وللحق فإن اهتمام اليابان بالعلم والأخذ بأسباب التطور يسبق الحرب العالمية الثانية بسنوات طويلة، مع اعترافنا بأن هذه الأزمة هي التي فجرت طاقات الشعب الياباني ودفعته إلى الانتصار على الجميع حتى على نفسه، إلا أن النهضة العلمية اليابانية قد نضجت ثمارها قبل ذلك بكثير، فمنذ القرن التاسع عشر واليابان تمتلك سكك حديد وخطوط برق، وصناعة حديثة خاصة الصناعات الثقيلة الأساسية كالتعدين وصناعة الصُّلب وبناء السفن لسد الحاجات العسكرية، وصناعات خفيفة واعدة كصناعة المنسوجات، مع قاعدة عريضة من الأيدي العاملة الماهرة، والكثير من الخبراء الأجانب الذين استقدمتهم اليابان بهدف نقل التكنولوجيا المتقدمة، ومنذ عام 1870م ظهرت آلات الغزل الميكانيكية الحديثة في المصانع اليابانية، وغيرها الكثير من وسائل التكنولوجيا الصناعية الحديثة، وبدأت عجلة التنمية اليابانية في الإسراع وأصبحت اليابان قوة ناشئة وواعدة، وقد بلغ هذا التطور ذروته في عام 1913م[1]..

وقد اعتمدت النهضة العلمية باليابان خلال هذه المرحلة على ثلاثة أعمدة رئيسية:

1- الاستعانة بالعلماء والمعلمين الأوروبيين سواء كانوا أعضاء البعثات التبشيرية أو العلماء المتخصصين في اللغات الأوروبية، وخاصة اللغتين الهولندية والإنجليزية، كما دُعِيَ إلى اليابان الخبراء الفنيون من كل الدول المتقدمة، وقد حملت السفن القادمة إلى اليابان مئات المعلِّمين والمستشارين والفنيين الأجانب، وقد خصصت الحكومة اليابانية لهؤلاء الخبراء الأجانب في مجال التعليم إلى جانب المبعوثين اليابانيين في الخارج ما يوازي 30% من ميزانية وزارة التعليم اليابانية في ذلك الوقت..

2- ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة اليابانية، وإنشاء المدارس الحديثة، وكانت أهم الكتب التي نقلت العلم إلى اليابانيين مؤلفات كل من جان جاك روسو، وهيوم، ودستوفسكي، وتولستوي، وغيرهم من

1 د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، 142، 143.

كبار المفكرين العالميين في ذلك الوقت، والذين ساعدت أفكارهم في زيادة وعي اليابانيين بـأحوال العـالم المحيط بهم.

3- إرسال البعثات اليابانية إلى الدول الأوروبية المتقدمة لينهل أفرادها من العلوم الحديثة، وكانت وزارة التعليم تدقق في اختيار أعضاء البعثات من أفضل العناصر الوطنية، وكانت معظم هذه البعثات يـتم إرسالها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى بعض الدول الأوروبية مثل ألمانيا وفرنسا، وعندما شعر قـادة الأصلاًح الياباني أن أسلوب التربية الألماني الذي يركز على الجوانب الخلقية - التي تؤمن بأن هدف التعليم خلق الإدارة المستنيرة التي تميز بين الصواب والخطأ - هو ما يناسب الطبيعة اليابانية الاجتماعيـة، بـدأت المناهج الألمانية تحل محل المناهج الأمريكية على يد أعضاء البعثات اليابانيين.

أما عن التعليم الجامعي في اليابان خلال تلك الفترة، فقد تم إنشاء العديد من المعاهـد والكليـات العليا حتى عام 1877م الذي تجمعت فيه هذه المعاهد والكليات فيما عُرِفَ بجامعة طوكيو الإمبراطوريـة التي ضمت كليات الآداب والعلوم والحقوق والطب والهندسة، ثم افتتحت عام 1897م جامعة "كيوتـو"، وفي عام 1900م تأسست أول كلية لتعليم اللغة الإنجليزية للبنات، وفي نفس العام أدارت الدكتورة "يوشيو كايابوي" - كأول طبيبة يابانية - أول كلية طب للنساء[1]..

وبذلك طوَّرت اليابان نظامها التربوي، واستطاعت في زمن قصير أن تسد الفجوة الـتي كانـت تفصل بينها وبين الدول الأوروبية في مجال العلم، وقد حدث ذلك بسبب إيمان اليابانيين بأن نقـل العلـم والتكنولوجيا مع أهميته إلا أنه لا يتعدَّى كونه مرحلة أولى يجب أن تتبعها مراحـل وخطـوات، وكانـت الخطوة التالية هي إعداد كوادر علمية وطنية يمكن الاعتماد عليها في بناء الدولة اليابانية الحديثة، وبالفعـل أعادت الحكومة اليابانية النظر في نُظُم التعليم اليابانية بحيث تترسَّم خطى أحسن النظم التعليمية الأجنبيـة، فاستدعت الحكومة الإمبراطورية عددًا كبيرًا من رجال العلم الأجانب للإسهام في إنشاء المدارس والجامعات لجميع الطلاب، وأرسلت البعثات العلمية إلى الخارج للتخصص، ثم استقبلت اليابان مبعوثيهـا في الخـارج ليشاركوا في النهضة التعليمية في البلاد، وليقوموا بالتدريس في المدارس الجديدة[2].

فمنذ منتصف القرن التاسع عشر وأكثر من 45% من سكان اليابان الذكور يجيـدون القـراءة والكتابة، ونحو 15% من الإناث يجيدونها، وهذه النسب لم تكن تقل بحال من الأحوال عنها في أشد دول العالم الغربي تقدمًا في ذلك الوقت، وفي عام 1907م تمكنت اليابان من إدخال أغلب أبنائها إلى المـدارس، وكان الالتحاق بالتعليم إجباريًا وبالمجان تمامًا خلال السنوات الدراسية السِّت الأولى (المرحلة الابتدائيـة)، وبعد اجتياز الطالب لهذه السنوات الست ينتقل إلى مرحلة تعليمية أخرى مدتها خمس سـنوات، ثم ينتقـل

1 د. رأفت غنيمي الشيخ، تاريخ آسيا الحديث والمعاصر،40، 41.
2 تاريخ شرق آسيا الحديث،143.

الطلبة إلى المرحلة العالية ومدتها ثلاث سنوات والتي تعادل المرحلة الثانوية الآن، ثم ينتقل إلى مرحلة التعليم الجامعي لثلاث سنوات أو أربع طبقًا لنوع التخصص[1].

ويُعدُّ من أشهر علماء اليابان في هذه الفترة عالم البكتيريا (كيتا صاطو) الذي أسهم بجهود كبيرة في هذا المجال من العلوم، وقام كذلك بإنشاء مركز لبحوث البكتيريا في عام 1915م، ويحمل هذا المركز اسم هذا العالم الكبير، وقد كان أول من تولَّى عمادة كلية الطب في جامعة كيتو العريقة، وكان قبل ذلك قد تولَّى رئاسة مركز بحوث الأمراض المعدية، أيضًا من أعلام هذه الفترة العالم الكبير شيجا كيوشي (1871-1957م) الذي قام باكتشاف أحد أنواع بكتيريا الدوسنتاريا في عام 1898م وسميت (بكتريا دوسنتاريا شيجا)، كذلك قام بالبحث في أسباب وكيفية علاج أمراض السُّل، وقد حصل هذا العالم على لقب المواطَنة الفخرية وحصل أيضًا على جائزة الثقافة اليابانية. نذكر أيضًا من علماء اليابان البارزين العالم نوجوتشي هيديو الذي سافر للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1900م، وهناك قام بأبحاث عديدة، ولكنه أظهر براعة واضحة في أبحاثه على مرض الزهري والبكتيريا المسببة له، وأوضح المتاعب المختلفة المصاحبة لهذا المرض الخطير، وذلك بجانب أبحاثه المهمة عن مرض الحُمَّى الصفراء؛ حيث نجح بالفعل في تصنيف الجرثومة المسببة لهذا المرض، وكذلك نجح في إنتاج البلازما المناسبة لهذا المرض[2]..

وأمّا عن علم المعادن فلا يمكن تجاوز دور العالم هوندا كوطارو (1870- 1954م) الذي استحدث هذا العلم، وقام باكتشاف معدن النيكل كما اشتُهِرَت أبحاثُه على معدن الحديد. وتدرج هذا العالم الكبير في المناصب العلمية حتى وصل لأن يصبح رئيسًا لجامعة (طوهوكو) العريقة[3]..

ولعل هذه النبذة من التاريخ الياباني الحديث تساعدنا على فهم المعجزة اليابانية، وما نقصده بالمعجزة هو ما فعلته اليابان بعد كارثة الحرب العالمية الثانية، إذ عادت لتبدأ من الصفر بل وأقل من الصفر لتصبح رقمًا صعبًا ومثلاً يُحتَذَى به في التقدم والعلم والرخاء..

لقد قامت اليابان بتقليد الغرب في بادئ الأمر، ثم ما لبثت أن سبقته وتفوقت عليه، فقد نقلت عنه أحدث نظرياته العلمية، ثم بدأت في تأصيل نفسها في العلوم والتكنولوجيا؛ فكثفت جهودها في برامج البحث والتطوير لتخرج جيشًا كبيرًا من العلماء في إطار ما سُمِّيَ "بالتفوق السَّلمي"، واستند اليابانيون إلى نظام تعليمي غاية في الدقة يدعمه حُبٌّ أصيل لنقل العلم والمعرفة كامن في الشخصية اليابانية، وإلى جانب تخريج العلماء والباحثين من المهندسين ركزت اليابان في المقام الأول على مرحلة التعليم الأساسي باعتباره المستودع الأول لإمداد الدولة بكوادرها الفنية والأكاديمية، وحقيقة الأمر فإن اندفاع اليابانيين لتوسيع نطاق التعليم وتجويده كان بنفس اندفاعهم لزيادة ناتجهم القومي، ففي عام 1955م كان نصف الشباب الياباني

1 د. فوزي درويش: الشرق الأقصى الصين واليابان،257.

2 تاريخ اليابان الحديث والمعاصر، 105، 106.

3 تاريخ اليابان الحديث والمعاصر،106.

بالكاد يدرس في مرحلة التعليم الثانوي، ونسبة أقل من 10% يستكملون التعليم فيما بعد المرحلة الثانوية، وعند حلول السبعينيات صار أكثر من 90% من كلا الجنسين يُتِمّون مرحلة تعليمهم الثانوي مقارنةً بنسبة 80% للشباب الأمريكي، وفي عام 1975 على سبيل المثال كان 97% من الطلبـــة اليابـــانيين الـــذين التحقوا بالتعليم الثانوي قد أتموا دراستهم فيه ليلتحقوا بالتعليم العالي[1]..

والأمر المثير للإعجاب أن الطلبة اليابانيين لا يكتفون بمجرد الحضور في الفصول المدرسية، بل نجد ما يزيد على نصف الشبان اليابانيين يلتحقون لبعض الوقت في مدارس تكميلية خاصة بالتوازي مع دراستهم في المرحلتين الابتدائية والثانوية لمزيد من التدريب، وهذه المدارس التكميلية لها أشكال وأحجـــام متعـــددة، والهدف منها تحسين الفرص أمام الطالب للدخول في مسابقات تعقدها المدارس ذات الشهرة في مســـتوى تعليمها والتي يتوق الطلاب إلى الانتساب إليها، وقد أصبح نظام المسابقات هذا سمة معروفة في نظام التعليم الياباني، واللافت للنظر أن هذه المسابقات تهدف إلى قياس مدى المعلومات المكتسبة تأسيسًا على فرضـــية تلقى قبولاً عامًا في اليابان، وهي أن النجاح لا يعتمد على الإمكانات الفطرية للطالـــب ولا علـــى مـــدى استعداده العام، ولكن يعتمد بالأحرى على مدى استخدامه لهذه الإمكانات الفطرية في الدراسة المنتظمـــة، حيث إنه من وجهة النظر اليابانية ليس هناك سوى طريق واحد لتحقيق الفوز هو الاستذكار والاجتهاد في تحصيل العلم[2]..

والجدير بالملاحظة أن الطالب الياباني يحضر في المدرسة ما يزيد عن الطالب الأمريكي بمقدار الثلث؛ فهو يحضر بالمدرسة 240 يومًا في السنة في حين يحضر الطالب الأمريكي 180يومًا فقـــط، أيضًـــا مـــن السمات المميزة لنظام التعليم الياباني هو أن المدارس اليابانية تُشتَهَر بحرصها المفرِط على احتواء الطـــلاب، وغير مسموح فيها بأي نسبة تَفَلُّت أو تسرُّب تعليمي في أي مرحلة من المراحل، أو أية فرقة من الفـــرق، رغم أن ذلك يشكِّل عبئًا إضافيًا على معلميها، ونجد الأمريكيين مثلاً أكثر استعدادًا للقبول بحرمان الطلبـــة المتعثرين من التعليم في حين يبذل المدرس الياباني قصارى جهده ليطمئن إلى أن كل طالب من طلابـــه قـــد حقَّق مستوى تعليميًّا مطمئنًا قبل نهاية العام الدراسي، ويلجأ المدرس في هذا الخصوص إلى حشـــد جهـــود أولياء أمور الطلبة المتعثرين لمساعدة أبنائهم؛ وذلك لأن المدرس الياباني يعتبر نفسه ليس مسئولاً فقط عـــن تقديم المادة العلمية للطالب، وإنما مسئول — أيضًا – عن التأكد من أن الطالب قد استوعب علومه بالفعل.[3]

وبالتأكيد كان لهذه النهضة التعليمية أعظم الأثر في إعداد وتجهيز كوادر علمية قادرة على العطاء، وقد انعكس أثر ذلك على الاقتصاد الياباني، فقد بلغ متوسط النمو الاقتصادي لليابان في الفترة مـــن عـــام 1950 وحتى عام 1973 معدلاً غير عادي، حيث بلغ 10 في المائة سنويًا، والتفسير العلمي لذلك هو أن

---

1 السابق،254.

2 الشرق الأقصى الصين واليابان،254.

3 الشرق الأقصى الصين واليابان ص256.

هذا النمو قد نبع من الزيادة الاستثنائية السريعة التي قامت بها اليابان في تعبئة العمالة ورأس المال والتكنولوجيا، وكذلك نتيجة لتحول الموارد بعيدًا عن الاستثمار في الزراعة، وقد قام مركز اليابان للبحوث الاقتصادية بتقدير معدل النمو السنوي بنسبة 9.2 في المائة سنويًا في الفترة من 1970 حتى 1985م[1]..

وازداد الاهتمام الياباني بالعلم والتعليم، فزادت نسبة المصروفات الحكومية على التعليم من إجمالي الناتج المحلي من 4.5% سنة 1975 إلى 5% سنة 1993، وانعكس ذلك إيجابيًا على "العملية التعليمية" حيث بلغت نسبة المقيدين في المدارس الابتدائية من الأطفال (ذكورًا وإناثًا) في سن الدراسة إلى 99- 100%، وبلغت نسبة الطلاب في المدارس الثانوية إلى إجمالي الأفراد في سن الدراسة 91% في الفترة ما بين سنة 1970م وسنة 1975م، ثم ارتفعت إلى 95% بين سنة 1980م و 1985م، ثم إلى 97% بين سنة 1990 وسنة 1993م، وتحسنت نسبة الأساتذة إلى الطلاب فارتفعت من مدرس واحد لكل 24 طالبًا بين السنة 1980م وسنة 1985م إلى مدرس واحد لكل 20 طالبًا بين سنة 1990م وسنة 1993م[2].

ولاشك في أن اهتمام دولة اليابان بصفة رسمية وجموع المواطنين بصفة شعبية بالعملية التعليمية قد أثَّر بشكل مباشر في تقدُّم العلم، وأدَّى إلى انتشار المراكز البحثية في اليابان بشكل ملحوظ، فقد كان لزيادة عدد الجامعات والمدارس أثره في إعطاء الفرصة للعلماء أن يواصلوا أبحاثهم ودراساتهم في شتى المجالات، كما أننا لا نستطيع إغفال دور الحرب العالمية الأولى في تقدم العلوم وذلك لشعور اليابانيين بأن عليهم بذل قصار جهدهم من أجل أن تقف بلادهم في مصافِّ البلدان المتقدمة، ففي مجال العلوم التطبيقية والطبيعية واصل العلماء عطائهم الذي بدأوه في هذه المرحلة التاريخية[3]..

ولعلّنا نخلص بنتيجة في نهاية كلمتنا الموجزة عن دور العلم في بناء النهضة اليابانية، وهذه النتيجة تتلخص في أن دور العلم ظل بارزًا طوال مراحل التاريخ الياباني الحديث..

كما بيَّنا أن الاهتمام بالتطوير والتجديد التكنولوجي كان أمرًا يشغل بال القائمين على الصناعات اليابانية منذ القرن التاسع عشر، فكثير من براءات الاختراع والأساليب التكنولوجية الأحدث كانت اليابان تستجلبها من الخارج بصفة مستمرة في تلك الآونة مع سعي متواصل لصنع منتجات يابانية بتصميمات جديدة.. ثم تضاعف اهتمام اليابان بالعلم ووصل ذروته خلال الفترة التي تبعت هزيمتها في الحرب العالمية الثانية عام 1945م في محاولة جادة للنهوض وإثبات الوجود، وقد نجحت اليابان في تحقيق هدفها بكل تأكيد، ففي خلال النصف الثاني من الستينيات تجاوز الناتج القومي لليابان نظيره في كل من الدول الصناعية الكبرى في غرب أوروبا، وغزت صادرات اليابان أسواق الدول الصناعية الكبرى، بدءًا من الصُّلب،

1 روبرت جرام: ترويض النمور، ترجمة سمير كريم،مركز الأهرام للترجمة والنشر، 36، 37.

2 أ. أماني مسعود الحديني: العلاقة بين الديمقراطية والتنمية في آسيا،113.

3 هشام عبد الرءوف حسن، تاريخ اليابان الحديث والمعاصر، 105.

والسفن، مرورًا بالمركبات، والآلات والمعدات، وانتهاءً بالإلكترونيات التي تفوقت على مثيلاتها في كل دول العالم، وسيطر المنتج الإلكتروني الياباني على أسواق المستهلكين في العالم[1].

ومن أهم الاختراعات الإلكترونية اليابانية:

1- اختراع الفيديو كاسيت videocassette recorder 1969م[2].

2- اختراع الووكمان personal stereo في عام 1979م.

3- اختراع السي دي compact disc (CD) في عام 1980م.

4- اختراع digital videodisc (DVD) في عام 1995م.

وها هو تقرير التنمية البشرية لعام 2006م يبرهن بالأرقام الواضحة أن الاهتمام بالعلم مازال هو ديدن اليابان حتى يومنا هذا، وجاء فيه أن نسبة التحاق الأطفال بالمدارس الابتدائية مستقرة عند 100% منذ عام 1991م، مما يدل على أن الحرص على التعلُّم أصبح من مسلَّمات الشعب الياباني..

كما ارتفعت نسبة الالتحاق بالتعليم الثانوي من 97% عام 1991 إلى نسبة 100% عام 2004م..

ووصل عدد مستخدمي شبكة الانترنت إلى 578 من كل 1000 فرد في اليابان..

ويقدَّر عدد الباحثين في اليابان بحوإلى 5.287 باحث من كل مليون فرد في اليابان، علمًا بأن عدد سكان اليابان بلغ 127.433.494 مليون نسمة حسب تقديرات 2007م[3]؛ حيث تنفق اليابان على أنشطة البحث والتطوير 3.1% من إجمإلى ناتجها القومي البالغ 4.22 تريليون دولار عام 2006م[4]..

كما بلغت الصادرات التي تحتوي على تكنولوجيا عالية نسبة 24% من إجمإلى صادرات اليابان حسب تقديرات عام 2004م[5].

1 الشرق الأقصى الصين واليابان ص249.

2 الموسوعة البريطانية، الرابط http://corporate.britannica.com/press/inventions.html

3 كتاب الحقائق السنوي الصادر عن وكالة المخابرات الأمريكية لسنة 2007، والمنشور على شبكة الانترنت، الرابط https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/ja.html#People

4 كتاب الحقائق 2007م.

5 تقرير التنمية البشرية لعام 2006م، والمنشور على صفحة الإنترنت، الرابط الإلكتروني http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_JPN.html

إنَّ ما قامت به اليابان من إنجازات علمية وتقنية واقتصادية جعلها قدوةً ونموذجًا لمعظم دول شرق آسيا التي استطاعت تحقيق طفراتٍ اقتصادية وتقنية فيما بعدُ، فقد كان النموذج الياباني مصدر الإلهام لقادة شرق آسيا الذين أرادوا لبلادهم وشعوبهم مستقبلاً زاهرًا.

المبحث الثالث: دور العلم في بناء كوريا الجنوبية

لقد أصبحت كوريا الجنوبية دولة صناعية من الطراز الأول؛ حيث تصنع كل شيء تقريبًا، فهي تصنع الطائرة F-16 الأمريكية بأسعار أرخص من أمريكا ذاتها، وتصنع القطع البحرية والأسلحة المختلفة، وتصنع الأقمار الصناعية المختلفة، وجميع أنواع الكهربائيات والإلكترونيات، بالإضافة إلى تصنيعها للآلات الصناعية نفسها، والأهم من ذلك أن القاعدة الصناعية الكورية يمكنها التحول من صناعة إلى أخرى بسرعة فائقة حسب السوق الدولي للسلع وفي سهولة تامة1..

ويكفينا في هذا المقام أن نقول: إنَّ كل ما يسير على أرض كوريا مصنوعٌ بمصانعها، من القطارات، والأتوبيسات العامة والخاصة، والسيارات، واللوريات المختلفة من جميع الأحجام، ومترو الأنفاق...، وبالفعل يصعب على الناظر داخل السوق الكوري أن يجد أيَّة ماركة أجنبية في الطريق، أو أية سلعةٍ مستوردة، هذا بالإضافة إلى حقيقة مهمة، وهي أن الشعب نفسه حريص على تشجيع منتجه المحلي، فالمحلات مكتظة بالسلع المستوردة بناء على حرية السوق السلعي داخل الدولة، ومع هذا نجد الأثرياء الكوريين يركبون السيارات الكورية، ويستعملون المنتج الكوري حتى لو كان من إنتاج شركة منافسة كورية، ولا يشترون السلع المستوردة2..

كما تحتل الصناعات الإلكترونية الكورية المركز السادس في العالم بالنسبة للإنتاج، والخامس بالنسبة للتسويق، وتحتل كوريا المركز الثاني بعد اليابان في إنتاج الأدوات المنزلية الكهربائية المعمِّرة بمختلف أنواعها، وتحتل كوريا المركز الثالث على العالم بعد اليابان والولايات المتحدة في صناعة الذاكرات الإلكترونية للكمبيوترات3..

واللافت في تجربة النهضة الكورية هو الدور المحوري للعلم فيها؛ فلقد أدركت كوريا مبكرًا أنه لا أمل لنهضتها إلا بتحقيق طفرة علمية وتكنولوجية تمكِّنها من تعويض افتقارها الشديد للموارد الطبيعية..

كما أنَّ من أهم الدروس الجليّة التي يمكن استخلاصها من النهضة العلمية لكوريا الجنوبية – أيضًا – عملها بقاعدة: البداية من حيث انتهى الآخرون، وقد قادها هذه القاعدة إلى اتِّباع سياسة نقل التقنية الحديثة، ثم دراستها والاستفادة منها، وأخيرًا تطوير هذه التقنية وسبقها..

وإذا نظرنا لعملية نقل التقنية في كوريا، نجد أنها تبدأ بمرحلة التخطيط، وقد اضطلعت الحكومة الكورية بتلك المرحلة بمشاركة ثانوية للمؤسَّسات الكورية الخاصة العملاقة، والتي خضعت لها في معظم

---

1 أ. محمد أمين شلقامي، فهم التجربة الكورية وسبل الاستفادة منها، 45.
2 نفس المصدر السابق،45.
3 نفس المصدر السابق ،46.

الأحيان، وقد كانت الحكومة في البداية تختار أفضل الشروط التي يقدمها المورِّد لنقل التقنية وليس أفضل تقنية بالضرورة، ثم قامت الحكومة الكورية بعد خطوة نقل التقنية بخطوة مهمة أخرى وهي إدماج التقنية الحديثة في المصانع الكورية، ثم يلي تلك الخطوة مرحلة البحث والتطوير لإنتاج تقنية محلية أكثر تقدمًا1..

ومن أبرز الأمثلة العملية التي توضح كيفية نقل كوريا للتقنية الحديثة هو خطواتها لإنتاج أول سيارة كورية الصنع، حيث قامت كوريا باستيراد سيارات تويوتا وفورد شبه مفككة ثم بدأت بتجميعها محليًا، وبعد القيام بدراسات علمية على مكونات هذه السيارات، ودراسة إمكانية استبدال أجزاء محلية الصنع ببعض الأجزاء، تمكنت كوريا من تصنيع السيارة (هيونداي) محلِّيًّا بنسبة 96%2، ومن هذا المثال تتضح لنا السياسة التي اختارتها كوريا في مجال البحث والتطوير ذاته، فهي إذا قورنت بالدول المتقدمة نجدها لم تستثمر بالصورة الكافية في تطوير تقنية مستقلة، ولكنها اعتمدت على التقنية المستوردة؛ حيث كانت تستوعبها وتحسنها، ثم تقدم بديلاً محليًّا لبعض مكوناتها أو تطورها لتخرج بمنتج جديد تمامًا، وبهذا وقفت كوريا في منتصف الطريق تقنيًا؛ فهي أكثر تقدمًا من الدول الأخرى المصنعة حديثًا، وأقل من اليابان والولايات المتحدة..

كما قامت كوريا الجنوبية في خطتها الأولى بالتركيز على تصنيع السلع ذات القبول الدولي الواسع لضمان سهولة تسويقها، مثل: صناعة النسيج، وصناعة الأحذية، وقد تم استخدام التقنية العالية في تلك الصناعات لزيادة الميزة التنافسية للسلعة الكورية على مثيلاتها في السوق الدولي، وقد تم إنشاء المعهد الكوري لتنمية العلوم والتقنية الذي يرأسه رئيس الجمهورية الكورية بنفسه، للقيام بتلك المهمة، كما تم إنشاء مدينة كاملة لمعاهد الأبحاث والتقنية اسمها مدينة (تدوك)، وبها 34 معهد أبحاث بعضها تابع للحكومة الكورية، وأغلبها تابع للشركات الخاصة، وتقوم تلك المعاهد بتخريج الفنيين المطلوبين للعمل في الشركات المختلفة، وفيها يتم عزل الدارسين عن العالم الخارجي للتفرغ للدراسة والأبحاث فقط، وذلك بإقامة المدينة بين سلسة من الجبال، وأقرب مدينة لها على بعد 20 كيلومتر تقريبًا3..

لم يكن ممكنًا النجاح في تحقيق الأهداف الكورية بمجرد نقل التقنية المتقدمة؛ ولذا اتجهت الدولة إلى إعداد كوادر قادرة على استقبال هذه العلوم المتقدمة والاستفادة منها، ثم تحمُّل عبء التطوير والابتكار، ومن هذا المنطلق قامت الحكومة الكورية بمراجعة شاملة لنظامها التعليمي ليصبح مؤهَّلاً لإمدادها بالكفاءات العلمية المطلوبة..

وللحق فقد كان التعليم الكوري يواجه العديد من المشاكل، وهو في ذلك مثل العديد من الأنظمة التعليمية في مختلف أنحاء العالم، ولكن دولة مثل كوريا تريد النهوض والتقدم تعظم في عين المسؤولين بها

1 د. محمد السيد سليم: النموذج الكوري للتنمية ص210.

2 المصدر السابق ص208.

3 أ. محمد أمين شلقامي: فهم التجربة الكورية وسبل الاستفادة منها ص37.

هذه المشاكل، وتصبح في نظرهم كوارث يجب معالجتها والاحتراز من آثارها، وعلى سبيل المثال نجد أن مرحلة التعليم الثانوي الكورية، كانت تعاني من كونها أكاديمية التوجه وجسرًا للجامعة أساسًا، مع انفصالها عن الاقتصاد، وكانت المدارس المهنية ملتقى الطلبة الفاشلين انتظارًا لدخولهم امتحان القبول بإحدى المعاهد أو الجامعات، كما كانت المدارس المهنية المختلفة وخاصة الفنية منها غير مرتبطة بالقطاع الصناعي ومفتقرة للتسهيلات اللازمة، وظل الوضع هكذا حتى بداية السبعينيات؛ حيث أُدْخِل عدَّة تعديلات على النظام التعليمي فلعبت المعاهد المتوسطة المهنية دورًا مهمًا في سَدِّ الاحتياجات للعمالة الفنية المدربة في ظل تزايد الطلب عليها عامًا بعد عام، وكانت الدراسة في هذه المعاهد تمتد لثلاثِ سنوات بعد المرحلة الثانوية، وقد بلغ عدد هذه المعاهد في تلك الفترة حوإلى 118 مؤسسة لتخريج الفنيين، بينما يُكرَّس 20- 50% من حصة الدخول للجامعات لهؤلاء الخريجين الذين يريدون استكمال دراستهم في ذات المجال، ومن أهم النقاط الإيجابية التي تساعد هذه المعاهد على أداء رسالتها التعاون الوثيق بينها وبين المؤسسات الصناعية العملاقة لتسهيل التدريب العملي في المواقع الصناعية، وذلك بجانب تشكيل حوإلى 641 لجنة تعاونية في مختلف المجالات مهمتها التنسيق بين المصنع والهيئة التعليمية، مما أدى إلى تخريج كوادر فنية مدربة على أعلى مستوى وقادرة على استيعاب الوسائل الحديثة في الصناعة1..

وأُنشئت مدرسة العلوم والتقنية في عام 1983م، مع السماح لخريجيها بالالتحاق بجامعة العلوم والتقنية، وإعطاء هؤلاء الطلاب الأولوية في المنح والبعثات، وذلك بجانب إنشاء مدارس للنابغين علميًا، و12 معهدًا علميًّا، و79 مركزًا للأبحاث، وإنشاء صندوق للتعليم العلمي وإنشاء شبكة معلومات بين المعاهد البحثية، وقد أسفرت الجهود الحكومية في الدفع بالجانب التطبيقي للتعليم في الجامعات إلى ارتفاع عدد المهندسين الخريجين من 5.000 في عام 1971م إلى 15.000 في عام 1982م2..

وقد بلغ الإنفاق على التعليم المهني في كوريا 59% من ميزانية التعليم في عام 1991م، وفي عام 2002م كان هناك 741 مدرسة ثانوية مهنية يدرس فيها 535.363 ألف طالبٍ3..

وقد تأثرت السياسات التعليمية الكورية كثيرًا بالنظام التعليمي في اليابان والولايات المتحدة الأمريكية، كما بعثت أمريكا بمساعداتها وخبرائها إلى كوريا، ويعتبر معهد كوريا لتنمية التعليم من أهم المؤسسات الكورية التي أسهمت في تطوير نظام جديد للتدريس مثل البرامج المرئية ومواد التعليم الذاتي4..

أمّا عن مراحل التعليم المختلفة، فالتعليم الابتدائي في كوريا إلزاميٌّ، وتصل نسبة التسجيل فيه إلى 100 %، وكذلك أصبح التعليم الإعدادي إلزاميًا في كل أنحاء كوريا اعتبارًا من عام 2002م، وقد

---

1 د. محمد السيد سليم: النموذج الكوري للتنمية ص 187.

2 نفس المصدر السابق، 192.

3 الصفحة الرسمية للجمهورية الكورية الجنوبية على شبكة الانترنت، الرابط http://www.arab2korea.net/default.asp.

4 النموذج الكوري للتنمية،199،197.

كانت نسبة الطلاب للمعلمين في المدارس الابتدائية 58.8 طالبًا للمعلم الواحد في عـــام 1960م، إلا أن هذه النسبة انخفضت إلى 28.1 طالبًا للمعلم الواحد في عام 2002م، كما تم إنشاء جامعة كوريا المفتوحة الوطنية للشباب والبالغين العاملين1..

هذا وقد وصلت نسبة الطلبة إلى عدد السكان في كوريا الجنوبية عام 1991م إلى 395 لكـــل 10.000 وهي من أعلى النسب في العالم بجانب الولايات المتحدة وكندا2..

كما يُعَدُّ من أهم إنجازات السياسة التعليمية في كوريا الجنوبية – والذي أسهم بقوة في النهضـــة العلمية – المضمون المعنوي الذي تحتويه الكتب المدرسية، ففي ظلِّ نظام الرئيس (بارك شـــونج) عملـــت المناهج على التقليل من أهمية القيم الفردية، وركزت الكتب على أهمية الطاعة والتعاون والولاء للوطن، كما أكّدت كتب الأخلاق للمرحلة الوسطى من التعليم على أنَّ العمل الدءوب والدراسة والزهـــد وتهـــذيب ومراقبة النفس من أهم صفات الفرد، وقد اعتبر البعض أن هذه القيم المقدَّمة في المناهج الدراسية الكوريـــة هي أهم الأساليب التي حققت بها كوريا إعجازها التنموي3..

ويعتبر علم الإدارة العامة من أهم العلوم التي أسهمت مباشرة في المعجزة الكورية، فالتعليم الإداري أفرز القيادة القادرة على التخطيط التي أسهمت في وضع السياسات المختلفة سواء في المؤسسات الصـــناعية العملاقة أو في الحكومة، بالإضافة إلى العمالة الماهرة المنظمة، كما أسهم علم الإدارة في تحديـــد المهـــارات اللازمة لصنع القرار والتخطيط المركزي وتعبئة الموارد، ووضع البرامج التنموية، وهي كُلُّها مهـــامٌّ لازمـــة لدولة تأخرت في التصنيع مثل كوريا4..

وبجانب الاهتمام بالتعليم أَوْلَت كوريا عناية خاصة للمُعلِّم الكوري الذي هو بمثابة المنفذ للخطط والتعديلات التعليمية التي طرأت خلال المراحل السابق عرضها، لقد كان المدرس هدفًا كما كان منفذًا لتلك السياسات؛ فمنذ الستينيات تم الارتقاء بالمعاهد المتوسطة الخاصة بتأهيل معلمي المرحلة الابتدائيـــة، كمـــا موَّلت الحكومة كلياتِ المعلمين، بل حرصت على أن يُلحَق بها مدرسةٌ ابتدائية ومتوسطة وثانوية؛ وذلـــك كي يتم تدريب المعلم بصورة عملية، كما اشتملت التعديلات الكيفية في الثمانينيات على ضرورة فـــرض امتحان قدرات ومقابلة شخصية للمتقدمين لمعاهد المعلمين، هذا مع إعفاء الطلبة في كليات المعلمـــين مـــن بعض المصاريف بنسبة قد تصل إلى 40% من قيمة المصروفات الدراسية، وفي إطار تحسين ظروف المعلـــم والارتقاء بمستواه العلمي — أيضًا – تم توفير دورات تدريبية خلال العمل لتحسين المستوى أو للحصـــول على شهادات إضافية للترقية أو للتأقلم، هذا بالإضافة إلى قيام وزارة التعليم الكورية بإرسال بعثـــات مـــن

1 الصفحة الرسمية للجمهورية الكورية الجنوبية على شبكة الانترنت، الرابط http://www.arab2korea.net/default.asp.

2 النموذج الكوري للتنمية،196.

3 د. محمد السيد سليم، النموذج الكوري للتنمية،191.

4 المصدر السابق ،193.

المعلمين إلى الخارج للاستفادة من الجديد في نظم التدريس، وقد تم بالفعل إرسال 2.119 مدرس من عام 1978 إلى 1988م في تلك البعثات، أمّا المدرس الجامعي فهو محل للتقييم المستمر من قِبَل الطلاب كنوع من الرقابة على مستواه1..

أمّا عن تثقيف المجتمع ونشر المعرفة فنجد في كوريا العديد من المكتبات بأنواعها المختلفة، كالمكتبات القومية والعامة والمتخصصة وغير المتخصصة، ومكتبات التعليم العالي والمدارس، وقد بلغ عدد المشتركين بها في أوائل التسعينيات حوالي 24 مليون فردٍ، وبها حوالي 68 مليون كتابٍ، وهي معدلات عالية بالنسبة لدولة حديثة النمو2..

وقد جاء في تقرير التنمية البشرية الصادر عن البنك الدولي لعام 2006م أنَّ كوريا الجنوبية نجحت في تحقيق نسبة محو للأمية في شبابها مابين 15 – 24 عامًا وصلت إلى 99.2 % طبقًا لتقديرات 1991م3..

كما وصل عدد مستخدمي الانترنت إلى 657 من كل ألف مواطن كوري في عام 2003م..

وبلغ عدد براءات الاختراع الممنوحة للمقيمين في كوريا الجنوبية 738 لكل مليون نسمة في عام 2004م..

كما أنفقت الحكومة الكورية في عام 2003م على البحث والتطوير نسبة 2.6% من إجمالي ناتجها المحلي، وهي تمثل نسبة كبيرة في ظل التزايد المستمر لقيمة الناتج المحلي الإجمالي لكوريا الجنوبية والذي بلغ 1.18 تريليون دولار في عام 2006م4..

ووصل عدد الباحثين إلى 3.187 باحثًا من كل مليون فرد في عام 2003م..

كما بلغت الصادرات المصنعة نسبة 92% من إجمالي الصادرات الكورية عام 2004م، وهذا مع العلم أن الصادرات التي تحتوي على تقنية عالية مثّلت 33% من إجمالي الصادرات المصنَّعة في عام 2004م.

---

1 د. محمد السيد سليم، النموذج الكوري للتنمية، 189، 190.

2 المصدر السابق، 196.

3 تقرير التنمية البشرية لعام 2006م، الرابط
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_KOR.html

4 كتاب الحقائق الدولي لعام 2007م.

المبحث الرابع: دور العلم في بناء ماليزيا

تُمثل ماليزيا – بحق – حالة فريدة ومتميزة بين الدول الإسلامية، ليس فقط بسبب نجاحها بامتياز في عملية التنمية والنهضة، وبالتالي بلوغها مرتبة متقدمة بين الأمم الصاعدة، وإنما أيضا بسبب براعتها في التعامل مع كل المعضلات والتحديات التي واجهتها..

وبداية؛ فإن ماليزيا الشقيقة تقع في قلب جنوب شرق آسيا، وتبلغ مساحتها 330.343 ألف كم2، وعاصمتها مدينة كوالالمبور، ويبلغ عدد سكان ماليزيا 24.385.858 مليون نسمة (عام 2006)، يمثل المسلمون نسبة 60% تقريبًا منهم1، وتعتبر ماليزيا هي يابان العالم الإسلامي.. لماذا؟

لقد وصلت ماليزيا إلى المرتبة الثامنة عشرة على مستوى العالم اقتصاديا، وبنظرة سريعة إلى الأرقام التي حققتها دولة ماليزيا على العديد من الأصعدة، ومن واقع التقارير والدراسات العالمية المعتمدة، نستطيع أن نرى وبوضوح المكانة التي استطاعت الشقيقة المسلمة – والتي تعتز بانتمائها إلى الأمة الإسلامية — أن تحفرها لنفسها بين دول العالم المتقدم..

فالناتج القومي لماليزيا 308.8 مليار دولار، ومعدل النمو السنوي للناتج القومي 5.5 ٪ (تقديرات 2006) ، ووصلت قيمة صادراتها إلى 147.1 بليون (ألف مليون) دولار (تقديرات 2005) وتصل نسبة الصادرات المصنعة 79 % من إجمالي الصادرات، بينما الصادرات المصنعة عالية التقنية والتكنولوجيا تمثل 58 % من إجمالي الصادرات المصنعة الماليزية، بما يوضح التقدم الملموس في الصناعات التي تحتوي على تقنية عالية، مثل الكومبيوتر ووسائل الاتصال ..

وإذا نظرنا – مثلاً – إلى دولة متقدمة مثل ألمانيا، نجد أن صادراتها الصناعية تمثل 84 % من إجمالي صادراتها، بينما تمثل الصادرات عالية التقنية 17% من إجمالي الصادرات المصنعة.. بينما في مصر تمثل الصادرات المصنعة عالية التقنية نسبة 1 % فقط من إجمالي الصادرات الصناعية ..

وتبلغ نسبة البطالة في ماليزيا 3.6 % (تقديرات 2005)، بينما هي في فرنسا – مثلاً – 4.3 % وفي ألمانيا 5 % مما يوضح لنا مقدار الندية مع الدول الصناعية الكبرى..

أمّا عن قضية العلم ومكافحة الأمية، فقد جاء في نفس المصدر السابق أن 88.7 % من عدد السكان فوق سن الخامسة عشر عامًا يستطيع القراءة والكتابة، وقد وضح التقرير أن هذه النسبة كانت 80 % في عام 1990م، مما يوضح استمرار وتواصل الجهود للقضاء على هذه الظاهرة تمامًا..

---

1 كتاب الحقائق الدولي لعام 2007م.

ولعل من اللافت للنظر أن الإناث ما بين سن 15-24 عامًا تصل نسبة معرفتهن للقراءة والكتابة إلى 97.3 % ولا يخفي أن هذا هو سن الزواج وتكوين الأسرة، وبالتأكيد ستكون الأم المتعلمة أحـــرص على تعليم أبنائها..

أما نسبة ما تنفقه ماليزيا على التعليم، فإنه يعادل 28% من إجمإلى نفقاها الحكومية، كما جـــاء أيضًا في تقرير التنمية لعام 2006، في حين أن ما تنفقه إسرائيل على التعليم 13.7% من إجمإلى نفقاهـــا الحكومية..

كما أنَّه من كل ألف شخص في ماليزيا يوجد 397 من مستخدمي الانترنت.. كما يوجد 299 باحث لكل مليون نسمة1..

ولا نريد أن نستفيض في هذه النقطة - رغم أهميتها - أكثر من ذلك، بل نجد أنه من المهم جدًا أن نجيب على سؤال مُلِحٍّ، وهو:

كيف استطاعت دولة مثل ماليزيا أن تحقق هذا التقدم..؟! وماهو دور العلـــم في هـــذا النجـــاح المذهل؟

وسؤالنا هذا ليس القصد منه التقليل من شأن ماليزيا، بقدر ما هو مبعث إعجاب ودهشة، وشعور بالامتنان والفخر نوعا ما، وخاصة وأها دولة ذات إمكانيات محدودة.. فلا تملك - مـــثلاً - احتياطيـــاتٍ نفطيةً هائلة، مثل السعودية والعراق، ولا تمتلك طاقات بشرية ضخمة، مثل إندونيسيا، وكـــذلك فهـــي لا تمتلك 30 مليون فدان صالحة للزراعة مثل السودان الشقيق، وفضلاً عن ذلك، فمساحتها ليست شاســـعة مثل دولة الجزائر التي تقترب من 2.5 مليون كم22!! بل وعلى العكس من ذلك!!

فقد اجتمعت في دولة ماليزيا عدة عوامل، يكفي أي عامل منهم ليكون حجة للتكاسل والقعـــود عن العمل، فضلا عن التنافس مع الدول المتقدمة ومضارعتها..

لقد طرق الاستعمار أبواب ماليزيا منذ القرن السادس عشـــر، بـــدءًا بالاســـتعمار البرتغـــإلي، ثم الهولندي، وأخيرًا الاستعمار البريطاني، الذي بدأ في منتصف القرن الســـابع عشـــر، وبالتحديـــد في عـــام 1665م، واستمر الاحتلال البريطاني جاسم على ماليزيا، يستنزفها بدون انقطاع، ولمدة تقترب من ثلاثـــة قرون.. فعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية وقعت ماليزيا تحت الاحتلال الياباني خلال عام 1941م وحتى

1 تقرير التنمية البشرية لعام 2006م، الرابط
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_MYS.html
2 كتاب الحقائق الدولي الأمريكي لعام 2007م.

استسلمت اليابان في شهر سبتمبر 1945م، ثم عادت بعدها الإدارة البريطانية لحكم ماليزيا مرة أخـــرى، حتى حصلت على كامل استقلالها في عام 1957م، وأُعلن قيام دولة ماليزيا في 16 مارس 1963م[1] ..

وبالإضافة إلى ما عانته من مرارة الاستعمار، فقد واجهت ماليزيا مشكلة خطيرة، وهي التنوع، بل والاختلاف بين عناصر تركيبتها العرقية والدينية..

فنجد أن التركيبة العرقية مقسمة ما بين 58 % من عدد السكان لهم أصول تعـــود إلى منطقـــة الملايو، و27 % تعود أصولهم إلى الصين، و8 % أصول هندية، 7 % لهم أصول مختلفة أخرى..

ولهذه التركيبة العرقية أثر واضح في التركيبة الدينية لماليزيا، حيث نجد أن المسلمين يمثلون 60 % من عدد السكان، ومعظمهم من الملاويين السكان الأصليين، ويـــأتي بعـــدهم البوذيـــون بنســـبة 19 % ومعظمهم من الصينيين، ثم النصارى بنسبة 9 %، والهندوس 6 %، والبـــاقي ديانـــات أخـــرى، مثـــل الكونفوشسية والسيخية[2]..

أي خليط هذا..؟!

وبجانب هذه المصاعب فقد خرجت ماليزيا إلى العالم بعد حصولها على الاستقلال وهي تعاني من جروح غائرة في جسدها الوليد، المتمثل في دولة صغيرة تتكون من اتحاد 13 ولاية، وكان أكـــبر جـــراح الدولة الوليدة هو جرح الفقر الذي استعاذ منه النبي ρ، فكان قرابة نصف الشعب الماليزي يعـــاني الفقـــر المدقع، ولم تكن هناك صناعات تكاد تذكر أو تشتهر بها ماليزيا في ذلك الوقت، بل كان أبـــرز أنشـــطتها يتركز على تصدير المطاط، ويليه في التصدير معدن القصدير، مع القليل من المواد النفطية، وكان يحتـــرف بعض سكان ماليزيا مهنة الصيد، ويعمل بعضهم بالزراعة، مع تدني رهيب في مستوى التعليم..!!

وتلك شيمة البلاد التي تعرضت للاحتلال، والذي كان – ولا زال – من طبيعة عمله أن يحـــرص ليل نهار على نشر الجهل والتخلف؛ حتى يضمن استقراره، وسهولة قيادة فريسته.. وذلك هو المشهد – إن لم يكن هناك ما هو أسوأ منه – حين حصول دولة ماليزيا على الاستقلال..!!

ومن فور الحصول على الاستقلال أعطت الدولة اهتمامها الأول بقضية التعليم كهدف لا غنى عنه لتحقيق النهضة، وذلك لأنها تدرك أن التعليم هو الذي يكفل تنمية وصقل الموارد البشرية للدولـــة، ولـــذا حرصت الإدارة الماليزية منذ استقلال البلاد في 1957م على تقديم خدمات التعليم الأساسي – لمدة إحدى عشرة سنة – مجانًا، كما أولت الحكومة عناية كبيرة بتأسيس معاهد خاصة لتدريب المعلمين وتأهيلهم على المستوى القومي..

---

1 د. رأفت غنيمي الشيخ، تاريخ آسيا الحديث والمعاصر، مرجع سبق ذكره،161-167.

2 كتاب الحقائق الأمريكي.

ولقد ركزت الحكومة في مطلع الستينات على هدف واضح، وهو إحلال الوردات، بمعنى التصنيع المحلي للسلع التي يتم استيرادها من الخارج، وبالفعل تكونت نواة صناعية، عبارة عن صناعات صغيرة كصناعة الأغذية، ثم تطور الأمر لصناعة مواد البناء والطباعة والبلاستيك والكيميائيات، وساندت الدولة هذه الخطوة الناجحة بإصدار قانون تشجيع الاستثمار في سنة 1968م؛ لجذب الاستثمارات الأجنبية بهدف زيادة القاعدة الصناعية، وبالفعل حدث توسع في إنتاج زيت النخيل والخشب والمطاط والكاكاو، كما شهد القطاع النفطي تطورًا كبيرًا؛ مما وضع ماليزيا على خارطة الدول المصدرة للبترول والغاز..

وفي مطلع السبعينات شجعت الحكومة دخول الاستثمارات الأجنبية في مجال الإلكترونيات وصناعة النسيج، وذلك بتوفير العمالة الماليزية وتقديم حوافز ضريبية مغرية، وإصدار تراخيص منتجات أجنبية، وإنشاء مناطق تجارة حرة، كما بدأت الحكومة تستضيف الشركات الكبرى متعددة الجنسيات لتشغيل خطوط إنتاجية في ماليزيا، فشهدت هذه المرحلة الانتقال من سياسة إحلال الواردات إلى سياسة التصنيع الموجه إلى التصدير..

ومن ثم أصبحت الأرض الماليزية ممهدة وجاهزة للانطلاق واللحاق بركب الدول المتقدمة، لا ينقصها إلا قائد ماهر طموح يقودها ويحسن إدارتها وتوجيهها.. وكان هذا الرجل هو مهاتير محمد، صانع المعجزة الماليزية، فكيف فعلها؟!

بدأ ظهور الدكتور مهاتير محمد في الحياة السياسية في عام 1970م، وذلك عندما ألف كتابا بعنوان "معضلة الملايو"، انتقد فيه بشدة شعب الملايو واتهمه بالكسل، والرضا بأن تظل بلاده دولة زراعية متخلفة دون محاولة تطويرها، وكان في ذلك الوقت عضوًا في الحزب الحاكم والذي يحمل اسم منظمة الملايو القومية المتحدة، وقرر الحزب منع الكتاب من التداول نظرا للآراء العنيفة التي تضمنها، وأصبح مهاتير محمد في نظر قادة الحزب مجرد شاب متمرد لابد أن تحظر مؤلفاته!!

غير أن مهاتير سرعان ما أقنع قادة الحزب بقدراته، مما يدل على حنكته السياسية؛ فهو لم يغضب ويترك الحزب، وبالفعل صعد نجمه في الحياة السياسية بسرعة، حتى تولى رئاسة وزراء بلاده في عام1981م، وأتيحت له الفرصة كاملة ليحوِّل أفكاره إلى واقع عملي1..

لم يكن مهاتير محمد مجرد رجل سياسة، بل كان أيضا مفكر له كتبه ومؤلفاته، وكان صاحب رؤية لما ينبغي أن تكون عليه بلاده، ولقد استفاد مهاتير من كل ما حققته ماليزيا منذ الاستقلال من نجاحات واستثمرها وجعلها قاعدة لانطلاقته، و لم يرد الدكتور مهاتير أن يكون انطلاقه عشوائيًا، بل بدأ يبحث في تجارب الدول الأخرى وخاصة الآسيوية، حيث سُميت سياسته بالاتجاه شرقًا، واستقر اختياره على المعجزة

1 موقع بي بي سي، مهاتير محمد: من شاب متمرد إلي بطل قومي ، الرابط
http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_3238000/3238603.stm

اليابانية فجعلها أمامه قدوة ومثلاً أعلى.. وقد كان توجه مهاتير محمد ناحية اليابان مستلهمًا من تجربة نجاحها ملحوظ بشكل كبير، وقد صرح بذلك في العديد من المناسبات1..

اختارت ماليزيا اليابان التي تحتل مكانة عالمية وإقليمية على كافة المستويات وخاصة التصنيعية، حيث تجاوز حجم إجمإلى الناتج المحلي الياباني عدة مرات إجمإلى الناتج المحلي لدول شرق أسيا مجتمعة، بما فيها الصين خلال فترة الثمانينات، وكانت اليابان من الأسباب الجوهرية التي ساهمت في يقظة وتوعية الشعب الآسيوي مما أطلق عليه "وهم التفوق الأوروبي".

وتعتقد ماليزيا أن الإستراتيجية التي انتهجتها اليابان في إنتاج سلع جيدة بأسعار زهيدة ساهمت بشكل كبير في تحقيق تفوقها على المنتجات الأوروبية والأمريكية ذات الأسعار المرتفعة، وبالتالي نجحت في السيطرة على أسواق آسيا وأفريقيا، بالإضافة إلى إتباع سياسة منهجية في التصنيع، وإيجاد قيادات تتمتع بمستوى علمي فائق، وتتميز بالتطور والإبداع، وعلى المستوى المعنوي نجد في اليابان الالتزام الأخلاقي والمهني بقيم العمل الآسيوية، مما يستتبعه التفاني والجدية في الأداء المهني2..

لقد استلم مهاتير محمد السلطة بعد مرور أكثر من عقدين على الاستقلال، وفي هذه الفترة تم قطع خطوات هامة في طريق الأصلاًح والبناء؛ مما وفر له قاعدة تصلح للارتكاز عليها، وباختياره لليابان كنموذج تنموي تكشَّف أمامه الطريق نحو المستقبل، وجاء دوره المفصلي في تاريخ ماليزيا، وهو كيفية إدارته للدولة، والقفز بها إلى مصاف الدول الصناعية الكبرى..

ولعل أبرز ما يميز المرحلة المهاتيرية تلك الطفرة الاقتصادية اللافتة، حيث أصبحت فيها ماليزيا دولة صناعية متقدمة، يساهم قطاعي الصناعة والخدمات فيها بنحو 90% من الناتج المحلي الإجمإلي، وفي عهده بلغت نسبة صادراتها من السلع المصنعة 85% من إجمإلى صادراتها، وأنتجت 80% من السيارات التي تسير في طرقاتها، وأصبحت من أنجح البلدان في جنوب آسيا، بل وفي العالم الإسلامي بأكمله، فكيف فعل هذا3؟!

إذا نظرنا لهذه المرحلة نظرة تحليلية متعمقة نجد أن الدكتور مهاتير محمد انطلق في عدة محاور وفي وقت واحد، ولكنه قام بالتركيز على ثلاثة محاور بصفة خاصة، وهي:

محور التعليم، ويوازيه محور التصنيع، ويأتي في خدمتهما المحور الاجتماعي..

---

1 ماجدة علي صالح: عظماء آسيا في القرن العشرين ص122، 132 بتصرف.

2 عبد الرحيم عبد الواحد: مهاتير محمد عاقل في زمن الجنون ص84-86.

3 موقع بي بي سي، مهاتير محمد: من شاب متمرد إلي بطل قومي.

وكان اهتمامه بالتعليم منذ مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية؛ فجعل هذه المرحلة جزءًا من النظام الاتحادي للتعليم، واشترط أن تكون جميع دور الرياض وما قبل المدرسة مسجلة لدى وزارة التربية، وتلتزم بمنهج تعليمي مقرر من الوزارة..

كما تم إضافة مواد تُنمي المعاني الوطنية، وتغرز روح الانتماء للتعليم الابتدائي.. أي في السنة السادسة من عمر الطفل..

ومن بداية المرحلة الثانوية تصبح العملية التعليمية شاملة، فبجانب العلوم والآداب تُدرَّس مواد خاصة بالمجالات المهنية والفنية، والتي تتيح للطلاب فرصة تنمية وصقل مهاراتهم..

وإلى جانب ذلك كان إنشاء الكثير من معاهد التدريب المهني، التي تستوعب طلاب المدارس الثانوية وتؤهلهم لدخول سوق العمل في مجال الهندسة الميكانيكية والكهربائية وتقنية البلاستيك، وكان من أشهر هذه المعاهد معهد التدريب الصناعي الماليزي، والذي ترعاه وزارة الموارد البشرية، وقد أصبح له تسعة فروع في مختلف الولايات الماليزية..

وقد واكب هذا الاهتمام بالتعليم دخول ماليزيا مرحلة التصنيع الثقيل، كما في صناعات الأسمنت والحديد والصلب، بل وتصنيع السيارة الماليزية الوطنية (بريتون)، ثم التوسع في صناعة النسيج وصناعة الإلكترونيات، والتي صارت تساهم بثلثي القيمة المضافة للقطاع الصناعي، وتستوعب 40% من العمالة..

وكانت التسعينات من القرن الماضي مرحلة نضج الثمرة، حيث وُضعت ماليزيا في قائمة الدول المتقدمة..

ففي مجال التعليم[1]، وتوافقًا مع ثورة عصر التقنية، قامت الحكومة الماليزية في عام 1996م بوضع خطة تقنية شاملة، من أهم أهدافها إدخال الحاسب الإلى والارتباط بشبكة الإنترنت في كل مدرسة.. بل في كل فصل دراسي!!

وبالفعل بلغت نسبة المدارس المربوطة بشبكة الإنترنت في ديسمبر 1999م أكثر من 90%، وبلغت هذه النسبة في الفصول الدراسية 45%، كما أنشأت الحكومة الماليزية العديد مما يعرف بالمدارس الذكية التي تتوفر فيها مواد دراسية تساعد الطلاب على تطوير مهاراتهم واستيعاب التقنية الجديدة، وذلك من خلال مواد متخصصة عن أنظمة التصنيع المتطورة وشبكات الاتصال، ونظم استخدام الطاقة التي لا تحدث تلوثًا بالبيئة..

---

1 دراسة د. محمد شريف بشير، منشورة على موقع اسلام أون لاين، بعنوان استثمار في البشر في ماليزيا، الرابط:
http://www.islamonline.net/arabic/economics/2002/05/article11.shtml

كما تنفذ عملية التدريس والتعليم في هذه المدارس وفقًا لحاجات الطلاب وقدراتهم ومستوياتهم الدراسية المختلفة، ويتم اختيار مدير المدرسة من القيادات التربوية البارزة، ويساعده فريق من الأساتذة ممن لديهم قدرات مهنية ممتازة،كما تتيح مشاركة الطلاب في اختيار البرامج الدراسية، بجانب حرص هذه المدارس على التنويع والتطوير في أساليب التدريس، مثل الرحلات العلمية والأيام الترفيهية..

لقد حددت الدولة أولوياتها بدقة، فإذا نظرنا إلى إجمإلى ما أنفقته الحكومة المإليزية على التعليم في عام 1996م على سبيل المثال نجده 2.9 مليار دولار، بنسبة 21.7% من إجمإلى حجم الإنفاق الحكومي، وازداد هذا المبلغ إلى 3.7 مليار دولار عام 2000م بما يعادل نسبة 23.8% من إجمإلى النفقات الحكومية..

وكان إنفاق هذه المبالغ على بناء مدارس جديدة، وخاصة المدرس الفنية، وإنشاء معامل للعلوم والكمبيوتر، ومنح قروض لمواصلة التعليم العإلى داخل وخارج البلاد.. وبالإضافة إلى الدعم والتسهيلات الكبيرة التي تقدمها الدولة، فإن إلزامية التعليم أصبحت من الأمور التي لا جدال فيها، وأصبح القانون المإليزي يعاقب الآباء الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس!!

كل ذلك بجانب الحرص على الانفتاح، والاستفادة من النظم التعليمية المتطورة في الدول المتقدمة.. وفي هذا السياق تم إنشاء أكثر من 400 معهد وكلية جامعية خاصة، تقدم دراسات وبرامج توأمة مع جامعات في الخارج، كما أتاحت الفرصة للطلاب المإليزيين لمواصلة دراستهم في الجامعات الأجنبية[1]..

إلا أن ما يستحق التسجيل ويدعو إلى الإعجاب، تلك الفكرة الجديدة التي قامت بها الحكومة المإليزية، عندما عملت على تقوية العلاقة بين مراكز البحوث والجامعات وبين القطاع الخاص.. بمعنى فتح المجال لاستخدام أنشطة البحث الجامعية لأغراض تجارية!!

وقد كان لتلك الفكرة أعظم الأثر على الجميع؛ فلم تعد الحكومة الآن مطالبة بدعم كل الأنشطة البحثية بمفردها، بل شاركتها في ذلك المصانع والمؤسسات المإلية والاقتصادية، كل حسب حاجته.. وفي ذات الوقت لا تكاد تجد مركز أبحاث يشكو من قلة الدعم الحكومي.. وهذا بالإضافة إلى أن الدولة استطاعت أن توجه ما كان يمكن أن يصرف على هذه الأنشطة إلى مصارف أخرى مهمة..

ومن جرَّاء ذلك امتلكت المصانع المإليزية القدرة على التطوير، بل والابتكار والمنافسة، وإثبات وجودها في الأسواق المحلية والعالمية..

1 دراسة د. محمد شريف بشير، موقع إسلام أون لاين.

و لم تنس الحكومة المرأة المإليزية، والتي حصلت على نصيبها من التعليم كالرجل تمامًا، بـل تقـدم الحكومة قروضًا بدون فوائد لتمكين الآباء من إرسال بناقم إلى المدارس وتوفير مستلزمات المدرسة، وتعطى الفقراء مساعدات مجانية لهذا الغرض..

وبالتوازي مع الاهتمام بالتعليم، فقد دخلت ماليزيا في التسعينات مرحلة صناعية مهمة، وذلـك حين شجعت الصناعات ذات التقنية العالية وأولتها عناية خاصة، وقد كان ذلك بعد أن توافر لديها جيـل جديد من العمالة الماهرة المتعلمة، والمدربة بأحدث الوسائل، فأصبح في مقدورها إثبـات وجودهـا، بـل والمنافسة على الصدارة ..

ومن أبلغ ما يبين نجاح الأداء الاقتصادي لماليزيا في الفترة المهاتيرية، ذلك التوسع الذي حـدث في استثمارات القطاع الصناعي، حيث أنشئ أكثر من 15 ألف مشروع صناعي، بإجمإلى رأس مال وصل إلى 220 مليار دولار، وقد شكلت المشروعات الأجنبية حوإلى 54% من هذه المشاريع، بما يوضـح مـدى الاطمئنان الذي يحمله المستثمر الأجنبي لماليزيا من ناحية الأمان، وبالتأكيد ضمان الربحية العالية، بينما مثلت المشروعات المحلية 46% من هذه المشاريع..

وقد كان لهذه المشروعات عظيم الأثر والنفع على الشعب المإليزي؛ حيث وفرت مليوني وظيفـة للمواطن الماليزي، إلى جانب الفائدة الكبرى المتمثلة في نقل التقنية الحديثة وتطوير مهارات العمالة الماليزية..

وقد بلغ عدد الشركات الأجنبية التي تستثمر أموالها في ماليزيا حوإلى 5 آلاف شركة، تسـاعدهم الدولة الماليزية بتنفيذ سياسة الصداقة مع رجال الأعمال والمستثمرين، والتي يقصد بها تسهيل الإجـراءات المكتبية والإدارية، وزيادة الحوافز الاستثمارية، إضافة إلى وضوح القوانين وسهولة الإجراءات[1]..

كما تبنَّت ماليزيا العديد من مشروعات التقنية الحديثة بصورة ملفتة للنظر، كان آخرها إطـلاق ثالث قمر صناعي لها في عام 2004 مخصصًا للقارة الأفريقية في مرحلته الأولى، ثم يمتد إلى القارة الأوربيـة والشرق الأوسط، ويحمل اسم " اس. ام. سات" وهي التجربة الأولى التي تنفذها دولة آسيوية ..

أيضًا تحققت في فترة ولايته طفرة ملحوظة في مشروعات الاتصالات والمعلومات التي كانت تحظى باهتمام ودعم حكومته كعنصر هام من عناصر خطته التنموية، وكان يسميه "الاقتصاد المعـرفي" وبالفعـل أصبحت ماليزيا محطة إقليمية وعالمية في مجال صناعة الاتصالات والمعلومات والانترنت..

1 موقع إسلام أون لاين: ماليزيا... اليابان قدوتنا، الرابط
http://www.islamonline.net/arabic/economics/2003/07/article07b.shtml

كما أقامت ماليزيا مدينة ذكية خاصة بالتكنولوجيا خارج العاصمة كوالالمبور، حيث ترتبط هذه المدينة بشبكة اتصالات ذكية تخدم العاصمة المستقبلة لماليزيا، وتضم أضخم الشركات التكنولوجية في العالم وتسمى هذه المدينة "بوتراجايا"[1] ..

وبعد هذا السرد السريع والموجز لتجربة النهضة الماليزية، والتي يحق لأي مسلم أن يفخر بها، وبعد أن بيّنّا قدر المعوقات التي واجهتها وكيف تغلبت عليها، بالعلم والعمل، يتضح للجميع بما لا يدع مجالاً للشك أن العلم كان دائمًا هو العامل المشترك الذي أخذت به أي دولة استطاعت تحقيق النجاح...

1 عبد الرحيم عبد الواحد: مهاتير محمد عاقل في زمن الجنون ،470.

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الإمارات

تُعَدُّ دولةُ الإمارات العربية المتحدة من أكثر الدول العربية التي استطاعت لفت الانتباه في العقـــدين الأخيرين، لاسيما بمشاريعها النهضوية التي تصب بالأخصِّ في المجال الاقتصادي، ولكنها تقوم في الأســـاس على الأخذ بأحدث وسائل العلم الحديث..

تقع دولة الإمارات في شرق الجزيرة العربية مُطِلَّةً على الخليج العربي، وتبلغ مســـاحتها 38.600 ألف كم2، ويبلغ عدد سُكّان الإمارات والمقيمين فيها 4.444.011 مليون نسمة حسب تقديرات عـــام 2007م[1]..

وقد استطاعت الإمارات تحقيق معدلات نمو جيدة في مختلف المجالات، ولكن ما حققته الإمـــارات في مجال التعليم وتكنولوجيا المعلومات يُعد قفزةً هائلة؛ جعلتها إحدى مناطق التكنولوجيا المتطورة المعدودة على المستوى العالمي..

وخير شاهد على المكانة التي حققتها دولة الإمارات، والتقدير العالمي الذي حازته أنهـــا تـــأتي في صدارة الدول العربية في أي تقرير عالمي يهتم بقياس معدلات النهوض لدى مختلف الدول، وعلـــى ســـبيل المثال فقد سبقت دولة الإمارات العربية المتحدة دولاً عربيةً كبرى مثل المملكة العربية السعودية ومصـــر في تقرير التنمية البشرية الصادر عن البنك الدولي لعدة سنوات، ولا شك أن السبب الرئيسي لهذا التفوق هـــو معدلات التنمية السريعة لدولة الإمارات..

لقد جاء في تقرير التنمية البشرية الصادر في عام 2006م أنَّ الإمارات تنفق على التعليم ما يعادل 22.5% من إجمإلى النفقات الحكومية، كما بلغ عدد مستخدمي الانترنت 321 من كل ألف شخص في الإمارات[2]..

وقصة اهتمام الإمارات بالعلم والتعليم ليست وليدة اليوم بل تعود إلى قديم الزمن، ولكنها كسائر الدول العربية لم تنمُ وتزدهر إلا بعد التخلُّص من المستعمر الأجنبي، ونستطيع أن نقسِّم تاريخ الاهتمام بالعلم في الإمارات إلى أربعة أنواع من النظم التعليمية، كان أولها نظام الكتاتيب الذي اعتمد في الأســـاس علـــى تعليم العلم الشرعي مثل حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية إلى جانب التدريب على الكتابـــة والخـــط والإلمام بأركان الإسلام.

---

1 كتاب الحقائق الدولي الأمريكي، الرابط https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook

2 تقرير التنمية البشرية عام 2006م، الرابط
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_ARE.htm

أمّا النوع الثاني من أنواع التعليم فكان نظام تعليم الحلقات العلمية، وكان يمارسه عددٌ قليلٌ من الفقهاء والعلماء الذين توفَّرت لديهم معرفة واسعة في أصول العقيدة والفقه والتفسير والنحو والإملاء والتاريخ والدروس الدينية المختلفة، وكانت هذه الحلقات تُعقَد في زاوية أو رُكْن في أحد المساجد، أو يُخصَّص لها مكانٌ أو موضع معروف في بيت الفقيه نفسه، وقد شهدت مدن الإمارات العديد من أَرْوِقَة العلم التي قام بإحيائها علماءٌ كبار زاروا البلاد آنذاك، وجلسوا يعلمون الطلبة النابهين، وظلت الحلقات العلمية مصدرًا للعلم والفقه وقد تخرج فيها الرعيلُ الأول من رُوَّاد الإمارات.

وكان النوع الثالث هو النظام التعليمي شبه النظامي الذي ظهر خلال الفترة ما بين 1907م إلى 1953م، وكان السبب الرئيسي لوجود هذا النوع هو التأثر بحركات الأصلاح وإليقظة التي شهدها العالم العربي، وفي هذه الفترة تم إنشاء العديد من المدارس، وقد شهدت هذه الفترة تأسيس أوّل دائرة للمعارف في الإمارات عام 1936م في إمارة دبي، وقد ترأسها الشيخ مانع بن راشد آل مكتوم رائد حركة الأصلاح في الثلاثينيات.

والنوع الرابع والأخير من مراحل التطور التاريخي للتعليم في الإمارات هو التعليم النظامي الحديث، وهو المستمر حتى الآن. وقد تطور التعليم النظامي في الإمارات على مرحلتين: المرحلة الأولى كان الاعتماد فيها على الحكومات المحلية ودوائر المعارف التي تأسست خلال عقد الستينيات، أما المرحلة الثانية والتي تمثل الانطلاقة الكبرى للتعليم الإماراتي فبدأت منذ الثاني من ديسمبر عام 1971م وهو اليوم الذي أُعْلِنَ فيه عن قيام دولة الإمارات المتحدة1، حيث تأسست الوزارات الاتحادية، ومنها وزارة التربية والتعليم والشباب التي تولَّت مسؤولية الإشراف على التعليم في مراحله المختلفة، وانتشرت خلال تلك الفترة المدارس الحكومية ذات الطراز المعماري الراقي، والمجهزة بأحدث الأجهزة والوسائل، واستقدمت الدولة البعثات التعليمية من مختلف البلدان العربية لتسهم في تطوير التعليم الحديث2..

وقد اعتمدت الدولة خلال فترة السبعينيات وثيقة الأهداف العامة الرئيسية للتنمية والتي جاءت شاملة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ حيث تضمنت كافة الطموحات سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع، ومن أهم المباديء التي تضمنتها الوثيقة تشديدها على أنَّ الإنسان في دولة الإمارات هو الغاية، وإقرار كفالة التعليم للجميع، وكفالة الرعاية الصحية كذلك، والتأكيد على أهمية البحث العلمي، وذلك بالإضافة إلى تنمية القوى العاملة الوطنية، وتكوين الكوادر المدربة منها والقادرة على النهوض باحتياجات التنمية، والعمل على رفع مستوى الكفاية الإنتاجية، وتحقيق العرض المناسب للعمل دائمًا حسب مراحل النمو المختلفة..

---

1 د. محمد حسن عيدروس، الإمارات بين الماضي والحاضر ص59، دار العيدروس للكتاب الحديث، 1422هـ-2002م.

2 د.عبد الله الطابور، الموقع الرسمي لوزارة التربية والتعليم الإماراتية، الرابط
http://www.moe.gov.ae/newmoe/uae_edu_history/uae_history.htm

وقد قامت الإمارات في هذه المرحلة بإقامة مراكز لتدريب المدرسين والإداريين والموظفين الفنيين، مع استحداث برامج تشارك فيها المدارس وأولياء الأمور، ووضع مناهج دراسية لا تكتفي بالتركيز على العلوم الأكاديمية فحسب. كما تَرَتَّب على هذه النهضة التعليمية أن تضاءلت النسبة بين عدد المدرسين إلى عدد الطلاب إلى مدرس لكل 12 طالبًا، و صار عدد المدارس 1105 مدرسة من بينها 710 مدارس حكومية، أمّا عدد الجامعات الحكومية والأهلية فقد بلغ ستَّ جامعاتٍ في عام 1999م، وارتفع العدد إلى ثماني جامعاتٍ في عام 2006م[1]..

وقد باتت الإمارات تتصدر دول الشرق الأوسط جميعها في أهم مؤشرات التنمية، وتحديدًا في مجالات الاقتصاد والصحة والتعليم والتقنية والثقافة، فالملامح التنموية لدولة الإمارات تتغير شكلاً ومضمونًا على مدار الساعة، حيث لا يكاد يمر يوم دون الإعلان عن واحد أو أكثر من مشاريع التنمية والبناء الاقتصادي في الإمارات، التي استطاعت أن تطرح نفسها كتجربة اقتصادية ناجحة وفريدة في منطقة تموج بالصراعات السياسية والأمنية، رغم أن مجموع سكانها لا يتجاوز 2% من إجمالي سكان العالم العربي، كما تخطط الإمارات لتصبح مركزًا إقليميًّا للاقتصاد العالمي، وتتجه لتحوز موقع الرِّيادة في مختلف الميادين الاقتصادية والاستثمارية والصناعية والتكنولوجية والعلمية[2]..

وقد أَوْلَت دولة الإمارات العربية المتحدة الجانب الاستثماري اهتمامًا خاصًا باعتباره الأساس في التنمية الاقتصادية، وتوليد الدَّخْل وخلق فرص العمل، حيث تم خلال السنوات الماضية تخصيص نسبٍ عالية من الإيرادات العامة لتمويل عدد كبير من مشاريع التنمية، كما قامت الحكومة الاتحادية بالإمارات بتقديم الدعم والتسهيلات للقطاع الخاص في استثماراته وعملياته بهدف زيادة كفاءته في تنفيذ بعض المشروعات الاستثمارية التي اتسمت في أغلبها بالطابع التقني..

وإذا أردنا أن نعطي أمثلة على المشاريع التي تحمل طابعًا تقنيًّا، وتحتوي على تكنولوجيا عالية فلابد أن نذكر مدينة (دبيّ) للإنترنت[3]..

إنَّ فكرة مشروع مدينة دبي للإنترنت لم تنطلق من فراغ، بل كانت تعبر عن سياسة دولة تريد أن تخطو نحو المستقبل، فهذا المشروع ليس الأول من نوعه، بل يعمل جنبًا إلى جنب مع مشاريع أخرى مُكَمِّلة له مثل الحكومة الإلكترونية، وسوق دبي الإلكترونية التي بدأ العمل بها مع بداية عام 2000م..

وقد قُصِدَ بمدينة دبي للإنترنت أن تكون مركزًا للأنشطة والشركات المتعددة المرتبطة بصناعة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ووسائط الإعلام المتعددة، ومشاريع الإنترنت والشركات المتخصصة في

---

1 الموقع الرسمي لمجلس التعاون الخليجي، الرابط http://library.gcc-sg.org/Arabic/Books/ArabicPublish-30.htm

2 افتتاحية دراسة لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الرابط http://www.ecssr.ac.ae/CDA/ar/Publications/ShowAkbarAlSaahIssue/0,2432,1618,00.html

3 الموقع الرسمي لمدينة دبيّ للانترنت، الرابط http://www.dubaiinternetcity.com/

تقديم المساندة عن بُعْد، والمؤسسات التي تسعى إلى احتضان الأفكار الجديدة وتطويرها، بالإضافة إلى احتواء رؤوس الأموال المستثمَرَة في المشاريع الجديدة والشركات المهنية والمتخصصة وغيرها..

ولوضع هذا المشروع موضع التنفيذ وُضِعَت أهدافٌ واضحة ومحددة، منها:

1- تجهيز بنية تحتية بمقاييس عالمية، ونظم اتصالات قادرة على استيعاب كمٍّ هائلٍ من المعلومات بسرعة عالية، كما يجب أن تكون هذه البنى التحتية آمنة تعتمد على آخر ما توصَّلَت إليه التكنولوجيا الحديثة وبتكلفة منخفضة.

2- أن تكون المدينة متطورة وبمقاييس تنافسية، مع توفير المكاتب المجهزة بأحدث التسهيلات والوحدات السكنية ذات المستويات العالمية والمزودة بالمرافق الطبية والتعليمية.

3- استقطاب الكفاءات العالمية، والعمالة المدرَّبة.

4- وضع قوانين وإجراءات مبسطة وميسرة وسريعة لتسجيل الشركات وغيرها من المعاملات الحكومية.

5- خلق أجواء مشجعة، ومبادرات حكومية لدعم الأعمال الإلكترونية، ورعاية الأفكار الإبداعية والمشاريع الجديدة، وإنشاء صناديق لدعم المشاريع وبرامج التعليم الإلكترونية.

وتُعتَبَر مدينة دبي للإنترنت، أول منطقة حُرَّة للتجارة الإلكترونية في العالم، وقد تم افتتاحها في 28 من أكتوبر 2000م، وقد قُدِّرَت تكلفةُ إقامة هذا المشروع بـ2.5 مليار دولار، ويعمل فيه أكثر من 500 شركة عالمية وإقليمية ومحلية من بينها مجموعة من الشركات العملاقة[1]..

كما تأسس في الإمارات في شهر ديسمبر عام 2000م المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا[2]، وتهدف المؤسسة إلى الارتقاء بالعلوم والتكنولوجيا في جميع أنحاء الوطن العربي، والاستفادة من الكفاءات العلمية وتشجيعها، وهي مؤسسة علمية مستقلة لا تهدف إلى الربح، ومقرها إمارة الشارقة، وتعمل المؤسسة على تحقيق أهدافها من خلال تشكيل شبكات علمية تخصصية من العلماء العرب، مع تشكيل شبكات داعمة تهيئ الغطاء المالي لدعم إنجاز المشاريع البحثية والتكنولوجية المتميزة في المؤسسات والمراكز البحثية داخل الوطن العربي، ومن أكثر الأبحاث التي شاركت فيها المؤسسة الأبحاث المتعلقة بحلِّ مشكلتي الطاقة والمياه..

---

1 موقع النادي العربي للمعلومات، الرابط
http://www.arabcin.net/arabic/5nadweh/pivot_5/information_technic2.htm
2 الموقع الرسمي للمؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا، الرابط http://www.astf.net/site/arabic/index.asp.

وقد جاء تأسيس المؤسسة بناءً على توصية المشاركين في الندوة حول "آفاق البحث العلمي والتطوير التكنولوجي في العالم العربي"، والتي نظمتها جامعة الشارقة بتاريخ 24-26 من نيسان/إبريل 2000م، وشارك فيها 375 عالمًا وعالمةً من داخل وخارج الوطن العربي، ويتألَّف مجلس إدارتها ومجلسها الاستشاري من كوكبة من العلماء العرب ذوي الإنجازات العلمية المتميزة على المستويين الوطني والعالمي..

وتعتبر المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا هي أول منظمة ضمت العلماء العرب من داخل وخارج الوطن العربي بهدف الاستفادة من الخبرات العربية المحلية وتلك الموجودة في المهجر لخدمة العالم العربي والإنسانية عامة، وتتطلع المؤسسة أن تكون هيئة عربية ودولية مؤثرة، تدعم جهود العلماء والباحثين العرب، وتدافع عن مصالح الإقليم في التطور العلمي والتكنولوجي، مع العمل على توفير الحماية للإنسانية من التأثيرات السلبية المحتملة لذلك التطور، كما تسعى المؤسسة أيضًا إلى توطيد الصلات بين الجامعات ومراكز البحوث داخل وخارج الوطن العربي، كما تسعى إلى جذب الشركات والأفراد نحو توفير التمويل للأبحاث المنفَّذة في مراكز البحث والجامعات، وبالأخصِّ في المجالات التي تُعتَبَر حيوية بالنسبة للدول العربية1.

الباب الرابع: دور العلم في حياة العلماء
(أَمْثِلَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ)

أمثلة ونماذج واقعية في حياة العلماء، نعرضها في الفصول التالية:

الفصل الأول: دور العلم في حياة علماء الشرع القدامى

الفصل الثاني: دور العلم في حياة علماء الحياة القدامى

الفصل الثالث: دور العلم في حياة علماء الشرع المعاصرين

الفصل الرابع: دور العلم في حياة علماء الحياة المعاصرين

الفصل الخامس: دور العلم في حياة العلماء غير المسلمين

1 المصدر السابق.

الفصل الأول: دور العلم في حياة علماء الشرع القدامى

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة الإمام البخاري

المبحث الثاني: دور العلم في حياة الإمام الطبري

المبحث الثالث: دور العلم في حياة الإمام النووي

المبحث الرابع: دور العلم في حياة الإمام ابن تيمية

المبحث الخامس: دور العلم في حياة الإمام ابن خلدون

المبحث السادس: دور العلم في حياة الإمام السيوطي

المبحث الأول: دور العلم في حياة الإمام البخاري

لأنه الدين الخاتم، ولأنه الدين الذي ارتضاه رب العالمين لعباده على الأرض، فقد تكفّل سبحانه بحفظه وإلى قيام الساعة، ومن ثم سخّر من خلقه من يذبّ عنه قرآنًا وسنةً..

وبالنسبة إلى السنة ممثلة في الحديث النبوي الشريف، فكونها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، والمنهل البياني له في تفصيل الأحكام المجملة التي وردت فيه، وتقييد المطلق وتخصيص العام، وتأسيس الأحكام التي لم ينص عليها القرآن.. فقد انبرى لتدوينها وتمييز صحيحها من ضعيفها علماء أجلاء، علموا قيمة العلم، فبذلوا فيه جهدهم، ونذروا له نفوسهم ونفيسَهم..

اشترك في ذلك العرب وغير العرب، ولم تمنعهم أصولهم من أن يقوموا بدورهم على أكمل وجه، حتى في ذلك المجال الصعب..

وفي هذا السياق كان لنا أن نتوقف مع أمير أهل الحديث، الإمام الجليل والمحدث العظيم، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.. أمير أهل الحديث، وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، والذي احتل مكانته في القلوب؛ حتى كان يقرأ في المساجد كما تُتلى المصاحف.. قال هو عنه: "ما وضعت في كتاب "الصحيح" حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين"، وقال أيضًا: "صنفت "الصحيح" في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى"[1].

إنَّ تاريخ الإسلام لم يشهد مثله في قوة الحفظ، ودقة الرواية، والصبر على البحث، **مع قلة الإمكانات**، حتى أصبح منارة في الحديث، وفاق أقرانه وشيوخه على السواء، بل فاق كل العرب مع كونه ليس عربيًّا..!!

البخاري.. تربيةُ أمٍّ صالحة

كانت البداية في بُخارى (إحدى مدن أوزبكستان الآن)، وتحديدًا في ليلة الجمعة 13من شوال، سنة 194هـ، حيث ولادته ~2..

وقد عرفت أسرته الإسلام عن طريق جده "المغيرة بن بردذبة"، فكان أول من أسلم من أجداده، وكان إسلامه على يد وإلى بخارى "إليمان الجعفي"؛ ولذلك نُسِب إلى قبيلته، وانتمى إليها بالولاء، وأصبح "الجعفي" نسبًا له ولأسرته من بعده.

1 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 24/443،449.

2 الذهبي: الكاشف 2/156.

وكان قدر الله أن يموت والد البخاري وهو مازال طفلاً صغيرًا، لينشأ يتيمًا في حجر أمه، التي قامت على تربيته أحسن تربية.. لتُري أمهات المسلمين – والأرامل منهن خاصة – كيف تكون تربية الأبناء.. وما هو دور الأم في جهادها لرفعة الأمة والنهوض بها..؟!

لم تكن بداية البخاري الطفل ككل الأبناء؛ إذ ابتلاه الله Y في صباه بفقدان بصره!! ولكنَّ أمه الصالحة لم تنقطع صلتُها بربها، وكانت تتودد إليه ليل نهار، وهي تدعوه سبحانه راجية أن يرد على صبيها بصره.. ويشاء الله أن يسمع دعاءها، فيأتيها إبراهيم υ يبشرها في المنام يقول لها: "يا هذه، قد ردَّ الله على ابنك بصره لكثرة دعائك"!!

فأصبح البخاري وقد ردّ الله عليه بصره، بحسن صلة أمه بربها، وبركة دعائها له[1]..!!

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد أنعم الله Y عليه وهو مازال في طفولته بالنجابة والذكاء، ووهبه سبحانه ذاكرةً قويّة، قلَّما وهبها غيرَه، حتى كان آية في الحفظ..

وقد زادت أمه من العناية به، وتعهدته بالرعاية والتعليم والصلاح، فكانت تدفعه إلى العلم وتحببه فيه، وتزين له أبواب الخير.. فنشأ البخاريُّ مستقيمَ النفس، متين الخلق، محبًا للعلم، مقبلاً على الطاعة.. حتى ما كاد يتم العاشرة إلا وكان قد حفظ القرآن الكريم، وبدأ يتردد على الشيوخ والمحدثين..

يقول محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله (البخاري): كيف كان بدء أمرك؟ قال: أُلهِمتُ حفظ الحديث وأنا في المكتب (الكُتَّاب). فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من المكتب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم. فقلت له: إن أبا الزبير لم يروِ عن إبراهيم، فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم (أصلح) كتابه، وقال: صدقت. فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة!![2].

وما كاد البخاري يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى حفظ كتب ابن المبارك ووكيع، وغيرها من كتب الأئمة المحدثين، حتى بلغ محفوظه آلاف الأحاديث وهو لا يزال غلامًا.. وكانت بخارى آنذاك مركزًا من مراكز العلم، تمتلئ بحلقات المحدِّثين والفقهاء[3].

رحلة العلم.. ومازال دور الأم

---

1 ابن حجر: فتح الباري 478/1.

2 الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 6/2،7.

3 الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 6/2،7.

في مرحلة جديدة.. وفي دور جديد لأمه في إحكام تربيته ونشأته.. أخذته وهو في سن السادسة عشرة هو وأخًا له يدعى أحمد إلى مكة للحج..

كانت فرصة عظيمة عند البخاري الصغير ليحج، ثم تتفتح له آفاقٌ أوسع من أبواب العلم ينهل منها.. وقد تمَّ له ذلك؛ فلما أَدَّوا جميعًا مناسك الحج، تخلَّف هو لطلب الحديث والأخذ عن الشيوخ، ورجعت أمه وأخوه إلى بخارى[1]..

وعلى ما يبدو؛ فإن أمه هي التي كانت صاحبة هذه الفكرة، في أن يحج، ثم يظل يأخذ العلم بلسان العرب ومن منبعه وروافده الأول.. فهي بصدد إعداده لا ليرجع فيعلم قومه وأهل بلده فقط، وإنما ليعود فيُعلِّم الدنيا..

وفي الحرمين الشريفين، كانت بداية رحلة البخاري في طلب العلم، وقد ظل بهما ستة أعوام، ينهل من الشيوخ والعلماء، انطلق بعدها متنقلاً بين حواضر العالم الإسلامي.. يجالس العلماء ويحاور المحدِّثين، ويجمع الحديث، ويعقد مجالس للتحديث، ويتكبد مشاق السفر والانتقال.. لم يترك حاضرة من حواضر العلم إلا نزل بها وروى عن شيوخها، وربما حلَّ بالبلد الواحد مرات عديدة، يغادره ثم يعود إليه مرة أخرى..

وكان من الحواضر الإسلامية التي نَهل منها وأخذ من شيوخها غير مكة والمدينة، بغداد وواسط، والبصرة، والكوفة، ودمشق، وقيسارية، وعسقلان، وخراسان، وبلخ، ونيسابور، ومرو، وهراة، ومصر، وغيرها..

وفي مثال يدل على عجب أقرانه منه وهو خارج موطنه، يقول محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يومًا بعد ستة عشر يومًا: إنكما قد أكثرتما عليّ وألححتما، فاعرضا عليّ ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدرًا وأضيع أيامي؟! فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد[2].

وعن رحلاته في طلب العلم يقول البخاري: "دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد"[3].

---

1 ابن حجر: فتح الباري 478/1.
2 ابن حجر: فتح الباري 478/1.
3 ابن حجر: فتح الباري 1/ 478.

فلم يكن غريبًا إذن أن يزيد عدد شيوخه عن ألف شيخ من الثقات الأعلام!! وتراه هو يعبر عن ذلك فيقول: "كتبت عن ألف شيخٍ وأكثر، ما عندي حديث إلا أذكر إسناده"!!1.

ويحدد عدد شيوخه فيقول: "كتبت عن ألف وثمانين نفسًا، ليس فيهم إلا صاحب حديث، كانوا يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص"2.

وكان من شيوخه المعروفين والذين روى عنهم: أحمد بن حنبل، ويذكره البخاري ممتنًا فيقول: "قال لي في آخر ما ودَّعته: يا أبا عبد الله، تدع العلم والناس وتصير إلى خراسان؟ قال: فأنا الآن أذكر قوله. وكان من شيوخه أيضًا يحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني، وقتيبة بن سعيد، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبو حاتم الرازي، وغيرهم3..

البخاري.. منهج خاص

كان للبخاري منهج خاص في حياته كلها، وبالأخص في العلم وتدوين الحديث.. فقد ظل ستة عشر عامًا يجمع الأحاديث الصحاح في دقة متناهية، وعمل دؤوب، وصبر على البحث، وتحرٍ للصواب، قلما توافر لباحث قبله أو بعده، وكان بعد كل هذا لا يدون الحديث إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين!!

وقد بات عنده أحد تلامذته ذات ليلة، فأحصى عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة!!

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحيانًا، فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري (يشعل) نارًا ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها4.

وروي عن البخاري أنه قال: لم تكن كتابتي للحديث كما كَتبَ هؤلاء؛ كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته، وحمله الحديث إن كان الرجل فهمًا، فإن لم يكن سألته أن يخرج إلى أصله ونسخته..

وكان العباس الدوري يقول: ما رأيت أحدًا يحسن طلب الحديث مثل محمد بن إسماعيل، كان لا يدع أصلاً ولا فرعًا إلا قلعه، ثم قال لنا: لا تدعوا من كلامه شيئًا إلا كتبتموه!

---

1 ابن عساكر: تاريخ دمشق 58/52.
2 ابن حجر: فتح الباري 1/ 479.
3 ابن حجر: فتح الباري 1/ 478،479.
4 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 447/24.

وكان من كلامه ~: "ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم، وحتى نظرت في عامة كتب الرأي، وحتى دخلت البصرة خمس مرات أو نحوها، فما تركت بها حديثًا صحيحًا إلا كتبته، إلا ما لم يظهر لي"1.

وقال بكر بن منير: سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدا، قلت: صدق ~، ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس وإنصافه فيمن يضعفه؛ فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر ونحو هذا، وقل أن يقول: فلان كذاب أو كان يضع الحديث، حتى إنه قال: إذا قلت: فلان في حديثه نظر، فهو متهم واه، وهذا معنى قوله: "لا يحاسبني الله أني اغتبت أحدا"، وهذا هو – والله – غاية الورع2.

البخاري.. مؤلفات في محراب العلم

بعد أن تهيأت له الأسباب، من موهبة الذكاء، وقوة الحافظة، والصبر على العلم، والمثابرة في تحصيله، والمعرفة الواسعة بالحديث النبوي وأحوال رجاله، من عدل وتجريح، وخبرة تامة بالأسانيد؛ صحيحها وفاسدها.. كان له أن يكثر من التأليف والتصانيف، والتي ما برحت تخلد اسمه في سماء العلم، وقد بدأ هذا الطريق وهو في الثامنة عشرة من عمره!!

وقد صنَّف البخاري ~ ما يزيد عن عشرين مصنفًا، منها: "الأدب المفرد"، و"التاريخ الكبير"، وهو كتاب كبير في التراجم، رتب فيه أسماء رواة الحديث على حروف المعجم، و"التاريخ الصغير"، وهو تاريخ مختصر للنبي ρ وأصحابه ومن جاء بعدهم من الرواة إلى سنة 256هـ = 870م، و"خلق أفعال العباد"، و"رفع إليدين في الصلاة"، و"الكُنى"، وغيره..

غير أن أشهر كتبه، بل أشهر كتب الحديث النبوي قاطبة، هو كتابه "الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ρ وسننه وأيامه"، وهو المعروف بـ "الجامع الصحيح" أو "صحيح البخاري"، ويُعد أول كتاب صُنف في الحديث الصحيح المجرد، وقد قال فيه الإمام البخاري: وما أدخلت فيه حديثًا إلا بعدما استخرت الله تعإلي، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته3.

وقد بذل فيه البخاري جهدًا خارقًا، واستمر في تأليفه وجمعه وترتيبه وتبويبه ستة عشر عامًا، هي مدة رحلته الشاقة في طلب الحديث.

---

1 ابن حجر: فتح الباري 1/ 488.
2 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 446/24.
3 ابن حجر: فتح الباري 489/1.

ويذكر البخاري السبب الذي جعله ينهض إلى هذا العمل، فيقول: كنت عند إسحاق ابن راهويه، فقال: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله ρ؛ فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع "الجامع الصحيح"1.

وقال أيضًا: رأيت رسول الله ρ وكأنني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب عنه، فسألت بعض المعبرين، فقال لي: أنت تذبّ عنه الكذب؛ فهو الذي حملني على إخراج "الجامع الصحيح"[2].

وقد ابتدأ البخاري تأليف هذا الكتاب في المسجد الحرام والمسجد النبوي، ولم يتعجل إخراجه للناس بعد أن فرغ منه، ولكن عاود النظر فيه مرة بعد أخرى، وتعهده بالمراجعة والتنقيح؛ ولذلك صنفه ثلاث مرات حتى خرج على الصورة التي عليها الآن.

ويحوي الكتاب 7275 حديثًا، اختارها البخاري من بين ستمائة ألف حديث كانت تحت يديه؛ لأنه كان مدقِّقًا في قبول الرواية، وكان قد اشترط شروطًا خاصة في قبول رواية راوي الحديث، وهي أن يكون معاصرًا لمن يروي عنه، وأن يكون قد سمع الحديث منه، إلى جانب: الثقة، والعدالة، والضبط، والإتقان، والعلم، والورع!!

وقد استحسن شيوخ البخاري وأقرانه من المحدِّثين كتابه هذا بعد أن عرضه عليهم، وكان منهم جهابذة الحديث، مثل: الإمام أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين؛ وقد استحسنوه وشهدوا له بصحة ما فيه من الحديث، إلا في أربعة أحاديث!! قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري، وهي صحيحة!! ثم تلقته الأمة بعدهم بالقبول باعتباره أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى3.

وتلقف الكتاب علماء أجلاء بالشرح والتعليق والدراسة، بل امتدت العناية به إلى العلماء من غير المسلمين؛ حيث دُرس وتُرجم، وكُتبت حوله عشرات الكتب.

وكان من أشهر شروح صحيح البخاري: "**أعلام السنن**" للإمام أبي سليمان الخطابي (ت 388هـ)، و"**الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري**" لشمس الدين الكرماني (ت 786هـ / 1348م)، و"**فتح الباري في شرح صحيح البخاري**" للحافظ ابن حجر (ت 852هـ / 1448م، و"**عمدة القاري شرح صحيح البخاري**" لبدر الدين العيني (ت 855هـ / 1451م)، "**إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري**" للقسطلاني (ت 923هـ/ 1517م).

البخاري.. عرفانٌ بالجميل

1 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 442/24.
2 السيوطي: تدريب الراوي 88/1.
3 ابن حجر: فتح الباري 7/1.

تبوأ البخاري ~ مكانة عالية ومنزلة رفيعة في العلم وبين العلماء، وقد شهد له العلماء والمعاصرون له بذلك، حتى إنهم لقّبوه بأمير المؤمنين في الحديث.. وهي أعظم درجة ينالها عالم في الحديث النبوي، وقد أثنوا عليه ثناءً عاطرًا..

فيقول عنه ابن خزيمة: "ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري"[1].

وقال أبو جعفر: سمعت يحيى بن جعفر يقول: "لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت؛ فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموته ذهاب العلم"[2]!!

وقال قتيبة بن سعيد: "جالست الفقهاء والعباد والزهاد؛ فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل، وهو في زمانه كعمر في الصحابة"[3].

وقال أبو عيسى الترمذي (صاحب جامع الترمذي): "لم أرَ بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل".

وقد قبَّله تلميذه النجيب "مسلم بن الحجاج" (صاحب صحيح مسلم) بين عينيه، وقال له: "دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذِين، وسيد المحدِّثين، وطبيب الحديث في علله"[4].

البخاري.. مِحَنة العلماء

على الرغم من تلك المكانة العظيمة، وهذه المنزلة العالية الرفيعة للبخاري، والتي جعلها الله فقط للعلماء، إلا أن ذلك لم يكن يمنع غِيرة الحاسدين أو حقد الحاقدين؛ إذ هي سنة الله في خلقه، والنفس تأبى على من يعلوها إلا من عصم ربي..

فبعد رحلته الطويلة الشاقة، والتي لقي فيها الشيوخ ووضع مؤلفاته العظيمة، وقد ذاعت صيته بين الناس.. رجع البخاري إلى نيسابور للإقامة بها، إلا أن بعض العلماء غيرة وحسدًا سعوا به إلى وإلى المدينة، وألصقوا به تهمًا مختلقة، مما اضطروه إلى أن يغادر نيسابور إلى مسقط رأسه بخارى، وهناك استقبله أهلها استقبال الفاتحين؛ فنُصبت له القباب على مشارف المدينة، ونُثرت عليه الدراهم والدنانير.

ولأنها سنة قائمة؛ فلم يكد يستقر البخاري في موطنه الأصلي حتى طلب منه أميرها "خالد بن أحمد الدهلي" أن يأتي إليه ليُسمعه الحديث؛ فقال البخاري لرسول الأمير بعزة العالِم: "قل له إنني لا أذل العلم،

---

1 ابن حجر: فتح الباري 485/1.
2 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 460/24.
3 ابن حجر: فتح الباري 482/1.
4 ابن كثير: البداية والنهاية 26/11.

ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة إلى شيء فليحضرني في مسجدي أو في داري، فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان، فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة أني لا أكتم العلم"[1].

وبعزة مضادة آثمة، ما كان من الحاكم إلا أن أخذ يحرض عليه ويسيء إليه، وقد أغرى به بعض السفهاء ليتكلموا في حقه، ويثيروا عليه الناس، وفي نهاية الأمر قام بنفيه من المدينة (بخارى) إلى "خرتنك"!!

وفي "خرتنك" (من قرى سمرقند، وتعرف الآن بقرية "خواجة صاحب") ظل البخاري بعيدًا عن وطنه، صابرًا على محنته، حتى توفاه الله Y في ليلة عيد الفطر المبارك 30 رمضان 256هـ / 31 أغسطس 869م.. مخلِّفًا علمًا ونورًا تستضيء به الإنسانية، وتظل تنهل منه، وتعول عليه، إلى يوم القيامة2، فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث الثاني : دور العلم في حياة الإمام الطبري

[224هـ- 310هـ= 838 - 922م]

ميلاده ونشأته

هو "أبو جعفر" محمد بن جرير الطبري، وُلِدَ بطبرستان في آخر سنة 224هـ3. حفظ القرآن وله سبع سنين، وصلَّى بالناس وهو ابن ثماني سنين، وكتب الحديث وهو في التاسعة، ثم ارتحل إلى الرَّي، ثم إلى بغداد ليأخذ العلم على أحمد بن حنبل؛ إلا أن الإمام أحمد مات قبل أن يصل الطبري إلى بغداد، فاتجه إلى البصرة فأخذ عن شيوخها، ثم انتقل إلى واسط، فالكوفة، ثم رجع إلى بغداد مرة أخرى، ثم رحل إلى مصر سنة 253هـ، واجتمع بمحمد بن إسحاق بن خزيمة، العالم المؤرخ، ثم عاد إلى بغداد بعد رحلة طويلة وانقطع للدرس والتأليف.

تلامذته

لم يحصر الطبري نفسه بين الجدران والكتب، ولم يبتعد عن الحياة والمجتمع والأمة، وإنما كان منفتحًا على الحياة؛ يفتي الناس، ويملي على طلابه وتلامذته، ويقرئ القرآن والقراءات، ويحدِّث بآثار رسول الله ρ، ويصلي بالناس إمامًا، ويناظر الأئمة.. لذلك لا ينحصر إنتاجه في كتبه ومصنفاته، بل يشمل طلابه وتلامذته وأتباعه ومواقفه..

ومن أشهر تلامذته:

---

1 أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال 464/24.
2 الذهبي: الكاشف 156/2.
3 ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 48/18.

القاضي أبو بكر بن كامل؛ أجلّ أصحاب الطبري، وكان يتفقَّه على مذهب أبي جعفر الطبري[1]، وكتب عدَّة كتب على مذهبه، وهارون بن عبد العزيز (أهم رواة كتب الطبري)، وابن بشـــار الأحـــول (أستاذ ابن سريج)[2]..

1 المصدر السابق 18/ 54.

2 انظر: ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية 121/3.

ومن تلامذته في الفقه:

أبو الفرج المعافي (المعروف بابن الطرَّار) وقد شرح كتاب "الخفيف" للطبري[1]، وعلي بن عبد العزيز الدولابي، وأبو بكر بن أبي الثلج الكاتب، وأبو القاسم بن العرَّاد، وأبو محمد بن جعفر الفرغاني، وله كتاب "الذيل على تاريخ الأمم للطبري"[2].

ومن تلامذته في الحديث:

قاضي الكوفة أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة البغدادي، وسليمان اللخمي الشامي، وأبو شعيب الحراني، ومحمد بن أحمد بن سنان، والفقيه المحدّث محمد بن شعيب النيسابوري، ومخلَّد بن جعفر الباقرحي، والقاضي أبو بكر الماينجي3.

إسهاماته العلمية

كان الطبري ذكيًّا نابغة، سريع الحفظ، ذا قدرةٍ هائلة على التعلُّم؛ فقد حدَّث عن نفسه؛ فقال: "جاءني يومًا رجلٌ فسألني عن شيء في علم العروض، و لم أكن نشطتُ له قبل ذلك؛ فقلت له: إذا كان غدًا فتعال إلي"، وطلب سِفْرَ العروض للخليل بن أحمد ، فجاءوا له به فاستوعبه وأحاط بقواعده وكلياته في ليلة واحدة، يقول: "فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضيًا"4.

و لم يقتصر الطبري على فن أو علم واحد، بل جمع مختلف العلوم الشرعية واللغوية وغيرها، وكان إمامًا فيها؛ فكان إمامًا في السنة وعلوم الحديث، وعدَّه النووي ~ من طبقة الترمذي والنسائي، وسمع الحديث من كثيرين، بعضهم من شيوخ البخاري ومسلم.

وكان الطبري – كذلك – إمامًا في القراءات وعلوم القرآن، صنَّف فيها، وتعمَّق في دارسة التفسير، وصنَّف تفسيره، وضمَّنه علوم القرآن، حتى اعتُبِرَ إمامَ المفسرين وشيخهم.

وكان إمامًا في الفقه، وعلم الخلاف، والفقه المقارن، واختلاف العلماء، وكان من الأئمَّة المجتهدين، وصاحب مذهب مستقل، وتبعه بعض الناس على مذهبه، وصنف كتبًا في الفقه العام، والفقه المقارن، والفقه المذهبي.

ويُعَدُّ إمامًا في علم التاريخ، وهو شيخ المؤرخين، وله فيه كتب عظيمة.

---

1 لبن النديم: الفهرست ص 328، 329.

2 الذهبي: سير أعلام النبلاء 271/14، 132/16، فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي 164/2/1، تاريخ الأدب العربي 47/3.

3 (أبو بكر) يوسف بن القاسم المايبنجي (ت 375هـ)، قاضي دمشق، ومُسند الشام في وقته.

4 السابق نفسه 56/18.

كما كان مبرَّزًا في علوم العربية؛ من المعاني واللغة والنحو والصرف والعروض والبيان، وكان عالمًا بالفلسفة والمنطق والجدل، وكان عنده شيء من الطب والجبر والرياضيات، وله نظم وشعر.

وكان عالمًا بأصول الدين والتوحيد وعلم الكلام، وله كتب في ذلك.

وكان عالمًا بالحديث، فهو حافظ محدث، وصنف كتبًا في علم الحديث ومصطلحه، والتزم بمنهج المحدِّثين في معظم كتبه.

وكان عالمًا بأصول الفقه وقواعد الاجتهاد والاستنباط، وصنَّف فيه وعمل به.

وكان عالمًا بآداب النفس وعلم الأخلاق والتربية، وصنف فيها[1].

من مؤلَّفات الطبري2:

تدلُّ مؤلَّفات الطبري على غزارة علمه، وسَعَة ثقافته، ودقته في اختيار العلوم الشرعية والأحكام المتعلقة بها، وطول نَفَسه، وصبره على البحث والدرس؛ فقد ذكر الخطيب في تاريخه أنَّ محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يومٍ منها أربعين ورقة3، ومن أشهر هذه المؤلَّفات:

1- "جامع البيان عن تأويل القرآن" المعروف بتفسير الطبري، قال السيوطي عن تفسير الطبري: "وكتابه أجلُّ التفاسير وأعظمها"4، وقال النووي: "أجمعت الأمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبري"5، وقال أبو حامد الإسفراييني: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرًا"6.

2- "تاريخ الأمم والملوك" المعروف بتاريخ الطبري.

"اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام" المعروف بـ"اختلاف الفقهاء"، وهو في علم الخلاف.

---

1 محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص 46- 47.

2 لمعرفة مؤلفات الطبري؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء 42/18 وما بعدها، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 16/2، طبقات الشافعية الكبرى 121/3، تذكرة الحفاظ 711/2، مفتاح السعادة 416/1، 426/2، تاريخ التراث العربي 162/2/1، تاريخ الأدب العربي 45/3 وما بعدها، كشف الظنون 64/1، 303، إنباه الرواة 90/3، الطبري للحوفي ص89، الفهرست ص326، الطبري للمصلح ص 38، الطبري للزحيلي ص51 وما بعدها.

3 الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 2/ 163.

4 السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 2/ 186.

5 النووي: تهذيب الأسماء 1/ 78.

6 ياقوت الحموي: معجم الأدباء 18/ 42.

"تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار"، وسمّاه القفطي: "شرح الآثار"، وهو كتاب في الحديث.

"آداب القضاة"، وهو في الفقه عن أحكام القضاء وأخبار القضاة.

منهجه العلمي والفكري

منهجه في التفسير:

لم يُقدِم الطبري على تفسير كتاب الله تعالى إلا بعد نضوج الفكر، واكتمال العقل، وتحصيل العلوم، والتزود بآلات التفسير ووسائله، و لم يكن ليفسِّر القرآن بمجرد الهوى والتَّشهِّي والرأي، بل سار على منهج واضح وخطة حكيمة، وفوق ذلك فقد رسم الخطوط العريضة لتفسير القرآن الكريم، ووضع القواعد الصحيحة، واستنَّ القوانين الحكيمة، ووضع السياج الأمين للحفاظ على مقاصد الشريعة.

وقد قدَّم الطبري مقدمة مستفيضة لكتابه، تحتوي أصول التفسير في الإسلام؛ ليلتزم بها بنفسه، ويرسم الطريق لمن يأتي بعده، ويحدد الحدود لتناول كتاب الله تعإلي؛ وقد عرض الطبري منهجه بإيجاز، بعد أن بيَّن فضل محمد بالنبوة والمعجزات، وفضل الله على هذه الأمة بحفظ كتابها ومعجزة نبيها، ثم بين فضل العناية بكتاب الله، ثم قال: "ونحن في شرح تأويله، وبيان ما فيه من معانٍ مُنشِئون كتابًا مستوعبًا، لكل ما بالنَّاس إليه الحاجة من علمه جامعًا، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافيًا، ومخبرون في كل ذلك، بما انتهى إلينا من اتفاق الحُجَّة فيما اتفقت عليه الأمة، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومبينو عِلَلَ كلِّ مذهب من مذاهبهم، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه"[1]، ثم شرع الطبري بتفصيل منهجه في أصول التفسير مع ذكر الأدلة الشرعية واللغوية، وضرب الأمثلة العملية من القرآن الكريم والسنة وكلام العرب واللغة والشِّعر[2].

وتفسير الطبري ذو منهج خاص، يذكر فيه الآية أو الآيات من القرآن، ثم يعقبها بذكر أشهر الأقوال التي أثرت عن الصحابة والتابعين في تفسيرها، ثم يورد بعد ذلك رواياتٍ أخرى متفاوتة الدرجة في الثقة والقوة في الآية كلِّها أو بعض أجزائها، بناءً على خلافٍ في القراءة، أو اختلافٍ في التأويل، ثم يعقب كل ذلك بالترجيح بين الروايات، واختيار أولاها بالتقدمة، وأحقها بالإيثار، ثم ينتقل إلى آية أخرى، فينهج نفس النهج عارضًا ثم ناقدًا ثم مرجحًا؛ وهو إذ ينقد أو يرجح، يرد النقد أو الترجيح إلى مقاييس تاريخية من حال رجال السند في القوة والضعف، أو إلى مقاييس علمية وفنية: من الاحتكام إلى اللغة التي نزل فيها الكتاب، نصوصها وأقوال شعرائها، ومن نقد القراءة وتوثيقها أو تضعيفها، ومن رجوع إلى ما تقرَّر بين

---

1 الطبري: جامع بيان تأويل آي القرآن 5/1.

2 محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص120.

العلماء من أصول العقائد، أو أصول الأحكام أو غيرهما من ضروب المعارف التي أحاط بها ابن جرير، وجمع فيها مادة لم تجتمع لكثير من غيره من كبار علماء عصره"1.

وبعد أن بين الطبري ذلك وضع قواعد التفسير، وأصول التأويل، وحذَّر من التفسير بالرأي، والتلاعب في كلام الله تعالى بحسب الأهواء والأغراض، وأورد الأحاديث الكثيرة بأسانيدها في تحريم ذلك، وتجنَّب التفسير بالرأي المجرد، وقال: "إن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله ρ، أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه؛ لأن إصابته ليست إصابة موقن أو محق، وإنما هو إصابة خارص وظانّ، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم، وقد حرَّم الله ذلك"2.

ويلتزم الطبري بما اتفق عليه المسلمون في درجات التفسير؛ فيلجأ أولاً إلى تفسير القرآن بالقرآن، ثم إلى تفسيره بالسُّنة البيانية وما ثبت عن رسول الله ρ، ثم يتبع ذلك بالآثار الواردة عن الصحابة رضوان الله عليهم، وعن التابعين..

منهجه في التاريخ:

يُعتَبَر الطبريُّ أبا التاريخ، وهو عمدة المؤرخين عند العرب والمسلمين، وهو أول مؤرِّخ وصل إلينا كتابه العام والكامل في التاريخ، ويعتمد عليه كل من كتب في التاريخ على الإطلاق، وكان ثقة في نقله3،

وللطبري في التاريخ كتابان:

تاريخ الأمم والملوك:

ويسمى أيضًا التاريخ الكبير4، وذكره ياقوت الحموي باسم "تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء"[5]، ويُعرَف بتاريخ الطبري، وبه اشتهر ولمع صيته، وفرغ منه في (27 ربيع الأول 303هـ)6، وقد وصل تاريخ الطبري إلى قمة التأليف التاريخي عند العرب والمسلمين في القرون الثلاثة الأولي، وتظهر أهمية الكتاب في كونه7:

1 انظر: كلمة (الناشر) أ. محمد محمود الحلبي: الطبعة الثالثة، تفسير الطبري 4/1.
2 الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن 1/ 35.
3 مفتاح السعادة 253/1، وابن خلكان: فيات الأعيان 332/3.
4 ياقوت الحموي: معجم الأدباء 68/18.
5 المصدر السابق 44/18.
6 الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 163/2.
7 محمد الزحيلي: الإمام الطبري 207 وما بعدها.

أوّلَ كتاب في التاريخ العام، وأقدم مصدر كامل للتاريخ العربي واللغة العربية منذ أوائل الزمان إلى أول القرن الرابع الهجري؛ وحافلاً بالنصوص الأدبية وتراجم الشعراء والخطباء وغيرهم..

جمعَ الكثير من أخبار العرب في الجاهلية وحفظها من الضياع، وأرَّخ للقرون الأولي في الإسلام.

ذَكرَ تاريخ الفرس، وتاريخ الرومان بدقة شديدة.

مصدرًا لمن جاء بعده من المؤرِّخين، مثل مسكويه (421هـ)، وابن الأثير (630هـ)، وابن خلدون (808هـ).

تاريخ الإسلام: وقد عرضه بناءً على منهج محدد، تتلخص معالمه فيما يلي1:

نظام الحوليات؛ الترتيب الزمني للأحداث عامًا بعد عام.

نقل الروايات؛ سواء كانت موافقة لرأيه أم لا، مع ذكر السند موصولاً كما في الحديث.

الاعتماد على المصادر التي صنَّفت قبله، وجمع الأخبار وضبط النصوص؛ فيذكر أحداث كل سنة في شكل أخبار، ويذكر للحادثة الواحدة رواياتٍ مختلفة.

الاستطراد في ذكر الأسباب والتفصيلات المصاحبة، ووضع العناوين للأحداث؛ وخاصة الأحداث المهمة، والتوسع في سيرة الخلفاء؛ بإعطائهم أولوية خاصة وأهمية متميزة.

الإكثار من الوثائق التاريخية؛ لذا اعتبر تاريخه أوثق مصادر التاريخ الإسلامي، وتسجيل النصوص الأدبية؛ كالشعر والخطابة والرسائل والمحاورات ذات الصلة2.

الحياد والواقعية؛ لورعه وتقواه ودقته، والجرأة في العرض؛ حيث عرض حوادث لا تُرضي العباسيين، وهم الخلفاء في عصره3.

منهجه في الفقه:

كانت شخصية الطبري الفقهية أقوى وأشهر وأرسخ من شخصيته كمفسِّر أو مؤرِّخ، وقد عاش مع الفقه، ومارس الاجتهاد، وأفتى الناس والوزراء والخلفاء، وبدأ حياته بتصنيف كتاب "اختلاف الفقهاء"،

---

1 محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص231- 238 باختصار وتصرُّف.

2 ظهر الإسلام 204/2. ويقول أحمد أمين: وكتابه هذا، مع أنه تاريخي في أصله، فالقارئ له يقف على ثروة كبيرة في الأدب؛ لأنه في حكايته للروايات المختلفة يقصها في لغة رصينة بليغة، غاية في القوة".

3 ظهر الإسلام 204/2.

وظلَّ يكتب في الفقه ويدرِّسه طيلة حياته، ولم يصنِّف التفسير إلا عندما قارب الستين1، ولعلَّ السبب في هذه الصورة الباهتة لشخصيته الفقهية فيما بعد، يرجع إلى انقراض تلاميذه، وغياب مذهبه الفقهي، بسبب قلَّة أتباعه وخمولهم في حمله ونشره، ولكنَّ ذلك لا يقلِّل من أهمية فقه الطبري واجتهاده وآرائه وإمامته، حتى إنَّ العلاَّمة أبا العباس بن سريج قال عنه: "محمد بن جرير الطبري فقيه العالَم"2، والطبري حسب اصطلاح ابن عابدين: هو من طبقة المجتهدين في الشرع، وهو مجتهد مستقل، استقل بوضع قواعد لنفسه وأصول لاجتهاده، ليبني عليها أقواله وفقهه"3، كما ذكره الشيرازي في "طبقات الفقهاء" وعدَّه في جملة المجتهدين المستقلين، ولم يعدَّه من طبقات أصحاب المذهب الشافعي[4]، وقال عنه ابن خلكان: "وكان من الأئمَّة المجتهدين، لم يقلِّد أحدًا، وكان أبو الفرج المُعَافي على مذهبه"[5].

ولمذهبه الفقهي قواعد محدَّدة للاستنباط، ومنهج معين للاستدلال؛ وقد حدَّد الطبري منهجه وقواعده، ونصَّ على المصادر التشريعية التي يعتمد عليها، ولكن كتب الطبري في أصول الفقه قد فُقِدت، ولم يصل إلينا منها شيء، ولم نضع أيدينا على التحديد الصريح والكامل لأصول مذهبه ومنهجه في الاستنباط، وقواعده في البيان والاستدلال6، ولكن يظهر لنا من كتبه المطبوعة (التفسير والتاريخ وغيرها..) أن أصول الأحكام، ومصادر التشريع عند الطبري هي: القرآن الكريم، السنة، الإجماع، القياس، اعتبار مقاصد الشريعة بتحقيق مصالح الناس، العرف[7].

منهجه في الحديث:

ويتضح منهج الطبري في كتابه تهذيب الآثار؛ حيث رتَّبه ترتيبًا خاصًا بحسب الأسانيد، وتناول كل حديث بتدقيق السند، وما في المتن من الفقه، وذكر غريب الألفاظ، وغريب المعاني، وما يستنبط من الحديث من الأحكام الشرعية، وما يثور حوله من اختلاف الفقهاء، مع إيراد حُجَجِهم وأدلَّتِهم، ومناقشة الأدلة، وبيان القول الراجح، وبيان مذهبه في المسألة، وحُجَّته فيما ذهب إليه8.

دراسات عن الطبري

الطبري: د. أحمد محمد الحوفي.

---

1 معجم الأدباء 42/18.

2 طبقات الشافعية الكبرى 123/3.

3 انظر: حاشية ابن عابدين 77/1، الفقه الإسلامي وأدلته 47/1.

4 الشيرازي: طبقات الفقهاء ص93.

5 ابن خلكان: وفيات الأعيان 332/3، وانظر: روضات الجنات 292/7.

6 محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص 169.

7 انظر بحث "الجانب الفقهي في تفسير الطبري" للدسوقي ص31- 32، وبحث "فقه الطبري" لقلعجي ص 26.

8 انظر تهذيب الآثار مسند علي بن أبي طالب ص11- 13.

الطبري: عبد الله بن عبد العزيز المصلح.

الإمام الطبري شيخ المفسرين، وعُمدة المؤرِّخين، ومُقدَّم الفقهاء المحدثين: د. محمد الزحيلي.

موسوعة عباقرة الإسلام: د. رحاب خضر عكاوي.

نوابغ المسلمين: مصطفى وهبة.

وفاته

تُوُفِّي الطبري في يوم 26 من شهر شوال سنة 310 هـ، وعمره (86 سنة)[1]؛ فرحمه الله رحمةً واسعةً، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

1 محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص 33.

المبحث الثالث: دور العلم في حياة الإمام النووي

[631هـ - 676هـ= 1233- 1277م]

هو "أبو زكريا، محيي الدين" يحيى بن شرف النووي. ولد في قرية نوى عام 631هـ لأبوين صالحين، ولما بلغ العاشرة من عمره بدأ في حفظ القرآن وقراءة الفقه على بعض أهل العلم. وفي سنة 649هـ قَدِمَ مع أبيه إلى دمشق لاستكمال تحصيله العلمي في مدرسة دار الحديث، وسكنَ المدرسة الرواحية، وهي ملاصقة للمسجد الأموي. وفي عام 651 هـ حجَّ مع أبيه ثم رجع إلى دمشق، وهناك أكب على علمائها ينهل منهم ..

أخلاقه وصفاته

كان الإمام النووي مهيبًا، قليل الضحك، عديم اللعب، يقول الحق وإن كان مرًّا، لا يخاف في الله لومة لائم، وكان الزهد والورع أهم ملامح شخصيته؛ حيث أجمعَ أصحابُ كتب التراجم أنه كان رأسًا في الزهد، قدوة في الورع، عديم النظير في مناصحة الحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وكان ~ لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعد العشاء الآخرة، وكان لا يأخذ من أحد شيئا، وكان كثيرًا ما يكاتب الأمراء والوزراء، وينصحهم لما فيه خير البلاد والعباد..

حياته العلمية

تميزت حياته العلمية بعد وصوله إلى دمشق بثلاثة أمور:

الأول: الجدّ في طلب العلم والتحصيل في أول نشأته وفي شبابه.

والثاني: سعَة علمه وثقافته، وقد جمع إلى جانب الجدّ في الطلب غزارة العلم والثقافة المتعددة، فقد كان يقرأ كلَّ يوم اثني عشر درسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا.

الثالث: غزارة إنتاجه، فقد بدأ به عام 660 هـ، أي في الثلاثين من عمره، وقد بارك اللّه له في وقته وأعانه، فأذاب عُصارة فكره في كتب ومؤلفات عظيمة ومدهشة، تلمسُ فيها سهولةَ العبارة، وسطوعَ الدليل، ووضوحَ الأفكار. وما زالت مؤلفاته حتى الآن تحظى باهتمام كل مسلم.

وكان النووي لا يضيع وقتًا في ليل أو نهار إلا في الاشتغال بالعلم، حتى في ذهابه في الطريق ومجيئه كان يشتغل في تكرار أو مطالعة، وبقي على التحصيل على هذا الوجه نحو ست سنين؛ ثم اشتغل بالتصنيف والمناصحة للمسلمين وولاتهم، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدقائق الفقه والاجتهاد على الخروج من خلاف العلماء، وكان بعيد المراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من السوء، يحاسب نفسه على

الخطرة بعد الخطرة، وكان مُحَقِّقًا في علمه وفنونه، مدققًا حافظًا لحديث رسول الله ρ عارفًا بأنواعه كلها، من صحيحه وسقيمه وغريب ألفاظه وصحيح معانيه واستنباط فقهه، كما صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل؛ فبعضها للتصنيف، وبعضها للتعليم، وبعضها للصلاة، وبعضها للتلاوة، وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان سريع الحفظ؛ حفظ عدة كتب في مُدَدٍ وجيزة، فنال إعجاب وحبَّ أستاذه أبي إبراهيم إسحاق بن أحمد المغربي، فجعلَه مُعيد الدرس في حلقته. ثم درَّسَ بدار الحديث الأشرفية، وغيرها. وقد حدَّثَ تلميذُه علاء الدين بن العطار — على لسان النووي - عن فترة التحصيل والطلب، أنه كان يقرأ كلَّ يوم اثني عشر درسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا، درسين في الوسيط، وثالثًا في المهذب، ودرسًا في الجمع بين الصحيحين، وخامسًا في صحيح مسلم، ودرسًا في اللمع لابن جنّي في النحو، ودرسًا في أصلاَح المنطق لابن السكّيت في اللغة، ودرسًا في الصرف، ودرسًا في أصول الفقه، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين، وكان يكتبُ جميعَ ما يتعلق بهذه الدروس من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة.

وسمع منه خلق كثير من الفقهاء، وسار علمه وفتاويه في الآفاق، وانتفع الناس في سائر البلاد الإسلامية بتصانيفه، وأكبوا على تحصيل مؤلفاته .

شيوخه

سمع النووي أبا الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر، ومحمد بن أحمد المقدسي وهو أجل شيوخه، وأبا إسماعيل بن أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي أليسر وأبا العباس أحمد بن عبد الدائم، وأبو البقاء خالد النابلسي، وأبا محمد عبد العزيز بن عبد الله محمد بن عبد المحسن الأنصاري، والضياء بن تمام الحيصي، والحافظ أبا الفضل محمد بن محمد البكري، وأبا الفضائل عبد الكريم بن عبد الصمد خطيب دمشق، وأبا محمد عبد الرحمن بن سالم ين يحيى الأبناري، وأبا زكريا يحيى بن الفتح الصيرفي الحراني، وأبا إسحاق إبراهيم بن على بن أحمد بن فاضل الواسطي وغيرهم

إسهاماته العلمية

النووي فقيهًا:

يقول ابن العطار: "كان حافظًا للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين، واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم، وما اشتهر من ذلك جميعه وما هجر، سالكًا في كلها طريقة السلف".

النووي محدثًا:

كلَّما جاءت فترة من الزمن جاء لها محدِّثون ووجدوا في الحديث شغلاً جديدًا: استدراكًا أو شرحًا أو تصحيحًا؛ وفي فترة العصور الإسلامية الوسطى وُجِدَ أمثال ابن الصلاح والنووي والمِزِّيّ والذهبي؛ وامتاز النووي من بينهم بأنه فقيه الأمة، وقلما اجتمع لعالم تبحر في الفقه وإتقان لعلوم الحديث[1].

ويروي ابن العطار أن النووي سمع الصحيحين (البخاري ومسلمًا) وسنن أبي داود والترمذي، والنسائي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، والدارمي، وأبي عوانة الإسفراييني، وأبي يعلى الموصلي، وسنن ابن ماجة، والدارقطني، والبيهقي، وشرح السنة للبغوي، ومعالم التنزيل له في التفسير، وكتاب الأنساب للزبير بن بكار، والخطب النباتية، ورسالة القشيري، وعمل اليوم والليلة لابن السني، وكتاب آداب السامع والراوي للخطيب، وأجزاء كثيرة غير ذلك.. نقلت ذلك جميعه من خط الشيخ ~".

النووي وفقه الحديث:

ما كان النووي يحبس علمه في الحديث في نطاق الرواية التي هي كالنوافل للمُحَدِّثين، وإنما كان هَمُّه في الحديث معرفة ما ذكره في مقدمة شرحه لصحيح مسلم، ثم الانصراف إلى فِقْهِهِ. وقد سمع منه الكثيرون؛ منهم أبو الفتح، والمِزِّيّ، وابن العطار..

النووي وعلم اللغة:

لا يقوى أحدٌ على فهم الكتاب والسنة والتفقه بهما واستنباط الأحكام منهما، ويستوعب عبارات أئمة الدين من المتقدمين بل المتأخرين، حتى يتقن العربية: نحوها وصرفها واشتقاقها، ومعاني مفرداتها، وهذا ما يراه النووي ويحث عليه، يقول ~ في مقدمة كتابه تهذيب الأسماء واللغات: "ولا حاجة إلى الإطالة في الحث عليها، فالعلماء مجمعون على الدعاء إليها، بل شرطوها في المفتي والإمام الأعظم والقاضي لصحة الولايات، واتفقوا على أن تعلمها من فروض الكفايات"2.

وكتابا النووي "تحرير التنبيه"، "تهذيب الأسماء واللغات" يدلان على تمكن الإمام بعلم اللغة تمكنًا قل نظيره في نظرائه في عصره.

محاولة اشتغال النووي بالطب:

يقول النووي: "وخطر لي الاشتغال بعلم الطب، فاشتريت القانون (لابن سينا) وعزمت على الاشتغال فيه، فأظلم عليَّ قلبي، وبقيت أيَّامًا لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكرت في أمري: من أين دخل

---

1 عبد الغني الدقر: الإمام النووي ص55.

2 النووي: تهذيب الأسماء و اللغات، 1/ 3.

عليَّ الداخل، فألهمني الله أن اشتغإلى بالطب سببه، فبعت في الحال الكتاب المذكور، وأخرجت من بيتي كل ما يتعلق بعلم الطب فاستنار قلبي ورجع إلى حالي، وعدت لما كنت عليه أولاً"[1]؛ ولعلَّ الظلمة التي أصابت قلبه مرجعها إلى أنه لم يألف الطب، أو لعلَّه استغلقت عليه مسائله. ويجوز أن يكون النووي قد تـــأثر – في رغبته دراسة الطب – بمقولة إمامه الشافعي: "لا أعلم علمًا – بعد الحلال والحرام – أنبلَ من الطب"[2].

أهم المناصب

باشر النووي التدريس في المدرسة الإقبإلية، نيابة عن ابن خلكان إلى آخر سنة 669هـ3.

كما ناب النووي – أي صار نائبًا – في مدرستي الفلكية والركنية4.

وتولى النووي دار الحديث الأشرفية في الفترة (665- 676هـ)؛ وهي أشهر دار في بلاد الشام لعلم الحديث، والمتعارف عليه ألا يلي مشيختها إلا عظيم وقته في العلم، وخصوصًا علم الحديث، ومن لقب بشيخ دار الحديث، نال في العلم أجل الألقاب، وقد وليها قبل النووي: تقي الدين بن الصلاح، وشـــهاب الدين أبو شامة المقدسي.

وقال التاج السبكي: " قال والدي: إنه ما دخلها – أي دار الحديث الأشرفية – أعلم ولا أحفظ من المزي، ولا أورع من النووي وابن الصلاح"5.

مؤلَّفاته

عاش النووي (46 سنة) فقط، ورغم هذا فقد ترك من المؤلفات ما لو قسم على سني حياته لكان نصيب كل يوم كراستين6؛ فإذا علمنا أنه لم يبدأ العلم إلا في سن (18 سنة)، فأي مضاء وأي عزيمة وقدرة وبركة في العمر آتاه الله إياها!!

ومن أشهر ما صنَّف النووي:

شرح مسلم: يبحث السند، واللغة وتسمية ما يجهل اسمه، وشرح المعنى، وما يستنبط من الحديث، ومن قال بظاهر الحديث ومن خالف وما حجته، مع فوائد كثيرة أخرى.

---

1 السخاوي ص6، 7، والتذكرة 1470/4.
2 انظر: عبد الغني الدقر: الإمام الشافعي ص273.
3 ابن كثير: البداية والنهاية 13/ 279.
4 السابق نفسه.
5 النعيمي: الدارس في تاريخ المداري 6/ 36.
6 والكراسة: كتيب أو فصل في كتاب؛ تقول: قرأت كراسة في كتاب سيبويه، حوإلى 40 صفحة.

الروضة "روضة الطالبين": والروضة من الكتب الكبيرة المعتمدة في المذهب الشافعي، اختصرها النووي من كتاب الإمام الرافعي "الشرح الكبير"، وأثنى عليها الأئمة.

المنهاج: من أكثر كتب النووي تداولاً، اختصره من "المحرَّر" للرافعي، وله فيه تصحيحات واختيارات.

رياض الصالحين: لم يبلغ كتاب من كتب الحديث والوعظ من الانتشار والثقة ما بلغه هذا الكتاب، وشرحه العلامة محمد بن علي الصديقي الشافعي في كتاب "دليل الفالحين لطريق رياض الصالحين".

الأذكار: ذكر فيه عمل اليوم والليلة، وزاد عليها أذكار المناسبات مع كثير من الأحكام المتناسبة مع الذكر.

كتب أخرى للنووي:

التبيان، تحرير التنبيه، تصحيح التنبيه، الإيضاح في المناسك، الإرشاد، التقريب، الأربعين، بستان العارفين، مناقب الشافعي، مختصر أسد الغابة، الفتاوى، أدب المفتي والمستفتي، مختصر آداب الاستسقاء، رؤوس المسائل، تحفة طلاب الفضائل، الترخيص في الإكرام والقيام، مسألة تخميس الغنائم، مختصر التذنيب، مسألة نية الاغتراف، دقائق المنهاج والروضة، التقريب والتيسير.

وفاته

توفي سنة (676هـ) بعد أن رجع إلى نَوى وردَّ الكتب المستعارة من الأوقاف، وزار مقبرة شيوخه، فدعا لهم وبكى، وزار أصحابه الأحياء وودّعهم، وزار والدَه وزار بيت المقدس والخليل، ثم عاد إلى نوى؛ فمرض بها، ومات في 24 من رجب؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث الرابع: دور العلم في حياة الإمام ابن تيمية

[661 - 728هـ = 1263 - 1328م]

ميلاده ونشأته وعصره

هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تَيْمِيَّة1، الحَرَّاني، الدمشقي. ولد بِحَرَّان بدمشق في (الاثنين 10 من ربيع الأول 661هـ)، نشأ في بيت علمٍ وفقهٍ ودين، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير. ولما بلغ السابعة انتقل مع والده إلى دمشق؛ هربًا من التتار، وبدأ طلب العلم أولاً على أبيه وعلماء دمشق، فحفظ القرآن صغيرًا، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير، وعُرِفَ بالذكاء وقوة الحفظ والنَّجابة منذ صغره، ثم توسَّع في دراسة العلوم والتبحر فيها، وقبل بلوغه الثلاثين اجتمعت فيه صفات المجتهد وشروط الاجتهاد، فصار إمامًا يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة.

وجاء ابن تَيْمِيَّة ~ على فترةٍ من المصلحين في تاريخ الإسلام، وكان المجتمع الإسلامي فيها قد وصل إلى صورة يعجز الواصف عن تصويرها؛ فوقف الشيخ آمرًا وناهيًا، وناصحًا، ومُبَيِّنًا، حتى أَصْلَحَ الله على يديه الكثير من أوضاع المسلمين، ونَصَرَ بِهِ السُّنَّةَ وأَهْلَهَا.

أخلاقه نموذج للعلماء

كانت خصاله وأخلاقه نموذجًا لكلِّ مُشتغِلٍ بالعلم، واشتُهِر بالمهابة والقوة في الحق، وكان كثير العبادة والذكر وقراءة القرآن، ورعًا زاهدًا لا يكاد يملك شيئًا من متاع الدنيا، كما عرف بالصبر وقوة الاحتمال في سبيل الله، وكان ذا فراسة، وكان مستجاب الدعوة.

جهاده ونصحه لتطبيق علمه

كان نصيب ابن تيمية من الأذى والسجن وافرًا؛ فقد سجن في مصر، ونفي إلى الإسكندرية، وكذلك سجن بالشام عدة مرات2، ومنذ عودته من منفاه سنة (709هـ) وإلى حين عودته إلى دمشق سنة (712هـ) كان بصحبة ابن قلاوون الذي سجنه أربع مرات بسبب فتاواه وخلاف العلماء معه، وتحريضهم ضده، ورغم ذلك أصدر ابن قلاوون خلال هذه الفترة القصيرة كثيرًا من الأوامر والمراسيم التي أبطل بها أوضاعًا فاسدة، كان ابن تَيْمِيَّة قد وجَّه إليها نقدًا شديدًا؛ كالرِّشوة، التي أصدر بن قلاوون سنة (711هـ) أمرًا بإلغائها، فتقرر أن لا يُولَّى أحدٌ بمال ولا برشوة، وهذا ما عَلَّقَ عليه ابن كثير بقوله: "وكان سبب ذلك الشيخ تقي الدين ابن تَيْمِيَّة"3.

---

1 جاء في سبب تسميته عدة أقوال، خلاصتها جميعًا: أن تَيْمِيَّة هو اسم جَدَّته، وقد سماها أبوها بذلك لشبهها لجارية صغيرة رآها بتيماء وهو يحج، وكانت جدته هذه واعظة، فنسب إليها وعرف بها.

2 إبراهيم محمد العلي: شيخ الإسلام ابن تيمية ص296.

3 ابن كثير: البداية والنهاية 75/14.

ويرجح "هنري لاووست1" في ترجمته لكتاب "السياسة الشرعية" إلى الفرنسية، أنَّ ابن تَيْمِيَّة صنّفه ما بين (709- 712هـ)، في أعقاب استدعاء ابن قلاوون له من منفاه بالإسكندرية، وبناءً على طلبه كما فعل هارون الرشيد مع أبي يوسف. ويرى "لاووست" بالاستناد إلى ما كتبه ابن كثير في "البداية والنهاية" أن هناك مطابقة واضحة بين الخطط المرسومة في كتاب "السياسة الشرعية" والأصلاًحات المقترحة فيه، والتدابير والأصلاًحات التي قام بها محمد بن قلاوون في هذا الوقت.

أشهر تلاميذه

1- الإمام الجليل شمس الدين ابن قيم الجوزيّة (691-751هـ)؛ الذي ذكر البعض أن مؤلفاته بلغت (98 مؤلفًا)؛ أشهرها: زاد المعاد، ومدارج السالكين، وهداية الحيارى في أجوبة إليهود والنصارى، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.

2- الإمام الجليل أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (673- 748هـ)؛ من أشهر مؤلفاته: سير أعلام النبلاء (25 مجلدًا)، وميزان الاعتدال، وطبقات القُرَّاء، وطبقات الحفاظ، وتراجم الأعيان.

3- أبو الفداء إسماعيل بن كثير (701- 774هـ)؛ من أشهر مؤلفاته: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم، والباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، والتكميل في الجرح والتعديل.

ومنهم أيضًا محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، وأبو العباس أحمد بن الحسن المشهور بقاضي الجبل، وزين الدين عمر الشهير بابن الوردي، وأبو حفص عمر الحَرَّاني، وأبو عبد الله محمد بن مفلح، وغيرهم.

إسهاماته العلمية

"إن ابن تَيْمِيَّة من المؤلفين الذين لهم تأثير كبير على أهل الإسلام من الزمان الغابر إلى الآن وخاصة على أهل السُّنَّة"[2]، وله تراث ضخم ثمين، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معينًا صافيًا، من مؤلفات ورسائل وفتاوى ومسائل وغيرها، هذا من المطبوع، وما بقي مجهولاً ومكنوزًا في عالم المخطوطات فكثير.

صعوبة استقصاء مؤلفاته

1 هنري لاووست: مستشرق فرنسي يُعَد أهم من تخصصوا في ابن تَيْمِيَّة، وأكثر المستشرقين إنصافًا له، قضى أكثر من ثلاثين سنة في دراسة عصر المماليك، والحنابلة، وابن تَيْمِيَّة بوجه خاص، وتَرْجَمَ كتاب "السياسة الشرعية" إلى الفرنسية، وقَدَّمَ له مقدمة قيمة، وله دراسة بعنوان: "شرائع الإسلام في منهج ابن تَيْمِيَّة".

[2] الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ص 207.

ذكر ابن القيم من مؤلفات الشيخ ابن تَيْمِيَّة (337 مصنفًا)؛ وهناك أسباب عدَّة، جعلت من الصعوبة بمكان حصر أسماء مؤلفات ابن تَيْمِيَّة، من أهمها:

تتابع الفتن والامتحانات التي تعرَّض لها الشيخ.

كان الشيخ يكتب الجواب لمن سأله، فإن وجد من ينقل الجواب ويبيضه، وإلا أخذ السائل الجواب وذهب[1].

تَفَرُّقُ أَتْبَاعِهِ لَمَّا حُبِس، فَتَفَرَّقَتْ كُتُبه، وتَخَوَّف أصحابُه من إظهارها؛ فذهب كلٌّ بما عنده، وبِيع البعض، ووُهِب البعض، وسُرِق البعض، وأُخْفِي الكثير، ولم يقدر الشيخ على تحصيلها مرة أخرى..

صُودِرت كتب الشيخ وهو في السجن، فَتَوَزَّعَهَا أعداؤه وخصومه؛ فمنها ما جحدوه وأتلفوه، ومنها ما أُجبِروا على رَدِّه إلى أخيه زين الدين.

بَذَلَ أعداؤه فيما بعد وفاته، جهودًا كبيرة وأموالاً طائلة لشراء مؤلفاته لإتلافها.

وقد حاولت بعض المصادر استقصاء مصنفات الشيخ، منها محاولته هو في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم"، وقد أحصى (702 مصنفًا)، وأحصى بعضهم مصنفات الشيخ فكانت (923 مصنفًا)2.

مؤلَّفاته

من مؤلَّفاته في التفسير: رسالة في منهاج التفسير وكيف يكون، تفسير سورة الإخلاص، جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أنَّ {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القران، تفسير المعوذتين..

ومن مؤلفاته في العقائد: الإيمان، الاستقامة، اقتضاء الصراط المستقيم، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، رسالة في علم الباطن والظاهر، التوسُّل والوسيلة، الرسالة الحموية، الرسالة التدمرية، العقيدة الواسطية، الجواب الصحيح فيمن بدَّل دين المسيح، معتقدات أهل الضلال، معارج الوصول، السؤال عن العرش، بيان الفرقة الناجية، درء تعارض العقل والنقل، منهاج السنة النبوية، إبطال قول الفلاسفة بإثبات الجواهر العقلية، شرح حديث النزول، نقض المنطق، الرَّدُّ على المنطقيين، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، الواسطة بين الحق والخلق، فتوى ابن تَيْمِيَّة عن كتاب فصوص الحكم..

[1] ابن عبد الهادي: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص65.

2 إبراهيم محمد العلي: شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة رجل الأصلاح والدعوة ص376.

ومن مؤلفاته في الفقه: مجموع الفتاوى (35 مجلدًا)، الفتاوى الكبرى (6 مجلدات)، رسالة القياس، القواعد، رسالة الحسبة، الأمر بالمعروف، العقود، المظالم المشتركة، حقيقة الصيام..

وله مجموعة من القصائد؛ من أشهرها: ياسائلي عن مذهبي وعقيدتي، والقصيدة التائية.

غزارة عطائه العلمي

إن ما قام بتصنيفه شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة ~، يعجز الكثيرون عن القيام به مجتمعين، فيقول الحافظ البزَّار ~ عن مؤلفات ابن تَيْمِيَّة: "وأمّا مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه – غالبًا- أحد؛ لأنها كثيرة جدًا، وكبارًا وصغارًا، وهي منشورة في البلدان، فقلَّ بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه"1، وقال الإمام البرزإلي: "إن تصانيفه في هذا الوقت أربعة آلاف كراس أو أكثر"2.

ولا شك أن توفيق الله تعالى وفضله أولاً وآخرًا، كانا يصاحبانه، علاوةً على الأسباب الفطرية والمكتسبة التي توافرت فيه، ومن هذه الأسباب:

البدء بالتأليف في سن مبكرة:

يقول الحافظ الذهبي ~ عن ابن تَيْمِيَّة: "... وأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتصنيف منذ ذلك الوقت، وأكَبَّ على الاشتغال"3، ويقول ابن رجب الحنبلي ~: "شرع الشيخ في الجمع والتصنيف من دون العشرين، ولم يزل في علوٍّ وازدياد من العلم والقدر إلى آخر عمره"4؛ فإذا كان الشيخ قد عاش (67 عامًا)، واشتغل بالتأليف في تلك السن المبكرة، فهذا يعني أنه ظل يُؤَلِّف ما يقرب من نصف قرن؛ مما يبرر كثرة مؤلفاته.

غزارة علومه ومعارفه:

---

1 أبو حفص البزار: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص53.

2 ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات عن المنجد ص 61- 62.

3 ابن عبد الهادي: العقود الدرية ص4.

4 ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة 2/ 388.

استطاع الشيخ أن يُلِمَّ بفنون الثقافة في عصره في وقت مبكر، ساعده في ذلك حافظة خارقة، فقد كان يحفظ كل ما يقع تحت عينيه، وكان مع ذلك حريصًا على الوقت جدًّا، لا يضيع منه شيئًا، ولم يكفَّ عن الدراسة والقراءة والبحث والتأليف طول عمره وفي مختلف أحواله[1].

وقد مهر في سائر العلوم التي عرفت في عصره، "وأمدَّه الله بكثرة الكَتْبِ، وسرعة الحفظ، وقـوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان؛ حتى قال غير واحد من أهل العلم: إنه لم يكن يحفظ شيئًا فينساه"[2].

وشهد له معاصروه بذلك؛ قال الحافظ ابن سيد الناس ~: "ألفيته ممن أدرك من العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا، وإن تكلَّم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من رايته، برز في كل فنٍّ على أبناء جنسه، ولم تَرَ عينُ مَن رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه"[3].

سرعته في الكتابة والتأليف:

قال تلميذه ابن القيم ~: "إنه كان يحرِّر أربعين فتوى في ساعة"، وقال الحافظ الذهبي ~: "ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة الأوائل نحوًا مـن أربعـة كراريس أو أزيد، وما يبعد أنَّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد، وله في غير مسألة مصـنف مفـرد في مجلدة"[4].

ومن الأمثلة التي ذكرت في سرعته في الكتابة، يقول ابن عبد الهادي وابن سيد الناس عـن شـيخ الإسلام: "كتب الرسالة الحموية (سنة 698هـ) في قعدةٍ بين الظهر والعصر[5]"، "وكتب الرسالة الواسطية في قعدة بعد العصر"[6]، وذكر ابن عبد الهادي: "كان يكتب مجلَّدًا لطيفًا في يوم"[7].

منهجه العلمي

وكان للشيخ منهج محدد واضح لم يتخلَّ عنه، ويتلخص فيما يلي[8]:

---

1 شاكر الكتبي: فوات الوفيات 1/ 64.

2 ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: 6/ 81.

3 ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: 1/ 154.

4 تاريخ ابن الوردي: 2/ 406- 407، فوات الوفيات: عن المنجد ص 63.

5 العقود الدرية: ص 64، 67، فوات الوفيات عن المنجد ص 66.

6 ابن تيمية: مجموع الفتاوى: 3/ 164، والعقود الدرية: ص 311.

7 ابن تيمية: العقود الدرية: ص 64.

8 إبراهيم محمد العلي: شيخ الإسلام ابن تيمية ص360- 364.

1- الاعتماد على الكتاب والسنة وأقوال السلف: يقول ابن تَيْمِيَّة في هذا: "فقد وجب على كل مسلم تصديقه ρ فيما أخبر به عن الله Y من أسماء الله وصفاته مما جاء في القرآن وفي السُّنَّة الثابتة عنه، كما كان عليه السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان"[1].

2- الاستدلال العقلي فيما يستطيع العقل الإحاطة به: وتلك من صور التوازن العجيبة عند ابن تَيْمِيَّة؛ فمع توقيره العظيم للنصوص لا يهمل العقل ولا يزدريه، بل يرى أن العقل السليم لابد أن يوافق النقل الصحيح، وأن الدين يأتي بما تحار منه العقول لا بما تُحيله، أي تراه مستحيلاً؛ وهو مع هذا التوقير للعقل لا يقدسه، بل يرى أن له قدرة محدودة ينطلق فيها كما يشاء، ويعجز عن إدراك بعض قضايا الدين.

3- حرصه الشديد على ضبط المصطلحات: وهو يعتني بذلك أشد العناية ويرى أنَّ كثيرًا من خلاف السلف خلاف تنوع لا خلاف تضاد أي أنهم يختلفون لفظيًا فقط، كما أن المتأخرين يستخدمون مصطلحات محدثة فيها الحق والباطل ثم ينفونها ليتوصلوا بها إلى نفي معنى صحيح.

4- الاعتماد على اللغة الصحيحة: فالشيخ يعتمد على اللغة كما كانت عند العرب المتقدمين، ويميز بعبقريته بين معاني الألفاظ في أصل وضعها واستخدام المتأخرين لها.

5- النقل الموثوق: فهو عندما يريد محاجَّة خصم، فإنه يعتمد على كلامه، إمّا المكتوب، وإمّا المنقول شفهيًا عن الخصم من مصادر موثوقٍ بها؛ ولذلك نجده في كثيرٍ من كتبه في الرد على الخصوم، يذكر أولاً كلام الخصم بنصِّه وبأمانة ولا يتدخل فيه حتى ينتهي من سرده، ثم يبدأ في نقده وبيان عِلله، وهذه الطريقة جعلت من كتبه مرجعًا مهمًا موثوقًا به في الفرق، وخاصة تلك التي لم يأتنا شيء من مؤلَّفات زعمائها كالكلابية.

6- التأصيل: وهو يذكر أسباب ضلال من ضَلَّ، وكيف زَلَّتْ أقدامهم، وجذور انحرافهم، ويتتبعها بعبقرية فذَّة، ويتتبَّع التسلسل التاريخي لانحراف المنحرفين، مع نقدٍ داخليٍّ للنصوص والأسانيد، مع نقدٍ بنَّاء يبطل الباطل، ويحقُّ الحقَّ في أنصع صوره، مع اطِّرادٍ في المنهج لا يحيد عنه، وأدب جَمٍّ، كما أنَّ له طريقته الخاصة في نقد المتكلمين؛ التي أخذت من جهده ووقته وكتبه الشيء الكثير، ويبدو أنه فعل ذلك لأنَّه يرى أنهم أكثر الناس أنصارًا، بينما تقلَّصت المدارس الأخرى أو انقرضت نهائيًا. وكان في منهجه لنقدهم لا يعطي أحكامًا عامّة تسلكهم في نظام واحد، بل كان يميز بينهم، ويُفَصِّلُ نقد كل متكلم منهم بعينه، لأنه رأى أن كل فرد منهم قد يكون له آراء لا يشاركه فيها الآخرون، فمن الظلم والحالة هذه مؤاخذتهم بما قاله بعضهم، كما كان أيضًا في نقده لهم يراعي حال الشخص الواحد، فهو على سبيل المثال لا يهاجم الأشعري بما كتبه في فترة الاعتزال.

---

[1] ابن تيمية: مجموع الفتاوى: 19/ 68.

أقواله في باب العلم

ولابن تَيْمِيَّة في باب العلم أقوال جامعة؛ منها: "العلم إمّا نقلٌ مُصَدَّق، وإمّا اسْتدلالٌ مُحَقَّـــقٌ"[1]، "الإمامة في الدين مَوْرُوثة عن الصبر واليقين"[2]، "لا ريب أنَّ لذة العلم أعظم اللذات، واللذة التي تبقى بعـــد الموت، وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له، وهو الإيمان به"[3]، "من فارق الدليل ضلَّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول"[4]، "حصول العلم في القلب كحصول الطعـــام في الجســـم، يحـــس بالطعـــام والشراب، وكذلك القلوب تحس بما تُنْزِلُ إليها من العلوم التي هي طعامها وشرابها"[5]، "لا يُنال الهـــدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر"[6].

منهجه في مؤلفاته

بالنظر في مؤلفات ابن تَيْمِيَّة، التي تبرز شخصيته ومنهجه بشكل واضح، نخلص إلى هذا المنـــهج في نقاط[7]:

الارتباط بالحياة والواقع من خلال عَيْش الأحداث وتسجيلها ومناقشتها، ووضع الرأي الســـديد والصائب فيه؛ مما أكسب كتبه ومصنفاته قوةً وحيويةً وتأثيرًا عميقًا في النفوس، ويندر أن تجد ذلك في كتب غيره من المؤلفين.

استعماله الأسلوب العلمي في إقناع الخصوم، وإلزامهم الحُجَّة من خلال الاحتجاج عليهم بكـــلام أئمتهم، واستخدام أساليبهم الجدلية والمنطقية مما يضيق دائرة المناظرة على الخصم.

الوضوح فهي في أغلب الأحيان ردود على مجادلات، أو نقد لنواحٍ واجتهادات شرعية.

---

1 مجموع الفتاوى: 13/ 344.
2 السابق نفسه: 38/10.
3 السابق نفسه: 14/ 162.
4 مفتاح دار السعادة: 1/ 304.
5 مجموع الفتاوى: 4/ 41.
6 السابق نفسه: 10/ 40.
7 إبراهيم محمد العلي: شيخ الإسلام أحمد بن تَيْمِيَّة رجل الأصلاّح والدعوة، سلسلة أعلام المسلمين (79)، دار القلم- دمشـــق، الطبعـــة الأولى 1421هـــ= 2000م ص360- 363 بتصرف يسير .

الأسلوب الموسوعي في جمع أطراف الفكرة الواحدة؛ مما أكسب مؤلفاته ميزة خاصة تجعل قارئها يستغني بما فيها من معلومات قيمة عن كتبٍ كثيرة، بل عن مكتبة ضخمة.

الإكثار من النقل عن الأئمة؛ مما أكسب مؤلفاته القوة والأصالة، ثم إلحاقه هذه النقول بتعليقاته وإيضاحاته، مع بيان المنزلة العلمية التي كان يتمتع بها هذا الإمام الذي نقل عنه.

تُبرز هذه المؤلفات اطِّلاعه المدهش على الخلافيات، ودراساته المقارنة للمسائل التي يعرضها؛ مما جعل أحكامه أقرب إلى السلامة الكاملة، والدقة المتناهية، وندرة الخطأ.

خلو منهجه من الجفاف والتعقيد في عرض القضايا الفقهية؛ لأنها سمة سيطرت على مؤلفات المتأخرين في الجانب الفقهي؛ فلما ابتعد عنها في مصنفاته الفقهية، أعطى الفقه دفعة قوية، وقبولاً في نفوس الناس.

الأمانة العلمية وتحرِّي الدقة في النقل، والنقل بالنص مع العزو للمصدر والقائل.

الاستطراد في النقل أحيانًا، لحاجة تدعو إلى ذلك؛ كشرح أو توضيح أو تفريع..

التجرد للحق وقبوله واتباعه الموضوعية والعدالة مع المخالفين، وذكر جوانبهم الإيجابية.

التكرار وإعادة البحث للموضوع الواحد ففي بعض تصانيفه يكاد ينقل كثيرًا مما قال في مواطن أخرى، ولعلَّ ذلك ناتج من حرصه على التأكيد على أهمية الموضوع الذي يبحثه.

سعة أفقه واطلاعه المدهش على مختلف العلوم والفنون في عصره.

سرعة بديهته، وقوة استحضاره للدليل؛ حتى قال الحافظ الذهبي متعجبًا: "ما رأيت أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه"[1].[2]

دراسات عن ابن تَيْمِيَّة

كُتِبَ عن ابن تَيْمِيَّة وعلمه ومنهجه ونظرياته عدد كبير من الرسائل العلمية والكتب والمقالات، منها:

نظريات ابن تَيْمِيَّة في السياسة والاجتماع؛ للمستشرق الفرنسي هنري لاوست.

شرائع الإسلام في منهج ابن تَيْمِيَّة لهنري لاوست.

---

[1] الدرر الكامنة: 160/1.

[2] محمد أبو زهرة: ابن تيمية ص521- 524، الندوي: ابن تيمية ص133- 139، مقدمة الحموية: ص72- 79.

ابن تَيْمِيَّة للدكتور عبد الرحمن النحلاوي.

ابن تَيْمِيَّة للدكتور محمد يوسف موسى.

حياة شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة لمحمد بهجة البيطار.

الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة خلال سبعة قرون لمحمد العمران.

ابن تَيْمِيَّة السلفي للدكتور محمد خليل هراس.

ابن تَيْمِيَّة العالم الجريء لعبد المنعم الهاشمي.

ابن تَيْمِيَّة والتصوف للدكتور مصطفى حلمي.

ابن تَيْمِيَّة والتنظير السياسي للدكتور عبد الحكيم الفيتوري.

الإمام ابن تَيْمِيَّة وموقفه من قضية التأويل للدكتور محمد السيد الجليند.

تكامل المنهج المعرفي عند ابن تَيْمِيَّة لإبراهيم عقيلي.

شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة والعمل الجماعي لعبد الرحمن عبد الخالق.

دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة "عرض ونقد" للدكتور عبد الله بن صالح الغصن.

سد الذرائع عند شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة (رسالة ماجستير) لإبراهيم بن مهنا المهنا.

منهج ابن تَيْمِيَّة التجديدي السلفي ودعوته الأصلاًحية لسعيد عبد العظيم.

منهج ابن تَيْمِيَّة في مسألة التكفير لعبد المجيد المشعبي.

منهج شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة في التأليف ومراحله المتعددة لعبد الله بن سعد الحجيلي.

منهج ابن تَيْمِيَّة في الرد على المتكلمين لعبد العزيز التميمي.

منطق ابن تَيْمِيَّة لمحمد حسني الزين.

مقاصد الشريعة عند ابن تَيْمِيَّة ليوسف البدوي.

وفاته

مرض الشيخ في سجنه الذي دخله وابتُلِيَ به نتيجة تأليب الفقهاء والعلماء المخالفين له، وتحريضهم السلطان ضده، وكان مرضه بسبب فقده لكتبه، ومنعه من الكتابة، وضياع الكثير من كتبه، ومصادرة بعضها، وكان قد أخبر صديقه وصاحبه في السجن الشيخ عبد الله الزرعي في آخر لحظاته أنه سامح جميع أعدائه وحلَّلهم من عداوته وسبِّه، ثم تفرغ لتلاوة القرآن وختمه ثمانين مرة، ووصل إلى قوله تعالى: (**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**[1])، ثم اشتدت علته، وفاضت روحه إلى بارئها وهو مسجون بسجن القلعة بدمشق ليلة الاثنين (20 من ذي القعدة 728هـ)[2] وعمره (67) سنة، فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث الخامس: دور العلم في حياة الإمام ابن خلدون

[732 -808هـ =1332 -1406م]

ميلاده ونشأته

هو "أبو زيد"، عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، الحضرمي، الإشبيلي. وُلِدَ بتونس سنة (732هـ = 1332م)، ويعود أصله إلى عائلة يمنية هاجرت إلى إشبيلية ولعبت دورًا كبيرًا في التاريخ العربي لهذه المدينة، وشاع ذكرها على امتداد القرن الثامن إلى أن أصبحت في القرن العاشر من أعرق العائلات بإشبيلية. ولما تمكَّن ملوك الصليبيين من السيطرة على هذه المدينة نزح أجداده إلى سبتة ثم إلى تونس.

وفي كتاب (التعريف) لابن خلدون، يشير إلى أنه حفظ القرآن الكريم وألَمّ بالقراءات السبع وعني بالتفسير والحديث، وتعمّق في النحو والفقه، ولم يقتصر في تلقي هذه العلوم على أبيه محمد، بل اتصل بكبار علماء تونس، ولم يبلغ الثامنة عشرة حتى أصبح طويل الباع في الفقه وعلوم الدين، كما درس علم الحديث وأحاط بأصول المنطق وآراء الفلاسفة وكتبهم[3].

وبعد قضائه سنوات في خدمة حكّام إفريقية، ركب البحر مهاجرًا إلى أرض أجداده (الأندلس) لينزل عند سلطان غرناطة آخر الممالك الأندلسية، وبعد سلسلة من المكايد والفتن التي حِيكت ضدّه، آثر

---

[1] (القمر: 54،55).

2 ابن كثير: البداية والنهاية 159/14.

3 عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص31- 32.

الرجوع إلى إفريقية، واختار قلعة ابن سلامة بالجزائر ليقيم بها، ويباشر كتابة مؤلَّفه الشهير المعروف بتاريخ ابن خلدون، الذي قَدّم فيه نظريات جديدة في علمي الاجتماع والتاريخ[1].

حياته

عاش هذا العلاّمة الكبير في عصر مضطرب؛ تميز بالهزائم والانكسارات ليس على مستوى العالم فقط بل على مستوى الشخص أيضًا، فقد نُكِبَ أكثرَ من مرة بأحبائه وأسرته، ولم يشأ له القدر أن يسكن بلدًا واحدًا، أو أن يمتهن عملاً محددًا؛ فقد تنقَّل من الأندلس حتى بلاد الشام، وشهد بنفسه تسليم غرناطة ودمشق، ورأى بأمِّ عينه انهيار الحضارات، وسيطرة القوي وغطرسته عند النصر، وقد التقى ابن خلدون ملكَ قشتالة (بدرو) أثناء محاولته بسطَ نفوذه على ما تبقَّى من مدنٍ قليلة ومنعزلة للمسلمين في الاندلس، والتقى أيضًا (تيمور لنك) وهو يحاصر مدن الشام وينهبها، ثُمَّ يحرقها، أي أنه رأى الانهياراتِ في شرق العالم الإسلامي وغربه، كما رأى كيف تموت الدول وكيف تنشأ، أمّا على المستوى الشخصي فلم يهنأ بمنصب، ولم يستَطِبْ مقامًا لكثرة الحسّاد والواشين، لكنه ورغم هذه الحياة القاسية والمضطربة استطاع أن يكون مثقفَ عصره، وشاهدًا عليه، واستطاع أن ينتزع وقتًا للكتابة والتأليف، وأن يقدم للأجيال من بعده عصارة ذهنه ورحيق روحه.

وظائفه العلمية

عمل ابن خلدون بالتدريس في بلاد المغرب، بجامعة القرويين في (فاس)، ثم في الجامع الأزهر في القاهرة، والمدرسة الظاهرية.. وغيرها؛ وخلال إقامته في مصر نحوًا من ربع قرن تولّى ابن خلدون القضاء أكثر من مرة[2].

مؤلَّفاته

يُعتَبَر "ابنُ خلدون" واحدًا من أعظم المفكِّرين المسلمين، وأبرز من كَتَبَ في علم التاريخ، وعنون كتابه بـ "كتاب العِبَر، وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء: الأول: المقدِّمة؛ وفيها تأمُّلات عميقة حول الحضارة الإنسانية، والثاني: يهتمّ بتاريخ الأمم الممالك، والثالث: سيرة ابن خلدون الذاتية. وقد تُرجِمَت مقدمتُه إلى مختلف لغات العالم عدَّة مرات.

كتاب (تاريخ ابن خلدون):

---

1 عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص 33- 45.

2 عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص 46- 52.

(تاريخ ابن خلدون) هو الكتاب الذي رفعت مقدمتُه ابنَ خلدون إلى مصافِّ كبار فلاسفة العالم. وهي كما قال توينبي[1] – مستعيرًا كلمة المقريزي[2] – : (عملٌ لم يقم بمثله إنسان في أي زمان ومكــان)[3]. وفيها أرسى قواعد فقه التاريخ وعلم العمران، وهو علمٌ أعثره عليه اللهُ كما يقول[4]، وموضوعه: (البحث في أسباب انهيار الدول وازدهارها)[5]. وأراد أن تجد به الملوك ما يغني عن (سِرّ الأسرار) الذي ألَّفــه أرســطو للإسكندر، وأنجزه أولاً في مدة خمسة أشهر، من عام (779هـــ) أثناء إقامته عند بني العريف في قلعة بـــني سلامة بوهران، ثم نقَّحه بعد ذلك، وهذَّبه، وألحق به تاريخ العرب وأخبار البربـــر وزناتـــة، وأهـــداه إلى المستنصر أبي العباس، الذي تولَّى إمارة تونس من سنة (772 حتى 796هـــ). وكانـــت هـــذه النســـخة موجودة حتى عام (1858م)، فلمّا ترك تونس إلى مصر عكف على تهذيب الكتاب والزيادة عليه، زهـــاء عشرين سنة، فأضاف إليه الجزء الخاص بملوك العجم، وأقسامًا أخرى ألحقها بمواضعها، وأهدى هذه النسخة للسلطان برقوق؛ فنَحَلَه لقب: (ولي الدين)، (وفرغ منها سنة 797) وانتسخ منها نسخة وقفها على طلبة العلم في جامع القرويين بفاس[6].

ومن مؤلَّفاته الأخرى: شرح قصيدة البردة، تلخيص مجموعة من كتب ابن رشد، تلخيص محصّـــل الإمام فخر الدين الرازي، كتاب في الحساب، تعريف مفيد في المنطق، لباب المحصول في أصول الدين، شرح أرجوزة ابن الخطيب، شفاء السائل لتهذيب المسائل[7].

آراؤه ومنهجه العلمي والفكري

منهجه العلمي:

يقوم المنهج العلمي لابن خلدون على قاعدة أنَّ الواقع المادي هو موضـــوع العقـــل في ظـــواهره المختلفة؛ فعندما قام بتحليل وتفسير الفتوحات الإسلامية الكبرى خلال القرنين السابع والثامن اســـتند إلى

---

1 أرنولد جوزف توينبي (1889- 1975م): أستاذ الدراسات اليونانيَّة والبيزنطيَّة في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية؛ من أشهر مؤرخي القرن العشرين، أهم أعماله "موسوعة دراسة للتاريخ".

2 (تقي الدين) أحمد بن علي المقريزي (766- 845هـــ): شيخ المؤرخين المصريين، عاش زمن المماليك، من أشهر كتبه: السلوك لمعرفة دول الملوك، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار (المعروف بخطط المقريزي).

3 نقلاً عن: زهير ظاظا، شبكة الوراق: http://www.alwaraq.net

4 السابق نفسه.

5 انظر: محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام 1/68-71.

6 عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون.

7 عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص 54- 56.

مفاهيمه العلمية التي تختلف عن مفاهيم القديس أوغسطين الذي اعتبر أنَّ الأسباب العميقة لمجمل مظاهر الحضارة القديمة تكمن في نظرات العناية الإلهية.

ومنهج ابن خلدون يقتضي أن يلتمس لكل شيء عِلَله وأسبابه؛ ويقوده هذا الأمر إلى أن يرد سلسلة الأسباب والمسببات إلى عِلَّة أولى؛ وبذلك نبرهن على وجود الله، ويتضمن هذا -كما يقول ابن خلدون- الاعتراف بعجز الإنسان عن معرفة كل شيء معرفة عملية تجريبية، وعلى أن شعور الإنسان بجهله في مواضع معينة هو نفسه ضَرْبٌ من العلم بلغة ذلك العلاّمة الكبير.

أفكاره:

أشار باحثون عِدَّة في فكر ابن خلدون إلى ريادته في الإشارة إلى مسألتين مهمتين تنبَّه إليهما الفكر الحديث، وهما:

أولاً- أن القيمة الاقتصادية للسلعة يحددها الجهد الإنساني/ العمإلى المبذول فيها، وليس مجرد قيمتها المادية. وهي مسألة انبنى عليها الفكر الاجتماعي الحديث - الاشتراكي بخاصة - في دعوته إلى إنصاف العمال الذين يضيف جهدهم إلى قيمة السلعة، وهي قيمة يستفيد منها الرأسماليون عادة. والواقع أنه لم يصل إلى هذه الدعوة الصريحة لكنه اقترب كثيرًا من مضمونها الفكري1.

ثانيًا- أومأ ابن خلدون إلى شيء قريب من الفكرة القومية الجامعة، عندما تحدث عن ((دولة العرب))، ثم ((دولة الفرس))، ثم ((دولة الترك)) في سياق التاريخ الإسلامي. صحيح أنه بنى فكره في تفسير الاجتماع والتاريخ لدى العرب على ((العصبية القبلية)) - وهو واقع لا يستطيع أي مفكر حقيقي تجاهله - لكنه أشار أيضًا إلى أن تلك العصائب القبلية إذا تحالفت، خاصة في ظل ((دعوة دينية))، تستطيع أن تؤسس تحالفًا أوسع بينها يستند إلى حقيقة كونها منتمية إلى ((قوم)) متميز من الأقوام.

إلا أن أهمية ابن خلدون وطرافة فكره، وإن تمثّلت في إيماءات فكريّة تتخطى عصرها كالفكرة الاقتصادية، والفكرة القومية؛ فإنه كان محدّدًا وواضحًا في أفكار أخرى، ما زالت واقعًا لا يمكن إنكاره في حياتنا العربية الراهنة؛ ومن ذلك تحذيره من اشتغال رجال السلطة بالتجارة، ومنافستهم لأهل البلد وتجّاره، بما يؤدّي إلى عرقلة الاقتصاد وتدميره، وانعكاس ذلك وبالاً على الدولة نفسها في نهاية الأمر؛ يقول ابن خلدون: "إن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية"2.

كما لَخَّصَ رؤيته لآثار الاستبداد والتسلط بمقولته: "الظلم مُؤْذِنٌ بخراب العمران"، ونبه إلى أن كثرة العصبيات ينذر بزوال الدولة: "إن الأوطان الكثيرة العصائب، قلّ أن تستحكم فيها دولة".

---

1 محمد جابر الأنصاري: ابن خلدون وسيطًا بين العروبيين والإسلاميين، مجلة «العربي»: مارس 1983.

2 محمد جابر الأنصاري: الرومانسية جميلة.. لكنها تجهل حقيقة التاريخ والعالم، جريدة الوطن

وبالرغم من أنَّ عصر ابن خلدون كان عصرًا معاديًا للفلسفة في المجتمع الإسلامي، وهو ما ينعكس في الفصل الذي عنوانه: ((في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها))، فقد حوّل ابن خلدون عمل العقل من الانشغال بالميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) إلى إعماله في شئون المجتمع والتاريخ والعلم، أي إنزاله من السماء، فيما يتجاوزه من غيب، إلى واقع الأرض، وما فيها من شواهد ومشاهدة. ومن منطلق عقلانيته، انتقد السحر والطلسمات، وكتب في إبطال صناعة التنجيم وضعف مداركها، وفساد غايتها، وعرض لعلم المنطق بحياد موضوعي و لم يهاجمه، كما أنّ نقده للفلسفة الميتافيزيقية لم يصل لديه إلى حَدِّ تحريمها، وإنما اكتفى بتنبيه من يريد الاطلاع عليها إلى الإلمام بعلوم "الملة" من فقه وشرعيات1.

إن التصالح الذي أقامه ابن خلدون بين نظرته المادية ونظرته الإيمانية شمل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية؛ فقد حاول بكل قواه إظهار التكامل بين ما هو رُوحي وما هو مادي، بين ما هو طبيعي وما هو اجتماعي، بين ما تقتضيه طبائع العمران، وبين ما تقرره المشيئة الإلهية.

ثناء العلماء عليه

قال إيف لاكوست عن مؤلَّف ابن خلدون (المقدمة): "التحليل والتأليف والبحوث التي حققها هذا المغربي العبقري في القرن الرابع عشر تساعدنا اليوم على إجادة فهم القضية التي هي بلا ريب أوسع القضايا وأشدّها مأساوية في عصرنا؛ ألا وهي التخلف"2.

وقال كارّا دو فو: "إنَّ نزعة الاهتمام بالبحث في تاريخ النشوء والتطور تضع ابن خلدون في مصافِّ أرقى العقليات في أوربا الحالية"3.

ووصف كثير من الكتاب الغربيين سرد ابن خلدون للتاريخ بأنه أول سرد علمي منهجي للتاريخ4، وهذا تقدير كبير عندهم.

دراسات عن ابن خلدون

كُتب عن ابن خلدون وفكره ومنهجه ونظرياته العمرانية والاجتماعية وغيرها، مئات الكتب، منها:

العمران البشري في مقدمة ابن خلدون: سفتيلانا باتسييفا.

---

1 نقلاً عن: محمد جابر الأنصاري: «مراجعات في الفكر القومي»، كتاب العربي رقم 57 بتاريخ 15 يوليو 2004م.

2 ايف لاكوست: العلامة ابن خلدون ص248.

3 عمر فاروق الطباع: ابن خلدون، المقدمة.

4 نقلاً عن: زهير ظاظا، شبكة الوراق: http://www.alwaraq.net

العلامة ابن خلدون: إيف لاكوست.

السياسة والدين عند ابن خلدون: جورج لابيكا.

فلسفه ابن خلدون الاجتماعية – تحليل ونقد: طه حسين.

النظرية الإسلامية لابن خلدون دراسة مقارنة: محمد محمود ربيع.

الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون و نظرياته: مصطفى الشكعة.

ابن خلدون إسلاميًا: عماد الدين خليل.

وفاته

تُوُفِّي ابن خلدون بمصر سنة (808هـ= 1406م)، عن عمر يناهز (78)[1]، ودفن في مقابر الصوفية عند باب النصر شمال القاهرة؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

1 عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص 51.

المبحث السادس: دور العلم في حياة الإمام السيوطي

[849هـ - 911هـ = 1445 - 1505م]

ميلاده ونشأته

هو "أبو الفضل" عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. وُلِدَ بأسيوط في سبتمبر 1445م، لأسرة اشتُهِرَت بالعلم والتدين، وكان أبوه من العلماء الصالحين ذوي المكانة العلمية الرفيعة.

نشأ يتيمًا؛ إذ تُوفي أبوه وله ست سنوات، وأَتَمَّ حفظ القرآن الكريم وهو دون الثامنة، ثم حفظ بعض الكتب في تلك السن المبكرة مثل: العُمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك، فاتسعت مداركه وزادت معارفه، وكان محل العناية والرعاية من عدد من العلماء من رفاق أبيه، وتولّى بعضهم أمر الوصاية عليه، ومنهم "الكمال بن الهمام الحنفي"1 أحد كبار فقهاء عصره، الذي تأثّر به السيوطي تأثرًا كبيرًا خاصة في ابتعاده عن السلاطين وأرباب الدولة2.

شيوخه

عاش السيوطي في عصرٍ كَثُرَ فيه العلماء الأعلام ؛ فتأثر السيوطي بهذه النخبة، فابتدأ في طلب العلم سنة [864 هـ= 1459م]، ودرس الفقه والنحو والفرائض، ولم يمضِ عامان حتى أُجِيز بتدريس العربية، وألَّف في تلك السنة أول كتبه "شرح الاستعاذة والبسملة" وهو في سن السابعة عشرة، فأثنى عليه شيخه "علم الدين البلقيني".

وللسيوطي نحو ست مئة شيخ3؛ من أبرزهم: الحافظ ابن حجر، شمس الدين القياتي، الشيخ باكير، جلال الدين المحلي الشافعي، محمد الجيلاني4.

---

1 الكمال بن الهمام الحنفي (790- 861هـ): هو محمد بن عبد الواحد الكمال بن همام الدين، اشتهر بالكمال ابن الهمام، ولد بالإسكندرية، أحد أقطاب المذهب الحنفي، وإذا أطلق الحنفية كلمة "المحقق" عنوه بها.

2 مصطفى عاشور: السيوطي صاحب الـ7علوم، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

3 إياد الطباع: جلال الدين السيوطي ص47.

4 إياد الطباع: جلال الدين السيوطي ص 32.

تلاميذه

وتلاميذ السيوطي من الكثرة والنجابة بمكان، وأبرزهم "شمس الدين الداودي" صاحب كتاب "طبقات المفسرين" الذي كتبه بمساعدة أستاذه "السيوطي" ، و"شمس الدين بن طولون"، و"شمس الدين الشامي" محدِّث الديار المصرية، والمؤرِّخ الكبير "ابن إياس" صاحب كتاب "بدائع الزهور"1.

ومنهم كذلك قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة الشافعي، وقاضي القضاة نور الدين ابن أبي إليمن المالكي، ونور الدين السنهوري شيخ مالكية عصره، وفخر الدين المقسي فقيه الشافعية، ومحب الدين بن مصيفح، وزين الدين عبد القادر بن شعبان2.

رحلاته

سافر السيوطي لطلب العلم إلى الفيوم ودمياط والمحلة وبلاد الشام وإليمن والهند والمغرب3 والتكرور (تشاد حاليا)، ورحل إلى الحجاز سنة (869هـ)4 وجاور بها سنة كاملة، وشرب من ماء زمزم ليصل في الفقه إلى رتبة سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني5.

اعتزال الحياة العامة والسلاطين

عاصر السيوطي ثلاثةَ عشرَ سلطانًا مملوكيًا، إلا أن علاقته بهم كانت متحفظة، وطابعها العام المقاطعة، وإن كان ثمة لقاء بينه وبينهم، وضع نفسه في مكانته التي يستحقها، وسلك معهم سلوك العلماء الأتقياء، فإذا لم يقع سلوكه منهم موقع الرضا قاطعهم وتجاهلهم، وكان بعض الأمراء يأتون لزيارته، ويقدمون له الأموال والهدايا النفيسة فيردها، ورفض مرات عديدة دعوة السلطان لمقابلته، وألَّف في ذلك كتابًا أسماه "ما وراء الأساطين في عدم التردد على السلاطين".

وقد أعانه على كثرة تأليفه انقطاعه التام للعمل وهو في سن الأربعين حتى وفاته، وثراء مكتبته وغزارة علمه وكثرة شيوخه ورحلاته، وسرعة كتابته، فقد اتسع عمره التأليفي إلى خمسٍ وأربعين سنة، حيث بدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره، وانقطع له اثنين وعشرين عامًا متواصلة، ولو وُزِّع عمره على الأوراق التي كتبها لأصاب اليومُ الواحد أربعين ورقة، وقد تمنَّى أن يكون إمام المائة التاسعة من الهجرة،

---

1 مصطفى عاشور: السيوطي صاحب الـ7علوم، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

2 إياد الطباع: جلال الدين السيوطي ص 33.

3 محمد سعيد مرسي: عظماء الإسلام عبر أربعة عشر قرنًا من الزمان ص 344.

4 إياد الطباع: جلال الدين السيوطي ص41.

5 مصطفى عاشور: السيوطي صاحب الـ7علوم، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

فيقول: "إني ترجَّيت من نعم الله وفضله أن أكون المبعوث على هذه المائة، لانفرادي عليها بالتبحُّر في أنواع العلوم"[1].

إسهاماته العلمية

عطاء علمي نادر:

إنَّ ما أنجزه السيوطي ~ من مؤلفات تعجز اليوم عن إنجازه مؤسسات ومراكز بحوث، رغم مـــا يتوافر لها عادة من مال ورجال وعلماء، ومصادر معلومات من الكتب والمراجع والحواسب ونحوها.

ولا شك أن توفيق الله كان فوق الأسباب جميعها التي هيأت للسيوطي تـــأليف هـــذه الكتـــب، بالإضافة إلى تبحره في العديد من العلوم؛ يقول السيوطي عن نفسه: "رُزِقتُ التبحُّرَ في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع"[2]، بالإضافة إلى أصول الفقه والجدل، والقراءات التي تعلَّمها بنفسه، والطب.

وأهم أسباب هذا العطاء العلمي النادر[3]:

طموح السيوطي، ورغبته بالتفوق، والتصدر في ساحة الحياة، كما كان لبُعده عن الحياة العامـــة، والمجاملات الاجتماعية الفارغة التي لا تليق بأهل العلم دور كبير.

وكثرة المصادر بين يديه، فقد ترك له أبوه مكتبة زاخرة بالمصنفات، وكان يتردد منذ صغره على المدرسة المحمودية، وبها مكتبة كبيرة من أنفس الكتب الموجودة في القاهرة، كما أنَّ أسلوبه في التأليف قـــد مكَّنه من ذلك؛ فهو قد يختار مسألة من مسائل العلم، ولو صغيرة، فيفردها في رسالة مستقلة.

وقد تميز السيوطي ~ بالموسوعية، وجمع الأقوال والنُّقول في المسألة الواحدة، بحيث يُشَعِّبها تحريرًا، سواء كان الموضوع مخترَعًا أم مجموعًا.

منهجه في التأليف:

للسيوطي ~ منهج في التأليف، يمكن إيراده على الوجه التالي:

أمانته في النقل، فهو يلتزم بعزو كل قولٍ إلى مَن قاله، كما يتبين من مؤلفاته العديدة.

---

1 مصطفى عاشور: السيوطي صاحب الـ7علوم، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

2 مصطفى عاشور: السيوطي صاحب الـ7علوم، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

3 سعدي أبو جيب: حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد ص47.

نقله عن كتبٍ اندثرت الآن؛ مما ساعد على حفظ نصوصها لنا.

ذكره الأقوال المختلفة في الموضوع، مسندها إلى من قالها، ومناقشة الأدلة، وبيـــان ترجيحـــه، أو توقفه عن الترجيح.

مؤلَّفاته

ذكر السيوطي في مؤلَّفَيْه "حُسْنُ المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، و"التحدُّث بنعمة الله" — وهو ترجمة ذاتيه للسيوطي –؛ ذكر قائمة تضم عناوين مؤلفاته، كما ورد في فهرس مؤلفات السيوطي، وبهجـــة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين، وغيرها.. ما يصل بعدد كتبه إلى (1194) عنوانًا، طبع منـــها (331) عنوانًا، وما يزال (431) عنوانًا مخطوطًا، والمفقود هو (432) عنوانًا[1].

ولتنوع معارف السيوطي؛ نجده يُصَنِّفُ في كل الفنون، فقد صَنَّف في التاريخ، وعلـــوم القـــرآن، والتفسير، والحديث وعلومه، والفقه، واللغة، والطبقات..

فمن أمثلة ما صنَّف في التاريخ:

"حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، و"تحفة المذاكر في المنتقى في تـــاريخ ابـــن عســـاكر"، و"التحفة الظريفة في السيرة الشريفة"، و"تاريخ الخلفاء".

وفي الطبقات:

ألَّف أكثر من (55) كتابًا ورسالة يأتي في مقدمتها: "عين الإصابة في معرفة الصحابة"، و"بُغيـــة الوعاة في طبقات النحاة".

ومما صَنَّف في علوم القرآن:

"الإتقان في علوم القرآن" وقد جمع فيه ثمانين نوعًا من علوم القرآن، وما زال هذا الكتاب عمـــدة الدراسات القرآنية، و"التحبير في علوم التفسير"، و"متشابه القرآن"، و"الإكليـــل في اســـتنباط التنزيـــل"، و"طبقات المفسرين"، و"الألفية في القراءات العشر"، "الناسخ والمنسوخ في القرآن"، وغير ذلك كثير..

وفي تفسير القرآن :

---

1 إياد الطباع: الإمام السيوطي ص312،313.

"الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور"، والتفسير المسند المسمي "ترجمان القرآن"، و"تفسير الجلالين"؛ الذي ابتدأ جلال الدين المحلي من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة وبعد إتمامها مات المحلي، فأتم السيوطي ما ابتدأه شيخه منتهجًا نفس منهجه.

وفي الحديث وعلومه:

كان يحفظ مائتي ألف حديث كما روى عن نفسه، وكان مغرمًا بجمع الحديث واستقصائه؛ لذلك ألَّف عشراتِ الكتب في هذا المجال؛ ومن كتبه: "إسعاف المبطأ في رجال الموطأ"، و"تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك"، و"جمع الجوامع"، و"الدُّرَر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة"، و"المنتقى من شعب الإيمان للبيهقي"، و"أسماء المدلسين"، و"آداب الفتيا"، و"طبقات الحفاظ".

وفي الفقه:

"الحاوي في الفتاوى"، و"الجامع في الفرائض"..

ومن كتبه في اللغة وعلومها:

"المزهر في اللغة"، و"الأشباه والنظائر في اللغة"، و"الاقتراح في النحو"، و"التوشيح على التوضيح"، و"المهذب فيما ورد في القرآن من المعَرَّب"، و"البهجة المرضية في شرح ألفية ابن مالك"، وفي ميدان البديع كان له: "عقود الجمّان في علم المعاني والبيان"، وغيره..

خصائص مؤلَّفاته

1- ضمُّ مؤلفاته لعدد من عناوين كتبه مثل كتابه "الحاوي للفتاوى" الذي يضم نحو سبعين رسالة له.

2- تنوُّع موضوعات كتبه في الفنون المختلفة.

3- اختلاف حجم كتبه ما بين الورقة الواحدة والمجلدات الكبيرة.

مناصبه

الإفتاء:

تصدى السيوطي للإفتاء من سنة (871هـ) وعمره اثنان وعشرون عامًا، على مذهب الإمام الشافعي، واستمر في الفُتيا إلى أن اعتزل التدريس، وعمره قد قارب الأربعين، وبيَّن عذره في ذلك في "المقامة اللؤلؤية"[1].

التدريس:

بدأ التدريس من شوال سنة (870هـ)، وما مرَّ عام حتى لزمه الفضلاء والكبراء، ومنهم الشيخ بدر الدين حسن القيمري أحد علماء الفرائض، وأحد المشاركين في الفقه والعربية، فلزمه عشر سنين، ومنهم الشيخ سراج الدين الأنصاري؛ شيخ القرَّاء، الذي لزمه نحو عشرين سنة2.

وبدأ إملاء الحديث الشريف، مستهل سنة (872هـ)، بعد موت الحافظ ابن حجر العسقلاني[3].

القضاء:

تقلَّد القضاء في عهد المتوكل العباسي سنة (902هـ)[4].

مشيخة الخانقاه:

تولاها سنة (891هـ) بعد وفاة الشيخ جلال الدين البكري، واستمر في هذا المنصب حتى سنة (906هـ)؛ حين عزله طومان باي[5].

دراسات عن السيوطي

إسهام السيوطي بالإفتاء: د. محمد الزحيلي.

الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وجهوده في الحديث وعلومه: د. بديع السيد اللحام.

الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن: محمد يوسف الشربجي (رسالة دكتوراه).

الإمام السيوطي وفن السيرة الذاتية: د. عبد الإله نبهان.

جلال الدين السيوطي: منهجه وآراؤه الكلامية، د. محمد جلال أبو الفتوح.

---

1 طبعت ضمن شرح المقامات 2/ 996.

2 إياد الطباع: الإمام السيوطي ص 427.

3 السيوطي: التحدث بنعمة الله (مخطوط).

4 عبد القادر الشاذلي: بهجة العابدين (مخطوط).

5 الشعراني: الطبقات الصغرى ص 34، 35.

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ومنهجه في الكتابة التاريخية: د. محمد عبد الوهاب فضل.

دور الإمام السيوطي في إحياء حركة الاجتهاد الفقهي: د. محمد الدسوقي.

جلال الدين السيوطي: مصطفي الشكعة.

وفاته

تُوُفِّي السيوطي ~ في (19 من جمادى الأولى 911هـ= 20 من أكتوبر 1505 م)[1] بعد حياةٍ حافلة بالعلم والتعليم؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

1 نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة.

الفصل الثاني: دور العلم في حياة علماء الحياة القدامى

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة جابر بن حيان

المبحث الثاني: دور العلم في حياة الخوارزمي

المبحث الثالث: دور العلم في حياة الرازي

المبحث الرابع: دور العلم في حياة الإصطخري

المبحث الخامس: دور العلم في حياة البيروني

المبحث السادس: دور العلم في حياة ابن النفيس

المبحث الأول: دور العلم في حياة جابر بن حيان

جابر بن حيّان.. مؤسس علم الكيمياء

وصفه ابن خلدون في مقدمته وهو بصدد الحديث عن علم الكيمياء فقال: "إمام المدونين فيها جابر بن حيان، حتى إنهم يخصونها به فيسمونها: "علم جابر"، وله فيها سبعون رسالة"[1].

إنه أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي، نسبة إلى قبيلة أزد إليمنية التي هاجر البعض منها إلى الكوفة بعد انهيار سد مأرب. وُلِدَ في (طوس) واستقرَّ في بغداد بعد قيام الدولة العباسية، وتوثقت علاقته بأسرة البرامكة الفارسية، وامتدت حياته ما بين (103 - 200هـ / 721 – 815م)[2].

يُعَد مؤسس علم الكيمياء التجريبي؛ فهو أول من استخلص معلوماته الكيميائية من خلال التجارب والاستقراء والاستنتاج العلمي، وكان غزير الإنتاج والاكتشافات، حتى إن الكيمياء اقترنت باسمه فقالوا: "كيمياء جابر"، و"الكيمياء لجابر"، وكذلك: "صنعة جابر". كما أُطلق عليه أيضًا: "شيخ الكيميائيين" و"أبو الكيمياء".

فقبل جابر كان هناك مجموعة من المهن البدائية القديمة، وقد اختلطت مع كثير من الحرف، كالتحنيط (في مصر القديمة) والدِّباغة، والصباغة والتعدين واستخلاص الزيوت، لكن جابر بن حيان استطاع أن يطوِّر الكيمياء ويرفعها من تلك المنزلة البدائية التي كانت عليها إلى منزلة عالية، وذلك بإضافته للكثير من المعارف النظرية والعلمية، وإرسائه أسسَ وأصولَ تحضير المواد الكيميائية والتعامل معها؛ لذلك يُعتَبَر ابنُ حيان شيخ الكيميائيين بلا منازع[3].

بداية الكيمياء والمنهج العلمي عند جابر

بدأت الكيمياء خرافية تستند على الأساطير البالية، حيث سيطرت فكرة تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة؛ وذلك لأن العلماء في حضارات ما قبل الإسلام كانوا يعتقدون أن المعادن المنطرقة مثل الذهب والفضة والنحاس والحديث والرصاص والقصدير من نوع واحد، وأن تباينها نابع من الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة الكامنة فيها، وهي أعراض متغيرة (نسبة إلى نظرية العناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب)؛ لذا يمكن تحويل هذه المعادن من بعضها البعض بواسطة مادة ثالثة وهي الإكسير. ومن هذا المنطلق تخيل بعض علماء الحضارات السابقة للحضارة الإسلامية أنه بالإمكان ابتكار إكسير الحياة أو حجر

---

1 مقدمة ابن خلدون 322/1.

2 راجع ابن النديم: الفهرست ص 420، الزِّركلي: الأعلام 2/ 103، محمد علي عثمان: مسلمون علّموا العالم ص64، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص17.

3 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 17.

الحكمة الذي يزيل علل الحياة ويطيل العمر[1]، وهذا ما كان يُسَمَّى بعلم الخيمياء.

وقد تأثَّر بعض العلماء العرب والمسلمين الأوائل كجابر بن حيان وأبي بكر الرازي بنظرية العناصر الأربعة التي ورثها علماء العرب والمسلمين عن اليونان، لكنهما قاما بدراسة علمية دقيقة لها؛ أدَّت هذه الدراسة إلى وضع وتطبيق المنهج العلمي التجريبي في حقل العلوم التجريبية.

وعن هذا المنهج التجريبي كان يقول جابر: "ومِلاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة؛ فمن لم يعمل و لم يجرِّب لم يظفر بشيء أبدًا"[2].

وفي كتاب الخواص الكبير المقالة الأولى يقول: "إننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحنّاه وجرَّبناه، فما صحَّ أوردناه، وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضًا قايسناه على أحوال هؤلاء القوم"[3].

ولذلك يُعَد جابر أول من أدخل التجربة العلمية المخبرية في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، وكان أحيانًا ما يُسمي التجربة بالتدريب، فكان يقول: "فمن كان دَرِبًا كان عالمًا حقًا، ومن لم يكن دَرِبًا لم يكن عالمًا، وحسبُك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدَّرِب يحذق، وغير الدَّرِب يعطل"[4]!!

وعليه قطع جابر خطوة أبعد مما قطع اليونان في وضع التجربة أساس العمل لا اعتمادًا على التأمل الساكن.

لقد كانت أعمال جابر القائمة على التجربة المعملية أهم محاولة جادة قامت آنذاك لدراسة الطبيعة دراسة علمية دقيقة؛ فهو أول من بشَّر بالمنهج التجريبي المخبري، وتكاد الإجراءات التي كان يتبعها في أبحاثه تطابق ما يقوم به المشتغلون بالمنهج العلمي اليوم؛ وتتلخص إجراءاته في خطوات ثلاث:

الأولى- أن يأتي الكيميائي بفرض يفرضه من خلال مشاهداته، وذلك حتى يفسر الظاهرة التي يريد تفسيرها.

الثانية- أن يستنبط مما افترضه نتائج تترتب عليه نظريًا.

الثالثة- أن يعود بهذه النتائج إلى الطبيعة ليتثبت ما إذا كانت ستصدق على مشاهداته الجديدة أم لا؛ فإن صدقت تحولت الفرضية إلى قانون علمي يُعوَّل عليه في التنبؤ بما يمكن أن يحدث في الطبيعة إذا

1 انظر علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص 274، وانظر في الموضوع أيضًا: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي - القاهرة ص 268، 269 .

2 جابر بن حيان: كتاب التجريد، ضمن مجموعة حققها ونشرها هولميارد بعنوان: مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان، باريس 1928م.

3 جابر بن حيان: كتاب الخواص الكبير ص 232، ضمن مجموعة كراوس.

4 جابر بن حيان: كتاب السبعين ص 464، ضمن مجموعة كراوس.

توافرت ظروف بعينها1.

ولقد اهتم هولميارد Holmyard بأعمال جابر ومنهجه العلمي ومؤلفاته، وعكف على إبراز القيمة العلمية لعمله، وتراه بعد ذلك يقول: "إن الصنعة الخاصة عند جابر هي أنه قد عرف وأكَّد على أهمية التجريب بشكل أوضح من كل من سبقه من الخيميائيين2".

جابر بن حيان.. أوَّليات وإنجازات

قام جابر بإجراء كثير من العمليات المخبرية، كان بعضها معروفًا من قبلُ فطوَّره، وأدخل عملياتٍ جديدة. ومن الوسائل التي استخدمها: التّبخُّر، والتقطير3، والتبلُّر4، والتسامي5، والترشيح6، والصَّهر، والتكثيف، والإذابة، ودرس خواص بعض المواد دراسة دقيقة؛ فتعرف على أيون الفضة النشادري المعقد7.

كما قام بتحضير عدد كبير من المواد الكيميائية، فهو أول من حضَّر حمض الكبريتيك بالتقطير من الشَّب، وحضَّر أكسيد الزئبق، وحمض النتريك؛ أي ماء الفضة، وكان يسميه الماء المحلل أو ماء النار، وحضر حمض الكلوريدريك المسمَّى بروح الملح، وهو أول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استخرج نترات الفضة وقد سمّاها حجر جهنم، وثاني كلوريد الزئبق (السليماني)، وحمض النتروهيدروكلوريك (الماء الملكي)، وسُمِّي كذلك لأنه يذيب الذهب ملك المعادن.

وهو أول من لاحظ رواسب كلوريد الفضة عند إضافة ملح الطعام إلى نترات الفضة، كما استخدم الشب في تثبيت الأصباغ في الأقمشة، وحضَّر بعض المواد التي تمنع الثياب من البلل؛ وهذه المواد هي أملاح الألومنيوم المشتقة من الأحماض العضوية ذات الأجزاء الهيدروكربونية، ومن استنتاجاته أن اللهب يُكسِب النحاس اللون الأزرق، بينما يكسب النحاس اللهب لونًا أخضر. وهو أول من فصل الذهب عن الفضة بالحل بوساطة الحمض، وشرح بالتفصيل عملية تحضير الزرنيخ، وتنقية المعادن، وصبغ الأقمشة[8].

ويُعزَى إليه أنه أولُ من استعمل الميزان الحساس والأوزان متناهية الدقة في تجاربه المخبرية؛ وقد وزن مقادير يقل وزنها عن 100/1 من الرطل، ويُنسَب إليه تحضير مركبات كل من كربونات البوتاسيوم والصوديوم والرصاص القاعدي والإثمد (الأنتيمون)، كما استخدم ثاني أكسيد المنجنيز لإزالة الألوان في

---

1 انظر حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص266 – جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص 278، 279 - أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 17.

2 عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص251.

3 هو فصل الجسم المراد تحضيره بتصعيده إلى بخار ثم تكثيفه إلى سائل.

4 هو فصل البلورات من ماء البحر المالح والحالات المشابهة.

5 هو فصل الجسم الطيار بتسخينه حيث يتكاثف بخاره إلى مادة صلبة دون المرور على الحالة السائلة.

6 تمكَّن بواسطة منخل أو قطعة قماش أن يرشح كثيرًا من المواد.

7 انظر حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص266، جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص280، 281.

8 انظر في ذلك: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص281.

صناعة الزجاج، كما بلور جابر النظرية التي مفادها أن الاتحاد الكيميائي يتم باتصال ذرات العناصر المتفاعلة مع بعضها، ومثَّل على ذلك بكلٍّ من الزئبق والكبريت عندما يتحدان ويكونان مادة جديدة. وقد كان يجري معظم تجاربه في مختبر خاص اكتُشِف في أنقاض مدينة الكوفة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي[1].

مؤلَّفات جابر

في مجمل مصنفاته يقول لوبون G. Lebon: "تتألف من كتب جابر موسوعة علمية تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره، وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيميائية كانت مجهوله قبله"[2].

فقد كان لجابر بن حيان العديد من المؤلفات العلمية، والتي تأثر بها الغرب ونقل عنها، حتى قرر ابن النديم أن له 306 كتابًا في الكيمياء بأسلوبه الخاص في أنحاء العالم، ورغم أن معظمها قد فُقِد، إلا أنه يوجد منها الآن ثمانون كتابًا محفوظًا في مكتبات الشرق والغرب، وقد تَرْجم معظمَ كتبه إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي روبرت الشستري (ت 539هـ / 1144م) وجيرار الكريموني (ت 583هـ / 1187م) وغيرهما، ومثّلت مصنفاته المترجمة الركيزة التي انطلق منها علم الكيمياء الحديث في العالم[3].

ويُعَدُّ كتاب (السموم ودفع مضارها) أشهر مؤلفات جابر ويقع في خمسة فصول، وفيه قسَّم السموم إلى حيوانية ونباتية وحجرية، وذكر الأدوية المضادة لها وتفاعلها في الجسم، وهذا الكتاب يعتبر همزة وصل بين الطب والكيمياء.

ومن أشهر كتبه أيضًا كتابه (الخواص الكبير)، ونسخته الأصلية موجودة في المتحف البريطاني.

وله أيضًا كتاب (التدابير)، وتعني العمل القائم على التجربة، وكتاب (الموازين)، وكتاب (الحديد) وفيه يصف جابر عملية استخراج الحديد الصلب من خاماته الأولى، كما يصف كيفية صنع الفولاذ بوساطة الصهر بالبواتق. ومن كتبه كذلك (نهاية الإتقان) وهو مؤلف رائد في الكيمياء، ورسالة (في الأفران).

وله أيضًا رسائل عن المرايا، كما ألَّف كتاب (السبعين) والذي يشمل سبعين مقالة حول أهم تجاربه في الكيمياء والنتائج التي توصل إليها، ويمكن اعتباره خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب

---

1 راجع في إنجازات جابر: الأعلام 104/2، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص17، علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص275، عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص105، 106- الموسوعة العربية العالمية على شبكة الإنترنت، الرابط:

http://www.mawsoah.net/gae_portal/maogen.asp?main2&articleid=!
جابر%20بن%20حيان!329556_

2 جوستاف لوبون: حضارة العرب ص 25.

3 راجع ابن النديم: الفهرست ص420، الأعلام 2/ 103، محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص64، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 17.

في عصره.

وله كذلك كتاب (الرحمة) ألَّفه في الخيمياء وتطرق فيه إلى إمكانية تحويـــل المعـــادن إلى ذهـــب، وكتاب (الجمل العشرون) و(أسرار الكيمياء) (وأصول الكيمياء)، وهذا غير مؤلفات أخرى في الرياضيات والفلسفة والشعر، وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية مثل كتاب السبعين وكتاب الرحمة، وهناك كتب له باللاتينية لم يتم العثور على أصولها العربية، مثل: (البحث عن الكمال) و(كتاب العهد) و(كتاب الأتون)[1].

ولقد تُرجِمت كتب جابر إلى اللاتينية، وظلَّت المرجع الأوفى للكيمياء زهاء ألف عام، وكانـــت مؤلفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثال: كوب، وبرثوليه، وكراوس، وهولميارد الـــذي أنصـــفه ووضعه في القمة، وبدَّد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون. وأيضًا سارتون الذي أرَّخ به حقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلامية، يقول: "ما قدَّر جابر أن الكتب التي ألَّفها لا يمكن أن تكون من وضـــع رجل عاش في القرن الثاني للهجرة لكثرتها ووفرة ما بها من معلومات"[2].

1 انظر في مؤلفاته: ابن النديم: الفهرست ص421 وما بعدها، الزركلي: الأعلام 2/ 103، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 17، رحاب خضر عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام 29/4 وما بعدها .

2 انظر عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص 106.

المبحث الثاني: دور العلم في حياة الخوارزمي

"إذا انتقلنا إلى الرياضيات والفلك فسنلتقي منذ البدء بعلماء من الطراز الأول، ومن أشهر هؤلاء العلماء **أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي**"!!

ليست تلك المقولة من تعبيري، وإنما هي لأحد المستشرقين الذين عُنُوا بعلوم المسلمين، وعرفوا فضل إسهاماتهم، وهو المستشرق "ألدو ميلي".

فالخوارزمي الرياضي والجغرافي والفلكي يُعَدُّ من أكبر علماء المسلمين، ومن العلماء العالميين الذين كان لهم تأثير كبير على العلوم الرياضية والفلكية. وهو مؤسس ومبتدع علم الجبر كعلمٍ مستقلٍّ عن الحساب، وقد أخذه الأوربيون عنه، كما أنَّه أول من استعمل كلمة "جبر" للعلم المعروف الآن بهذا الاسم، فحتى الآن ما زال الجبر يعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية، وترجع كل الكلمات التي تنتهي في اللغات الأوربية بـ "algorism/algorithme" إلى اسم الخوارزمي، كما يرجع إليه الفضل في تعريف الناس بالأرقام العربية؛ ولهذا كان الخوارزمي أهلاً لتسميته بأبي الجبر[1].

وتعود أصول الخوارزمي إلى خوارزم (أوزبكستان اليوم)، وعاش في بغداد فيما بين سنة 164 وسنة 235 هجرية (الموافق 780 - 850 ميلادية) وتُوُفِّي هناك. وبرز في زمن خلافة المأمون (مدة خلافته من 198 - 218هـ)، ولمع في علم الرياضيات والفلك.

لما كان والد المأمون (الخليفة هارون الرشيد) يريد توطيد العلم في أنحاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف، فقد سار على دربه ابنه (المأمون) وأسَّس **بيت الحكمة**، والذي كان يحتوي على مكتبة تضم نصوصًا مترجمة لأهم الكتب اللاتينية، ثم عيَّن الخوارزمي رئيسًا له، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، الأمر الذي أفاد الخوارزمي كثيرًا؛ حيث درس الرياضيات، والجغرافيا، والفلك، والتاريخ، إضافةً إلى إحاطته بالمعارف اليونانية والهندية، حتى كان نبوغه في حدود سنة 205 هجرية[2].

وقد حدثت تغييرات عديدة في اسمه عند الغربيين بعد وفاته، حيث عُرِف بـ (alchwarizmi) و(al-karismi) و(algoritmi) و(algorismi) و(algorism) وقد أصبحت الكلمة الأخيرة (algorism) تعني الحساب في اللغة الإنجليزية الحديثة[3].

---

1 راجع محمد علي عثمان: مسلمون علَّموا العالم ص74، 75 – أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص20.

2 انظر ابن النديم: الفهرست ص333، إليان سيركيس: معجم المطبوعات 841/1، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص20، علي عبد الله الدَّفَّاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص 148.

3 انظر علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية – الرياض، العدد الخامس، الإصدار من المحرم إلى الثانية لسنة 1400هـ 173/5، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص20.

الخوارزمي وعلم الجبر

كلمة جبر تعبير استخدمه (الخوارزمي) من أجل حَلِّ المعادلات بعد تكوينها، ومعناه أن طرفًا من طرفي المعادلة يكمل ويزداد على الآخر وهو الجبر، والأجناس المتجانسة في الطرفين تسقط منها، وهو المقابلة أي أنَّ: ب س + ج= أ س2 + 2ب س- جـ

تصبح بعد الجبر ب س+ 2جـ= أ س2+ 2ب س.

وتصبح بالمقابلة 2جـ= أ س2+ ب س.

واسم الجبر في جميع لغات العالم مشتق من الكلمة العربية (الجبر)، وهي التي استخدمها (الخوارزمي) في كتابه (الجبر والمقابلة) كما سيأتي الحديث عنه.

وقد اشتغل المسلمون بالجبر واستعملوه حتى نبغوا فيه، بينما كان بمثابة الألغاز بالنسبة للأوربيين؛ يقول الدكتور ديفيد يوجين سميث في كتابه (تاريخ الرياضيات – المجلد الثاني): "إنَّ الجبر عُرِفَ في اللغة الإنجليزية في القرن السادس عشر الميلادي بالجبر والمقابلة، ولكنَّ هذا الاسم اختُصِرَ في النهاية من مخطوطة محمد بن موسى الخوارزمي الذي نال الشهرة العظيمة عام 825م، وذلك في بيت الحكمة في بغداد حيث ألَّف هناك كتابه القيم "الجبر والمقابلة"، وفيه حلَّ الكثير من المعادلات ذات الدرجة الأولى والثانية من ذات المجهول الواحد".

واعترف رام لاندو في كتابه (مآثر العرب في الحضارة) بأنَّ الخوارزمي "ابتكر علم الجبر، ونقل العدد من صفة البدائية الحسابية لكمية محدودة إلى عنصر ذي علاقة وحدود لا نهاية لها من الاحتمالات، ويمكننا القول بأن الخطوة من الحساب إلى الجبر هي في جوهرها الخطوة من الكينونة إلى الملائمة، أو من العالم الإغريقي الساكن إلى العالم الإسلامي المتحرك الأبدي الرباني"[1].

وقد طوَّر الخوارزمي علم الجبر كعلمٍ مستقل عن الحساب؛ ولذا ينسب إليه هذا العلم في جميع أنحاء المعمورة، فقد ابتكر الخوارزمي في بيت الحكمة الفكر الرياضي بإيجاد نظام لتحليل كل معادلات الدرجة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطرق جبرية وهندسية[2].

ولذا فقد سمَّى جورج سارتون في كتابه (مقدمة من تاريخ العلوم) النصف الأول من القرن التاسع بـ "عصر الخوارزمي"؛ وذلك لأن الخوارزمي كان أعظم رياضيٍّ في ذلك العصر على حَدِّ تعبير سارتون،

1 انظر علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية – الرياض، العدد الخامس، الإصدار من المحرم إلى الثانية لسنة 1400هـ 173/5.

2 انظر كرم حلمي فرحات أحمد: التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجري ص642، 643، وانظر أيضًا المصدر السابق: ص172.

ويستطرد سارتون فيقول: "وإذا أخذنا جميع الحالات بعين الاعتبار فإنَّ الخوارزمي أحد أعظم الرياضيين في كل العصور".

وإضافة إلى ذلك أكَّد الدكتور أي وايدمان أن أعمال الخوارزمي تتميز بالأصالة والأهمية العظمى وفيها تظهر عبقريته، كما قال الدكتور ديفيد بوجين سميث ولويس شارلز كاربينسكي في كتابهما (الأعداد الهندية والعربية): "إنَّ الخوارزمي هو الأستاذ الكبير في عصر بغداد الذهبي؛ إذ إنه أحد الكُتَّاب المسلمين الأوائل الذين جمعوا الرياضيات الكلاسيكية من الشرق والغرب، محتفظين بها حتى استفادت منها أوروبا المتيقظة آنذاك. إنَّ لهذا الرجل معرفةً كبيرة، ويدين له العالم بمعرفتنا الحالية لعلمي الجبر والحساب"[1].

وقد وجد الخوارزمي متسعًا من الوقت لكتابة علم الجبر حينما كان منهمكًا في الأعمال الفلكية في بغداد، ويختص كتابه "الجبر والمقابلة" بإيجاد حلول لمسائل عملية واجهها المسلمون في حياتهم اليومية[2].

إنَّ الرياضيات التي ورثها المسلمون عن اليونان تجعل حساب التقسيم الشرعي للممتلكات بين الأبناء معقدًا للغاية إن لم يكن مستحيلاً، وهذا هو ما قاد الخوارزمي للبحث عن طرق أدق وأشمل، وأكثر قابلية للتكيف فابتدع علم الجبر.

وقد استعمل الخوارزمي الطريقة البيانية لإيجاد جذر المعادلة بكل نجاح؛ لذا فإن الخطأ بين موضعين يُعتبر من ابتكاره، وهذه الطريقة لعبت دورًا مهمًا في التحليل العددي، وتُعرَف في اللغة الإنجليزية باسم (false positions).

وعرف الخوارزمي الوحدة المستعملة في المساحات، واستخدم (التكسير) ويقصد بذلك المساحة، سواء كانت سطحية أو حجمية، كما تطرق إلى إيجاد مساحات بعض السطوح مستقيمة الأضلاع والأجسام، والدائرة، والقطعة، والهرم الثلاثي والرباعي، والمخروط والكرة، كما استعمل النسبة التقريبية وقيمتها ط = 8/ 22 أو 10، لذا فإن الخوارزمي أثرى علم الجبر باستعماله بعض الأفكار الجبرية لمعرفة المساحة.

وكان الخوارزمي يعرف أن هناك حالاتٍ يستحيل فيها إيجاد قيمة للمجهول (الكميات التَّخيُّلية) وسماها: (الحالة المستحيلة)، وبقيت معروفةً بهذا الاسم بين علماء الرياضيات حتى بدأ العالم السويسري

---

1 انظر علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية 5/ 172، 173، وله أيضًا: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص 149.

1 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص20.

2 علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية 187/5، وله أيضًا: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص76.

ليونارد أويلر leonhard euler (1707- 1783م) في تعريف الكميات التخيلية بأنها: الكمية التي إذا ضربت بنفسها كان الناتج مقدارًا سالبًا، وأعطى كثيرًا من الأمثلة على هذا.

ثم جاء العالم الألماني كارل قاوس (1777 – 1855م) فركز على دراسة الكميات التخيلية وخواصها. والجدير بالذكر أن الكميات التخيلية قادت في النهاية إلى معرفة علم التحليل المركَّب الذي يُعتبر من أهم العلوم الرياضية في العصر الحديث، ومما لا يقبل الجدل والتأويل أن الفضل في ذلك يرجع أولاً للعالم المسلم محمد بن موسى الخوارزمي.

و لم يكتشف الخوارزمي علم الجبر ونظرية الخطأين (وهما أداة أساسية في التحليل العلمي الرياضي) فحسب، وإنما وضع كذلك أسس البحث التجريبي الحديث باستخدام النماذج الرياضية، كما نشر أول الجداول العربية عن المثلثات للجيوب والظلال، وقد تُرجِمت إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر[1].

وإضافةً إلى إسهاماته الكبرى في الحساب، أبدع الخوارزمي أيضًا في علم الفلك، وأتى ببحوث جديدة في المثلثات، ووضع جدولاً فلكيًّا (زيجًا)، وقد كان لهذا الزيج الأثر الكبير على الجداول الأخرى التي وضعها العرب فيما بعد، إذ استعانوا به واعتمدوا عليه وأخذوا منه. وكان من أهم إسهامات الخوارزمي العلمية التحسينات التي أدخلها على جغرافية بطليموس سواء بالنسبة للنص أو الخرائط[2].

مؤلَّفات الخوارزمي

يقول محمد خان في كتابه (نظرة مختصرة لمآثر المسلمين في العلوم والثقافة): "إنَّ الخوارزمي يقف في الصف الأول من صفوف الرياضيين في جميع العصور، وكانت مؤلفاته هي المصدر الرئيسي للمعرفة الرياضية لعدة قرون في الشرق والغرب"[3].

وقد اهتم الخوارزمي في بداية الأمر بالاكتشافات في علم الرياضيات والفلك، ثم بعدها بدأ التأليف فصنَّف كتبًا كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

1 - كتاب (الجبر والمقابلة)، وهو الكتاب الرئيسي ذو الأثر الحاسم، والذي درس فيه تحويل المعادلات وحلها، وقد ترجمه إلى اللاتينية "جيراردو دي كريمونا" ونشر النص العربي (روزن) مع ترجمة إنجليزية في لندن سنة 1851م.

وترجم له أيضًا "يوحنا الأسباني" الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية عدة مؤلفات في الفلك والنجوم، من بينها كتب للخوارزمي، بفضلها انتقل الحساب الهندي والنظام العشري في الحساب إلى

1 انظر المصدرين السابقين.

2 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص20 - عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص 108 .

3 علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية 172/5.

أوروبا؛ حتى عرفت العمليات الحسابية باسم Alguarismo. والغريب أنها ترجمت إلى العربية باسم "اللوغاريتمات" وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي!! والصحيح أن تترجم "الخوارزميات" أو "الجداول الخوارزمية".

وقد أصبح الكتاب مصدرًا أساسيًا في الرياضيات في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، وكان معظم ما ألَّفه مَنْ جاء بعده في علم الجبر مستندًا عليه، وقد نقله من اللغة العربية إلى اللاتينية روبرت أوف شستر (Robert of chester) فاستنارت به أوروبا.

وحديثًا حقق الدكتوران علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي هذا الكتاب، وذلك في سنة 1968م[1].

2 - كتاب في الجغرافيا شرح فيه آراء بطليموس.

3 - كتاب جداول للنجوم وحركاتها من مجلدين.

4 - كتاب شرح فيه طريقة معرفة الوقت بواسطة الشمس.

5 - كتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، ويقول البروفيسور جورج سارتون في كتابه (المدخل إلى تاريخ العلوم) عن هذا الكتاب: إنه "يشتمل على خلاصة دراساته لا على ابتكاراته العظيمة".

6 - كتاب العمل بالإسطرلاب.

7 - كتاب صنع الإسطرلاب.

8 - كتاب وضح فيه طريقة الجمع والطرح.

9 - كتاب صورة الأرض وجغرافيتها.

10 - كتاب صورة الأرض، نشر سنة 1929م.

11 - كتاب المعرفة، وهو يبحث في علم النجوم.

---

1 الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية 187/5، وله أيضًا: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص77، ومحمد علي عثمان: مسلمون علَّموا العالم ص 77، وعبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص65.

12 – كتاب زيج الخوارزمي الأول.

13 – كتاب زيج الخوارزمي الثاني، وهو جداول فلكية سماه (السند هند)، جمع فيه بين مـــذهب الهند والفرس.

14 – رسالة عن النسبة التقريبية وقيمتها الرياضية.

15 – رسالة وضح فيها معنى الوحدة المستعملة في المساحات والحجوم.

16 – رسالة ذكر فيها برهانًا آخر لنظرية فيثاغورث مستخدمًا مثلثًا قـــائم الزاويـــة ومتســـاوي الساقين.

17 – رسالة مفصلة وضح فيها قوانين لجمع المقادير الجبرية وطرحها وضربها وقسمها.

18 – رسالة شرح فيها طريقة إجراء العمليات الحسابية الأربع على الكميات الصم.

19 – كتاب رسم الربع المعمور.

20 – كتاب الجمع والتفريق.

21 – كتاب الرُّخامة (الرخامة قطعة من الرخام مخططة تساعد على معرفة الوقت عـــن طريـــق الشمس).

22 – كتاب هيئة الأرض.

23 – كتاب المعاملات، ويتضمن المعاملات التي يقوم بها الناس من بيع وشراء[1].

لقد عاش الخوارزمي ~ حياةً عمادُها العلمُ؛ بحثًا واكتشافًا وتأليفا ابتغاء مرضـــاة الله Y، وســـعيًا وراء راحة البشرية، ورقي الحضارة، وظلَّ كذلك حتى وافته المَنِيَّة سنة 235هـــ/850م؛ فرحمه الله رحمـــةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

1 انظر ابن النديم: الفهرست ص 333، إليان سيركيس: معجم المطبوعات 841/1، علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موســـى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية 186/5، 187، وله أيضًا: العلوم البحتة ص172، 173.

المبحث الثالث: دور العلم في حياة الرازي

الرازي.. معجزة الطب عبر الأجيال

لم يكن الرازي طبيبًا فحسب، ولا معلمًا فقط.. ولكنه أبدع كذلك في مجالات الأخلاق والقيم والدين.. كما أبدع – ولا شك في ذلك – في مجال الإنسانية.. حتى أصبح علمًا من أعلام الفضيلة، كما كان علمًا من أعلام الطب.. ولا شك أن هذا الرجل العظيم من أعظم صور الحضارة الإسلامية..

فهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي.. وقد وُلِدَ في مدينة الرَّي، وإليها نُسِب.. ومدينة الري تقع على بعد ستة كيلومترات جنوب شرقي طهران، وكان ميلاده في سنة 250هـ (864م)، وكان منذ طفولته محبًا للعلم والعلماء، فدرس في بلدته "الري" العلوم الشرعية والطبية والفلسفية[1]، ولكن هذا لم يُشْبع نَهَمَه لطلب العلم؛ فلم تكن مدينة الري – على اتساعها وكثرة علمائها – بالمدينة التي تحوي علوم الأرض في ذلك الوقت.. ولذلك يمَّم الرازي وجهه شطر عاصمة العلم في العالم في ذلك الوقت، وهي "بغداد" عاصمة الخلافة العباسية، فذهب إليها في شِبه بعثة علمية مكثفة، تعلم فيها علومًا كثيرة، ولكنه ركَّز اهتمامه في الأساس على الطب، وكان أستاذه الأول في هذا المجال هو "علي بن زين الطبري"، وهو صاحب أول موسوعة طبية عالمية (فردوس الحكمة)[2]..

اهتمَّ الرازي أيضًا بالعلوم التي لها علاقة بالطب، كعلم الكيمياء والأعشاب[3]، وكذلك علم الفلسفة؛ لكونه يحوي أراء الكثير من الفلاسفة اليونان والذين كانوا يتكلمون في الطب أيضًا.. وكان أستاذه الأول في الفلسفة هو "البلخي"[4]، وهكذا أنفق الرازي عدة سنوات من عمره في تعلم كل ما يقع تحت يديه من أمور الطب، حتى تفوق في هذا المجال تفوقًا ملموسًا..

ثم عاد الرازي بعد هذا التميز إلى الري، فتقلَّد منصب مدير مستشفي مدينة الري، وكان من المستشفيات المتقدمة في الإسلام، وذاعت شهرته، ونجح في علاج الكثير من الحالات المستعصية في زمانه، وسمع بأمره الكبير والصغير والقريب والبعيد.. حتى سمع به "عضد الدولة بن بويه" كبير الوزراء في الدولة العباسية، فاستقدمه إلى بغداد ليتولى منصب رئيس الأطباء في المستشفي العضدي، وهو أكبر مستشفي في العالم في ذلك الوقت، وكان يعمل به خمسون طبيبًا[5]..

---

1 ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء 63/1.

2 مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين 117/1.

3 القنوجي: أبجد العلوم 114/3.

4 ابن النديم: الفهرست 416/1.

5 الدفاع: رواد في الحضارة الإسلامية ص218.

والحق أنه لم يكن مستشفى فقط، بل كان جامعة علمية، وكليَّة للطب على أعلى مستوى.. وقد أصبح الرازي فيه مرجعية علمية لا مثيل لها، ليس في بغداد فقط، وإنما في العالم كله، وليس على مدى سنوات معدودة، ولكن لقرون متتالية.. فكان معجزة الطب عبر الأجيال!!

ولعلَّه من المهم جدًا أن نقف وقفة ونتساءل: كيف وصل الرازي إلى هذا المجد.. وإلى هذه المكانة؟

لابدَّ أن نعلم أن النجاح لا يأتي مصادفة، وأن التفوق لا يكون إلا بجهد وتعب وبذل وتضحية.. كما أن الإبداع لا يكون عشوائيًا أبدًا.. إنما يحتاج إلى تخطيط وتدريب ومهارة.. وهكذا كانت حياة الرازي ~..

لقد بحث الرازي عن العلم في كل مصادره، واجتهد قدر استطاعته في تحصيل كل ما يقع تحت يده من معلومات، ثم أتبع ذلك بتفكير عميق وتجارب متعددة ودراسة متأنية.. حتى بدأ يعدِّل في النظريات التي يقرؤها.. وأخذ ينقد ويحلل.. ثم وصل إلى الاختراع والإبداع..

لقد انتشر في زمان الرازي الطب اليوناني والفارسي والهندي والمصري نتيجة اجتهاد العلماء في ترجمة كتب تلك الأمم، فقرأها الرازي جميعًا، لكنه لم يكتف بالقراءة بل سلك مسلكًا رائعًا من أرقى مسالك العلم وهو الملاحظة والتجربة والاستنتاج..

فقد كان الطب اليوناني هو أهم طب في تلك الفترة، ولكنه كان يعتمد في الأساس على النظريات غير المجرَّبة.. وكان كل أطباء اليونان يعتمدون هذه الطريقة حتى عرفوا بفلاسفة الطب، فهم لم يُخضعوا نظرياتهم لواقع الحياة إلا قليلاً، ولا يُستثنَى من ذلك أحدٌ من أطباء اليونان حتى العمالقة منهم أمثال جالينوس وأبقراط!! ولكن الرازي قال كلمته المشهورة التي تعتبر الآن قانونًا من قوانين العلم بصفة عامة، والطب بصفة خاصة.. قال: "عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة والنظرية السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية تأييدًا لمشاهير العلماء.."[1]!!

فهو يذكر أنه ليس لعالم مشهور أو غير مشهور أن يقرر نظرية تتعارض مع المشاهدة الفعلية والتجربة الحقيقية والواقعة الحادثة، بل تُقَدَّم الملاحظة والتجربة؛ وبذلك يُبْنَى الاستنتاج على ضوء الحقائق لا الافتراضات الجدلية..

ما أروعه حقًا من مبدأ، وما أبدعها من طريقة!!

ولذلك نجد أن الرازي كثيرًا ما انتقد آراء العلماء السابقين نتيجة تجاربه المتكررة، بل إنه ألَّف كتابًا خصِّيصًا للرد على جالينوس أعظم أطباء اليونان وسمَّى الكتاب "الشكوك على جالينوس"، وذكر في هذا

1 ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء 1/ 77، 78.

الكتاب الأخطاء التي وقع فيها جالينوس، والتصويب الذي قام هو به لهذه الأخطاء، وكيف وصل إلى هذه النتائج[1]..

وكان الرازي حريصًا على سؤال المريض عن كل ما يتعلق بالمرض تقريبًا من قريب أو بعيد وكان يقول: "إن الطبيب ينبغي ألا يدع مُساءَلة المريض عن كل ما يمكن أن يقوله عن علَّته"2، وهذه أول خطوة في التعامل مع المريض في الطب الحديث، وهي معرفة تاريخ المرض والأمور المحتملة التي قد تكون سبَّبت المرض، ثم يقوم الرازي بالكشف على المريض وقياس الحرارة والنبض، وإذا استلزم الأمر أن يدخل المريض المستشفى فإنه يضعه تحت الملاحظة الدقيقة المستمرة لتسجيل كل معلومة قد تكون مفيدة في كشف سبب المرض، أو في وصف العلاج.. وقد كان الرازي من الدقة إلى درجة أذهلت من قرأ تعليقاته على الحالات المرضية التي وصفها..

بل إن الرازي وصل إلى ما هو أروع من ذلك، حيث أرسى دعائم الطب التجريبي على الحيوانات، فقد كان يجرب بعض الأدوية على القرود فإن أثبتت كفاءة وأمانًا جربها مع الإنسان، وهذا من أروع ما يكون، ومعظم الأدوية الآن لا يمكن إجازتها إلا بتجارب على الحيوانات كما كان يفعل الرازي ~[3]..

ولقد كان من نتيجة هذا الأسلوب العلمي المتميز للرازي، أن وصل إلى الكثير من النتائج المذهلة، وحقق سبقًا علميًا في كثير من الأمور..

فالرازي هو أول مبتكر لخيوط الجراحة، وقد ابتكرها من أمعاء القطة! وقد ظلت تستعمل بعد وفاته لعدة قرون، و لم يتوقف الجراحون عن استعمالها إلا منذ سنوات معدودة في أواخر القرن العشرين، عند اختراع أنواع أفضل من الخيوط، وهذه الخيوط هي المعروفة بخيوط أمعاء القط.. "cat gut"[4]..

والرازي هو أول من صنع مراهم الزئبق[5]..

وهو أول من فرَّق بين النزيف الوريدي والنزيف الشرياني، واستخدام الضغط بالأصابع لإيقاف النزف الوريدي، واستخدم الربط لإيقاف النزيف الشرياني، وهذا عين ما يستخدم الآن!!

وهو أول من وصف عملية استخراج الماء من العيون[6]..

---

1 ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء68/1.

2 ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء27/3.

3 ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء78/1.

4 محمود الحاج قاسم محمد: الموجز لما أضافه العرب في الطب ص43.

5 ول ديورانت: قصة الحضارة 4/4.

6 محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص308 نقلا عن عبد المنعم عبد الحميد: مجلة جامعة الموصل عدد 15، السنة الثاني ص67.

وهو أول من استخدم الأفيون في علاج حالات السعال الجاف..

وهو أول من أدخل المليِّنات في علم الصيدلة..

وهو أول من اعتبر الحمَّى عرضًا لا مرضًا[1]..

وكان ~ يهتم بالتعليق على وصف البول ودم المريض للخروج منهما بمعلومات تفيده في العلاج[2]..

كما نصح بتجنب الأدوية الكيميائية إذا كانت هناك فرصة للعلاج بالغذاء والأعشاب، وهو عين ما ينصح به الأطباء الآن[3]..

ولم يكن الرازي مبدعًا في فرع واحد من فروع الطب، بل قدم شرحًا مفصلاً للأمراض الباطنية والأطفال والنساء والولادة والأمراض التناسلية والعيون والجراحة وغير ذلك..

وقد منحه الله ذكاء فوق العادة، ويؤكد ذلك وسيلته في اختيار المكان المناسب لإنشاء مستشفى كبير في بغداد.. فقد اختار أربعة أماكن تصلح لبناء المستشفي، ثم بدأ في المفاضلة بينها، وذلك بوضع قطعة لحم طازجة في الأماكن الأربعة.. ثم أخذ يتابع تعفُّن القطع الأربع، ثم حدد آخر القطع تعفنًا، واختار المكان الذي وُضعت فيه هذه القطعة لبناء المستشفي؛ لأنه أكثر الأماكن تميزًا بجو صحي، وهواء نقي يساعد على شفاء الأمراض[4]..

ولم يكن الرازي مجرد طبيب يهتم بعلاج المرض، بل كان معلمًا عظيمًا يهتم بنشر العلم وتوريث الخبرة، وكان رحمه الله يدرس تلامذته الطب في المدرسة الطبية العظيمة في المستشفي العضدي ببغداد، وكان يعتمد في تدريسه على المنهجين: العلمي النظري، والتجريبي الإكلينيكي؛ فكان يدرس الكتب الطبية، وبعض المحاضرات، ويدير الحلقات العلمية، وفي ذات الوقت يمر مع طلبته على أسِرَّة المرضى.. يشرح لهم ويعلمهم وينقل لهم خبرته، وكان يُدرِّس لهم الطب في ثلاث سنوات، ويبدأ بالأمور النظرية ثم العملية، تمامًا كما يحدث في كليات الطب الآن، وكان في آخر السنوات الثلاث يعقد امتحانًا لطلبة الطب مكونًا من جزأين: الجزء الأول في التشريح، والثاني في الجانب العملي مع المرضى، ومن كان يفشل في الجانب الأول "التشريح" لا يدخل الامتحان الثاني، وهذا أيضًا ما نمارسه الآن في كليات الطب[5]..

---

1 انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص72.
2 الرازي: الحاوي 10/10.
3 مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين 121/1.
4 ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء13/3.
5 سامي حمارنة: الصناعة الطبية ص303.

ولم يكن الرازي يكتفي فقط بالتدريس والتعليم والامتحانات لنقل العلم، بل اهتم بجانب آخر لا يقل أهمية عن هذه الجوانب وهو جانب التأليف، فكان ~ مُكثرًا من التأليف وتدوين المعلومات وكتابة الكتب الطبية، حتى أحصى له ابن النديم في كتابه "الفهرست" 113 كتابًا و28 رسالة، وهذا عدد هائل، خاصةً وأنها جميعًا في مجال الطب[1]..

وقد كان من أعظم مؤلفات الرازي كتاب "**الحاوي في علم التداوي**"، وهو موسوعة طبية شاملة لكافة المعلومات الطبية المعروفة حتى عصر الرازي، وقد جمع فيه ~ كل الخبرات الإكلينيكية التي عرفها، وكل الحالات المستعصية التي عالجها، وتتجلى في هذا الكتاب مهارة الرازي ~، ودقة ملاحظاته، وغزارة علمه، وقوة استنتاجه..

وقد تُرجِم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة أوروبية، وطُبع لأول مرة في بريشيا بشمال إيطاليا سنة 891هـ (1486م)، وهو أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، وكان مطبوعًا في 25 مجلدًا، وقد أُعيدت طباعته مرارًا في البندقية بإيطاليا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، ويذكر المؤرخ "ماكس مايرهوف" أنه في عام 1500 ميلادية كان هناك خمس طبعات لكتاب الحاوي، مع عشرات الطبعات لأجزاء منه..

ومن كتبه أيضًا "**المنصوري**"، وقد سماه بهذا الاسم نسبة إلى المنصور بن إسحاق حاكم خراسان، وقد تناول فيه موضوعات طبية متعددة في الأمراض الباطنية والجراحة والعيون، وقد تعمَّد الرازي الاختصار في هذا الكتاب، فجاء في عشرة أجزاء!! لذلك رغب العلماء الأوروبيون في ترجمته عدة مرات إلى لغات مختلفة، منها اللاتينية والإنجليزية والألمانية والعبرية! وقد تم نشره لأول مرة في ميلانو سنة 1481م، وظل مرجعًا لأطباء أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي2.

ومن أروع كتبه كذلك كتاب "**الجدري والحصبة**"، وفيه يتبين أن الرازي أول من فرق بين الجدري والحصبة، ودوَّن ملاحظات في غاية الأهمية والدقة للتفرقة بين المرضين، وقد أُعيدت طباعة هذا الكتاب في أوروبا أربع مرات بين عامي (903 : 1283هـ) (1498 : 1869م) 3..

ومن كتبه أيضًا كتاب "**الأسرار في الكيمياء**"، والذي بقي مدة طويلة مرجعًا أساسيًّا في الكيمياء في مدارس الشرق والغرب[4].

1 انظر: ابن النديم: الفهرست 420/1.
2 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص192.
3 انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص73.
4 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص191.

ومن كتبه المهمة كذلك كتاب "الطب الروحاني" الذي ذكر فيه أن غايته من الكتاب هو أصلاح أخلاق النفس.. وحضَّ في كتابه هذا على تكريم العقل، وعلى قمع الهوى، ومخالفة الطباع السيئة، وتدريب النفس على ذلك[1]..

إلا أن أهم ما ميز الرازي في ذلك كله، هو البُعد الأخلاقي عنده..

فقد تميز ~ بالأمانة العلمية التامة في كتاباته؛ فكان لا يذكر أمرًا من الأمور اكتشفه غيره إلا أشار إلى اسم المكتشف الأصلي، ولذلك حفلت كتبه بأسماء جالينوس وأبقراط وأرمانسوس وغيرهم، كما ذكر في كتبه المحدثين من الأطباء أمثال يحيى بن ماسويه وحنين بن إسحاق...

وكان الرازي يحض تلامذته على إتباع نهج الكتابة والتأليف، فكان يقول لهم: "إذا جمع الطالب أكبر قدر من الكتب وفهم ما فيها، فإن عليه أن يجعل لنفسه كتابًا يضمنه ما غفلت عنه الكتب التي قرأها"..

فهو ينصح كل طلبته أن يسجلوا المعلومات التي يلحظونها في أثناء دراستهم وعلاجهم للمرضى – والتي لم تُذكر في الكتب السابقة – وبذلك يستفيد اللاحقون بعلمهم وتأليفهم..

ولم يكن الرازي عالمًا فقط، بل كان إنسانًا خلوقًا من الدرجة الأولى، فقد اشتهر بالكرم والسخاء وكان بارًّا بأصدقائه ومعارفه، عطوفًا على الفقراء وبخاصة المرضى، فكان ينفق عليهم من ماله الخاص، ويجري لهم أحيانًا الرواتب الثابتة2!!

وكان يوصي تلامذته أن يكون هدفهم هو إبراء المرضى أكثر من نيل الأجور منهم، ويوصيهم كذلك بأن يكون اهتمامهم بعلاج الفقراء تمامًا كاهتمامهم بعلاج الأمراء والأغنياء.. بل إنه من شدَّة اهتمامه بالفقراء ألَّف لهم كتابًا خاصًا سماه "**طب الفقراء**"، وصف فيه الأمراض المختلفة وأعراضها ثم وصف طرق علاجها عن طريق الأغذية والأعشاب الرخيصة بدلاً من الأدوية مرتفعة الثمن أو التراكيب النادرة3..

ومن شدة اهتمامه بالأخلاق الحميدة ألَّف كتابًا خاصًا بهذا الأمر سماه "**أخلاق الطبيب**" يشرح فيه العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، وبين الطبيب والطبيب، وضمَّنه كذلك بعض النصائح للمرض في تعاملهم مع الأطباء4..

---

1 عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص95.

2 ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء 13/3.

3 عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص115، 116.

4 انظر: مقدمة أخلاق الطبيب للرازي، لمحققه عبد اللطيف محمد العبد ص6.

هذا.. وقد اعترف القاصي والداني لأبي بكر الرازي بالفضل والمجد والعظمة والعلم والسبق، ولا نقصد بذلك المسلمين فقط، بل اهتم غير المسلمين أيضًا بإنجازات الرازي وابتكاراته..

فنجد فضلاً عن ترجمة كتبه إلى اللغات الأوروبية وطبعها أكثر من مرة.. نجد إشارات لطيفة وأحداثًا عظيمة تشير إلى أهمية ذلك العالم الجليل، ومن ذلك أن الملك الفرنسي الشهير لويس الحادي عشر، والذي حكم من عام 1461م إلى 1483م، قد دفع الذهب الغزير لينسخ له أطباؤه نسخة خاصة من كتاب "الحاوي"؛ كي يكون مرجعًا لهم إذا أصابه مرض ما!!

ونجد أن الشاعر الإنجليزي القديم "جوفري تشوسر" قد ذكر الرازي بالمدح في إحدى قصائده المشهورة في كتابه "أقاصيص كونتربري"!!

ولعله من أوجه الفخار أيضًا أنه رغم تطور العلم وتعدد الفنون إلا أن جامعة بريستون الأمريكية ما زالت تطلق اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها[1]، كما تضع كلية الطب بجامعة باريس نصبًا تذكاريًا للرازي، بالإضافة إلى صورته في شارع سان جيرمان بباريس..

لقد كان الرازي بحق صورة رائعة من صور الحضارة الإسلامية، قلَّما تتكرر في التاريخ، لقد كان طبيبًا وعالمًا ومعلمًا وإنسانًا.. عاش حياته لخدمة الإسلام والعلم والبشرية، ومات عن عمر بلغ ستين عامًا، وكانت وفاته في شعبان 311هـ / نوفمبر 923م.

لكن من الصعب أن نقول: إنه مات؛ فالمرء يُكتَب له الخلود بقدر ما ينفع الناس، وصدق الرسول الكريم ρ عندما ذكر في الحديث الذي رواه أبو هريرة > عن النبي ρ أنه قال: "**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ**... وذكر منها: ".. **عِلْمًا يُنْتَفَعُ بِهِ**"[2]..

المبحث الرابع: دور العلم في حياة الإصطخري

الإصطخري.. عالم يسبق عصره!!

لعل من الصعوبة بمكان أن نختار عالمًا واحدًا من علماء الجغرافيا المسلمين لنتوقف أمام سيرته وإنجازاته توقفًا خاصًّا؛ ذلك أن عبقريات المسلمين في ذلك المجال كثيرة عددًا.. غزيرة إنتاجًا.. وواسعة سبقًا وريادةً..

1 أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص138.

2 مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته (1631)، وأبو داود (2880)، وأحمد (8831)، وأبو يعلي (6457).

ومن ثَمَّ سنكتفي هنا بالتوقف أمام أحد أبرز عباقرة الجغرافيا المسلمين.. وهو "أبو إسحاق الإصطخري"..

وقد ولد الرحالةُ عالِمُ الأرضِ والجغرافيا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري (الذي يُعْرَفُ في بعض الأحيان باسم الكرخي) بمدينة إصطخر، وهي مدينة برسيبوليس القديمة في بلاد فارس.

وعاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وإن كنا لا نعرف الكثير عن نشأته الأولى؛ فالموسوعات أو كتب تاريخ العلوم لم تحدد عام ميلاده، وكذلك لم تذكر شيئًا عن سيرة حياته.. إلا أنه كان رحالة زار الكثير من أقطار العالم الإسلامي؛ فقد زار أكثر أقطار آسيا حتى بلغ سواحل المحيط الهندي، ودخل الهند وتوفي بها بعد عام (340هـ / 951 م) 1.

وعن منهجه العلمي الذي اتبعه في كتابه "المسالك والممالك"، والذي يُعَدُّ من أشهر مؤلفاته، فإن "الإصطخري" يستعرض ذلك فيقول: "فإني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك، وقصدت منها بلاد الإسلام، وتفصيل مدنها، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها.. و لم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن، وما في أصقاعه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار، وما يحتاج إلى معرفة من جوامع ما يشتمل عليه ذكر الإقليم.. لأن الغرض من كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمته..".

وقد نهج "أبو إسحاق الإصطخري" منهجًا علميًا يدل على قدرته الفائقة في تصوُّر شكل الأرض؛ فلم يتجاهل الناحية الفلكلورية أو الاقتصادية أو الإثنوغرافية!! (الإثنوغرافيا هو علم في وصف السلالات البشرية وعادات وأخلاق الشعوب).. والحق أن هذه الطريقة التي سار عليها "الإصطخري" هي ذات الطريقة التي ينتهجها العلماء المعاصرون في مثل هذا النوع من الدراسات؛ وهو ألا تقتصر الدراسات الجغرافية على الجوانب الطبيعية فقط، دون التفات إلى الأبعاد الاقتصادية والثقافية والسلالية وغيرها مما يخص البشر الذين يحيون في هذه البقعة من الأرض..

كما يُحسَب للإصطخري ~ أنه ركَّز على المدلول الجغرافي والسياسي والإداري، وتجنب النظريات التقليدية التي تَنُصُّ على تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، وأخذ كل إقليم بذاته كوحدة جغرافية مستقلة.

لقد فهم "الإصطخري" منهج علماء المسلمين في مجال علم الجغرافيا فهمًا جيدًا مُحكمًا، وطبَّقه في مؤلفاته بدقة واستنباط ذكي؛ وبهذا عَرَفَ أصول المنهج العلمي التجريبي القائم على القياس والاستقراء، والمستند على المشاهدة والتجربة والتمثيل.

---

1 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص199.

وإضافة إلى كل هذا فقد اشتهر أبو إسحاق الإصطخري بالإنصاف لمن سبقوه من علماء الجغرافيا، كما اتَّصف بالصدق والأمانة العلمية وتقوى الله، وهي صفات - كما ترى - نحن في أَمَسِّ الحاجة إليها في ميادين العلوم التجريبية وغيرها، وهي الصفات التي - كما رأينا من قبل كثيرًا - كانت تميِّز البحث العلمي في عصور الحضارة الإسلامية.. ولم تكن ثمار تلك الصفات قاصرة على الأمة الإسلامية.. بل أفادت منها الإنسانية جمعاء.

أما عن مؤلَّفات "الإصطخري" فإنه لم يكن صاحب مؤلفات كثيرة، وكل ما وصلنا من أعماله كتابان، هما: (صور الأقاليم)، والثاني: (المسالك والممالك).. ولعل تأثُّر "الإصطخري" واضح بعالم الجغرافيا السابق عليه "ابن خرداذبة" الذي ألَّف كتابًا بنفس العنوان (المسالك والممالك)..

كذلك اعتمد على كتاب "البلخي" (تقويم البلدان)؛ فماثل "الإصطخري" كتاب البلخي في مخططه، ولكن بتوسع ومراجعة وتصحيح لكثير مما جاء فيه، وهذان المؤلفان للإصطخري يعدان من المراجع الأمهات في علم الجغرافيا بالأخص.

وقد كان اعتماده الأكبر في تصنيف مؤلَّفَيْهِ السابقَيْن على رحلاته العديدة في طلب العلم في شتى الآفاق الإسلامية؛ فجاء وصف تلك البلدان بإطناب، إضافة إلى تزيينه كتابه الأول (صور الأقاليم) بالخرائط والأشكال التوضيحية[1].

أما مؤلَّفُه الأشهر (المسالك والممالك) فقد ظل في معظم مكتبات العالم كمخطوط حتى جاءت سنة (1287هـ - 1870م) وطبعه المستشرق (دي خويه) في ليدن بهولندا، وقد أُعِيدَ طبعه بالصور سنة (1346هـ - 1927م)، وقام بتحقيقه محمد جابر عبد العال الحسيني سنة (1381هـ - 1961م) ونشرته وزارة الثقافة المصرية بالقاهرة آنذاك؛ ولعل ذلك كان السبب في انتشار الكتاب وتداوله من قِبَل القراء في جميع أنحاء المعمورة.. ومنه عُرفت مكانة الإصطخري في ميدان علم الجغرافيا الإقليمية[2].

والحقيقة أن إنجازات الإصطخري في علم الجغرافيا كانت أكبر بكثير من أن ينظر إليها على أساس مؤلفاته.. فالإصطخري يعد من أوائل العلماء الذين جمعوا بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا السكانية في كتبهم، وإذا كان قد اقتصر في مؤلفيه على وصف العالم الإسلامي، فقد قسَّمَهُ إلى عشرين إقليمًا، وكان يتحدث عن الإقليم لا بوصفه نطاقًا يضم عددًا من درجات خطوط العرض، ولكن بوصفه منطقة جغرافية واسعة، لها خصائصها الطبيعية والسكانية والثقافية والاقتصادية التي تُميِّزها..

---

1 على بن عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيه في الحضاره العربيه و الاسلامية ص104،105.

2 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص276،277..

وقد تحدث في البداية عن الرُّبع المعمور من الأرض وأبعاده.. ثم تحدَّث عن البحار.. ثم بدأ بوصف جزيرة العرب والخليج العربي مع المحيط الهندي.. ثم السند والهند وأنهار سجستان.. ثم المغرب مع الأنـــدلس وصقلية.. ومصر مع بلاد الشام وبحر الروم والجزيرة.. وإيران الجنوبية والوسطي والشمالية مـــع أرمينيـــا وأذربيجان وبحر الخزر (قزوين).. ومدن برطس في تخوم البحر المذكور وأعمالها وكورها وجبالها وأنهارهـــا وعمائرها.. ثم يختم بحثه أخيرًا بوصف بلاد ما وراء النهر (التركستان).

ويذكر "الإصطخري" عن كل قطر معلومات تتعلق بالحدود والمدن والمسافات وطرق المواْصلاّت، ويذكر تفاصيل متفرقة عن المحاصيل والتجارة والصناعة، وعن أجناس السكان، ولكن معظم التفاصيل تتعلق بالأقطار التي زارها1.

وقد أولى "الإصطخري" عناية خاصة لموضوع المد والجزر؛ فله نظريات جزئية في هذا المضمار؛ مما يدل على طول باعه في علم الأنواء، والمعروف بين العلماء في الماضي أن علم الأنواء جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا.

ولا ننسى في حديثنا عن إنجازات "الإصطخري" أنه حاول بكل ما يملك أن يصـــحح الأخطـــاء الجغرافية التي وقع فيها علماء الجغرافيا السابقون له، واتخذ من الخرائط التي زخرت بها مؤلفاته وسيلة لشرح وإبراز الأفكار الجغرافية التصحيحية.. ومن أبرز تلك الخرائط (خريطة بحر قزوين) التي شهد المستشـــرقون بدقتها.. كما ركز على طريقة المقارنة بين المدن2..

إلى غير ذلك من الإنجازات المبدعة التي تحملك على الاعتقاد بأنك أمام سيرةٍ وإنجازات لعالِمٍ مـــن القرن العشرين الميلادي (الخامس عشر الهجري)، إلا أنه كان يعيش بين علماء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي)!!.

وقد عرف قدره المقدسي (ت 380هـــ/ 990م) حين أُتيح له أن يرى بعض كتبه؛ فأكثر النقل عنه في (أخبار السند)، وقال يثني عليه: ".. ورأيت ببخارى مترجَمًا لإبراهيم بن محمد الفارســـي (يعـــني: الإصطخري).." ثم يُعلِّق عليه بقوله: "..وهو كتاب قد أجاد أشكاله.."3.

كما يُذكَر أن "أبا إسحاق الإصطخري" ساح العالم الإسلامي؛ لذا استفاد من رحلاته في تصنيف كتابه (المسالك والممالك) الذي يكتسب أهمية بالغة؛ إذ يعتبر رائدًا للكتب الإقليمية التي أُلِّفَـــتْ بعـــده في منهجه ومعلوماته وتبويبه4.

1 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص199.
2 على بن عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيه في الحضاره العربيه و الاسلامية ص104.
3 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص199.
4 على بن عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيه في الحضاره العربيه و الاسلامية ص103.

فرحم الله عالمنا العظيم الإصطخري، ونسأل الله أن يهبنا أمثاله من العلماء الذين غيروا بجهودهم وعقولهم حركة التاريخ ومسيرة البشرية..

المبحث الخامس: دور العلم في حياة البيروني

[362- 440هـ / 963- 1048م]

عرَّفه جورج سارتون في كتابه (مقدمة لدراسة تاريخ العلم) بقوله عنه: "كان رحّالة وفيلسوفًا، ورياضيًا، وفلكيًا، وجغرافيًا، وعالمًا موسوعيًا، ومن أكبر عظماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم". ووصفه المستشرق الألماني سخاو بقوله: "أعظم عقلية عرفها التاريخ"[1].

إنه أبو الريحان أحمد بن محمد البيروني الخوارزمي، الذي وُلِدَ في بلدة بيرون، إحدى ضواحي مدينة (كاث) عاصمة الدولة الخوارزمية، سنة 362هـ 963م، والذي اطَّلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعَلَتْ شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره[2].

كان لمؤلَّفاته إليد الطُّولى في صناعة أمجاد عصر النهضة والثورة الصناعية في العالم الغربي؛ فقد حدَّد بدقة خطوط الطول وخطوط العرض، وناقش مسألة ما إذا كانت الأرض تدور حول محورها أم لا، وسبق في ذلك جاليليو وكوبرنيكوس، إضافةً إلى اكتشافاتٍ أخرى عديدة..

وقد رحل البيروني إلى الهند وأقام فيها بضع سنين، نتج عنها كتابه (الطائر الصيت)، المعروف بكتاب الهند، والمعروف بـ (كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) أودع فيه نتيجة دراساته من تاريخ وأخلاق وعادات وعقائد وآداب وعلوم الهند، ومن جملتها ما كان عندهم من المعرفة بصورة الأرض.

ويصف المستشرق (روزن) منذ أكثر من سبعين عامًا هذا الكتاب بأنه "أثر فريد في بابه، لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط، سواء في الغرب أم في الشرق"[3].

---

1 راجع: كتاب نوابغ المسلمين 2/ 53، 64، 65 .

2 انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات 1/ 1070، الزِّركلي: الأعلام 5/ 314، عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص 340، موسوعة العرب: أبو الريحان البيروني ص26.

3 انظر: عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص341.

وغير كتابه السابق كان للبيروني أيضًا كتب أخرى كثيرة ومهمة في ضروب مختلفة من العلم؛ ففي الجغرافيا ألَّف: تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض، وتحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، أمَّا في التاريخ؛ فله: تصحيح التواريخ، والآثار الباقية عن القرون الخالية، وفي الفلك كان له مؤلفات عديدة، مثل: الاستشهاد باختلاف الأرصاد، واختصار كتاب البطليموس القلوذي، والزيج المسعودي، والاستيعاب لوجوه الممكنة في صنعة الإسطرلاب، وتعبير الميزان لتقدير الأزمان، وقانون المسعودي في الهيئة، وفي الرياضيات أُثِرَ عن البيروني مؤلَّفات عِدَّة؛ كاستخراج الكعاب والأضلاع وما وراءه من مراتب الحساب، وكتاب الأرقام ورغم اهتمامه بالعلم فإنه كان ذا باعٍ طويل في الأدب؛ لذا كتب شرح ديوان أبي تمام، ومختار الأشعار والآثار، وفوق كل ذلك كان له مؤلَّفات عديدة في الفلسفة، مثل: كتاب المقالات والآراء والديانات، ومفتاح علم الهند، وجوامع الموجود في خواطر الهنود، وغير ذلك العشارت من المؤلَّفات الضخمة[1].

وبهذه المؤلفات يكاد البيروني يكون قد ألَّف في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره؛ فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة.

أما في مجال الطبيعيات فقد اهتم بالخواص الفيزيائية لكثير من المواد، وتناولت أبحاثه علم ميكانيكا الموائع والهيدروستاتيكا، ولجأ في بحوثه إلى التجربة وجعلها محورًا لاستنتاجاته[2]، كما انضم مع ابن سينا إلى الذين شاركوا ابن الهيثم في رأيه القائل بأن الضوء يأتي من الجسم المرئي إلى العين[3].

ومن أبرز ما قام به البيروني أنه توصل إلى تحديد الثقل النوعي لـ 18 عنصرًا مركبًا بعضها من الأحجار الكريمة مستخدمًا الجهاز المخروطي، وقد استخرج قيم الثقل النوعي لهذه العناصر منسوبة إلى الذهب مرة وإلى الماء مرة أخرى، وله جداول حدَّد فيها قيم الثقل النوعي لبعض الأحجار الكريمة منسوبة إلى الياقوت على أساس الوزن النوعي للياقوت = 100 ثم إلى الماء[4].

وفي ظاهرة الجاذبية كان البيروني، مع ابن الحائك، من الرواد الذين قالوا بأن للأرض خاصية جذب الأجسام نحو مركزها، وقد تناول ذلك في آراء بثَّها في كتب مختلفة، ولكنَّ أشهر آرائه في ذلك ضمَّنها كتابه **القانون المسعودي**[5].

---

1 انظر البابابي: هدية العارفين 480/1، الصفدي: الوافي بالوفيات 1070/1 – الزركلي: الأعلام 5/ 314 .

2 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص114،115.

3 قدري طوفان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص163.

4 انظر: مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين 63/2 بتصرف.

5 المصدر السابق.

ومن المسائل الفيزيائية التي تناولها البيروني في كتاباته ظاهرة تأثير الحرارة في المعادن، وضغط السوائل وتوازنها، وتفسير بعض الظواهر المتعلقة بسريان الموائع، وظاهرة المد والجزر وسريان الضوء، فقد لاحظ أن المعادن **تتمدَّد** عند تسخينها، و**تنكمش** إذا تعرضت للبرودة[1].

وأولى ملاحظاته في هذا الشأن كانت في تأثير تباين درجة الحرارة في دقة أجهزة الرصد، حيث تطرأ عليها تغيرات في الطول والقصر في قيظ النهار وصقيع آخر الليل، وتعرض في كتابه **الآثار الباقية عن القرون الخالية** لميكانيكا الموائع؛ فشرح الظواهر التي تقوم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها، وأوضح صعود مياه النافورات والعيون إلى أعلى مستندًا إلى خاصية سلوك السوائل في الأواني المستطرقة. كما شرح تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مصدرها من المياه القريبة منها، وتكون سطوح ما يجتمع منها موازية لتلك المياه، وبيَّن كيف تفور العيون وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلى القلاع ورؤوس المنارات. وتحدث عن ظاهرة المد والجزر في البحار والأنهار وعزاهما إلى التغير الدوري لوجه القمر[2].

أما فيما يختص بسريان الضوء فقد فطن إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت[3]، واتفق مع ابن الهيثم وابن سينا في قولهما بأن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس[4]، كما يقرر أن القمر جسم معتم لا يضيء بذاته وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس عليه، وكان البيروني يشرح كل ذلك بوضوح تام، ودقة متناهية في تعبيرات سهلة لا تعقيد فيها ولا التواء[5].

كما وضع البيروني قاعدة حسابية لتسطيح الكرة، أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس.. وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية[6].

ويعتبر البيروني بعدُ أحدَ ألمع الوجوه التي يمكن أن تعتز بها الثقافة العربية من خلال تاريخ الفكر الإسلامي وأكثرها جاذبية. فعلى الرغم من أن اسم البيروني يحتل مكانته من الأدب العربي في ميدان الجغرافيا والرحلات، إلا أنه يتبين لنا من خلال المصنفات السابقة أنه لم يكن جغرافيًا فحسب، بل كان رياضيًا وفلكيًا، وفيلسوفًا، وشاعرًا وأديبًا، وعالم اجتماعٍ ومؤرخًا!!

نعم كان كلَّ أولئك، وبرز في كل فروع المعرفة الإنسانية هذه، وبعبارة أخرى: كان مؤلفًا انتظم نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له، والتي تحتل بينها العلوم الرياضية والفيزيائية مكانة الصدارة عنده[7].

---

1 انظر: مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين 63/2 بتصرف.

2 قدري طوفان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص176 بتصرف.

3 حسن نافعة، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام 193/2.

4 قدري طوفان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص163.

5 انظر موقع الموسوعة العربية العالمية (موثقة).

6 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص 459، جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص397.

7 عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص341، 342.

وفي رجب سنة 440هـ / 1048م توفي البيروني، وكانت وفاته ختام حياة حافلة لرجل حكيم وعظيم، وفي وفاته يحكي أبو الحسن علي بن عيسى — كما ذكرنا من قبل – فيقول: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، فقال لي: كيف قلتَ لي يومًا في حساب الجدّات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال: يا هذا، أودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، أَلاَ يكون خيرًا من أن أخلِّيها وأنا جاهل بها؟ فأعدتُ ذلك عليه وحفظ، وعلّمني ما وعد، وخرجت من عنده، وأنا في الطريق فسمعت الصراخ عليه[1]!!

المبحث السادس: دور العلم في حياة ابن النفيس

(607 – 687 هـ / 1210 – 1288م)

أعلم الناس في عصره، وأعظم وأشهر عالم بوظائف الأعضاء في القرون الوسطى برمتها، والرَّائد الذي مهَّد الطريق أمام وليام هارفي، العالم الفسيولوجي الإنجليزي مكتشف الدورة الدموية الكبرى سنة 1628م؛ حيث استطاع ابن النفيس اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، وأن يصفها لأول مرة ليكون رائدًا لمن أتوا بعده!!

وبحقٍ كان مثالاً للعالم الورع التقي المنقطع إلى العلم، وواحدًا من أكبر الأطباء العرب والمسلمين الذين حققوا اكتشافات عظيمة وجليلة، يفتخر بها الطب الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى يومنا هذا.

قال عنه السبكي: وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله قبلُ، ولا جاء بعد ابن سينا مثله، قالوا: وكان في العلاج أعظم من ابن سينا، وقال الإسنوي: كان إمام وقته في فنه شرقًا وغربًا بلا مدافعة، أعجوبة فيه وفي غاية الذكاء[2].

وكان قد أُشكِل على جالينوس فادَّعى أنَّ في الحاجز الذي بين الجانب الأيمن والجانب الأيسر في القلب ثقوبًا غير منظورة يتسرب فيها الدم من الجانب الواحد إلى الجانب الآخر، وما وظيفة الرئتين إلا أن ترفرفا فوق القلب فتبردا حرارته وحرارة الدم، ويتسرب شيء من الهواء فيها بواسطة المنافذ التي بينهما وبين القلب فيغذي ذلك القلب والدم.

فجاء هو وعارض هذه النظرية معارضة شديدة، وأثبت بما لا يدع مجالا للشك أن اليونان لم يفهموا وظيفة الرئتين والأوعية التي بين القلب والرئتين، وأنه فهم وظيفتها وأوعيتها وتركيب الرئة والأوعية

1 الصفدي: الوافي بالوفيات 1/ 1070 .

2 انظر ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية 107/1.

الشَّعْرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية، وشرح الفُرَج الرئوية شرحًا واضحًا، كما فهم أيضًا وظـائف الأوعية الإكليلية، وأنها تنقل الدم ليتغذى القلب به، ونفى التعليم القائل بأن القلب يتغذى من الدم الموجود في البطين الأيمن.

ثم كرَّر تعاليمه في الدورة الدموية الصغرى وطريقة عملها؛ ذلك أنه كرَّر هذه التعاليم في خمسـة مواضع متفرقة، ذاكرًا آراء ابن سينا، ومكررًا أقوال جالينوس التي اعتمد عليها ابن سينا، ثم عارضها بمنتهى الحماسة.. وكان حقيقًا بعدُ بأن يصفه جورج سارتون بأنه أول من اكتشف الدورة الدموية، ليكون بذلك الرائد لوليام هارفي الذي يُنسب إليه هذا الاكتشاف[1].

إنه الفقيه الطبيب العلامة علاء الدين علي بن أبي الحزم، القَرْشي (نسبة إلى قرية قَرْش) الدمشقي، الملقَّب بابن النفيس، وهو سوري ولد في قرية "قَرْش" بالقرب من دمشق سنة (607هـ / 1210م)[2].

نشأة ابن النفيس العالِم

كغيره من علماء المسلمين بدأ ابن النفيس حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، وكذا درس النحـو واللغة، والفقه والأصول والحديث، والمنطق والسيرة وغيرها، ثم وفي سنة (629هـ / 1231م) وهـو في الثانية والعشرين من عمره اتجه إلى دراسة الطب، وذلك بعد أزمة صحية ألَّمت به.. وتراه يحكي ذلك فيقول: "قد عرض لنا حميات مختلفة، وكانت سِنُّنا في ذلك الزمان قريبة من اثنتين وعشرين سنة، ومن حين عُوفينـا من تلك المرضة حَمَلنا سوء ظنِّنا بأولئك الأطباء (الذين عالجوه) على الاشتغال بصناعة الطب لننفـع بها الناس".

وكان تعليمه الطب في دمشق على يد طبيب العيون البارع مهذب الدين عبد الـرحمن المشـهور باسم الدخوار، وهو أحد كبار الأطباء في التاريخ الإسلامي، وكان في ذلك الوقـت كـبير الأطبـاء في البيمارستان النوري العظيم، الذي أنشأه نور الدين محمود واجتذب إليه أمهر أطباء العصر الذين توافدوا عليه من كل مكان. وكان من أساتذته في الطب أيضًا عمران الإسرائيلي، ورضي الدين الرحبي.

---

1 انظر جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص 346، 347، علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسـلامية ص451، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص205، 207،مصطفى لبيب عبد الغني: راسات في تاريخ العلوم عند العرب ص170، محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص51، 52،أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص140.

2 انظر ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية 1/ 107، البابايي: هدية العارفين 1/ 378، إدوارد فينديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص 79 – كحالة: معجم المؤلفين 7/ 58، الزِّركلي: الأعلام، 4/ 271، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص 205.

وكان رفيق دراسته ابن أبي أُصَيْبعة (صاحب طبقات الأطباء)، وقد رحلا معًا إلى القاهرة سنة 633هـ، وعملا في البيمارستان الناصري الذي شغل فيه ابن النفيس منصب الرئاسة، وعميدًا للمدرسة الطبية الملتحقة به، وشغل ابن أبي أصيبعة رئيس قسم الكحالة.

ولم يكتفِ ابن النفيس بما درسه على أساتذة عظام في البيمارستان النوري، بل إنه انكبَّ أيضًا على كتب ابن سينا وأبقراط وجالينوس وغيرهم، وقال البعض: إنه كان يحفظ كتاب القانون في الطب لابن سينا عن ظهر قلب.

كما أنه اهتم أيضًا بدراسة الفلسفة والمنطق والبيان، وتعمق في دراسة الفقه، وعلوم الشريعة، حتى إنه أصبح أستاذًا لفقه الشافعي في المدرسة المسرورية بالقاهرة، إلى جانب نبوغه وعبقريته في الطب[1].

العالم المغمور

لم يكن ابن النفيس مجهولاً في عصره؛ فقد أطنب في الحديث عنه العمري في مسالك الأبصار، والصفدي في الوافي بالوفيات، وابن أبي أصيبعة في إحدى مخطوطاته (طبقات الأطباء)، إلا أنَّ ابن النفيس لم يأخذ حقه من الذيوع والشهرة بما يوازي ويضارع إنتاجه واكتشافاته، ولعلَّ ذلك بسبب عدم التقدير أو عدم الإحاطة بهذه الاكتشافات في ذلك الوقت.

وقد تناول ابنَ النفيس من المستشرقين الأجانب لكلير في كتابه (الطب العربي)، والمستشرق الألماني مايرهوف في كثير من مقالاته، ووضع الدكتور بول غليونجي كتابًا وافيًا، يُعَدُّ أجمعَ كتاب عن ابن النفيس[2].

ويقرِّر بول في كتابه هذا أنَّ أول من كشف عن ابن النفيس في وقتنا الحاضر، ورَدَّ إليه اعتباره، هو الطبيب المصري الدكتور محيي الدين التطاوي؛ حيث عثر على نسخة من مخطوطة (شرح تشريح القانون) لابن النفيس في مكتبة برلين، وقام بإعداد رسالة في الدكتوراه عنها، وعُنيَ فيها بجانب واحد من جوانب هذا الكتاب العظيم، ألا وهو موضوع: (الدورة الدموية تبعًا للقرْشي)، وذلك سنة 1343هـ / 1924م.

---

1 راجع في ذلك: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية 107/1، الباباني: هدية العارفين 378/1، كحالة: معجم المؤلفين 58/7، الزركلي: الأعلام 271/4، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص41، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص205، محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص 49.

2 انظر: ابن النفيس (أعلام العرب، رقم 57).

وقد ذُهل أساتذتُه والمشرفون على الرسالة، وأصابتهم الدهشة حين اطَّلعوا على ما فيها، وما كادوا يصدقونه!!

ولجهلهم باللغة العربية بعثوا بنسخة من الرسالة إلى الدكتور "مايرهوف" المستشرق الألماني الذي كان آنذاك يقيم بالقاهرة، وطلبوا رأيه فيما كتبه الباحث، وكانت النتيجة أن أيّد مايرهوف الدكتور التطاوي، وأبلغ حقيقة ما كشفه من جهود ابن النفيس إلى المؤرِّخ "جورج سارتون"، فنشر هذه الحقيقة في آخر جزء من كتابه المعروف "تاريخ العلم"، ثم بادر مايرهوف إلى البحث عن مخطوطات أخرى لابن النفيس وعن تراجم له، ونشر نتيجة بحوثه في عدة مقالات.. ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام بهذا العالم الكبير وإعادة اكتشافه[1]!!

ابن النفيس والدورة الدموية

اقترن اسم ابن النفيس باكتشاف الدورة الدموية الصغرى، والتي سجلها بدقة في كتابه "شرح تشريح القانون"، غير أن هذه الحقيقة ظلت مختفية قرونًا طويلة، ونُسبت وهمًا إلى الطبيب الإنجليزي وليام هارفي (ت 1068هـ / 1657م) الذي بحث في دورة الدم بعد وفاة ابن النفيس بأكثر من ثلاثة قرون، وظل الناس يتداولون هذا الوهم حتى أبان عن الحقيقة الدكتور محيي الدين التطاوي في رسالته كما أشرنا سابقًا.

وكان الطبيب الإيطالي ألباجو قد ترجم في سنة 954هـ / 1547م أقسامًا من كتاب ابن النفيس "شرح تشريح القانون" إلى اللاتينية، وهذا الطبيب أقام ما يقرب من ثلاثين عامًا في "الرُّها" وأتقن اللغة العربية لينقل منها إلى اللاتينية، وكان القسم المتعلق بالدورة الدموية في الرئة ضمن ما ترجمه من أقسام الكتاب، غير أن هذه الترجمة فُقِدَت، واتفق أن عالما إسبانيًا ليس من رجال الطب كان يدعى "سيرفيتوس" كان يدرس في جامعة باريس اطَّلع على ما ترجمه ألباجو من كتاب ابن النفيس، ونظرًا لاتهام سيرفيتوس في عقيدته، فقد طُرِد من الجامعة، وتشرَّد بين المدن، وانتهى به الحال إلى الإعدام حرقًا هو وأكثر كتبه في سنة 1065هـ / 1553م. على أنَّ الله Y شاء أن تبقى بعض كتبه دون حرق، وكان من بينها ما نقله من ترجمة ألباجو عن ابن النفيس فيما يخص الدورة الدموية، واعتقد الباحثون أن فضل اكتشافها يعود إلى هذا العالم الإسباني ومن بعده هارفي حتى سنة 1343 / 1924م حتى صحَّح الطبيب المصري هذا الوهم، وأعاد الحق إلى صاحبه.

1 محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص 208، علي عبد الله الدَّفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص451.

وقد أثار ما كتبه الطبيب التطاوي اهتمام الباحثين، وفي مقدمتهم مايرهوف المستشرق الألماني الذي كتب في أحد بحوثه عن ابن النفيس: "إن ما أذهلني هو مشابهة، لا بل مماثلة بعض الجمل الأساسية في كلمات سيرفيتوس لأقوال ابن النفيس التي تُرجِمت ترجمة حرفية... أي أن سرفيتوس، وهو رجل دين متحرِّر وليس طبيبًا، قد ذكر الدورة الدموية في الرئة بلغة ابن النفيس الذي عاش قبله بما يزيد على القرن والنصف"!!

ولما اطلع "ألدو ميلي" على المتنين قال: "إن لابن النفيس وصفًا للدوران الصغير تطابق كلماته كلمات سيرفيتوس تمامًا، وهكذا فمن الحق الصريح أن يُعْزَى كشف الدوران الرئيسي إلى ابن النفيس لا إلى سيرفيتوس أو هارفي"[1].

ويُعتَبَر اكتشاف الدورة الدموية الصغرى واحدًا فقط من إسهامات واكتشافات ابن النفيس العديدة؛ فهو - بحسب ما كُتِب عنه حديثًا - يُعَد مكتشف الدورتين الصغرى والكبرى للدورة الدموية، وواضع نظرية باهرة في الإبصار والرؤية، وكاشف العديد من الحقائق التشريحية، وجامع شتات المعرفة الطبية والصيدلانية في عصره، وقد قدَّم للعلم قواعد للبحث العلمي، وتصورات للمنهج العلمي التجريبي.

مؤلَّفات ابن النفيس

خلَّف ابن النفيس مؤلفاتٍ علمية عديدة، نُشِرَ بعضُها ومازال البعض الآخر في غياهب المكتبات، وحبيس رفوف المخطوطات لم يرَ النورَ بعد، ومن مؤلفاته ما يلي:

1- (شرح تشريح القانون)، وهو من أهم كتب ابن النفيس، وقد نشر في القاهرة سنة 1408هـ - 1988م بتحقيق الدكتور سلمان قطابة، وتبرز قيمته في وصفه للدورة الدموية الصغرى، واكتشافه أن عضلات القلب تتغذى من الأوعية المبثوثة في داخلها لا من الدم الموجود في جوفه، كما يظهر في الكتاب ثقة ابن النفيس في علمه؛ حيث نقض كلام أعظم طبيبين عرفهما العرب في ذلك الوقت، وهما: جالينوس، وابن سينا.

2- (الشامل في الصناعة الطبية)، ويُعَد أعظم مؤلفاته، كما يعتبر أضخم موسوعة طبية يكتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، وقد نجح الدكتور يوسف زيدان في مصر في جمع أجزاء الكتاب المخطوطة، كما تطلَّع المجمع الثقافي في أبو ظبي إلى تلك الموسوعة، وأخذ على عاتقه نشر الكتاب محققًا، حتى خرج إلى النور ثلاثة أجزاء منه، وذلك في سنة 1422هـ - 2001م..

---

1 راجع علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص451، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص209، 211، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص41.

وكان ابن النفيس قد عكف على إعداد هذه الموسوعة وهو ينوي أن يجعلها مرجعًا طبيًا شـــاملاً، لولا أن وافته المنية بعد أن أعدَّ منها ثمانين جزءًا، وهي تمثل صياغة علمية لجهود المسلمين في الطب والصيدلة على مدى خمسة قرون من العمل المتواصل.

3- (الموجز في الطب)، ويعتبر هذا الكتاب مرجعًا لكل من أراد دراسة الطب، وممارســة هــذه المهنة العظيمة، وقد تناقله العلماء بعضهم من بعض، وكَثُرَت شروحُه والتعليقات عليه لما نال من منزلة بين علماء العصور كلها حتى يومنا هذا، ويذكر بول غليونجي في كتابه (ابن النفيس) أنَّ كتاب الموجز في الطب لابن النفيس عبارة عن شرح مختصر جدًا لكتاب القانون بالطب لابن سينا، تناول كل أجزاء القانون بلغــة علمية سهلة ما عدا الجزء الخاص بالتشريح ووظائف الأعضاء، الأمر الذي جعله محبوبًا محبة بالغة من الوجهة العلمية لممارسي الطب.

الجدير بالذكر أنه يوجد نسخ منه على شكل مخطوط في كل من باريس وأكســفورد وفلورنســا وميونيخ والأسكوريال، ويقع (الموجز في الطب) في أربعة أجزاء، وقد نال تقدير وإجلال أطباء العالم؛ لــذا فقد كَثُرَت ترجمته إلى اللغات الأجنبية وتعدَّدت التعليقات عليه، وقد نُشِر سنة 1406هـ - 1985م في القاهرة بتحقيق عبد المنعم محمد عمر، وكانت قد سبقتها نشرة ماكس مايرهوف ويوسف شاخت ضـــمن منشورات أكسفورد سنة 1388هـ - 1968م.

4- (شرح فصول أبقراط)، وقد طبع في بيروت سنة 1409هـ - 1988م، بتحقيق ماهر عبد القادر ويوسف زيدان.

5- (المهذَّب في الكُحل المجرب)، ونشر في الرباط سنة 1407هـ - 1986م، بتحقيق ظــافر الوفائي ومحمد رواس قلعة جي.

6- (المختصر في أصول علم الحديث)، ونشر بالقاهرة سنة 1412هـ - 1991م بتحقيــق يوسف زيدان[1].

ولاشك أنَّ لكتب ابن النفيس قيمةً كبيرة بالنسبة لتاريخ الطب العربي والغربي على حــدٍّ ســواء، وإضافة إلى ذلك فإنه ألَّف في السيرة وعلم الحديث والنحو والفلسفة والمنطق[2].

1 انظر ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية 1/ 107، البابابي: هدية العارفين 1/ 378، إدوارد فينديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبــوع ص 79، كحالة: معجم المؤلفين 7/ 58، الزركلي: الأعلام، 4/ 271، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص 207، علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب ص452، 453، عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص133، أكرم عبد الوهــاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 42.

2 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 41، وراجع أيضًا ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية 1/ 107.

أما عن طريقته في التأليف يقول ابن قاضي شهبة: "وكانت تصانيفه يمليها من حفظه ولا يحتاج إلى مراجعة لتبحُّرِه في الفن، وقال السبكي: صنَّف شرحًا على التنبيه، وصنَّف في أصول الفقــه، وفي المنطــق، وكان مشاركًا في فنون[1]".

وقال صاحب الأعلام: "وكانت طريقته في التأليف أن يكتب من حفظــه وتجاربــه ومشــاهداته ومستنبطاته، وقلَّ أن يراجِع أو ينقل"، ثم تراه يقول آخرًا: وخلَّف مالاً كثيرًا، ووقف كتبه وأملاكه علــى البيمارستان المنصوري بالقاهرة"[2]!!

وفي أيامه الأخيرة مرض ابن النفيس مرضًا شديدًا، وقد حاول الأطباء أن يعالجوه بالخمر إلا أنــه دفعها عن فمه وهو يقاسي عذاب المرض قائلاً: "لا ألقى الله تعالى وفي جوفي شيءٌ من الخمر"!! ولم يدم في مرضه هذا طويلاً حتى وافته المنية، وكان ذلك سنة 687هـــ - 1288م[3]؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

1 ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية 1/ 107.

2 الزركلي: الأعلام، 4/ 271.

3 انظر الزركلي: الأعلام 271/4، عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص 133، 134، محمد علي عثمان: مسلمون علَّموا العالم ص 51، 52، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 41.

الفصل الثالث: دور العلم في حياة علماء الشرع المعاصرين

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة مالك بن نبي

المبحث الثاني: دور العلم في حياة أبي الأعلى المودودي

المبحث الثالث: دور العلم في حياة محمد الغزالي

المبحث الرابع: دور العلم في حياة عبد العزيز بن باز

المبحث الخامس: دور العلم في حياة الندوي

المبحث الأول: دور العلم في حياة مالك بن نبي

[1905- 1973م]

ميلاده ونشأته

هو "مالك" بن عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي. وُلِدَ في مدينة (تبسة) التابعة لولاية قسنطينة شرقي الجزائر في (ذي القعدة 1322هـ = يناير 1905م) زمن الاحتلال الفرنسي لها، وتأثر بأمه التي عملت بالحياكة، وباعت بعض أثاث البيت لتعلم أولادها[1].

كانت (تبسة) التي قضى فيها معظم طفولته أقرب إلى البداوة وذات حضور فرنسي ضعيف؛ فاستمرَّ في تلقي الدروس في المساجد مع التحاقه بمدرسة فرنسية، وقد تأثَّر بصديقٍ له دائم الاستشهاد بآيات القرآن وتفسيرها تفسيرًا اجتماعيًّا، كما تأثر بأبناء مدينته المعتصمين بالإسلام والعربية حتى لا تذوب هويتهم في هوية المستعمر.

انتقل مالك بعد حصوله على الابتدائية إلى (قسنطينة) ليكمل تعليمه، وهناك تأثر بمعلمه الفرنسي "مارتان" في تذوقه للقراءة، كما تأثر بمجلة "الشهاب" التي تصدرها جمعية العلماء المسلمين، برئاسة عبد الحميد بن باديس.

طالع مالك في تلك الفترة كتابين كان لهما أبلغ الأثر في حياته، هما "الإفلاس المعنوي هل هو للسياسة الغربية في الشرق؟" لـ"أحمد محرم" الشاعر الإسلامي المعروف، و"رسالة التوحيد" للإمام محمد عبده وساعده هذان الكتابان على رؤية أوضاع العالم الإسلامي في تلك الفترة، كما قرأ كتاب "أم القرى" للكواكبي، وتعرَّف على تلاميذ المصلح الكبير "عبد الحميد بن باديس"، كما قرأ لعددٍ من الكُتّاب الفرنسيين، وكان يتردد – أيضًا – على إحدى البعثات التبشيرية الإنجيلية، فتعرَّف على الإنجيل، وناقش هؤلاء المبشرين في أدق الأفكار[2].

كان لهذه الثنائية الثقافية (الإسلامية والغربية) أثرها في تكوينه الفكري، وانعكاساتها الواضحة في كتاباته التي تميزت بالمزاوجة بين المصدرين: بين الانتماء لحضارة الإسلام والرغبة في التطور[3]، ثم سافر مالك في العشرين من عمره إلى باريس، ولم يلبث أن رجع إلى الجزائر بعدما عانى البطالة هناك، لكنه قرر مواصلة دراسته في فرنسا؛ فوصل باريس في (جمادى الأولى 1349هـ= سبتمبر 1930م)، واستطاع خلال فترة

---

1 مالك بن نبي: مذكرات شاهد على القرن، ترجمة: مروان القنواتي ص60.

2 مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، حدث في العام الهجري: http://www.islamonline.net

وموقع مالك بن نبي: http://www.binnabi.net

3 السابق نفسه.

تواجده في فرنسا أن ينهل العلم من حقول متعددة، ويسهم في الكثير من الفعاليات العلمية والثقافية، ولكن تحطمت آماله عندما رُفِضَ طلبُه دراسةَ الحقوق بمعهد الدراسات الشرقية؛ فاتجه إلى دراسة الهندسة[1]..

في هذه الفترة خاض مالك في باريس نقاشاتٍ كثيرة في العقائد مع المسيحيين، وتزوَّج في عام (1350هـ = 1931م) من امرأةٍ فرنسية أسلمت على يديه، واستطاع مالك أن يوسع شبكة علاقاته الفكرية والثقافية في باريس، فالتقى هناك شكيب أرسلان وغاندي، وصار له حضور متميز في أوساط المغاربة والجزائريين، حتى لُقِّب بزعيم الوحدة المغربية، كما استطاع أن يقيم جسور التواصل والتعارف مع أبناء دول أخرى محتلة[2].

في سنة (1354هـ = 1935م) تخرَّج مالك مهندسًا كهربائيًّا؛ وعندما عاد إلى الجزائر لم تَرُقْ له الحياة فيها بعدما تحولت عن زراعة القمح إلى زراعة العنب الذي تُصنَع منه الخمور للفرنسيين المحتلين، فقرر العودة إلى فرنسا سنة (1358هـ = 1939م). وهناك تفرَّغ مالك للعمل الفكري، فعمل صحفيًّا في جريدة اللوموند، وأصدر أول كتبه "الظاهرة القرآنية"، ثم "شروط النهضة" سنة (1369هـ = 1949م)، و"وجهة العالم الإسلامي" الذي عرض فيه مفهوم "القابلية للاستعمار"، و"لبَّيك"، و"فكرة الأفريقية الآسيوية"[3].

رأى مالك في مصر – التي احتضنت في تلك الفترة قضايا التحرر والعروبة – أنها إحدى مواقع التغيير المهمة في العالم الإسلامي، فنزلها وعاش فيها الفترة (1956- 1963م) فأتقن العربية، وحاضر في عدد من الجامعات والمعاهد، وأصبح منزله أشبه بمنتدى فكري يرتاده المثقفون، وأصدر أول كتاب باللغة العربية بخط يده وهو "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، ثم كتاب "تأملات في المجتمع العربي"، وكتاب "ميلاد مجتمع"، و"حديث البناء الجديد"، وتم اختياره مستشارا للمؤتمر الإسلامي بالقاهرة[4].

عاد مالك إلى الجزائر سنة (1383هـ= 1963م) بعد استقلالها وتنقَّل في عدد من المناصب، تركزت جميعها في حقل التعليم، كما تركزت كتاباته في تلك الفترة على عمليات التغيير وإعادة البناء الاجتماعي في الدول الإسلامية، وأصدر عدة كتب، منها: "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، و"المسلم في عالم الاقتصاد"، و"يوميات شاهد قرن"[5].

---

1 مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، الطفل والطالب 28/2.

2 مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

3 السابق نفسه.

4 السابق نفسه.

5 السابق نفسه.

مارس مالك بن نبي أنشطةً ثقافية متعددة؛ كان منها ندوته الأسبوعية التي كان يعقدها في بيتـــه، وكان يقصدها الشباب المثقف، ومع استمرار هذه الندوات ونجاحها، وتكريمًا لشخصية مالـــك حولتـــها الجزائر إلى ملتقى للفكر الإسلامي يُقام كل عام.

في عام (1387هـــ = 1967م) استقال مالك من مناصبه، وتفرَّغ للعمـــل الفكـــري، وألقـــى محاضرة مهمة في سوريا عام (1392هـــ = 1972م) تحت عنوان "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخـــير من القرن العشرين" اعتبرها الكثيرون أنها وصيته للعالم الإسلامي قبل الموت.

منهجه العلمي والفكري

كان مالك بن نبي مفكرًا مبدعًا، وصاحب نظرية عميقة في البناء الحضاري، وامتلكـــت أفكـــاره مكونات القوة، بتركيزها على القضايا الأساسية والمحورية في العالم الإسلامي؛ فاهتم بمشـــكلة الحضـــارة، والنهضة، والثقافة، والاستعمار، والتبعية؛ فدرسها بكل أبعادها في كل مؤلَّفاته، وأبدع فيها، وطوَّر بعـــض مفاهيمها، وهذا ما جعله متخصصًا في العمل الفكري، وصاحب أفكار تتجـــاوز الحساســـيات الطائفيـــة والمذهبية، وتتمتع بالانتشار والقبول، إضافة إلى أن أفكاره غلّبت جانب البناء على الهدم باعتبار أن ذلك هو الأصلح للأمة الإسلامية.

انطلق مالك من فكرة محورية هي أن نهضة أي مجتمع تتم في نفس الظروف التي شهدت مـــيلاده، وعلى هذا فإن إعادة بناء المجتمع المسلم الحديث لا بد أن تنطلق من الفكرة الدينيـــة كأســـاس لأي تغـــيير اجتماعي، لهذا كانت الآية الكريمة (**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**[1])، نقطة ارتكاز مهمة في منظومته الفكرية. ولمالك بن نبي مجموعة من الأفكار المهمة، التي تبين منهجه الفكري، ومنها:

فكرة الحضارة

رأى مالك أنَّ الحضارة إنتاج بشري؛ لذا فالتخلُّف الذي يعيشه المسلمون ينبع في الأســـاس مـــن داخلهم، ويعود إلى طبيعة تشكيل عقليتهم وشخصيتهم التي ترسبت فيها مفردات الثقافة السلبية، وفرق بين المجتمع الفعّال والمجتمع غير الفعّال، فاعتبر أن فاعلية المجتمع تنطلق من فاعلية الإنسان لهذا كان يقـــول: "إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ"[2].

1 (الرعد: 11).

2 مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

وشرط الفاعلية الأساسي عند مالك أن ينظر الإنسان إلى نفسه على أنه صانع التاريخ ومحرِّكــه، فالتاريخ نتائج عملية، وليس مقولاتٍ نظرية، ورأى أن مشكلة المسلم أنه لا يفكر ليعمل بل يفكر ليقـول ويتكلَّم، وقد أدّى ذلك إلى ضياع الاستفادة من المال والوقت والعلم[1].

مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

ينبني مفهوم الحضارة عند ابن نبي على اعتقاده الراسخ بأن "مشكلة كل شعب هي في جوهرهـا مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"[2].

وانطلاقا من هذا الاعتقاد الراسخ بأهمية الحضارة وضرورة "فقه" حركتها منذ انطلاقتها الأولى إلى أفولها يحاول ابن نبي إعطاء تعريف واسع للحضارة، يتحدد عنده في ضرورة "توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولـة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه"[3].

وعلى هذا فكل ما يوفره المجتمع لأبنائه من وسائل تثقيفية وضمانات أمنية، وحقوق ضرورية تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه[4].

والعناصر الضرورية التي تتشكل منها كل الحضارات - حسب مالك بن نبي - هي ثلاثة: الإنسان + التراب + الوقت[5].

الأفكار الميتة والأفكار المميتة

تحدّث مالك عن قضيتين خطيرتين: الأولى تتعلق بالأفكار التي تعوق النهضة الإسلامية، وسماهـا بالأفكار الميّتة والأفكار المميتة، ورأى أن الأفكار الميتة تسكن العقول ولا تدفع حاملها إلى أي مجهـود أو نشاط، فهي معلومات عقيمة متوارثة، وهي أحد أسباب انحطاط الخط البياني الحضاري للأمة الإسلامية. أما الأفكار المميتة فهي الأفكار التي تقتل الإبداع في النفوس بما لها من قدرة على الإخماد وكبح جماح العقـول والهمم.

وهذه الأفكار المميتة تخلق العقلية الاستسهالية، وتغيب القدرة التحليلية في فهم المشكلات المعقدة[1].

---

1 مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

2 إبراهيم رضا: مالك بن نبي وفلسفة الحضارة الإسلامية الحديثة، موقع الإسلام: http://www.islamonline.net

3 مالك بن نبي: شروط النهضة ص 19-20.

4 مالك بن نبي: آفاق جزائرية ص 38.

5 مالك بن نبي: تأملات ص 168.

القابلية للاستعمار

أما الفكرة الثانية فهي القابلية للاستعمار (القابلية للاحتلال)، وهذا المفهوم يُعَدُّ من أشهر مفاهيم مالك التي أبدعها؛ إذ أدرك أن الأمة الإسلامية في خطر، لا لأنها تحت الهيمنة الغربية، ولكن لأنها فقدت كثيرًا من الدوافع التي رفعت من شأنها في القرون الماضية، وأصبح موقعها زمنيًّا في عهد ما قبل الحضارة؛ فالقابلية للاستعمار هي جملة خواص اجتماعية تسهِّل سيطرة الغزاة على الأمة، وتؤدي إلى استمرار الوضع المنحل للحضارة، فهناك مجتمعات تعرضت للاحتلال العسكري لكنها مجتمعات غير قابلة للاستعمار مثل احتلال ألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية، وفي المقابل توجد مجتمعات لم تتعرض للاستعمار لكنها قابلة للاستعمار.

انتقد مالك فرض التسييس للنهضة الاجتماعي، والنظر المتمحور حول دور السلطة في الأصلاح الاجتماعي، ورأى أن هذين الخطأين كانا من أسباب تأجيل عمليات النهضة الاجتماعية.

يعتبر مالك بن نبي ومدرسته من أكثر المدارس الفكرية التي كان لها أثر واضح في تحديد وصنع ملامح الفكر الإسلامي الحديث، خاصة أن هذه المدرسة اهتمت أكثر من غيرها من المدارس الأخرى بدراسة مشكلات الأمة الإسلامية؛ انطلاقًا من رؤيةٍ حضاريةٍ شاملةٍ ومتكاملة؛ فقد كانت جهوده لبناء الفكر الإسلامي الحديث، وفي دراسة المشكلات الحضارية عمومًا متميزة؛ سواء من حيث المواضيع التي تناولها أو المناهج التي اعتمدها في ذلك التناول[2]؛ "وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة، ويحدد العناصر الأساسية في الأصلاح، ويبعد في البحث عن العوارض، وكان كذلك أول من أودع منهجًا محددًا في بحث مشكلة المسلمين على أساسٍ من علم النفس والاجتماع وسُنَّة التاريخ"[3].

ابن خلدون العصر

من الدارسين للفكر الإسلامي الحديث من يعتبر مالك بن نبي ابنَ خلدون العصر الحديث، وأبرز مفكر عربي عُنِيَ بالفكر الحضاري منذ ابن خلدون، ومع أنه قد تمثَّل فلسفاتِ الحضارة الحديثة تمثلاً عميقًا، واستلهم في أحايين كثيرة أعمال بعض الفلاسفة الغربيين فإن ابن خلدون بالذات يظل أستاذه الأول وملهمه الأكبر[1]. ومالك نفسه لا يخفي تأثره بفكر ابن خلدون ونظرياته حول العمران البشري، بل أشار إلى ذلك في مواضع شتّى من كتبه، كما ذكر ذلك في مذكرات حياته "شاهد القرن"[2].

---

1 مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

2 إبراهيم رضا: مالك بن نبي وفلسفة الحضارة الإسلامية الحديثة، موقع الإسلام: http://www.islamonline.net

3 جودت سعيد: "مذهب ابن آدم الأول" ص14-15.

1 فهمي جدعان: "أسس التقدم عند مفكري الإسلام" ص410.

2 ذكر مالك بن نبي في مذكراته شاهد القرن: الطفل والطالب، "جملة من المفكرين المسلمين وغيرهم الذين كان لهم تأثير فكري في حياته" ينظر إلي مذكراته، ترجمة مروان القنواتي.

هكذا ظهر "مالك بن نبي" وكأنه صدى لعلم ابن خلدون، يهمس في وعي الأمــة بلغــة القــرن العشرين، فأظهر أمراض الأمة مع وصف أسباب نهضة المجتمعات، ووضع الاستعمار تحت المجهــر؛ فحلَّــل نفسيته، ورصد أساليبه الخبيثة في السيطرة على الأمم المستضعفة، وخاصة المسلمين، ووضع لهم معــادلات وقوانين "الإقلاع الحضاري"..

ولكن الأمة لم تقلع حضاريًّا؛ وذلك إمّا لثقل حجم التخلف بين أفرادها ومؤسساتها، وإمّا لضعف المحرِّك المقرَّر أن يقلع بها، وإمّا لاجتماع السببين معًا. ومع ذلك فقد بقيت هــذه المعــادلات والقــوانين "نظريات" مفيدة للمحرِّكين الذي يهتمون بانطلاق "المشروع الحضاري" للأمة[1].

1 خالد أبو الفتوح: مقال "نحو وعي سنني"، مجلة البيان، العدد 89.

وفاته

تُوُفي مالك بن نبي في الجزائر في (4 من شوال 1393هـ= 31 من أكتوبر 1973م) وهو في الثامنة والستين من عمره[1]؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث الثاني: دور العلم في حياة أبي الأعلى المودودي

[3 رجب 1321- غرة ذي القعدة 1399هـ= 25 من سبتمبر 1903- 22 سبتمبر 1979م]

ميلاده ونشأته

هو "أبو الأعلى" ابن سيد أحمد، المودودي. ولد في 25 من سبتمبر 1903م، ينتمي إلى أسرة تمتد جذورها إلى شبه جزيرة العرب، فقد هاجرت أسرته إلى الهند في أواخر القرن التاسع الهجري، ونشأ في جو صوفي، وتفتحت عيناه على حياة تفيض بالزهد والورع والتقوى، وقضى طفولته الأولى في مسقط رأسه في مدينة "أورنك آباد الدكن"، بمقاطعة حيدر آباد، وكان أبوه معلمه الأول؛ فَعَلَّمَهُ اللغة العربية، والقرآن الكريم، والحديث الشريف والفقه، وحَفَّظَهُ مُوَطَّأَ الإمام مالك، كما عَلَّمَهُ اللغة الفارسية، يقول المودودي عن والده: "لقد أحسن تربيتي، وعلمني النطق السليم، وكان يحكي لي كل مساء قصص الأنبياء والمرسلين، ووقائع التاريخ الإسلامي، وحوادث الهند، واهتم بأخلاقي؛ وكان يأخذني معه دائمًا عند رفاقه، وكُلُّهُم على درجة عالية من الثقافة والاتزان، فانتقلت إلى من مجالستهم العادات الفاضلة الحسنة"[2]. وأقبل المودودي على التعليم بجدٍّ واهتمام حتى اجتاز امتحان مولوي، وهو ما يعادل الليسانس.

أخلاقه نموذج للعلماء

الاعتماد على النفس:

1 مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

2 مجلة المختار الإسلامي، ربيع الأول 1400هـ ص 84.

عندما أصيب أبوه بالشلل، وأصبح قعيدًا بلا حراك، وضاقت سبل العيش بالأسرة والأبناء، كان على المودودي أن يكافح من أجل لقمة العيش؛ فقرر أن يجعل قلمه وسيلة للرزق.

الاجتهاد الحثيث:

ورغم ضيق العيش، والكد في طلب الرزق، سعى المودودي إلى تعلم اللغة الإنجليزية حتى أتقنها، وصار بإمكانه الاطلاع على كتب التاريخ والفلسفة والاجتماع ومقارنة الأديان باللغة الإنجليزية دون أية صعوبة في فهمها واستيعابها.

حبه للعلماء وارتباطه الروحي بهم:

ارتباطه الروحي بالشهيد سيد قطب:

روى الشيخ "خليل الحامدي" سكرتير الشيخ المودودي، قال: في أحد أعوام الستينيات بمكة المكرمة دخل شاب عربي مسلم على الأستاذ المودودي، وقدم له كتاب "معالم في الطريق" لمؤلِّفه "سيد قطب"، وقرأه الأستاذ المودودي في ليلة واحدة، وفي الصباح قال لي: "كأني أنا الذي أَلَّفْتُ هذا الكتاب"، وأبدى دهشته من التقارب الفكري بينه وبين سيد قطب، ثم استدرك يقول: "لا عجب؛ فمصدر أفكاره وأفكاري واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله ρ".

أمّا عن علاقة الحب والإخاء التي كان يُكِنُّهَا المودودي لقطب رغم بُعد المسافة بينهما؛ فيحكي خليل الحامدي قائلاً: غداة تنفيذ حكم الإعدام بالشهيد سيد قطب، دخلنا على المودودي في غرفته، وكانت الصحافة الباكستانية قد أبرزت الخبر على صفحاتها الأولى، إلا أنه لم يكن قد قرأه بعد، فسبقنا المودودي وقصَّ علينا كيف أنه أحس فجأة باختناق شديد، ولم يدرك لذلك سببًا.. فلمّا عرف وقت إعدام الشهيد سيد قطب من الصحف قال: "أدركت أن لحظة اختناقي هي نفس اللحظة التي شُنق فيها سيد قطب".

ارتباطه الروحي بمحمد إقبال:

وكان شاعر الهند الكبير محمد إقبال من المعنيين بكتابات المودودي، وكتب ذات مرة: "إنّ هذا الشيخ يعرض دين الرسول (ρ) بقلم مداده الدم"، أما المودودي، فيقول: "كان بيني وبين إقبال انسجام كبير في الآراء، والمخطَّط الذي كان في ذهني كان نفسه في ذهن إقبال"، وحين بلغته وفاة إقبال بكى قائلا: "فقدتُ أكبر سندٍ لي في الدنيا بموت هذا الرجل العظيم".. وبعدها بوقت قصير ذهب إلى لاهور وقبل عرضًا من كلية "حماية الإسلام" بأن يكون محاضرًا شرفيًّا، وألقى محاضراتٍ عن الإسلام لمدة عام، كما ألقى محاضراتٍ في عدة جامعات أخرى.

رحلة كفاحه

عمل المودودي في الصحافة في وقت مبكر ، وكان ينتقل من صحيفة إلى أخرى ، ويكتب لها افتتاحيات نارية ، دفاعًا عن الخلافة الإسلامية الآيلة إلى السقوط ، وصار رئيس تحرير مجلة (المسلم) التي تصدرها جمعية العلماء وهو ابن سبع عشرة (1920 – 1923) وبكتابته هذه جمع بين السياسة والإعلام والانكباب على قضايا الإسلام والمسلمين ، شارحًا ومنافحًا.

وبدأ بالكتابة في بعض الجرائد، ثم اشترك مع مدير جمعية علماء الهند في إصدار جريدة مسلم، وصار مديرًا لتحريرها لمدة ثلاث سنوات حتى أُغْلِقَتْ عام (1922م) فانتقل إلى بهو بال، ثم عاد مرة أخرى إلى دلهي سنة (1923م)؛ حيث تولى الإشراف على إصدار جريدة تصدرها جمعية علماء الهند تحمل اسم الجمعية، وظل يتحمل وحده عبء إصدارها حتى سنة (1928م)، التي أتم فيها كتابه "الجهاد في الإسلام" الذي حقّق شهرة عالمية، وقد كتبه ردًّا على مزاعم غاندي التي يدعي فيها أن الإسلام انتشر بحد السيف، وفي عام (1932م) أصدر ترجمان القرآن من حيدر آباد الدكن، وكان شعارها: "احملوا أيها المسلمون دعوة القرآن وانهضوا وحَلِّقُوا فوق العالم".

وكان تأثير المودودي عبر ترجمان القرآن من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار التيار الإسلامي في الهند، وزيادة قوته، وقد تبلور ذلك في حزب الرابطة الإسلامية، وتأكد ذلك من خلال دعوته أثناء المؤتمر الذي عُقد في لنكو سنة (1937م) إلى الاستقلال الذاتي للولايات ذات الأغلبية الإسلامية.

ونتيجة لشهرة المودودي واتساع دائرة تأثيره الفكري في العالم الإسلامي؛ دعاه المفكر والفيلسوف الهندي الكبير محمد إقبال سنة (1937م) إلى لاهور ليمارس نشاطه الإسلامي البارز بها، فَلَبَّى المودودي الدعوة؛ وعند وفاة إقبال في العام التالي تاركًا فراغًا كبيرًا في مجال الفكر والدعوة اتجهت الأنظار إلى المودودي ليملأ هذا الفراغ؛ فبدأ تأسيس الجماعة الإسلامية في لاهور، وتم انتخابه أميرًا لها في (أغسطس 1941م)، وبعد ذلك بعامين نَقَلَتْ الجماعة الإسلامية مركزها الرئيسي من لاهور إلى دار السلام – إحدى قرى بتها نكوت – وكان المودودي طوال هذه الفترة لا يكف عن الكتابة والتأليف.

وفي (نوفمبر 1972م) بعد نحو ثلاثين عامًا من الكفاح طلب المودودي إعفاءه من منصبه كأمير للجماعة الإسلامية لأسباب صحية، وانصرف إلى البحث والكتابة، وفي عام (1979م) فاز المودودي بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام؛ فكان أول من حصل على تلك الجائزة تقديرًا لجهوده المخلصة في مجال خدمة الإسلام والمسلمين.

منهجه الفكري

شَكَّلَ الفكر الإسلامي باتساعه وشموله ومنهجيته إطارًا عامًا لفكره، ومنطلقًا لنظرته. وكان للمودودي موقف ورؤية من كل ما يحيط به في الحياة؛ وتجاوز مرحلة الدعوة باللسان والقلم إلى مرحلة

العمل الحقيقي، حين ألف الجماعة الإسلامية لتقوم بتطبيق ما دعا إليه من آراء نظرية في مجال التشريع الإسلامي حكمًا وقيادةً ومعاملات، وقد بدأ ذلك بإصدار بيان رنان قال فيه:

"لا بد من وجود جماعة صادقة في دعوتها إلى الله، جماعة تقطع صلتها بكل شيء سوى الله، جماعة تتحمّل السجن والتعذيب والمصادرة وتلفيق الاتهامات، وحياكة الأكاذيب، وتقوى على الجوع والعطش والحرمان والتشريد، وربما القتل والإعدام، جماعة تبذل الأرواح رخيصة وتتنازل عن الأموال بالرضا والخيار، وتقدّم كل ما تملك قربانًا في سبيل إقامة مجتمع الإسلام ونظامه، وإن الذين تتوفر لديهم الرغبة في ذلك عليهم أن يجتمعوا في لاهور يوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام 1941م؛ لبحث إجراءات تأسيس حركة إسلامية في شكل منظّم"[1]. ثم سارع بطرح دستور الجماعة، تاركًا المجال للمناقشة الصريحة، حيث انتهوا إلى الموافقة التامة، وبدأ الكيان الإسلامي يتمثل في تجمع جديد، يقوم بتطبيق ما جاء في دستور الجماعة.

كان المودودي مفحمًا في منطقه، فجذب انتباه أنصار الفكرة الإسلامية، واندفعوا يترجمون مقالاته القوية إلى العربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية، حتى انتشرت تعاليم الإسلام على يده صحيحة صريحة في ربوعٍ بذل أصحابها جهد الجبابرة في تشويه هذه التعاليم، ثم توَّج ذلك كله بوضع دستور شامل للحكم الإسلامي لا يزال إلى الآن أهم مرجع معاصر للدارسين[2].

لقد عَبَّرَ الإمام المودودي عن إحساسه بأهمية وجود جماعة مؤمنة مجاهدة تكون أداة للتغيير بقوله: "إنَّ نظام الاستخلاف في الأرض لا يمكن أن يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح أو أفراد صالحين مشتتين في الدنيا، ولو كانوا في ذات أنفسهم من أولياء الله تعالى، بل ومن أنبيائه ورسله، إن الله تعالى لم يقطع ما قطع من المواعيد لأفراد متفرقين مشتتين، وإنما قطعها لجماعة منسقة متمتعة بحسن الإدارة والنظام، بل إن مما لا مندوحة عنه لهذه الفئة المؤمنة أن تستمر في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق على كل خطوة، من كل حلبة من حلبات الحياة الدنيا، وتثبت ما في نفسها من حب للحق، وكفاءة للاضطلاع بأعباء إمامة الأرض، ببذل التضحيات والمساعي في سبيل إقامة الحق، وذلك شرط لم يُستثن منه حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فَأَنَّى لأحدٍ اليوم أن يتمنَّى على ربه أن يستثنه منه".

لم يكن المودودي ليسكت على الخطأ، بل كان يبادر إلى النقد الهادف، جريئًا في الحق، لا يخشى في الله لومة لائم، لا يغتر بالبهرج الكاذب، ولا ينخدع بالبريق الظاهر؛ فواجه بريق الحضارة الغربية، ودرسها دراسة متأنية، فوجدها تنحصر في العلمانية، والقومية، والديمقراطية، وهي أصنام ثلاثة صارت تعبد من دون الله، وقد أنحى المودودي بمعوله حتى تحولت إلى أنقاض[3].

1 محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم والدار الشامية 514/1.
2 السابق نفسه ص 514.
3 السابق نفسه ص 517.

وفي مجال الاجتهاد التشريعي، أفاض المودودي في أصول إسلامية ممتازة، وما أكثر ما خاض المودودي في تشخيص الدواء لما يشيع في جسم العالم الإسلامي من داء، كاتبًا ومحاضرًا ومؤلفًا ومحاورًا ومناظرًا، يقول: "الإسلام لا يزال يعطي الدليل على قوته، فما قامت ثورة من ثورات التحرير الصادقة إلا اعتمدت على آيات القرآن وتوجيهات التشريع، وفي هذه الحركات التحريرية انتفاضات صادقة تحب الدين باطنًا وظاهرًا، وانتفاضات ادّعائية تنادي بالدين لتجذب إليها أعناق المؤمنين، وهي في باطنها الدّفين تخاصمه وتُظهر له العداء، ودليل ذلك أنها لا تعمل على تنفيذ شريعته"[1].

إسهاماته العلمية

درس المودودي هذه الحضارة من مصادرها.. وبين لأبناء أمته بأسلوب مشرق متين أن الإسلام شيء آخر إنساني حضاري.. واستطاع أن يعيد إلى المسلمين ثقتهم بدينهم واعتزازهم بشخصيتهم. يقول المودودي: من عام 1929م إلى عام 1939 أفرغت العديد من خزانات الكتب والمراجع في ذهني، استعدادًا للمهمة الجديدة مهمة الدعوة إلى الإسلام في عصر مُلئ بالأفكار والتيارات يفرض على الداعية أن يتزود بزاد كمي علمي سام وأن يحظى بعصا من البرهان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، ويحقق بها المآرب الأخرى.

في هذه المرحلة أَلَّفَ الإمام المودودي مجموعة من أهم كتبه مثل: نحن والحضارة الغربية، والمسلمون وحركة تحرير الهند، ومبادئ الإسلام، كما ألف كتابه الشهير (الجهاد في الإسلام)، في نحو الخامسة والعشرين من عمره.

بلغ عدد مؤلفات المودودي (140) مصنفًا ما بين كتاب ورسالة، وأكثر من ألف محاضرة، ومن أبرز تلك المؤلفات:

الجهاد في الإسلام (1347 هـ = 1928م)؛ وكان سبب تأليفه لهذا الكتاب أن المهاتما غاندي نقل عنه قوله بأن الإسلام انتشر بحد السيف. وخطب الإمام "محمد علي الجوهري" خطبة في الجامع الكبير بدهلي، وصدح بقولته: "ليت رجلا من المسلمين يقوم للرد"؛ فأراد المودودي أن يكون هذا الرجل، وغربل أمهات الكتب في هذا الموضوع، وأخذ يطالع تاريخ الحروب عند جميع الشعوب قديمًا وحديثًا وكتب حلقات متواصلة في جريدة الجمعية، ثم صدرت في كتاب عام 1928، وكان الدكتور "محمد إقبال" ينصح دائمًا الشباب المسلمين باقتناء هذا الكتاب، وكان تأليف هذا الكتاب نقطة تحول كبيرة للمودودي.

ومن كتبه أيضًا مبادئ الإسلام، وقد تُرجم إلى ثلاثين لغة عالمية ونال رواجًا كبيرًا في أوروبا، واعتنق كثيرون بسببه الإسلام.. وسبب تأليفه أن إدارة التربية والتعليم في ولاية "حيدر آباد الدكن" كلفت

---

1 السابق نفسه ص 521.

المودودي بوضع منهج التربية الإسلامية في مدارسها، والطريف أنه لم يكتب شيئا حتى جاءه إخطار بضرورة تسليم الكتاب خلال أسبوع فأنجزه بالفعل في هذا الوقت اليسير.

وله مجموعة كبيرة من الكتب الشهيرة التي غيرت الكثير من الأفكار وتربى عليها جيل بكامله، منها: حضارة الإسلامية (أصولها ومبادؤها) (1350 هـ = 1932م)، نظرية الإسلام السياسية (1358 هـ = 1939م)، تجديد وإحياء الدين (1359 هـ = 1940م)، الاصطلاحات الأربعة الأساسية في القرآن (1360 هـ = 1940م)، الإسلام والجاهلية (1360 هـ = 1941م)، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية (1364 هـ = 1945م)، الدين الحق (1366 هـ = 1947م)، نظام الحياة في الإسلام ومبادئه الأساسية (1367 هـ = 1948م)، حقوق أهل الذمة (1367 هـ = 1948م)، مطالب الإسلام تجاه المرأة المسلمة (1372 هـ = 1953م)، قضية القاديانية (1372 هـ = 1953م)، تفسير تفهيم القرآن: ويقع في سبعة مجلدات؛ بدأه (1360 هـ = 1941م)، وأتمه (1392هـ = 1972م)، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ بدأه (1392 هـ = 1972م)، وأتمه قبيل وفاته، وهو آخر مؤلفاته..

ومن مؤلفاته كذلك: أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة، معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام، إلى أي شيء يدعو الإسلام، الربا، الحجاب، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، الإسلام والمدنية الحديثة، تذكرة دعاة الإسلام، في محكمة العقل، قضية كشمير المسلمة، مبادئ أساسية لفهم القرآن، مسألة ملكية الأرض في الإسلام، مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، نحن والحضارة العربية الرأسمإلية والشيوعية، نظرة عابرة على حقوق الإنسان الأساسية..

فضلاً عن مؤلفات أخرى عديدة، حظيت بشهرة عريضة في جميع أنحاء العالم ولقيت قبولا واسعًا في قلوب المسلمين في شتى البقاع؛ فترجم الكثير منها إلى العديد من اللغات..

وقد بلغ عدد اللغات التي ترجمت مصنفات المودودي إليها ست عشرة لغة، منها: الإنجليزية، والعربية، والألمانية، والفرنسية، والهندية، والبنغالية، والتركية، والسندية...، ونالت استحسان ورضى المسلمين على شتى مستوياهم واتجاهاهم.

وقد حظيت مؤلفات المودودي بشهرة عريضة في جميع أنحاء العالم ولقيت قبولا واسعًا في قلوب المسلمين في شتى البقاع؛ فترجم الكثير منها إلى العديد من اللغات..

وقد بلغ عدد اللغات التي ترجمت مصنفات المودودي إليها ست عشرة لغة، منها: الإنجليزية، والعربية، والألمانية، والفرنسية، والهندية، والبنغإلية، والتركية، والسندية...، ونالت استحسان ورضى المسلمين على شتى مستوياهم واتجاهاهم.

أقوال العلماء عن المودودي

الشهيد سيد قطب

كان الشهيد سيد قطب يسمي المودودي "المسلم العظيم".

العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي

"إنني لا أعرف رجلا أثَّرَ في الجيل الإسلامي الجديد، فكريًّا وعمليًّا مثل المودودي، فقد قامت دعوته على أسس علميَّة، أعمق وأمتن من تلك التي تقوم عليها الدعوات سياسية، أو ردود فعل للاستعمار الأجنبي، وكانت كتاباته وبحوثه موجهة إلى معرفة طبيعة هذه الحضارة الغربية، وفلسفتها في الحياة وتحليلها تحليلا علميا، قلما يوجد له نظير في الزمن القريب، ولقد عرض الإسلام ونظم حياته وأوضاع حضارته وحكمة سياسته وصياغته للمجتمع والحياة، وقيادته للركب البشري والمسيرة الإنسانية في أسلوب علمي رصين، وفي لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل المثقف، وتملأ الفراغ الذي يوجد في الأدب الإسلامي من زمن طويل... ومن مآثره الخالدة .. أنه حارب "مُرَكَّب النقص" في نفوس الشباب الإسلامي فيما يتصل بالعقائد والأخلاق ونظام الحياة الإسلامية.. وكان لكتاباته فضل كبير لإعادة الثقة إلى نفوس هؤلاء الشباب بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث"[1].

العلامة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي

يقول: "المفكر المجدد، صاحب النظر العميق، والتحليل الدقيق، ناقد الحضارة الغربية على بصيرة، والداعي إلى نظام الإسلام على بينة، صاحب الكتب والرسائل التي ترجمت إلى عشرات اللغات، الذي وقف في وجه دعاة (التغريب) وأعداء (السنة)، والمنادين بنوبة جديدة (القاديانية)، و(المرتزقة) من الخرافيين والقبوريين و(مشوشي الفكر) من المقلدين الجامدين.. مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية"[2].

المستشار عبد الله العقيل

"والعلامة المودودي علم من أعلام الإسلام المعاصرين، ومفكر من مفكريه، وداعية من دعاته، آتاه الله الحكمة وبعد النظر، والعمق في الفهم، والصبر على العلم، والتأمل في الواقع، والدراسة الميدانية للأفكار الرائجة، والأوضاع السائدة، والتتبع لمصادر المعرفة وتمييزها وتوثيقها، والنقد الموضوعي لحضارة الغرب، بأخذ الصالح منها وطرح الضار، وتقديم الإسلام كحل لمشكلات الحياة في جميع جوانبها".

جائزة الملك فيصل العالمية

---

1 مجلة الاعتصام، العدد 12، ذو الحجة، سنة 1399هـ.

2 عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة ص 339- 340.

منح العلامة المودودي جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وهي أول جائزة تمنح لداعية إسلامي ومفكر، وتسلمها بالنيابة عنه ابنه فاروق في حفل كبير، رعاه الملك خالد بن عبد العزيز، بمدينة الرياض، في ربيع الأول سنة 1399هـ.

دراسات عن المودودي

- أبو الأعلى المودودي: حياته وفكره العقدي: حمد بن صادق الجمال (1401هـ= 1986م).
- أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته: د. سمير عبد الحميد إبراهيم (1399 هـ = 1979م).
- أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية: د.محمد عمارة (1407 هـ = 1987م).
- من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة: المستشار عبد الله عقيل سليمان العقيل (1423هـ- 2002م).
- أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته: أليف الدين الترابي.
- في ذكرى الإمام أبي الأعلى المودودي: مصطفى الطحان، مركز الدراسات الإسلامية.

وفاته

توفي المودودي في (غُرَّة ذي القعدة 1399 هـ = 22 من سبتمبر 1979م)، وهو مؤمن بمبدئه ثابت عليه؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث الثالث: دور العلم في حياة محمد الغزالي

[5 من ذي الحجة 1335 – 19 من شوال 1416هـ = 22 من سبتمبر 1917- 9 من مارس 1996م]

ميلاده ونشأته

هو محمد الغزالي أحمد السقا. وُلِدَ في قرية (نكلا العنب) بإيتاي البارود بمحافظة البحيرة في مصر، في (5 من ذي الحجة 1335هـ = 22 من سبتمبر 1917م)، وقد سُمِّي الشيخ محمد الغزالي بهذا الاسم تيمنًا من والده بالإمام أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ)[1].

نشأ الشيخ محمد الغزالي في أسرة كريمة ملتزمة بتعاليم الإسلام، فأتمَّ حفظ القرآن بكُتّاب القرية في العاشرة، ويقول الغزالي عن نفسه وقتئذٍ: "كنت أتدرب على إجادة الحفظ بالتلاوة في غُدُوِّي ورواحي، وأختم القرآن في تتابع صلواتي، وقبل نومي، وفي وحدتي، وأذكر أنني ختمته أثناء اعتقالي، فقد كان القرآن مؤنسًا في تلك الوحدة الموحشة"[2].

ثم التحق بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي حتى حصل على شهادة الكفاءة، ثم الثانوية الأزهرية، ثم انتقل إلى القاهرة سنة (1356هـ = 1937م) فالتحق بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وبدأت كتاباته في جريدة (الإخوان المسلمون) أثناء دراسته بالسنة الثالثة في الكلية سنة (1359هـ= 1940م)، وظلَّ الإمام حسن البنا يشجِّعه على الكتابة حتى تخرَّج سنة (1360هـ = 1941م)، ثم حصل على درجة العالمية سنة (1362هـ= 1943م) وعمره ست وعشرون سنةً، ثم بدأت بعدها رحلته في الدعوة في مساجد القاهرة[3].

شيوخه

تلقَّى الشيخ الغزالي العلم عن الشيخ عبد العظيم الزرقاني، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد أبي زهرة، والدكتور محمد يوسف موسى وغيرهم من علماء الأزهر الشريف..

وقد انضم في شبابه إلى جماعة الإخوان المسلمين وتأثَّر بمرشدها الأول حسن البنّا.

---

1 يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، نقلاً عن موقع القرضاوي على الشبكة الدولية: http://www.qaradawi.net

2 موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org/

3 موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org/

ويقول الشيخ الغزالي عن هذه الفترة من حياته: "وإني أعترف – رَادًّا الفضل لأهله – بأني واحد من التلامذة الذين جَلسوا إلى حسن البنّا، وانتصحوا بأدبه، واستقاموا بتوجيهه، واستفادوا من يقظاته ولَمَحَاته"[1].

وقد ظهر أول مؤلَّفاته للنور تحت عنوان (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) سنة 1947م، وفي العام التالي تم حلُّ جماعة الإخوان المسلمين، واعتقال أعضائها ومنهم الشيخ الغزالي، حيث أُودِعَ معتقلَ الطور، ثم خرج الشيخ ~ من المعتقل عام 1949م[2].

جوائز

نال الشيخ ~ العديد من الجوائز والتكريم الذي كان أهلاً له؛ ومن أهم الجوائز التي حصل عليها: جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم الإسلامية عام 1989م[3].

من مؤلَّفاته

أثرى الشيخ ~ المكتبة الإسلامية بالعديد من الكتب التي لا نظير لها في تنوعها، وسهولتها مع عمقها الفكري، وبلاغتها، وجِدَّة مواضيعها، ونفاذها إلى القلب، كل ذلك في آنٍ واحد، ومن هذه المؤلَّفات: عقيدة المسلم، وكيف تفهم الإسلام؟، وهموم داعية، وخلق المسلم، ومع الله، والحق المر.

كما كان الشيخ مجاهدًا في سبيل نشر حقائق الإسلام، ومواجهة خصومه؛ فألَّف: معركة المصحف، والإسلام المفترى عليه، والإسلام والمناهج الاشتراكية، والاستعمار أحقاد وأطماع، والإسلام في مواجهة الزحف الأحمر، والتعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، وقذائف الحق، وصيحة التحذير من دعاة التنصير، ومن هنا نعلم.

وكان من القضايا التي نذر الشيخ لها نفسه القضاء على سلبية المسلمين في مواجهة الاستبداد والتخلُّف؛ فألَّف لذلك: الإسلام والطاقات المعطلة، والإسلام والاستبداد السياسي، والإسلام والأوضاع الاقتصادية، وسِرّ تأخر العرب، والكثير من الأعمال المهمة؛ حيث بَلَغت مؤلَّفاته أكثر من خمسين عملاً، وكان لها تأثير قوي على الأمة الإسلامية كلها.

منهجه العلمي والفكري

---

1 الغزالي: في موكب الدعوة ص 11.

2 محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ج1، نقلاً عن موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org/

3 موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org/

يُعَدُّ الغزالي أحد أهم أعلام الفكر الإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين؛ وقد عُرِفَ عنه تجديدُه في الفكر الإسلامي، ويتميز فكر الغزالي بأنه يعتز بالمصلحين ويُقِرُّ بفضلهم، ويُقَدِّرُ مواقفهم، ويتخير من آرائهم ولكنه لا يتحيز لفكرهم.

كان من منهج الشيخ الغزالي ~ رفض دخول العوام، وأنصاف العلماء حلبة الإفتاء، وكان يراهم مدَّعين، وكثيرًا ما تعرَّض ~ لتطاولهم، وإساءاتهم؛ يقول الغزالي: "وَدِدتُ لو أُعِنتُ على محاكاة أبي حامد الغزالي مُؤَلِّفِ "إلجام العوام عن علم الكلام"؛ فَأَلَّفْتُ كتابًا عنوانه "إلجام الرَّعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومُشكِلِ الآثار"؛ لأمنعهم عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم"[1].

"ورغم أن الغزالي كان شديد الإعجاب بالأفغاني وفكره في الأصلاًح السياسي إلا أنه لا يعتبر تغيير الحكومات هو الحل الجذري لأن رفع مستوى الشعوب لا يتأتى إلا بالتربية الصحيحة التي تمثل القوة الفعلية لنهضة الأمم"[2].

وكان الشيخ ~ يرى الجهاد التربوي – كما فعل محمد عبده – هو أقرب مناهج الأصلاًح للصواب ويتفق الغزالي مع محمد عبده في تقديم العمل التربوي الجماهيري على العمل السياسي الضيق "فالفساد يهبط من أعلى إلى أدنى، والأصلاًح يصعد من أدنى إلى أعلى"[3].

وقد توجَّه نحو دراسة أحوال المجتمع المسلم فجاءت قضية المرأة، وتوسيع دائرة تعليمها، وفتح المجال لإسهاماتها في مقدمة منهاجه العملي في الأصلاًح الاجتماعي. وهو مسار طويل بدأه ابن باديس والإمام محمد عبده، وتلميذه رشيد رضا وجاء الغزالي بعد حسن البنا فوسَّعه وعمق نطاقه دون التقليل من شأن الأصلاًح السياسي.

يؤيد الغزالي ابن باديس المصلح الجزائري الكبير الذي آمن بحق المرأة في التعلم وطالب بمشاركتها في عملية بناء الأمة"[4].

كما يُعد الغزالي من أبرز الدعاة المنافحين عن اللغة العربية في هذا العصر، وكان يصرخ بحرقة: "اللغة العربية في خطر، أدركوها قبل فوات الأوان"[5]؛ وقد اقترح الشيخ عدة مقترحات عملية لخدمة اللغة العربية في مجالات النحو والمعجم[1].

1 الغزالي: علل وأدوية 81- 82.
2 الغزالي: الحق المر 162/2.
3 محاضرات الشيخ الغزالي ص 139.
4 تراثنا الفكري ص 48.
5 محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص 107.

وكان الغزالي يتذوق الشعر ويحفظه، ويستشهد به في كلامه وفي كتاباته وفي مواقفه المختلفة، ومع أنه كان مولعًا بالشعر القديم ـــ وبخاصة شعر المتنبي ـــ إلا أنه كان يحفظ أيضًا الشعر الحديث ـــ وبخاصة شعر أحمد شوقي ـــ وكان يتابع كل جديد ينشر في مجال الأدب والشعر ويقرأ للمعاصرين له، ولكنه يمقت الشعر المرسل، وقد برر موقفه النقدي هذا في قوله: «قد ظل العرب أقل من عشرين قرنًا يصوغون شعرهم حسب البحور المأثورة عنهم، حتى جاء هذا العصر الأنكد بما يسمى: الشعر المرسل، محاكاة للشعر الأوربي كما يقولون.. "[2]، "لماذا أيها القوم تسمون أنفسكم شعراء إذا كنتم لا تحسنون قرض الشعر وبناء القصيد، لماذا لا تحاولون أن تكونوا ناثرين بعد استكمال القدرة العقلية واللغوية"[3]؛

ولا أدل على تجديده الفكري من الضجة التي أثارتها بعض كتبه؛ ومن ذلك كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، الذي يُعَدُّ من أشهر كتب الغزالي، وقد أحدث ضجة فكرية كبيرة بين الباحثين؛ إذ جمع فيه المؤلف الكثير من أفكاره النقدية في موضوع المرأة.

ومن خلال استقراء فكر الغزالي نجد فلسفته التربوية تركز على ضرورة الأصلاًح الشامل وضرورة تقديم الفكر الإسلامي المنفتح عن طريق السلوك الحميد، وعن طريق التعاون مع كل من يمكـــن التعـــاون معهم؛ لأن الحكمة لا وطن لها فأينما وجدها المسلم فهو أحق الناس بها. حاول الغزالي في تفسيره للقـــرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتراث الإنساني الضخم أن يرسم معالم التربية الإسلامية السليمة ويستخلص جوهر المنهج المتفتح الذي أرساه الإسلام فجاءت أطروحات الغزالي ومقالاته المتفرقـــة، وكتبـــه الكـــثيرة، وأشرطته السمعية المتنوعة لحل المشكلات الثقافية والاجتماعية المعاصرة.

تقوم فلسفة الغزالي التربوية على الإيمان بالفروق الفردية ورعاية المواهب الإنسانية وتشغيل الطاقات المعطلة.

أقوال العلماء عن الغزالي

قال عنه العلامة القرضاوي: "قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه، وإمام من أئمة الفكر والـــدعوة والتجديد.. بل نحن أمام مدرسة متكاملة من مدارس الدعوة والفكر والأصلاًح، لها طابعها وأسلوبها ولهـــا مذاقها الخاص، وتحتاج إلى دراسات عديدة لإبراز خصائصها ومواقفها وآثارها؛ فليس الغزالي ملك نفســـه ولا ملك جماعة أو حركة ولا ملك قطر أو شعب بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء"[4].

---

1 السابق نفسه ص89- 90.

2 السابق نفسه ص 103.

3 السابق نفسه ص 105.

4 القرضاوي: في الذكرى الحادية عشرة لرحيل.. الغزالي، على موقع القرضاوي: http://www.qaradawi.net

قال العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي: "كنت حريصًا على الاجتماع بالشيخ محمد الغزالي، فهو من شخصيات الإخوان المسلمين البارزة، وأحد كتاب النهضة الدينية بمصر"[1].

الدكتور عبد الصبور شاهين: " قَرَأَتِ الدنيا له عشرات الكتب في الإسلام ودعوته، وتلقّت عنه ما لم تتلقَّ عن أحد من معاصريه، حتى إن عصرنا هذا يمكن أن يطلق عليه في مجال الدعوة: عصر الأستاذ الغزالي"[2].

الدكتور جابر قميحة: "لقد جسَّم الغزالي الرضا، والأمر، والتكليف، والضيق والتقزز.. فبدت في صورة حسية مجسَّدة، كما شخص: النفس والمشاعر؛ فإذا بها في صورة حية نابضة"[3].

تلاميذه

تتلمذ على الغزالي عدد كبير من طلبة العلم الذين صاروا فيما بعد علماء أجلاء طبقت شهرتهم الآفاق، ومن هؤلاء العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، والشيخ منّاع القطان، والدكتور أحمد العسّال.. وغيرهم.

دراسات عن الغزالي

- الشيخ الغزالي كما عرفته.. رحلة نصف قرن: أ.د يوسف القرضاوي.
- كيف نتعامل مع القرآن. في مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي: عمر عبيد حسنة.
- هكذا علمني محمد الغزالي: علاء الدين آل رشي.
- الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره: عماد الدين خليل، عبدالحليم عويس، وآخرون.
- دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي: أحمد حجازي السقا.
- الشيخ محمد الغزالي: تاريخه، جهوده، وآراؤه: عبدالحليم عويس.
- خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة: دار الاعتصام.

1 أبو الحسن الندوي: مذكرات سائح في الشرق العربي، نقلاً عن: عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية ص 28.
2 وصفي عاشور أبو زيد، كيف ندعو إلي الإسلام في زمن العولمة وعصر الهجوم على الإسلام (في فكر الشيخ محمد الغزالي)، مجلة الوعي الإسلامي، العدد رقم: 493، بتاريخ 23 ديسمبر 2006م.
3 جابر قميحة: عشر سنوات على رحيل الغزالي الأديب، على موقع الغزالي، ورابطه: http://www.alghazaly.org

- الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية: أ.د محمد عمارة.
- الداعية الناجح في فكر الغزالي، وصفي عاشور أبو زيد.
- الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر: عمار الطالبي.
- ملامح الفكر السياسي للشيخ محمد الغزالي: محمد وقيع الله.

وفاته

تُوُفِّي يوم السبت (19 من شوال 1416هـ = 9 من مارس 1996م) في السعودية أثناء مشاركته في مهرجان الجنادرية الثقافي بالمملكة العربية السعودية، حول موضوع (الإسلام وتحديات العصر)، ودُفِنَ بالبقيع، وكان قبلها قد صرَّح بأن أمنيته أن يُدفَنَ في البقيع، وقد تحقَّق له ما تمنى[1]؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه ن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المبحث الرابع: دور العلم في حياة عبد العزيز بن باز

[ذو الحجة 1330- المحرم 1420هـ = نوفمبر 1912- مايو 1999م]

ميلاده ونشأته

هو عبد العزيز بن عبد الله بن باز. وُلِدَ في ذي الحجة سنة 1330هـ بمدينة الرياض، وكان مبصرًا، ثم أصابه مرض في عينيه عام 1346هـ فضَعُف بصره، ثم فقده بالكلية عام 1350هـ، ولكنه اجتهد فحفظ القرآن الكريم قبل سِنِّ البلوغ2.

شيوخه

1 محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم ج1، موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org/.

2 محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص 33.

جَدَّ الشيخ في طلب العلم على أيدي أفاضل علماء المملكة، ومن أبرزهم: محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وصالح بن عبد الوهاب، وسعد ابن حمد بن عتيق (قاضي الرياض)، وحمد بن فارس (وكيل بيت المال في الرياض)، ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ (مفتي المملكة العربية السعودية الأسبق ~)، الذي لازم ابن باز حلقاته صباحًا ومساءً، وتلقَّى عنه جميع العلوم الشرعية ابتداءً من سنة 1347هـ، وحتى سنة 1357هـ حين رشحه آل الشيخ للقضاء، وأخذ علم التجويد عن الشيخ سعد وقّاص البخاري (من علماء مكة المكرمة) عام 1355هـ[1].

جمعه صفات أهل العلم

لقد حوى الشيخ ~ العديد من أخلاق أهل العلم؛ فقد كان شديد التعظيم للسُّنة والتطبيق المستمر لها، كما كان يتصف بالرِّقة وكثرة البكاء عند سماع القرآن، أو بعض الحديث، أو سِيَرِ العلماء الأجلاّء، أو أخبار المستضعفين من المسلمين، أو الشعر الجيد المؤثر، ولم يدفعه علمه الغزير للكِبْر؛ فكان شديد التواضع، مع علوِّ مكانته ومنزلته، يتصف بالحِلم العجيب الذي يفوق الحدّ. واتصف ~ بالأدب الجم، والذوق الرفيع، وكان واسع الكرم والسخاء، سواء بالمال أو الوقت أو العلم أو الإحسان أو الشفاعة، ورفض أن يكتب القصر الذي بُنِيَ خصيصًا له باسمه – عندما تولى رئاسة الجامعة الإسلامية – وقال: "يبقى القصر باسم رئيس الجامعة الإسلامية؛ وكل من تولى رئاسة الجامعة فالقصر سكنٌ له"[2].

وقد وهبه الله Y ذاكرةً قويةً كانت تزيد مع تقدمه في السن، كما كان صاحب همَّة عالية، وعزيمة قوية لا تستصعب شيئًا، وكان ديدنه العدل في الأحكام سواء مع المخالفين أو الموافقين، ومن مآثره العظيمة، وأخلاقه الجليلة الثبات على المبدأ وعلى الحق، وكان يجمع إلى ذلك سعة الأفق، وبُعد النظر، والوفاء ودقة الموعد[3].

أعماله وإنجازاته

كان القضاء أول عمل تولاّه سماحة الشيخ في مدينة الخرج في الفترة (1357- 1371هـ)، إضافة إلى إمامة الناس، وخطبة الجمعة، وإلقاء الدروس في حلقات مستمرة أيام الأسبوع عدا يومي الثلاثاء والجمعة، ولديه طلاب كثيرون متفرغون لطلب العلم.

انتقل إلى الرياض في عام 1372هـ للتدريس في معهد الرياض العلمي، ثم في كلية الشريعة بعد إنشائها سنة 1373هـ، إلى أن صار نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام 1381هـ، وقد أسس حلقة التدريس في الجامع الكبير بالرياض منذ انتقل إليها، ولازمها كثير من طلبة العلم، وأثناء وجوده

---

1 الإنجاز في ترجمة الإمام عبد العزيز بن باز، نقلاً عن موقع الشيخ ابن باز على الشبكة الدولية: http://www.bin-baz.org.sa

2 عمر عبد الله: قبسات وعظات من حياة العلامة الزاهد ابن باز، مجلة الفرقان، العدد 447.

3 محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص 39- 41.

بالمدينة المنورة من عام 1381هـ نائبًا لرئيس الجامعة، ثم رئيسًا لها (1390هـ - 1395هـ)، عقد حلقة للتدريس في المسجد النبوي1.

حَجَّ الشيخ ابن باز اثنتين وأربعين حِجَّة؛ أولها عام (1349هـ)، ثم حَجَّ بعدها أربع حِجّات متفرِّقات، ثم لم يترك حجة - (37 حجة متتابعة) - في الفترة (1372- 1418هـ)2.

إسهاماته العلمية

جمع الشيخ ابن باز علومًا شتّى؛ فإذا رأيته يتكلم في علم من العلوم ظننت أنه تخصصه، وأنه لا يحسن غيره، فهو إمام في الحديث وعلومه، ومعرفة رجاله وأحوال رواته، ومعرفة صحيحه من ضعيفه، وهو فقيه من الطراز الأول، وإذا نُوقِش في العقيدة ظننت أنه لا يحسن غير هذا الفن، وهو هكذا إذا تحدث في التفسير، ويتعجب السامع له من دروسه في علم الفرائض، وضبط مسائله، وقسمة التركات، وكأنه يقرأ من كتاب.

مؤلَّفاته

ترك الشيخ ابن باز مؤلَّفاتٍ وآثارًا علمية كثيرة تناولت جوانب عديدة؛ وكان منها المخطوط، ومنها المسموع، ومنها المطبوع، ومن أهمها:

الفوائد الجلية في المباحث الفرضية؛ وهو من أوائل مؤلفاته، وكانت طبعته الأولى في (1358هـ)، واهتم الشيخ ~ بتوضيح العبادة الصحيحة؛ فألَّف: التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة (توضيح المناسك)؛ وقد جمعه عام (1363هـ)، حين كان قاضيًا في الخرج، وطُبِعَت منه طبعات كثيرة، وتُرْجِمَ إلى عدة لغات، وثلاثَ رسائل في الصلاة، ورسالتين موجزتين في الزكاة والصيام، كما أنَّ له مجموع فتاوى ومقالات؛ جمعها الدكتور محمد بن سعد الشويعر، وخرج منها للنور ثمانية عشر مجلدًا، واهتم الشيخ ببيان العقيدة الصحيحة، وحذَّر من البدع، وأبان أضرارها؛ فأخرج: كتاب العقيدة الصحيحة وما يضادُّها، والتحذير من البدع، ووجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه، كما أدلى بدلوه في مواجهة الحملة ضد سنَّة رسول الله ρ فأخرج كتاب وجوب العمل بسنة الرسول ρ وكفر مَن أنكرها.

وكان له إسهاماته في مجال التأليف الدعوي؛ فقد ألَّف: الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، حكم السفور والحجاب ونكاح الشِّغار، نقد القومية العربية، الجواب المفيد في حكم التصوير، الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، حاشية مفيدة على فتح الباري، الجهاد في سبيل الله.

---

1 السابق نفسه ص 45- 48.

2 السابق نفسه ص 113.

ولسماحة الشيخ بحوث علمية، وردود فقهية واجتماعية نشرت في العديد من المجلات والصحف داخل المملكة وخارجها، هذا إلى جانب الأعداد الضخمة من الفتاوى التي ردَّ بها على مستفتيه المنتشرين في مختلف أنحاء العالم.

إجلاله لأهل العلم

لأهل العلم منزلة خاصة عند الشيخ؛ إذ كان يحبهم ويقدرهم حقَّ قدرهم، ويُنزلهم منازلهم اللائقة بهم1، ومن مواقفه المشهودة في ذلك؛ ما رواه الشيخ محمد المجذوب (من علماء المغرب) عن غضب الشيخ ورعدته وخطابه الذي أرسله إلى الحكومة المصرية عند إعلان قرار المحكمة بإعدام العالم الجليل سيد قطب وإخوانه رحمهم الله، وكانت برقيةً تقطر نارًا، ختمها الشيخ بقوله تعالى: {**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**2}3، وكانت البرقية الوحيدة من أنحاء العالم الإسلامي التي تحمل أشد العبارات قسوةً.

ومما يذكر في هذا المقام أيضًا؛ طلبه الاطلاع على رسائل الشيخ حسن البنا؛ فلما قرئت عليه أبدى إعجابه ببعضها، وعلق تعليقًا يسيرًا على البعض الآخر4.

ثناء العلماء عليه

كان لسماحة الشيخ منزلة عظيمة سامية عند الجميع كبارًا وصغارًا وفي كل مكان من أرض الإسلام؛ وقد زاره الشيخ محمد الغزالي مرة، ولما همَّ بالخروج قال: "نحن بخيرٍ ما دام فينا هذا الرجل"5.

وقال عنه عبد الله بن سليمان بن منيع: "ولقد تقلَّد القضاء - حفظه الله - في آخر شبابه ومستهل كهولته ، فكان نِعْمَ القاضي العادل، ونعم القاضي العالم، ونعم القاضي المرضي، فما من حكم يصدر من سماحته في قضائه إلا هو موضع التسليم والرضى والقناعة من طرفي الخصومة ، لما يتمتع به - حفظه الله - من القبول لدى الجميع، والقناعة به من الجميع، والاطمئنان إلى ما يحكم به من الجميع"6.

منهجه العلمي والفكري

منهجه في العقيدة:

---

1 السابق نفسه ص 245.
2 (النساء: 93).
3 محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، 1/77- 106.
4 محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص 263.
5 السابق نفسه ص 281.
6 محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، 1/77- 106.

يرى الشيخ الإيمان بصفات الله تعالى على ما وردت دون تكلف لتأويل أو تعطيل، ويرى الشيخ أنه لا وسيلة لتثبيت العقيدة كالدلالات الحاسمة من الكتاب والسنة، وكل تعويل على ما سواها مما ذهب إليه علماء الكلام مؤدٍّ إلى الاضطراب والتشويش1.

منهجه في الفقه:

يأخذ بأصول الإمام أحمد، غير أنه لا يتقيد بالمذهب، إذا ظهر له الدليل على خلافه، ويفضل الاجتهاد في تقصي الأدلة2.

منهجه في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

كان الشيخ داعيًا إلى الله عاملاً بما يقول، يغار على دين الله، يُجِلُّ أهل العلم، وينصح لهم، ولا يُفوِّت فرصة للخير إلا سعى إليها سعيًا حثيثًا، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويفعل الخير، ويحث الناس عليه.. فكان إذا ثبت لديه وقوع منكر من شخص أو جهة كتب إليهم، وخاطبهم مشافهة، أو استدعى من يعنيه الأمر، ثم أنكر عليه بلطف، وبيّن له الأدلة على ما يقول، ورغّبه في الخير، وحذره من الشر؛ فما يكاد يقوم بهذا الأمر إلا ويجد قبولاً واستجابة، وكم درأ الله بمنهجه هذا من مفسده! وكم قضى على منكر! وكم أحيا من سنة! وقمع من بدعة!3

وكان من منهجه ~ مع طلابه؛ تربيتهم على مكارم الأخلاق، وتدريبهم على البحث والنظر في الأدلة واتباعها، واحترام العلماء، وتنزيلهم منازلهم4.

أهم المناصب التي تولاّها

تولى الشيخ ~ رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ثم منصب مفتي عام المملكة ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء، كما كان رئيس وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وكذلك رئيس المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

ومن مسؤولياته الجِسام: رئاسة المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة التابع لرابطة العالم الإسلامي، وكان عضوًا بالمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وعضو الهيئة العليا للدعوة الإسلامية.

---

1 السابق نفسه 77/1- 106.

2 السابق نفسه 77/1، 106.

3 محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص 343.

4 محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، 1/ 77- 106.

وتولَّى الشيخ ~ القضاء في منطقة الخرج سنة 1357هـ لأكثر من أربعة عشر عامًا، وتولَّى التدريس في المعهد العلمي بالرياض سنة1372هـ، وكلية الشريعة بالرياض سنة1381هـ، في علوم الفقه والتوحيد والحديث، وقد عُيِّن في عام 1381هـ نائبًا لرئيس الجمعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم تولَّى رئاسة الجامعة الإسلامية في سنة1390هـ[1].

وفاته

توفِّي الشيخ ابن باز يوم الخميس (27 من المحرم 1420هـ) عن عمر يناهز 89 سنة بعد حياة عامرة بالعلم تعلُّمًا وتعليمًا؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه الله Y عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء[2].

المبحث الخامس: دور العلم في حياة الندوي

[6 محرم 1333- 23 رمضان 1420هـ= 1914- 31 ديسمبر 1999م]

ميلاده ونشأته

هو "أبو الحسن" علي بن فخر الدين، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي {. ولد بقرية "تكية" بمديرية "راي بريلي" في الولاية الشمالية بالهند في (6 محرم 1333هـ= 1914م)، كان والده[3] علامة الهند ومؤرخها، وكانت والدته[4] من السيدات الفاضلات؛ تحفظ القرآن الكريم وتقول الشعر، وتؤلف الكتب، توفي والده وهو دون العاشرة فأشرف أخوه الكبير على تربيته، فحفظ القرآن، وتعلم الأردية والإنجليزية

1 السابق نفسه 1/77- 106.

2 محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز، 587.

3 والده هو (العلامة السيد عبد الحي الحسني) ولد في (18 رمضان 1286هـ= 22 ديسمبر 1869م) وكان من كبار العلماء في (ق 14هـ= ق 20م)، عاش في عصر يعد من أكثر العصور اضطرابا فكريا وسياسيا واجتماعيا في بلاد الهند، كان رئيسًا لحركة ندوة العلماء، وله مؤلفات كثيرة، أهمها (نزهة الخواطر) في ثمانية مجلدات في تراجم علماء الهند (4500 شخصية) جمعها في ثلاثين سنة، وكتابه (الثقافة الإسلامية في الهند)، وكتابه (الهند في العهد الإسلامي)، وله كتب في الحديث والفقه منها (تهذيب الأخلاق)، و(قانون في انتفاع المرتهن بالمرهون) و(الغناء وحكمه في الشرع) وكلها بالعربية. وله كتاب (ياد أيام) في تاريخ إقليم حجرات وكتاب في تاريخ الشعر الأردي باسم (كل رعنا) أي الوردة الرشيقة يدرس في عدة جامعات، هذا بالإضافة إلي رسائل في التعليم الديني والأصلاًح الخلقي والاجتماعي بالأردية، منها رسالة (أصلاًح) في صلة الرحم، وله كتب مفيدة لأبناء المسلمين منها (تعليم الإسلام) و (نور الإيمان) وغيرها.

4 والدته هي (السيدة خير النساء بنت ضياء النبي الحسني) كانت تحفظ القرآن الكريم، ونشرت لها عدة كتب إسلامية ومجموعتان في الشعر، ومجموعة قصائد في الدعاء والمناجاة باسم (باب الرحمة)، ومجموعة قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم باسم (مفتاح باب الرحمة)، ولها كتب في تعليم النساء والأولاد في الأمور الاجتماعية منها كتاب (الذائقة) وكتاب (حسن المعاشرة) وكتاب (الدعاء والقدر) وتميزت بقيام الليل وكثرة الدعاء والمناجاة إلي الله، توفيت في 1388هـ.

والعربية، ثم التحق بجامعة لكهنؤ، وهي جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية، وفيها قسم لآداب اللغة العربية، اختاره أبو الحسن عن شوق، ثم التحق بدار العلوم لندوة العلماء عام 1929م، ليلاقي كبار علماء الهند، وليحضر دروس الشريعة عليهم، ولكنه لم يرتو بعد؛ فالتحق بديوبند مدة شهور، ثم سافر إلى لاهور، وقرأ التفسير القرآني على كبار علمائها، وتحققت أمنيته بلقاء شاعر الإسلام محمد إقبال، فجالسه وأفاد منه، وعين – بعد ذلك – مدرسًا بدار العلوم لندوة العلماء في عام 1934م.

همة باكرة

يُعَدُّ الندوي من أشهر العلماء المسلمين في الهند، وله كتابات وإسهامات عديدة في الفكر الإسلامي، وكان كثير السفر إلى مختلف أنحاء العالم لنصرة قضايا المسلمين والدعوة للإسلام وشرح مبادئه، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية والمؤتمرات.

دفعته همته الباكرة – صغيرًا – إلى كتابة مقال تاريخي، وعمره (18 سنة) يتحدث فيه عن جده المجاهد أحمد بن عرفان شهيد الإسلام، وبعث به إلى (مجلة المنار) المصرية التي يقوم عليها العلامة محمد رشيد رضا فنشره، وبدأ الندوي الدعوة إلى الله على المنابر خطيبًا.

ثم سافر إلى (دلهي) في رحلة علمية، فالتقى بعالمها الكبير الشيخ محمد إلياس؛ فعزم الندوي أن يكون داعية بلسانه، كما يكتب بقلمه، ولكنه رأى أن يدعو ويرحل إلى العالم الإسلامي كله، بدلاً من الدعوة في الهند فقط كما فعل شيخه إلياس، فرحل إلى الحجاز مرات، وإلى مصر، والمغرب، والشام، وتركيا، وزار أمريكا، والدول الأوربية، وطوف بأكثر عواصم العالم الإسلامي، وكانت رحلاته عظيمة التأثير.

إسهاماته العلمية

مؤلفاته

بلغ مجموع مؤلفاته وترجماته نحو 700 عنوانًا، منها 177 عنوانًا بالعربية، ترجم عدد منها إلى الإنجليزية والفرنسية والتركية والبنغالية والإندونيسية وغيرها..

وكان كاتبًا غزير الانتاج، صاحب منهج متميّز عن غيره من المفكّرين والباحثين المعاصرين بسبب معرفته لعدد من اللغات كالعربيّة والأورديّة والانجليزيّة والفارسيّة، وسعة اطّلاعه على مصادر الحضارات غير الإسلاميّة، فضلاً عن تعمقه في التاريخ الإسلامي، وقد تميّزت مؤلّفاته كلّها بالغوص العميق في فهم أسرار الشريعة، والتحليل العميق لمشاكل العالم الإسلامي.

أهم مؤلفاته:

نُشِرَ أوَّلُ مقالٍ للندوي بالعربية في مجلة "المنـــار" - يرأسها العلامة محمد رشيد رضا - (1931م) حول حركة الإمام السيد أحمد بن عرفان (الشهيد في بالاكوت عام 1831م)، ثم توسع في هـــذا المقـــال فظهر له أوَّلُ كتاب بالأردية (1938م)، بعنوان "سيرة سيد أحمد شهيد" ونال قبولاً واسعاً في الأوســـاط الدينية والدعوية، وألّف بعدها كتابه "مختارات في أدب العرب" (1940م)، ثم ألف سلسة "قصص النبيين" للأطفال في خمسة أجزاء، وسلسلةً أخرى للأطفال باسم: "القراءة الراشدة" في ثلاثة أجزاء، في الفترة مابين 1942-1944م.

ثم بدأ الندوي في تاليف كتابه المشهور "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" (1944م)، وأكمله (1947م)، وقد طُبِعت ترجمتُه الأرديةُ في الهند قبل رحلته الأولى للحج عام 1947م، وقدم لهذا الكتـــاب الأستاذ سيد قطب، وقال عنه العلامة القرضاوي: "الكتاب نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، وهو منظور عالم مؤرخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيداً، ويعـــرف كيـــف يستخدمه لهدفه ورسالته".

وألَّف رسالة بعنوان: "إلى مُمثِّلي البلاد الإسلامية" (1947م)، وجَّهها إلى المنـــدوبين المســـلمين والعرب المشاركين في المؤتمر الآسيوي المنعقد في دلهي- بدعوة من رئيس وزراء الهند وقتها: جواهر لال نهرو - فكانت أولَ رسالةٍ له انتشرت في الحجاز عند رحلته الأولى.
كما كلَّفته الجامعة الإسلامية في عليكره (A.M.U.) الهند (1942م)، بوضع منهاج لطلبة الليسانس في التعليم الديني أسماه "إسلاميات"، وألقى في الجامعة الْمِلِّيَّة بدلهى محاضرةً طُبعت بعنوان: "بين الدين والمدنيَّةِ".

وقد دُعِي أستاذاً زائراً في جامعة دمشق (1956م)، وألقى محاضرات بعنوان: "التجديد والمجدِّدون في تاريخ الفكر الإسلامي"، ضُمَّت - فيما بعد- إلى كتابه الكبير "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" (أربعة أجزاء)، كما ألقى محاضرات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بدعوة من نائب رئيسها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (1963م)، طُبِعت بعنوان: "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن".
وسافر إلى الرياض بدعوة من وزير المعارف السعودي (1968م)؛ للمشاركة في دراسة خِطَّة كلية الشريعة، وألقى بها عدَّةَ محاضرات في جامعة الرياض وفي كلية المعلِّمين، وقد ضُمَّ بعضُها إلى كتابه: "نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية".

كما ألّف - بتوجيهٍ من شيخه عبد القادر الراي بورى - كتابـــاً حـــول القاديانيـــة (1958م)، بعنوان: "القادياني والقاديانية"، وألَّف كتابه "الصِّراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربيـــة في الأقطـــار الإسلامية" (1965م)، وكتابه "الأركان الأربعة" (1967م)، و"العقيدة والعبادة والســـلوك" (1980م)، و"صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم والمسلمين الأوائل عند أهل السنة والشيعة" (1984م)، و"المرتضى" في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (1988م).

ومن مؤلَّفاته أيضًا:

(العرب والإسلام) و(مذكّرات سائح في الشرق العربي) و(الإسلام والحياة) و(المسلمون وقضية فلسطين) و(المسلمون في الهند) و(روائع إقبال) و(الصراع بين الإيمان والماديّة) و(إلى الإسلام من جديد) و(الطريق إلى المدينة) و(العاقبة للعرب والمسلمين) و(العرب يكتشفون أنفسهم) و(روائع من أدب الدعوة) و(التفسير السياسي للإسلام) و(إذا هبت ريح الإيمان) و(بين الصورة والحقيقة) و(الإسلام والعلم) و(حديث من الغرب).

آراؤه ومنهجه العلمي والفكري

تلقى الندوي تربيته الروحيّة على الشيخ عبد القادر الرائي فورى، وتأثّر بفكر الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأحمد بن عبد الأحد السرهندي، وشاه ولي الله الدهلوي، وكان الشيخ محمد إلياس من أعظم أساتذته تأثيرًا فيه.

ورأى الندوي أن الأحداث التي عاصرها وعلى رأسها سقوط الخلافة، دعمت إيمانه ويقينه بأن الإسلام لا بدّ أن يتولّى الزمام لإنقاذ العرب والعالم؛ لأن الحل الوحيد لمأساة الإنسان يكمن في تحوّل قيادة العالم إلى أيد مؤمنة بقيم الإنسانيّة، وكان محور أصلاحه: مكافحة الغزو الفكري، وبثّ روح الاعتزاز بالإسلام في المسلمين، ومقاومة الردّة وآثارها، وخاطب العرب وركّز عليهم اهتمامه، لأنّهم يحملون استعدادًا روحيًّا ومعنويًّا وماديًّا لقيادة العالم الإسلامي، وبالتالي لقيادة العالم أجمع، وكان حريصًا على نهضة العرب بمواهبهم وكفاءاتهم .

وحدّد واجب العلماء والطبقة المثقفة في مقال نُشِرَ بمجلّة (البعث الإسلامي) قائلاً: "إنّ مسؤوليّة العلماء والمفكّرين المسلمين في العصر الحديث ــ بعد مواجهتهم للتحدّيات المعاصرة وإثباتهم أن الإسلام قادر على قيادتها وترشيدها والسموّ بها – هي أن يفضّلوا الإسلام على كل جماعة، ومؤسّسة، ومدرسة، وطائفة، وحزب، وليكن مصلحة الدين والعقيدة مفضّلة على عمل كل مصلحة حزبيّة، أو جماعيّة".

ومن أبرز تأمّلاته: قضيّة الأصلاح والتغيير؛ حيث رأى أنّ المنهج الأصلاحي الذي نريده ينبع أساسًا من تكوين الفرد تكوينًا نوعيًّا، ويحمل على بعض المصلحين الذين خلطوا الواقع الأصلاحي بالتجربة والروح الغربيّة، وكان يندهش من المسلمين الذين اطمأنّوا لتدريس أبنائهم في المؤسسات العلميّة الغربيّة، وغفلوا عن هدف الغرب في القضاء على الهويّة الإسلاميّة لهم، وتنبّه إلى ضرورة إحداث تغيير شامل في الجامعات الإسلاميّة من خلال ربط العلم بالتربية؛ وأولى اهتمامًا كبيرًا بالمنهل العلمي الذي يتلقّاه الشباب، فلا بدّ من تصفية هذا المنهل من خلال توحيد التعليم ليكون وحدة شاملة تجمع بين الوسائل والغايات.

ثم إنه أكّد على عالميّة الرسالة وإنسانيّتها، وفي ذلك ما يبعث على الغيرة، وما يبعث على أن يتنافس العرب، وأن يسبقوا لأنّهم أهل الفضل وأهل الرسالة، وأهل الدعوة، وأشاد بدور العرب لأنهم الذين أشركونا في هذه الثروة السماويّة السامية الأخيرة، وأنّ هذه الدعوة قد لبيّت تلبية حسنة، وكانت مستجابة استجابة كريمة تليق بإخواننا العرب وبشرفهم وبمكانتهم وبزعامتهم وقيادتهم .

ركائز فقه الدعوة عند أبي الحسن الندوي:

حدد الدكتور يوسف القرضاوي ركائز عشرين لفقه الدعوة عند أبي الحسن الندوي، هي:

1- تعميق الإيمان في مواجهة المادية.

2- إعلاء الوحي على العقل.

3- البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق.

4- إحياء روح الجهاد في سبيل الله.

5- استيحاء التاريخ الإسلامي وبطولاته.

6- نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية.

7- تأكيد دور الأمة المسلمة واستمراره في التاريخ.

8- التنويه بقضية فلسطين وتحريرها.

9- العناية بالتربية الإسلامية الحرة.

10- دعوة غير المسلمين.

أهم أعماله ومناصبه

بدأ الندوي رحلاته الدعوية عام 1939م في الهند، وأسس مركزًا للتعليم الإسلامي عام 1943م، ثم اختير عضوًا في المجلس الانتظامي لندوة العلماء عام 1948م، ثم أسس حركة رسالة الإنسانية عام 1951م، والمجمع الإسلامي العلمي عام 1959م، في لكنو بالهند، واختير أمينًا عامًا لندوة العلماء عام 1961م – التي ظل بها حتى وفاته –، وأدار الجلسة الأولى لتأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام 1962م نيابةً عن رئيسها سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ –

وقد حضر أوّلها جلالةُ الملك سعودُ بن عبد العزيز آل سعودكما حضرها الملك إدريس السنوسي حاكم ليبيا، وشخصيات أخرى ذات شأن – وقدَّم فيها مقالَه القيِّمَ "الإسلام فوق القوميات والعصبيات".

اختير الندوي عضوًا في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام 1962م، وظلَّ عضوا فيه إلى انحلال المجلس وانضمام الجامعة في سلك بقية الجامعات السعودية تابعةً لوزارة التعليم العالي، كما دعا إلى تأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام 1984م، واختير أول رئيس لها عام 1986م .

حصل الندوي على عضوية كثير من الهيئات والمؤسسات الدعوية العلمية والعالمية منها: رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها، والمجمع العلمي بدمشق، ومجمع اللغة العربية الأردني عام 1980م، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن، عام 1983م، كما مُنح درجة الدكتوراة الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام 1981م، واختير رئيسًا لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية[1] عام 1993م، وبعد وفاته صار بالمعهد درجة زمالة (أبو الحسن الندوي)، وممن منح هذه الزمالة أ.د. وهبه الزحيلي عام 2000م.

وذلك عدا عضويته في كثير من الجامعات الإسلامية، والمنظمات الدعوية، ولجان التعليم والتربية.

جوائز

- منح جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، سنة 1400هـ= 1980م.
- منحته إمارة دبي جائزة شخصية العام الإسلامية لعام 1419هـ؛ في دورتها الثانية، بعد أن منحت في دورتها الأولى لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي.
- منحه معهد الدراسات الموضوعية بالهند جائزة الإمام ولي الله الدهلوي لعام1999م – والتي تم منحها لأول مرة – وكان قد تقرر اختياره لهذه الجائزة في حياته ولكن وافته المنية قبل الإعلان الرسمي، وقد استلم هذه الجائزة باسمه ~ ابن أخته وخليفته فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني النَّدْوي في دلهي في (7 من شعبان 1421هـ = نوفمبر2000م).
- منحته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسسكو ISESCO) –تقديرًا لعطائه العلمي المتميز وإكبارًا للخدمات الجليلة التي قدمها إلى الثقافة العربية الإسلامية – وسام الإيسسكو من

1 مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في بريطانيا: معهد أكاديمي يرتبط بجامعة أكسفورد، تأسس عام 1985م، برعاية ولي العهد البريطاني (الأمير تشارلز)، ويشارك خبراء المركز في التدريس أو الإشراف على البحوث، في الأقسام المناسبة في جامعة أكسفورد ومنها: العلوم الاجتماعية، والتاريخ الحديث، والعقائد، والدراسات الشرقية، والتعليم، فضلاً عن برامجه لتدريس اللغة العربية، كما يقود المركز مشاريع البحث حول موضوعات تتعلق بالعالم الإسلامي.

الدرجة الأولى. وقد استلم هذا الوسام نيابة عنه سعادةُ الدكتور عبد الله عباس النَّدْوي في الرباط في 25/ من شعبان 1421هـ.

- منح جائزة السلطان حسن بلقية العالمية في موضوع "سيرأعلام الفكر الإسلامي" من مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية عام (1998م= 1419هـ).

ثناء العلماء عليه

قال عنه الدكتور يوسف القرضاوي: "كان الندوي يمثل نسيجًا مميزًا من العلماء المسلمين ينضم إلى العلماء الكبار..، "أنه رجل جعل الرسول الكريم أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها، واتخذ سيرته نبراسًا له، في تعبده وزهده، وإعراضه عن زخارف الحياة، وزينة الدنيا، فهو يعيش في الخلف عيشة السلف، لا يهتم بما يهتم به أمثالنا من متاع وتملك ورياض وزينة، تحسبه إذا رأيته سلمان الفارسي أو أبا الدرداء".

كتب عنه الشيخ الغزالي في مذكراته، وقال: "إن رسائل الندوي هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر –رضي الله عنه– بين رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له.. أبو الحسن الندوي – فيما أعلم – هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت".

وصفه الشيخ علي الطنطاوي لما زاره سنة (1373هـ=1954م) في لكهنؤ فقال: وجدته في الأحوال كلّها، مستقيمًا على الحق، عاملاً لله، زاهدًا حقيقيًا زهد العالم العارف بالدنيا وأهلها .

ووصف الدكتور ليث القيسي الإمام الندوي بأنّه رمز بارز من رموز الدعوة الإسلاميّة، ومعلم ظاهر في الحقبة التاريخيّة التي عاشها، وطاقة فعّالة وجذوة لم تنطفئ، قضاها كاتبًا ومحاضرًا ومشاركًا في الندوات والمؤتمرات ؛ وتحدّث القيسي عن جهوده في خدمة السيرة النبويّة فأشار إلى أنّ جهود الندوي في السيرة لا تفهم إلاّ من خلال خلفيّة تاريخيّة ميّزت كتاباته وتزامنت مع طبيعة التحوّلات الفكريّة السياسيّة التي مرّت بها الأمّة الإسلاميّة خلال القرن العشرين الذي علت فيه الفكرة الغربيّة في صراعها للفكرة الإسلاميّة، و شخّص العلّة وبيّن ما خسره العالم بتراجع المسلمين عن القيادة إلى التبعيّة ثقافيًّا وفكريًّا وسياسيًّا، وانطلق إلى طرح قضايا الأمّة معالجًا لها من خلال توظيف السيرة توظيفًا فعّالاً، وكان منطلقه من (الطريق إلى السنّة) وثمرته كتاب (السيرة النبويّة) الذي ضمّنه منهجًا خاصًّا في كتابة السيرة ؛ أمّا منهجه في كتابة السسيرة فينطلق من خلال البعد التاريخي، والبعد الحضاري، والبعد الإنساني، والبعد الدعوي والتربوي، والبعد العقائدي، والتكامليّة بين العلوم.

يوسف القرضاوي: الندوي.. مثال للعالم المسلم، والداعية المجدد، ومثال جمع بين رقة الربانيين، وتوحيد السلفيين، والتزام السنيين، وثقافة المعاصرين .

مصطفى السباعي: الندوي.. ذخر للإسلام ودعوته. وكتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها .

سيد قطب: الندوي.. رجل عرفته في شخصيته وفي قلمه، فعرفت فيه قلب المسلم، والعقل المسلم، وعرفت فيه الرجل الذي يعيش بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام.. هذه شهادة لله أؤديها.

محمد الرابع الحسني الندوي: الندوي.. قدوة أبناء المسلمين في الغيرة للدين والكفاح لإعزاز الإسلام والذّب عن حوزته، وإقرار روحه وطبيعته الحقيقية .

محمد حميد الدين الحسامي: الندوي.. أمة وحده، وشخصية عظيمة فذة، وموسوعة فكرية متنوعة الجوانب والمباحث، قلّما يجود الزمان بمثله .

عبد الحليم عويس: الندوي.. رجل لم يتاجر يومًا بمادئه، ولم يقف يومًا على باب أحد، ولم ينافس يومًا على الدنيا.

وقال عنه الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر عبد الحليم محمود: أخلص أبو الحسن الندوي وجهه لله تعالى، وسار في حياته سيرة المسلم المخلص لله تعالى ورسوله ρ، فدعا إلى الإسلام بالقدوة الحسنة، ودعا إلى الإسلام بكتبه النقية، ودعا إلى الإسلام بسياحته التي حاضر فيها، ووجه وأرشد، فجزاه الله خير ما يجزي عالما عن دينه.

دراسات عن الندوي

من المشايخ الذين درسو العلامة الندوي؛ الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي، والشيخ حيدر حسن خان، والشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ عبد القادر الراي وهو المربي الروحي للندوي..

كما كتب عن الندوي الكثيرون؛ ومنهم د. مصطفى السباعي، وسيد قطب، وعلي الطنطاوي، ومحمد المجذوب.. وغيرهم، ومما كُتِبَ عنه أيضًا:

- أبو الحسن الندوي كما عرفته: أ.د. يوسف القرضاوي.
- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: د. محمد رجب البيومي (الجزء الثالث) – سلسلة البحوث الإسلامية : السنة 13 الكتاب الأول: مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة: (1402 هـ = 1982م). وطبعة دار القلم والدار الشامية (خمسة مجلدات)، (1415هـ- 1995م).
- علماء ومفكرون عرفتهم: محمد المجذوب .

- علماء العرب في شبه القارة الهندية: يونس السامرائي .
- الدراسات القرآنية المعاصرة: محمد السديس .
- أدب الصحوة الإسلامية: واضح الندوي
- ذكريات علي الطنطاوي.
- أبو الحسن الندوي مفكر وداعية: عبد الحليم عويس، مقال منشور بمجلة الفيصل، العدد (39)، رمضان 1400هـ= 1980.
- أبو الحسن الندوي شاهد القرن: مجلّة المجتمع، العدد (1397)، 25 أبريل 2000م.

وفاته

توفي الندوي في (23 رمضان 1420هـ = 31 ديسمبر 1999م)، عن 86 عامًا.

توفي في العشر الأواخر من رمضان، وفي يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، وقبل صلاة الجمعة أفضل الساعات، وقد توضأ واستعد للصلاة، وشرع يقرأ سورة الكهف كما تعوّد كل جمعة، فوافاه أجله على أفضل حال، ~.

الفصل الرابع: دور العلم في حياة علماء الحياة المعاصرين

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة علي مصطفى مشرفة

المبحث الثاني: دور العلم في حياة جمال حمدان

المبحث الثالث: دور العلم في حياة عبد القدير خان

المبحث الرابع: دور العلم في حياة أحمد زويل

المبحث الأول: دور العلم في حياة علي مصطفى مشرفة

علي مصطفى مشرَّفة.. عالم الذرة الفريد!!

لما سمع أينشتين بخبر موته لم يصدق، ثم قال: "كلا.. كلا، لا تقولوا: إنَّ مشرَّفة مات.. **إنها خسارة جسيمة**"!! ووصفه بواحد من أعظم علماء الفيزياء1. ونعته الإذاعة في أمريكا على أنه "**واحد من سبعة علماء في العالم يعرفون أسرار الذرة**"2!!

إنه العالم المصري المسلم الدكتور علي مصطفى عطية أحمد مشرفة.. من روّاد علوم الرياضيات والفيزياء..

نشأته ورحلته العلمية..

وُلِدَ مشرفة سنة 1316هـ / 1898م في حي المظلوم بمدينة دمياط. وكان والده من ذوي أليسر والجاه، وهو ما جعل مشرفة يقضي سنواته الأولى في رغد من العيش وهناءة البال، غير أن تلك الحياة الرغدة لم تدم طويلاً.. ففي سنة 1909م توفي والده بعد تعرضه لأزمة مالية أودت بكل ما تملك الأسرة، وكان ذلك قبل امتحان الشهادة الابتدائية لمشرفة بثلاثة أشهر، ولكنه تغلب على الصدمة ونال الابتدائية بتفوق وكان ترتيبه الأول على القُطْر المصري!!

انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى القاهرة، وقبل امتحان البكالوريا بشهرين توفيت والدته، ولكنه بنفس العزيمة حصل على شهادة البكالوريا بتفوق، وكان ترتيبه الثاني على القطر المصري، وذلك سنة 1914م3!!

آثر مشرفة أن يلتحق بمدرسة المعلِّمين العليا؛ فحصل على دبلومها سنة 1917م، وكان ترتيبه الثاني على الدبلوم. وقد أهَّله هذا التفوق ليُختار ضمن بعثة علمية إلى إنجلترا، فالتحق بكلية "نوتنجهام" Nottingham بجامعة لندن، فحصل منها على درجة البكالوريوس في الرياضة مع مرتبة الشرف، وكان الحصول على هذه الشهادة يحتاج أربع سنوات من الدراسة، إلا أن مشرفة اختصرها في ثلاث سنوات فقط، فحصل عليها سنة 1920م4!!

---

1 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 179.

2 انظر محمد الجوادي: مشرَّفة بين الذرة والذروة، مكتبة مدبولي، 2002م ص 56.

3 أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 179 – محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 52، 26.

4 محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 27، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 179.

وفي فبراير سنة 1923م حصل مشرفة على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم (ph. D.) من جامعة لندن في أقصر مدة تسمح بها قوانين الجامعة، وأصبح عضوًا في الجمعية الملكية البريطانية، وأخذ يحاضر العلماء من أعضاء الجمعية و لم يتجاوز بعدُ الخامسة والعشرين من عمره[1]!!

على أن آمال مشرفة في الحصول على درجة "الدكتوراه في العلوم (D. Sc) ظلت تُلِحُّ عليه، فواصل ليله بنهاره في صيف سنة 1923م حتى انتهى من إعداد أطروحة دكتوراه العلوم في شهر سبتمبر، فعرضها على أستاذه السير ريتشاردسون (أكبر علماء الطبيعة في عصره)، و لم تكن جامعة لندن تسمح بدخول امتحان هذه الدرجة إلا بعد مرور عامين – على الأقل – من حصول الطالب على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم، وتقدم مشرَّفة – بناء على نصيحة أساتذته – يلتمس إذنًا خاصًا من مجلس إدارة الجامعة يمكِّنه من دخول الامتحان في أقرب فرصة؛ نظرًا لأنه نشر أبحاثًا عملية جليلة القدر، وفي الحادي والعشرين من نوفمبر سنة 1923م وافق مجلس إدارة جامعة لندن للدكتور مشرفة على أن يؤدي هذا الامتحان بصفة استثنائية في الرابع والعشرين من يناير سنة 1924م، وأدَّى مشرفة الامتحان في الموعد المحدد، وأُعلِنَت نتيجةُ الامتحان في مارس سنة 1924م بحصول الدكتور مشرفة على الدكتوراه في العلوم؛ وبذلك أصبح مشرفة **العالِم الحادي عشر في العالَم الذي يحصل على هذه الدرجة، وأول عالم مصري يحصل على هذه المكانة الرفيعة**[2]!!

رجع مشرفة إلى مصر؛ وعُيِّن مدرِّسًا للرياضيات التطبيقية بكلية العلوم بجامعة القاهرة، ثم مُنِح درجة "أستاذ" في عام 1926م رغم اعتراض قانون الجامعة على منح اللقب لمن هو أدنى من الثلاثين!! وكان بذلك أول أستاذ مصري في كلية العلوم، ولّما يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره!! وقد اعتُمِدَ عميدًا للكلية في عام 1936م، وانتُخِبَ للعمادة أربع مراتٍ متتاليات، كما انتُخِبَ وكيلاً للجامعة سنة 1945م[3].

وقد تمتعت كلية العلوم في عصره بشهرة عالمية واسعة؛ حيث عني عناية تامة بالبحث العلمي وإمكاناته، فوفَّر كل الفرص المتاحة للباحثين الشباب لإتمام بحوثهم.. ووصل به الاهتمام إلى مراسلة أعضاء البعثات الخارجية، وسمح لأول مرة بدخول الطلبة العرب الكلية، وكان من أهم أعماله أيضًا أنه أنشأ قسمًا للترجمة العلمية بالكلية؛ لأن الدراسة كانت باللغة الإنجليزية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى ترجمة المراجع العلمية إلى اللغة العربية، حتى يمكن تمصير الكلية والمعاهد العليا بوجه عام، وحتى تكون اللغة العربية هي لغة

1 محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 28 .
2 المصدر السابق ص 28، 29 .
3 محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 30، محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص 70 .

التعليم بدلاً من الإنجليزية. كما حوّل مشرفة الدراسة في قسم الرياضيات التطبيقية الذي يرأسه والرياضيات البحتة باللغة العربية1!!

سَمْتُه وثقافته..

أبرز ما كان يميز مشرفة ما كان من تمسكه بدينه منذ صغره، وبعد سفره، وقد تجسَّد ذلك في حفظه القرآن الكريم والصحيحين، واستشهاده بذلك في سائر كلامه، كما عُرِف عنه مواظبته على أداء فروض الدين، وكان يحتفظ في جيبه بمصحف صغير على الدوام، وكان يؤتي الزكاة مضاعفةً ما استطاع، وفي الخفاء، ولما مات جاءت مجموعة من الطلبة الصوماليين يواسون أسرته، وهم يبكون على مشرَّفة وعلى مستقبلهم الذي ظنوه سيضيع بوفاة عائلهم الذي تكفَّل بنفقات تعليمهم من دون أن يعلم أحدٌ عن ذلك شيئًا.. ولم يكن هذا التدين غريبًا عن مشرفة وهو العالم الذي تعمق في العلوم، ووقف على أسرار الكون وخلق الله2.

وكانت ثقافة مشرَّفة الدينية مثلاً فريدًا، ليس عند العلماء الذين تستهويهم الثقافات الدينية، ولكن عند علماء الدين أنفسهم، فقد حفظ مشرفة الكتب السماوية الثلاثة، واستطاع أن يدرس الديانات السماوية دراسة مقارنة، وكان عقله جاهزًا في كل حين لاستحضار الصورة الكاملة للمفاهيم الدينية المختلفة في أية قضية من القضايا، ولم يكن مشرفة يبهر علماء الأديان بثقافته تلك فحسب، وإنما كان يناظرهم ويقارعهم الحجَّة وينتصر عليهم في كثير من الأحيان!!

والذين يتتبعون مشرفة في حياته كلها يجدون في نفوسهم إحساسًا قويًا بأن مشرفة عمل ودرس، وسعى وجاهد، وقرأ وبحث، وكشف وكتب وحاضر ابتغاءَ مرضاةِ الله، على أن الأمر في مثل هذه النية لا يقف عند الإحساس الذي يجده المتتبعون، وإنما حفظ لنا الدهر عبارةً في خطابٍ كتبه مشرَّفة إلى صديقٍ لوالده يقول فيه: "أَمَا وقد تطوَّرت في طَوْر جديد من أطوار حياتي أسأل الله أنْ يجعله سبيلاً إلى تقواه، ومعينًا على طاعته، ومقرِّبًا من جنة رضوانه"3!!

وقد أجاد الدكتور مشرفة اللغة الإنجليزية، لا إلى الحد الذي يعبر عنه الناس فيقولوا: "أتقنها كواحد من أهلها" فحسب، ولكن إلى الحدِّ الذي شجع الإنجليز أنفسهم على اختياره رئيسًا لجمعية المناقشات في الكلية الملكية، وكان مشرفة بالطبع أول أجنبي يُختار لهذا المنصب، وقد عُرِفَ مشرفة في هذه الجمعية بلقب

1 انظر محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص 70، ومحمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 136 .
2 انظر محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 45 .
3 انظر المصدر السابق ص 46 .

Pat وهو اختصار للاسم الأيرلندي Patrick وقد اختار له الإنجليز هذا الاسم تقديرًا لقدراته وملكاته الجدلية1.

دور العلم في حياته..

آمن مشرفة إيمانًا عميقًا بالعلم، وبأهمية تطبيقه في الحياة، وكانت هذه هي الفكرة الغالبة على أعماله ومؤلَّفاته، وكان مشرَّفة يستنهض الهمم في كل حين إلى العناية بأمر العلم والبحوث العلمية والتطبيقية واستغلال ثرواتنا البحرية والصحراوية، وتنظيم استغلال ثرواتنا الزراعية والتجارية، وكان الساسة يظنُّون مشرفة مغاليًا في دعوته، وما كان مشرفة مغاليًا، وإنما كان مقدرًا للأمر قدره الغالي2.

وكان مشرفة يعمل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع اليوم، وكثيرًا ما كان يكتفي من النوم بثلاث ساعات: ساعة في العصر بين الرابعة والخامسة، ويقوم بعدها فيتناول الشاي مع أسرته، وساعتين بعد الفجر من الخامسة إلى السابعة أو من السادسة إلى الثامنة صباحًا، وكان المحيطون به يشفقون عليه من هذا الكفاح الذي لا يستريح معه، ولكنه كان معتقدًا أنه إن استراح فقد تقاعس، والتقاعس لا يليق بسيرة العلماء الذين كان يرى أن عليهم واجبًا نحو الإنسانية، ورسالة لا ينبغي أن يتخلّوا عنها طلبًا للراحة3.

و لم يكن مشرفة من العلماء الذين يحول اشتغالهم بالعلم بينهم وبين الجمهور، ولعل في هذا سرًّا لدعوته الملحة إلى الاتصال بين معاهد العلم وجماهير الشعب، وهي الدعوة التي صدرت عن تقديره لمدى الفوائد الإيجابية التي تعود نتيجة لهذا الاتصال، وعن تقديره لمدى السلبيات التي تنتج عن غياب هذا الاتصال، والتي تتمثل على حد تعبيره في أن يتحول العلم إلى ضرب من ضروب السحر، ويتحول العلماء إلى نوع من الكهنة الذين يُقرَأ عنهم في تاريخ مصر القديمة4.

وقد ترجم الدكتور مشرفة أفكاره في هذه الناحية إلى واقع عملي، فكان من السبّاقين إلى نشر الثقافة العلمية المبسطة عن طريق الإذاعة، و لم يسلك مشرفة في عمله هذا مسلكًا فرديًا بغيةَ مجدٍ شخصي، وإنما استطاع أن ينظم سلسة من الأحاديث الدورية أطلق عليها اسم: "**أحاديث كلية العلوم**" يلقيها على الناس في الراديو أساتذة كلية العلوم، وكان مشرَّفة يعتقد أن قيام كلية العلوم بهذا العمل إنما هو جزء من رسالتها في إتاحة الفرصة أمام الجمهور المثقَّف للوقوف على أحدث الآراء العلمية، والإلمام بما كشف عنه الباحثون من خفايا الكون وأسرار الطبيعة، وكان يعتقد كذلك أن في هذه الأحاديث فرصة عظيمة لطائفة

---

1 انظر محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 48 .

2 انظر المصدر السابق ص 39 .

3 انظر محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 44 .

4 انظر المصدر السابق ص 46 .

العلماء ليتحدثوا عن دراساتهم، ويعبروا عن وجهات نظرهم، ويتبسَّطوا في هذه الأحاديث بلغة سهلة، خالية على قدر ما يتيسر من المصطلحات الغربية، والرموز المريبة.

غير أن الهدف الأسمى الذي سعى مشرفة إليه من وراء هذه الأحاديث لم يكن إلا إشاعة العقلية العلمية في رُوح الشعب؛ حتى تصبح هذه العقلية عادة في تفكيرنا القومي، فإذا ما عنَّت للناس مشكلة من المشكلات استطاعوا التغلب عليها بالأسلوب العلمي، غير متأثرين بهوى نفسٍ أو غرض في التفكير.

وقد حرص الدكتور مشرفة في الوقت نفسه على أن يبين للناس في الأحاديث التي قام هو بإلقائها كثيرًا من الأمور الأساسية في العلوم، والاكتشافات الحديثة في دنيا الاختراع، والعناصر الرئيسية في التفكير العلمي، والعلامات البارزة في تاريخ البحث والصناعة. وقد اتسعت دائرة العلوم التي تناولتها هذه الأحاديث، كما تزايد عدد الأساتذة الذين شاركوا في هذا البرنامج الإذاعي حديثًا بعد حديث[1].

وعلى الجانب الآخر كان مشرفة يتمنَّى للوظائف العامة أن يتولاها أساتذة الجامعات، و لم يكن من أنصار الرأي القائل بأنه على أساتذة الجامعات أن يترفَّعوا عن مثل هذه الوظائف، وكان يقول في الرد على ذلك: كيف يلام أساتذة الجامعة وهم صفوة المتعلمين في الأمة إذا طلبوا ذلك الجاه لكي يُسمَع صوتهم فلا يظلوا بعيدين عن تيارات الحياة في الأمة[2]؟!

آثاره ومؤلفاته..

لعلي مصطفى مشرفة أبحاثٌ متعددة في نظرية الكم، وتفسير كثير من الظواهر الفيزيائية، وكذلك في المادة والإشعاع، وكان من أول القائلين بأنه يمكن اعتبارهما صورتين لشيء واحد، تتحول إحداهما للأخرى، وقد اقترن اسمه بهذه النظرية.

كما أن له نظرية في مجال الذرة سهلت فيما بعدُ اقتحام مجال العلوم الذرية، والدخول إلى أعماقها[3]!!

---

1 انظر محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 47 .
2 انظر المصدر السابق ص 50 .
3 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 179 .

والحقيقة أن أبحاث الدكتور مشرفة بدأت تأخذ مكانها في الدوريات العلمية وعمـــره لم يتجـــاوز الخامسة والعشرين عامًا؛ ففي الجامعة الملكية بلندن King’s College نُشِرَ له أول خمسة أبحاث حول النظرية الكمية التي نال من أجلها درجتي (Ph.D دكتوراه الفلسفة و.D.sc دكتوراة العلوم)، كما أنَّ له 26 بحثًا مبتكرًا في الطبيعة.

وقد كان من مؤلَّفاته العديدة التي خلَّفها ما يلي:

1- كتاب الميكانيكا العلمية والنظرية، وقد ظهر هذا الكتاب سنة 1937م.

2- كتاب الهندسة الوصفية، وقد ظهر سنة 1937م.

4- كتاب الهندسة المستوية والفراغية، وظهر سنة 1944م.

5- كتاب حساب المثلثات المستوية، وظهر سنة 1944م.

6- كتاب الذرة والقنابل الذرية، وظهر سنة 1945م.

7- كتاب العلم والحياة، وظهر سنة 1946م.

8- كتاب الهندسة وحساب المثلثات، وظهر سنة 1947م.

على أن مشرفة كان له إسهاماته الخاصة في مجال إحياء التراث الإسلامي أيضًا، وكان من أشـــهر تحقيقاته: كتاب **الجبر والمقابلة للخوارزمي**، وهو الكتاب الذي ظل عمدة ومرجعًا لعلماء الشرق والغـــرب طيلة قرون عديدة، وقد قدم مشرفة لهذا الكتاب بمقدمتين: الأولى عن "الجبر قبل الخوارزمي"، والثانية عـــن "الخوارزمي وكتابه في الجبر والمقابلة"، ثم عرض كتاب الخوارزمي؛ فشرح الجزء الخاص بالجبر، وعلَّق عليه، وحلَّل مسائله، وعبر عن المعاني العلمية والفنية بعبارات الاصطلاح الحديث، أما المسائل التي لا ترتبط بصُلب العلم فقد اكتفى فيها بالنقل دون التعليق، وهكذا أخرج لنا مشرفة من كنوز العرب دُرَّة فجلاّهـــا خـــير تجلية1.

وفاته

وبعد أن أضاء جنبات الحياة العلمية وأثراها في عصره، تُوُفي الدكتور علي مصطفى مشرفة ســـنة 1950م؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

1 محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص 186 - محمد على عثمان: مسلمون علموا العالم ص 73 - أكرم عبد الوهـــاب: 100 عـــالم غيروا وجه العالم ص 180 .

المبحث الثاني: دور العلم في حياة جمال حمدان

سبق عصره بعطائه العلمي، واستطاع أن يترك بصماته الفريدة على الدراسات الجغرافية في العصر الحديث، والتي ربط فيها التاريخ بحقائق الأرض والجغرافيا..

تفوق منذ النشأة:

وُلِدَ "جمال محمود صالح حمدان" في قرية "ناي" بمحافظة القليوبية بمصر في (12 شعبان 1346هـ / 4 فبراير سنة 1928م)، ونشأ في أسرة كريمة تنحدر من قبيلة "بني حمدان" العربية التي نزحت إلى مصر في أثناء الفتح الإسلامي1.

كان والده أزهريًا ومدرّسًا للغة العربية.. وقد اهتم بتحفيظ أبنائه السبعة القرآن الكريم، وتجويده وتلاوته على يديه؛ مما كان له أثر بالغ على شخصية "جمال حمدان"، وعلى امتلاكه نواصي اللغة العربية؛ مما غلّب على كتاباته الأسلوبَ الأدبيَّ المبدع.

حصل "جمال حمدان" على الثانوية العامة عام (1363هـ - 1944م)، وكان ترتيبه السادس على القطر المصري، ثم التحق بقسم الجغرافيا بكلية الآداب، وكان طالبًا متفوقًا ومتميزًا خلال مرحلة الدراسة الجامعية؛ حيث كان منكبًّا على البحث والدراسة، متفرغًا للعلم والتحصيل.

وبعد تخرجه عام (1367هـ ــ 1948م) تم تعيينه معيدًا بالكلية، ثم أوفدته الجامعة في بعثة إلى بريطانيا سنة (1368هـ ــ 1949م)، حصل خلالها على الدكتوراة في (**فلسفة الجغرافيا**) من جامعة "ريدنج" عام (1372 هـ ــ 1953م)، وكان موضوع رسالته: "سكان وسط الدلتا قديمًا وحديثًا"، ولم تترجم رسالته تلك حتى وفاته.

بعد عودته من بعثته العلمية انضم إلى هيئة التدريس بقسم الجغرافيا في كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم رُقّي أستاذًا مساعدًا.. وأصدر في فترة تواجده بالجامعة كتبه الثلاثة الأولى: "جغرافيا المدن"، و"المظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم"، و"دراسات عن العالم العربي" وقد حصل بهذه الكتب على جائزة الدولة التشجيعية سنة (1379هـ ــ 1959م)، وقد لفتت كتبه أنظار الحركة الثقافية عامة، كما أنها صوبت إليه سهام الغيرة من قِبَل بعض زملائه وأساتذته داخل الجامعة.. حتى اضطر في عام (1383هـ ــ 1963م) إلى التقدّم باستقالته من الجامعة؛ احتجاجًا على ظلم إداري تعرَّض له2..

وباستقالة **"جمال حمدان"** من الجامعة تبدأ مرحلة طويلة من التبتل في طلب العلم، والانقطاع

---

1 عبد الحميد صالح حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص8.

2 موقع إسلام أون لاين الرابط http://www.islamonline.net/arabic/famous/2001/04/article2.shtml.

للتأليف.. أثمرت نتاجًا علميًّا غزيرًا، يأتي في القمة منه موسوعته الفريدة **"شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان"**[1]..

ومن الإنصاف أن نؤكد – كما أشار عدد من الباحثين – أن "جمال حمدان" لم ينعزل تلك الفترة الطويلة ذلك النوع السلبي من العزلة.. وإنما عَزَلَ ضجيج الحياة وصغائر همومها وتهافت صراعاتها عن فكره الراقي وعقله الثاقب؛ ليطلق لهما العنان في آفاق العلم الرحبة وغير المحدودة..

نظرة "جمال حمدان" إلى الجغرافيا:

لا يرى **"جمال حمدان"** في علم الجغرافيا ذلك العلم الذي يقف على حدود الموقع والتضاريس.. وإنما هو علم تنصهر في بوتقته علوم مختلفة؛ فالجغرافيا هي: "تلك التي إذا عرفتها عرفت كل شيء عن نمط الحياة في هذا المكان أو ذاك.. جغرافيا الحياة التي إن بدأت من أعلى آفاق الفكر الجغرافي في التاريخ والسياسة فإنها لا تستنكف عن أن تنفذ أو تنزل إلى أدق دقائق حياة الناس العادية في الإقليم"[2].

وإذا كانت الجغرافيا – كما يقول في تقديمه لكتاب "شخصية مصر" – هي علم "التباين الأرضي"، أي التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض على مختلف المستويات؛ فمن الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف على **"شخصيات الأقاليم"**.. والشخصية الإقليمية شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم.. إنها تتساءل أساسًا عما يعطي منطقة ما تفرّدها وتميُّزها بين سائر المناطق، كما تريد أن تنفذ إلى روح المكان لتستشف عبقريته الذاتية التي تحدد شخصيته الكامنة[3]..

ولئن بدا أن هذا يجعل للجغرافيا نهجًا فلسفيًا متنافرًا، يتأرجح بين علمٍ وفنٍّ وفلسفةٍ؛ فيمكن أن نضيف للتوضيح: إنها كذلك؛ فهي علمٌ بمادتها، وفنٌ بمعالجتها، وفلسفةٌ بنظراتها.. والواقع أن هذا المنهج المثلث يعني ببساطة أنه ينتقل بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا الأفكار الرفيعة[4].

وكانت رؤية جمال حمدان للعلاقة بين الإنسان والطبيعة في المكان والزمان متوازنة؛ فلا ينحاز إلى طرف على حساب الآخر.. يظهر ذلك واضحًا في كتابه العظيم "شخصية مصر"، والذي تبرز فيه نظرته الجغرافية المتوازنة للعلاقة بين الإنسان المصري والطبيعة بصفة عامة، و"النيل" – كمكوِّن أساسي للطبيعة المصرية – بصفة خاصة، وكيف أفضت هذه العلاقة إلى صياغة الحضارة المصرية على الوجهين: المادي والروحي[5].

---

1 عبد الحميد صالح حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص8.

2 موقع إسلام أون لاين الرابط http://www.islamonline.net/arabic/famous/2001/04/article02.shtml.

3 انظر: جمال حمدان: شخصية مصر: المقدمة.

4 جمال حمدان: شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ص9. كتاب الهلال ــ العدد 509 ــ مايو 1991.

5 انظر عبد الحميد حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص13،14.

آثاره وإنجازاته:

كان لعبقرية جمال حمدان ونظرته العميقة الفضل – بعد توفيق الله تعالى – في الوصول إلى كثير من التحليلات والآراء التي استُغرِبَت وقت إفصاحه عنها، إلا أن الأيام أكدتها بعد ذلك؛ فقد أدرك بنظره الثاقب كيف أن تفكك الكتلة الشرقية واقع لا محالة، وكان ذلك عام (1388هـ ــ 1968م)، فإذا الذي تنبأ به يتحقق بعد إحدى وعشرين سنة، عام (1409هـ ــ 1989م)، حيث حدث الزلزال الذي هز أركان أوروبا الشرقية، وانتهى الأمر بانهيار أحجار الكتلة الشرقية، وتباعد دولها الأوروبية عن الاتحاد السوفيتي، ثم تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتي نفسه عام (1411هـ ــ 1991م)[1].

وفي عام (1387هـ ــ 1967م) أصدر "**جمال حمدان**" كتابه المهم (اليهودود أنثروبولوجيًّا) والذي أثبت فيه أن إليهود المعاصرين الذين يدَّعون أنهم ينتمون إلى فلسطين ليسوا هم أحفاد إليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما ينتمي هؤلاء إلى إمبراطورية "الخزر التترية" التي قامت بين "بحر قزوين" و"البحر الأسود"، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي.. وهذا ما أكده بعد ذلك "**آرثر بونيسلر**" مؤلف كتاب (القبيلة الثالثة عشرة) الذي صدر عام (1396هـ ــ 1976م)[2].

وقد ترك "**جمال حمدان**" تسعةً وعشرين كتابًا وتسعةً وسبعين بحثًا ومقالةً، يأتي في مقدمتها كتاب "شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان"، الذي أصدر الصياغة الأولى له سنة (1387هـ 1967م) في نحو 300 صفحة من القطع الصغير.. ثم تفرغ لإنجاز صياغته النهائية لمدة عشر سنوات، حتى صدر مكتملاً في أربعة مجلدات خلال السنوات بين (1401هـ ــ1981م/1404هـ ــ 1984م) 3.

الجوائز والوفاة:

حظي "**جمال حمدان**" بالتكريم داخل مصر وخارجها:

- فقد حصل عام (1379هـ ــ 1959م) على جائزة الدول التشجيعية في العلوم الاجتماعية..
- فقد مُنح جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة (1406هـ ــ 1986م)
- وحصل كذلك على وسام العلوم من الطبقة الأولى عن كتابه (شخصية مصر) عام (1408هـ ــ 1988م).

1 جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص 198، 199. دار الشرق القاهرة

2 مصطفى عبد الجواد مقال جمال حمدان : صاحب مقولة ' الصراع الحتمي بين أمريكا وأوروبا ' عام 1991 موقع وكالة نبأ الإخبارية الرابط : http://www.islamicnews.net/Document/ShowDoc08.asp?DocID=60066&TypeID=8&TabIndex=2

3 عبد الحميد صالح حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص9،10.

- كما منحته الكويت جائزة التقدم العلمي سنة (1413هـ ــ 1992م) قبيل وفاته1..

لقد كان بمقدور "**جمال حمدان**" أن يحيا حياة منعمة، وأن يتقلب في صنوف الجاه والرفاهية؛ فقد عُرضت عليه كثيرٌ من المناصب التي يلهث وراءها كثير ممن يبتغون المغنم من وراء العلم، وكان يقابل هذه العروض بالاعتذار؛ فقد كان للانقطاع إلى العلم لذة ونعيم لا يُحسن تذوقهما إلا أمثال "**جمال حمدان**".. فقد تم ترشيحه – على سبيل المثال – عام (1403هـ ــ 1983م) لتمثيل مصر في إحدى اللجان المهمة بالأمم المتحدة، ولكنه اعتذر عن ذلك، رغم المحاولات المتكررة لإثنائه عن الاعتذار. كما اعتذر بأدب ورقة عن عضوية مجمع اللغة العربية، وكذلك عن رئاسة جامعة الكويت... وغير ذلك الكثير.

وفي الخامس والعشرين من شوال 1413هـ ــ السابع عشر من إبريل 1993م، انتقل العالم الجليل الدكتور "**جمال حمدان**" إلى جوار ربه، إثر تسربٍ غامض للغاز في منزله2.. وكما شيَّد تراثه العلمي الخالد في هدوء فقد شاء الله له أن يرحل في هدوء.. ويبقى على الأجيال اللاحقة أن تُحسن الالتفات إلى النماذج العلمية الشامخة التي يمتلئ بها تاريخ أمتنا القديم والحديث على حدٍّ سواء..

المبحث الثالث: دور العلم في حياة عبد القدير خان
[1935م - ...]

ميلاده ونشأته

هو "عبد القدير" بن عبد الغفور خان. وُلِدَ في ولاية بهوبال الهندية سنة 1935م، لأسرة متواضعة، هاجرت إلى كراتشي في جنوب باكستان، كان أبوه عبد الغفور خان مدرسًا تقاعد عام 1935م، وتفرَّغ لتربية ولده ورعايته، وكانت أمه "زليخة بيجوم" امرأة تقيَّة مؤمنة تتقن اللغة الأُرْدِية والفارسية3؛ وبعد سنوات تخرَّج عبد القدير خان في مدرسة الحامدية الثانوية ببوبال، ثمَّ توفي والده سنة 41957.

تخرج عبد القدير في كلية العلوم بجامعة كراتشي سنة 1960م، وتقدم لوظيفة مفتش للأوزان والقياسات (وظيفة حكومية من الدرجة الثانية)، وكان عبد القدير أحد اثنين قُبِلُوا بهذه الوظيفة من بين مئتي متقدِّم، وكان راتبه مائتي روبية في الشهر، ولكنَّه استقال منها رفضًا لما يتقاضاه مديره من رشاوى5، ولما لم يجد وظيفة قرَّر السفر إلى الخارج لاستكمال دراسته، وتقدم لعدة جامعات أوروبية؛ وانتهى به الأمر في

---

1 انظر عبد الحميد حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص10 .

2 عبد الحميد حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص10.

3 نادية العوضي، عبد القدير خان.. أبو القنبلة الباكستانية، http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mashaheer-Sep-2000/mashaheer-5.asp

4 السابق نفسه.

5 السابق نفسه.

جامعة برلين التقنية؛ فأتم دورة تدريبية لمدة عامين في علوم المعادن، ثم نال الماجستير سنة 1967م من جامعة (دلفت) التقنية بهولندا، ثم درجة الدكتوراه من جامعة (لوفين) البلجيكية سنة 1972م[1]، وشغل بعدها وظيفة كبير خبراء المعادن بشركة FDO الهندسية الهولندية، والتي كانت يومها على صلة وثيقة بمنظمة "اليورنكو" المهتمة بتخصيب اليورانيوم[2].

وحين فجرت الهند القنبلة النووية عام 1974م كتب الدكتور عبد القدير خان رسالة إلى رئيس وزراء الباكستان في حينها "ذو الفقار علي بوتو" قال فيها: إنه حتى يتسنَّى للباكستان البقاء كدولة مستقلة فإن عليها إنشاء برنامج نوويّ". ولم يستغرق الرد على هذه الرسالة سوى عشرة أيام، والذي تضمَّن دعوة للدكتور عبد القدير خان لزيارة رئيس الوزراء بالباكستان، والتي تمت بالفعل في ديسمبر عام 1974م. قام رئيس الوزراء بعدها بالتأكد من أوراق اعتماده عن طريق السفارة الباكستانية بهولندا، وفي لقائهما الثاني عام 1975م طلب منه رئيس الوزراء عدم الرجوع إلى هولندا؛ وذلك حتى يرأس برنامج الباكستان النووي[3].

عاد خان إلى إسلام أباد سنة 1976م؛ حيث كلَّفه ذو الفقار علي بوتو بتأسيس "البرنامج النووي المدني"، وفي 1981م أُطلِقَ على المختبر الرئيسي للأبحاث الذرية الباكستانية "مختبرات أبحاث الهندسة" في (كاهوتا) قُرب إسلام أباد اسم "مختبرات خان للأبحاث" تكريمًا له.

وفي عام 1998 أصبح خان (أبو القنبلة النووية الباكستانية) بطلاً قوميًا عندما أعلنت جمهورية باكستان الإسلامية رسميًا نفسها قوة نووية بعد أسابيع من جارتها الهند عقب امتلاك السلاح النووي[4].

أهمُّ أعماله

بدأ أعماله العظيمة؛ عندما عهد إليه بتأسيس المفاعل النووي الباكستاني؛ فأحدث ثورة إدارية على الأسلوب المتبع عادةً من فكرة، ثم قرار، ثم دراسة جدوى، ثم بحوث أساسية، ثم بحوث تطبيقية، ثم عمل نموذج مصغر، ثم إنشاء المفاعل الأوَّلي، والذي يليه هندسة المفاعل الحقيقي، وبناؤه وافتتاحه.. حيث قام فريق الدكتور خان بعمل كل هذه الخطوات دفعة واحدة، وتمكنت معامل كاهوتا من ابتكار تقنية تستهلك عُشْر الطاقة المستخدمة في الأساليب القديمة!!

ثم قام الفريق الباكستاني بقيادة عبد القدير خان بتصميم النابذات، وتنظيم خطوط الأنابيب الرئيسية، وحساب الضغوط، وتصميم البرامج والأجهزة اللازمة للتشغيل، حتى حين اشتد الهجوم على

---

1 السابق نفسه.

2http://www.islamicnews.net/Document/ShowDoc07.asp?DocID=62847&TypeID=7&TabIndex=3

3 نادية العوضي، مرجع سبق ذكره.

4 انظر: http://www.islamicnews.net

البرنامج النووي، وطُبِّقَ الحظر والعقوبات الاقتصادية، بحيث لم يتمكن الفريق من شراء ما يلزمه من مواد.. بدأ المشروع في إنتاج جميع حاجياته بحيث أصبح مستقلاً تمامًا عن العالم الخارجي في صناعة جميع ما يلزم المفاعل النووي.

وقد تَوَّج الدكتور عبد القدير خان حياته العلمية وخدماته الجليلة لوطنه بالرد على تفجير الهند النووي في مايو سنة 1998م، بتفجير نووي مماثل، بعد أسبوعين فقط من التفجير الهندي، لتنضم باكستان إلى النادي النووي.

ولعلَّ أعظم إنجاز لعبد القدير خان يتمثل في تمكُّنه من إنشاء مفاعل "كاهوتا النووي" في ستة أعوام فقط؛ بينما يستغرق إنشاؤه عادةً عَقدين من الزمان – في أكثر دول العالم تقدمًا في مجال الصناعة النووية –، كما أنَّ المختبرات التي أشرف عليها خان أنتجت أفضل يورانيوم مخصَّب في العالم!!

وامتدت أنشطة معامل خان البحثية لتشمل بعد ذلك برامج دفاعية مختلفة؛ حيث تصنع صواريخ وأجهزة عسكرية أخرى كثيرة وأنشطة صناعية وبرامج وبحوث تنمية، وأنشأت معهدا للعلوم الهندسية والتكنولوجية ومصنعًا للحديد والصلب، كما تدعم المؤسسات العلمية والتعليمية[1].

جوائز

نال عبد القدير خان ثلاث عشرة ميدالية ذهبية من معاهد ومؤسسات قومية مختلفة، كما نال أعلى وسام مدني تمنحه دولة الباكستان "وسام هلال الامتياز" سنة 1989م، ووسامًا آخر عام 1996م تقديرًا لإسهاماته المهمة في العلوم والهندسة.

من مؤلَّفاته

نشر عبد القدير خان سنة 1981م كتاب "القنبلة الإسلامية" بالإنجليزية، وهو الكتاب الذي أحدث ثورة كبرى في الغرب، كما نشر حوإلى 150 بحثًا علميًا في مجلات علمية عالمية[2]

منهجه العلمي والفكري

سخَّر عبد القدير خان علمه وفكره في سبيل قضية الإسلام الأساسية، والخروج بالمسلمين من مهاوي الذلة إلى مراقي العزة بين الأمم، ولعبد القدير خان منهجه العلمي والفكري الخاص؛ الذي ينبني على مجموعة من الأسس، أهمها السيادة الإسلامية الخالصة على أراضي الإسلام، وإخراج المحتل من أراضي المسلمين.

1 نادية العوضي، http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mashaheer-Sep-2000/mashaheer-5.asp

2 (عبد القدير خان.. أبو القنبلة الباكستانية) من إسلام أون لاين.

ويرى خان أنه لا مكان لليأس في نفس المسلم أيًا كانت الظروف المحيطة، وأن العرب هم قـادة الركب ورأس الحربة والصف الأمامي، فيقول: "إن رسالتي إلى الأمة في هذا الوقت هي أن تتحد في مواجهة عدوها، ومسؤولية النهوض تقع أولاً على عاتق الناس الذين يواجهون العدو، وهم العرب والمسلمون، فهم يطلقون النار على العرب أنفسهم، إنهم لا يقتلون أناسًا من عرق آخر أو جنس أو دين آخر، فعلى العـرب أن يتحرَّكوا أولاً".

وما زال العالم الكبير د. عبد القدير خان يقدم لوطنه وأمته كل ما يستطيع، ويخدم الإسلام بعلمه، وهذا سمت العالم المسلم دائمًا.

المبحث الرابع: دور العلم في حياة أحمد زويل

أحمد زويل.. رائد كيمياء الفيمتو

لأول مرة يمكننا أن نلاحظ بالتصوير البطيء ما يحدث خلال أي تفاعل كيميائي، وبذلك نستطيع أن نشرح العديد من المعادلات والصيغ الكيميائية الصعبة التي لم نفهمها من قبل، ونستطيع تفسير أسـباب حدوث بعض التفاعلات الكيميائية وأسباب عدم حدوث بعضها، كما يمكننا تفسير سـبب تـأثر تلـك التفاعلات من حيث سرعتها ونتائجها بالحرارة.

إنه ميلاد علم كيمياء الفيمتو "FemtoChemistry" وفيه تستخدم كاميرات خاصة، فائقـة السرعة، لرصد حركة الجزيئات عند نشوئها، وعند التحام بعضها ببعض، وملاحظة التفاعلات الكيميائيـة بسرعة "ثانية الفيمتو" وهي أقل وحدة زمنية في الثانية الواحدة!!

ويستخدم العلماء حول العالم الآن "ثانية الفيمتو" في دراسة وتحليل العديد من المـواد الكيميائيـة بمختلف أشكالها، السائلة والصلبة والغازية، وتفاعلاتها مع بعضها البعض، وتغطي تطبيقاتها العديـد مـن المجالات، بدءًا من دراسة العوامل المساعدة في التفاعلات الكيميائية، وكيـف يـتم تصـميم المكونـات الإلكترونية للجزيئات، ووصولاً إلى أدق العمليات المتعلقة بالحيـاة، مثـل الطـب وكيفيـة تطـويره في المستقبل1..

بقي أن نعرف أن ميلاد "كيمياء الفيمتو" الذي أذهل العالم، وأحدث انقلابًـا مـدويًا في كـل الأوساط العلمية، وخاصة في الكيمياء، إضافة إلى العلوم التي تتعلق بها؛ كان على يد العالم المصري المسـلم الدكتور أحمد زويل!!

ولد زويل في 26 فبراير سنة 1946م في مدينة دمنهور بمصر، وتلقى فيها تعليمه الأَوَّلي، ثم حصل على بكالوريوس العلوم قسم الكيمياء من كلية العلوم بجامعة الإسكندرية، نال بعدها درجة الماجستير مـن

1 انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، 2006م ص 168، تحت عنوان: "ماذا فعل زويل بالضبط؟!".

نفس الجامعة في علم الأطياف سنة 1969م1.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكمل دراساته العليا؛ فحصل على درجة الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا سنة 1974م، وهي عن "أطياف الرنين الضوئي والمغناطيسي للأكسيتونات والحالات الموضعية في البلورات الجزيئية"، والأكستيون – كما يعبر زويل – هو الاسم الذي أعطي ليعني حركة جسيم يمكن حفره بالضوء2.

انتقل زويل بعدها إلى جامعة بيركلي بكاليفورنيا سنة 1974م، وعن أثر تلك الجامعة فيه يقول: "أما جامعة بيركلي فقد فتحت الطريق أمامي للولوج في علم جديد حاسم، والذي قاد بدوره إلى اكتشافات علمية وتكنولوجية حاسمة أيضًا"؛ ذلك أن تلك الجامعة كانت تضم مجموعات بحثية مميزة، أكسبتها مكانة مرموقة، وكان يطلق على كثير من تلك المجموعات اسم: "المجموعات فائقة القوة"3.

وبعد بيركلي عمل زويل أستاذًا مساعدًا للطبيعة الكيميائية بمعهد كاليفورنيا التقني (كالتك) من سنة 1976م حتى عام 1978م، ثم أستاذًا في الفيزياء الكيميائية بنفس المعهد من سنة 1982م وحتى الآن، ومنه خرجت أعظم إنجازاته4.

زويل وكاميرا الفيمتو..

كانت أهم إنجازات أحمد زويل قاطبة ذلك الفتح العلمي العظيم في مجال الكيمياء (الفيمتو ثانية)؛ فقد استطاع لأول مرة في تاريخ العلم تصوير عملية التفاعل الكيميائي التي لا تستغرق سوى لحظة من مليون بليون جزء من الثانية؛ فغير بذلك علم الكيمياء الحديثة!! فلم يكن العالم يعرف بالضبط ماذا يحدث أثناء تلك اللحظة، ولا الوقت الذي تستغرقه، وسلم العلماء طيلة السنوات الخمسين الماضية بالصورة التقريبية التي وضعها "ماكس بورن" و"روبرت أوبنهايم" بما يسمى باللحظة الانتقالية التي تنفك خلالها الروابط الكيميائية للجزئيات، وتقرن بجزئيات مادة أخرى، ويولد عنها جزئ جديد لمادة جديدة. وهذا الاكتشاف من شأنه أن يستخدم بكثرة في العديد من المجالات، مثل الطب، والإليكترونيات، وعلوم الفضاء، والكيمياء، والفيزياء وغيرها.

صمم زويل كاميرا جزئية لرصد الذرات وهي في حالة حركة، وتصوير عملية التفاعل التي تحدث في وقت مثل ثانية واحدة في فيلم يستغرق عرضه 23 مليون سنة1، وقام بنشر تجاربه في ذلك مع فريقه في مجلة العلوم الأمريكية، والتي نشرتها تحت عنوان: "ميلاد الجزئيات"، وقد نوهت لجنة جائزة نوبل إلى هذا البحث بقولها: "والآن فإنه بإمكاننا أن نرى حركة الذرات المنفردة كما نتصورها، ومن ثم لم تعد تلك

---

1 انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص 34، وأحمد زويل: عصر العلم، دار الشروق، الطبعة السادسة، 2007م ص 29 وما بعدها.

2 انظر أحمد زويل: عصر العلم ص 82 .

3 انظر المصدر السابق ص91.

4 انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص 34، وأحمد زويل: عصر العلم ص101، 116.

1 انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص35.

الجسيمات أشياء غير مرئية.."1.

وعن نتيجة ميلاد هذا العلم الجديد يقول زويل: "وترتب على ذلك ميلاد علوم جديدة، مثل "الفمتوكيمياء" و"الفمتوبيولوجيا"، وفي ذلك الوقت تولدت قناعة بأن عالم "الفمتوثانية" (جزء من مليون بليون جزء من الثانية، أو واحد على واحد أمامه 15 صفرًا من الثانية) سوف يؤدي إلى اكتشافات وتطورات علمية وتكنولوجية تساهم في ترويض المادة وقياس الزمن"2.

كما يعلِّق أيضًا على اكتشافه أيضًا بالقول: "هذا الاكتشاف أسهم في تطوير دراسات الهندسة الوراثية والعلوم الطبية... ولازال المركز القومي لعلوم الليزر والجزئ بالولايات المتحدة الأمريكية يقوم بتجارب في النظام العصبي والبروتين والعيون وأساسيات الخلية التي يطلق عليها (DNA) لتطبيق هذا الفتح العلمي... ونتيجة لذلك رصدت اليابان لعلم "الفامتو" ما يقدر بـ 250 مليون دولار؛ لأهم يفكرون في تحديث التجارب الالكترونية، وتصنيع مواد خام جديدة، وتحقيق الفائدة في الاتصال المرئي"3.

ولعل السر في وصول زويل إلى ما وصل إليه هو ما ظهر في قوله: "إن نشوة العلم، والفرصة المتاحة لكشف أشياء جديدة، جعلتني مستغرقًا استغراقًا تامًا في البحث العلمي، وكنت أواصل العمل ليل نهار، طوال الأربع والعشرين ساعة، باستثناء فترات قصيرة آخذ فيها بعض النوم"4.

واتضح أكثر حين قال: "حب العلم، والافتتان بالمعرفة، وعشق تلك الجزئية من العلم التي هي بين يديك، والاستغراق فيها بكل جوارحك، كفيلٌ بأن يحملك إلى شطآن معرفية لم تحلم يومًا أن تطأها قدماك"5.

زويل.. والتفوق عالميًّا

نال زويل جائزة بنيامين فرانكلين لإنجازاته وإسهاماته العلمية لخدمة العلم والعلوم، عن اكتشافه العلمي المذهل هذا، وكان ذلك في سنة 1998م6. ثم وفي عام 1990م تم تكريمه بالحصول على منصب الأستاذ الأول للكيمياء في معهد لينوس بولينج.

ثم تُوج أخيرًا بمنحه جائزة نوبل للكيمياء سنة 1999م؛ وفي هذه المناسبة قال البروفيسور بنجت نوردن رئيس لجنة جائزة نوبل للكيمياء بالأكاديمية السويدية للعلوم: "إن استخدام زويل لتقنية الليزر فائقة السرعة (فمتوسكوب) يمكن وضعه في سياقه التاريخي جنبًا إلى جنب مع استخدام جاليليو للتلسكوب، والذي صوبه شطر كل شيء مضى في القبة السماوية الزرقاء، أما زويل فقد صوب ليزر الفيمتو ثانية على

1 أحمد زويل: عصر العلم ص 128، 129.
2 أحمد زويل: عصر العلم ص 129 .
3 هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص 177.
4 أحمد زويل: عصر العلم ص113.
5 هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص 52.
6 أحمد زويل: عصر العلم ص 150.

كل شيء يتحرك في عالم الجزئيات. لقد انتقل زويل بتلسكوبه هذا إلى آفاق العلم"1.

وإنها لحقيقة؛ فقد وصل زويل بعلم الكيمياء إلى ما كان يبدو مستحيلاً قبل ظهوره، وحين يشير علم الكيمياء إلى رجلين كان لهما الإسهام الأكبر في بنائه واستعلائه طيلة القرن العشرين، فليس غير لاينوس بولينج (الحائز على جائزة نوبل)، وأحمد زويل.

وهو الرأي الذي يحمله السير جون ميرج توماس (المدير السابق للمؤسسة الملكية لبريطانيا العظمى، ورئيس ماستر بيترهاوس بجامعة كمبردج) بقوله: "إن زويل هو خليفة الكيميائي الأعظم في القرن العشرين لاينوس بولينج؛ فقد منح جائزة نوبل في الكيمياء منفردًا من أجل إنجاز علمي كبير - ابتداعه لعلم الفمتو كيمياء الجديد، والذي من المحتم أن يغير من علوم القرن الحادي والعشرين"2.

وغير جائزة بنيامين فرانكلين وجائزة نوبل وقبلهما، فقد حصل زويل على جائزة بحوث الكيمياء المتميزة (N.R.C) ببلجيكا سنة 1982، واختارته الجمعية الأمريكية للطبيعة زميلاً لها سنة 1982م3.

ومُنح زويل جائزة الكسندر فون هومبولت من ألمانيا الغربية، وهي أكبر جائزة علمية هناك، وذلك في سنة 1983م4، ثم جائزة الملك فيصل في العلوم والفيزياء سنة 1989م، وهو بذلك يُعد أول عربي يحصل على هذه الجائزة في العلوم أو الطب5.

كما منح زويل أيضًا جائزة (وولف)، والتي حصل عليها في بداية سنة 1993م، وقد جاء في الحيثيات الرسمية لمنحه الجائزة ما يلي: "من أجل التطوير الرائد لفمتوكيمياء الليزر، وباستخدام الليزرات والأحزمة أو الباقات الجزيئية، فإن الفمتوكيمياء جعلت بالإمكان رصد تطور التفاعلات الكيميائية كما تحدث بالفعل في زمن حقيقي"6.

مُنح زويل أيضًا جائزة ويلش، والتي تخصصت في تقدير الإنجازات التي يتوصل إليها العالِم طوال حياته، وتمنح لأجل الإضافات العلمية البارزة في الكيمياء، والهادفة لرفاهية وإسعاد الجنس البشري1.

وفي سنة 1993م منحته الجامعة الأمريكية في مصر أول دكتوراه فخرية، وفي سنة 1995م منحه الرئيس حسني مبارك وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وبعد تسلمه جائزة نوبل منحه مبارك قلادة النيل العظمى - أعلى وسام مصري، وأصدرت هيئة البريد المصرية طابعين يحملان صورته، تكريمًا لإنجازاته

---

1 أحمد زويل: عصر العلم ص 22.

2 أحمد زويل: عصر العلم ص 21 .

3 انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص 35 .

4 أحمد زويل: عصر العلم ص 116 .

5 أحمد زويل: عصر العلم ص 142 .

6 أحمد زويل: عصر العلم ص 148 .

1 أحمد زويل: عصر العلم ص 148 .

العلمية، كما أُطلق اسمه على شارع كبير في دمنهور، وأيضًا على المدرسة الثانوية التي تخرج فيها[1].

في نهاية ذلك كله، وبعد ما كان من إنجازات وتتويجات، ترى زويل يقف صادقًا مع نفسه معـــبرًا عن حقيقة أكيدة، وقاعدة أصيلة قائلاً: "كل ما أعرفه: هو أنني عاشقٌ لعلمي، ولا يوجد عندي رغبـــة في التوقف والاستمتاع بالمجد"[2].

1 أحمد زويل: عصر العلم ص 150، 151، 160 .

2 أحمد زويل: عصر العلم ص 87 .

الفصل الخامس: دور العلم في حياة علماء الحياة غير المسلمين

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة جيمس وات

المبحث الثاني: دور العلم في حياة أديسون

المبحث الثالث: دور العلم في حياة ماركوني

المبحث الرابع: دور العلم في حياة ألبرت أينشتين

المبحث الخامس: دور العلم في حياة جورج سارتون

المبحث السادس: دور العلم في حياة ستيفن هوكينج

المبحث الأول: دور العلم في حياة جيمس وات

(1736- 1819م)

اسمه مطبوع على لمبات الإضاءة (Watt).. ويعني وحدة قياس القوة، وهو ما أطلقته هيئة الطاقة البريطانية في سنة 1882م على وحدة القياس تكريمًا له؛ مما دعَّم من شهرته.. كما أنه أول من استخدم مصطلح (حصان) للتعبير عن قوة الماكينات.. وهو يُعَد بحق رائد **الثورة الصناعية!!**

إنه جيمس وات، وُلِدَ في بريطانيا سنة 1736م، وكان منصرفًا عن دروسه إلى إشباع رغبته في علوم الميكانيكا والرياضيات، حتى إنه قرأ في صغره كثيرًا من كتبها.

والحقيقة أن جيمس وات لم يكن هو مخترع المحرك البخاري، وإنما كان توماس نيوكومن قد حقق هذا الإنجاز قبل مولد جيمس بربع قرن، أما المحركات التي اخترعها وات فكانت ذات تأثير أكبر، حيث اقتصر استخدام محرك نيوكومن في أعمال التعدين فقط وضخ الماء من المناجم، بينما استخدمت المحركات التي صنعها جيمس في كل الصناعات[1].

وإنه إذا كان نيوكومن قد اشتهر لاختراعه محركًا محدود الاستخدام، فإن جيمس وات هو من جعله متاحًا لكل الصناعات؛ فكانت الثورة الصناعية.

وقد بدأ اهتمام جيمس بالآلات البخارية في سنة 1764م عندما كان يصلح إحدى الآلات البخارية القديمة[2]؛ فقد طُلِبَ من وات أن يصلح أحد محركات نيوكومن وكان يستخدم في أغراض التدريس في جامعة جلاسجو، وكانت نقطة الضعف التي اكتشفها وات في المحرك هي تسخين ثم تبريد أسطوانات المحرك في كل دورة، وهذا يهدر وقودًا بدون داع، كما أنه يهدر الوقت أيضًا، وهو الوقت الذي تستغرقه الاسطوانة لترتفع حرارتها بدرجة كافية لإنتاج البخار؛ ما يقلل عدد مرات الدوران؛ وبناء على ذلك بدأ وات في عمل التعديلات لتحسين تصميم محرك نيوكومن، ويقال: إنه صادف الحل في سنة 1765م بينما كان يتجول في جلاسجو، وقد وُضِعَ نصبٌ تذكاريٌّ في المكان الذي توصل فيه وات إلى ذلك الحل الذي أدَّى إلى حدوث الثورة الصناعية!!

فقد توصل وات إلى المفتاح الذي قاده إلى رفع كفاءة المحرك، وهو ضغط البخار في حاوية خاصة؛ مما يسمح للأسطوانة والمكبس بالبقاء في حالة سخونة دائمة[3]..

---

1 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم 25 ص 103، أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 87 .

2 مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص 104 .

3 أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 87 .

يقول مايكل هارت: من الإنصاف أن يقال: إنه هو المخترع الحقيقي للآلة البخارية[1].

صنع وات المحرك المعدَّل في سنة 1768م، وعند ذلك بدأ عمله التجاري، وذلك بالمشاركة مع جون ريبوك؛ وذلك لكي يموِّل إنتاج المحركات ويسوِّقها، ثم بعد ذلك حصلت الشركة على براءة اختراع تحت اسم (طريقة مبتكرة جديدة لتقليل استهلاك الوقود والبخار في المحركات النارية) وبدءوا في بيعه لأصحاب مناجم الفحم، ولكن لسوء الحظ في سنة 1772م أفلس ريبوك، لكنه مع ذلك مكَّن وات من أن يدخل في شراكة جديدة أكثر نجاحًا مع ماثيو بولتون في عام 1775م.

وسرعان ما تقدم الشريكان الجديدان وات وماثيو بولتون إلى البرلمان بطلب جديد يُمكِّنهم من أن يكونوا المنتِج والبائع الوحيد لمحرك وات في البلاد لمدة خمسة وعشرين عامًا. وقد أدى نجاح تلك الفكرة إلى أن يكونا محتكرين للمحرك، وإلى نمو الثروة الشخصية لوات نفسه.

ولم تمنع براءة الاختراع وات من إدخال تعديلات جديدة على الآلة البخارية، بما يجعلها أكثر فاعلية، وقد وصل إلى أفضل صورة لها في سنة 1790م، وقد مكنته تلك التعديلات من أن يجعل المحرك يدور على محور؛ إذ كانت المحركات التي صنعها من قبل هو ونيوكومن ذات حركة من أسفل إلى أعلى، وهي مفيدة فقط في ضخ المياه خارج المناجم، لكن فائدتها كانت أقل في أماكن أخرى، وعندما أصبحت الحركة دائرية داخل المحرك أمكن استخدامه في صناعات أخرى[2].

وعن أهمية الآلة البخارية أيضًا يحدثنا مايكل هارت فيقول: باختراع الآلة البخارية تزايدت خطورة وأهمية الثورة الصناعية في كل اتجاه؛ فقد تضاعفت الطاقة الضرورية للإنتاج، وبذلك تضاعف الإنتاج نفسه.

ويتابع فيقول: ولا شك أن الحظر على البترول الذي فرضته حرب أكتوبر سنة 1973م قد جعل الغرب يدرك خطورة النقص المفاجيء للطاقة، وكيف أن هذا النقص من الممكن أن يربك الصناعة والإنتاج، وهذا يجعلنا ندرك أهمية اختراع وات بالنسبة للثورة الصناعية في أوروبا[3].

وبالإضافة إلى فوائد الآلة البخارية في الصناعة، فقد ظهرت لها فوائد أخرى؛ حيث استطاع المركيز دابانز أن يستخدم الآلة البخارية في دفع أحد الزوارق، وفي سنة 1804م صنع ريتشارد تريفيك أول طائرة بخارية، ولكن هذه الاختراعات لم تنجح تجاريًا، ولكن بعد عشرات السنين تطورت القاطرات والزوارق البخارية، وأحدثت وحدها ثورة على الأرض وفي الماء[4].

---

1 الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص 104 .

2 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 88 .

3 مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص 105 .

4 المصدر السابق ص 105 .

وقد كان لنشوب الثورة الصناعية في وقتٍ تزامن مع الثورة الأمريكية والفرنسية الأثـــر في عـــدم إحساس الناس بتأثيرها عليهم؛ يقول مايكل هارت: وعلى الرغم من أن الثورة الصناعية لم تتضح خطورتها في ذلك الوقت، فإننا الآن ندرك بوضوح كيف أنها أثرت على الحياة اليومية لكل الناس في العالم، أكثر ممـــا كان لثورتي أمريكا وفرنسا، ولذلك فجيمس وات يعتبر من أكبر الشخصيات في التاريخ[1].

المبحث الثاني: دور العلم في حياة أديسون

توماس أديسون.. مَنْجَم الاختراعات

(1847 – 1931م)

"إنَّ أمي هي التي صنعتني؛ لأنها كانت تحترمني وتثق في، أشعرتني أني أهم شـــخص في الوجـــود، فأصبح وجودي ضروريًّا من أجلها، وعاهدت نفسي ألا أخذلها كما لم تخذلنِ قَطّ"..

كلمات تحمل في طياتها حجر الزاوية والركن الركين في صناعة المخترع الأمريكـــي "أديســـون" صاحب الـــ 1093 اختراع المنفَّذة، والآلاف الأخرى التي احتوت عليها مفكرته و لم يمهله العمر لتنفيذها، كما أنها تفسر البدايات الأولى له، والتي لم تكن بدايات عادية.. وربما لأن أمه كانت غير عادية!!

البدايات الأولى.. ودور الأم

في مدينة ميلان بولاية أوهايو الأمريكية، وفي سنة 1847م وُلِدَ **توماس ألفـــا أديســـون**، ومـــن المفارقات العجيبة أنه أُخرج من المدرسة بعد ثلاثة شهور فقط من دخوله؛ حيث وجده ناظر المدرسة طفلاً بليدًا، ومتخلفًا عقليًا[2]!!

وهنا جاء دور أمه التي لم تغب عنها المشكلة، فقامت بسحب توماس من المدرسة، وواسته بكل ما تملك، وبدأت تعلمه بنفسها في البيت، وتنمي بداخله حب الدراسة، حتى كان أول مشروع له هو: "قراءة

---

1 الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص 105 .

2 2 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم 38 ص 163 .

كل كتاب في البيت"، وكان ذلك المشروع هو بداية الطريق نحو التعليم الذاتي، وكان البيت يحوي مكتبة كبيرة في مختلف أنواع العلوم[1].

لم تملَّ أمه أبدًا من تعليمه ودفعه للتعلم ومساعدته في ذلك، يقول أحد جيرانهم: "كنت أمر عدة مرات يوميًا أمام منزل آل أديسون، وكثيرًا ما شاهدت الأم وابنها توماس جالسين في الحديقة أمام البيت"، فقد كانت تخصص بعض الوقت يوميًا للتدريس للفتى الصغير وتعليمه.

وإن ذلك الصنيع لم يرحل عن ذاكرة أديسون يومًا ما؛ إذ تراه يقول عن أمه: "لقد اكتشفت مبكرًا في حياتي أن الأم هي أطيب كائن على الإطلاق؛ لقد دافعت أمي عني بقوة عندما وصفني أستاذي بالفاسد، وفي تلك اللحظة عزمت على أن أكون جديرًا بثقتها، كانت شديدة الإخلاص واثقة بي كل الثقة، ولولا إيمانها بي لما أصبحتُ مخترعًا أبدًا".

وقد بان ذلك التأثر الشديد بأمه حين وفاتها سنة 1871م؛ إذ تركت تلك الصدمة في نفسه تأثيرات عميقة، حتى كان يصعب عليه الحديث عنها دون أن تمتلئ عيناه بالدموع!!

وإتمامًا واستكمالاً لدورها، فإنه لما كان للطفل (أديسون) أسئلته الكثيرة، والتي باتت تتخطى إمكاناتها التي ما فتئت تمنحه إياها، ما كان منها إلا أن انتدبت له مدرسًا ليعلمه.. لكن المعلم لم يستطع أن يجارى رأس توماس وسرعة منطقه في تفنيد النظريات، فكان أن رحل تاركًا عند أديسون العقيدة الأكيدة وهي: "**التجريب أفضل شيء في طريق العلم**".

ومن يومها بدأ نبوغ أديسون الطفل يظهر.. ولم يمانع قط في بذل أي مجهود لكسر أي تحدٍ مهما كان!!

ليس هناك عائق للتفوق!!

كانت عائلة أديسون عائلة فقيرة، ومن ثم فقد أقنع توماس والديه بأن يسمحوا له بالعمل، فكان يبيع الجرائد في محطات القطار[2]..

ولما كانت هناك حرب أهلية أمريكية مشتعلة ابتدأت سنة 1861م استغل فرصة عمله في محطة القطار، والتي كان فيها مقر التلغراف الرئيسي الذي يتم إرسال الأخبار إليه والمراسلات، ليقوم بطباعة منشور بسيط فيه أحدث تطورات الأزمة ويبيعه للركاب.. فكان بمثابة أول جريدة من نوعها في العالم تكتب وتطبع وتوزع في قطار، وقد سماها: "Trunk Herald Grand".

1 انظر محمد المنسي قنديل: عظماء في طفولتهم، دار المعارف – القاهرة ص 97 .
2 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 131.

وحين انتصر إبراهام لينكولن قام أديسون بجمع معلومات عنه وطبعها في كتيب صغير، وزَّعه على ركاب القطارات[1]..

ولم يكن الفقر هو المعوق الوحيد في حياة أديسون، وإنما كان المرض أيضًا، وقد تمثَّل ذلك في فقدانه لحاسة السمع.. وكما تغلَّب على الفقر، فإن أديسون ربما اعتبر هذا الصمت الذي يلف الكون حوله فرصة لتنمية قدراته على التركيز!! ولطالما وجد لنفسه وسيلة للتغلب على أية مشكلة والاستفادة منها.

وفي إحدى مرات تواجده في محطة القطار رأى أديسون طفلاً يكاد يسقط على القضبان، فقفز – وهو المراهق الشاب – لينقذه ولم يَدُرْ بخَلَدِه أن هذا الطفل هو ابن رئيس المحطة، وكمكافأة لهذه الشجاعة النادرة عيَّنه رئيس المحطة في مكتب التلغراف، وعلَّمه قواعد لغة مورس!!

التطوير في العمل.. بداية الاختراعات

كان تعيين أديسون في مكتب التلغراف وتعليمه لغته بمثابة فتح كبير له؛ إذ كانت فرصته الكبرى في أن يجرب تطوير هذا الشيء الذي بين يديه، والذي نتج عنه ولادة أول اختراعاته.. إنه "التلغراف الإلي"، والذي لا يحتاج إلى شخص في الجهة الأخرى لاستقباله، بل يترجم العلامات بنفسه إلى كلمات مرة أخرى.

تقدم أديسون في عمله وانتقل إلى مدينة بوسطن بولاية ماساشوستس، وأسس مختبره هناك في عام 1876م، واخترع برقية آلية تُستخدَم في إرسال العديد من البرقيات عبر خط واحد، ثم اخترع الـ[كرامفون] الذي يقوم بتسجيل الصوت ميكانيكيًا على اسطوانة من المعدن، وبعدها بسنتين قام باختراعه العظيم "المصباح الكهربائي"[2].

ومما يستحق النظر هنا هو أن أديسون أجرى ألف تجربة فاشلة قبل الحصول على المصباح النهائي أو الحقيقي، وكان تعليقه في كل مرة: "هذا عظيم.. لقد أثبتنا أن هذه أيضًا وسيلة فاشلة في الوصول للاختراع الذي نحلم به".. قالها نحو ألف مرة، ولم يتوقف، ولم يملَّ، ولم يُحبَط!!

والحقيقة أيضًا أن أديسون لم يكن أول من اخترع المصباح الكهربائي، إنما سبقه إلى ذلك كثيرون، كما أن المصابيح الكهربائية قد استخُدِمت لإضاءة شوارع باريس، ولكن مصباح أديسون مع نظام توزيع الكهرباء الذي اخترعه، جعل المصابيح الكهربائية – كما يقول مايكل هارت – صالحة للاستعمال في كل البيوت، وقامت شركة أديسون سنة 1882م بإنتاج الكهرباء لمدينة نيويورك، وبعد ذلك انتشرت الكهرباء في أمريكا والعالم[3].

---

1 انظر محمد المنسي قنديل: عظماء في طفولتهم ص 97.

2 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 132 .

3 مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص 164 .

وبعد دخول الكهرباء إلى كل البيوت، وضع أديسون الأساس الحقيقي لتطور الصناعة في العـــالم، كما أدَّت الأسس التي وضعها لتوزيع الكهرباء على البيوت والمصانع إلى أن أصبحت الكهرباء حدثًا عظيمًا في تاريخ الإنسان.

وقد أسهم أديسون في تطوير كاميرات السينما، وأسهم في اختراع التليفون، خصوصًا أنه هو الذي اخترع الكربون الذي ينقل الصوت، كما أسهم في اختراع أجهزة التلغراف والآلـــة الكاتبـــة، واختـــراع البطاريات الجافة والميكروفونات.

ومن اكتشافاته أيضًا سنة 1882م أنه يمكن أن تتحرك الكهرباء في داخل "فراغ" بين سلكين غير متصلين، وقد أدى هذا الاكتشاف إلى اختراع اللمبات الكهربية المفرغة تمامًا، ووضـــع أســـاس صـــناعة الالكترونيات[1].

وفي عام 1887م نقل أديسون مختبره إلى ويست أورنج في ولاية نيو جيرسي، وفي عام 1888م قام باختراع kinetoscope وهو أول جهاز لعمل الأفلام، كما قام باختراع بطارية تخزين قاعدية، وفي عام 1913م أنتج أول فيلم سينمائي صوتي.

وإبان الحرب العالمية الأولى اخترع نظام لتوليد البنزين ومشتقاته من النباتات، وخلال هذه الفتـــرة عُيِّن مستشارًا لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أكمل أديسون بعد ذلك اختراعاته ليسجل أكثر من 1000 براءة اختراع!! وهو عـــدد لا يصدقه العقل.

وعن أسباب عظمة أديسون في اكتشاف هذا السيل الهائل من الاختراعات يقول مايكل هـــارت: إنه أنشأ لنفسه معملاً خاصًا في سن مبكرة، وقد عيَّن في هذا المعمل عددًا من المساعدين، وكان هذا المعمل نموذجًا للمعامل التي أقامتها المؤسسات الكبرى بعد ذلك. ثم يستطرد مايكل معلقًا: ومما لا شك فيه أن إقامة هذا النوع من المعامل المنظمة والتي يعمل فيها عدد كبير من الناس بروح الفريق، هو من أعظم اختراعـــات أديسون، ومن علامات العصر أيضًا، وهو الاختراع الوحيد الذي لا يستطيع أن يسجله، ولا أن يحتكره[2]!!

أما الأوسمة والميدإليات التي حصل عليها، فقد مُنِحَ وسام ألبرت للجمعية الملكيـــة مـــن بريطانيـــا العظمى، وفي سنة 1928م استلم الميدإلية الذهبية من الكونجرس.

---

1 انظر المصدر السابق ص 165 .

2 مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص 164 .

وكان قد مُنِحَ جائزة نوبل سنة 1912م بالاشتراك مع زميله تسلا، إلا أنَّ رفْض تسلا أنْ يقترن اسمه باسم أديسون جعلهما لم يحصلا على الجائزة[1]!!

وإنه إذا كان أديسون قد توفي سنة 1931م عن أربعٍ وثمانين سنة، فإنه سيظل مؤسس التطور الحديث الذي نعيشه.. وإنه إذا كان العالم يذكره على أنه مخترع المصباح الكهربائي، فإن اختراعاته الكثيرة الأخرى ليست أبدًا بأقل منه أهمية!!

المبحث الثالث: دور العلم في حياة ماركوني

ماركوني.. رائد تطوير الإرسال البرقي اللاسلكي (الراديو)

(1874- 1937م)

كما أن هناك اكتشافات رائعة يقوم بها الكثيرون من النابغين العظماء، فإن هناك أيضًا من هؤلاء العظماء من يجيدون الاستفادة من الاكتشافات التي لغيرهم.

وذلك هو ما ينطبق على جويلمو ماركوني، **مخترع الراديو!!**

وُلِدَ ماركوني في مدينة بولونيا بإيطاليا سنة 1874م لأسرة غنية، وقد تعلَّم في بيته، وعندما بلغ العشرين من عمره قرأ تجارب هينريش هرتز التي قام بها قبل ذلك بسنوات، وتجارب هرتز قد أثبتت وجود موجات كهربية مغناطيسية غير مرئية ، وهذه الموجات تتحرك في الهواء بسرعة الضوء. وآمن ماركوني بأن هذه الموجات يمكن استخدامها في إرسال إشارات صوتية إلى مسافات بعيدة دون حاجة إلى أسلاك، وهذا يجعل الاتصال أسهل من استخدام التلغراف، فعن طريق هذه الموجات يمكن أن يبعث رسائل إلى السفن في المحيط[2].

1 أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 131 .

2 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم 41 ص 175 .

وقد استفاد ماركوني من ممتلكات عائلته طويلة المساحة (ميل ونصف)، وذلك كي يجري تجاربه عن إرسال الموجات اللاسلكية في مكان خاص لا ينازعه فيه أحد.. وبحلول سنة 1895م، وبعد سنة واحدة من العمل الشاق، كان قد صنع أجهزة معقدة يمكنها أن تذيع وتستقبل وتغطي مساحة ممتلكات العائلة[1].

وبينما كان ماركوني مقتنعًا بأهمية ما توصل إليه خلال تجاربه، كان هناك القليلون جدًا في إيطاليا مقتنعين بذلك!! ولذلك قرر الانتقال إلى لندن في محاولة للبحث عن دعم أعماله هناك، وذلك في سنة 1896م.

وفي لندن حقق ماركوني نجاحًا كبيرًا، حيث اهتمت الحكومة وهيئة البريد والجيش بالاستخدامات العملية التي يمكن جنيها من وراء هذه التكنولوجيا الجديدة خلال عدة سنوات، وكان ذلك بعد أن قام ماركوني بأول عرض له للبث اللاسلكي بين بريطانيا وفرنسا في عام 1899م، وبعد هذا العرض أصبح محط أنظار العامة والخاصة.

وخلال هذه الفترة انشغل ماركوني في إقامة شركة تعتني بمخترعاته وسميت شركة (ماركوني للاسلكي المحدودة) في عام 1900م، وكان قد أجرى تجارب لاسلكية ناجحة على سفن تابعة للبحرية البريطانية[2].

نجح ماركوني بعد ذلك في تجربة بث لاسلكي باستخدام شفرة مورس عبر الأطلنطي (ألفي ميل)؛ فقضى بذلك على كل الشكوك حوله وحول نجاح فكرته، وأسكت كل المشككين في أعماله، ونال شهرة عالمية.

وكان الكثيرون يعتقدون بأن ذلك عملٌ مستحيلٌ، وقالوا: إن تقوُّس سطح الكرة الأرضية عائق كبير، لكن ماركوني كان يعتقد أن ذلك ممكنًا. وقبل ذلك الحدث وبعده كان ماركوني قد حصل على عدة براءات لاختراعه الذي صنعه بنفسه وأدخل عليه عدة تعديلات[3].

وقد ظهرت أهمية هذا الاختراع عندما وقع حادث غرق السفينة (ريبابليك) سنة 1909م، وأيضًا السفينة الشهيرة (تايتانك) سنة 1912م، وكان ذلك من بين ما أسكت المشككين في مدى فائدة اختراع ماركوني؛ فقد ظلَّ اثنان من المسئولين عن البث اللاسلكي على السفينة تيتانك (وكان المسئول عن اللاسلكي على أية سفينة يُسمّى: رجل ماركوني) في حجرة البث يرسلان استغاثة باستخدام اللاسلكي،

---

1 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 159 .
2 انظر المصدر السابق ص 159، 160 .
3 أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 160 .

حتى تحطم جزء السفينة الموجود به غرفة اللاسلكي، مما تسبب في إنقاذ عددٍ من الركاب، وقد نجا أحدهما وهو هارولد بريد، والتحق بعد ذلك بالبحرية الملكية، ولقي الآخر حتفه مع الغارقين، وهو جاك فيليبس.

وقد أدت هذه الحوادث إلى صدور القوانين التي تقتضي بأن يكون بسفن الركاب أجهزة لاسلكية[1].

نال ماركوني جائزة نوبل في الفيزياء عمّا قام به، وذلك سنة 1909م.

وفي السنة التالية نجح في أن يبعث برسائل لاسلكية بين أيرلندا والأرجنتين، أي عبر مسافة ستة آلاف ميل. وهذه الرسائل جميعًا قد انتقلت بطريقة مورس، أي نقطة وشرطة، وكان ماركوني يتصور أنه يمكن نقل الصوت أيضًا عبر هذه المسافات الهائلة، ولكن ذلك لم يتحقق إلا في سنة 1915، ولم يعرف العالم الإذاعة على نطاق تجاري واسع إلا في 1920م.

وقد قضى بقية حياته منشغلاً في تطوير تقنية الراديو (المذياع)، وقد حقَّق تقدمًا ملحوظًا في تقنية الموجات القصيرة؛ مكنت من إقامة شبكة عالمية للإذاعة في عام 1927م.

وفي سنة 1932م صمّم ماركوني أول جهاز هاتف يعمل بالموجات الدقيقة (الموجات المتناهية الصغر أو المايكروويف)..

وفي السنوات الأخيرة من حياته قام بتصوير استخدام الموجات القصيرة والموجات شديدة القِصَر، وتُوُفِّي ماركوني في روما سنة 1937م2.

ومادام ماركوني قد اكتسب شهرته كمخترع فإن أهميته تتناسب مع أهمية الراديو وما أسفر عنه من نتائج مهمة؛ فمن المؤكد أن الراديو مهم جدًا في الاتصالات الحديثة، فالراديو يستخدم في الإذاعة والأخبار ولخدمة البوليس وللأبحاث العلمية.. وعلى الرغم من أن التلغراف قد اختُرِع قبل ذلك بقرن ونصف قرن، فإن التلغراف لا يستطيع أن يحل محل الراديو، فالراديو يربط السفن والسيارات والطائرات وسفن الفضاء[3].

وتجدر الإشارة إلى أن اختراعات ماركوني، وخاصة فيما يتصل بالتجارب الخاصة بالموجات القصيرة والموجات الدقيقة (المايكرو ويف) قد ساعدت على فتح الطريق أمام حدوث ثورة في مجال الاتصال الإلكتروني بالموجات الدقيقة!!

---

1 انظر المصدر السابق، نفس الصفحة، وانظر أيضًا: "الموسوعة العربية العالمية" على شبكة الإنترنت، الرابط:
http://www.mawsoah.net/gae_portal/maogen.asp?main2&articleid0_131910!ماركوني!=

2 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص 176 ، والموسوعة العربية العالمية.

3 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص 177 .

المبحث الرابع: دور العلم في حياة ألبرت أينشتين

(1879– 1955م)

لم يتمكن من الكلام حتى سنِّ الثالثة، وفي شبابه كان يقوم بجهد كبير لإيجاد المفـــردات المناســـبة للتعبير، وكان يجد صعوبة في المدرسة، وخاصة في مادة الرياضيات، ولم يكن قادرًا على التعبير عن نفســـه كتابة، حتى إنه كان يُعتقَد أنه أبله.. إلى أن بدءوا يكتشفون إنجازاته!!

وُلِدَ أينشتاين في مدينة (أولم) في ألمانيا، وأكمل دراسته في سويسرا، وتجنَّس بالجنسية السويسرية، ودرس في معاهدها، ثم بعد إعلان نظرية النسبية الأولى انتقل إلى العمل في ألمانيا في جامعتها، ثم مديرًا لمعهد الإمبراطور الفلكي[1].

ويُعَد أينشتاين أعظم علماء القرن العشرين وأكثرهم شهرة، وقد ارتبط اسمه بنظرية النسبية، وهناك نظريتان تحملان هذا الاسم: واحدة أعلنها سنة 1905م وهي نظرية "النسبية الخاصة"، وكان قد **فكَّر فيها وهو شاب دون العشرين**، والثانية أعلنها سنة 1915م واسمها "النسبية العامة"، وكلتاهما في غاية التعقيد، ولا يستطيع أي إنسان أن يشرحهما في مجلة أو لعامة الناس مهما أوتي من القدرة على التوضيح[2].

وفي تبسيط ذلك يضرب مايكل هارت مثلاً؛ فيقول: ولكن سوف أضرب مثلاً على ذلك، وإن لم يكن واضحًا فهو واضح الغموض، أو هو دليل واضح على صعوبة وغموض هذه النظرية، المثل: لنفرض أن سفينة فضاء انطلقت بسرعة مائة ألف ميل في الثانية بعيدًا عن الأرض، والذي يراقبها من الأرض، والـــذي يراقب الأرض من السفينة سوف تتطابق معلوماتهما تمامًا، وإذا انطلقت سفينة أخرى بسرعة مائة وثمـــانين ألف ميل في الثانية بعيدًا عن الأرض، فإن الذي يرقبها من الأرض ورائد السفينة الذي يرقب بعـــدها مـــن الأرض ستكون معلوماتهما متطابقة تمامًا.

ولكنَّ رائد السفينة الأولى سيلاحظ أن السفينة الثانية تسبقه بثمانين ألف ميل في الثانية – هذا مـــا نقوله نحن، ولكن نظرية أينشتاين تؤكد أن هذا خداع، وأن الحقيقة أن السفينة الثانية تسبقها بمائة ألف ميل في الثانية، كيف؟ هذا هو لغز الحقيقة التي أرهقت العلماء في القرن العشرين، ولم تثبت صحتها إلا بعد ذلك بعشرات السنين عندما رصد الفلكيون كسوف الشمس من أماكن مختلفة في العالم[3].

1 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 161.

2 المصدر السابق، نفس الصفحة، ومايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم 10 ص 45.

3 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة ص 46 .

ولأينشتاين أيضًا نظريات أخرى هزَّت الرياضيات والفيزياء، فمن اكتشافاته المهمة في الفيزياء قانون معادلة الطاقة والكتلة، وبهذه المعادلة يمكن حساب كمية الطاقة المنطلقة من ذرة يورانيوم بمعلومية كتلتها.

ومن اكتشافات أينشتاين أيضًا اكتشافه لظاهرة كهربائية، وهي ظاهرة انبعاث إلكترونات من أسطح الفلزات نتيجة سقوط ضوء ذي ترددٍ مناسب عليها، وقد أثبت أن الضوء في هذه الحالة كالجسيمات.

وهو صاحب المعادلة المشهورة التي تقول:

الطاقة = الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء!

وهذه المعادلة تقيس بالضبط كمية الطاقة التي تنطلق من ذرة يورانيوم، أي عندما تتحول الذرة إلى طاقة حرارية[1]!

وفي سنة 1921م حصل أينشتاين على جائزة نوبل في الفيزياء؛ تقديرًا لأبحاثه عن الظاهرة الكهروضوئية.

ولأينشتاين أبحاث كثيرة، من أهمها: (معنى النسبية) الذي نُشِرَ سنة 1923م، وكتاب (بُناة الكون) ونُشِرَ سنة 1932م[2].

وأينشتاين هو أول من طلب إلى الحكومة الأمريكية أن تعجل بإكمال القنبلة الذرية قبل أن يهتدي إليها الألمان، ويقال: إنه ندم على ذلك فيما بعد!

ولأنه يهودي فقد هرب من النازية سنة 1933م إلى أمريكا، وحصل على الجنسية الأمريكية، وظل أستاذًا في جامعة برنستون حتى وفاته سنة 1955م[3].

وقد ذكرنا قصة هذا الرجل مع اختلافنا الشديد معه في آرائه السياسية؛ فقد كان يهوديًا متعاطفًا كثيرًا مع دولة إسرائيل، وصهيونيًا متطرفًا، وكان من أكبر من أيَّدوا إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وقد تمكن من جمع دعم مالي كبير من كل أنحاء العالم للعصابات اليهودية الثلاث التي شاركت في بناء دولة إسرائيل، ونظير ذلك طلب منه اليهود أن يكون أول رئيس لدولتهم الغاصبة لكنه رفض.. فذكرنا قصته العلمية لنأخذ العبرة والعِظَة منها، والحكمة ضالَّة المؤمن..

---

1 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة ص 46 .
2 انظر أكرم عبد الوهاب: 100 عالم غيروا وجه العالم ص 161 .
3 انظر مايكل هارت: الخالدون مائة ص 46، 47 .

المبحث الخامس: دور العلم في حياة جورج سارتون

(1302 – 1375هـ / 1885 – 1956م)

يُعدُّ بحق – كما يصفه الدكتور إبراهيم مدكور في تقديمه لكتابه (تاريخ العلم) – رأس المشتغلين بتاريخ العلم في نصف القرن الأخير، اتجه نحوه منذ عهد الشباب، ووقف عليه حياته كلها، وقلَّ أن تفرَّغ باحثٌ لموضوع مثلما فعل[1]!!

وفي وصف بليغ وترجمة دقيقة له من قِبَل مجلة (المجمع العلمي العربي) الذي هو عضو فيها جاء عنه النص التالي: "أخلص الحب للعرب ولغتهم، وجلا فضل علمائهم على العالم القديم في تجرُّد وإنصاف"[2].

إنه جورج سارتون "Georges Sarton" المستشرق البلجيكي، والذي يُعَدُّ في مصافِّ كبار العلماء، حتى كان رئيسًا للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم، ورئيس شرفيًّا لجمعية تاريخ العلوم الأمريكية، وكان عضوًا في عشرة مجامع علمية دولية، إضافة إلى منحه ست شهادات دكتوراه فخرية!!

تقدَّم إلى جامعة "جان" البلجيكية، حيث مسقط رأسه برسالة للدكتوراه موضوعها "ليونارد الفنسي" وكانت هذه نقطة البدء في حياته العلمية الحافلة، ومنذ ذلك التاريخ أخذ يحاضر ويؤلِّف في العلم وتاريخه؛ فحاضر في بلجيكا وإنجلترا، ثم رحل إلى الولايات المتحدة عام 1916م، فكان مدرس (تاريخ العلوم) في جامعة هارفارد (1917 – 1949)، وهناك امتدَّ نشاطُه إلى كبريات الجامعات الأمريكية، يحاضر فيها ويراسل، وينشيء جيلاً من الباحثين.

وزار سارتون مصر وبلاد الشام وأفريقيا الشمالية سنة (1931 – 1932م)، وألقى محاضرات حول بيان (فضل العرب على التفكير الإنساني)[3].

مصنَّفاته

---

1 جورج سارتون: تاريخ العلم، تصدير إبراهيم مدكور ص 10.

2 مجلة المجمع العلمي 31/ 678 – 680 – الزركلي: الأعلام 2/ 145.

3 انظر: الأعلام 2/ 145، تاريخ العلم، تصدير إبراهيم مدكور ص 10، 11.

أما عن **مصنَّفاته** فقد كتب وألَّف كثيرًا، ولعلَّه لم يكتب في شيء إلا في العلم وتاريخه، أو ما يتصل بهما عن قرب، وكان أجَلَّ كتبه: (**المدخل إلى تاريخ العلوم**) بالإنجليزية، وهو يقع في خمس مجلدات، خصَّ منه تاريخ العلوم عند العرب بجزء وافر.

وله أيضًا: (**حضانة الشرق الأوسط للثقافة الغربية**)، محاضرة ترجمها إلى العربية عمر فروخ.

وله كذلك: (**تاريخ العلم**) الأول والثاني ترجمتهما إلى العربية لجنة نشر مؤسسة فرانكلين.

وكان سارتون أيضًا قد أنشأ مجلتين إنجليزيتين علميتين، وُقِفَتا على تاريخ العلم، هما: (إيزيس) و(أوزيريس)، فأصدر منها 43 مجلدًا، وتخلَّى عن الإشراف عليهما بعد ذلك لبعض العلماء[1].

منهجه العلمي

وأما عن **منهجه وطبيعة** عمله في مصنَّفاته؛ فيقول الدكتور إبراهيم مدكور: "وسارتون أخيرًا عالمٌ بأوسع معاني الكلمة، يعرض لقضايا العلوم فيعالجها معالجة الملِمّ بأطرافها، الخبير بدقائقها، تراه أحيانًا كيماويًا متخصصًا، وأخرى طبيبًا متبحرًا، ثم ينتقل إلى الرياضة والفلك، فيبسط نظرياتهما بسطًا شافيًا، ولم يقف عند العلوم الطبيعية والرياضية، بل جاوزها إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية من تاريخ وجغرافيا، واقتصاد واجتماع، وأدب وسياسة، باحثًا في ذلك كله عن أصوله الدينية والخرافية، وموجهًا إياه وجهة فلسفية عامة، ومحاولاً ربطه بالتكنولوجيا والتطبيقات العلمية التي لجأ إليها الإنسان منذ فجر التاريخ، ومع هذا فهو لا يؤرِّخ لعلمٍ بذاته، وإنما يتتبَّع تطور العلم البشري منذ بدء الخليقة إلى اليوم"[2].

والحقيقة أن **أهمية سارتون في كتاباته** لم تكمن فقط في أنه أكثر المستشرقين إنصافًا، وإنما لأنه لا يمثل عالما واحدًا أو كتابًا واحدًا، بل هو فريق ضخم من العلماء والباحثين، وموسوعته الضخمة (تاريخ العلم) أصبحت المرجع الرئيسي والمنهل الأكثر اعتمادًا لدى جميع المستشرقين والكتاب ومراكز البحث العلمي، بل أيضًا لمؤلِّفي الموسوعات العامة في الغرب**!!**

ففي هذه الموسوعة يحدثنا سارتون عن العلم في التاريخ الإنساني، وفي العالم كله، في أوربا وآسيا وأفريقيا، ولا يترك شعبًا واحدًا أسهم في الحضارة الإنسانية – ولو بالقليل – إلا ويذكر فضله ودوره بالحق.

ويسير سارتون بالتطور العلمي ابتداء من عصور الفراعنة، ثم الإغريق، ثم الدولة البيزنطية، حتى يصل إلى ظهور الحضارة الإسلامية.

---

1 انظر المصدرين السابقين.

2 انظر: تاريخ العلم، تصدير إبراهيم مدكور ص 13.

ويقسِّم سارتون عصور التاريخ بأسماء أبرز العلماء وأصحاب الفضل على الحضارة الإنسانية في عصرهم:

فالنصف الثاني من القرن الثامن الميلادي يسمى: "عصر جابر بن حيان".

والنصف الأول من القرن التاسع الميلادي يسمى: "عصر الخوارزمي".

والنصف الثاني من القرن التاسع الميلادي يسمى: "عصر الرازي".

والنصف الأول من القرن العاشر الميلادي يسمى: "عصر المسعودي".

والنصف الثاني من القرن العاشر الميلادي يسمى: "عصر أبو الوفا البوزجاني".

والنصف الأول من القرن الحادي عشر يسمى: "عصر البيروني".

والنصف الثاني من القرن الحادي عشر يسمى: "عصر الخيّام".

والنصف الأول من القرن الثاني عشر يسمى: "عصر ابن زهر الأندلسي".

والنصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي يسمى: "عصر ابن رشد".

والنصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي هو: "عصر الترجمة من العربية إلى أوروبا".

يقول الدكتور أحمد شوقي الفنجري معلِّقًا: "ولهذا التقسيم وهذه الأسماء مغزى كبير يجب أن لا يفوتنا؛ فمعناه أن الحضارة الإسلامية كانت في تلك العصور سيدة الدنيا بغير منافس ولا منازع، مما حدا بسارتون أن يسميها بعصور العلم الإسلامي"[1]. وفي ذلك يقول (سارتون) بعد أن يستعرض كل الحضارات المعاصرة من اليابان والصين حتى إنجلترا وإسكندنافيا: "ولننتقل الآن إلى الإسلام، فكأنما انتقلنا فجأة من الظِّلِّ إلى الشمس الساطعة، ومن العالم النائم إلى عالم يعج بالحركة والطاقة والحيوية والإنتاج"[2].

ويستطرد سارتون بأن العالم الإسلامي نفسه كان في سباق مع نفسه نحو قمة الحضارة.. فكانت هناك منافسة حضارية علمية بين مسلمي الغرب الإسلامي وبين مسلمي الشرق الإسلامي، بل كان هناك سباق بين أبناء الدولة الواحدة الذين ينتمون إلى عناصر مختلفة، من عرب وفرس وأتراك وبربر وغيرهم؛ فقد دفع الإسلام في هؤلاء جميعًا طاقة لا تعرف الكلل.

1 انظر أحمد شوقي الفنجري: علوم المسلمين ص24.

2 سارتون: مقدمة في تاريخ العلم 1/695.

ويرد سارتون على بعض المؤرخين الذين طغت لديهم الروح العنصرية والصليبية على روح العلم والتفتح؛ فيقول: إن بعض المؤرخين يحاولون أن يبخسوا ما قدمه العرب والمسلمون للعالم، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة و لم يضيفوا إليها شيئًا، ويرد عليهم قائلاً: إن هذا الرأي خطأ جسيم؛ فقد كان العرب أعظم معلِّمين في العالم، وأنهم زادوا على العلوم التي أخذوها و لم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء[1].

وقد ظهرت قضية العلم ودوره البارز في حياة سارتون حين قال: إنه عندما وصل في تأريخه إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين، حيث بدأت الحضارة الإسلامية تصعد بسرعة مذهلة، ويطغى نورها على كل ما سواها في شتى أنحاء المعمورة، **لم يستطع أن يكتفي بمعلومات مساعديه، رغم أنهم فريق كبير من علماء التاريخ الإسلامي، فاضطر أن يدرس اللغة العربية في هذه السِّن الكبيرة حتى يستطيع بنفسه أن يلاحق هذا الفيض المتفجر من العلم والإنتاج**[2].

وفاته

على أن سارتون بقي شعلة وهّاجة في سماء العلم وإلى أن لفظ النفس الأخير، حتى إنه بعد أن اعتزل التدريس عام 1951م، ويوم وفاته كان قد أعدَّ العُدَّة لرحلة قصيرة كي يلقي محاضرة في مونتريال، ولكنه اضطر أن يعود من الطريق إلى منزله ليسافر السفر الأخير سنة 1956م[3].

المبحث السادس: دور العلم في حياة ستيفن هوكينج

ستيفن هوكينج.. أستاذ الكونيات ومتحدِّي الإعاقة

يُعَدُّ **ستيفن هوكينج** أحد ألمع فيزيائيي القرن العشرين، ومن أبرز علماء الكونيات الذين تصدَّوا لأصعب الأسئلة على مرّ التاريخ: "خلق الكون ومصيره"، حتى لُقِّب بـ "العقلية الفيزيائية الثانية بعد نيوتن"، وقد اعتبرت نظريته عن أصل الكون ونهايته تحولاً في هذا الاتجاه، خاصة وأنه ركز جهوده طوال

1 science from homer to omar khayam. The life of science (Essays in the history of civilization)

2 سارتون: مقدمة في تاريخ العلم ا/ 45.

3 انظر: تاريخ العلم تصدير إبراهيم مدكور ص10.

العقود الماضية على التوحيد بين "فيزياء الكم" و"نسبية إينشتاين"، وكانت له أبحاث في العلاقة بين الثقوب السوداء والديناميكا الحرارية، ودراسات في التسلسل الزمني.

ورغم أنه "معاق" وعاجز عن الحركة وعن الكلام إلا إنه كان يقول (إليكترونيًا) في تحدٍ: "لا أشعر بأنني شخص معاق، وإنما مجرد شخص مصاب بتعطل العصب الحركي، وذلك كما لو كنت مصابًا بعمى الألوان. أظن أن من الصعب وصف حياتي بأنها عادية، لكنني أشعر أنها عادية روحيًا"[1]!! فكان مثالاً وأنموذجًا في التحدي والصبر ومقاومة المرض، وإنجاز ما عجز عنه الأصحاء.

وكان هوكينج قد أصيب بمرض عصبي وهو في الحادية والعشرين من عمره، جعله مقعدًا تمامًا غير قادر على الحراك، وهو مرض التصلب الجانبي "ALS" المميت والذي لا دواء له، حتى إن الأطباء ذكروا أنه لن يعيش أكثر من سنتين، إلا أنه عاش مدة أطول من ذلك، واستطاع أن يتفوق على أقرانه الأصحّاء رغم أن أيديهم كانت سليمة، وكانوا يستطيعون كتابة المعادلات المعقَّدة، وإجراء الحسابات الطويلة على الورق، وكان هو – وبطريقة لا تصدق – يجري هذه المعادلات وتلك الحسابات في ذهنه، حتى جاءه اليوم الذي كان يفخر فيه بأنه حظي بذات اللقب وكرسي الأستاذية الذي حظي به من قبل السير إسحق نيوتن!

ويستخدم هوكينج صوتًا إلكترونيًا بعد إجراء عملية للقصبة الهوائية، وأصبح مرتبطا بجهاز إلكتروني خاص موصول مع الكرسي، يتلقى الأوامر عن طريق حركة العين والرأس ليعطي بيانات مخزَّنة في الجهاز، وهذا الجهاز هو كمبيوتر قامت بتطويره له بشكل خاص شركة (إنتل)[2]!!

وقد حظي هوكينج بعائلة متميزة، وخصوصا زوجته "جين وايلد " التي تزوجها سنة 1965م، وإضافة إلى رصيده العلمي فقد كان يتميز بالدعابة، ومساعدة الأطفال وتدعيم مشاريع تنمية الطفولة، وشارك في مظاهرات ضد الحرب على العراق، ولم تكن محاضرة "العودة بالتاريخ إلى الوراء"، في جامعة (بيرزيت) بفلسطين في سنة 2006م هي نهاية محاضراته التي يجوب بها العالم.

نشأته وتعليمه:

وُلِدَ هوكينج سنة 1942م أثناء الحرب العالمية الثانية في أكسفورد – إنجلترا، وكان والده باحثًا في طب الأمراض الاستوائية، ومنه أخذ اهتمامه فيما بعدُ بالبحث العلمي، لكنه وجد الطب والبيولوجيا علمين وصفيين وغير دقيقين، وكان هو يبحث عن شيء أكثر جوهرية، فوجد ذلك فيما بعد في الفيزياء.

---

[1] انظر ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان) من محاضرة ألقيت في كلية الآداب جامعة حلب يوم الثلاثاء 2006/12/19 ضمن نشاطات المنتدى الثقافي لذوي الاحتياجات الخاصة، بمناسبة يوم المعاق العالمي 2006م.

[2] انظر موقع ويكبيديا على شبكة الإنترنت، الرابط:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D8%AA%D9%8A%D9%81%D9%86_%D9%87%D9%88%D9%83%D9%8A%D9%86%D8%BA

كما درست والدته أيضًا في أكسفورد في ذات الجامعة التي درس فيها والده، والتي سيدرس هو أيضًا فيها فيما بعد.

لم يكن هوكينج في المدرسة أفضل من المتوسط أبدًا، وعِلمه لم يكن مرتبًا، وكان خط يده مثار يأس أساتذته، وهو الذي كان يقول عن نفسه: "كنتُ أكثرَ مهارة في أداء الامتحانات والاختبارات من الأداء أثناء الدرس"، ورغم ذلك فإن زملاءه أطلقوا عليه اسم "أينشتاين" لذكائه وتميزه في حل المعادلات وموهبته الاستثنائية في الفيزياء والرياضيات، والتي ظهرت في سن مبكرة، حتى كان قادرًا على حلِّ مسائل رياضية في بضع ساعات لم يكن زملاؤه الطلاب قادرين على حلِّها في أسابيع[1]!!

وفي سنة 1962م حصل هوكينج على درجة البكالوريوس في الفيزياء من جامعة أكسفورد، وفي سنة 1966م حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من قسم الرياضيات التطبيقية والفيزياء النظرية في جامعة كمبريدج، وفي سنة 1974م أصبح عضوًا في الجمعية الملكية، والتي هي إحدى أقدم المنظمات العلمية على وجه البسيطة، ثم تسلَّم في العام 1979م كرسيَّ الرياضيات اللوكاسي في جامعة كمبردج، وهو منصب كان يحتله العالم العظيم إسحق نيوتن، وشغله أيضًا العالم بول ديراك، وهما من أكابر العلماء الذين اهتموا باللامتناهي في الكبر واللامتناهي في الصغر، وقد كان هوكينج – كما يقول كارل سيغان – : "خليفتهما بكل جدارة"[2].

أهم إنجازاته:

في سنة 1960م نشر هوكينج نظريته الكبرى الموحدة عن أصل الكون، وفي سنة 1971م وبالتزامن مع عالم الرياضيات روجر بنروز، أصدر نظريته التي تثبت رياضيًا، وعبر نظرية النسبية العامة لاينشتاين، أنَّ الثقوب السوداء، أو النجوم المنهارة بالجاذبية، هي حالة تفرُّدية في الكون "أي أنها حدث له نقطة بداية في الزمن".

وفي سنة 1974م أثبت نظريًا أن الثقوب السوداء تصدر إشعاعًا على عكس كل النظريات المطروحة آنذاك، وسُمِّي هذا الإشعاع باسمه "**إشعاع هوكينج**"، واستعان بنظريات ميكانيكا الكم وقوانين الديناميكا الحرارية.

ومع معاونه جيم هارتل من جامعة كاليفورنيا، طوَّر هوكينج نظرية اللاحدود للكون التي غيرت من التصور القديم للحظة الانفجار الكبير عن نشأة الكون، إضافة إلى عدم تعارضها مع أن الكون نظام منتظم ومغلق.

---

[1] انظر المصدرين السابقين.

[2] انظر ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان).

وعمل ستيفن هوكينج على القوانين الأساسية التي تحكم الكون، ومن المنشورات التي صدرت له هناك: "النسبية العامة"، و"300 عام من الجاذبية".

وكان تقديم آخر ما توصل له العلم، بخصوص خلق الكون وتطوره، إلى الجمهور العريض شغل هوكينج الشاغل، فقرَّر بعد سلسلة المحاضرات التي ألقاها في هارفارد تأليف كتاب شعبي عن الزمان والمكان يستهدف الجمهور العريض، فكان الكتاب "**موجز تاريخ الزمن**"، والذي حقق أرقام مبيعات وشهرة عالية، وعُدَّ من أكثر الكتب العلمية شعبية على الإطلاق، ودخل في سِجِل جينيس للأرقام القياسية بسبب طول الفترة التي بقي فيها على لائحة الكتب الأكثر مبيعًا[1].

وفي تقديمه للكتاب يقول كارس ساغان: "إنه أول كتاب مليء بالهدايا من كل نوع يقدمها هوكينج للجمهور العادي من غير المختصين، إنه ينبيء عن العمل الفكري الذي بذله مؤلفه، وفيه من التشويق بمقدار ما فيه من التنويع. إن هذا الكتاب حافل بالرؤى النفاذة فيما يخص حدود الفيزياء وعلم الفلك وعلم الكون.."[2].

ويعرض هوكينج في هذا الكتاب، وبلغة علمية بسيطة، مسيرة تطور فهم الإنسان للكون، وأحدث ما اكتشفته علوم الكونيات، كما يعرض للنظريتين الرئيسيتين في القرن العشرين: النسبية العامة والميكانيك الكمومي، والمحاولات الرامية لتوحيد الفيزياء عبر دمجهما بنظرية واحدة. والكتاب متوافر باللغة العربية، وقام بترجمته الدكتور أدهم السمان.

وفي سنة 1993م قدم كتابًا ثانيًا هو "الثقوب السوداء والأكوان الطفلة ومواضيع أخرى"، وهو كتاب يتضمن مجموعة من المواضيع المتفرقة كتبها هوكينج على مدى ستة عشر عامًا، تعكس حالته المعرفية في أوقاتها، وهو متوفر أيضًا باللغة العربية، كما قدَّم سنة 2001م كتاب "الكون في قشرة جوز".

ومتابعةً لإصداراته القيمة في مجال الكون، كان هناك أيضًا كتاب "كون ستيفن هوكينج" الأكثر تبسيطًا، والذي قرَّر زميله في قسم الفيزياء في كامبردج العالم "ديفيد فيلكن" تأليفه بعد أن أنجز ستَّ حلقات مع هوكينج في محطة البي بي سي عن الكون ونظرية كل شيء، وكانت هذه الحلقات قد لاقت رواجًا كبيرًا، وقد نُشِر هذا الكتاب أيضًا باللغة العربية سنة 2006م.

ويذكر فيلكن في مقدمة كتابه حادثة تدل على تواضع هوكينج، حيث يقول: ".. أرسلت له بعض الملاحظات ليبدي أفكاره وتصويباته حولها، وكان منها ما كتبت: (ستيفن هوكينج، المعترف به كأحد رواد المرجعيين في الثقوب السوداء)، إلا أن الأوراق المنسوخة قد أُعيدت إلى مدونًا بهامشها ملحوظات واضحة

[1] موقع ويكيبيديا على الرابط السابق.

[2] انظر ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان).

بخط سو مازي، ممثلة لأمانة ستيفن العلمية، حيث وضعت علامة بحذف السطر الذي كتبته وأُضِيف بـــدلاً منه: (ستيفن هوكينج، الذي شارك في دراسة الثقوب السوداء)"[1].

الجوائز:

صنع هوكينج لنفسه اسمًا في عالم الابتكارات والعلماء، على الرغم من إعاقته الجسدية الكبيرة التي تمنع أي شخص غيره من القيام بأي عمل أو كسب للرزق، ناهيك عن الاختراع ومقارعة العلماء، وإثبات نظريته أمام الكثير من كبار العلماء في هذا العصر.

وقد استحق بعد أن يحصل على اثنتي عشرةَ مرتبةَ شرفٍ علمية، والعديد من الأوسمـــة والجـــوائز، إضافة إلى عضويته في الجمعية الملكية، وجمعية العلوم الوطنية[2].

وفي النهاية يقول هوكينج: "... بالتأكيد أنا أسعد الآن؛ فقد كنت قبل إصابتي بمـــرض العصـــب الحركي ضجرًا من الحياة، لكن فكرة الموت المبكر جعلتني أعي أن الحياة تستحق أن تعاش فعلاً، فثمة الكثير الكثير مما يمكن للمرء أن يفعله فيها. إنَّ لدي شعورًا بأنني أنجزتُ شيئًا متواضعًا، لكنَّه إسهام ذو مغـــزى في المعرفة الإنسانية، أنا محظوظ جدًا، لكن كل شخص يستطيع تحقيق شيء إذا حاول ذلك بجدية كافية"[3].

---

[1] ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان).

[2] انظر جريدة الأيام الفلسطينية، عدد السبت 16 كانون الأول 2006 = 26 ذو القعدة 1427 مقال ليوسف الشايب، بعنوان: "يعود بالتـــاريـــخ إلي الـــوراء" في جامعة بيرزيت، البروفيسور ستيفان هوكينج .. عبقريته في الفيزياء وحكاية تحديه للـــمرض مثار إعجاب العالـــم! وذلـــك بعـــد قـــدوم هوكينج ستيفن جامعة بيرزيت.

[3] انظر ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان).

الخاتمة

"الأمل المنشود.. يبدأ بالهمِّ، فتثور الهمَّة، فيحدث التغيير".. تلك هي الخطوات.. وهذه هي السُّنة الكونية..!!

لا مجال للإحباط أو اليأس.. ولا وقت للقعود أو الكسل، أو البكاء على اللبن المسكوب..

فإمّا أن نعود إلى عصر صناعة التاريخ وبناء الحضارة، وإما أن يكون دورنا مجرد تدوين ذلك التاريخ، والتباهي بتلك الحضارة التي ولَّت!!

وإن صناعة التاريخ تلك وبناء الحضارة هذه، ليُحتِّمان علينا نبذ الإحباط بالكلية، مهما كان الواقع، ومهما كانت الآلام والجراح..

فالواقع وإن كان أليمًا، حتمًا سيتغير، وحتمًا سيحصل قيام بعد السقوط.. وهي سنة الله في تعاقب الأمم والحضارات، والتي استثنى I من بينها الأمة الإسلامية، في أنها أمة لا تموت، وأنها أبدًا في قيام..!!

فليس من سنن الله مع المسلمين ألا يتبع سقوطَهم بعثٌ وقيام من جديد، فذاك لا يحدث إلا مع أمم الأرض الأخرى غير المسلمة؛ إذ الغالب على سقوطها هو الاندثار بلا رجعة، حتى وإن طال أمد قيامها وازدهارها.. ومن يقرأ التاريخ يعرف ذلك!!

وما حضارة الفراعنة، والإغريق واليونان، وإمبراطوريتي فارس والروم، وامبراطورية إنجلترا التي "لا تغرب عنها الشمس".. عنّا ببعيد!! يقول تعالى: (**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**[1]) وقال أيضًا: (**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**[2]).

غير أن ذلك القيام ليس فقط لأننا مسلمون.. وإنما هو يتوقف على ما إذا كنا أهلاً له أو غير أهل له.. "**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي؛ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا**"[3].. وهنا يأتي دور المسؤولية الفردية.

---

1 (المجادلة: 21).

2 (النور: 55).

3 البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب (2602)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب في قوله تعالى "وأنذر عشيرتك الأقربين" (204).

ما علينا إلا أن نتسلح بالأسباب؛ فنعتقد الاعتقاد الجازم بنصرة الله وقدرته على تحقيق مساعينا، ثم تفعيل الأخوة والوحدة ونبذ الفرقة، مع تمكين العلم ونشر الدين، وتحقيق العدل بين الحاكم والمحكــوم.. ثم ليكن شعار تلك المرحلة: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِـــهِ عَـــدْوَّ اللّـــهِ وَعَدُوَّكُمْ1)..

فالله Y ليس بينه وبين أحد من البشر نسبٌ، وفي ذات الوقت فهو سبحانه لن يحاسب الناس يوم القيامة بالجملة ولا بالمجموعة، وإنما سيحاسبهم فردا فردًا.. (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عَلَيْكَ حَسِيبًا2) وإنقاذ الإنسان نفسه من النار إنما هي مسؤوليته وحده وبالدرجة الأولى، ولا ينفعه في ذلك أنه كان تحت تأثير غيره، أو نحوه..

وعليه.. وكما أن نبوة نوح ولوط عليهما السلام لم تشفع لزوجتيهما لّما كانتا كافرتين، ولا أضرَّ فساد فرعون وفسقُه بزوجته آسية بنت مزاحم؛ طالما كانت قائمة بواجبها في الإنكار عليه.. فإنه لا يحق لنا أن نكون في موقف السلبي الناقد الناقم..

بمعنى أنه ليس علينا أن نوجه النقد أو اللوم لغيرنا، سواء كانوا حكامًا أو محكومين، باعتبارهم هم المسئولون عما تعانيه الأمة، وعما تواجهه من أزمات.. أو حتى إلى عدوٍ من الخارج، نتهمه بالتــآمر علـــى تخلفنا.. وإن كان بالفعل!!

فالمتضرر في النهاية هو الأمة، ويأتي في مقدمتها الفرد الذي هو لبنتها..!!

يقول محمد إقبال: المؤمن الضعيف يتعلَّل بالقضاء والقدر، والمؤمن القوي هو قضاء الله وقـــدره في الأرض[3]..

وهذا يعني أن القضية إنما تبدأ من الفرد؛ إذ أن ارتقاء الفرد بنفسه إنما يعني خطوة مهمة نحو ارتقاء الأمة، وخطوة جادة على طريق انتزاعها من وحل التخلف وذل التبعية، وما ارتقـــاء الأمـــة إلا بارتقـــاء أفرادها..

فالمسئولية الفردية إذن لا يمكن تجاهلها على الإطلاق في هذا الشأن، بل إن الوعي الكامل بها قـــد يحولها إلى مسؤولية جماعية، من شأنها أن تكون قادرة على المساهمة في مواجهة ذلك الواقع المرفوض..

ومن ثم فالبداية بك ومنك..

1 (الأنفال: 60).
2 (الإسراء: 13، 14).
[3] أبو الحسن الندوي: شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ص66.

والعلم هو أول الطريق..

والإخلاص يعززه ويعطيه الحصانة..

ويأتي الإتقان في العمل - أي عمل - ليضع التاج على الرؤوس..!!

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[1]).

1 (غافر: 44).

الفهرس

مقدمة الكتاب 2
الباب الأول: أمة الإسلام والعلم 5
الفصل الأول: العِلْمُ فِي الْمِيزَانِ الإِسْلامِيّ 6
الفصل الثاني: أَنْوَاعُ الْعُلُومِ 15
الفصل الثالث: قِرَاءَةٌ فِي وَاقِعِنَا الْعِلْمِيّ 20
الفصل الرابع: الإِسْلامُ وَعُلُومُ الحَيَاة 39
المبحث الأول: علم الجرح والتعديل 72
المبحث الثاني: علم الطب في الحضارة الإسلامية 80
المبحث الثالث: علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية 105
المبحث الرابع: علم البصريات في الحضارة الإسلامية 133
الفصل السادس: آراء المستشرقين في الحضارة العلمية الإسلامية 147
الباب الثاني: صناعة العلماء 160
الفصل الثاني: جِهَادُ الْعُلَمَاءِ 170
الفصل الرابع: أَخْلاَقُ الْعُلَمَاء 203
الفصل الخامس: تَنْشِئَةُ الْعُلَمَاءِ 240
الفصل الأول: دور العلم في بناء الحضارات القديمة 274
الفصل الثاني: دور العلم في بناء الحضارة الإسلامية 309
مدينة قرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) 340
الفصل الثالث: دور العلم في بناء بعض الحضارات الحديثة 374
الفصل الأول: دور العلم في حياة علماء الشرع القدامى 410
الفصل الثاني: دور العلم في حياة علماء الحياة القدامى 454
الفصل الثالث: دور العلم في حياة علماء الشرع المعاصرين 486
الفصل الرابع: دور العلم في حياة علماء الحياة المعاصرين 520
علي مصطفى مشرَّفة.. عالم الذرة الفريد!! [1935م – ...] 521
ميلاده ونشأته 530
أهمُّ أعماله 531
جوائز 532
من مؤلَّفاته 532
منهجه العلمي والفكري 532
أحمد زويل.. رائد كيمياء الفيمتو 533
الفهرس 561